رواية

رأفت الهجان



رأفت الهجان

«رأفت الهجان» ليس اسمه الحقيقي، ليس اسمه في مصر حيث ولد وعاش، كما أن «ديڤيد شارل سمحون» ـ وهو الاسم الذي سوف نطلقه عليه ـ ليس اسمه الذي عرف به في إسرائيل، حيث ذهب إليها في الخمسينيات كبطل من أبطال الصهيونية، وغادرها بعد عشرين عامًا كواحد من أصحاب الملايين، ورجل من رجال أعمالها البارزين!

«رأفت الهجان» ليس اسمه الحقيقي، لكنه الاسم الذي اختاره له صديق عمره، وطوق نجاته، والخيط الخفي الذي ارتبط به ارتباط الجنين بحبله السّري... عشرون عامًا وهما يلتقيان في كل يوم، يتحدثان، يتشاجران، يمسك كل منهما بخناق الآخر، ويتناجيان معًا في حب مصر!

«عزيز الجبالي» ـ وهذا أيضًا ليس اسمه! ـ ضابط المخابرات الذي تعرف عليه وهو في السادسة والعشرين من عمره، ثم فرقهما القدر وقد تخطى الخمسين.

حدث كل هذا دون أن يلتقيا مرة واحدة، أو يرى أحدهما الآخر، دون أن يتبادلا الحديث إلا من خلال خطابات كتبت بالحبر السري، أو صفير متقطع لجهاز إرسال أو استقبال.

أقول: إذا كان الأمر كذلك فإني أتساءل قبل أن أخط كلمة واحدة في هذا العمل:

هل يستطيع الخيال أن يرتفع إلى مستوى الحقيقة؟

مجرد سؤال لا يمكن أن تكون إجابته عندي... غير أني أقول: هذه قصة رجلين من جيل صنع لمصر، وللأمة العربية كلها، معجزات... تحاول بعض قوى الشر أن تطمسها!!





www.shorouk.com

رأفت الهجـــان

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٤٦٣٩/٢٠٠٩
ISBN 978-977-09-2748-5

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر _ القاهرة _ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)+
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

صالح مرسي

رأفت الهجان

رواية

دار الشروق

المحتويات

الجزء الثالث

إهـــداء

إلى شَباب مصْر

صالح مرسِي

حَديث خَاص
حَوْل قضيَّة عَامَّة

في علم المخابرات، هناك قاعدة عامة تدرس لهؤلاء الذين يخطون خطواتهم الأولى في هذا الميدان، هذه القاعدة تقول: لا دخل للعواطف في العمل!

وهي واحدة من القواعد الذهبية التي كان الأستاذ «إسماعيل» يلقنها للأجيال الأولى من رجال المخابرات العامة المصرية... والأستاذ «إسماعيل» واحد من أعظم أساتذة هذا العلم... اسمه ليس «إسماعيل» بطبيعة الحال، ثم... هو لم يمارس العمل كضابط عمليات... لكنه رجل وضعته الظروف ـ ظروف بناء مصر من فراغ كان ينخر عظامها ـ في موقف المواطن الخلاق، الذي أصبح عليه، بين يوم وليلة، أن يدرس ويتعلم ويبحث ويحقق ويحلل ويتابع، ثم يتشرب العلم بجهد أسطوري، كي يسقيه للشباب كالشراب الطهور!

«لا دخل للعواطف في العمل» قاعدة يحتفظ بها رجال المخابرات في صدورهم احتفاظًا يصل إلى حد من القسوة ـ ربما على أنفسهم قبل الآخرين ـ فوق ما يطيقه البشر... ذلك أن مثل هؤلاء الرجال، لا يتعاملون مع حقائق ذاتية أو فردية، ولكنهم يتعاملون مع حقائق عامة... حقائق لا تمس أشخاصهم ولا عواطفهم، وإنما تمس دولهم وشعوبهم

وأممهم... ولقد يدرب بعضهم نفسه تدريبًا شاقًا على مواجهة المآسي والتعامل معها بعقل بارد وقلب ميت... ذلك أن خللًا بسيطًا ووحيدًا، يحدث نتيجة لتدخل العاطفة في لحظة عشوائية، قد يدمر عمل سنوات طويلة من التدبير والسهر والصبر، وقد يجر على الأمة من المخاطر ما لا يطيقه ضمير فرد أو حتى ضمير جهاز بأكمله!

غير أن رجل المخابرات، أيًا ما كان عقله باردًا وقلبه ميتًا، فهو في البداية والنهاية إنسان... إنسان له قلب يخفق أراد أم لم يرد، ووجدان - مهما حاول صياغته - ينتمي بالضرورة إلى ما يسمى بالعاطفة... هو إنسان قد يستطيع لعام أو عامين أو ثلاثة... وربما لعشرين عامًا كاملة - كما في قصتنا هذه - أن يتعامل بهذا العقل البارد والقلب الميت مع «مادته» أو «موضوعه» أو «قضيته»، يبذل كل ما يستطيع من جهد لكيلا يخطئ خطأ واحدًا، ولا يسمح بحال من الأحوال لعواطفه التي قد تجيش وتفور وتضطرم في صدره أن تتدخل ولو لثانية واحدة فيما يجب ألا تتدخل فيه... قد يستطيع رجل المخابرات أن يصنع هذا ... ولكن، هل يستطيع أن يتحكم فيما لا حكم له عليه؟

هناك قاعدة ذهبية أخرى - لقنها الأستاذ «إسماعيل» للرجال أيضًا - تقول: «إياك أن تقع في حب العميل!».

والعميل هنا هو الجاسوس... والجاسوس - رغم بشاعة الكلمة وما تحويه من معان قد تقشعر لها الأبدان - هو في البداية والنهاية أيضًا إنسان... وهو كإنسان واحد من ثلاثة أنماط رئيسية استقر عليها رأي جهابذة هذا العلم منذ أن كان التاريخ والمجتمعات والحروب والصراع وحتى يومنا هذا... هذه الأنماط الرئيسية هي:

* إنسان يعمل من أجل المادة.

* وآخر تستعبده شهواته.

* وثالث يدفعه المبدأ والعقيدة لركوب المخاطر!... وهذا النوع لا يصبح جاسوسًا، بل يطلق عليه اسم «مندوب».

وقد لا يتعاطف المرء مع هذا الذي يبيع نفسه ووطنه من أجل حفنة من المال... وقد لا يحترم هذا الذي تستعبده شهواته وملذاته وعواطفه الدنيا... ولكن كيف حتى وإن كنت رجل مخابرات ذا عقل بارد وقلب ميت كيف لا تتعاطف مع هذا الذي يضع رأسه على كفه كل يوم، بل كل ساعة، بل ـ وبلا أدنى مبالغة ـ كل دقيقة من نهاره وليله، من أجل خدمة وطنه وأمته وشعبه؟!

إن الرجل الذي يترك حياته الآمنة ـ متطوعًا ـ في وطنه ووسط عائلته، كي يخترق مجتمع العدو، ويزرع نفسه فيه... يتدين بدينه، ويتحدث بلغته، ويأكل طعامه، ويشرب شرابه، ويعيش كما يعيش أعداؤه، يتظاهر بالفرح لفرحهم، وبالحزن لحزنهم.. يحتفل معهم بنصرهم وقلبه يدمي، ويبكي لهزائمهم وقلبه يرقص طربًا... ويتحول من إنسان إلى آلة تصوير وآلة تسجيل، تحمِلُ كلتاهما إلى بلاده عبر قنوات سرية وأخطار مخيفة كل ما يستطيع أن يحصل عليه من معلومات وأخبار، أو مخاطر قائمة أو محتملة... يحيا وحيدًا حتى النخاع ومن حوله العشرات، وربما المئات، يحيطونه بالود والإجلال والاحترام، يستمعون إليه، ويُسمعونه من أنبائهم كل ما يريد أن يسمعه، يعيش في ظل، يخشى في لحظة عمياء أن يغمره الضوء فيفتضح أمره، ويتأرجح حبل المشنقة فوق رأسه كل ثانية، يلازمه في أحلامه، وفي صحوه... مثل هذا الإنسان لا يصبح جاسوسًا، بل هو بطل من نوع فريد وفذ!

ومن أجل هذا، فإنهم هناك ـ في أجهزة المخابرات في العالم ـ ينظرون إلى هذا النوع من الرجال أو النساء على أنهم يتربعون فوق قمة لا تدانيها قمة... ذلك أن ما يقوم به هؤلاء الأبطال المجهولون هو أرفع درجات الوطنية.

من هؤلاء الأبطال من ذهبت ريحهم وطواهم النسيان مع ما يطوي من أسرار الدول والشعوب، ومنهم من بقي حيًّا في «أضابير» ختمت بخاتم السرية المطلقة... ذلك أن حياتهم ـ مهما مضى عليها من خطوات الزمن ـ هي جزء لا يتجزأ من أمن شعوبهم، يدفنون كسطور على ورق في أقبية لا تصل إليها يد... وتمضي السنون، وقد تحدث مصادفة ـ في عالم لا يخضع لقانون المصادفات ـ وتُفتح الأقبية، وتخرج إلى النور قصة يندر أن يطاولها خيال!

من هؤلاء العظماء السريين: «رأفت الهجان».

و«رأفت الهجان» ليس اسمه الحقيقي، ليس اسمه في مصر حيث ولد وعاش وتربى وتشرد وسُجن، وحيث تعيش أسرته ـ حتى اليوم ـ في لهفة لسماع كلمة عنه... حي هو أم ميت، سجين أم طليق، مشرد هو أم إنه استقر بعد طول ترحال غامض، يتنقل بين السجون أم إنه يتنقل بين القصور؟

«رأفت الهجان» ليس اسمه في مصر، كما أن «ديڤيد شارل سمحون» ـ وهو الاسم الذي سوف نطلقه عليه ـ ليس اسمه الذي عرف به في إسرائيل، حيث ذهب إليها منذ ثلاثين عامًا كبطل من أبطال الصهيونية، وغادرها بعد عشرين عامًا كواحد من أصحاب الملايين، ورجل من رجال أعمالها البارزين!

«رأفت الهجان» ليس اسمه الحقيقي، لكنه الاسم الذي اختاره له صديق عمره، وطوق نجاته، والخيط الخفي الذي ارتبط به ارتباط الجنين بحبله السُّري... عشرون عامًا وهما يلتقيان في كل يوم، يتحدثان، يتشاجران، يمسك كل منهما بخناق الآخر، ويتناجيان معًا في حب مصر!

حدث كل هذا دون أن يلتقيا مرة واحدة، أو يرى أحدهما الآخر، دون

أن يتبادلا الحديث إلا من خلال خطابات كتبت بالحبر السري، أو صفير متقطع لجهاز إرسال أو استقبال.

«رأفت الهجان» هو الاسم الذي اختاره له «عزيز الجبالي» ـ وهذا أيضًا ليس اسمه! ـ ضابط المخابرات الذي تعرف عليه وهو في السادسة والعشرين من عمره، ثم فرقهما القدر وقد تخطى الخمسين.

وإذا كان «عزيز الجبالي» واحدًا من أنجب تلاميذ الأستاذ «إسماعيل»، وإذا كان مؤمنًا إيمانًا قاطعًا بالقاعدة الذهبية التي تقول إنه «لا دخل للعواطف في العمل»... كما أنه مؤمن أشد ما يكون الإيمان بالقاعدة الماسية التي تقول: «إياك أن تقع في حب العميل»؛ فلقد كانت الأوراق التي كتبها السيد «عزيز» عن هذه «العملية» ليست سوى شحنة عاطفية متفجرة... تلك الأوراق التي قدمت لي في أحد أيام الصيف الماضي بالتحديد في يونيو ١٩٨٥، فاعتذرت عن عدم قراءتها لأسباب شخصية، ثم قدمت لي مرة ثانية وثالثة في كرم لست أنكره وقد لا أستحقه، واعتذرت أيضًا... كنت أتملص محاولا الخروج من شرنقة هذا النوع «الجديد» من الأدب، وأنا أشعر أني ـ بما قدمت منه ـ قد أديت واجبي نحو وطني وأمتي العربية.

غير أني في المرة الرابعة، وما إن وقعت عيناي على أولى الكلمات في تلك الأوراق، حتى وجدتني أهوي معها إلى هوة بلا قرار... وجدتني أغيب عن الوعي لثلاث ساعات كاملة... كانت السطور «ملخصًا» كتبه «ضابط الحالة» (Case Officer)لكنها كانت ترفعني إلى السماء، ثم تهوي بي إلى الأرض في واقع أسطوري شديد الغرابة.. في سطور بعينها كانت الدموع تتفجر من عيني رغمًا عني، وكنت أحاول جاهدًا أن أوقفها، لا لأني لا أريد البكاء، ولكن لأني أريد المتابعة والدمع يمنعني... وفي سطور أخرى كنت أصفق كصبي بهره «الشجيع» على الشاشة وقد انتصر على أبطال الشرور... وعندما كنت أقرأ كيف عرض حزب «الماباي»

الإسرائيلي على «رأفت الهجان»، أو «ديفيد شارل سمحون»، أن يرشح نفسه للكنيست الإسرائيلي، أحسست بزهو من أنجب عملاقًا ... ثم...

ثم يقول «عزيز الجبالي» في مقدمة تلك الأوراق التي كتبها:

«... وأتوقع أن ينبري البعض في إسرائيل ـ مدفوعًا بالمكابرة والمغالطة ـ فيدعي أن السلطات الإسرائيلية كانت على علم بهذه العملية، وأنها كانت تسيطر عليها وتوجهها بمعرفتها ولصالحها... ولهؤلاء عندي الكثير، أقله وأبسطه أن دواعي السّرية والأمن اقتضت ـ بالضرورة ـ حجب بعض الوقائع والتفاصيل وإني أتحداهم أن يذكروا ولو واحدة ـ واحدة فقط ـ من هذه الوقائع!».

ثم...

ثم كان لا بد أن ألتقي بـ«عزيز الجبالي».

والتقيت به، وجلست إليه لأكثر من أربعين ساعة على مدى ثلاثة أشهر، وسجلت له عشرين ساعة وثلاثين دقيقة.. و... وكم ضحكنا معًا، وفرحنا معًا، ولفنا الحزن والأسى في أحيان كثيرة ... كم دمعنا وهو يحكي في تدفق وحرارة يبعثان على الحيرة والعجب حقًّا!

وإذا كانت قصص التجسس في العالم كله، إذا ما خرجت إلى النور لا تخرج بنصها وكما حدثت، لأن هذا يبدو من وجهة النظر الفنية مستحيلًا، وهو أيضًا يبدو من وجهة النظر الأمنية من رابع المستحيلات... وإذا كان الخلق الفني نوعًا من أستار السرية المفروضة والضرورية، فهو أيضًا نوع من تجميل تلك الجهامة المروعة التي تحيط عادة بالعمل السري... إذا كان الأمر كذلك، فإنه لا بد لهذا الخلق الفني الوافد والجديد أن يمتزج بالواقع «المتاح» للكاتب امتزاجًا كيميائيًا ـ إن صح التعبير ـ يستحيل بعده على القارئ أن يفرق بين الواقع والخيال.. أقول: إذا كان الأمر كذلك فإني أتساءل قبل أن أخط كلمة واحدة في هذا العمل:

هل يستطيع الخيال أن يرتفع إلى مستوى الحقيقة؟

مجرد سؤال لا يمكن أن تكون إجابته عندي... غير أني أقول: هذه قصة رجلين من جيل صنع لمصر، وللأمة العربية كلها، معجزات... تحاول بعض قوى الشر أن تطمسها!!

«ص. م.»

الجزء الأول

الفصل الأول

رسالة غامضة

كان الزائر قادمًا من ألمانيا الغربية، وكان موعد عاجل قد حُدد له مع الفريق محمد سعيد الماحي، مدير المخابرات العامة المصرية في ذلك الوقت... لذلك فما أن وصلت سيارته إلى بوابة مبنى الجهاز، حتى أفسح لها الرجال الطريق إلى الداخل، بعد أن تحقق الحراس من شخصية الضيف.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا، وكان اليوم هو أحد أيام يناير عام ١٩٧٩، وما أن هبط الشاب الوسيم من سيارته، يحمل في يمناه حقيبة أوراقه الحديثة والمزودة بأقفال مركبة تنبئ عن حرصه الشديد على ما تحويه من أوراق؛ حتى وجد من يقوده فورًا إلى مكتب المدير!

بدا الشاب من هذا النوع الفارع الطول، الشديد الأناقة، الأشقر، الملون العينين، والذي - مع كل هذا - يبدو مصريًا مغتربًا، ولقد كان يرتدي فوق بذلته معطفًا أوربيًا كان يحميه من تيار الهواء البارد الذي راح يجتاح تلك المساحة الخالية، التي تفصل بين بوابة الجهاز وباب المبنى الرئيسي.

ولا بد أن ذلك اللقاء بين مدير جهاز المخابرات العامة المصرية

وضيفه قد اتسم بكثير من الود، فلقد ترك المدير مقعده وجلس إلى جوار الضيف في الصالون الأنيق الملحق بمكتبه... وفي الحقيقة، فإن الفريق الماحي لم يكن يعرف، حتى لحظة لقائه بهذا الشاب الوسيم، والذي كان معروفًا للمصريين منذ سنوات، خاصة بعد أن اتسمت أعماله في الخارج بغير قليل من النجاح، لم يكن يعرف شيئًا عن سبب الزيارة.. كل ما كان يعرفه أن رجل الأعمال المصري الشاب «نهاد كامل» يحمل رسالة على درجة عالية من السرية من شخصية لا يستطيع أن يبوح باسمها في التليفون، وأنه يريد أن يسلم الرسالة، يدًا بيد، إلى مدير المخابرات العامة المصرية، ولا أحد غيره!

ولقد مضت الدقائق الأولى بين المدير وضيفه في تبادل كلمات المجاملة التي تسبق عادة تلك الأحاديث التي تتناول أمورًا ذات أهمية خاصة... بعد دقيقتين، وضع بين المدير وضيفه كأسان من عصير الليمون الذي تفوقت بوفيهات الجهاز في صنعه... ورشف كل منهما رشفة من كأسه، وانتهت كلمات المجاملة، ثم ساد الصمت!

توقفت عينا المدير عند وجه الشاب لبرهة... بدا له الوجه متناسق التقاطيع، توحي ملامحه بطيبة صادقة، كما أوحت نظرات العينين الملونتين بذكاء خفي... إذن، فهذا هو «نهاد كامل»... ولقد كان نهاد الآن يبتسم ابتسامة بدت للمدير حائرة، فاعتدل في جلسته قائلًا:

«إيه حكاية الرسالة دي يا سيد نهاد؟!».

قال الشاب وهو يتناول حقيبة أوراقه ويتلاعب في أقفالها المركبة:

«الرسالة معايا يا افندم!».

ران الصمت مرة أخرى حتى مزقه صوت الأقفال وهي تفتح، رفع نهاد غطاء الحقيبة وأخرج منها مظروفًا أنيقا من ذلك النوع الذي يستعمله الموسرون والأرستقراطيون في أوربا الغربية... والتقطت عينا

المدير على الفور حرفين بارزين في ركن المظروف، كان الحرفان هما: (D. S) «د. س.» تناول المدير المظروف، وبدا عليه التردد للحظة، فقال الشاب:

«تقدر سيادتك تفتحه قدامي!».

رماه المدير بنظرة تساؤل فاستطرد:

«علشان لو فيه أي استفسار، أنا مستعد أجاوب عليه!».

امتدت أصابع المدير إلى فتحة المظروف فاستجابت له، أخرج الرسالة المكتوبة على الآلة الكاتبة، وباللغة الإنجليزية، ثم فردها أمام عينيه... وكانت مكونة من سطر واحد!

«سيدي..

في اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨، توفي الهر ديفيد شارل سمحون».

وكان التوقيع بالآلة الكاتبة أيضًا: «فراو سمحون».

قبل أن يهم المدير بالحديث، بادره رجل الأعمال المصري «نهاد كامل» وهو يومئ نحو الرسالة محاولًا تفسير ما قد يكون قد جال بخاطر المدير:

«أنا طلبت منها تكتب الرسالة بالإنجليزي لأنه معروف في مصر أكثر من الألماني».

هز المدير رأسه علامة الفهم، وكان الشاب قد أغلق حقيبته، فرفع كوب الليمون إلى شفتيه ورشف منه رشفة بدت وكأنها تحية أخيرة، ثم نهض، فنهض معه المدير، وسار إلى جواره حتى باب الغرفة وهو يردد كلمات شكر مقتضبة، دلت على عنف الأفكار التي كانت تضطرب في رأسه.

والذي لا شك فيه، أن المدير كان ـ في تلك اللحظات ـ يفكر في عقد اجتماع عاجل مع واحد من معاونيه... ولذلك، فلقد صافح ضيفه عند الباب وهو يطلب إلى سكرتيره ـ الذي أحس بالحركة فنهض لاستقبال الضيف ـ أن يوصل السيد «نهاد كامل» حتى باب الجهاز الخارجي.

عندما انصرف الضيف، كانت سبع دقائق ونصف قد انقضت، منذ دخل الغرفة.

* * *

في الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم من أيام يناير عام ١٩٧٩، دخل إلى مطار القاهرة الدولي شابان في مقتبل العمر... وكانا يبدوان من رجال الأعمال الذين اعتادوا ـ في السنوات الأخيرة ـ على السفر في فترات متقاربة... ذلك أن جوازي سفرهما كانا يحملان تأشيرات عديدة لأختام عدد كبير من دول العالم شرقًا وغربًا... من اليابان، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الأول فكان أسمر الوجه، ذا ملامح خشنة وملابس شديدة الأناقة تشي بقدر هائل من الثراء المفاجئ... وكانت المهنة المدونة في جواز سفره هي: صاحب محلات كبرى ـ تحمل اسمه المدون في جواز السفر ـ في حي من أكبر أحياء القاهرة التجارية... وكان الثاني وسيمًا، ذا ملامح رقيقة وملابس أنيقة في اعتدال من يعرف معنى الأناقة، وكانت المهنة المدونة في جواز سفره هي: «مهندس تبريد»، بنفس المحلات التي تحمل اسم الأول.

كان واضحًا أنهما في طريقهما لعقد صفقة للثلاجات وأجهزة التبريد في ألمانيا الغربية، كما كان واضحًا أنهما قررا السفر فجأة في عصر ذلك اليوم، حتى يلحقا بموعد هام في الصباح بمدينة «هامبورج»... ذلك أن تذكرتيهما كانتا على طائرة الخطوط الجوية الباكستانية التي تغادر القاهرة في المساء إلى باريس، وذلك لتعذر وجود طيران مباشر إلى ألمانيا في

ذلك الوقت من اليوم وكان عليهما ـ بطبيعة الحال ـ أن يغيرا الطائرة في باريس، ليصلا في فجر اليوم التالي إلى «هامبورج».

ولقد حدث أثناء انتظارهما لموعد إقلاع الطائرة الباكستانية، أن فتح مهندس التبريد حقيبة أوراقه، وأخرج منها ورقة ـ كان واضحًا تمامًا أنها ورقة تلكس ـ وراح يقرؤها على زميله في اهتمام، ثم أخرج تذكرة السفر مؤكدًا أنهما سيصلان في الموعد... غير أنهما بعد لحظات من المناقشة، راحا يقلبان في بعض الأوراق والكتالوجات التي تحوي رسومًا لثلاجات وأجهزة تبريد من ماركة ألمانية شهيرة واستغرقا في المناقشة تمامًا، حتى نادت فتاة المطار على طائرتهما.

* * *

في ذلك الوقت، كان مكتب رئيس هيئة الخدمة السرية في جهاز المخابرات العامة المصرية، يشهد اجتماعًا برئاسة صاحب المكتب... وكان رجلًا ذا شعر رمادي، عريض الكتفين كبير الرأس، أظهر ما في ملامحه هاتان العينان اللتان تبدوان وكأنهما في حوار دائم مع أشياء مجهولة... فوق المقعدين الوثيرين المواجهين لمكتبه والملاصقين له، جلس رجلان يعبران الخطوات الأخيرة من ربيع العمر... على يمين المكتب، جلس شخص رابع فوق مقعد يسمح له بأن يلقي بظهره إلى الوراء، وأن يعقد ذراعيه أمام صدره، ويطبق شفتيه بعنف من يعاني في داخله أزمة حادة!

كان الجالس خلف المكتب يمسك بيده الرسالة الغامضة التي وصلت في صباح نفس اليوم إلى مدير جهاز المخابرات من «فراو سمحون».

كانت الرسالة ـ رغم قصرها البالغ ـ تحمل للرجال معاني كثيرة في حاجة إلى تحليل ، وفي حاجة أكثر إلى تقدير موقف... كان معنى الرسالة ـ أولًا وقبل كل شيء ـ أن «فراو سمحون» قد عرفت الحقيقة ... وهي لا تستطيع أن تعرف الحقيقة إلا من «ديفيد» نفسه... وعلى هذا،

فلا بد أنها قد عرفتها منه قبل وفاته... فلماذا لزمت الصمت طوال هذه المدة؟!

لماذا لزمت الصمت طوال ما يقرب من شهرين؟!

كان السؤال في حاجة إلى إجابة حاسمة ودقيقة في نفس الوقت... إجابة قد نعثر عليها لو أننا لاحظنا أن أسلوب الرسالة، وطريقة إرسالها في نفس الوقت، ينبئان عن خوف حقيقي وقاطع... فالمظروف الذي يحمل «البادج» الخاص باسم «ديڤيد سمحون» ـ د. س. ـ هو الدليل الوحيد على أن الرسالة قادمة من السيدة سمحون، ذلك أنه ـ أي المظروف ـ لا يحمل اسمًا ولا عنوانًا... فهو مظروف من الممكن لأي أحد أن يحصل عليه من البيت أو المكتب أو حتى من المطبعة.. ثم إن الرسالة نفسها مكتوبة على ورقة بيضاء، وليست ورقة من نفس نوع ورق المظروف ولا تحمل نفس «البادج» الذي يدل على صاحب الخطاب.. وحتى التوقيع الذي وضعته «فراو سمحون» كان مكتوبًا بالآلة الكاتبة!

إن المعنى الوحيد لكل هذا، أنها خائفة إلى حد التنصل من الأمر كله إذا اقتضى الأمر!

ألا يكون هذا الخوف، وهذا الإحساس بالخطر، هما التفسير المنطقي للسؤال الأول؟! وهو أنها انتظرت طوال تلك الأسابيع، حتى وجدت من تثق به، لتحمله هذه الرسالة وما تحويه من أسرار؟! هذا ـ على كل الأحوال ـ ما كان الرجال قد توصلوا إليه في الصباح، ولذلك كان لا بد وأن توضع كل هذه المحاذير نصب الأعين في محاولة الاتصال بها التي رأى الرجال ـ فور علمهم بوصول الرسالة ـ أنها لا بد أن تتم بأسرع ما يمكن بالفعل، أوكلوا أمر الاتصال إلى شابين من شباب الجهاز المشهود لهما بالكفاءة، وسرعان ما جهزت الأوراق وجواز السفر ولقد قال أحد الرجلين الجالسين على المقعدين المواجهين للمكتب: إنهما ـ أي الشابين ـ الآن في المطار، وإنهما

لم يجدا وسيلة يصلان بها إلى هامبورج في الصباح، سوى السفر على شركة الخطوط الجوية الباكستانية إلى باريس، ومن باريس ـ في فجر الغد ـ إلى هامبورج... وإن هذا سيكلفهما السهر والسفر طوال الليل بلا راحة... لكنهما بالتأكيد، لن يلتقيا بالسيدة سمحون إلا بعد ظهر الغد، وسيكونان قد حصلا على قدر مناسب من الراحة يجعل ذهنيهما صافيين وقادرين على استيعاب الموقف وما قد يترتب عليه من مضاعفات محتملة.

وعلى كل ـ هكذا استطرد الرجل ـ فلقد زوّدا بكل ما يحتاجان إليه من معلومات، وكل ما هو ضروري من تعليمات، وأن «عزيز» ـ هذا اسم الجالس على يمين المكتب ـ قد لقنهما بكل الاحتمالات القائمة، والتي قد تحدث أثناء عملية الاتصال التي كان المفروض أن تتم في صباح اليوم التالي!

كان واضحًا من الجدل الدائر، أن الخبر ـ خبر وفاة ديڤيد شارل سمحون ـ لم يكن مفاجأة بالنسبة للرجال، وأنهم عرفوا بخبر الوفاة في نفس اليوم الذي حدثت فيه... ومن بعض الكلمات التي تناثرت أثناء الحديث كان يمكن للمستمع أن يستنتج أن ثمة أزمة قد حدثت في ذلك اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨، وأن جدلًا على أعلى مستوى في الجهاز قد ثار حول سفر «عزيز الجبالي» ـ هذا الجالس إلى يمين المكتب معقود الذراعين مزموم الشفتين محتقن الوجه ـ فلقد أصر على الاشتراك في تشييع الجنازة في اليوم التالي، بحجة أنه: «لازم واحد فينا يكون جنبه قبل ما يغيب جوه الأرض للأبد!»... كانت الجملة تبدو حاسمة في منطقها، لكن البعض ـ ممن اشتركوا في الجدل يومها ـ كان يرى أن الشيء الذي حسم الأمر حسمًا نهائيًا، هو قول عزيز الجبالي:

«وعلشان يلاقي اللي يصلي عليه صلاة الجنازة قبل ما يندفن!».

كان ما طلبه ـ في واقع الأمر ـ ضد كل قوانين الأمن وكل الأعراف

السارية بصرامة في أجهزة المخابرات في العالم كله... ولقد كان موضوعًا في الاعتبار، أن بعض الشخصيات الإسرائيلية ذات المكانة، قد تطير إلى ألمانيا كي تشترك في تشييع الجنازة، فلم يكن «ديفيد شارل سمحون» شخصية إسرائيلية عادية، بل كان رجل أعمال بارزا، توسعت أعماله في السنوات الأخيرة فشملت مجالات حيوية شديدة الأهمية، كما كانت له علاقات اجتماعية واقتصادية بل وسياسية على درجة رفيعة داخل إسرائيل... ثم، لقد كان من الممكن أن يسافر أي إنسان آخر غير عزيز الجبالي كي يشيع الصديق الذي ذهب... وكي يصلي عليه صلاة الجنازة حسب الشريعة الإسلامية، لكن المدهش في الأمر، أن عزيز الجبالي ـ ولم تكن مكانته ولا خبرته ولا مركزه تسمح له بأن يرتكب حماقة ـ أصر على الذهاب بنفسه.. ولم يكن أمام جهاز المخابرات المصري ـ كمنظمة ـ إلا أن يضع في اعتباره تلك العوامل الإنسانية تحت شرط واحد وصارم، وهو أن تتوافر كل عناصر الأمن، وفي أقصى درجاتها، لعزيز الجبالي.

* * *

كان عزيز بطبيعة الحال قادرًا على أن يوفر هذه العناصر على أعلى درجة من الكفاءة... ولذلك، فقبل أن تغيب شمس ذلك اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨، وقبل أن يصعد عزيز إلى الطائرة في طريقه إلى ألمانيا الغربية عبر مسارات مركبة ومدروسة بعناية فائقة... كانت برقية شفرية قد خرجت من القاهرة لتصل إلى مدينة «دوسلدورف» ـ حيث محطة الوصول بالنسبة لعزيز ـ حاملة نبأ وصوله.

وهو، عندما هبطت به الطائرة في مطار «دوسلدورف» كي يركب خطًا داخليًا إلى مدينة هامبورج القريبة من «بريمن» حيث كان يعيش «ديفيد شارل سمحون»، لم يكن شيء قد زاد على هيئته سوى نظارة طبية ذات تكوين خاص يوحي بأن صاحبها طبيب ظل ينحني على

مرضاه طوال سنوات تزيد على ربع القرن... في المطار التقى بصديق كان في انتظاره، حتى إذا ما جاء صباح اليوم التالي كانا معًا في «بريمن»، وكانت ـ قبل وصولهما ـ «زيارة» قد رتبت للسيد عزيز كي يلقى نظرة أخيرة على الفقيد، وأن يعطى الفرصة كاملة، وفي أمان تام، كي يصلي عليه صلاة الجنازة حسب الشريعة الإسلامية!

رغم الحزن البالغ الذي كان يعتصر قلب عزيز على صديقه الراحل، لم يستطع إلا أن يبدي إعجابه الشديد بأصدقائه وزملائه ورجاله في ألمانيا الغربية، الذين استطاعوا ـ في زمن فوق القياسي ـ أن يرتبوا كل شيء بدقة تبعث على الدهشة... ففي الصباح المبكر لليوم الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨، كانت هناك سيارة سوداء فاخرة، تابعة لمحل «الحانوتي» الذي كان مكلفًا بإعداد جثمان المرحوم «ديڤيد شارل سمحون»، وكان عزيز يدلف إليها وقد ارتدى بذلة سوداء أنيقه وغالية الثمن، من هذا النوع الذي يرتديه الكبار في مثل هذه المهنة... وكان يضم إلى صدره كتابًا مقدسًا ـ هو القرآن بالتأكيد ـ وكان قبل أن يغادر مكمنه قد توضأ وصلى ركعتين على روح الفقيد داعيًا له بالرحمة... وعندما انطلقت السيارة في شوارع «بريمن»، كان «السيد» الجالس في الخلف يتمتم بآيات من القرآن الكريم، حتى إذا وصلت السيارة إلى بيت المرحوم ديڤيد سمحون، وعند الباب الخلفي، لا الأمامي، توقفت السيارة، وهبط منها عزيز يصاحبه المساعد ـ مساعد الحانوتي ـ الذي كان معروفًا لأهل البيت والبلدة، وكان يركب إلى جوار السائق!!

كان المساعد ـ الذي اشترك في هذه الزيارة ـ مرتاح الضمير تمامًا، لا لأن عدد الماركات الألمانية الذي حصل عليه سرًّا كان مجزيًا بحق، ولكن لأنه كان يؤدي خدمة إنسانية ودينية... فلقد قيل له ـ في مساء اليوم السابق، وبعد وصول رسالة شفرية كان مصدرها القاهرة ـ إن المرحوم «ديڤيد شارل سمحون» كان يتبع مذهبًا خاصًّا في الديانة اليهودية، يحتاج

إلى طقوس معينة، وإن هذا السيد البادي الحزن الصامت القابض على الكتاب المقدس، هو واحد من أصدقاء المرحوم، فوق أنه رجل من رجال الدين... وعلى هذا، فما أن توقفت السيارة السوداء أمام الباب الخلفي حتى فتح هذا الباب وظهر فيه رجل مسن، أنيق المظهر، بادره المساعد بالتحية فور رؤيته:

«صباح الخير فرانز!».

«صباح الخير يوهان!».

«كيف حال فراو سمحون هذا الصباح؟».

«لا تزال في غرفتها، وإن كان الحزن سيقضي عليها».

«ماذا عن الصغيرين؟».

«سوف يحضران من المدرسة بعد قليل!».

«هل كل شيء جاهز؟».

أفسح فرانز لهما الطريق:

«تفضلا من هنا».

«أرجو ألا تقلق فراو سمحون كما اتفقنا!».

«لا تخشَ شيئًا يا صديقي ... تفضلا».

قادهما فرانز العجوز ـ كبير الخدم في البيت ـ إلى حيث الغرفة التي يرقد فيها جثمان الفقيد... وعند الباب، همس المساعد في أذن كبير الخدم:

«لم لا تقدم لي فنجانًا من القهوة؟!»

ولقد فهم فرانز، على الفور، ففتح باب الغرفة موسعًا الطريق لـ«السيد»، ثم أغلق الباب وراءه!

وكانت هذه ـ ربما ـ أصعب لحظات مرت بضابط المخابرات المصري «عزيز الجبالي» في عمره كله!

ذلك أن «عزيز الجبالي» لم يكن رجلًا عاديًّا، فلقد قضى من عمره خمسة وعشرين عامًا في مهنته تلك، وهو، عندما يتذكر ما مر به من أحداث وتجارب، لا يملك نفسه من الدهشة والتساؤل: كيف يحتمل عمر إنسان واحد كل هذه الأحداث؟... ولقد عود نفسه وربّاها ـ مثله مثل كل ضباط المخابرات في العالم ـ على مواجهة كل الاحتمالات مهما كانت، لكنه ـ في ذلك الوقت المبكر من الصباح، وعندما دخل إلى الغرفة التي تضم جثمان صديقه في صندوق أنيق من خشب غالي الثمن ـ كان مستعدًّا لمواجهة أي موقف يطرأ بين لحظة وأخرى إلا أن يجد نفسه في مواجهة، صريحة، مع «ديفيد»!!

عشرون عامًا قضاها معه.. عشرون عامًا لم يكفا عن الحوار يومًا حتى أصبح «ديفيد» جزءًا من حياته، وجزءًا هامًّا وخطيرًا من أمن أمته والشعب الذي ينتمي إليه... وهو عندما دلف إلى الغرفة، كان يظن أنه سيقف أمام صندوق مغلق، لكن المفاجأة كانت أن غطاء الصندوق مرفوع... وأن ديفيد كان يرقد هناك بملابسه كاملة!

عاش كل هذه السنوات مع ديفيد دون أن يلتقيا مرة، وكم تمنى لو أن هذا حدث، ولكم طالب ديفيد بأن يراه طوال تلك السنين، ولكن... ها هما يلتقيان ـ لأول مرة ـ وقد رحل أحدهما إلى العالم الآخر.

ووقف عزيز ينظر إلى الوجه الساكن أمامه، نفس الوجه الذي رآه في صورة صغيرة ذات ليلة من ليالي يوليو الحارة في القاهرة منذ ما يقرب من عشرين عامًا، نفس الابتسامة التي تدعوك إلى الثقة بصاحبها والحذر منه في نفس الوقت، نفس السماحة والملامح المنبسطة حتى يصبح من الصعب تحديد هوية صاحبها!

دمعت عيناه..

نعم... حدث هذا!

لكنه سرعان ما تمالك حزنه، ووضع نظارته الطبية وفتح المصحف، وراح يقرأ سورة «يس».

بعد أن انتهى من القراءة، وضع المصحف جانبًا، ثم كبر للصلاة... ووقف يصلي.

عندما سلم عزيز منهيًا صلاته، أحس براحة شديدة تغمره وكأنه أزاح عبئًا كان يثقل كاهله... وما لبث أن نظر في ساعته، وكان عليه أن ينصرف فهمس:

«مع السلامة يا رأفت».

* * *

ظل الحوار دائـرًا في مكتب رئيس شعبة الخدمة السرية بعض الوقت... وفي الحقيقة، فلقد كانت هناك نقطتان دار حولهما الحوار... أما النقطة الأولى فهي: ما الذي يمكن أن يقال للسيدة سمحون إذا ما سألت عن حقيقة زوجها؟ ولأن الرجال لم يكونوا يعرفون مدى معرفتها بالأمر كله، فلقد كان القرار الذي اتخذ في ذلك الاجتماع هو أنه من الأفضل أن توضع الحقيقة بين يديها كاملة؛ إن من حق ولديها أن يعرفا أي رجل كان «ديفيد شارل سمحون».

أما النقطة الثانية فكانت: ما الذي يمكن أن تقدمه مصر للسيدة سمحون وولديها منه؟... إنها بالطبع لن تكون في حاجة إلى المال، فلقد ترك لها ديفيد عددًا لا بأس به من ملايين الماركات الألمانية والدولارات الأمريكية، كما أنها ـ وهي سيدة أعمال ـ تملك عددًا من الملايين لا يقل عما كان يملكه زوجها... ولذلك، فلقد استقر الرأي

على أن تعامل السيدة سمحون هي وولداها كما لو كان ديڤيد نفسه هو الذي يطلب.

وهكذا استقر الأمر، وانتهى الاجتماع.

* * *

في التاسعة من صباح اليوم التالي لوصول هذه الرسالة الغريبة إلى القاهرة... دق جرس التليفون في بيت المرحوم «ديڤيد شارل سمحون» الإسرائيلي الجنسية، والذي كان يعيش في مدينة «بريمن» الألمانية، التي لا تبعد كثيرًا عن مدينة هامبورج، منذ أكثر من خمس سنوات مع زوجته سيدة الأعمال الألمانية التي كانت تحمل اسم «هيلين ريشتر» قبل أن تقترن به، وولديها اللذين كانا يحملان اسمين غريبين على الآذان في ألمانيا... غير أن بعض من تعرف إلى عائلة سمحون في بريمن، أرجعوا الاسمين إلى اللغة العبرية!!

لم يكن بيت الهر «سمحون» قصرًا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، كما أنه لم يكن «ڤيلا» صغيرة... بل كان بيتًا ذا طراز خاص، يوحي لمن يراه بأن صاحبه بالقطع من أصحاب الملايين... وكان أكثر ما يميز حديقته تلك النباتات التي تنمو عادة في الشرق الأوسط، والتي كان الهر سمحون يعشقها عشقًا بالغًا، ويصر ـ خاصة في أيامه الأخيرة ـ على رعايتها بنفسه.

في الداخل... كان بهو البيت واسعًا، ومكونًا من ثلاثة أقسام ينساب كل قسم منها إلى الآخر من خلال تنويعات الأثاث والديكور، انسيابًا ينبئ عن ذوق رفيع... كان الأثاث فاخرًا، والستائر البيضاء مسدلة على النوافذ الزجاجية فيما عدا الباب المؤدي إلى الحديقة، حيث كانت «فراو سمحون» تجلس الآن، فلم تكن هناك ستائر تحجب عنها المنظر الجميل لحديقة بيتها... على الحيطان، علق عدد بسيط ومتناثر ومتباعد في نفس الوقت من اللوحات الثمينة، بحيث تبدو كل لوحة وكأنها في

معرض قائم بذاته، لا تشغل العين عنها لوحة أخرى، أو حتى تحفة غالية الثمن... في الصدر تمامًا كان البيانو الأبيض هو أكثر ما يجذب نظر الزائر، فلقد كانت المساحة المحيطة به تكاد تكون خالية إلا من مقعدين يرجع طرازهما إلى القرن الخامس عشر.

عندما دق جرس التليفون، كانت فراو سمحون قد انتهت لتوها من قراءة مقال في إحدى المجلات الاقتصادية الشهيرة... وكان المقال الذي استغرقت في قراءته باهتمام أثناء تناولها لقهوة الصباح مليئًا بالأرقام والرسوم البيانية... غير أن هذه الرسوم، مع بعض الصور المنشورة لبعض رجال الأعمال العرب، كانت توحي بوضوح بأن المقال يدور حول البترول.

ومنذ قرابة شهرين، عندما توفي الهر «ديڤيد شارل سمحون» بعد مرض عانى منه كثيرًا، كانت السيدة سمحون تعيش في دوامة عنيفة من القلق... غير أن هذا القلق ازدادت حدته، يوم ظنت أنها ـ بما أقدمت عليه أخيرًا ـ تتخلص منه!

كان ما قاله ديڤيد وهو يحتضر، مروعًا ومخيفًا وهائلًا في نفس الوقت، بدا لها الأمر كله غير مفهوم، لكنها، وقد مرت سحابة الحزن قليلًا، وجدت نفسها أمام طريق واحد لا بديل له... وازداد خوفها ووقعت في حيرة طالت لأسابيع كانت تتمزق فيها... وهي ـ في البداية ـ وعندما أفضى ديڤيد بما أفضى به إليها، ظنته يهذي لفرط ما كان يعانيه من آلام وصلت في أيامه الأخيرة إلى حد أن عجز الطب عن تسكينها لكن نظرات عينيه، وذلك الهدوء الغريب الذي سيطر على ملامحه وكأنه أزاح من فوق كاهله عبئًا رهيبًا، ويده التي أمسكت بيدها وكأنه يتوسل توسلًا غامضا من أجل هدف غامض... كل هذا جعلها تفكر في الأمر مرة ومرة ومرات، ثم استبعدت فكرة الهذيان نهائيًا!

* * *

رحل ديفيد منذ ما يقرب من شهرين، ولم يكن ممكنًا بأي حال من الأحوال أن تبوح لأحد بما باح لها به... فهي تعرف جيدًا ما الذي يمكن أن يفعله الإسرائيليون بها وبالولدين جميعًا... وهي عندما تعرفت إلى ديفيد أول مرة منذ ما يقرب من سبع سنوات، وعندما أحست أنها تنزلق إلى حب غامض، ومنذ اللحظة الأولى التي أحست فيها بتلك العاطفة... كانت الأزمة التي عانت منها، ليس أنها تجاوزت سن الحب والزواج وبناء أسرة جديدة، ولكنها أزمة كانت تتلخص في سؤال ألح عليها طويلًا: كيف تقع في حب إسرائيلي؟!

لم تكن «فراو ريشتر» ـ كان هذا اسمها في ذلك الوقت ـ عجوزا تحمل ذكريات ما كان بين شعبها وبين اليهود من عداء، لكنه ذلك الإحساس الغامض والغريب والمترسب في أعماق نفسها، ذلك الإحساس الذي بدا واضحًا أشد ما يكون الوضوح عندما أفضت إلى «ليندا» ـ مديرة مكتبها وصديقتها الحميمة ـ بما يعتمل في نفسها، فهتفت ليندا:

«هيلين... هل تستطيعين؟!».

«ولكني أظن أني أحبه».

حذرتها ليندا في وضوح:

«ولا تنسى أنه يهودي!».

لوحت بذراعها في ضيق:

«اللعنة!».

«وإسرائيلي!».

صاحت في وجه ليندا:

«هل أنت عنصرية؟».

هزت ليندا رأسها ضاحكة وقد أدركت أنه لا جدوى من المناقشة وهي تقول ساخرة:

«ليس بالضرورة يا عزيزتي... ليس بالضرورة!».

وتزوجته!!

وأصبح اسمها «فراو سمحون»... وكانت سعيدة بهذا الزواج الذي أثمر ـ رغم سنها ـ ولدين... لقد وقعت هيلين في حب ديڤيد حقًا، غير أنها غاصت في هذا الحب حتى أذنيها بعد الزواج.. كان ديڤيد رجلًا يعرف كيف يتعامل مع المرأة، كيف يدللها ومتى؟ وكيف ينهرها في الوقت المناسب... ومتى يبثها حبه وكيف يجعلها تشتاق إلى كلمة منه...؟! هكذا كان ديڤيد، لكن شيئًا ما ، غامضًا وغريبًا، ظل معلقًا فوق رأسها طوال حياتها معه... شيئًا لا تدريه ولا تعرفه... كانت ـ على سبيل المثال ـ تداعبه في أحيان كثيرة قائلة: إنه لا يمكن أن يكون يهوديًا أو إسرائيليًا... وكان المدهش في الأمر، أن هذا لم يكن يغضبه، بل كانت تبدو على وجهه علامات سعادة لا تخطئها العين!

لكنه ذهب!

ذهب بغموضه وحنانه ورقته ورجولته التي كانت تبدو في بعض الأحيان وكأنها تاج يتحلى به!

ولقد قاوم ديڤيد طويلًا قبل أن يذهب، عانى آلامًا مبرحة!

وليته ذهب حاملًا سره معه!

وليتها ظلت كاتمة لهذا السر وكأنها لم تسمعه... ولكن كيف؟!

كيف وهي ـ منذ أن رحل ـ لم تعرف للراحة طعمًا؟... كانت تنظر إلى الصغيرين فتشعر بثقل المسئولية... ولو لم يكن الأمر يعني ديڤيد لما باح لها به وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكأنه يحمّلها أمانة كان عليها أن تؤديها... غير أن مجرد التفكير، فيما لو عرف الإسرائيليون، كان

يبعث بالرعب إلى أوصالها، لا على نفسها وحياتها، بل على حياة ولديها!

قرابة خمسين يومًا منذ أن رحل وهي تدور في دوامة بلا نهاية... حتى كانت تلك الليلة التي التقت فيها برجل الأعمال المصري «نهاد كامل»!

كان نهاد صديقًا قديمًا تعرفت إليه قبل أن تتعرف إلى ديفيد بسنوات، كان دائمًا ما يظهر ثم يختفي ثم يظهر وكأنه كان دائمًا هناك... هو من هذا النوع من الشباب الذي يتميز بالرقة والذكاء معًا، ولقد اختفى سنوات طويلة كانت تسمع فيها عنه، عرفت مرة أنه يعيش في أستراليا، وسمعت مرة أنه عاد إلى مصر، ومرة ثالثة قالوا لها إنه استقر في كندا... لكنها كانت تدرك سر ابتعاده عنها ـ كصديق ورجل أعمال معا ـ منذ أن تزوجت ديفيد... وهي قد قدرت هذا الابتعاد، الذي تحتمه على رجال الأعمال العرب تلك الظروف السياسية الشديدة التعقيد التي تولدت في الشرق الأوسط منذ أن قامت فيه دولة إسرائيل!

ظهر نهاد هذه المرة وكان يسعى لعقد صفقة طائرات لا بأس بها... جرت المفاوضات بينهما سلسة سهلة، حتى إذا ما بدا أن الاتفاق على وشك أن يتم، دعاها ذات ليلة إلى العشاء!

وهي ـ في حقيقة الأمر ـ كانت تسعى إلى هذه الدعوة، بل ربما هي التي دفعته لأن يدعوها... كانت تعرف أن «نهاد» ضابط سابق في الجيش المصري، وأن له علاقات طيبة مع بعض المسئولين في بلاده... فسألته في لحظة جمعت فيها كل ما تملك من شجاعة إن كان يستطيع أن يحمل عنها رسالة إلى مصر؟!... قال نهاد:

«سأطير إلى القاهرة في الأسبوع القادم وأنا في طريقي إلى المملكة العربية السعودية».

«ولكني أريد منك وعدًا بـ...».

وصمتت هيلين، ولا بد أن ملامحها عكست ذلك القلق المدمر في صدرها، فلقد سدد إليها نهاد نظرة ثابتة وهو يسأل:

«هيلين... ماذا بك؟!».

كانا صديقين قديمين، وكان يستطيع بطبيعة الحال أن يناديها باسمها الأول، وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، فإن هذا أصبح لا يعنيها في كثير أو قليل.

«هيلين!».

جاءها صوته دافئًا مفعمًا بالحرارة.

«هيا بنا».

قالت هذا ونهضت وكأنها تريد أن تهرب من نفسها، نهض نهاد ملبيًا وقد أدرك أن في الأمر سرًا يقلقها.. وفي السيارة التي كان يقودها الشاب المصري، ساد الصمت طويلًا، ولم يحاول هو من ناحيته أن يقطع عليها الصمت، حتى قالت فجأة:

«سأكتب الرسالة، وسأطلعك عليها، لكني سأطلب إليك طلبًا واحدًا».

«ما هو؟».

«ألا تسألني سؤالًا واحدًا حول الموضوع، حتى أفاتحك أنا فيه!».

«لك هذا».

«وألا تخبر مخلوقًا، أيًا كانت ثقتك به، عن هذا الأمر!».

«ولك هذا أيضًا».

«حسن... ترى أية لغة يفضلها المصريون؟».

«الإنجليزية، فهي اللغة الأجنبية السائدة هناك».

وهكذا... في اليوم التالي، اجتمعت هيلين سمحون مع نهاد كامل على غداء عمل في مطعم يقع في نفس المبنى الذي يضم مكاتب شركتها... وكانت هيلين تحمل ملفًا أنيقًا يحوي بعض الأوراق والرسوم المتعلقة بصفقة الطائرات، قدمت له الملف وهي تقول:

«ستجد الظرف مفتوحًا في هذا الملف، لك أن تقرأ الرسالة، ثم تغلق الظرف!».

«ولمن أسلمها؟!».

صمتت هيلين برهة، تشاغلت فيها بقطعة السمك الراقدة في طبقها، لكنها ما لبثت أن قالت:

«لرئيس جهاز المخابرات المصري!».

قالت هذا وقد تعلقت عيناها بوجه نهاد في محاولة لقراءة رد فعل ما قالته، لكن ملامح الشاب ظلت جامدة، هادئة تمامًا، فعادت تؤكد من جديد:

«لرئيس جهاز المخابرات المصري وليس لأحد سواه!».

ظل وجه نهاد جامدًا وكأنه لم يسمع شيئًا، رفع إليها عينيه الملونتين وقال في هدوء وبساطة:

«سأسلمها له يدًا بيد فلا تقلقي».

يا للرعب المدمر عندما يستحوذ على الإنسان!... ما إن انصرف «نهاد كامل» حتى عصفت بها الهواجس... ما الذي يدريها أن الرسالة لن تقع في أيدي الإسرائيليين، حقًا لقد انتهت الحرب بينهم وبين المصريين، ولكن... إن سرها الدفين هذا لا علاقة له بحرب أو سلام!

ظلت هيلين مضطربة بالرغم من أنها أخذت للأمر كل حيطة، كتبت

الرسالة على آلة كاتبة بعيدة عن شركتها وعلى ورق عادي، لم تضع توقيعها عليها وليس هناك ما يدل على أية علاقة لها بها سوى ذلك المظروف الخالي الذي تستطيع أن تتنصل من معرفة أي شيء عنه... ثم ... ثم إن نهاد لن يغادر ألمانيا قبل الأسبوع القادم، فلم لم تسلمه الرسالة قبل سفره بيوم أو في نفس يوم سفره؟!

وحتى عندما تحدث إليها نهاد تليفونيًا في عصر ذلك اليوم الذي تسلم فيه الرسالة قائلًا إن برقية عاجلة وصلته من القاهرة فقرر السفر في نفس الليلة، حتى عندما فعل هذا أحست بالخوف يعصف بها عصفًا!

وهكذا... ظلت السيدة هيلين سمحون نهبًا لقلق مدمر لأكثر من أربعين ساعة، حتى دق جرس التليفون في بيتها، في التاسعة من صباح ذلك اليوم من أيام يناير عام ١٩٧٩.

* * *

دق جرس التليفون فالتفتت هيلين دون أن تتحرك من مكانها، أحست بالاضطراب فعالجته بأن رفعت فنجان القهوة إلى شفتيها وهي تلتقط في نفس الوقت إحدى المجلات الفرنسية... على الفور ظهرت «أولجا» ـ سكرتيرتها ـ من الداخل وهي تسير بتلك الخطى السابحة في الهواء بلا صوت... من طرف خفي راحت ترقبها وهي ترفع سماعة التليفون إلى أذنها... سرت في جسدها قشعريرة حاولت السيطرة عليها بكل ما تملك من قوة، تظاهرت بتقليب صفحات المجلة الفرنسية لكن عينيها كانتا تتلصصان نحو «أولجا» التي كانت تتحدث بصوتها الهامس وقد بدت عليها الحيرة... ولقد كانت تتساءل قبل أن يدق جرس التليفون بثوان عما إذا كان «نهاد كامل» قد سلم الرسالة، وعما إذا كان «جواب ما» سوف يأتيها من القاهرة، لكنها سرعان ما سخرت من نفسها فنهاد لم يغادر ألمانيا إلا منذ ست وثلاثين ساعة ولا يمكن أن يكون الأمر قد تم بهذه السرعة في بلد كمصر!

وضعت «أولجا» السماعة فوق الحامل الأنيق المجاور للتليفون... اضطربت هيلين وهي تتساءل: هل من الممكن أن يكون لهذه المكالمة علاقة برسالتها؟... ليست السرعة والاهتمام بقيمة الوقت من صفات العرب، لكنها قد تكون من صفات الإسرائيليين.. ها هو ذا الرعب يأتيها إثر خطأ وقعت فيه فأين المفر؟!

«سيدتي.. هناك شخص يقول إنه صديق قديم للهر سمحون!».

في هدوء أعادت هيلين فنجان القهوة إلى المائدة، رفعت إلى السكرتيرة عينين متسائلتين، فقالت هذه:

«إن في صوته لكنة شرقية!».

ازداد البريق المتسائل في عينيها فعادت السكرتيرة تقول وكأنها تعتذر:

«ربما كان آتيًا من إسرائيل!».

اندبت الكلمة في صدرها فأحست بالألم، أرادت أن تخفي اضطرابها فنهضت مشيحة عن السكرتيرة، وكان هذا إيذانًا للفتاة بالانصراف فانصرفت... خطت هيلين نحو التليفون فخيل إليها أنها تترنح، جاءها الصوت من الطرف الآخر متسائلًا:

«فراو سمحون؟».

«نعم».

«أنا صديق قديم للهر سمحون، ولقد وصلتني رسالتك بالأمس».

على الفور هتفت مستنكرة:

«أية رسالة؟!».

جاء سؤالها سريعًا كطلقة مباغتة، ران الصمت لثوان خاطفة سرى بعدها الصوت إلى أذنها واثقًا ثابت النبرات:

«لقد جئت كي أقدم لك خالص عزائي يا سيدتي».

غلبها الخوف والحذر فعادت تلح:

«ولكنك تتحدث عن رسالة، أية رسالة هذه؟!».

في بساطة من يسيطر على الأمر تمامًا، عاد الصوت يقول:

«ربما كان في الأمر خطأ ما... ولكني أعتقد أنه يهمك ـ كما يهمني بالطبع ـ أن نصفي ذلك الموقف بين شركتينا!».

في إصرار عادت تستنكر:

«شركتينا؟!».

«كنت أظن أنك تحدثت في الأمر مع الهر نهاد كامل!».

أحست وكأنها محاصرة، فغمغمت:

«لكني لن أذهب إلى مكتبي في هامبورج حتى نهاية الأسبوع».

«إن لم يضايقك هذا يا سيدتي، فنحن على استعداد لزيارتك في بريمن».

«أنتم؟!».

«نعم أنا وشريكي الذي يعنيه أن يلتقي بالصغيرين العزيزين».

«الصغيرين؟!».

«كان شريكي صديقًا حميمًا للهر سمحون».

«لكن الطفلين لا يعودان من المدرسة إلا في عطلة نهاية الأسبوع».

غمغم صاحب الصوت الآتي عبر السماعة:

«هذا من سوء حظنا حقًّا».

قال هذا، فساد الصمت. كانت جملته الأخيرة تعني أنه ـ الآن ـ يترك

لها حرية الاختيار... ترددت فترة طالت بعض الشيء، كانت ممزقة، حائرة، وكانت خائفة... ولقد ظل الصمت آتيًا من الطرف الآخر، حتى إذا كانت لحظة، أدركت أنه لا سبيل إلى التراجع، وأن حسن التصرف يستلزم منها أن تسير في الشوط حتى نهايته:

«حسنًا أيها السيد... يمكنني استقبالكما في الخامسة من بعد ظهر اليوم».

«شكرًا يا سيدتي».

«هل أعطيك العنوان؟».

«لست أعتقد أننا في حاجة إليه».

«إلى اللقاء إذن».

قالت هذا وهي تعيد السماعة إلى مكانها، دون أن تنتظر من الرجل ردًّا!

الفصل الثاني

البحث عن الحقيقة

لم تكن السيدة «هيلين سمحون» من ذلك النوع من النساء اللاتي يستعذبن الضعف أو يستسلمن للخوف... ففوق تربيتها الألمانية الصارمة، واعتزازها بالانتماء إلى شعب كانت ـ ولا تزال ـ مؤمنة أشد ما يكون الإيمان أنه يستطيع تحقيق المعجزات... فقد ولدت في حجر الآلام والهزيمة والدمار وأحذية الجنود الغليظة تطأ أرض بلدتها الصغيرة في عجرفة واستعلاء... ولولا تلك القصص التي عاشتها وعاصرتها وسمعت عنها منذ أن وعت عيناها حقائق الحياة، لولا معرفتها اليقينية بما يمكن أن يفعله الإسرائيليون خاصة مع بني جنسها، بالحق وبالباطل، لعالجت الأمر بأسلوب مختلف... لقد عاشت المأساة طفلة، فرض عليها قدرها أن تأتي إلى هذه الدنيا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر، فنمت في أحضان الكارثة، وكان عليها أن ترى بعيني طفلة كيف انهار كل شيء، وكيف كان على بني جنسها أن ينهضوا من جديد؟!

كانت الساعة تقترب من الخامسة مساءً عندما خلا البيت إلا منها ومن فرانز العجوز، وهي منذ أن تلقت تلك المكالمة التليفونية في الصباح، راحت تستعد لهذا اللقاء الذي كان مقدرا له أن يتم بعد دقائق ... صرفت

الخدم والسكرتيرة ولم تستبق معها سوى وصيفها ومدير بيتها ومخزن أسرارها وصديقها الوفي لخمسة وعشرين عامًا طلبت إلى فرانز أن يبقى إلى جوارها فرحّب العجوز بعد أن لاحظ توترها، لكنه لم يسأل عن الأسباب تأدبًا، ومنذ أن خلا البيت إلا منها ومنه، وهو دائمًا هناك، ما إن تحتاج إلى شيء، أو تطلب شيئًا، حتى تجده ملبيًا بأسرع مما اعتاد، بل ربما أسرع مما يجب!!

كلما اقتربت الساعة من الخامسة ازداد توترها، راحت تذرع البهو الفسيح جيئة وذهابًا، من خلف زجاج النوافذ كانت ترقب الثلج المندوف وهو يتهادى صابغًا الدنيا بلونه الأبيض، كم كان ديڤيد يحب منظر الثلج هذا، كم كان يطرب كطفل وهو يصيح فيها طالبًا إليها أن تأتي لتشاهد سقوطه معه، شرقيًا كان ديڤيد، شرقيًا حتى النخاع!... هذا الثعلب الذي منذ أن التقت به وهو يهديها المفاجأة تلو المفاجأة... لكن مفاجأته الأخيرة فاقت كل خيال!

كم كان العمر شاقًا وكم كان المشوار طويلًا... من هناك، من أقصى الجنوب الألماني، كانت البداية!!

* * *

في أقصى الجنوب الشرقي لألمانيا، ولدت «هيلين شيبربور» ـ هذا هو اسم عائلتها ـ في بلدة صغيرة اسمها «خام» (Cham) لأب كان يعمل جواهرجيا... كانت البلدة جدّ صغيرة، وكل الناس فيها يعرفون كل الناس، ولكن الهر «كارل شيبربور» ـ والد هيلين ـ كان يتمتع باحترام خاص بين سكان البلدة والقرى المجاورة، لا لأنه كان على قدر من اليسار ميّزه عن بقية السكان، ولكن لأنه كان رجلًا من هذا النوع الصلب الذي لا تؤثر فيه الأزمات، ولا ينحني للعواصف... وكم من مآزق وقعت فيها البلدة أثناء الحرب فتخطاها الهر كارل بمهارة وحنكة، وكم من أياد مدها لأهل بلدته في صبر وكرم جعلا للعائلة كلها مكانة خاصة في قلوب الناس... ولكنه

لم يستطع أن يتخطى أزمة الهزيمة والاستسلام ورؤيته لأحذية جنود الاحتلال الغليظة وهي تطأ أرض البلدة التي أحبها... فمات، وكانت هي في السابعة من عمرها.

* * *

الصمت والخوف والهلع والتوتر ولا شيء سوى نظرات الأب والأم عبر زجاج النافذة إلى الطرقات الخالية في «خام»... كان هذا منذ ست وثلاثين سنة كاملة... تذكر هي ذلك اليوم وكأنها تراه ماثلًا دون أن تغفل منه شيئًا... كانت تقبع مع شقيقتيها في ركن من البيت وكان محظورًا عليهن أن يتحركن من مكانهن أو يقتربن من النوافذ أو الباب... بالأمس غادر البلدة آخر جندي ألماني مشيعًا بالدموع والحزن والانتظار القلق والمخيف للغزاة القادمين... استيقظت في الفجر وكان زئير السيارات والدبابات يأتي من بعيد كهزيم رعد لا ينقطع، الوجل والقلق واللهفة ونظرات الأم والأب عبر النافذة تتطلع إلى حيث الطابور القادم من خلف التل كالوحش الكاسر، وهزيم السيارات والدبابات يقترب ويقترب، وحركة أبيها وهو يذرع البيت جيئة وذهابًا، وشحوب أمها وبكاء أختها لكنها ارتجفت حتى الأعماق عندما شهقت أمها مشيرة إلى حيث مدخل البلدة فإذا هي قد حوصرت من كل اتجاه... في الليلة السابقة وبعد انسحاب جنود الوطن وقد أخذ منهم الإعياء والتعب كل مأخذ، اجتمع الرجال في الكنيسة ـ هكذا عرفت فيما بعد وهي تستعيد مع الكبار أحداث اليوم المروع ـ واستقر الرأي على أن يلزم الجميع بيوتهم عند مجيء الأمريكيين... اتفق أهل البلدة على أن يتركوا الشوارع خالية للغزاة القادمين... من الخارج ارتفع صوت يتحدث في الميكروفون بلغة لم تفهمها، ورأت أباها ينصت باهتمام وقد شحب لونه شحوبًا رهيبًا... انتهى النداء فإذا الأم تسأل الأب عما يقول صاحب الصوت الزاعق في الميكروفون، وإذا الأب يدمدم في غضب:

«أي جنون هذا؟!».

«ما الذي يطلبه الأمريكيون يا كارل؟!».

«إنهم لا يطلبون ولكنهم يسألون إن كنا سنستسلم أم سنقاوم؟!».

حاولت الأم تهدئة زوجها فقالت في رفق:

«أليس هذا من حقهم؟».

«أي حق والشوارع خالية والأبواب موصدة؟!».

«كارل».

اختنق صوت الأب واحتقن وجهه وهو يهدد:

«إنه الإذلال... إنهم يريدون إذلالنا!».

عاد الصوت يسري في سماء البلدة عبر الميكروفون فصاح الأب:

«إنه يسأل مرة أخرى... إنه يعيد السؤال».

هتفت الأم في فزع:

«لم لا نعطيهم ما يريدون؟!».

التفت الهر كارل نحو زوجته وكانت نظراته تطلق حممًا، فصاحت الأم ملتاعة:

«من أجل الصغار... من أجل كل الصغار في البلدة يا كارل!».

همّ الرجل بالرد لكن نظرة منه حانت نحو النافذة فإذا به يتصلب كمن مسته صاعقة، بدا جاحظ العينين شاحب الوجه مرتجف الملامح... اندفعت زوجته نحو النافذة في هلع:

«كارل... ماذا هنالك؟!».

ما أن وصلت إلى النافذة وألقت ببصرها إلى الخارج حتى ارتدت شاهقة:

«إنهم يرفعون العلم الأبيض فوق الكنيسة!».

عاد الصوت الزاعق في الخارج عبر الميكروفون يتصايح من جديد، اختنق صوت الأم متسائلة في هلع:

«ماذا يقول هذا الجندي بحق السماء؟!».

ترنح الهر كارل في وقفته، خطا نحو مقعده وألقى بنفسه فوقه وهو يقول: «إنه يطلب إلى كل بيت أن يرفع على بابه علما أبيض!».

ككرة من مطاط ارتدت زوجته نحو دولاب في طرف المكان وهي تهتف:

«فلنعطهم ما يريدون».

وكان الأب يتمتم:

«إنه الإذلال... إنه الإذلال!».

في هلع كانت الأم تبحث في الدولاب حتى أخرجت منه مفرشًا أبيض فردته أمام زوجها الذي رفع رأسه إليها وقد جحظت عيناه واحمرتا وكانت هي تتوسل:

«ليس من أجلنا، ولكن من أجل الصغار!».

ونكس الرجل الشاهق رأسه. هيلين لا تنسى تلك اللحظة ولو عاشت ألف عام، رأت أباها ينكس رأسه، وجسده يهتز بعنف، ودموعه تتساقط!

وعندما كانت الأم تضع المفرش فوق عصاة أتت بها من الداخل، وعندما فتحت باب البيت وتقدمت حاملة علمها الأبيض كي تعلقه على الباب، كان الأب ينوح:

«انتهى كل شيء، انتهى كل شيء».

يومها أقسمت هيلين شييربور ـ وهي في السابعة من عمرها ـ ألا ترفع العلم الأبيض مرة أخرى، أبدًا!

* * *

«سيدتي... سيدتي».

التفتت هيلين نحو فرانز في دهشة، كان هذا قد اقترب منها حتى كاد يلتصق بها.

«ماذا بك يا فرانز؟».

«هل سيدتي على ما يرام؟».

دهشت وهي تستدير بكليتها نحوه:

«نعم... لم السؤال؟!».

في حنان جاءها صوته:

«عفوًا سيدتي... ولكني ظللت أنادي عليك دون أن...».

قاطعته وقد أدركت ما حدث:

«كنت أتذكر يوم العلم الأبيض!».

تقلصت ملامح فرانز فلقد كان يعرف أية ذكرى أليمة في حياة سيدته هذا اليوم... تمتم:

«هل أنت خائفة؟».

«ربما».

قالت هذا وهي تهرب من نظراته فعاد يسأل مقتربًا من هدفه:

«هل آتيك بالشاي؟».

نظرت في ساعة يدها وهي تتمتم:

«ليس هناك وقت، سيصل الضيفان بعد ثوان».

اقترب من هدفه أكثر:

«هل هما غريبان؟».

«لست أدري يا فرانز... في الحقيقة إني لا أعرف يقينًا».

«هل هما إسرائيليان؟».

التفتت نحو العجوز مبتسمة، قالت:

«أرجو ألا يكون كذلك».

همّ العجوز بالسؤال عندما غمر البهو شعاع ضوء السيارة التي كانت تقترب من البيت، التفت كلاهما نحو النافذة، وكانت السيارة قد أكملت دورتها حتى توقفت أمام الباب الخارجي للحديقة.

«لقد وصلا».

وكانت جملتها إيذانًا بانصراف فرانز على عجل كي يستقبل الضيفين.

* * *

لم يكن الضيفان اللذان وصلا إلى منزل أرملة المرحوم «ديڤيد شارل سمحون»، سوى الشابين اللذين، قبل أربع وعشرين ساعة بالضبط، دخلا إلى مطار القاهرة الدولي: صاحب المحلات التجارية، ومهندس التبريد الذي كان في صحبته.

كان الجو في الخارج قارس البرد، ولذلك فعندما عبر الشابان الحديقة ووصلا إلى باب البيت، كان فرانز العجوز هناك في استقبالهما، وكانا يرتديان معطفين ثقيلين، كما كانا يضعان قبعتين تخفيان ملامحهما.. قال أحدهما مخاطبًا فرانز:

«إننا على موعد مع فراو سمحون».

أفسح العجوز الطريق إلى الداخل:

«إنها في انتظاركما يا سيدي».

دلفا إلى البيت بسرعة التماسًا للدفء، أغلق فرانز الباب وتسلم معطفيهما وقبعتيهما، ثم قادهما إلى الداخل. وهناك، بالقرب من البيانو الأبيض، كانت «فراو سمحون» تقف في استقبال ضيفيها.

* * *

كان أكثر ما أدهش السيدة سمحون في هذين الشابين، ليس إتقانهما اللغة الألمانية فقط، بل لأنهما أيضًا كانا يتقنان فن الحديث!

ما إن أشارت إليهما بالجلوس حتى كان فرانز يدفع أمامه عربة الشاي في خفة ورشاقة، حتى استقرت العربة إلى جوارها فقال:

«هل تأمر سيدتي بشيء آخر؟».

ابتسمت هيلين وهي تنظر إليه في امتنان قائلة:

«شكرًا يا فرانز، ويمكنك أن تنصرف إذا أحببت».

«سأبقى حتى ألبي أي طلبات للسيدين يا سيدتي».

جاءت جملته حاسمة حازمة وكأنها قرار فلم تعترض، أحنى رأسه في أدب ثم انسحب على الفور، لمحت السيدة سمحون على وجهي الشابين علامات إعجاب فقالت مجاملة:

«لا بد أنكما في حاجة إلى شراب ساخن، فالجو في الخارج شديد البرودة».

ابتسم أحدهما وكانت ملامحه تنبئ عن حزن حقيقي:

«لا يعادل برودة الجو في بلادك يا سيدتي سوى دفء استقبالك لنا».

رفعت إليه عينين دهشتين، أثلجت المجاملة صدرها، أرادت أن تردها له، قالت وهي تصب الشاي:

«ولا يعادل رقة حديثك سوى إجادتك للغة الألمانية!».

قال الثاني مبادرًا:

«لا بد أن فراو سمحون تعرف مدى إعجاب الشعب المصري بألمانيا وشعبها!».

كانت هذه أول إشارة من الشابين تنبئ عن جنسيتهما... داخلتها راحة صادرها على الفور خوف عربيد... فمن يدريها أنهما مصريان حقًا... لقد سافرت إلى إسرائيل كما زارت مصر، وهي تعلم يقينًا أن الملامح متقاربة إلى حد كبير... ثم، ألم يقل لها ديڤيد إنه ولد في مصر، وعاش فيها حتى صدر شبابه؟!

سرعان ما ردعت في صدرها هذا الإحساس بالارتياح، قدمت لهما فنجاني الشاي وسألتهما إن كان أحدهما يرغب في قطعة من الكعك... ما إن اعتذرا، واعتدلت هي في جلستها، حتى قال الأول بأسلوب مباشر:

«سيدتي... اسمحي لي أن أقدم لك عزاء الشعب المصري والحكومة المصرية وجهاز المخابرات المصري معًا».

أحنت هيلين رأسها شاكرة، فاستطرد الفتى:

«كان من حسن التدبير أنك أرسلت رسالتك مع الهر نهاد كامل!».

داهمها اضطراب مفاجئ، فها هي تترك لهما الحبل على الغارب دون أن تحتاط، هتفت بصوت جاء مرتجفًا بالرغم من لهجة السخرية التي حاولت إظهارها:

«ألا يحق لي أن أعرف اسم من أتحدث إليه؟».

همّ الفتى بالحديث، فوضعت فنجان الشاي جانبًا، واستطردت وكأنها تقف خلف أحد المتاريس في ساحة قتال:

«إنك يا سيدي لم تقدم لي نفسك صباح اليوم، وبالرغم من ذلك،

فلقد سمحت لنفسي أن أستقبلك حتى نسوي تلك الأمور التي قلت إنها معلقة بين شركتينا!».

لم يسفر هجومها المباغت عن شيء، فلقد ابتسم الفتى وقال في وضوح آسر:

«وهل للأسماء في مثل هذا الموقف قيمة حقيقية؟!».

جاءت كلماته مباغتة، وكان على حق، فلقد كان يستطيع، وهو يستطيع، أن يدعى لنفسه أي اسم، ازداد اضطرابها لولا أنه عاد إلى الحديث:

«لقد حمدنا لك أيضًا يا سيدتي أنك أرسلت الرسالة على الآلة الكاتبة، حتى التوقيع، دون ذكر اسم المرسل إليه!».

كان يعطيها الدليل الكامل على أن رسالتها قد وصلت إليهم... ولكن، من هم؟!... تململت في جلستها وهي تفرك كفيها، فمال نحوها الفتى وكأنه يعفيها من كل هذا التردد قائلًا:

«لم لا نحسم الأمر الآن قبل أن نسترسل في الحديث؟!».

رفعت إليه عينيها متسائلة عما يقصد، وكان هو يضع فنجان الشاي جانبًا، ثم يخرج حافظة نقوده، لتمتد أصابعه إليها في حنكة من يعرف طريقه جيدًا... وما لبث أن أخرج ورقة مالية غريبة الشكل، ونهض إليها مقدمًا تلك الورقة المالية قائلًا:

«هذه نصف ورقة مالية من فئة المائة مارك القديم».

اعتراها اضطراب عنيف، وتساءلت كيف غفلت عن هذا الأمر، وداهمتها صور من الماضي البعيد راحت تتكاثف وتتصاعد إلى رأسها في سرعة فكأنها تفتح جرحًا لم يندمل رغم مرور السنين، امتدت يدها لتأخذ نصف الورقة المالية، هتف في داخلها هاتف أن احذري فلم تظهر ما كان يعتمل في صدرها من انفعال، جاء صوت الشاب واثقًا:

«لقد ألغي هذا المارك وأنت لا تزالين صبية في بلدة خام!».

كانت نظرة واحدة إلى نصف الورقة المالية الذي قدمه لها الشاب كافية لأن تدرك كل شيء، لكن هذا الذي قاله جعلها تنتفض انتفاضة من وجد نفسه عاريًا في الطريق العام... اختلطت الذكريات البعيدة والقريبة في اضطراب عنيف، من هذا الفتى الذي يعرف عنها كل شيء؟!... ثم من هذا الفتى الذي يعرف حياتها في «خام» التي غادرتها منذ عشرات السنين وإن كانت جذورها لا تزال باقية في تلك البلدة البعيدة؟!... عادت تنظر إلى الورقة المالية في إمعان فلم تستطع أن تخفي اضطرابها الذي تزايد، وعندما عاد الفتى إلى الحديث رفعت إليه عينين دامعتين، فلأول مرة ـ منذ أن رحل ديڤيد ـ كانت تشعر بالراحة والأمان... قال الفتى الشرقي وكأنه يداعبها:

«كنت في العاشرة من عمرك عندما ألغي هذا المارك... أليس كذلك؟».

هزت رأسها إيجابًا وأيقنت الآن أنها سارت في الطريق الصحيح، فعلى أحد وجهي نصف الورقة، كان خط ديڤيد هناك، وكانت كلماته تقول: «...... هؤلاء الناس، إنهم أهلي!» ثم كان توقيعه أيضًا، ذلك التوقيع الذي لا يمكن لعينها أن تخطئه!!

عاد الفتى الشرقي إلى الحديث مرة أخرى:

«لو أنك بحثت في حافظة نقود الهر سمحون، فلسوف تجدين النصف الثاني لهذه الورقة المالية، ولسوف تكتمل الرسالة بالتأكيد!».

قالت بصوت مرتجف وهي تنهض من مكانها:

«لقد عثرت عليه في اليوم التالي لوفاته!».

ابتلعت عيناها الدموع في محاولة جاهدة لتتمالك نفسها:

«لكم حيرني الأمر... كنت... ولكن... لا أستطيع... أن... عفوًا... لحظة... هل؟!!».

توقفت، تمالكت نفسها وهي تندفع نحو السلم المؤدي إلى الطابق العلوي:

«هل تسمحان أيها السيدان، لحظات وأعود إليكما؟».

هرولت صاعدة الدرج حتى اختفت، أحس الشابان بحركة خلفهما فالتفتا بسرعة وكان فرانز يقف هناك عند باب نصف مغلق... ابتسما له في ود فسأل:

«هل يأمر السيدان بشيء؟».

قبل أن يرد أحدهما عليه، جاء صوت هيلين وهي تصيح في لهفة من فوق الدرج:

«فرانز... فرانز!».

اندفع فرانز مهرولًا نحوها وكانت هي تخطف الدرج خطفًا:

«سيدتي».

عندما وصلت هيلين إلى نهاية الدرج كانت تحمل في يديها نصفي ورقة مالية من فئة المائة مارك ألماني الذي ألغي في عام ١٩٤٨، كان كل نصف من النصفين مكملًا للآخر تمامًا... مدت يديها نحو العجوز:

«هل تذكر هذه الورقة؟!».

ولم يكن فرانز في حاجة لأن ينظر أو يتذكر، هذا السر الذي أطلعته عليه سيدته ذات يوم بعد وفاة «السيد» فبدا له لغزًا محيرًا... لم يكن في حاجة إلى أن ينظر أو يتذكر، فلقد كان القلق يأكله على سيدته التي كانت ترتجف الآن أمامه بسعادة غريبة!

* * *

حدث هذا في اليوم التالي لوفاة الهر سمحون مباشرة... كان ما قاله لها ديڤيد قبل أن يسلم أنفاسه الأخيرة محيرًا ومخيفًا، وأصبح عليها أن تفكر فيما يجب أن تفعله... ولم يكن هذا سهلًا، راحت تقلب الأمر على كل وجه، ثم أدركت في النهاية ـ من أجل الصغيرين ـ أنه لا بد من البحث عن الحقيقة مهما كان الثمن!

في اليوم التالي للجنازة أغلقت عليها الأبواب ففسر الجميع ما حدث على أنه مزيد من الحزن، فتحت أدراجه وراجعت أوراقه وقلبت فيها وقرأت كل سطر وبحثت في كل ملف، فبدا لها كل شيء طبيعيًّا تمامًا... ازدادت حيرتها وكادت تركن إلى القول بأن ما قاله ديڤيد لم يكن سوى هذيان دفعته إليه الآلام، عادت إلى الأوراق مرة ومرة ولم يكن معقولًا أن يقول ما قاله دون أن تكون هناك إشارة إليه في الأوراق... لكنها عندما أمسكت بحافظة نقوده عثرت فيها على نصف ورقة مالية من فئة المائة مارك القديم... دهشت وهي تتذكر تلك الأيام السوداء من عام ١٩٤٨، عندما ألغي المارك الألماني ليحل محله مارك جديد، كانت صبية في العاشرة من عمرها لكنها تذكر جيدًا كيف فقد الناس أموالهم ومدخراتهم بعد أن أصبح على الواحد منهم أن يغير ما يملك بثلث قيمته فقط! تذكرت كيف صرفوا لكل فرد أربعين ماركا وكان عليه أن يبدأ بها حياته من جديد، من الصفر ومما تحت الصفر! كان على الشعب الألماني كله أن يبدأ في بناء بلده... غير أن نصف الورقة التي عثرت عليه في حافظة نقود ديڤيد كان يحمل رسالة موجهة إليها، رسالة ناقصة... فعلى أحد وجهي العملة قرأت:

«هيلين.. ضعي ثقتك في......».

ثم لاشيء!!!

بدا لها الأمر غريبًا فعادت تبحث في أوراقه من جديد لعلها تعثر على

النصف الآخر، تساءلت بينها وبين نفسها إن كانت هناك علاقة بين ما أفضى إليها به وبين هذه الورقة المالية الغريبة... أدركت أنه لا بد وأن تكون هناك علاقة ما... تحدثت إلى فرانز عن الرسالة الناقصة لكنها لم تجرؤ على البوح له بسرها المروع...

و... وها هما النصفان الآن متجاوران في يديها وكانت الرسالة قد اكتملت أمام عينيها وعيني فرانز معًا...

راح كل منهما يعيد قراءة الرسالة مرة ومرة وكأنه لا يصدق عينيه، كانت الرسالة تقول بعد أن اكتملت:

«هيلين... ضعي ثقتك في هؤلاء الناس، إنهم أهلي!».

وكان التوقيع «ديڤيد».

رفع فرانز عينيه نحو سيدته متسائلًا في اضطراب:

«هل سيدتي واثقة من أن هذا هو توقيع الهر سمحون؟!».

«دون شك!».

قالتها هيلين في ثقة وهي تخطو نحو الشابين وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عرفان، نهض الشابان لاستقبالها في أدب فوقفت قبالتهما وهي تمد إليهما يديها قائلة:

«يخيل إليّ أن من حقكما أن تطلعا على نصفي الآخر!».

قال أحدهما وكان قد اختطف نظرة سريعة وحادة إلى نصفي الورقة المالية:

«إنهما الآن من حقك وحدك يا سيدتي، فالرسالة موجهة إليك أنت».

كانت هيلين الآن شامخة، وكانت سعيدة... التفتت نحو العجوز قائلة:

«فرانز يا صديقي...تستطيع الآن أن تنصرف مطمئنًا، إنهما صديقان!».

ولأول مرة منذ دخل الشابان إلى البيت، عرف الابتسام طريقه إلى شفتي العجوز الذي ضم قدميه في أدب ألماني صارم وهو يحني رأسه محييًا سيدته:

«سيدتي!».

ثم ما لبث أن التفت نحو الشابين، وأحنى لهما رأسه فردًا تحيته... ثم استدار ومضى...وكانت خطواته تبدو راقصة!!

* * *

كان لاكتمال الورقة المالية القديمة، وبالتالي اكتمال تلك الرسالة الغامضة التي وجهها ديڤيد شارل سمحون إلى زوجته هيلين ـ تأثير السحر عليها... ففي الدقائق التالية لمغادرة فرانز للبيت، أنكرت هيلين على نفسها ذلك الإحساس الغامر بالراحة والسعادة معًا... وهي ـ في حقيقة الأمر ـ لم يكن يعنيها أن يصدق ما قاله زوجها قبل وفاته أو يكون هذيانًا، فلقد كانت هذه حياته وهو حر فيها... ولكن كان ما يعنيها في الدرجة الأولى أن تعرف الحقيقة قاطعة... ذلك أن الأمر لا يخصها بقدر ما يخص الصغيرين ومستقبلهما، بل... وانتماءهما إلى شعب بعينه... وكانت الآن، وهي تجلس قبالة هذين الشابين تعرف يقينًا أنها تقترب من الحقيقة بسرعة لم تتخيلها!

عادت إلى مقعدها وهي تضم نصفي الورقة المالية بيديها وكأنها تضم كنزًا... استردت نفسها واعتدلت في مقعدها وهمت بالحديث عندما بادرها أحد الشابين:

«سيدتي... لا بد لنا من توضيح نقطة تبدو شديدة الأهمية!».

نظرت إليه بإعجاب، تساءلت بينها وبين نفسها: إذا كان المصريون

بمثل هذا الحذق وهذه القدرة على السيطرة على الموقف وأخذ زمام الأمور في أيديهم، فما هذا الذي يقال عنهم؟!... أومأت للشاب بأن يستمر فعاد إلى الحديث وهو يضغط على حروف كلماته كي يؤكدها:

«إنه على درجة كبيرة من الأهمية أن نقول: إننا لسنا مفوضين بسماع شيء منك، كما أننا لا نملك إجابة على أي سؤال قد يخطر ببالك!!».

كتمت أنفاسها وكأنها لا تريد لكلمة أن تفوتها، واستطرد الشاب:

«إننا ـ مع تعازينا القلبية وأسفنا الشديد لوفاة الهر سمحون ـ نرجو أن تقبلي دعوة الحكومة المصرية لقضاء أي عدد يروق لك من الأيام في القاهرة!».

عاد القلق يتسلل إليها من جديد، وصمت الشاب لثوان التقط فيها أنفاسه كمن يستعد لقول على درجة هائلة من الأهمية:

«وإن كنا نفضل ـ إن قبلت الدعوة ـ أن تتم الزيارة بشكل سري!».

مرة أخرى صمت الشاب وكأنه يعطيها الفرصة كي تستوعب ما قاله جيدًا... لكنه عاد إلى الحديث في لهجة ودود خلت من تلك الصرامة التي بدت في حديثه السابق:

«في القاهرة، ستكونين ضيفة عزيزة على الشعب المصري... كما أنك هناك سوف تجدين الإجابة عن كل سؤال قد يخطر ببالك أو يعن لك!».

في سرعة رهيبة كان عقلها يعمل.

زيارة سرية؟!

ما معنى هذا؟!

ثم... إلى أين؟!

إلى القاهرة حيث لا تعرف إنسانًا!

وبالرغم من أنها اختطفت نظرة من نصفي الورقة المالية وكأنها تعيد قراءة رسالة ديفيد مرة أخرى، فإن الأمر بدا لها غريبًا، بل بدا لها باعثًا على الاضطراب والخوف...

حقًا، إن ما حدث الآن يدعو إلى الاطمئنان والثقة، ولكن... هل من الممكن أن تسلم نفسها لشابين لم ترهما إلا منذ دقائق؟!

كان الأمر مربكًا... فمن أين لها أن تطمئن إلى أنها سوف تعود إلى طفليها بسلام؟!... طال الصمت وكانت في حاجة إلى المزيد من التفكير فقالت في محاولة لكسب بعض الوقت:

«لا بد أنكما تعرفان أن هناك عشرات الأسئلة قد خطرت ببالي».

«بكل تأكيد».

«لقد كان الأمر في الحقيقة مروعًا ومربكًا بالنسبة لي فإنني عندما...».

أوقفتها نظرات الشاب المحذرة وتذكرت على الفور قوله إنهما ليسا مفوضين لسماع شيء أو لقول شيء... هي لا تفهم من كل هذا شيئًا، وعندما ظنت أنها اقتربت من الحقيقة إذ الحقيقة تبتعد عنها ألوف الأميال، إذًا الحقيقة في القاهرة... أرادت المراوغة فسألت:

«متى أستطيع تلبية الدعوة؟».

«في الوقت الذي تشائين».

ها هو ذا الفتى ببراعة يضع الأمر كله بين يديها، وهي الآن تستطيع أن تفكر وأن تتردد وأن تشك... ترى، من كان هذا الرجل الذي أحبته وتزوجته وعاشت معه وأنجبت منه طفلين دون أن تعرف عنه شيئًا؟... تمنت لو أنها استطاعت ـ بل إنها همت بأن تفعل هذا ـ أن تطلب إليهما مهلة للتفكير، لكن شيئًا في أعماقها كان يدفعها دفعًا إلى السير في الطريق حتى نهايته... كانت تكره الخوف وتحتقره، كانت قد أقسمت

ألا ترفع العلم الأبيض، فهل تفعل؟!... عادت تراوغ من جديد علها تهدئ المعركة الدائرة في صدرها:

«لقد ذكرت شيئًا عن السرية يا سيدي!».

في حسم من يعرف طريقه قال:

«إن سلامتك وسلامة الصغيرين لا بد أن توضعا في المقام الأول من اهتمامنا».

«وماذا عليّ أن أفعل تجاه هذه السرية المطلوبة لسلامتي وسلامة طفليّ؟».

«لا شيء من ناحيتك سوى ألا تذكري لأحد ـ مهما كان صديقًا أو قريبًا ـ أنك ستطيرين إلى القاهرة».

«لكني بالتأكيد سأتغيب بعض الوقت!».

«ولذلك، فيمكنك القول بأنك مسافرة لزيارة شقيقتك فلورا في بلدة خام!».

اعتدلت هيلين وقد وجدت سببًا للاحتجاج، فما مدى ما يعرف عنها هذا الشاب الأسمر... هتفت:

«أيها الشاب!!»

استمر في حديثه هادئًا:

«وأنت غالبًا، كلما ذهبت إلى خام، تتحدثين إلى الدكتور «كارل جاروسلاف» في تشيكوسلوفاكيا، وهو الطبيب الذي يشرف على العلاج الطبيعي الذي تزاولينه كل عام في تلك المصحة النائية فوق جبال الـ.......».

قاطعته هيلين وهي تهب واقفة وقد اكتسى وجهها بحمرة غضب لا تخفى: «سيدي... إن هذا كثير!!».

وقف الشابان فور وقوفها، وقال الفتى في هدوء من أدهشه ما يحدث:

«ولكن الهر سمحون ذهب معك مرتين للاستشفاء بالمياه المعدنية».

نظرت إليه غير مصدقة وقد أحست أنه سكب فوقها دلوا من المياه الباردة شعرت هيلين بأن ما كان يقوله الفتى ليس سرًّا بأي معنى من المعاني وهي لا تعرف لم انتابها الغضب فجأة... أرادت أن تعتذر فعادت إلى مقعدها وهي تغمغم:

«ربما كنت على حق... ربما كنت على حق!».

عاد الشابان إلى الجلوس فاستطردت:

«أرجو أن تعذرني فالأمر يبدو بالنسبة لي غريبًا بكل المعاني!».

«في استطاعتي أن أفهم ذلك جيدًا».

واجهته الآن كالمتحدية:

«وإذا ما اتصلت بالدكتور كارل؟!».

«سيحدد لك موعدًا إذا ما طلبت أنت».

«هذا صحيح».

«وعادة ما يكون الموعد بعد ثلاثة أيام أو أربعة!».

«وهذا أيضًا صحيح!».

«وأيًّا ما كان الموعد، فلسوف تغادرين خام في اليوم التالي، وتتبعين نفس خط سيرك الذي اعتدت عليه كلما ذهبت إلى تشيكوسلوفاكيا للاستشفاء!».

التمعت عيناها بنظرات صارخة... واستطرد الشاب متجاهلًا نظراتها:

«ستستأجرين سيارة تعبر بك الحدود إلى مدينة «كلاتوفي» التشيكوسلوفاكية، حيث اعتدت أن تجدي سيارة المصحة في انتظارك».

«هل هذا معقول؟!».

«في نفس المكان ستجدين سيارة أخرى في انتظارك».

«ثم؟!».

«لن تحملك السيارة إلى المصحة بطبيعة الحال، ولكنها ستحملك إلى مطار براغ... وهناك ستلحقين بالطائرة المقلعة إلى القاهرة في المساء».

«ومتى أذهب إلى المصحة؟!».

«عندما يحل موعد الطبيب».

إلى هنا لم تستطع هيلين الاحتمال، سددت إليه نظراتها متسائلة:

«ألا ترى أيها الشاب أنك تعرف عني الكثير؟!».

في حسم ووضوح، وبلا مداراة، جاءها رده:

«سيدتي... لقد كان الهر سمحون يعني الكثير لبلاده!».

بدت لها إجابة الفتى رفيعة إلى الحد الذي ألجمها فاعتدلت في جلستها، غير أنها ـ لسبب غامض ـ أرادت المقاومة فقالت:

«ولكن... ما السبب في كل هذا اللف والدوران؟!».

«إنه نفس السبب الذي من أجله أرسلت خطابك بالآلة الكاتبة، حتى التوقيع... وفي جملة واحدة لا تعني شيئًا إلا لمن يهمهم الأمر!».

ساد الصمت لثوان عاد بعدها الشاب إلى الحديث في نبرة من يؤكد كل كلمة من كلماته:

«مرة أخرى يا سيدتي... إن السرية مطلوبة لحمايتك وحماية الصغيرين»...

تلقت كلمات الشاب في صمت، كانت الآن، ربما للمرة الألف، تتساءل:

من هذا الرجل الذي كان زوجها وحبيبها، والذي يعني بلاده إلى هذا الحد؟!... وعلى كل، فلقد أحست أنها هزمت في مباراة رياضية، وأن عليها أن تصافح خصمها، فقالت في رقة:

«كنت أفكر، كما أخبرتك في الصباح، أن أقضي بقية الأسبوع في بريمن».

ابتسم الشاب وقد أدرك أنها توصلت إلى قرار، واستطردت هي بنغمة من يعلن موافقته:

«فلم لا أقضي هذه الأيام في القاهرة!».

قالت هذا وهي تبتسم ابتسامة واضحة اعتبرها الشاب اعتذارًا عما بدر منها، فمال نحوها ـ كما هي عادة الشرقيين إذا ما تحدثوا إلى إنسان عزيز يبعد عنهم قليلًا ـ وهو يقول:

«لقد اعتدت يا سيدتي كلما سافرت إلى خام في زيارة عائلية، أن تستقلي الطائرة إلى فرانكفورت، ثم تستأجري سيارة تقطع بك الطريق إلى مسقط رأسك».

هتفت ضاحكة:

«هذا شيء لا يصدق!».

بدا الشاب وكأنه لم يسمع ما قالت، أخرج من جيبه الداخلي تذكرة طائرة قدمها خاطيًا نحوها:

«هذه تذكرة في الطائرة التي تقلع عادة في الظهر إلى فرانكفورت».

كانت مندهشة إلى الحد الذي أحست فيه أنها أصبحت مسلوبة الإرادة... وبالرغم من تمردها الداخلي، فلقد مدت يدها وتناولت منه التذكرة... فإذا به يخرج من جيب آخر جواز سفر أحمر اللون قدمه لها:

«وهذا جواز سفر مصري».

بدت وهي تتناول منه الجواز وكأنها تحلم.

«إنه كما ترين جواز سفر دبلوماسي».

ابتسمت رافعة إليه عينيها في تساؤل!

«وهو الجواز الذي ستغادرين به تشيكوسلوفاكيا، ثم تعودين به إليها».

بدت هيلين الآن ذاهلة تمامًا، فتحت الجواز بحركة لا إرادية، ما أن شاهدت صورتها حتى اعتدلت في جلستها، انتبهت، اختطفت نظرة من الفتى فوجدته باسمًا على استعداد لاستقبال نظرتها، فلقد قال وهو يعود إلى مقعده:

«إنه يحمل اسمًا مصريًّا بالطبع».

عادت تنظر إلى الجواز، وكان الاسم مكتوبًا بالعربية كما هو مكتوب بحروف لاتينية، وجدت نفسها تقرؤها بصوت عال:

«هيلانة رأفت الهجان!».

هتف الفتى:

«إن اسم هيلانة لقديسة مصرية».

قالت ساخرة:

«لست أعتقد أني أستحقه!».

«ولكنه الاسم العربي لهيلين».

«وماذا عن رأفت الهجان؟».

«إنه مجرد اسم».

قبل أن تلتقط أنفاسها استطرد:

«في السيارة التي ستقلك إلى براغ، ستتسلمين تذكرة على إحدى طائرات الخطوط الجوية التشيكوسلوفاكية».

ولم تفه هيلين بكلمة، كانت تشعر بأنها في حلم غريب، كان انتقالها من حياتها العادية إلى هذا الذي يحدث مفاجأة لم تستعد لها، بل لم تخطر ببالها... غير أنها ـ في نفس الوقت ـ كانت تحس بمزيج غريب من الخوف المشوب بلذة فائقة، كان إحساسها بأنها مسلوبة الإرادة يخبو ليحل محله الإحساس الفائق بالمتعة إذا ما كانت تشاهد فيلمًا من أفلام التوتر... إنها ـ حقًّا ـ تشعر وكأن أحدًا يقودها إلى طريق غامض، ولكنه ـ أي الطريق ـ يبدو مثيرًا للغاية، وبنفس القدر من القوة... لوحت في وجه الشاب بالتذكرة متسائلة في سخرية:

«أرى أنك حددت أيضًا موعد سفري من تلقاء نفسك!».

«هذا غير صحيح».

رفعت حاجبيها دهشة فإذا هو يستطرد:

«إن التذكرة مفتوحة...وكل ما نطلبه إليك أن تبلغينا بموعد سفرك حتى نكون دائمًا هناك، معك، ومن حولك، وفي استقبالك».

في تلك اللحظة، أحست السيدة هيلين سمحون بأنها تلقي بكل مخاوفها وشكوكها وعنادها خلف ظهرها... فلقد قالت على الفور وكأنها تقبل التحدي تمامًا:

«هل يناسبكم الغد؟».

«أهلًا بك في أي وقت».

«إذن... فإلى الغد».

على الفور نهض الشابان مستأذنين في الانصراف.

وفي الحقيقة فإن هيلين عندما قالت جملتها الأخيرة، لم تكن تنهي المقابلة، ذلك أنها أحست بأنها تريد استبقاء الشابين لفترة أطول، فعادت إلى الحديث متسائلة:

«وبالنسبة للسرية التي ذكرتها، أليس مطلوبًا إليَّ أي شيء؟».

ابتسم الشاب وهو يخطف من زميله نظرة غمض عليها معناها:

«لا شيء بالمرة سوى...».

صمت مبتسمًا فاستفسرت:

«سوى؟!».

«سوى نظارة شمسية من النوع الذي لم تعتادي أن ترتديه... ولتكن نظارة من هذا النوع الحديث والسخيف».

ضحكت ناهضة إليهما، همت بالحديث فأوضح:

«على ألا ترتديها إلا وأنت صاعدة إلى الطائرة المتجهة إلى القاهرة من براغ!».

كانت الآن تقف قبالتهما... وكانت تشعر بمثل هذا الدفء الذي أمدها به ديفيد يوم تعرفت إليه... يا لشعوب الشرق هؤلاء! غمرتها السعادة فجأة، فاتسعت ابتسامتها، وهي تمد لهما يدها قائلة:

«كم أنا سعيدة بلقائكما!!».

غادر الشابان البيت... ووقفت هيلين سمحون خلف زجاج النافذة ترقب سيارتهما وهي تنطلق مبتعدة.

كان الظلام قد هبط الآن تمامًا، وكان البهو مضاء فسارت إلى مفاتيح النور واحدًا إثر الآخر، أغلقت باب البيت بالمزلاج، ثم عادت لتكمل إطفاء الأنوار.

الآن... كانت وحيدة في البيت تمامًا، وبرغم التدفئة، فلقد شعرت بتيار من البرودة يسري في جسدها فارتجفت. ها هي ذي تذكرة الطائرة وجواز السفر ونصفا الورقة المالية هناك، أمامها، فوق مائدة صغيرة مجاورة لمقعدها... على الضوء الخافت الذي أبقته سارت والتقطت الأوراق... تذكرت أن عليها أن تجري بعض المكالمات التليفونية استعدادًا لرحلة الغد... لكنها راحت تتساءل وهي تصعد الدرج إلى الطابق العلوي:

ما هذا الذي حدث؟!

وكيف وافقت؟!

وأية مخاطر تزج بنفسها فيها؟!

ثم...

من هو ديڤيد شارل سمحون؟!

مصري أم إسرائيلي؟!... جاسوس أم بطل؟!

تزاحمت الأسئلة في رأسها دون إجابات... فقررت أن تتوقف عن التفكير، وأن تسعى وراء الحقيقة، وأن تعرفها كاملة وعارية!!

الفصل الثالث

زيارة سرية للقاهرة

لا بد أن هذا الذي يحدث لا ينتمي إلى عالم الواقع الذي عاشته هيلين سمحون لأكثر من أربعين عامًا، تظن في بعض الأحيان أنها تحلم حلمًا غريبًا سوف تتندر به بعد أن تصحو من النوم، وفي أحيان أخرى تشعر وكأنها تلعب دورًا في فيلم مليء بالإثارة... غير أن الفرق الوحيد هو أن الإثارة تحدث في الواقع والحقيقة، وليست على شاشة بيضاء أو سطور قصة في كتاب شائق!

كان لديفيد سمحون الفضل في ارتيادها عالم العاطفة المسحور بكل ما فيه من أضواء وألوان ومتعة، كان جياشًا دافئًا وكأنه اختزن عواطفه طوال العمر حتى يلتقي بها فتتدفق في طوفان أخذ يكتسح في طريقه كل شيء... كان سعيدًا كصبي يقع في الحب لأول مرة... كان ... كان... ولكن، ما الذي يدير شريط الذكريات فإذا الذي كان يمر بها مر الكرام يصبح له معنى؟!... سألته ذات مرة: كيف بلغ هذه السن؟ وكيف كانت له كل تلك التجارب؟ وكيف عاش مثل تلك الحياة دون أن يقع في الحب مرة؟! قال:

«لم أكن أستطيع!!».

صاحت فيه مازحة طالبة إليه أن يكف عن المبالغة وإضفاء ثوب البطولة على حياته، فحتى كفاحه ودفاعه وصراعه من أجل إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، لم يكن يمنعه من الحب والزواج!!

قاطعها ديفيد في حدة:

«لا.. ليس من أجل هذا».

كانت هذه من المرات القليلة، بل النادرة، التي رأت فيها الغضب في عينيه، شعرت أنها آذته دون أن تقصد، حاولت الاعتذار فأوقفها باسمًا في حنان:

«ولكنك ذات يوم ستفهمين.. ذات يوم ستفهمين!!».

فهل آن لها أن تفهم؟!

وهل كان ديفيد يعلم أنه سيموت عندما راح يلتهم الحياة معها التهامًا يبعث على الدهشة والحيرة والسعادة؟!... الغريب، أنها لا تزال، حتى بعد موته، تسبح مع أمواجه العاتية!

* * *

لم تستطع السيدة هيلين سمحون أن تشاهد القاهرة من الجو عندما وصلت إليها الطائرة بعد غروب الشمس... حجبت السحب الكثيفة سماء المدينة وغطتها تماما، وكانت درجة الحرارة فيها ـ كما أعلنت المضيفة في الميكروفون ـ تسع درجات مئوية!

اخترقت الطائرة السحب الكثيفة هابطة نحو الأرض، فما أن تخطت ذلك الركام الضبابي حتى التمع رذاذ المطر الذي راح ينهمر في رقة على أضواء كشافات الطائرة، وكان له منظر يخلب الألباب... ها هي ذي أنوار القاهرة تبدو تحت المطر وكأنها عالم مسحور، سألت ديفيد ذات مرة عن أحبِّ المدن إلى قلبه فهتف دون تفكير أو تردد:

«القاهرة... فليس في الكون مدينة تعادلها جمالًا!».

ومنذ أن بدأت رحلتها عند الظهر انتظرت أن يظهر ضيفاها اللذان زاراها بالأمس دون جدوى، كانت تشعر أنهما لا بد أن يكونا هناك، معها ومن حولها كما قالا، ولكن عبثًا... وطدت العزم ـ إن هي رأتهما في هذا المطار أو ذاك أو حتى في هذه الطائرة أو تلك ـ أن تتظاهر بأنها لا تعرفهما... لكنهما لم يظهرا طوال اليوم، وبالرغم من ذلك، كانت تشعر بوجودهما شعورًا يصل إلى درجة اليقين!

في مساء الأمس، وقبل أن تأوي إلى فراشها، تحدثت إلى مديرة مكتبها، قالت إنها ستطير في اليوم التالي إلى «خام» في زيارة عائلية، كما أخبرت أولجا ـ سكرتيرتها ـ وفرانز العجوز في الصباح... وكانت أوامرها مشددة بالنسبة لهم جميعًا، ألا يتصل بها أحد هناك مهما كانت الأسباب، وألا يعرف أحد أنها هناك!

عندما دخلت إلى مطار هامبورج كان أول ما فعلته هو شراء نظارة شمسية ذات شكل غريب ومضحك... وكانت، وهي تنتقي موديلًا سخيفًا ـ على حد قول الشاب بالأمس ـ تتساءل: من أين لهؤلاء المصريين أن يعرفوا أن ذوقها في الملابس «دقة قديمة»؟!... لكنها سرعان ما ابتسمت ساخرة وهي تقول لنفسها: ومن أين لهم أن يعرفوا طريقي الذي أسلكه كلما ذهبت إلى «خام»؟!

قبل أن تصعد إلى الطائرة المتجهة إلى القاهرة في مطار براغ، وضعت النظارة الشمسية فوق عينيها، وعندما نظرت في المرآة ابتسمت في دهشة حقيقية، فلقد كان شكلها غريبًا تمامًا، إلى حد أنها أيقنت أن أحدًا ممن يعرفها، لا يمكن ـ إذا ما مر بها وهي ترتدي هذه النظارة ـ أن يميزها أو يتعرف عليها أو يتصور أن هذه السيدة التي تضع مثل هذه النظارة هي هيلين سمحون!

عندما صعدت إلى الطائرة كانت الدرجة الأولى خالية إلا من راكب

واحد انتحى جانبًا، وفتح حقيبة أوراقه، ووضع نظارة طبية، وانحنى على الأوراق يقرأ ويدون ويكتب ويقلب ثم ينظر في ساعة يده ويتأفف في ملل من يتعجل الوصول، ظل طوال الرحلة على هذه الحال... وبالرغم من ذلك فلقد أحست بشكل ما، أنه هناك من أجلها!!

هبطت الطائرة في مطار القاهرة وكان الرذاذ لا يزال يغسل الدنيا في رفق، تقدمت نحو الباب المفتوح وشكرت المضيفتين اللتين كانتا في وداعها، واللتين أولتاها رعاية خاصة عزتها إلى قلة عدد الركاب في الدرجة الأولى... أفسح لها زميلها المتأفف الطريق فخطت تحت المظلة التي كان يحملها مضيف شاب كان يقف عند رأس السلم المؤدي إلى أرض المطار حيث كانت سيارة ميكروباس تابعة لشركة مصر للطيران في انتظار راكبي الدرجة الأولى... تلفتت حولها وأمامها فلم تجد من هو في استقبالها كما قال الشابان بالأمس، ولربما نسي المصريون أنها قادمة فماذا عليها أن تفعل... عند باب السيارة مد المضيف يده ليساعدها على الصعود إلى الميكروباس، صعدت إلى السيارة بسرعة هربًا من الرذاذ وكان زميلها في الرحلة وراءها، وكان التأفف قد اختفى من ملامحه... على الفور أغلق الباب وتحركت السيارة بضعة أمتار، ولم يكن بها سوى السائق الذي بدا منشغلا بالقيادة فوق الأرض المبللة، حتى التفت المتأفف نحوها وكانت ابتسامته المرحبة تضيء تقاطيعه فكأنه تحول إلى إنسان آخر:

«مرحبا بك في القاهرة فراو سمحون!».

التفتت إليه في مرح ولم تملك نفسها من الصياح ضاحكة:

«لقد خمنت هذا... لقد خمنت هذا بالفعل!!».

«هل تسمحين لي أن أقدم لك نفسي؟».

«أرجوك!».

«حسين شكري من المخابرات العامة المصرية».

كان يتحدث بالإنجليزية، وكانت إنجليزيته واضحة، اجتاحها المرح لسبب لا تدريه، قالت:

«هل تعرف أني كنت أفكر طوال الرحلة في أنك كنت هناك من أجلي؟!».

«إذن فنحن نتعامل مع ذكاء لا بد أن نحسب له ألف حساب!».

«لا تكن متفائلًا، فلقد نهرت نفسي بعنف وطلبت إليها ألا تجنح للخيال!».

قالت هذا وهي تضحك فبادلها الضحك وكانت السيارة تبتعد في أرض المطار عن مبناه الرئيسي حيث الأضواء والأنوار تغمر المكان... خفتت الضحكات فاكتسى وجه رفيقها بمسحة من الجدية، اعتدل في جلسته اعتدال منْ سيقول كلامًا ينبغي له أن يسمع جيدًا:

«أحب أن أنقل إليك ترحيب الشعب المصري بوجودك في بلاده».

في انطلاق وجدت نفسها تقول:

«ليتني أستطيع أن أشكر الشعب المصري على كرمه ورقته في استقبال ضيوفه».

ولم يكن هناك مزيد من الوقت كي يتبادلا الحديث أكثر من ذلك، فلقد توقفت السيارة في مكان بدا لها غريبًا ألهاها الحديث عن النظر إلى الطريق فإذا هي في مكان خافت الإضاءة بعيدًا عن مبنى المطار الرئيسي، فتح باب السيارة من الخارج فور وقوفها، وأشار حسين شكري إلى سيارة سوداء اللون ألمانية الصنع فاخرة كانت تقف هناك:

«تفضلي فراو سمحون».

هكذا قال مضيفها فشملت المكان المظلم بعينيها وأرادت أن تخاف لكنها لم تستطع، غادرت الميكروباس إلى السيارة تحت مظلة كان

يحملها سائق يرتدي زيًّا خاصًّا أنيقًا تحت معطف مطر شفاف... ما أن عبرت تحت المطر ودلفت إلى السيارة السوداء حتى هتفت:

«ولكن حقيبتي...»

ولم تكمل، ولم تكن في حاجة إلى ذلك، فلقد هتف الرجل الذي دلف خلفها وجلس إلى جوارها:

«لا تقلقي يا سيدتي!».

* * *

في إحدى الڤيلات الأنيقة، وسط حي راق من أحياء ضاحية مصر الجديدة، قضت السيدة هيلين سمحون ليلتها، وجدت في الڤيلا ـ منذ أن دخلتها ـ رعاية من نوع خاص، قدمها لها مجموعة صغيرة من الشبان والشابات الذين كانوا يتمتعون بمواهب عديدة، سألها مضيفها إن كانت في حاجة إلى شيء بعينه، فشكرته قائلة:

«ليس أكثر من عشاء خفيف، فلست أدري أي يوم ينتظرني غدًا؟!».

أرادت بكلماتها الأخيرة أن تجري معه حوارًا تستكشف به خبايا الغد لكنه بدا وكأنه لم يسمع ما قالته، فلقد بادلها الابتسام وهو يقول:

«إذا احتجت إلى أي شيء فليس عليك إلا أن تطلبي».

ثم ودعها وانصرف!

وكانت حقيبتها الآن قد وصلت!

* * *

كانت الڤيلا التي نزلت فيها السيدة سمحون أنيقة بقدر يسمح للمقيم فيها أن يشعر بالارتياح دون حرج... بعد أن تناولت العشاء تقدمت منها عزيزة ـ وهذا هو اسم الفتاة المصرية الخمرية اللون الباسمة العينين التي لازمتها، حتى في العشاء، كمضيفة لها ـ وسألتها إن كانت تحب أن تشاهد

التليفزيون المصري، فسألتها هيلين عن البرامج التي سيعرضها، فقالت الفتاة الخمرية اللون وهي تنظر في ساعة يدها وكانت تشير إلى الحادية عشرة مساءً: إنه لم يبق في البرامج سوى فيلم السهرة... سألتها عن موضوعه، فقالت عزيزة إنه عن فتاة مصرية تجسست لحساب إسرائيل قبل حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، وإن اسمه «الصعود إلى الهاوية»... وفي حقيقة الأمر فإن هيلين لم تكن على استعداد لمشاهدة فيلم مصري، ولكن العنوان استخفها، فسألت عزيزة عن معناه، فقالت هذه:

«لو أنك شاهدت الفيلم، لأدركت معناه يا سيدتي!».

كانت عزيزة تتقن اللغة الألمانية إتقانًا بدا لهيلين مدهشًا، لكن دهشتها زالت عندما عرفت أن عزيزة تعلمت في المدرسة الألمانية منذ طفولتها المبكرة، وكانت على استعداد لأن تترجم لها الحوار أيضًا... وهكذا شاهدت هيلين في تلك الليلة ذلك الفيلم وهي تتساءل: هل هي صدفة أن يعرض التليفزيون هذا الفيلم في نفس ليلة وصولها؟!... ولكنها لم تسأل عزيزة بالطبع، وكان كل ما قالته بعد أن ترجمت لها الفتاة الرقيقة حوار المشهد الأخير:

«إنكم تحبون بلادكم إلى حد العذاب!».

وردت عزيزة على الفور:

«لأننا تعذبنا في حبها كثيرًا يا سيدتي».

* * *

في صباح اليوم التالي، كانت السحب التي عبرت سماء القاهرة بالأمس قد انقشعت بعد أن أفرغت حمولتها طوال الليل مطرًا يهطل لساعات... في الصباح كان الجو صحوًا والسماء تبدو شديدة الزرقة، والشمس ترسل أشعتها الدافئة لتغمر بها كل الدنيا... لذلك، فلقد وافقت «فراو سمحون» على اقتراح عزيزة بأن تتناول إفطارها في شرفة

الڤيلا المطلة على تلك الحديقة الصغيرة، التي بدت لها ـ برغم الشتاء وبرودة الجو ـ خضراء مورقة... كما ذكرتها بعض النباتات فيها بتلك التي كان ديڤيد مولعًا برعايتها في حديقة بيتهم... كان إفطارها مكونًا ـ كما طلبت ـ من البيض والجبن الأبيض والمربى، ثم فنجان من القهوة الساخنة اللذيذة!

في ذلك الصباح كانت عزيزة من الرقة بحيث لم تثقل عليها بوجودها، بل بدت لها مثل طيف يظهر إذا احتاجت لشيء ثم يختفي... ولقد أحست هيلين بأن ذهنها يبدو صافيًا تمامًا... كانت قد قضت ليلة هادئة، واستغرقت في النوم كطفل رضيع... بدا لها كل شيء الآن، وهي جالسة في الشرفة، واضحًا أشد ما يكون الوضوح، وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى تواجه الحقيقة التي عذبتها... تلك الحقيقة التي برغم وضوحها وسفورها، لم تجب عن سؤال كان يلح عليها إلحاحًا متصلًا: «من كان ديڤيد شارل سمحون؟!».

«هل تريد فراو سمحون مزيدًا من القهوة؟!».

رفعت عينيها نحو عزيزة فبدا لها لونها الخمري صافيًا رائعًا، قالت في ترحيب:

«أرجوك!».

تابعت الفتاة في انصرافها، وتابعت فتى جاء مهرولًا كي يرفع أطباق الإفطار وراحت من جديد تتساءل: «من كان هذا الرجل ديڤيد شارل سمحون؟!»... من الرجل الذي تعامل أرملته في مصر بمثل هذه الرقة وبمثل هذا الترحيب؟... وكيف... كيف عاشرته طوال ما يقرب من سبع سنوات، وأنجبت منه طفلين، دون أن تكتشف حقيقته؟!... أية داهية كان ديڤيد؟!... وأي ثعلب هذا الرجل؟!... ثم، أي نوع من الرجال كان؟!

وكان لا بد ـ في هذا الوقت من الصباح، وفي مثل هذا الجو الدافئ المخدر ـ أن تترى الذكريات!!

* * *

كان لقاؤها الأول بديفيد شارل سمحون في عشاء أقيم على شرفها في تل أبيب، التي كانت قد طارت إليها لتوقيع عقد صفقة من تلك الصفقات الروتينية التي تعقدها شركتها ومديروها مع العديد من دول العالم... وعندما قدموا لها ديفيد في ذلك المساء بدا لها لأول وهلة رجلًا غريبًا، ذلك أنها شعرت ـ وكانت تراه لأول مرة في حياتها ـ وهي تصافحه أنه يقتحم حياتها بنظرات عينين شديدتي التعبير والنفاذ... ظنت في البداية أنه واحد من رجال الأعمال الذين يخلطون بين الجد والهزل فنفرت منه، غير أن دهشتها كانت عظيمة، عندما بدأ معها حوارًا حول موضوع الصفقة التي جاءت من أجلها... كان أول ما أدهشها في الأمر أن ديفيد كان على إلمام كاف ووافٍ بجميع التفاصيل التي كانت تظن أنها تندرج تحت بند السرية... قال لها في تلك الليلة إنه يعمل في السياحة حقًا، لكنه يفكر في خوض تجربة العمل في مجالات أخرى... وأن لا شيء ينقصه سوى دليل يقوده عبر الدروب الأولى لهذه المجالات!

وهي لا تدري كيف عرضت عليه أن تساعده... هل كانت في حاجة لأن تلتقي به مرة أخرى، أم إنه هو الذي دفعها، بذكائه، إلى هذا العرض؟... وهي لا تدري كيف ضرب لها موعدًا في اليوم التالي فوافقت، كيف التقيا وكيف بدأ الحديث وكيف ناقشا الأمر وكيف انتهت المناقشة إلى اتفاق بإنشاء شركة بينه وبينها؟!

وقد يكون هذا كله موضع تحليل يصل بها إلى أنها كانت في حاجة لهذه الشركة ربما أكثر منه، وأن الصفقة كانت مجزية تمامًا... قد يكون الأمر كذلك، ولكن كيف كان ديفيد شارل سمحون رجل الأعمال

الإسرائيلي، الشهير والمرموق وموضع ثقة كل من التقت به في تل أبيب، كيف كان في الأيام التالية لوجودها في إسرائيل؟!

ولقد حاولت أن تجد الإجابة عن عشرات الأسئلة التي طرحتها على نفسها قبل الزواج منه وبعد أن تم الزواج أيضًا، لكنها لم تجد إجابة واحدة، ذلك أن الأحداث كانت تندفع نحو تلك النتيجة التي وصلت إليها بقوة خفية... وهي لا تدري سوى أن هذا الرجل النحيل له حديث ساحر يأخذ بالألباب، وقدرة فذة على الإقناع دونما ضغط أو مباهاة... أكثر ما أدهشها فيه أنه لم يكن يساوم في تفاصيل تافهة، لكنها تبدو شديدة الأهمية لبني جنسه... هي ليست من أعداء السامية، وهي ترى أن العداء لجنس من البشر نوع منحط من التخلف فرضته ظروف بعينها... ولكن ثمة حقائق وصفات بالنسبة للأجناس تبدو كجزء من «جيناتها» وطبيعتها وتكوينها الديني والخلقي والاجتماعي والوراثي... هي تعرف ـ دون تحزب أو تعصب ـ أن اليهودي إذا ما ساوم إنسانًا حول صفقة، أو بيع أو شراء أو مشاركة، سار في طريق من يريد أن يأخذ كل شيء، ولا يعطي شيئًا على الإطلاق... وكما اشتهر الإنجليز بالبرود اشتهر اليهود بالبخل... هؤلاء هم اليهود في كل زمان ومكان وعصر.

لكن ديفيد لم يكن كذلك!

قضت الأيام التالية في تل أبيب وهما يلتقيان كل يوم... أنهيا اتفاقهما ووقعا عقد الشركة بينهما وكانت تشعر أن شيئًا ـ غير العمل ـ سوف يربطها بهذا الرجل إلى الأبد!!

وانقضت أيامها في إسرائيل وصحبها إلى المطار في سيارته كي يودعها... ورغم كثرة لقاءاتهما، ورغم الصداقة التي ربطت بينهما، ورغم أنهما سهرا معًا وتعشيا معًا ورقصا معًا وقاما برحلة إلى القدس وقضيا يومًا استمتعا فيه بشمس الشرق الدافئة، رغم كل هذا، لم يكن

هناك ما يشير أو يوحي بشيء من عاطفة أو حب... لكنه في المطار، وقبل أن تمضي إلى الطائرة، مال عليها ـ بغتة ـ وقبلها في وجنتها... ولقد أخذت بما فعل رغم أنه يبدو طبيعيًا ولا يعني شيئًا... لكن حرارة الفعل سرت إلى جسدها مثل تيارٍ كهربائي جعلها ترتجف، رفعت إليه عينين تائهتين، وكان هو يبتسم قائلًا:

«صدقي أو لا تصدقي يا هيلين، إني سأفتقدك كثيرًا!!».

ولم ترد عليه، أرخت عينيها وهرولت هاربة من نظراته، كان المذهل في الأمر أنها كانت تشعر ـ هي الأخرى ـ أنها سوف تفتقده كثيرًا... شيء غريب كان يجذبها إلى هذا الرجل الطويل النحيل، شيء بدا لها غامضًا ومثيرًا أشد ما تكون الإثارة، في حياة كانت تسير على وتيرة شديدة الإملال!!

في هامبورج، كان عليها أن تجهز أوراق الشركة للتسجيل ـ هكذا اتفقا في تل أبيب بعد توقيع العقود ـ وكان عليها أن تبرق له إذا ما انتهت تلك الإجراءات، كي يحضر إلى ألمانيا، لتصبح بعده الشركة كيانًا قائمًا بالفعل.

في البداية ـ وبما لها من خبرة ـ قدَّرت أن الأمر قد يستغرق أسبوعًا أو عشرة أيام، ولكن كل شيء ـ وكانت هذه مصادفة غريبة ـ كان جاهزًا في ثلاثة أيام... ولكنها لم تبرق إليه... كانت في حاجة إلى بضعة أيام كي تتخلص من هذا الإحساس الغريب الذي راح يطاردها ليل نهار... استغرقت في العمل، ارتبطت بمواعيد للذهاب إلى المسرح والعشاء في الخارج... كانت تقضي يومها كله في عمل أو متنقلة من مكان إلى مكان، غير أن الليل دائمًا ما كان يأتي، وكانت لا بد أن تدخل فراشها، لتمارس أحلامها كصبية مراهقة!!

وكان لا بد أن تبرق إليه، فأبرقت له في صباح يوم، ليركب هو الطائرة في نفس اليوم، ولتطالعها ابتسامته في المساء وهو يهتف:

«إني في حاجة لمن يدعوني إلى العشاء!».

ودعته إلى العشاء، ورقصت معه طوال الليل، وقاومت بجهد شديد رغبتها في الاستسلام لذراعيه، وهي لم تكن تعرف لمَ كانت تقاوم ولمَ كانت ترفض... هل لأنه يهودي، أم لأنه إسرائيلي الجنسية، أم لأنه شرقي، أم لأنها تعودت على الوحدة منذ توفي زوجها الأول، أم إنها كانت خائفة من طوفان العواطف الذي كان يكتسح مقاومتها في عنف كلما جلست إليه؟!

سألته ذات ليلة:

«ديفيد... من أنت؟!».

«ملاح يبحث عن شاطئ!».

كان هذا في الشهور الأخيرة من عام ١٩٧٤ وعندما لمحت الدموع تترقرق في عينيه في تلك الليلة، فقدت كل قدرة على المقاومة، وعندما امتدت يده لتأخذ بيدها، كان صوته يتسلل إلى قلبها فيغزوه بعنف:

«ولقد وجد شاطئه يا هيلين!».

«ولمَ لا يرسو؟!».

«ينتظر الإذن بالدخول إلى الميناء!».

وارتمى كل منهما في أحضان الآخر!!

عندما أوصلها بالسيارة إلى البيت في تلك الليلة، قال قبل أن تغادرها:

«هيلين!».

كان الآن يبدو غريبًا، جادًّا وكأنه يحمل هموم الأرض فوق كتفيه، سمعت صوت أنفاسه اللاهثة تتردد في سكون العربة الدافئة، التفتت إليه وانتظرت، بدا لها وكأنه يعاني من ألم مجهول... لكنه ما لبث أن قال:

«لقد فكرت في الزواج كثيرًا طوال السنوات الماضية!».

داعبته متحدية:

«ولِمَ لم تتزوج؟!».

«لأني ـ في الحقيقة ـ لم أكن راغبًا في الزواج!».

«والآن؟!».

ضحك ضحكة بدت لها خجولًا، ثم جاءها صوته ممزقًا بالانفعال وكأنه لا يصدق ما يشعر به:

«الكارثة أني لا أحبك فقط، لكني أصبحت لا أستطيع العيش بدونك!».

أيقنت أنه كان يتعذب، وأن عذابه كان لسبب مجهول، هتفت وهي تأخذ وجهه بين ذراعيها:

«ديڤيد».

«أحبك».

«أعرف».

«وأريد أن أتزوجك!».

«وأنا موافقة!».

«وأن أنجب منك أطفالًا!».

أحاطت عنقه بذراعيها وهي تهتف به:

«أيها المجنون... أيها المجنون!».

واكتشفت هيلين أن كليهما كان يبكي، وأن دموعهما كانت تختلط لتغسل وجهيهما في سعادة لم تذق مثلها من قبل، هتفت في لحظة فقدت فيها نفسها:

«لنتزوج غدًا يا ديڤيد!».

كانت تخشى من التردد، لكنها، ولو عاشت مائة عام أخرى، لن تنسى سحابة الحزن تلك التي مرت بملامحه فاجتاحها كإعصار رهيب، عادت تهتف به:

«ديڤيد!!».

«هذا ما كنت أود الحديث معك فيه!».

«ماذا تريد أن تقول؟!».

«هل تستقيم الأمور لو أننا تزوجنا وظل كل منا يعيش في وطن؟».

«أعرف أن الأمر لن يكون سهلًا ولكن...».

قاطعها:

«وهل من مصلحتك ومصلحة أعمالك أن تنقليها إلى إسرائيل؟».

«هذا مستحيل يا حبيبي!».

«وهذا ما أعرفه يقينا!».

نظرت إليه هيلين وقد تسلل القلق إليها، عادت تهمس:

«ماذا تريد أن تقول بالله عليك؟!».

«أريد أن أقول إني سئمت كل شيء!».

«لست أفهم!».

«أريد أن أصفي أعمالي في تل أبيب، وأن أعيش إلى جوارك ما بقي لي من عمر!».

في حرارة وجدت نفسها تهتف:

«كم أحبك أيها المجنون!».

«سأشرع في نقل أعمالي إلى ألمانيا، حتى إذا استقر بنا الأمر تزوجنا!».

وهكذا مضت بهما ستة أشهر من اللهفة والعذاب والقلق والانتظار، كانت تظن في البداية أن الوقت قد يجلب التردد إلى صدرها ولكنها كانت تزداد قربًا منه وحبًّا له، كانا يتحدثان في التليفون كل ليلة فتمضي بهما الدقائق لتكتمل ساعات وكأنهما صبيان يعيشان حياتهما لأول مرة، ذات مساء صاح فيها:

«هيلين... لقد أفلست تمامًا!».

انزعجت. هتفت:

«ماذا؟!».

أطلق ضحكة جلجلت عبر الأثير عابرة القارات إلى حيث يركض قلبها بين ضلوعها:

«هل تعرفين كم دفعت في فاتورة التليفون صباح اليوم؟!».

فأطلقت هي الأخرى ضحكة مجلجلة، لكنها ضحكت أكثر وهو يقول:

«هل نسيت أني يهودي أيتها السيدة؟!!».

يا لرقته ومرحه وحنانه وسخريته اللاذعة من كل شيء حتى من نفسه! يا لروعة الشوق وحرارته وهو يغزو قلبًا لم يعرف للشوق طعمًا من قبل! يا لبطء الأيام وهي تزحف كالسلحفاة لا تريد أن تخطو!... دق جرس التليفون ذات ليلة وكان يتحدث من روما، صاحت فيه أن يركب أول طائرة إلى هامبورج كي يراها وتراه، اعتذر بأعمال تشغله وكان في عجلة من أمره وكان سعيدًا وكان مرحًا... هي لا تنسى، ولن تنسى، صوته في تلك الليلة، كان يبدو وكأنه أمسك القمر بيده:

«هيلين... سوف نتزوج... سوف نتزوج قريبًا!».

ولكم ساءلت نفسها طويلًا عن سر تلك الجملة... ألم يتفقا على الزواج منذ شهور فما معنى ما قاله؟... ولكن إحساسها بالسعادة صادر رغبتها في إثارة جدل قد لا ينتهي إلى شيء... أليس غريبًا أن يملك رجل تجاوز الأربعين بعدد لا بأس به من السنين، وامرأة جاوزت الثلاثين بنفس العدد، كل هذه الحرارة وكل هذا الحب وكل هذا الشوق وكل تلك الرغبة في الحياة؟!

حتى كان يوم من أيام مارس ١٩٧٥. كانت مستغرقة في أعمالها في مكتبها بالشركة عندما أخبروها أن الهر سمحون ينتظر في الخارج... صاحت غير مصدقة:

«هر مَنْ؟!».

«هر سمحون يا سيدتي!».

قفزت من مكانها، فقدت وقارها، اندفعت وسط دهشة موظفيها تعبر الغرفة وتفتح الباب وتصيح في اللحظة التي وقعت فيها عيناها عليه:

«أيها الثعلب!».

فتح لها ذراعيه فارتمت غير عابئة بنظرات الموظفين وابتسامات الموظفات، ألغت كل المواعيد، واعتذرت عن كل شيء، دفعته إلى غرفة مكتبها، أغلقت الباب وأجلسته أمامها وانحنت نحوه متسائلة واللهفة تأكلها أكلًا:

«إجازة؟!».

هز رأسه نفيًا... فسألته وقد غاضت الابتسامة من وجهها:

«مزيد من العمل؟!».

مرة أخرى هز رأسه نفيًا، صاحت وهي تلقي بنفسها إلى جواره:

«ماذا إذن؟!».

همس:

«زواج!!».

ولم تكن هناك على وجه هذه الأرض امرأة أكثر سعادة من هيلين ريشتر، التي كانت تدعى قبل زواجها الأول، هيلين شيبربور، والتي سيصبح اسمها بعد ساعات «هيلين سمحون».

* * *

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة صباحًا بقليل، وكانت لا تزال جلستها تلك في شرفة الڤيلا المطلة على الحديقة، ترشف من فنجان قهوتها الثاني على مهل، عندما شاهدت السيارة السوداء الألمانية الصنع تقف بالباب.

تابعت «حسين شكري» وهو يغادر السيارة في نشاط، ثم يدلف من باب الڤيلا ملوحًا في مرح وكأنهما صديقان قديمان، ثم وهو يقفز الدرجات المؤدية إلى الشرفة في رشاقة من يمارس لعبة رياضة عنيفة... تقدم منها ملقيًا عليها تحية الصباح، ثم وقف قبالتها متسائلًا:

«هل أطمع في تناول فنجان من القهوة معك؟»

هكذا كان مرح ديڤيد، رقيقًا بسيطًا خاليًا من التكلف، كانت على حق يوم صاحت فيه إنه ليس يهوديًا وليس إسرائيليًا، فضحك وكأنها قالت نكتة... سألها حسين شكري بعد أن وضعت عزيزة فنجان القهوة أمامه:

«كيف قضيت ليلتك يا سيدتي؟».

قالت مبتسمة:

«هل أنت في حاجة إلى الإشادة بالكرم المصري؟!».

«لعلك أخذت قسطًا وافيًا من الراحة؟».

فهمت ما الذي يعنيه فسألته:

«هل أستطيع أن أعرف شيئًا عن برنامج يومي؟».

«ليست هناك سوى مقابلة واحدة».

«مع من؟!».

«مع مدير جهاز المخابرات العامة المصرية».

ها هي ذي تقترب من الحقيقة سافرة عارية بلا ظنون أو تخمين.

«متى؟!».

«بعد نصف ساعة».

همت في جلستها:

«ماذا ننتظر إذن؟!».

أشار إلى فنجان القهوة هاتفًا في مرح:

«أن أنتهي من قهوتي!».

«هل هناك متسع من الوقت؟!».

كانت تبدو كطفلة متعجلة. قال:

«بالطبع لا... ولكننا سنصل في الموعد!».

قال هذا وهو ينهض راشفًا رشفة أخيرة من فنجان القهوة... وهكذا احتوتها السيارة السوداء مع رفيق رحلتها هذا، وانطلقت بهما في شوارع القاهرة، وكانت المدينة، تحت أشعة الشمس الواهنة، تبدو مغسولة... تبدو كعروس خرجت من الحمام لتوها!

* * *

كانت السيارة التي ركبتها هيلين، من النوع الذي يخفي زجاجها من في داخلها، لكي يتيح للراكب أن يرى كل شيء في الخارج...

ولا تدري هيلين لِمَ أشعرها هذا بسكينة تسللت إلى نفسها فاستسلمت مرة أخرى للذكريات، ولِمَ لا؟!... ألم يولد ديڤيد في هذه المدينة كما قال لها؟!... ستطلب إليهم زيارة البيت الذي عاش فيه، ولسوف يلبون بالطبع.. حرصهم عليها يشعرها بالامتنان... في نهاية عام ١٩٧٦، أنجبت طفلها الأول «يوسف»، كان ديڤيد سعيدًا سعادة تفوق حدود التصور، لم تحلم هي بأن تنجب أصلًا، ولكن: كيف فعلت ما فعلت وكيف أقدمت على ما أقدمت عليه؟!... هذا ما لم تفهمه حتى الآن... هل كانت رغبة ديڤيد في طفل آخر هي السبب أم أنها استعذبت أن تكون أمًّا؟!... أنجبت بعد عامين طفلها الثاني «سليمان»، سبع سنوات هي منذ أن التقيا حتى فارقها تاركًا لها طفليه... تركت له كل شيء في أعمالها فتزايدت أرباحها وتزايدت أرباحه... أصيب بالمرض بغتة ودون توقع أو آلام أو مقدمات... كانت الآلام في البداية خفيفة، لكنها، في سرعة مجنونة، راحت تتصاعد وتتصاعد وتمزقه تمزيقًا... اكتشفوا المرض الخبيث في وقت متأخر، وكان الأمل يخبو يومًا بعد يوم لكنه ـ ديڤيد ـ لم يفقد الأمل لحظة... ورغم آلامه وعذاباته لم تختف ابتسامته أبدًا، عالجه أمهر أطباء العالم، لكن السرطان كان مثل غول ينهش بقية عمره بلا رحمة... دوامة بدأت ولم تنته حتى الآن... في تلك الليلة كان واضحًا أنه سيذهب، كان واهنًا ضعيفًا، كان يبدو وكأنه ملّ من المقاومة، فقرر أن يترك ما تبقى من عمره للسرطان كي يقضي عليه بلا مقاومة... فناداها!

لبت نداءه وجلست إلى جواره وتركت له يدها كي يتشبث بها.. كان شاحبًا شحوبًا مروعًا:

«هيلين... استمعي إليّ جيدًا!».

كانت تتمزق عذابًا من أجله.. انهمر الدمع من عينيها بالرغم منها.

«ديڤيد.. هل آتيك بحاخام؟!».

وابتسم ديڤيد، وهي أبدًا ـ ومهما مر بها من أحداث أو عمر ـ لن تنسى تلك الابتسامة الواهنة على شفتيه الزرقاوين.

«ديڤيد!».

«يا حبيبتي... هذا ما كنت أود أن أقوله قبل أن أذهب!».

«ماذا تريد أن تقول؟!».

«إن من كان مثلي لا يحتاج إلى حاخام، فلست في حقيقة الأمر يهوديًا!».

ظنته يهذي، ربتت على وجنته هامسة:

«ألا تريد أن تستريح قليلًا؟!».

«أنا لا أهذي يا هيلين، وليس هناك وقت!».

«ستعيش مائة عام أخرى فلا تقلق!».

كانت تريد أن تمازحه، لكنه قال في حدة:

«لست يهوديًا ولست إسرائيليًا!».

لم تنطق كلمة، بدا لها الأمر فوق كل خيال، كان واضحًا أنه لا يهذي حقًا.

«إنني مصري، وأنا أيضًا مسلم!».

«ديڤيد!».

«وليس اسمي ديڤيد!».

قال هذا ثم راح يلهث... وبدت في عينيه نظرة ملهوفة.

«اسألي... اسألي عني جهاز المخابرات المصري... الـ... الحقيقة عندهم!!».

ازداد شحوب وجهه وزرقة شفتيه كما ازدادت لهفته... بدا وكأن آلاف الكلمات تتزاحم فوق شفتيه، تشبث بيدها أكثر، حاول الحديث، حاول أن يقول شيئًا، حاول، حاول، لكنه لم يقل سوى:

«الولدين!».

ثم صفت نظرته صفاءً مدهشًا، وابتسم، وشهق، وسقط رأسه!

* * *

«فراو سمحون!».

التفتت نحو الرجل الذي احترم صمتها فلزم الصمت طوال الطريق، انتزعت نفسها انتزاعًا مما كانت فيه، وكان هذا يشير إلى مبنى هائل بدا لها على يسار الطريق وهو يقول:

«وصلنا!».

انتبهت كل حواسها، وكانت السيارة تنثني الآن إلى اليسار كي تعبر بوابة يقف عليها عدد من الحراس أدوا التحية لمن لا يرونهم في داخل السيارة... عبرت البوابة الخارجية ثم دارت نصف دورة في الفناء، لتصعد منحدرًا إلى حيث الباب الرئيسي لمبنى جهاز المخابرات العامة المصرية... وكان هناك اثنان في استقبالها... ولم يكونا سوى الشابين اللذين زاراها بالأمس فقط، في بيتها في مدينة بريمن، على بعد آلاف الأميال!!

* * *

من العسير أن نعرف طبيعة الحوار الذي دار في مكتب مدير جهاز المخابرات العامة المصرية في ذلك اليوم، ولا يستطيع المرء أن يعرف ـ على وجه اليقين ـ إن كانت صعوبة الحصول على هذا الحوار مردها إلى المعلومات السرية التي تبودلت في تلك الجلسة الحميمة التي ضمت مدير الجهاز ومجموعة من معاونيه لا تتجاوز الأشخاص الثلاثة، مع

السيدة هيلين سمحون، أم أن في الأمر شيئًا آخر يصعب التكهن به... وعلى كل، فثمة حقيقة لا يمكن إنكارها أو إخفاؤها، وهي أن الجلسة كانت ودية للغاية، ولقد لاحظت «فراو سمحون» أن واحدًا من معاوني المدير، بدا لها وجهه وكأنها التقت به من قبل... غير أن الحديث جرف الجميع، فبعد أن قدم لها المدير تعازيه وتعازي زملائه، وقال إنه يأسف لأن التعزية جاءت متأخرة، فلم يكن ممكنًا أن يبادر أحد بالاتصال بها قبل أن تتصل هي أولًا حتى يجنبها كل حرج لو أنها لم تكن تعرف شيئًا عن حياة المرحوم ديڤيد شارل سمحون، ذلك أن هناك طريقًا وحيدًا وواحدًا من الممكن لها أن تعرف الحقيقة عن طريقه، هو ديڤيد نفسه ولا أحد سواه.

قال المدير هذا ثم صمت، وترددت السيدة سمحون قليلًا، لكنها ـ في اختصار شديد ـ قالت: إن الأمر كان مفاجئًا لها، خاصة أن ديڤيد باح لها بما باح به قبل أن يسلم الروح مباشرة... ولقد كانت خائفة ومرتبكة ولا تدري كيف تتصرف... فلقد تزوجت رجلًا إسرائيليًّا يهوديًّا، ثم فوجئت به يقول بأنه مصري مسلم، وكان هذا قبل وفاته بثوان... فهل هذه هي الحقيقة؟!

«نعم يا سيدتي، كان زوجك مصريًّا، وكان أيضًا مسلمًا!».

اندفعت هيلين فجأة وكأنها تذكرت هذا الأمر على غير انتظار وفي غير وقت التذكر:

«لست أدري كيف غاب هذا الأمر عن ذهني طوال ذلك الوقت رغم أني فكرت فيما حدث وما كان مئات المرات، واستعدت ذكرياتي مع ديڤيد طوال تلك الأيام التي انقضت منذ وفاته وحتى صباح اليوم... إن... إن الأمر يبدو لي غريبًا بعض الشيء!».

ساد الغرفة صمت غريب وترقّب بَدا في عيون الرجال التي أحاطتها بالود، حتى قال المدير:

«ما هو هذا الشيء الغريب؟!».

«كنت... كنت أدخل عليه أحيانًا فأجده جالسًا على الأرض، ومتجهًا نحو الجنوب الشرقي، دائمًا... دائمًا نحو الجنوب الشرقي... رباه... إني أتذكر الآن جيدًا ولكني وقتها لم أعر الأمر اهتمامًا... كان يتجه نحو الجنوب الشرقي في غرفة نومنا، وكان يجلس على الأرض وهو يقرأ في الـ... الـ... ما اسم كتاب المسلمين المقدس؟!».

«القرآن».

«نعم... كثيرًا ما كان يقرأ القرآن... وعندما سألته ذات مرة، وكنت أعرف أنه يتقن اللغة العربية، ربما أكثر من العبرية والألمانية، ابتسم وبدا وكأنه يخفي سرًّا، وقال إنه يقوم ببحث في الأديان منذ سنوات!».

وعاد الصمت يلف الجميع من جديد حتى عادت هي إلى الحديث:

«لقد صدقته... نعم صدقته فلم يكن ديڤيد يكذب عليّ أبدًا!».

كانت المرارة تتساقط من كلماتها وهي تتفوه بجملتها الأخيرة، فقال أحد معاونيه على الفور وكأنه يوضح أمرًا هامًّا:

«سيدتي... لم يكن ديڤيد يملك أن يطلعك على سره، فلم يكن ذلك السر، بكل المعاني، ملكًا له!».

تمتمت هيلين:

«الآن أدرك ذلك... أدركه عن يقين!».

قال المدير:

«على كل الأحوال، أحب أن أقول لك إننا على استعداد للإجابة عن أي سؤال، كما أننا على استعداد، أيضًا، لتلبية أية رغبة، سواء بالنسبة إليك أو للصغيرين».

هتفت هيلين في محاولة لتوضيح الأمور:

«مهلًا سيدي المدير، لقد كان كل شيء كما قلت لك مفاجأة لي، ولقد عشت أيامًا صعبة حقًّا... وبالطبع فإن لديَّ عشرات الأسئلة التي أريد أن أطرحها... أما الرغبات، فلست أعتقد أن لي رغبات معينة، ولعلكم تعرفون ـ وأنتم لا بد تعرفون ـ أن ديڤيد ترك لولديه ولي بضعة ملايين من الماركات والدولارات... ولكنه في النهاية ذلك الإحساس بالمسئولية تجاه الصغيرين!».

«هذا شيء نقدره تمامًا».

«لقد عوملت في بلادكم معاملة كريمة حقًّا، وهذا يربكني أكثر!».

«لا تنسى يا سيدتي أنك كنت زوجة لبطل من نوع فريد وفذ!».

«بطل؟!».

هتفت هيلين بالكلمة في صوت مرتجف، وبدا أن ارتباكها قد ازداد وإن كانت بشرتها قد تشربت بحمرة من ارتدت إليه الحياة، قالت وقد استقام صوتها:

«هناك سؤال واحـد، أعتقد أنه المفتاح بالنسبة لكل الأسئلة الأخرى!».

«لك أن تسألي أي سؤال يعن لك!».

«من كان زوجي؟!».

عاد الصمت يلف الغرفة، اعتدل المدير في جلسته، فاستطردت هيلين:

«لست أقصد اسمه فلقد كان له اسم مصري بالطبع، وهو نفسه قال لي قبل أن يذهب إن ديڤيد ليس اسمه، ولكن الذي أقصده بالتحديد هو: من كان الرجل الذي أنجب يوسف وسليمان... إنه والدهما، ولسوف يسألان ذات يوم من أبوهما، ولا بد أن أجيب!».

كانت هيلين الآن تلهث انفعالًا، ولقد ترك لها المدير الفرصة كي تقول كل ما تريد، ولقد عادت بالفعل إلى الحديث:

«وأحب إذا ما أجبت عن سؤالهما ألا أكذب، أو على الأقل ألا أخطئ!».

بدا أنها بجملتها تلك، قد أفرغت كل ما في جعبتها، لذلك فلقد اعتدل المدير قائلًا:

«لا يستطيع إنسان على وجه هذه الأرض أن ينبئك عمن هو زوجك سوى الرجل الذي عاش معه، وكان صديقًا حميمًا له، بل ربما كان أقرب الناس إليه على الإطلاق!».

«من هذا الرجل، وهل أستطيع أن ألقاه يا سيدي؟!».

أشار المدير إلى صاحب الوجه الذي أحست هيلين بأنها التقت به من قبل:

«إنه هنا.. السيد عزيز الجبالي!».

التفتت هيلين نحو عزيز بسرعة، هتفت:

«سيدي... ألم نلتق من قبل؟!».

كان عزيز ـ بشكل ما ـ يبدو أكثر حزنًا وانفعالًا بالموقف من الجميع، ولقد بدا لها خجولًا مهذبًا، ولقد تردد قليلًا وكأنه ينتقي الكلمات، ثم قال في صوت خافت:

«حدث هذا مرة واحدة يا سيدتي!».

أضاءت الذاكرة فجأة فقالت هيلين:

«نعم... يوم الجنازة، لقد كنت هناك و... وعندما انتهت مراسم الدفن تلفت نحوك لكنك قد اختفيت فجأة، كما ظهرت فجأة!».

«لم يكن ممكنًا ألا أودعـه... لم يكن ممكنًا ألا ألقي عليه نظرة أخيرة!».

«ولكن لماذا لم...».

بدأت السؤال مندفعة ثم توقفت، فلقد أدركت الجواب فورًا... تمتمت:

«لا عليك... إني أدرك الآن.... أستطيع أن أفهم!».

ابتسم لها المدير في ود وهو يقول:

«لعلك في شوق لأن تعرفي الإجابة عن سؤالك؟!».

«نعم... ولعلي أخذت من وقتك أكثر مما ينبغي!».

قالت هذا وهي تنهض فنهض الجميع، صافحها المدير قائلًا:

«لا بد أنك تدركين أن هناك بعض الأسرار التي لا يمكننا ـ مهما كانت الأحوال ـ أن نبوح لك بها!».

«ثق يا سيدي أني لن أثقل عليه.. وداعًا!».

«بل إلى اللقاء!».

* * *

كان المكان الذي جلسا فيه ـ هيلين سمحون وعزيز الجبالي ـ عبارة عن صالون صغير، مؤثث بأثاث متواضع، له نافذتان غريبتا التصميم تطلان على حديقة صغيرة تبدو مهجورة... ولقد لاحظت هيلين، منذ اللحظات الأولى، أن هذا الصديق يبذل جهدًا حقيقيًا ومضنيًا كي يخفي عنها إعصارًا رهيبًا من الحزن كان يجتاحه... جلس كل منهما قبالة الآخر، ووضع أمام كل منهما كوب من عصير الليمون وفنجان من القهوة... راحت تنظر إليه بإمعان، كان متوسط الطول، متناسق التقاطيع في وسامة مهملة، حاد النظرات، ثابت الملامح ـ إن صح التعبير ـ فلقد

كان وجهه قناعًا غريبًا لإنسان يصعب أن تخترق ما وراء عينيه... ظلت صامتة حتى قال مبتسمًا:

«حسن... من أين تريدين أن نبدأ؟!».

«ما اسم زوجي الحقيقي؟!».

«رأفت الهجان!».

صاحت:

«أليس هذا هو الاسم الذي...».

«نعم، هو اسمك في جواز السفر!!».

همت بالنطق ثم تراجعت... لكنها عادت تسأل:

«كيف التقيت به لأول مرة؟!».

ضحك عزيز ضحكة مقتضبة، بدا عليه الحرج، تردد قليلًا قبل أن يقول:

«عفوًا سيدتي، فأنا لم ألتق برأفت ولا مرة واحدة!».

نظرت إليه ذاهلة:

«لست أعتقد أني فهمت الإجابة!».

وكان هذا ما أحست به هيلين حقيقة، لقد كانا يتحدثان باللغة الإنجليزية... ولقد ظنت أن ثمة معنى لكلمة قالها عزيز قد فاتها فلقد يتحدث الإنجليزية بطلاقة من تدرب على هذا طويلًا، ويبدو أن عزيز قد خمن ما يدور في ذهنها فلقد قال:

«إنك لم تخطئي يا سيدتي في فهم ما قصدته، فأنا لم ألتق برأفت ولا مرة واحدة!».

«يبدو الأمر وكأنه مجموعة من الألغاز!».

«وإنه لكذلك فعلًا!».

مالت نحوه كما يفعل الشرقيون إذا ما كان الحديث هامًّا، وهي تقول في انتباه بالغ:

«إذن فقل لي بحق السماء... من ديفيد شارل سمحون، أو... أو رأفت الهجان؟!».

صمت عزيز قليلًا، استأذنها في التدخين فاستأذنته في سيجارة، وسرعان ما تصاعدت سحب الدخان في جو الغرفة، وبدأ عزيز الجبالي يحكي!

الفَصْل الرابع

الفِدائي لا يصْلح!!

لم يكن السؤال الذي طرحه عزيز الجبالي على السيدة هيلين سمحون من قبيل المجاملة وإن كان الأمر يبدو كذلك... فهو عندما سألها: من أين تريدين أن نبدأ؟... كان يريد ـ في حقيقة الأمر ـ أن يعيد التفكير بصوت عال، فهو ـ منذ اللحظة التي تقرر فيها دعوة السيدة سمحون إلى القاهرة ـ كان يعلم أنها سوف تأتي ما دامت قد عرفت حقيقة زوجها، ذلك أنه من المستحيل أن تكون هيلين قد عرفت من «ديڤيد» أو «رأفت» سوى شيء واحد، هو أنه كان على علاقة بجهاز المخابرات المصري، فهذا ما كانا ـ عزيز ورأفت ـ قد اتفقا عليه بعد حوار قصير عن الظروف والأعمار التي هي بيد الله أولًا وأخيرًا، ثم عن الولدين إذا ما حدث له شيء... هذا ما كانا قد اتفقا عليه: ألا يبوح رأفت بشيء لزوجته مهما كانت الظروف إلا بهذه المعلومة فقط، ثم يترك لها الباقي بعد ذلك، كي تختار بنفسها الطريق!

وهو... هو يعرف رأفت جيدًا يعرفه ويعرف مدى التزامه الحديدي بأمن بلاده... ثم، ثم هو كان يعرف ـ أيضًا ـ من تكون «فراو سمحون»... عرفها منذ أن أعلن رأفت ذات لقاء في روما أنه ـ أخيرًا وبعد كل هذا العمر ـ قد وقع في الحب... كان هذا منذ سبع سنوات، قال رأفت إنه

يريد الزواج من سيدة الأعمال الألمانية «هيلين ريشتر»... وكان لا بد أن يعرف عزيز كل شيء عن هذه السيدة منذ أن ولدت في بلدة «خام» بالجنوب الشرقي لألمانيا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر، وحتى تلك اللحظة التي تجلس فيها أمامه في إحدى غرف الاستقبال المتواضعة الأثاث في جهاز المخابرات العامة المصرية... كان لا بد أن يعرف «هو» رغم المعلومات الدقيقة والوافية والصادقة تمامًا التي قدمها رأفت عن المرأة التي اختار في النهاية أن يربط حياته بحياتها، وأن يعطيها اسمه المزيف، وأن ينجب منها أطفالًا... كان لا بد لعزيز الجبالي أن يعرف، لا لشيء، إلا لأن «رأفت الهجان» لم يكن - بالنسبة لبلاده - مواطنًا عاديًّا، بل كان «سوبر مواطن» إن صح التعبير، أو «مواطنًا فوق العادة» كما تعود أن يطلق عليه بينه وبين نفسه!

كان عزيز الجبالي إذن يعرف أنها سوف تأتي وسوف تسأل... وهذا حقها، ثم هو كان أيضًا يعلم أنه سوف يحكي ما يجب عليه أن يحكيه دون زيادة، وما يجب أن يحكيه للسيدة سمحون هو - بإيجاز شديد - قصة بطل قدم لأمته كل عمره في ذكاء وحرص من يعرف ويقدر المسئولية الجسيمة التي ألقيت فوق عاتقه، وأنه صنع - بالمعنى العلمي المطلق، ودون أدنى قدر من المبالغة - واحدة من أعظم وأكمل شبكات التجسس في التاريخ الإنساني كله لصالح شعبه المصري، وأمته العربية!

ولم تكن هذه مشكلة بالنسبة لعزيز، كانت المشكلة التي يخشى منها بعض الشيء، تكمن في تدفق الذكريات وهو يحكي، تكمن في ضرورة انفصاله عن ذاته... ذلك أن عزيز الجبالي اكتشف - منذ أن علم بوفاة رأفت الهجان - أن حياة هذا الإنسان الذي لم يلتق به مرة واحدة وهو حي، محفورة في حياته هو شخصيًّا، فعلى مدى عشرين عامًا كاملة، حدث في حياته - وهو على اتصال متوتر ودائم برأفت الهجان - كل ما يمكن أن يحدث في حياة إنسان... فأين المفر؟!... أين المفر؟!!

لكننا نستطيع القول، دون تجاوز، إن هذه مشكلة كان عزيز يستطيع تجاوزها بشكل أو بآخر مهما كان تأثير علاقته برأفت عميقًا في وجدانه، ذلك أنه بالقطع قد تدرب طوال ربع قرن من الزمان، هي عمره كضابط مخابرات، على أن يتحدث في شيء وصدره يحوي شيئًا آخر... كان - مثلاً - يلتقي بخائن يملك الأدلة الدامغة على خيانته، فيعامله معاملة المواطن الشريف والمحترم لأن الوقت لم يحن بعد لكشف خيانته... وبوضوح، تعوّد عزيز الجبالي أن تكون حياته حياتين، وعقله عقلين، واسمه اسمين، ووجدانه مقسمًا إلى قسمين... قسم لا يراه أحد، وقسم للناس، وربما معهم أهل بيته!!!

وحتى هذا كان مقدورًا عليه... لكن الذي أضناه حقًّا، مشكلة أخرى بدت له بالفعل عويصة... وكانت هذه المشكلة تكمن في نفس السؤال الذي وجهه إلى هيلين سمحون في جلستهما تلك بإحدى غرف الاستقبال المتواضعة الأثاث بمبنى المخابرات العامة المصرية... كانت هذه المشكلة العويصة هي: من أين يبدأ؟!

* * *

ولا بد لنا من الاعتراف بأن عزيز الجبالي كان على حق، ذلك أن الصعوبة في اختيار بداية لحديثه أنه لم تكن هناك بداية واحدة، بل كانت هناك بدايات متعددة لهذه القصة الغريبة والمركبة... وهي - فوق هذا - بدايات متداخلة، تقود كل منها إلى الأخرى بالضرورة!

وعلى سبيل المثال، فلقد تساءل عزيز الجبالي: هل يبدأ من تلك الليلة الشديدة الحرارة من ليالي شهر يوليو عام ١٩٥٨؟!... عندما التقى «هو» لأول مرة مع «رأفت علي سليمان الهجان»، أو «ديفيد شارل سمحون»، في مجموعة أوراق يضمها ملف سُلم له مع عدد آخر من الملفات كان عليه أن يدرسها ويمحصها ويقتلها بحثًا!... وكيف كان في ذلك اليوم قد واصل العمل منذ الصباح فنسي نفسه حتى داهمه الليل، وراح ينصب

الشراك لجيوش الناموس التي راحت تهاجمه من الحقول المحيطة بهذا المبنى المهجور الذي كانت تشغله مجموعة صغيرة تعد على أصابع اليدين من الضباط الشبان الذين كانوا يشكلون - في تلك الأيام - واحدة من الخلايا الأولى لجهاز المخابرات المصري الوليد؟!... وكيف خلع القميص مع اشتداد الحر، وظل بالفانلة والسروال يتصبب عرقًا لأن المبنى الذي كان يعمل فيه لم يكن يعرف رفاهية أجهزة التكييف أو حتى المراوح الكهربائية... ثم كيف - وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ - كان يستعد للانصراف عند منتصف الليل، عندما طالعته صورة رأفت الهجان، تلك الصورة الغريبة ذات الابتسامة الغامضة والنظرات الداعية والمنادية وكأنها استغاثة من عالم مجهول؟!... كيف أنها كانت مجرد نظرة أراد لها أن تكون عابرة، فإذا به يعود إلى مقعده، يحملق في الصورة، ويقلب في الأوراق، ويقرأ السطور... ثم يقع في الحيرة حتى طلع عليه النهار، وقد نسي تمامًا إيذاء الناموس كما نسي نفسه؟!

هل يبدأ من هنا، أم يبدأ من حيث كانت البداية الأولى لعلاقة رأفت الهجان بأول ضابط مخابرات يراه في حياته؟!... منذ بدايته مع «محسن ممتاز» - ابن العمدة المتجهم الملامح، الجاد التصرفات، الشديد الجلد والقدرة على مواصلة العمل لأيام متوالية دون نوم أو راحة - والذي التقى برأفت لأول مرة عندما كان محجوزًا في سجن الاستئناف بعد أن قبض عليه في «ليبيا» على أنه يهودي هارب من مصر اسمه «ليڤي كوهين»!

كان هذا في عام ١٩٥٤، وكان وكيل النيابة وضباط الشرطة والمباحث قد كونوا شبه مؤتمر لبحث حالة هذا الشاب المتوسط الطول الغريب الملامح والتصرفات الشديد الذكاء لدرجة أوقعتهم جميعًا في الحيرة والعجز عن معرفة شخصيته، التي تقول بعض الأوراق - وكانت بين أيديهم - إنه يهودي، وبعضها يؤكد أنه مسيحي، وأوراق دامغة بأنه مسلم... بل إن أوراقًا بعينها مختومة وموقعة كانت تقول إنه بريطاني

الجنسية، وأخرى لا تدع مجالًا لشك بأنه أمريكي، وثالثة لا سبيل إلى مناقشتها تؤكد أنه مصري لحما ودمًا!!!

هل يبدأ عزيز الجبالي قصته منذ تلك الليلة... أم يبدأ من حيث كانت بداية المأساة في حياة «رأفت علي سليمان الهجان» الفتى القاهري الذي توفي والده وهو طفل صغير ـ وكما كان يحدث في الأفلام المصرية في تلك الأيام ـ فوجد نفسه يواجه قسوة اليتم التي دفعته إلى الهرب من البيت، ثم ما بعد الهرب من تشرد وسوء حظ قدري راح يدفعه في إصرار يدعو إلى الدهشة، نحو طريق أدخله ـ على مدى سنوات وراء سنوات ـ أكاديمية كونية كانت وكأنها تدربه وتعلمه في عنف وقسوة، على القيام بدور مجهول قدر له أن يلعبه فيما بعد باقتدار الأستاذ العظيم؟!

هل تبدو هذه البداية مناسبة، أم أن البداية الحقيقية كانت في تلك الليلة الثانية والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢، عندما تحركت مجموعة من الضباط الشبان في الجيش المصري عرفت باسم «الضباط الأحرار»، وقاموا بثورة على نظام حكم فاسد، ثم اكتشفوا أنهم أمام معضلة شديدة التعقيد، وكارثة بلا حدود، فلم تكن هناك «دولة» بالمعنى العصري والحديث لهذه الكلمة، بل كيان متهاو ينخر السوس في قوائمه، فبدت لهم بلادهم خرابًا كان عليهم أن يعمروه، ثم اكتشفوا أن ذلك الخراب إنما يجعل منهم ـ ومن الشعب المصري كله ـ عزلًا من أي سلاح يواجهون به تلك الصيحة التي انتشرت في صحافة مصر قبل قيامهم بثورتهم، والتي كانت عنوانًا على ما وصلت إليه البلاد من حال، صيحة كانت تطالب بالقضاء على «الفقر والجهل والمرض»... ثم، إذا بهم مع الأيام يكتشفون أنهم ليسوا عزلًا فقط أمام فقر وجهل ومرض وتخلف و... و... وكل هؤلاء الأعداء في الداخل، بل إنهم عزل بالفعل أمام أعداء متربصين مسلحين يتحينون الفرصة كي ينقضوا ويدمروا ويُضعِفوا ويحتلوا الأرض؟!

وليت الأمر اقتصر على هذا، كانت المصيبة أنهم كانوا عزلًا حتى من المعرفة المطلوبة لإعادة البناء، بل عزلًا من «وسائل» هذه المعرفة أيضًا!!... اكتشف هؤلاء الضباط الشبان قليلو الخبرة الممتلئون حماسة وحبًا لمصر... أن عليهم أن يعيدوا البناء وسط ركام بلا نهاية من الخرائب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لإقامة دولة عصرية، وأن عليهم أن يبدءوا من الصفر، بل من تحت الصفر!!

كان هذا هو الموقف أمام عزيز الجبالي!

وكان موقفًا محيرًا... فلقد كانت كل بداية من هذه البدايات، هي بداية حقيقية للقصة الغريبة التي كان عليه أن يبدأها... وكانت كل بداية مرتبطة ارتباطًا موضوعيًا وعضويًا بهذه القصة التي عاشها، منذ أن التقى برأفت علي سليمان الهجان، مجرد صورة وبضعة أسطر، ذات ليلة من ليالي يوليو الحارة في عام ١٩٥٨، وحتى هذا اليوم من أيام يناير عام ١٩٨٠، الذي يجلس فيه مع سيدة الأعمال الألمانية «فراو ديفيد شارل سمحون» أو... أو حرم المرحوم رأفت الهجان!

* * *

«هر جبالي».

رفع عزيز عينيه نحو هيلين، وكانت هي تنظر إليه بدهشة، وكانت أيضًا مبتسمة، أدرك على الفور أنه سرح مع تلك الخطوط المتشعبة والمتداخلة فيما هو مقدم عليه... غير أن ابتسامتها اتسعت وهي تميل نحوه متسائلة:

«أإلى هذا الحد كنت مرتبطا به؟!».

ولا يدري عزيز الجبالي لمَ خطر بباله في تلك اللحظة «محسن ممتاز»، لمَ فرض وجه محسن الريفي المتجهم نفسه على مخيلته؟... وعلى أية حال، فإن عزيز ـ شأنه شأن كل ضباط المخابرات المدربين ـ

لا يترك محدثه يقوده بأسئلته إلى حيث يريد، بل يبادر هو، بإجاباته، إلى قيادة محدثه نحو مبتغاه... فلقد رد على سؤالها وهو يبتسم ابتسامة واسعة، ربما كانت الابتسامة الأولى التي تراها هيلين على وجهه، وقال:

«يقولون إنك كنت صاعقة الجمال وأنت صبية في السادسة عشرة من عمرك فراو سمحون؟!».

ابتسمت هيلين للمجاملة، كما أنها، في نفس الوقت، فهمت معنى جملته الخبيثة، أعجبها الأسلوب فبادرت برد الكرة إليه في سرعة وذكاء:

«أشكرك هر جبالي... ولكن، هل لهذا الإطراء علاقة بالسؤال الذي وجهته إليك؟!».

ولم تكن هيلين تدري أن هذا، بالضبط، ما كان يريده عزيز، فلقد قال:

«نعم يا سيدتي... فلقد كنت في السادسة عشرة من عمرك عندما بدأت أحداث تلك القصة!».

* * *

في بقعة نائية في أطراف القاهرة، حيث لا عمران ولا «صريخ ابن يومين» كما يقول المثل الشعبي المصري... كان يقوم بناء غريب الشكل مهجور من ساكنيه... كان هذا البناء يتوسط حقلًا من الحقول الممتدة في تلك البقعة إلى مدى البصر، يحيط به سور غير مرتفع مهدم في بعض أجزائه، يدل على أن البناء قد هُجر منذ زمن ليس بالطويل... ولم يكن السور فقط هو الدليل على أن البناء مهجور، ولكن تَساقُط الطلاء الأبيض من واجهة البناء المكون من دورين، والإهمال الشديد البادي على حديقته المتوسطة الاتساع، وذلك الصدأ الذي علا طلمبة المياه

القائمة بجوار الجدران الخلفية، وعلو الحشائش من حولها نتيجة لتسرب المياه... و... وحتى ذلك الخفير البطيء الخطو في الحديقة وخلف البوابة بجلبابه الريفي و«اللبدة» الصوفية فوق رأسه في «أغسطس»... كل هذا كان دليلًا على أن سكان المبنى قد هجروه منذ زمن!

ولقد كان هذا حقيقيًا تمامًا... فذات يوم من الأيام الأولى لعام ١٩٤٩، أقيم هذا البناء في ذلك المكان النائي كي يكون مستشفى للأمراض النفسية... كان صاحب المشروع طبيبًا شابًا أنفق من عمره عشر سنوات في إحدى جامعات سويسرا كي يدرس فيها الطب النفسي ـ وكان هذا النوع من الطب في تلك الأيام حديثًا وجذابًا في نفس الوقت ـ وكان ذلك الطبيب، كما تقول أوراق الجامعة التي درس فيها، نابغة... كما إنه كان ابنًا لأب من الأثرياء، يمتلك ألوف الأفدنة، وينتمي لأحد الأحزاب القائمة، ويحمل رتبة الباشوية... أما أمه، فلقد كانت سليلة واحدة من أسر مصر العريقة، وفوق هذا فهي سيدة مجتمع بارزة، كان لها نشاط مرموق في بعض المشروعات الاجتماعية الهامة، مثل مشروع «الحفاء» الذي اشتهر في تلك الأيام وامتلأت صفحات الصحف والمجلات بالحديث عنه، وكان الغرض منه التصدق على أفراد الشعب بأحذية وصنادل تقيهم السير في الشوارع حفاة!!

ولذلك، فعندما وقع اختيار الفتى على تلك البقعة النائية في أطراف القاهرة، لم يكن صعبًا عليه أن يشتري قطعة الأرض التي تجاور طريقًا جانبيًا كان من السهل الوصول إليه عبر إحدى ضواحي القاهرة، كما كان من السهل أيضًا أن يرصف هذا الطريق الجانبي الذي ظل غير ممهد لسنوات طويلة، وفوق هذا، استطاع الفتى أن يمهد الطريق الواصل ـ عبر الحقول ـ حتى باب المستشفى الذي أحيط بحديقة غناء بديعة التصميم، وسرعان ما امتدت أسلاك الكهرباء ليصل التيار الكهربائي إلى المستشفى الذي جهز بأحدث الأجهزة الطبية، وبمجموعة منتقاة من

الممرضات السويسريات والفرنسيات اللائي بإشرافهن على مجموعة أخرى من الممرضات والخدم المصريين حوّلن المستشفى إلى قطعة من أوربا.

كانت المشكلة الوحيدة التي واجهت الطبيب الشاب هي مشكلة المياه... فرغم أن مجموعة العمال والمهندسين الذين أشرفوا على بناء المستشفى كانوا قد أقاموا «مضخة» للمياه الجوفية كانت تمده بكل ما يحتاج إليه من مياه، إلا أن مشروع مد أنابيب المياه إلى المستشفى عبر الضاحية القريبة توقف فجأة عندما أقيلت الوزارة، وعينت بدلًا منها وزارة أخرى... فبدأت أوراق المشروع تتعثر!!

لكن هذا لم يفت في عضد الشاب الذي كان متحمسًا حماسًا شديدًا، فلقد افتتح مستشفاه لعلاج المرضى النفسيين والمصابين بالاكتئاب وانفصام الشخصية و... و... وما إلى ذلك... واستقبل المستشفى بالفعل مجموعة لا بأس بها من المرضى الذين كانوا من أبناء الموسرين والأغنياء والقادرين على دفع تكاليف العلاج الباهظة!

في الشهور الأولى بدا الأمر وكأن كل شيء على ما يرام، وأن المستشفى يلقى رواجًا شديدًا، خاصة بعد أن اشتهر أمر الطبيب الشاب وسط فتيات العائلات الأرستقراطية، وبعد أن أصبح المرض النفسي «موضة» بين فتيات الأسر وسيداتها... ولكن الذي حدث أنه في منتصف عام ١٩٥١ توقف المستشفى عن استقبال مرضاه، واختفى الطبيب الشاب الذي قيل في أول الأمر إنه سافر إلى أوربا لاستحضار بعض الأجهزة الحديثة اللازمة لمستشفاه، والاطلاع على آخر تطورات العلم... ثم، وعندما طال غياب الطبيب، وبدا أن المستشفى لم يعد يجد رعاية من أسرته، وأن كل الممرضات السويسريات والفرنسيات قد عدن إلى بلادهن، أو التحق بعضهن بالعمل في مستشفيات أخرى، بينما سرِّحت الممرضات المصريات والخدم... قيل وقتها الكثير عن

أسباب إغلاق المستشفى، منها أسباب عاطفية، ومنها أسباب تمس شخصيات لها أهميتها في المجتمع... ثم قيل إن الطبيب الشاب نفسه قد وقع فريسة اكتئاب نفسي استلزم علاجه في الخارج... ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ونسي الناس الأمر مع طوفان الأحداث التي جرفت مصر من أقصاها إلى أقصاها!

ولا أحد يدري، بالضبط، متى بدأت الحياة تدب مرة أخرى في هذا المبنى الذي ظل مهجورًا منذ منتصف عام ١٩٥١، ولكن الثابت أنه في منتصف عام ١٩٥٣، قيل إن أحدهم تقدم لشراء المستشفى وما يحيط به من أرض من والد الطبيب الذي كان قد اعتكف عن الحياة العامة بعد أن ورد اسمه في بعض الفضائح التي ارتكبها رجال ذلك العهد وكشفت عنها الثورة بعد قيامها، لكن الخفير الذي كان معينًا لحراسة المستشفى ظل في مكانه ووظيفته... وبعد بضعة أشهر، وكان الناس قد نسوا الأمر تمامًا وسط الأحداث المتلاحقة التي ازدحمت بها سماء مصر، علقت على المبنى لافتة غريبة مكتوب عليها: «إدارة البحوث والإنشاء»... كان الاسم غريبًا في ذلك الوقت، ولم يفهم أحد أية بحوث هذه، وأي إنشاء، ولم يعرف أحد أية وزارة تتبعها هذه الإدارة التي راح موظفوها يتوافدون على المبنى كل يوم في سيارة أوتوبيس قديمة ومتهالكة، ولا تحمل اسم وزارة أو مصلحة... كان المالك الجديد قد طلب إلى الخفير أن يظل في الحراسة كما كان، وإن كان قد استأجر معه خفيرًا آخر راحا معًا يتناوبان الحراسة على المبنى، وسرعان ما أصبحا صديقين حميمين... وعادت الحياة إلى المبنى المهجور، وإن ظل يوحي من الخارج ـ ولكل من يمر عليه من بعيد ـ أنه إدارة من إدارات الحكومة القليلة الأهمية!

لكن الغريب في الأمر أن «إدارة البحوث والإنشاء» هذه لم تكن تتعامل مع الجمهور، وكان عدد موظفيها محدودًا للغاية، وكانوا جميعًا

ـ وبلا استثناء ـ من الشبان الشديدي الالتزام بمواعيد العمل، فما أن تدق الساعة الثامنة صباحًا، حتى يكون هذا الأوتوبيس القديم يتمايل على الطريق وهو يحمل الموظفين، وما أن يفرغ حمولته حتى ينصرف ولا يعود قبل الثانية ظهرًا... ثم...

ثم لم يكن هناك من يهتم بمثل هذه الإدارة المهملة من إدارات الحكومة كي يكتشف مثلًا أن مجموعة المكاتب والدواليب الحكومية التي نقلت إليها، كانت تحوي فيما تحويه من أثاث... عددًا لا بأس به من الخزائن الحديدية الحديثة، والمزودة بأقفال ذات أرقام... وأن بعض هؤلاء الموظفين كانوا يسهرون في المبنى إلى ساعة متأخرة من الليل منكبين على عملهم في حماسة غير معهودة في موظفي الحكومة... ولكن ـ وهذا هو الأهم ـ لم يلحظ أحد أبدًا أن واحدًا من هؤلاء الشبان كان لا بد أن يبيت في المبنى كل ليلة في ذلك الجناح البعيد من أجنحة المستشفى السابق!!!

لم يتنبه أحد إلى كل هذا بطبيعة الحال، ففي تلك الأيام كانت العاصمة المصرية تغلي بالأحداث السياسية والخلافات العنيفة، وتضطرم فيها الصراعات التي قدر لها أن تحسم مستقبل الدولة إلى سنوات طويلة قادمة!

لم ينتبه أحد إلى ما يحدث في تلك البقعة النائية، وكان هذا هو المطلوب تمامًا... فلقد كان هذا المبنى الذي ظل مهجورًا لما يزيد على العامين، هو واحد من بضعة أماكن وقع عليها الاختيار ـ بعد دراسات ومناقشات وبحث ـ في أماكن متفرقة، لتكون مقار لبعض أقسام جهاز المخابرات العامة المصرية الوليد... وكانت مجموعة الموظفين الذين يبدو وكأنهم يعيشون يومهم وليلهم في هذا المكان النائي، ليسوا سوى مجموعة من الرواد الأول الذين وضعوا البذرة الأولى لهذا الجهاز الذي قدر له أن يلعب في الحياة المصرية، وفي حياة الشرق الأوسط،

بل والعالم أجمع... دورًا هامًّا، قدر له ـ فيما عدا النادر منه ـ أن يظل طي الكتمان!!

* * *

في نهاية الثلث الأول من عام ١٩٥٤، كان ثمة ضابطان من «موظفي» ذلك المبنى الذي رفعت عليه لافتة «إدارة البحوث والإنشاء»، يجلسان في مكتب أحدهما وقد استغرقا في مناقشة طالت بهما منذ ما بعد الظهر حتى شارفت الساعة على الثامنة مساءً... وإذا كان «حسن صقر» و«محسن ممتاز» اثنين من هذا الفريق الذي وقع عليه الاختيار، في بداية الثورة، كي يتولى إنشاء أول جهاز للمخابرات العامة المصرية... فإنهما في ذلك الوقت من اليوم، بعد غروب الشمس بساعة أو أقل قليلًا، كانا يبدوان مجهدين أشد ما يكون الإجهاد... ذلك أنهما عندما بدآ خطواتهما الأولى تلك، كانا يكتشفان في كل يوم، بل في كل ساعة، حاجتهما الماسة إلى «المعرفة»... كان هذا الفريق الذي عهد إليه بتلك المهمة العسيرة قد أقسم ـ قبل أن يبدأ العمل ـ يمين الولاء لمصر، لا لشخص، ولا لنظام، ولا لمجموعة، ولا لحزب... وربما كان هذا هو السبب في أنهما ـ برغم الأزمة التي كانت تمر بها مصر في تلك الأيام ـ أعطيا ظهريهما لكل تلك الأحداث الملتهبة التي كانت تغلي بها العاصمة المصرية في ذلك الحين، خاصة في أعقاب أزمة مارس الشهيرة... كان لكل منهما رأى فيما كان يحدث بالقطع، لكنهما كانا كلما توغلا في الدراسة والبحث أو الاجتهاد أو استغرقا في التفكير، يكتشفان مدى الهوة الرهيبة التي كانت مصر تقف على حافتها... ففي أثناء الحرب العالمية الثانية، وللضرورات التي فرضتها تلك الحرب، ثم في السنوات التي أعقبتها... كان علم المخابرات قد تقدم تقدمًا مذهلًا، وكان قد أصبح علمًا له مدارسه وأصوله وقواعده، وفي الوقت الذي كانت مصر تفتقر فيه إلى مصادر معلومات تبدو وكأنها شرايين

حياة وسط مجتمع دولي مفترس، ومحتل يدنس أرض الوطن بأحذية جنوده، كانت إسرائيل ـ العدو القائم على الحدود في تربص ـ تملك من وسائل المعرفة ما يتفوق على ما تملكه بعض الأجهزة القائمة في العالم بالفعل... ولقد كان لهذا ظروفه وكانت له أسبابه وملابساته... ولكن، حتى هؤلاء الذين طلب المصريون إليهم سرًّا وعلى استحياء أن يمدوا لهم يد العون في هذا المجال، ابتسموا وهم يقدمون قشورًا عفا عليها الزمان، وأكل عليها الدهر وشرب... لكن هذا لم يفت في عضد الرجال، فلقد أيقنوا منذ البدايات الأولى أن واحدة من دول العالم ـ مهما تغنت بصداقتها لنا وحرصها علينا ـ لن تقدم لهم أي عون حقيقي وفعال في هذا المجال... وإذا قدمت، فهي لن تقدم سوى تلك الوسائل والبدايات التي أصبحت بلا قيمة تذكر... وكان هذا في حد ذاته ـ بالنسبة لهؤلاء الشبان ـ مرضيًا تمامًا، وإذا كان هؤلاء قد بدءوا بتلك القشور منذ عشرات السنين، فإنهم يستطيعون أن يبدءوا أيضًا من هنا، بتلك القشور التافهة، على أن يسابقوا الزمن، ويختصروه بالتجربة والدراسة والتعليم والاحتكاك الذي أصبح مفروضًا علينا كأمة وكدولة وكثورة معًا...

ثم...

ثم كانت هناك دائمًا وسائل للحصول على اللب أو بعض ما يحيط به فيما تحت القشور...

كانت هناك وسائل ـ قد تكون خطيرة في بعض الأحيان، لكن الرجال كانوا في أشد الحاجة إلى العلم عطاشًا للمعرفة!

ثم كانت هناك التجربة التي أصبحت ـ بمرور الوقت ـ خير أستاذ تعلموا على يديه الكثير!

ولكن... وبالرغم من كل هذا، فلقد كانت هناك عقبات لا يصلح فيها سوى الاقتحام...

عقبات كانت تبدو مستحيلة التجاوز!

منها على سبيل المثال أن إسرائيل كانت تملك في كل بلاد العالم، ومنها البلاد العربية، ومن بينها مصر جاليات يهودية تدين لها بالولاء، أو مع أقصى درجات حسن النية، يدين بعضها بالولاء لدولتهم الجديدة... وكان هؤلاء بوصفهم مواطنين يلعبون أدوارًا اقتصادية واجتماعية بل وسياسية هامة داخل هذه الدول... وكان هؤلاء يستطيعون إمداد إسرائيل بكل ما تحتاج إليه من معلومات عن مصر... وعلى ذلك فإن مصر كانت، بطبيعة الحال، في حاجة إلى عيون لها في قلب إسرائيل... وباختصار، فلقد كان «حسن صقر» و«محسن ممتاز» في ذلك اليوم، يبحثان عن وسيلة لإيجاد «جاسوس» يعيش في قلب إسرائيل، كي يمدنا بما نحتاج إليه من معلومات.

لم تكن المناقشات التي دارت في هذا اليوم من أيام أبريل عام ١٩٥٤، قد بدأت في هذا اليوم، لكنها كانت قد بدأت قبل ذلك بشهور طويلة، وكان قد قرآ كل ما استطاعت أيديهما أن تصلا إليه من تجارب حول هذا الموضوع... وكان الفريق الذي سافر إلى الخارج في مهمات سرية، وانتشر في دول عديدة في العالم، ومراكز تجسس كانت تغلي بما فيها من صراعات ـ قيل وقتها إن هذه المجموعة من الضباط خرجوا ليبددوا أموال الشعب على ملذاتهم بعد أن «استولوا» على البلد ـ قد استطاع أن يكون في شهور قليلة أول مكتبة يستطيع الرجال أن يلجئوا إليها ويدرسوها... كانت هناك «عمليات» تمت أثناء الحرب العالمية، بعضها أعلن عنه، والبعض الآخر لم يعلن عنه... من هذه العمليات بدأت الخطوة الأولى في التعليم.

ولقد فكر ـ حسن صقر ومحسن ممتاز ـ في «تجنيد» إسرائيلي... ولكن، كانت أحداث الحرب العالمية الثانية قد أكدت أن «الطابور

الخامس» الشهير، والذي زرعته ألمانيا في كل دول الغرب، قد انكشف أمره بصورة أو بأخرى، وسقطت شبكاته واحدة إثر الثانية!

إن إسرائيل تستطيع ـ بسهولة ـ أن تفعل هذا معنا، لأن المجتمعات العربية ـ ومنها مصر ـ مجتمعات مستقرة ومفتوحة، وفيها مواطنون يهود، وإذا كانت إسرائيل لا تضم مواطنين مصريين فإن فيها مواطنين فلسطينيين، مواطنين عربًا... وكان لا بد أن يفكرا في اللجوء إلى مواطن عربي يعيش في إسرائيل، وما كادت الدراسات والمناقشات تتقدم خطوات، حتى اكتشفا أن هذا أيضًا مستحيل... ذلك أن العرب الذين يعيشون في إسرائيل، موضوعون ـ بالضرورة ـ تحت رقابة صارمة، ثم إنهم مبعدون ـ بالضرورة أيضًا ـ عن مواطن المعلومات... بل إن ثمة أماكن بعينها محرم عليهم ارتيادها!

كان حسن ومحسن يشعران كلما أوغلا في المناقشة، أنّ ثمة حبلًا يلتف حول عنقيهما... ففوق قلة خبرتهما، بدت الطرق أمامهما مسدودة... فلو أنهما ـ مثلًا ـ لجآ إلى شخص من «جنسية ثالثة» ـ غير الإسرائيلية والمصرية ـ فإن هذا الشخص أولًا لن يكون سوى زائر، وليس مقيمًا كما هو مطلوب، وهو ثانيًا لن يكون ولاؤه لمصر، لأن ولاءه الحقيقي سيكون لعدد الجنيهات التي ستدفع له نظير عمله ومخاطرته... وهو ثالثًا لن يكون مواطنًا إسرائيليًّا، ومهما بلغت الثقة في شخصه، فلسوف يظل في البداية والنهاية أجنبيًّا!... مثل هذا الشخص، سيكون ولاؤه الحقيقي لمن يدفع أكثر!!!

وهنا هداهما التفكير إلى البحث عن فدائي.

جاءت الفكرة في لحظة من لحظات الضيق والاختناق والإحساس بالعجز أمام عقبات تبدو مستحيلة التخطي، عندما هتف محسن ممتاز:

«مفيش غير إني أروح أنا بقى!».

نظر إليه حسن صقر في دهشة، كان يعرف أن محسن ممتاز من هذا النوع من الفدائيين الذين دوخوا الإنجليز في القناة لسنوات طويلة دون أن يعرف أحد عنه شيئًا، حكايات بلا نهاية التي يحكيها الفدائيون والذين عرفوا محسن ممتاز، عن جرأته الفائقة في مواجهة المخاطر والموت معًا!

وفي البداية فلقد راقت الفكرة لحسن صقر.. إن الصفة الأولى والهامة والتي يجب أن تتوافر في «الجاسوس» المطلوب، هي الولاء المطلق لمصر... فهل يطمع أحد في ولاء أنقى من ولاء محسن ممتاز؟!

ولكن... لأنهما تعلما ألا يخضعا للفكرة البراقة، وألا يتحمسا لشيء قبل دراسته من كل الوجوه، فلقد بدآ على الفور في دراسة الفكرة... فكرة «زرع» فدائي داخل المجتمع الإسرائيلي!

دون شك كانت الفرصة متاحة!

فالمجتمع اليهودي في مصر ـ في ذلك الوقت ـ كبير، منهم رجال الأعمال وأصحاب الملايين، ومنهم عمال ومهنيون وتجار وطلبة ومدرسون وموظفون وأصحاب محلات كبرى ومحلات صغرى ومحلات بقالة و... و... وهما كانا منذ عامين قد قتلا هذا المجتمع بحثًا وتحريًا حتى وصلا إلى ما يشبه المعرفة الكاملة به... وكان المطلوب الآن، هو البحث عن وسيلة لـ«زرع» هذا الفدائي أولًا، وسط المجتمع اليهودي في القاهرة... كانت هذه بالضرورة، هي الخطوة الأولى!

«قهوة متاتيا!»

هتف محسن باسم هذا المقهى التاريخي والذي كانت الجالية اليهودية تتخذ من أحد أركانه مقرًا للقائهم في الخمسينيات من هذا القرن، ومن هذا المقهى، يمكن أن تبدأ عملية «الزرع»...

ولم يكن حسن صقر مختلفًا مع محسن الذي ألهب الحماس أفكاره

فراحت تتدفق من بين شفتيه وكأنه عاش سنوات يفكر في الموضوع، كان حسن صقر موافقًا فلقد كان طبيعيًّا أن يظهر يهودي في قهوة متاتيا، وكان سهلًا أن يحكي عن نفسه قصة شديدة الإحكام تجعله مقبولًا في هذا المجتمع، كما أنه سيصبح من الطبيعي أن يتعرف إلى بني جنسه الجدد، وأن يصنع لنفسه عملًا أو وظيفة و... و... ولكن حسن صقر كان ـ برغم مشاركته في الحوار ـ يبدو ساهمًا... ففي لحظة ضاق محسن ممتاز بسهومه هذا وكان متعبًا فصاح فيه:

«تقدر تقول لي إنت سرحان في إيه؟!».

قال حسن على الفور:

«فاكر يوم العسكري الإنجليزي ما شتمك؟!».

«إحنا في إيه والا في إيه؟!».

«فاكر اليوم ده يا محسن؟!».

«أيوه فاكره... إيه بقى؟!».

«إيه اللي حصل؟!».

لم يكن محسن من النوع الذي يحب الحديث عن نفسه، علمته الحياة مع الفدائيين أن الذات هي آخر ما يجب أن يفكر فيه الإنسان الذي وهب حياته لقضية عامة، ولذلك... فلقد ضاق بسؤال صديقه وإن كان ـ رغمًا عنه ـ قد تذكر هذا اليوم في السويس:

كانوا قد عهدوا إليه بعملية على درجة عالية من الأهمية والخطورة داخل المعسكرات البريطانية في القناة، فوضع الخطة التي بدت له محكمة، ورتب كل شيء، ولم يعد باقيًا سوى الحصول على بعض المفرقعات التي كان عليه أن يتسلمها في بار إحدى دور السينما في السويس، والتي كانت متخصصة في عرض الأفلام الأجنبية التي يرتادها جنود الاحتلال، ويعج بهم البار في نفس الوقت.

في الموعد المحدد، وحسب الخطة التي وضعت ليتسلم بمقتضاها الشحنة الناسفة من شخص ما، ذهب محسن ممتاز إلى البار، غير أنه حدث أن دخل إلى المكان جندي يترنح من فرط السكر، راح الجندي يتخبط هنا وهناك، ثم... في خطوة غير مقصودة اصطدم بمحسن ممتاز، الذي كان مشغولًا عنه بمراقبة باب البار... ورغم أن محسن ابتسم له معتذرًا، فإن الجندي راح يتحرش به... وكان من المحتمل أن يصفح محسن عن بذاءات الجندي وسبابه مهما كان، وهو قد تغاضى عما ناله شخصيًّا من سباب، ولكن... أن يقول الجندي عنه إنه: «مصري قذر»... فهذا ما لم يحتمله محسن.

قال الجندي هذا وانقلبت الدنيا رأسًا على عقب، وبهت الحاضرون لهول الضربات التي راحت تنهال على الجندي بعنف أسال دمه وأفقده الوعي في دقائق خاطفة... وما لبث محسن أن أطلق ساقيه للريح قبل أن يفيق الحاضرون من هول ما صنعه... فر محسن، ولم يتسلم المفرقعات، وأجلت العملية!

«عاوز تقول إيه؟!».

أدرك محسن أن وراء سؤال صديقه ما وراءه... فلقد نهض حسن صقر وقال وهو يتناول جاكتته استعدادًا للانصراف:

«الفدائي ما ينفعش!».

هم محسن بالاعتراض عندما صاح فيه حسن:

«مش إنت بالذات يا محسن، أي فدائي ما ينفعش!».

ولم تطل المناقشة بعد ذلك، فلقد وصلت هذه المرة أيضًا إلى طريق مسدود... فالفدائي الذي لا يحتمل سباب رجل سكران، لا يستطيع أن يعيش في مجتمع الأعداء... لأنه هناك، سوف يسمع عن وطنه وأهله وناسه ما قد يفقده صوابه، بل وحياته!

ران الصمت على الغرفة... وسرى إليها نقيق الضفادع من الخارج، ورفع محسن رأسه نحو رئيسه وزميله وصديقه متسائلًا:

«تقدر تقول لي إنت لبست الجاكيت ليه؟!».

«عاوز أتفسح!».

مرة أخرى حاول محسن الاعتراض، فصاح حسن وهو يندفع نحو باب الغرفة:

«مش عاوز أشتغل، تعبت، مخي تعب، عاوز أرتاح ولو ساعتين!».

* * *

لأن محسن ممتاز كان ابن عمدة، ولأنه كان أعزب ووحيد والديه، فلقد استطاع أن يمتلك سيارة صغيرةٍ من ماركة فرنسية كان تصميمها ـ ولا يزال حتى اليوم ـ غريبًا ومضحكا، وكانت هذه السيارة منتشرة في مصر في تلك الأيام...ولقد قاد محسن سيارته هذه في تلك الليلة إلى لا هدف!

«اطلع بينا على الدنيا يا أخي خلينا نشوفها!».

هكذا قال حسن، وهكذا مضت بهما السيارة تضرب في شوارع القاهرة حتى وصلت إلى وسط المدينة حيث الأضواء والناس ودور السينما والمسارح والمطاعم، ولقد تعمدا طوال الطريق ألا يتحدثا في الموضوع على الإطلاق، فقبل أن يركب حسن إلى جواره صاح فيه:

«محسن!».

مال هذا وهو جالس في مقعده خلف عجلة القيادة مطلًا على صديقه الذي صاح:

«قبل ما اركب.. مش عاوز كلام في الشغل خالص!».

وهكذا، وقد أصبحا في شارع سليمان ـ وهو شارع دور السينما

والمحلات الراقية في قلب القاهرة ـ راحا يمتصان الأضواء والألوان والحياة والحركة، حتى إذا مرت السيارة بإحدى دور السينما الأمريكية، مال حسن صقر محملقًا في الأفيش الذي كان يحوي رسومًا لجنود ومظلات وحروب وانفجارات فصاح:

«اركن يا محسن!».

مال محسن بالسيارة وتوقف.

«تعال ندخل الفيلم ده!».

بدا على محسن التأفف، فلقد كان جائعًا، وكان يطمع في الذهاب إلى مطعم يسكت فيه صراخ معدته، لكن حسن قال مقنعًا إياه:

«ما هو احنا مش حانسى الشغل... وزي أنا ما بافكر فيه وأنا قاعد جنبك، إنت بتفكر فيه وانت بتسوق العربية... وأنا عاوز أنسى، ولازم ننسى، والسينما دي بتعرض فيلم عن الحرب، تعال نتفرج عليه!!».

بدا منطقه سليمًا تمامًا، فلأنهما ضابطان سابقان في الجيش، ولأنهما شاركا في حرب فلسطين، فإن فيلمًا حربيًا، كان كفيلًا بأن يمتص انتباههما!

دفعا خمسة عشر قرشًا ثمنًا لتذكرتين في الجزء الخلفي من الصالة... ودخلا الفيلم!

وكانت كارثة!!

* * *

قال عزيز الجبالي للسيدة هيلين سمحون وهو يحتسي معها فنجانا آخر من القهوة المصرية التي أعجبتها.. إن ثمة أشياء يصنعها القدر دون أن يستطيع الإنسان أن يخضعها لقانون معين، وإن الحضارة الغربية بكل ما فيها من مادية، تتجاهل هذا الجزء الهام من حياة الإنسان دون بحث

كاف واهتمام بقيمة مصادفة كتلك التي حدثت في ذلك اليوم من الأيام الأخيرة لشهر أبريل عام ١٩٥٤ ... والتي كانت السبب المباشر في كل ما سوف يقصه عليها بعد ذلك من أحداث!!

* * *

كان الفيلم يحكي قصة واقعية قرأها حسن صقر ومحسن ممتاز في تلك الأوراق والكتب المنشورة والمستجلبة، والتي استطاعت المجموعة التي سافرت إلى الخارج أن تحصل عليها، حقًا إن الفيلم أضفى على العملية الحقيقية رونقًا، كان هناك مزيد من الإثارة، ومزيد من الأحداث التي جعلت من الفيلم تحفة فنية شدت المتفرجين إلى المقاعد طوال مدة عرضه وقد كتموا أنفاسهم... كانت قصة مشهورة عن إحدى العمليات التي قامت بها المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية.

فلقد كان النازيون أثناء احتلالهم لفرنسا، قد اختاروا قصرًا من قصورها الواقعة وسط الريف الفرنسي ليجعلوا منه مركزًا للمخابرات الألمانية في فرنسا... وأصبح هذا القصر ما يمكن أن يطلق عليه: «المركز الرئيسي للمخابرات الألمانية في أوربا كلها»... وعلى ذلك، فلقد كان يحوي كل الوثائق الخاصة بالطابور الخامس الألماني المنتشر في كل دول أوربا وكان الحصول على الكشوف التي تحمل أسماء هؤلاء الجواسيس، قد أصبح أمرًا على أكبر قدر من الأهمية بالنسبة لمسار الحرب... خاصة بعد أن علمت المخابرات البريطانية أن هذه الكشوف موجودة في خزانة سرية في إحدى غرف هذا القصر... وكان المطلوب هو الحصول على «صورة» من هذه الكشوف دون أن يشعر الألمان بذلك... أي أن المطلوب كان اقتحام القصر ـ سرًا ـ الذي وضع تحت حراسة رهيبة طوال الأربع والعشرين ساعة، ليس بالحراس اليقظين فقط، وإنما أيضًا بكلاب متوحشة تمزق كل من تسول له نفسه

عبور السور الذي أوصلوا إليه تيارًا كهربائيًا صاعقًا... ثم، وإذا ما تخطى الفدائيون هذه المواقع المخيفة، كان عليهم أن يقتحموا القصر نفسه ـ دون أن يشعر بهم أحد ـ وأن يصلوا إلى الغرفة التي تحوي الخزانة، ثم يفتحوها ويصوروا الكشوف التي تحمل أسماء أفراد الطابور الخامس في كل دولة من دول أوربا، ثم يعيدوها إلى مكانها ويغلقوا الخزانة كما كانت تمامًا... بعد ذلك كان عليهم أن يغادروا القصر ويعودوا إلى بريطانيا بكنزهم الثمين!!

ولقد عهد إلى أحد ضباط المخابرات البريطانية بهذه العملية، وبدأ على الفور في اختيار الرجال، ودراسة القصر من واقع الخرائط التي وضعت تحت يده، درس مداخله ومخارجه وحراسه وحراسته والكشافات ومواقعها والكلاب ودوراتها... ثم درس الرحلة وإمكاناتها والأماكن التي سيسقط فيها الرجال بالمظلات، وأين يذهبون، ثم الوصول إلى القصر... و... وعشرات التفاصيل والمراحل التي تبدو مستحيلة تمامًا. لكنه كان أمام واجب قومي سينقذ البلاد من نزيف للمعلومات مؤكد، وكان لا بد أن تتحول المستحيلات إلى ممكنات.

ولقد حدث هذا...

تمت الدراسات والتدريبات والتجهيزات...و ... وبقيت عقبة واحدة. كانت هذه العقبة هي الخزانة.

قالت المعلومات التي وصلت إلى المخابرات البريطانية إن «الخزانة» من نوع متقدم للغاية، وإنها تغلق وتفتح حسب أرقام معينة، ولقد وجد رجل المخابرات البريطانية نفسه أمام معضلة... فإنه يستطيع الوصول برجاله إلى الخزانة دون أن يشعر به أحد، ولكنه كي يفتحها، مضطر لأن يدمرها ويدمر معها العملية كلها، فالتدمير سوف يوقظ الحراس وينبههم، ثم إنه سوف يشي بأن الكشوف قد صورت أو سرقت،

وسوف يجد الألمان ألف وسيلة لتحذير عملائهم، حتى إذا وصلت هذه الكشوف إلى لندن في رحلة العودة كان هؤلاء قد اختفوا... ولم يكن أمام رجل المخابرات البريطاني سوى طريق واحد، هو أن يلجأ إلى «سكوتلانديارد!».

وفي زيارة لرئيس «سكوتلانديارد» ذات الشهرة العالمية، قال الرجل إنه في حاجة إلى ضابط خبير في فتح الخزائن...ولم تكن هذه مشكلة، فهناك عدد كاف من الخبراء الذين يستطيعون فتح أية خزانة على وجه الأرض، ولكن... ما هو الغرض الذي يريده هذا الضابط من أجله؟!

كانت العملية على أعلى درجة من السرية، ولم يكن البوح بها سهلًا، لكن رجل سكوتلانديارد قال: إن الغرض مهم جدًّا لاختيار الشخص المناسب... وبعد حوار لم يطل كثيرًا، اقتنع رجل المخابرات وأفضى إلى رجل البوليس بالمهمة... فابتسم هذا قائلا:

«إذن فأنت يا صديقي لست في حاجة إلى ضابط!».

نظر إليه هذا في دهشة، فبادره رجل البوليس بقوله:

«أنت في حاجة إلى لص!!».

وكان منطق رجل البوليس في هذا بسيطًا للغاية: إن اللص لديه إحساس أكبر وأعمق بالأمن والسرية من الضابط... اللص عندما يسرق، يفعل هذا وكل حواسه مشرعة لملاقاة الخطر القادم أو المحتمل، لذلك... فإن أصابعه سوف تعمل في دائرة هذا الإحساس الحاد بالأمن... أما الضابط، فلسوف يستطيع فتح الخزانة حقًّا، لكن إحساسه بالأمن لن يكون في حدة إحساس اللص، فهو لم يسرق من قبل، وهو لن يشعر بذلك الخوف إذا ما انكشف أمره.

«وهل لديك هذا اللص؟!».

«نعم... إنه في السجن!».

«وهل تستطيع إقناعه بالقيام بهذه المخاطرة؟!».

«هذا عملك يا صديقي وليس عملي!».

وكان رجل البوليس مرة أخرى على حق!

لكن الغريب أن ضابط المخابرات لم يبذل جهدًا في إقناع اللص، فما أن عرض عليه المهمة حتى وافق على الفور، فرغم أنه مسجون إلا أنه أحس أن «الوطن» في حاجة إليه، وكان لا بد له أن يلبي، ولو كانت المخاطر تحيط بالعملية من كل جانب... وافق اللص من قبل أن يسمع أنه سيصدر عنه عفو عام، وأنه ـ لو أدى المهمة ـ سيعود مواطنًا شريفًا نظيف الماضي!

وهكذا بدأ اللص في التدريب على القفز بالمظلة من الطائرة، وعلى ما كان ينقصه كجندي أو فدائي... وأصبح فردًا من أفراد تلك المجموعة التاريخية التي استطاعت ـ بما يشبه المعجزة ـ أن تقتحم هذا القصر، وأن تصور الكشوف كاملة، وسقط بعدها كل جواسيس ألمانيا النازية في أوربا.

وكان الفضل للص لديه الإحساس بالأمن أقوى من ضابط بوليس!



كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحًا وما زالت تلك السيارة الصغيرة في مكانها من شارع سليمان باشا أمام إحدى دور السينما الأمريكية... في داخلها جلس شخصان لم يكفا لحظة عن الحديث، وكان حديثهما خافتًا، فشل الشرطي المكلف بحراسة هذا الشارع أن يسمع منه كلمة رغم مروره بجوارهما جيئة وذهابًا منذ أن أغلقت دور السينما والمحلات وأطفئت الأنوار، وبالرغم من أنه كان في بعض الأحيان يتلكأ بجوارهما لعله يسمع شيئًا مما يقولانه أو يتآمران عليه في مثل هذا الوقت من الليل، إلا أنه لم يستطع... ساوره الشك منذ ساعة وبعض الساعة، لكنه

في نهاية الأمر ضاق بالمراقبة فقرر أن يحسم الأمر... تقدم من السيارة وانحنى نحو الجالسين في الداخل:

«مساء الخير يا بهوات!».

التفت إليه الجالس خلف عجلة القيادة:

«مساء الخير يا شاويش!».

على استحياء سأل الرجل:

«فيه ـ لا مؤاخذة ـ حاجة؟!».

«حاجة زي إيه؟!».

«إنتم واقفين هنا من بدري، والساعة بقت ثلاثة!».

هتف محسن ممتاز وهو ينظر في ساعته ذاهلًا:

«معقول ده؟!».

وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا، عندما أدار محسن موتور السيارة، وانطلق بها وهو يعتذر للشرطي بكلمات متلاحقة وبلا معنى... اندفعت السيارة الفرنسية الصنع المضحكة المنظر تخترق شوارع القاهرة الخالية تمامًا... لكن «حسن صقر» و«محسن ممتاز» كانا قد استقر بهما الرأي على أنه لا بد من «البحث عن أفاق!».

الفصل الخامس

البحث عن أفاق

قالت «هيلين سمحون» وهي تعتدل في مقعدها وعيناها تبرقان: إن القصة تبدو لها غريبة ومثيرة للاهتمام، حتى ولو لم تكن تدور حول زوجها الراحل، وربما كان هذا راجعًا إلى طبيعة هذا النوع من القصص وما يحيط بأحداثها من غموض... ثم اعترفت لعزيز الجبالي اعترافًا بدا له مثيرًا حقًّا، قالت: إن حبها لديفيد لم يتأثر بعد أن عرفت عنه ما عرفت، وإنها حاولت ـ طوال الأسابيع الماضية، ومنذ ليلة وفاته التي اعترف لها فيها بأنه مصري وليس إسرائيليًّا ومسلم وليس يهوديًّا ـ أن تثور عليه وعلى ذكراه معًا، حاولت أن تغضب وألا تغفر له أنه خدعها حتى ولو كان مضطرًا لذلك، لكنها لم تستطع... باءت كل محاولاتها بالفشل، فلقد ظل الرجل الذي أحبته وتزوجته وأنجبت منه طفلين ماثلًا أمامها بكل حنانه ورقته وحرارة حبه وتدفقه لكن الغريب في الأمر ـ هكذا قالت لعزيز وهي تداري خجلًا اعتراها ـ أنها كانت تشعر كلما أوغل في الحكاية بقلبها يدق... لا لشيء إلا لأنها تعرف أن هذه الأحداث الغريبة سوف تقودها بالقطع نحو حقيقة زوجها، نحو حقيقة ديفيد شارل سمحون!

ولقد استمع لها عزيز صامتًا، حتى إذا انتهت غمغم بكلمات لا تعني شيئًا وهو يبتسم مجاملة... ثم راح يكمل قصته!!

* * *

في صباح اليوم التالي، كان «محسن ممتاز» ـ رسميًا ـ هو المسئول عن هذه العملية، عملية «البحث عن أفّاق!».

ولقد يبدو الأمر بسيطًا لأول وهلة رغم أنه بالقطع ليس كذلك، فإنك قد تستطيع العثور على مئات الأفاقين في الكثير من الأماكن المشبوهة، في قمة المجتمع كما في قاعه، ولكن... وفي مثل هذا النوع من العمل السري يصبح البحث عن «أفّاق ما»، بمواصفات خاصة وشروط شديدة الصرامة، أمرًا عسيرًا إلى حد كبير... وبالرغم من هذا، فهو ليس بالطبع مستحيلًا، وإن كان يحتاج إلى الكثير من «الخبرة» حتى يستطيع الباحث أن «ينتقي» من وسط العشرات الذين سيلتقي بهم واحدًا تنطبق عليه هذه الشروط الضرورية.

بدأ محسن ممتاز البحث فورًا، وفي نفس اليوم، وفي اتجاهات متعددة... ورغم ما كان لديه من أعمال أخرى كانت تمتص جزءًا كبيرًا من وقته، فإنه أعطى لهذه العملية جهدًا مضاعفًا، خاصة أنه لم يكن يستطيع أن «يفصح» ـ كما كان الأمر بين رجل المخابرات البريطاني ومسئول سكوتلانديارد مثلًا ـ عن الهدف من البحث عن مثل هذا الأفاق من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا لا نستطيع أن نزعم أنه كان يعرف «كيف» يمكن العثور على مثل هذه الشخصية التي لا بد أن تكون ـ بكل المقاييس ـ متميزة... ذلك أن الخبرة هنا كانت ضرورية، وإذا كان محسن ممتاز يعلم أنه كان قليل الخبرة، وفي نفس الوقت عاجزًا عن الإفصاح إلى من طلب إليهم مساعدته عن طبيعة المهمة المطلوب من أجلها هذا الأفّاق، فلم يكن لديه سوى «الإحساس» العام بالعملية كي يستند إليه في سعيه نحو الهدف!

كان هذا الشاب الريفي المولد يعرف أنه يخوض معركة مضنية تحتاج إلى قدر هائل من السرية، فهو لا يتحرك في مجتمع «مغلق» كالمجتمع الإسرائيلي مثلًا، لكنه كان يتحرك في مجتمع «مفتوح» على مصراعيه لجاليات يهودية وأوربية عديدة ومنتشرة في جميع أنحاء البلاد!

ذلك أن المجتمع المصري في تلك السنوات، كان «يشغي» بجاليات من جميع أنحاء الأرض، منها جاليات إيطالية، ويونانية، وفرنسية، وبلجيكية، وإنجليزية، وتركية، وهندية، وعربية، وإسبانية، وملطية... و... وكانت هذه الجاليات منتشرة ومنبثة في جميع أنحاء الوطن، من العاصمة وحتى أصغر قرية فيه!

ولقد كانت المشكلة التي واجهت مجموعة الضباط الشبان الذين عهد إليهم بإنشاء أول جهاز مخابرات مصري «منظم وحديث»، ليست فقط في قلة المعلومات عن هذه الأجهزة وكيفية تنظيمها وأقسامها وأسلوب عملها، فلقد كانت هذه مشكلة من الممكن ـ بالممارسة ـ التغلب عليها، بل وإيجاد صيغة مصرية لها... ولكن المشكلة الحقيقية كانت في «قلة الخبرة» فيما يختص بأسلوب العمل مع المندوبين أو العملاء، واختيارهم وتدريبهم، وإقناعهم، وما إلى ذلك من فنون كانت قد تقدمت كثيرًا وبصورة فاضحة ـ إن جاز لنا أن نقول ذلك ـ عما كان معمولًا به في الأجهزة المصرية في ذلك الوقت... والذي كان يزيد من صعوبة المشكلة هو أن إسرائيل كانت قد استطاعت إنشاء جهاز متقدم بالفعل للمخابرات، بل لقد كان «الموساد» ـ بالقياس إلى بعض الأجهزة الأوربية ـ يعتبر جهازًا فعالًا ومؤثرًا، لا في المحيط الخاص بالشرق الأوسط فقط، بل على مستوى العالم كله... وكان لذلك أسبابه بطبيعة الحال، وهي أسباب لا ترجع إلى «العبقرية» اليهودية،كما يحاول البعض أن يروج، وكما يحاول الإسرائيليون أنفسهم أن يشيعوا في العالم كله خاصة في الدول العربية، وإنما ترجع هذه الأسباب إلى

ظروف تاريخية وموضوعية جعلتهم، بالضرورة، يكتسبون خبرة كبيرة ومؤثرة في هذا المجال... كما كانت ظروف موضوعية وقاهرة جعلت المصريين، في تلك الأيام، يفتقرون إلى تلك الخبرة التي كانوا في أشد الحاجة إليها!

* * *

هنا توقف عزيز الجبالي عن الحديث ناظرًا نحو «فراو سمحون» نظرة من يريد أن يفصح عن شيء، ولقد فهمت هي هذه النظرة، ومالت نحوه مشجعة إياه على الإفصاح عما يدور في ذهنه... وتحدث هو بصراحة، قال: إنه لا بد هنا من وقفة تبدو بعيدة عن تيار القصة التي يحكيها، لكن الحقيقة أن أحداث أية قصة، وقيمة أبطالها، وبناء شخصياتها لا يمكن أن يتم إلا من خلال محيطها الموضوعي، والجو العام الذي وقعت فيه... وعلى هذا فإن أحداث القصة وطبيعة الأدوار التي لعبها كل فرد من أبطالها، لا يمكن أن تفهم على حقيقتها إلا من خلال معرفة «الجو العام» الذي وقعت فيه.

قالت السيدة سمحون:

«إن هذا أمر طبيعي!».

فاستطرد عزيز:

«ولهذا فلا بد لنا من أن نعرف على أية أرض كان محسن ممتاز يتحرك، وفي مواجهة أية عقبات... وأي مجتمع، وبأية خبرة بدأ رأفت الهجان حركته الشديدة الخطر؟!».

ولم ترد هيلين سمحون، وانتظرت أن يكمل حديثه بعد أن يشعل السيجارة التي شرع في تدخينها وقد استغرق في التفكير!

* * *

ولقد كان عزيز الجبالي في واقع الأمر على حق، ولم تكن هيلين

سمحون تعرف ما الذي يجول بخاطره بالقطع... ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه يعرف ما الذي كان يشغل بال عزيز الجبالي قطعًا... حتى ولو حللنا حديثه إلى تلك السيدة الألمانية، فلقد كانت ثقوب المصفاة التي يحكي ما ينفذ منها تضيق في بعض الأحيان إلى حد كبير... ولكننا قد نستطيع أن نشتم بعض ما كان يجول في خاطره، وإذا ما ألقينا نظرة على عدد الكتب التي أخرجها الإسرائيليون، أو من كتبوا عنهم ولهم، تخيلنا هذا الكم من المبالغة التي أضفوها على عبقريتهم، وقارنا هذا الذي قيل بالواقع، لهالنا الأمر.

وعلى سبيل المثال، فإنه من تلك العناصر التي من أجلها اكتسب «الموساد» منذ البداية تلك الخبرة التي تحدثنا عنها... أن المنظمات الإرهابية الإسرائيلية التي ولدت في فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل كانت كل منها تملك جهازًا خاصًا بها يعمل منذ أن بدأت، سرًّا... لا في داخل فلسطين وحدها، بل في قلب الأمة العربية على اتساعها من المحيط إلى الخليج، وفي كل دول العالم أيضًا بحكم تشرذم اليهود على سطح الكرة الأرضية... أن أعضاء هذه العصابات جندوا من كل دول العالم شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا... وكان لكل واحدة منها ـ بالضرورة ـ وكلاء منتشرون في كل الدنيا، يمدونهم بالأسلحة والتبرعات والمعونات، وبطبيعة الحال بالمعلومات... وكان يكفي لإسرائيل عام ١٩٤٨ أن تجتمع هذه الأجهزة الصغيرة في جهاز واحد، ولم يكن الأمر يحتاج إلا لجهد تنظيمي ليصبح الموساد حقيقة واقعة!

ليس هذا فقط، بل إن «الوكالة اليهودية» التي كان لها ـ قبل قيام إسرائيل بسنوات طويلة ـ فروع في جميع أنحاء العالم، ومنها بالطبع الدول العربية، لم تكن سوى جهاز مخابرات يعمل مع كل الدول ضد كل الدول لمصلحة اليهود... وإذا ضربنا مثلًا واحدًا على ذلك الدور الخطير الذي لعبته الوكالة اليهودية في العالم فإن مكتبها في القاهرة،

وكان مقره في إحدى عمارات شارع قصر النيل بوسط العاصمة المصرية، استطاع المساهمة أثناء الحرب العالمية الثانية في كشف عدد لا بأس به من قضايا التجسس لصالح الحلفاء... وربما كانت أشهر تلك القضايا وواحدة من أخطرها هي قضية الجاسوس الألماني «هانز إبلر»، الذي كان يحمل اسمًا مصريًا هو «حسين جعفر»، وهو اسم حقيقي، فلقد كان هانز ابنًا لسيدة ألمانية تزوجت من مستشار مصري أعطى لطفلها اسمه بعد أن جعله يعتنق الإسلام وبعد أن صحبه معه ليؤدي فريضة الحج! وهي قضية اشتهرت في التاريخ المصري ـ وفي العالم كله ـ باسم قضية الراقصة حكمت فهمي!!

استطاع «هانز إبلر» أثناء الحرب العالمية الثانية أن يحقق نجاحات مذهلة بتوغله داخل ضباط الإمبراطورية الذين كانوا يملئون العاصمة المصرية في تلك الأيام، سواء الذين كانوا يأتون في إجازة من ميدان القتال في الصحراء الغربية أو يقيمون أو الذين يمرون بها في طريقهم إلى دول أخرى، كما استطاع أن ينمي صداقة وطيدة مع ضابط مخابرات بريطاني كان يقطن العوامة المجاورة لعوامته... وعن طريق إبلر هذا ـ مع زميله الذي كان يدعى «مونكاستر» والذي تخصص في الإرسال اللاسلكي ـ أحرزت الجيوش الألمانية في الصحراء الغربية بقيادة روميل انتصارات هددت الوجود البريطاني في الشرق الأوسط كله... ولقد ضبطت إحدى الدوريات البريطانية ـ وبطريق المصادفة البحتة ـ محطة اللاسلكي التي كانت تستقبل رسائل إبلر، وعرفت بالتالي أن في القاهرة جاسوسًا يعمل لحساب ألمانيا، لكنها أبدًا لم تستطع الوصول إليه إلا عن طريق الوكالة اليهودية!

كان مسئول الوكالة قد تلقى من إحدى فتياته ـ وهي فتاة ليل اسمها إيفيت ـ بلاغًا عن هانز إبلر ـ الذي كان يعيش ويتحرك باسم حسين جعفر ـ بعد ليلة واحدة قضتها معه في عوامته الشهيرة، كان إبلر قد

أعطاها عشرين جنيهًا إسترلينيًّا في الصباح، وهو مبلغ ـ بحساب تلك الأيام ـ كان يعتبر مهولًا... لكنها قالت لمسئولها في الوكالة:

«إن الرجل الذي قضيت معه ليلة الأمس يقول إنه مصري، ولكني متأكدة من أنه ألماني، فلقد سمعته يتحدث مع زميله بالألمانية، بل وبلهجة السار، وهو عصبي المزاج، ومعه مال كثير!».

وطلب إليها مسئولها في الوكالة أن تداوم الاتصال بهذا الفتى، وألا تبلغ أحدًا عنه... وبالطبع نفذت إيفيت الأوامر وظلت على اتصال بالجاسوس الذي كان يلتقي بها في أحد النوادي الليلية، حتى استطاعت ذات ليلة أن تحصل على «الشفرة» التي كان يستعملها في رسائله اللاسلكية... وبعدها باعت الوكالة اليهودية معلوماتها للإنجليز، نظير ثمن دفعته بريطانيا التي كانت في ذلك الوقت في ورطة أكيدة!

ودون استطراد في هذه القصة، فإنها تكشف لنا بوضوح كيف كان عملاء الوكالة اليهودية ـ حتى من فتيات الليل ـ على درجة عالية من الكفاءة والتدريب.. فإن «إيفيت» هذه التي قدمت نفسها لهانز إبلر على أنها فرنسية من لبنان، أي أنها تتقن الفرنسية والعربية معًا، كانت أيضًا تتقن الألمانية بكل لهجاتها بحيث استطاعت أن تعرف اللهجة التي يتكلم بها الجاسوس، وهي لهجة إقليم السار!

كانت الوكالة اليهودية وحدها إذن ـ وعند قيام إسرائيل ـ تصلح لأن تكون نواة ممتازة لجهاز مخابرات على درجة عالية من الكفاءة!

لكن الأمر لم يقتصر على هذا فقط.

وإذا كانت الحركة الصهيونية تستعد منذ السنوات الأخيرة من القرن الماضي حتى قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين، فإن الأمر الطبيعي أن تعمد هذه الحركة إلى الاستعانة باليهود في الدول المتقدمة ـ إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة وروسيا القيصرية

ثم الاتحاد السوفييتي فيما بعد ـ وتحثهم بصفتهم مواطنين في هذه الدول على الالتحاق بأجهزة المخابرات فيها... ولقد خلق هذا جيلًا من رجال المخابرات اليهود، الذين ما إن قامت إسرائيل حتى كانوا جاهزين تمامًا لوضع خبرتهم ـ التي تحوي كل مدارس التجسس في العالم ـ تحت إمرة جهازها الوليد!... وعلى هذا، فإن الموساد ـ في تلك السنوات الأولى من الخمسينيات ـ كان جهازًا حديثًا حقًا، لكنه كان يضم خبرات أعرق الأجهزة، بل وأعظمها على الإطلاق!

ثم يصبح الحديث بعد ذلك عن الجاليات اليهودية في الدول العربية وتأثيرها الاقتصادي والاجتماعي بل والسياسي من قبيل التزيد... وبالرغم من كل هذا، وجدت مجموعة الشبان المصريين الذين عهد إليهم بإنشاء جهاز للمخابرات «منظم وحديث» نفسها أمام «غول» آخر، هو تلك العلاقة الفورية التي أقامها الموساد مع أجهزة المخابرات القوية، بدءًا بالمخابرات البريطانية، ومرورًا بالمخابرات الفرنسية، ثم انتقالًا إلى ما يشبه الوحدة مع المخابرات المركزية الأمريكية!

وعلى هذا، فلقد كان من السهل أن تزرع إسرائيل في الخمسينيات جاسوسًا له قدرات متفوقة مثل «إيلي كوهين» الذي ولد في مصر، وبدأت عملية زرعه في أمريكا الجنوبية، ثم انتقل إلى سوريا كي يتغلغل في قيادة الدولة حتى يقترب من منصب الوزير... كان سهلًا، لا لأنهم كانوا يملكون الخبرة فقط، بل لأنهم كانوا على دراية كاملة بمجتمعاتنا، بعاداتنا وتقاليدنا... ولكن، كيف يمكن للمصريين أن يعرفوا شيئًا عن مجتمع لم يكن قد تشكل بعد، ولم تصبح له سماته ومقوماته الأساسية، كالمجتمع الإسرائيلي في تلك الأيام؟!

أمام كل هذه القدرات، كان على الرجال أن يبدءوا من الصفر... ليس فقط، بل إنهم كانوا يعلمون يقينًا أن اشتداد موجات الحرب الباردة بين الشرق والغرب يعطى أساليب العمل السري ـ ومع تقدم العلوم

والتكنولوجيا العصرية التي دخلت فجأة عصر الذرة ـ دفعات مهولة وتطورًا كان يطرد يومًا بعد يوم... ولم يكن عليهم فقط مسابقة الزمن ليلحقوا بما فات بلادهم عبر عشرات السنين، بل كان لا بد من تزايد سرعة تقدمهم حتى يكونوا أقدر على الوصول إلى أحدث ما وصلت إليه أساليب هذا العلم الحديث، وحتى يستطيعوا التعامل معه!

كان الأمر شاقًا حقًا، وكان صعبًا... لكنه ـ أبدًا ـ لم يكن مستحيلًا!

* * *

كان ثمة سؤال يواجه محسن ممتاز منذ البداية: «أي نوع من الأفاقين سوف يبحث عنه؟!».

ولقد كان من الطبيعي أن يصبح الشرط الأول هو أن يكون هذا الأفاق مصريًا لحمًا ودمًا... إن الولاء هنا هو الركيزة الأولى للفكرة التي كانت تختمر في رأسه لحظة بعد لحظة... علمته نشأته الريفية كيف يصبر وينتظر ـ مثله مثل الفلاح المصري ـ لشهور وهو يرقب الأرض بعد أن بذر الحب، ثم يمتع نفسه وقلبه بمنظر الزرع وهو يشق التربة لينمو... وبقدر ما تعطيه من رعاية بقدر ما يعطيك من ثمر!

وهكذا راح يجري اتصالاته بمجموعة منتقاة من الرجال الذين انتشروا في جميع أنحاء مصر، ولقد كان من الممكن أن يكون الأمر سهلًا لو أنه طلب إلى الرجال أن يبحثوا له عن «نصاب» أو «لص» أو حتى «قاتل محترف»، ولكن كلمة «أفاق» هذه لم تكن واضحة في أذهانهم، كما أنه ـ هو نفسه ـ لم يكن قادرًا على تحديد المعنى بشكل قاطع ونهائي.

فإن كان الشرط الأول لهذا الأفاق أن يكون مصريًا، فلقد كان الشرط الثاني هو أن يصلح لأن يكون يهوديًا... إن اليهود المصريين لهم «سحنة» خاصة، وأسلوب خاص في الحياة، وروح خاصة اكتسبوها من المجتمع الذي عاشوا فيه... إن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بين

المصري إذا كان مسلمًا أو مسيحيًا، بل من المستحيل أن يفعل ذلك... لكن المصري اليهودي كانت له سمات لا يخطئها من كان على دراية بالمصريين... وإذا كان هذا من ناحية الشكل يجعل المهمة صعبة فإن المضمون يجعلها أكثر صعوبة... إن اليهودي المصري، مهما كانت مكانته الاجتماعية أو فقره أو غناه، كان لا بد أن يتقن، بجانب اللغة العربية، لغة أجنبية ـ على الأقل ـ إتقانًا تامًّا، ولقد كانت اللغة الفرنسية هي الشائعة بين يهود مصر، فمن أين له بأفاق مصري يتقن الفرنسية إتقانًا تامًّا، ثم لغة ثالثة يستطيع التحدث بها بيسر وسهولة؟!

كانت هذه السمات ضرورية في الاختيار، لكن محسن لم يستطع أبدًا أن يبوح بها لمن طلب إليهم البحث عن أفاق!

وكما فعل رجل المخابرات البريطاني عندما لجأ إلى سكوتلانديارد، لجأ محسن إلى مجموعة من أصدقائه من ضباط الشرطة الذين يعملون، خاصة، في المباحث!

ولأن محسن كان ذا شخصية جادة لا تعرف الهزل فقد تلقى أصدقاؤه من ضباط الشرطة طلبه هذا بدهشة... وكان طبيعيًا أن يسأله أي منهم عن السبب في بحثه عن أفاق، وكان من المستحيل عليه أن يخبرهم... كل ما كان يستطيعه هو الجلوس إليهم وإدارة نوع من الحوار المرهق الذي كان ـ بجهد شديد ـ يوصله إلى مبتغاه!

ولم يكتف محسن بهذا، بل نزل إلى الشارع!

وكما كان سهلًا عليه أن يرتاد النوادي الاجتماعية والرياضية والنوادي الخاصة ويصل إلى ذروة المجتمع في جولة صبور... لم يكن صعبًا على رجل مثله أن يرتدي ملابس عامل أو سائق أو موظف صغير، وأن يندس في المقاهي ويرتاد البؤر، ويختلط بنوعيات من البشر صعودًا في المجتمع إلى قمته وهبوطًا إلى قاعه... وبالرغم من أن تجربته هذه

بالذات لم تقده إلى العثور على ضالته، فإن فائدتها بالنسبة إليه فاقت كل ما تصوره... فلقد اكتشف أن الأفاقين كانوا يكثرون كلما اقترب من قمة المجتمع، وكم التقى في الفنادق الكبرى والجلسات الخاصة التي تضم أسماء لامعة لفنانين وكتاب ورجال أعمال بنوعيات من الأفاقين كانوا يبدون للناس وكأنهم من «صفوة» المجتمع، لكنه اكتشف أن في أعماق الريف المصري، الذي هو منه، ذكاء يصل إلى حد العبقرية... وفي رحلاته إلى أعماق الصعيد كان يلتقي بنماذج من النصابين والمحتالين واللصوص يبتكرون من وسائل النصب والاحتيال ما يفوق كل خيال... من أسوان وحتى الإسكندرية راح محسن ممتاز يتنقل بين الأسواق في القرى والمدن الصغيرة والكبيرة، في الحقول، بين المقامرين، والهاربين من القانون، ومهربي المخدرات، والتجار والسماسرة، وحتى الباعة المتجولين وأبناء الذوات وأبناء الأسر المتوسطة على حد سواء، بحثًا عن هذا «النمط» الذي كانت ملامحه، يومًا بعد يوم، وتجربة بعد أخرى، تكتمل في مخيلته... حتى جاء عليه يوم كان يشعر أن هذا «النمط» الذي خلقه خياله إنما هو رجل يسعى معه وبين يديه، يلازمه في الليل والنهار، يعيش معه، يأكل ويشرب ويغضب ويفرح... أصبحت الفكرة شخصًا، وكان عليه أن يعثر على هذا الشخص وسط ما يزيد على العشرين مليونًا من البشر، هم تعداد سكان مصر في ذلك الوقت!

ومرت الأسابيع.

ومرت شهور دون أن يعثر محسن على ضالته... كان إذا التقى بشخص توسم فيه الصلاحية ما يلبث أن يكتشف فيه عيبًا أو نقصًا يجعله يعدل عن اختياره فورًا...

حتى كانت ليلة من ليالي أغسطس عام ١٩٥٤.

كانت ثلاثة أشهر قد انقضت منذ تلك الليلة التي شاهد فيها ذلك الفيلم الأمريكي مع رئيسه وزميله وصديقه حسن صقر، دون أن يعثر

على بغيته... عاد إلى بيته بعد يوم شاق في عمل اقتضى منه أن ينتقل من مكان إلى مكان وكان الحر لافحًا، كل ما كان يحلم به في تلك الليلة هو دش بارد يزيل العرق، وجلباب يعطي لجسده فرصة الاسترخاء بعد يوم مضن... ولقد حدث هذا، أزال عرقه وارتدى جلبابه واستعد للاسترخاء المنشود عندما دق جرس التليفون.

وكان المتحدث واحدا من أصدقائه ضباط المباحث، وكان يتحدث من سجن الاستئناف في حي «باب الخلق» الذي يتوسط المسافة فيما بين ميدان العتبة الخضراء وقلعة محمد علي.

«عندي ولد غريب يا محسن عاوزك تيجي تشوفه!».

«شكله إيه؟!».

«معرفش!».

كان الرد غريبًا فاستيقظت حواس محسن:

«يعني إيه ما تعرفش؟!».

«ما اعرفش حقيقي!».

في غضب هتف محسن:

«ما تعرفش شكله إيه؟!».

«تعالى شوف وانت تتأكد بنفسك!».

«طب اسمه إيه؟!».

«ما اعرفش!».

«إنت شارب حاجة؟!».

«إحنا قدامنا كذا اسم ماحناش عارفين اسمه الحقيقي أنهو فيهم!».

«وده ملته إيه؟!».

«ما اعرفش!».

هتف محسن مغاضبًا:

«اسمع يا رشدي لما أقول لك...».

قاطعه الرجل من الطرف الآخر:

«حقيقي محدش عارف إن كان مسلم والا مسيحي والا يهودي!».

«دانت ممكن تعرف بالنظر يا أخينا!».

«أصله ينفع كله!».

تذرع محسن بالصبر وعاد يسأل:

«وده تهمته إيه؟!».

«ما اعرفش!».

صرخ محسن وقد بدا له الأمر هزلًا لا جد فيه: «أمال قبضتوا عليه ليه؟!».

«مش عارفين!».

«بقى ده كلام؟!».

«ما هو فيه قدامنا كذا تهمة، فيه نصب واحتيال، وفيه سرقة، وفيه تزوير... لكن التهم دي موجهة لكذا واحد ما حناش عارفين هو مين فيهم!».

ولأن محسن كان ذا طبيعة لا تخلط الهزل بالجد حتى مع الأصدقاء، فلقد أدرك أنه أمام حالة خاصة، وأن هذه الحالة قد تكون بغيته... فقال في حسم:

«أنا جاي لك!».

* * *

عندما وصل محسن ممتاز إلى سجن الاستئناف، كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساءً، فوجد كل شيء جاهزًا... كان هناك وكيل النيابة، وضابط المباحث، ثم ضابط السجن وكاتب الجلسة... ومع أكواب الشاي المصرية التي قدمت للحاضرين عرف محسن القصة.

هو شاب في حوالي الخامسة والعشرين من العمر، قبضت عليه السلطات البريطانية في ليبيا على أنه يهودي هارب من مصر اسمه «ليڤي كوهين»، لكنه كان يحمل جواز سفر أمريكيًا وغير مزور باسم «جوني برات»، وعندما وصل إلى القاهرة وأخذت بصماته، عادت البصمات بتقرير يقول إن له اسمًا آخر مصريًا ومسلمًا هو «رأفت علي سليمان الهجان»، ومن مكان آخر جاءت التحريات لتؤكد أن له سابقة تحايل في أحد فنادق القاهرة الكبرى التي ترك فيها جواز سفر فرنسيًا باسم «دانييل مارتان»، وعندما واجهوه بذلك قال بفرنسية طليقة كإنجليزيته الطليقة سواء بسواء: «إن هذا هو اسمي!»... ثم وصلت إشارة من الإسكندرية التي كان قد وصل إليها عقب ترحيله من ليبيا تقول إن المذكور - صاحب البصمات التي أخذت هناك - اتضح أن له ملفًا باسم «عادل مرقص سيدهم»... وكان الأمر محيرًا تمامًا، فإن التحقيقات التي أجريت معه لم تصل إلى أية نتيجة حاسمة، فاضطروا في النهاية إلى السؤال عنه في البوليس الدولي - الإنتربول - الذي أفاد أن هذا الشخص مطلوب في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا بتهم متعددة، وأن هناك بضعة أسماء أخرى له... ولقد اعترف الفتى، عندما عاد تقرير البصمات الأول، أن اسمه بالفعل هو «رأفت علي سليمان الهجان»، ثم عاد وقال إن هذا هو الاسم الذي انتحله عندما أخذوا بصماته، وإن اسمه الحقيقي هو «أحمد العلايلي»... وفي أحد التحقيقات قال إنه مسلم، ثم عدل عن ذلك وقال إنه في الحقيقة مسيحي، لكنه في مرة ثالثة قال إن الإنجليز في ليبيا كانوا على حق، وإنه يهودي أراد الفرار من مصر!

الذي زاد من حيرة المحققين أن نظام تحقيق الشخصية لم يكن معمولًا به في مصر في ذلك الوقت، وكان جوازا السفر الأمريكي

والفرنسي وثيقتين تثبت كل منهما أنه أمريكي الجنسية وفرنسي الجنسية... ولقد فشلت كل المحاولات والوسائل في تحديد شخصيته أو ديانته أو هويته بشكل قاطع... ثم، وعندما أعياهم الأمر، فكروا في الاتصال بمحسن ، فقد يصلح الفتى لأن يكون هو من يبحث عنه منذ شهور، وقد يستطيع أن يعرف بالقطع من هو؟!

استمع محسن بانتباه شديد لكل كلمة قيلت، ثم استأذن في الاطلاع على الأوراق، وراح يقلبها، ثم طلب إليهم عقد جلسة تحقيق عادية جدًا، يحضرها كواحد من الموظفين أو الضباط!

وهكذا رتبت الجلسة كما ترتب الجلسات عادة في مثل هذه الأحوال، كانت الغرفة التي انتقلوا إليها متسعة بعض الشيء وإن كانت خالية إلا من مائدة مستطيلة وضعت خلفها مجموعة من المقاعد بعدد الذين سيحضرون... وفي ركن الغرفة كان ثمة دولاب كبير متهالك تمامًا، مفتوح على مصراعيه، تبرز أحشاؤه من الملفات القديمة والجديدة على السواء... في مواجهة المائدة باب يؤدي إلى ساحة السجن، جلس وكيل النيابة وضابطا الشرطة، واختار محسن لنفسه مكانا بجوار الكاتب فبدا وكأنه أحد مساعديه... كان الجميع يرتدون الملابس المدنية فلا تعرف من منهم الضابط ومن منهم الموظف... وكانوا جميعًا ـ الآن ـ يعرفون ما الذي يريده محسن بالضبط، فكل ما كان يريده ألا يلتفت إليه أحد، وألا يعيره أحدهم اهتمامًا وكأنه موظف قليل الشأن، فلقد كان حريصًا على ألا يشعر الفتى بوجوده بأي شكل من الأشكال، حتى يعطي لنفسه الحرية في التفرس والدراسة دونما شعور من الفتى بأنه محل بحث أو تفحص أو تفرس أو دراسة!

ونودي على «المتهم!».

وفتح الباب ودخل شاب متوسط الطول قمحي اللون منصهر الملامح ـ إن صح التعبير! ـ إلى حد الدهشة، يبدو وجهه وكأنك التقيت

به من قبل مئات المرات دون أن يلفت نظرك، وهو وجه من تلك الوجوه المألوفة إلى الحد الذي يصبح من الصعب أن يعلق بذاكرتك... أنف طويل مدبب الطرف، شفتان رقيقتان تنفرجان عن ابتسامة لا تدري إن كانت ساخرة هي أم بلهاء، عينان تبدوان لأول وهلة ناعستين وكأن صاحبهما قد تناول مخدرًا ما زال يسري في دمائه، نابت الذقن، مهوش الشعر، ملابسه ليست رثة أو قديمة، وإن كان يبدو أن صاحبها لم يخلعها منذ أيام... بحركة لامبالية، وخطوات بطيئة، تقدم الفتى من الحاضرين كمن أسلم نفسه لقدر أهوج، في يديه المضمومتين أمامه قيد حديدي كانت سلسلته الصغيرة تصنع صوتًا ناعمًا مع حركته في الغرفة التي سادها الصمت فور دخوله، خلف الفتى دخل جندي من حراس السجن ما لبث أن غادرها بعد أن طلب إليه ذلك، على بعد خطوات من المائدة توقف الفتى، طافت عيناه بالحاضرين وكأنه يعرفهم جميعًا ويعرف ما سوف يدور بينه وبينهم، وعندما مرت عيناه بوجه محسن المنزوي بجوار الكاتب كأي موظف قليل الشأن توقفت العينان برهة، ثم التمع فيهما بريق صاحبته ابتسامة غامضة افترت عنها الشفتان الرقيقتان!

«قرب يا واد هنا!».

تقدم الفتى خطوة أخرى نحو وكيل النيابة الذي ناداه.

«هيه... قول لنا اسمك إيه؟!».

بدا التأفف صارخًا على ملامح الفتى وهو يغمغم بصوت متكاسل:

«تاني يا بيه؟!».

صاح ضابط الشرطة في غلظة:

«رد على البيه كويس يا بن الـ...».

في لكاعة من لا يهاب العنف قال:

«مانا قلت لكم يا حضرة الضابط!».

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى الفتى فيها ضابط المباحث هذا، وكان صاحبنا يرتدي ملابس مدنية:

«إيش عرفك إني ضابط يا واد؟!».

ابتسم الفتى ابتسامة ساخرة كانت تغني عن أي جواب، عاد وكيل النيابة إلى السؤال:

«من غير لف ولا دوران. رد على سؤالي... اسمك إيه؟!».

«ليفي كوهين!».

قلب وكيل النيابة في الأوراق التي أمامه:

«يعني مانتاش أحمد العلايلي؟!».

«علايلي مين بس يا سعادة البيه!».

لوح وكيل النيابة بجواز السفر الأمريكي:

«أمال الباسبور ده بتاع مين؟!».

قال الفتى في إنجليزية سليمة:

«إنه لي يا سيدي!».

«يعني انت جوني برات؟!».

«ما هو الاسم قدام سعادتك!».

عاد وكيل النيابة يقلب في الأوراق التي أمامه:

«أمال إيه حكاية عادل مرقص سيدهم دي؟!».

«ده في اسكندرية!».

«ورأفت علي سليمان الهجان؟!».

«مانا قلت لسعادتك إن ده اسمي ما رضيتش تصدق!».

«يعني انت مسلم؟!».

«وموحد بالله!».

«مسلم واسمك ليڤي كوهين؟!».

«الدين لله والوطن للجميع!».

«إنت بتهزر يا بن الـ ...».

«مش ده الشعار اللي معلقاه الثورة على الجدران؟!».

وانقضت الدقائق، دقيقة وراء الأخرى، واكتملت ساعة، ثم ساعة ونصف!

«الباسبور ده بيقول إنك أمريكاني، وده بيقول إنك فرنساوي، والورق ده بيقول إنك مصري... إنت جنسيتك إيه؟!».

«أرض الله واسعة!».

فاض الأمر بوكيل النيابة فصاح فيه:

«يعني إنت مين بالضبط... حسن والا مرقص والا كوهين؟!».

وانفجر الجميع ضاحكين....

جاءت صيحة وكيل النيابة وسط الجو الذي كان قد توتر مثل نسمة أنعشت الجميع، فما أن سمعوا اسم مسرحية الفنان المصري العظيم نجيب الريحاني هذه حتى وجدوا فيها منفسًا للحيرة التي أوقعهم فيها هذا الشاب الذي كان على استعداد لأن يكون حسن أو مرقص أو كوهين بالفعل... ظلوا يضحكون لثوان فإذا الرأس نصف الساقطة تشرع فوق العنق، وإذا القامة المهدلة تستقيم، وإذا العينان الناعستان تصحوان إلى بريق غريب متيقظ وأخاذ في نفس الوقت، ثم إذا بالفتى يلتفت نحو محسن بالذات، ويواجهه وكأنه إنسان آخر تلبس الجسد الذي كان ماثلًا أمامه... وإذا الفتى يقول بصوت له جرس ورنين وكأنه صوت إنسان آخر

غير هذا الذي كان يقف أمامهم ـ طوال ساعة ونصف ـ دون تعب أو ملل:

«أنا شايف إن القعدة دي لها طعم تاني غير طعم القعدات اللي تغم النفس إياها!».

همّ ضابط الشرطة بأن ينهره وإذا به يستطرد:

«وبالشكل ده، يبقى مفيش داعي للأساور دي!».

قال هذا وهو يرفع يديه المصفدتين بالقيد الحديدي أمام عيون الجميع، وإذا القيد بين أطراف أصابعه يتأرجح في الهواء، وإذا هو يتقدم من المائدة في خطوة رشيقة كي يضع الأصفاد ـ مغلقة ـ فوقها وقد علت شفتيه ابتسامة مزهوة... وهنا، هنا فقط، اعتدل محسن ممتاز في جلسته!

هتف ضابط الشرطة وهو ينهض إلى القيد الحديدي غير مصدق:

«يا شيطان يا بن الأبالسه...!».

ابتسم الفتى وكان الضابط يفحص الأصفاد فإذا هي مغلقة، استدار نحوه فإذا الفتى يبادره في تحد:

«وياما في الجراب يا حاوي!».

«تقدر تعمل إيه تاني؟!».

«معاك جنيه؟!».

«حاتنصب عليّ يا ابن الكلب!».

«طب وحاروح منك فين؟!».

كان الفتى على حق، فأخرج ضابط الشرطة من جيبه جنيهًا من تلك الجنيهات المصرية القديمة ذات اللون الأخضر والمساحة الكبيرة، تناوله الفتى منه وهو يومئ نحو الدولاب في طرف الغرفة:

«حادخل وراء الدولاب عشر ثوان... وابقى طلع الجنيه مني بعد كده!».

بدا الأمر مثيرًا تمامًا، بل بدا وكأنه نوع من التحدي بين الضباط والفتى، تبادل الجميع النظرات فعاد الضابط إلى مقعده وهو يومئ للفتى أن يفعل... سار هذا نحو الدولاب واختفى خلفه لعشر ثوان لم تزد، ثم عاد إليهم وهو يرفع ذراعيه قائلًا:

«الجنيه معايا، بس محدش حايعرف يطلعه مني!».

ابتسم ضابط المباحث ابتسامة ساخرة وهو ينهض إليه، تناثرت الضحكات والتعليقات وهو يفتش ملابسه قطعة قطعة، مضت الدقائق دون أن يعثر الضابط على الجنيه، نهض إليه ضابط السجن وراحا معًا يعيدان التفتيش في دقة المحترفين، كان في بذلته شق امتدت فيه أصابعهما حتى تمزق الجاكيت واتسع الشق دون جدوى، نظرا في ملابسه الداخلية فلم يمانع، فتشا فتحتي أذنيه وفتحتي أنفه وطلبا إليه أن يفتح فمه ففتحه على أقصى اتساع دون أن يعثرا على الجنيه... بدا الأمر محيرًا فصاح ضابط السجن بلهجة الواثق:

«تلاقيك حطيته في...».

هتف الفتى مقاطعًا:

«عيب يا بيه ما تكملش!».

قالها بلهجة ابن العائلات المهذب الذي تلقى تربية تمنعه من نطق فاحش أو حتى الاستماع إليه...و ... ولم يكن هناك مفر من التسليم بالعجز.

«طب فين الجنيه!».

فتح الفتى فمه وأخرج ضرسين صناعيين كانا مركبين في فكه

الأسفل، ومن تحت الضرسين الصناعيين أخرج الجنيه وكان مطويًا في دقة مذهلة، ثم راح يفرده أمامهم طية بعد أخرى!

ولقد مضى وقت ليس بالقصير، قدم لهم الفتى فيه عرضا سحريًا جذابًا... لم يكن العرض السحري هو ما يلفت النظر إلى الفتى بقدر ما كانت لهجته وأسلوب حديثه الذي ينم عن طبقة اجتماعية محترمة، وتلك الكلمات الفرنسية أو الإنجليزية التي كانت تتناثر وسط الحديث كما هي عادة أبناء العائلات في تلك الأيام، كان يشرح لهم كل لعبة ويدلهم على أصول كل خدعة وكأنه صديق قديم، فلقد سقطت فجأة بينه وبينهم كل الحواجز... مر الوقت وكأنه حفل سمر، ثم انفض وقد انتصف الليل منذ ساعة دون أن يعرف أحد من يكون الفتى... حسن أم مرقص أم كوهين... هل هو مصري أم فرنسي أم أمريكي... هل هو مسلم أم مسيحي أم إنه يهودي؟!

* * *

مضى بعد تلك الليلة أسبوعان!

كان محسن ممتاز قد صرح لصديقه ضابط الشرطة بعد أن انفضت الجلسة أنه لا يدري إن كان الفتى يصلح لما يريده له أم لا، وأنه في حاجة إلى وقت للتفكير... غادرهم وقد انشغل فكره بهذه الشخصية الغريبة، بدا له الأمر وكأن القدر قد ساق إليه هدية ممتازة وشخصية مثالية...

كان الفتى بالفعل مصريًا لحمًا ودمًا.. لكنه أيضًا، كان يتمتع بتلك السحنة التي عرف بها يهود مصر، وهو يتقن الفرنسية والإنجليزية، أو على الأقل لديه حصيلة منهما تجعل إتقانه لهما أمرًا ميسورًا... وهو بقوامه هذا وصوته وأسلوبه وقدرته الفذة على التلون وتطويع ملامحه لما يريد، يصلح لأن يكون أحد أبناء الجنوب الفرنسي فيما حول مرسيليا وطولون، ثم ـ على جانب آخر ـ كان يصلح لأن يكون واحدًا من أبناء

المستعمرات البريطانية قد تزوج أبوه من إنجليزية وحصل بعدها على الجنسية!

كان الفتى غريبًا بحق، صالحًا ـ من ناحية الشكل ـ تمامًا!

ولكن، هل كان يصلح من ناحية الموضوع؟!

وإذا كان يصلح من ناحية الموضوع، هل يقبل المهمة؟!!

ولم تكن الإجابة عن هذه الأسئلة سهلة، كان على محسن أن يتعرف إلى الفتى عن قرب، كان لا بد له أن يلتقي به، أن يحاوره، أن يسبر غوره، أن يقتحم صدره ويتعرف على تضاريسه الحقيقية... وقبل كل هذا، كان لا بد من معرفة الحقيقة: فمن هو؟!... هل هو «جوني برات»، أم «دانييل مارتان»، أم «أحمد العلايلي»، أم إنه «رأفت علي سليمان الهجان»، أم «عادل مرقص سيدهم»؟!... كان لا بد من يقين يرسو عليه: هل هو حسن، أم مرقص، أم كوهين؟!

* * *

مضى أسبوعان بعد تلك الليلة دون أن يسأل محسن صديقه ضابط المباحث عن الفتى مرة أخرى، فأيقن هذا، كما حدث من قبل، أن محسن قد صرف النظر عنه!

غير أن الثابت أن أحدا من الذين اجتمعوا في تلك الغرفة بسجن الاستئناف في ليلة من ليالي أغسطس عام ١٩٥٤، لم يعرف شيئًا عن الفتى بعد ذلك، وبالقطع فلقد نسوه تمامًا مع ما نسوا من وجوه الآلاف الذين مروا بهم، فلقد جاء أمر غريب بترحيل الفتى من سجن الاستئناف إلى قسم السيدة زينب، لكن الأغرب أن الأوراق التي وصلت مع الفتى إلى القسم كانت غامضة كل الغموض، فلم يعرف أحد من ضباط القسم ما هي التهمة الموجهة إلى هذا الفتى بالضبط، ولا لماذا نقل من سجن الاستئناف إلى هذا القسم... ولكن، عندما جاءت إشارة أخرى بنقله من

قسم السيدة زينب إلى أحد أقسام مصر الجديدة، بادر المأمور بترحيله فورًا وقد أسعده التخلص من هذا اللغز... ولقد تساءل الفتى لماذا يرحلونه، ولماذا ينقلونه، وما هي الأسباب، وما الذي يحدث؟!... وهو لم يجد جوابًا من أحد لأن أحدًا لم يكن عنده جواب... في مصر الجديدة مكث الفتى أسبوعًا كاملًا نقل بعده إلى قسم ثان جيزة... وكما حدث في السيدة زينب ومصر الجديدة، كانت الأوراق في قسم ثان جيزة غامضة وغريبة... وعندما تساءل المأمور عن هذا الفتى وعن التهم الموجهة إليه لم يجد إجابة كافية... غير أنه بعد ثلاثة أيام أخرى وصلت إشارة ذات صباح إلى قسم ثان جيزة بترحيل الفتى مع مخصوص إلى قسم الزيتون، وبسرعة نفذ المأمور الأمر، فلقد كان سعيدًا بالتخلص من سجين لا يعرف له تهمة، ووصل الفتى إلى قسم الزيتون ـ والزيتون ضاحية بعيدة من ضواحي القاهرة كانت في ذلك الوقت تبدو كأنها في مدينة أخرى ـ في الواحدة ظهرًا، ولم يدفعوا به إلى التخشيبة، بل طلبوا إليه الانتظار، والقيد في يديه، حتى يعرض على وكيل النيابة!

لكن وكيل النيابة لم يصل إلا في صباح اليوم التالي، ونام الفتى في تلك الليلة جالسًا على مقعد خشبي، وعندما مثل بين يدي وكيل النيابة كان قد وصل إلى حالة من التعب والإرهاق جعلته زائغ العينين، مستعدًا لأن يلقوا به في جهنم حتى يرحموه مما هو فيه من غموض... لكن المفاجأة، أن وكيل النيابة ما أن رآه حتى طلب إلى الشرطي ـ في جفاء ـ أن يفك القيد الحديدي من يديه، وكانت أربع وعشرون ساعة قد انقضت ويدا الفتى في الأصفاد، فأحس مع الراحة التي انتابته بخوف غامض... نظر إلى وكيل النيابة فإذا هو أمام شاب يبدو حديث التخرج قليل الخبرة، وكان هذا يقلب في أوراق يحويها ملف قديم مهلهل وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة، وما لبث أن رفع رأسه نحو الفتى متسائلًا:

«إنت أحمد العلايلي؟!».

همّ الفتى بالنطق، لكن وكيل النيابة في تأفف من يريد أن يتخلص مما في يديه بأي ثمن، راح يكتب في ورقة من أوراق الملف وهو يقول بصوت عال:

«يفرج عنه بكفالة عشرين جنيه!».

لم يصدق الفتى ما سمعه، اجتاحته فرحة غريبة وطاغية، ولكنه بالرغم من ذلك صاح:

«عشرين جنيه حتة واحدة، أجيبهم منين؟!».

عاد وكيل النيابة ينظر إليه في ضيق عندما جاء من خلف الفتى صوت يقول:

«الكفالة جاهزة يا سعادة البيه!».

التفت الفتى إلى الخلف في عنف من هوت على رأسه مطرقة، فإذا به وجهًا لوجه أمام محسن ممتاز... فغر فمه دهشة لكنه عاد ينظر إلى وكيل النيابة الذي كان يسأل محسن في جفاء:

«إنت مين!».

«أنا ابن خالته!».

«وحاتدفع له الكفالة؟!».

أخرج محسن النقود من جيبه قائلًا:

«دي مش أول مرة يا سعادة البيه».

راح وكيل النيابة يكتب في الأوراق مكملًا إجراءاته عندما هتف محسن:

«بس دي آخر مرة وسعادتك شاهد، دي آخر مرة!».

لم يرد وكيل النيابة، بدا مستغرقًا فيما كان فيه، بينما كان الفتى يبدو ذاهلًا ومحسن يخاطبه غاضبًا:

«إنت حاتفضل طول عمرك مش نافع، حاتفضل فاضحنا ومغلبنا لحد إمتى؟!».

صاح وكيل النيابة ناهرًا محسن:

«اتخانقوا بره مش هنا... يلّا اتفضل إنت وهو !».

قال هذا وهو يضغط زر جرس دخل بعدها شرطي خاطبه الشاب قائلًا:

«خده يا عسكري من هنا وخليه يدفع الكفالة!».

* * *

كان الفتى قد تعرف إلى محسن منذ النظرة الأولى، تذكر تلك الليلة في سجن الاستئناف التي ظل بعدها يتنقل من قسم إلى قسم ومن تخشيبة إلى تخشيبة دون سبب مفهوم... أراد الحديث، لكن وجه محسن المتجهم ونظراته المخيفة أوقفته، راح الجندي يدفعه أمامه في غلظة من مكان إلى مكان حتى تنتهي إجراءات دفع الكفالة... لم يجد الفتى بدًا من الاستسلام لذلك القدر الغامض الذي هبط عليه من حيث لا يدري... انتهت إجراءات الإفراج، وخرج الفتى في صحبة محسن من باب القسم ولم يصدق أنه أصبح حرًا... على بعد خطوات كانت هناك سيارة صغيرة فرنسية الصنع مضحكة المنظر، دار محسن حولها وهو يقول في جفاء من انتوى شرًا:

«اركب!».

ركب الفتى إلى جوار محسن الذي بدت السيارة صغيرة على جسده المتنامي، انطلقت السيارة إلى حيث لا يدري، كان كل ما فعله أن أسند رأسه إلى يده في إرهاق، ما إن مضت بهما السيارة بضع عشرات من الأمتار حتى التفت إلى محسن قائلًا:

«معاك سجاير يا بيه؟!».

أخرج محسن صندوق سجائره وألقى به في حجر الفتى دون كلمة، أشعل هذا سيجارة راح ينفث دخانها في تلذذ... ولقد حاول في لحظة ما أن يجرب الحديث... لكن نظرة خاطفة من عيني محسن ألجمت لسانه... ولقد أيقن لحظتها أنه ـ حتى الحديث ـ غير مسموح له به إلا بإذن!

عند بقعة هادئة في الطريق الموصل فيما بين ضاحية مصر الجديدة والقاهرة، وبجوار شريط الترام الذي كان يطلق عليه «الترام الأبيض»، وكان يربط ـ في ذلك الوقت ـ ضاحية هليوبوليس بحي العباسية الشهير، توقف محسن بالسيارة في ظل شجرة من الأشجار المتناثرة بطول الطريق!

كان الفتى صامتًا فظل صامتًا لا ينبس بكلمة... ألزمته نظرة محسن النارية حدود الأمر فلم يعصه، التفت إليه محسن وكأنه يأذن له بالالتفات إليه ففعل، ظل يرقبه قليلًا، راح يتأمله وكأنه يملأ منه عينيه، ثم لاح في العينين الناريتين شبح ابتسامة رطب جو السيارة الملتهب بالقلق والتوتر، أخيرًا... أخيرًا قال محسن بصوت آمر:

«ودلوقت... أنا عاوز أعرف منك حاجة واحدة بس!».

«إيه هيه يا فندم؟!».

«إنت مين؟!».

انتفض الفتى صائحًا:

«إنت اللي مين يا سعادة البيه؟!».

الفَصْل السَادس

صَداقة حميمَة مَع سُوء الحظ!

قالت السيدة سمحون إنها تشعر وكأنها تستمع إلى خطوات التاريخ في مكان ما من الكرة الأرضية لم يخطر ببالها أن تطأه أو تتعرف عليه... كان عزيز الجبالي قد انقطع عن الحديث عندما أصبح عليهما أن يستعدا لتناول طعام الغداء في تلك الغرفة ذات الأثاث المتواضع في جهاز المخابرات المصرية... أكثر ما أثار دهشتها تلك الذاكرة البلورية التي يتمتع بها عزيز الجبالي، والتي تحتفظ بالتفاصيلِ في نقاء من عاش الأحداث وشاهدها وتيقن منها... كان الغداء مكونًا من شرائح السمك والبطاطس المقلية على الطريقة الفرنسية، وكان هناك طبق مترع بالسلاطة الخضراء الطازجة، ثم تلا السمك طبق من اللحم البارد المصحوب بقليل من الخضراوات المسلوقة ورقائق البطاطس... ثم دورق مليء بعصير البرتقال!

انقطع الحوار عندما أصبح عليهما أن ينتقلا إلى تلك المائدة الصغيرة التي حملت إلى الغرفة عندما أبدت السيد سمحون رغبتها في تناول الغداء في نفس الغرفة حتى لا تنقطع عن «الجو» الذي اجتذبها إليه عزيز الجبالي... ما إن جلست إلى المائدة حتى ضحكت، ورفع عزيز عينيه إليها فقالت:

«إنكم حتى تعرفون مم تتكون وجبات طعامي!».

ابتسم عزيز في خجل غير مصطنع ولم يرد، فاستطردت:

«لو أن أحدًا قال لي إني سأتناول غدائي ذات يوم في أي جهاز من أجهزة المخابرات في العالم، حتى ولو كان جهاز المخابرات الألماني، لاتهمته بالجنون!».

غمغم عزيز بصوت خافت وإن كانت نبرته شديدة الوضوح:

«إن الحياة أكبر من أن نحتويها يا سيدتي!».

كان الشاب الذي يقدم لهما الطعام ريفي الملامح إلى درجة تدعو إلى الدهشة والإحساس بأنه لم يغادر حقله إلا بالأمس... ورغم هذا فلقد راح «يخدِّم» عليهما وكأنه واحد من جرسونات أفخم المطاعم الباريسية!

لاحت للسيدة سمحون فكرة راودتها أثناء حديث عزيز فلم تشأ أن تقاطعه، توقفت عن الطعام فتوقف هو الآخر، تلاقت نظراتهما فإذا هي تسأله:

«أين كنت طوال تلك الأحداث؟!».

«على الحدود المصرية الفلسطينية!».

عادت إلى الطعام فأكمل:

«كنت ملازمًا في الجيش المصري!».

رفعت إليه عينين متسائلتين فأجابها قبل أن تنطق:

«كان للمعركة هناك وجه آخر!».

أدركت ما كان يعنيه فعادت إلى الطعام... لاحت منها نظرة إليه فبدا مستغرقًا في حلم طويل... لزمت الصمت لدقائق، لكن الحديث سرعان ما اتصل من جديد بعيدًا عما كانا فيه، راحا يدردشان حول

السياحة في مصر وإمكان إقامة مشروعات سياحية تساعد على جذب المزيد من السائحين، ولقد كان عجيبًا بالنسبة لها أن تكتشف في حديث عزيز معرفة تكاد تكون شاملة عن السياحة وأساليبها و... و... وانتهى الطعام، ورفعت الأطباق وجاءت القهوة ومعها عدد لا بأس به من حبات البرتقال المصري الفاخر... وما لبث عزيز الجبالي أن عاد إلى حكايته من جديد!

* * *

كان الموقف غريبًا بحق، الضابط والفتى في طريق عام، في سيارة صغيرة مضحكة المنظر ومنتشرة بين شباب مصر من الطبقة الوسطى في تلك الأيام، تحت ظل شجرة من تلك الأشجار الوارفة التي تميز الأحياء الراقية أو الطرق المؤدية إليها في قاهرة ذلك المكان... كانا يجلسان في هدوء بحيث إذا شاهدهما إنسان لا يمكن أن يقول إلا إنهما صديقان في انتظار شخص أو شيء أو موعد... وذلك بالرغم من أن كلًّا منهما لم يكن يعرف من يكون الآخر، وكانا قد أفصحا عن ذلك عندما سأل كل منهما الآخر: من أنت؟!

أحدهما يريد التيقن من عشرات الأسئلة التي تضطرم في رأسه، يريد التيقن أولًا وقبل كل شيء من احتمالات الصدق والكذب عند الفتى!... هل سيصدقه القول أم يزوغ ويروغ ويتلاعب بالموقف واللفظ والحديث معًا؟!... يتمنى بداية تقوده إلى حيث يخدمان معًا وطنًا هو في أشد ما تكون الحاجة إلى خدماتهما... وهو في تحسسه إلى تلك البداية يختار الخطوات في عناية ودقة بالغتين... يعلم يقينًا أنه يروض وحشًا كامنا في صدر الفتى، ولو أنه أحس للحظة واحدة بأن القبضة ليست محكمة فلسوف يدمر الأحلام جميعًا... وأن عليه كما يفعل مدرب الوحوش في السيرك، أن يسمع الأسد فرقعة السوط فقط دون أن يقترب السوط منه أو يلمسه، إن الفرقعة هي التي ترعب الأسد

وتخيفه، لكنه لو ذاق لسعة السوط مرة، فلسوف يكتشف أن الأمر هين، وليس في حاجة إلى خوف، ولكانت هذه هي النهاية!

أما الثاني، فكان ـ لأول مرة في حياته ـ يتخبط أمام مجهول عليه أن ينزع عنه أستاره... يتساءل الفتى فيما بينه وبين نفسه من يكون هذا الرجل ذو النظرة الرهيبة والابتسامة الساحرة في نفس الوقت؟!... هذا الرجل الذي أخرجه من السجن، ونجاه من ورطة، وأعطاه حريته دون سبب معلوم، ثم... ثم هو لا يعرفه، لا يعرف اسمه ولا عمله، ولا هويته، ولا ما الذي يريده منه... ينظر إلى ملامحه مستعينًا بكل ما أوتي من خبرة وذكاء فطري ومكتسب، فيكاد يقسم أنه ضابط... ولكن، أي نوع من الضباط هو؟... أي نوع من الضباط هذا الذي يفرج عنه ويجلسه بجواره في السيارة ويجلس معه في الطريق العام بلا حراسة ولا تهديد ولا حتى حيطة... فهو، الآن، يستطيع أن يفتح باب السيارة بسرعة لا يتخيلها هذا الجالس إلى جواره، وأن يطلق ساقيه للريح، ولن يلحق به هذا الضابط حتى ولو استعان بعشرة سيقان مع ساقيه... وبالرغم من هذا فإنه لا يفعل... فلماذا؟!

لو أنه ـ فقط ـ يعرف ما الذي يريده منه هذا المجهول لاستطاع أن يلاعبه ويلاغيه!

«أوعدك إنك حاتعرف كل حاجة في وقتها!».

هكذا قال محسن ردًا على التساؤل الصارخ في عيني الفتى، ولم يخف هذا دهشته فتساءل بينه وبين نفسه إن كان هذا الضابط يقرأ أفكار الناس؟!

«قول لي بقى إنت مين؟!».

أحس برغبة عارمة في الاستسلام:

«شوف يا سعادة البيه... كل اللي قلته قبل كده كان مراوغة!».

رفع محسن حاجبيه فور سماعه لكلمة «مراوغة» هذه التي لم تكن من الكلمات الدارجة التي تعود المصريون على استعمالها في تلك الأيام، لاحظ الفتى دهشة محسن فصاح مؤكدًا:

«أيوه مراوغة، وما كانش فيه غير حاجة واحدة بس هي اللي صح... والغريبة إنهم ما رضيوش يصدقوها!».

«إيه هيه؟!».

«إن اسمي رأفت الهجان!».

عندها ـ لدهشة الفتى البالغة ـ اجتاحت وجه محسن ابتسامة واسعة وسعيدة، ظنها الفتى سخرية منه فهتف محتجًّا:

«طبعًا أنا عارف إنك مش حاتصدقني وحاتقول إني نصاب!».

لم يرد محسن وظلت ابتسامته معلقة فوق شفتيه.

«ده اسمي فعلًا يا سعادة البيه... اسمي رأفت علي سليمان الهجان!».

اتسعت ابتسامة محسن وازدادت إشراقًا فعاد الفتى إلى الصياح:

«تحب أثبت لك؟!».

«أُمال إيه حكاية ليڤي كوهين دي؟!».

«ما كنتش عاوز الإنجليز يرجعوني من ليبيا!».

أدار محسن موتور السيارة فورًا وهو يقول وكأنه اكتفى تمامًا:

«طب يلّا بينا!».

«على فين يا بيه؟!».

«على بيتك!».

* * *

كانت الأسابيع التي انقضت منذ رأى محسن هذا الفتى في سجن الاستئناف ذات ليلة من ليالي أغسطس عام ١٩٥٤، وحتى وقف معه بالسيارة بجوار شريط الترام الأبيض الموصل ما بين ضاحية هليوبوليس وحي العباسية، ذات يوم من أيام سبتمبر من نفس العام ـ لم تمض هباء.

كان على محسن ممتاز أن «يعرف» أكبر قدر من الحقيقة عن الفتى قبل أن يلقاه مرة أخرى... إن المعرفة هنا ستجعله أولاً قادرًا على امتحان صدق الفتى وكذبه... وهي ثانيًا ستساعد على تطبيق ذلك المبدأ الهام من مبادئ علم المخابرات، والذي يقول إنه لا بد أن تكون لـ«ضابط الحالة» اليد العليا على المندوب أو العميل أو سمه ما شئت من التسميات... ولم يكن ممكنًا مع شخصية زئبقية، وهبها الله قدرًا هائلاً من الذكاء كتلك التي يتمتع بها ذلك الفتى، التي جعلته يحير، لا البوليس المصري فقط، بل البوليس الدولي أيضًا... لم يكن ممكنًا أن تتم السيطرة عليه، وأن تكون لمحسن اليد العليا معه، إلا إذا امتحن صدقه، ثم بعد ذلك يأتي دور الترويض والتلجيم ـ إن صحت الكلمة ـ ثم من بعد ذلك التدريب!

كان السؤال الأول الذي وجهه محسن ممتاز إلى نفسه بعد أن غادر سجن الاستئناف، قبل أي شيء آخر، هو:

من يكون هذا الفتى؟!

وما هي جنسيته؟!

وما هو اسمه الحقيقي؟!

ولقد كان أمام هذا الضابط الشاب بضعة أسماء سمعها من الفتى أثناء الاستجواب الصوري الذي حدث في سجن الاستئناف، كما ذكرتها الأوراق والوثائق التي كانت موجودة!

كان هناك اسمان أجنبيان واسم يهودي، وثلاثة أسماء مصرية!

أما الاسمان الأجنبيان فكانا: «جوني برات» ـ وهذا هو اسم جواز

السفر الذي ضبط مع الفتى في ليبيا ـ والاسم الثاني هو «دانييل مارتان»، وهو الاسم الذي دلت التحريات أن الفتى كان يقيم به في أحد فنادق القاهرة الكبرى!

ولم يكن من السهل على محسن ممتاز أن يعرف شيئًا عن شخصين، أحدهما أمريكي والآخر فرنسي وكلاهما لا يعيش في مصر... ولكن، ولأنه كان على علاقة وثيقة بمصلحة الجوازات والجنسية، وهي فوق أنها علاقة صداقة وطيدة مع بعض كبار الضباط فيها، فهي أيضًا علاقة عمل استطاع محسن بواسطتها أن يعرف أن «دانييل مارتان» الفرنسي شاب دخل إلى مصر في زيارة علمية سريعة للآثار المصرية دامت أسبوعين، وأنه نزل في أحد الفنادق المتوسطة شأنه شأن الطلبة، حيث سرق منه جواز سفره، فأبلغ الشرطة عن الحادث واستخرج من السفارة الفرنسية جوازًا آخر عاد به إلى بلاده...، وكانت هذه هي الخطوة الأولى، فلقد عرف أن اسم الفتى ـ يقينًا ـ ليس «دانييل مارتان».

لكنه واجه أثناء بحثه شيئًا غريبًا... ذلك أنه لم يجد في سجلات المصلحة أي بريطاني دخل مصر باسم «جوني برات»... لكنه عثر على اسم فتاة بريطانية اسمها «جوان برات» دخلت مصر كسائحة، وقضت ثلاثة أسابيع فيما بين الأقصر وأسوان والقاهرة، ثم امتدت إقامتها أسبوعًا آخر عندما فقدت ـ فجأة ـ جواز سفرها... فأبلغت الشرطة، واستخرجت جواز سفر جديدًا، وعادت إلى بلادها!

ثم...

ثم كان من السهل أن ينتشر رجاله وسط الجالية اليهودية ـ في القاهرة والإسكندرية بالذات ـ بحثًا عن الاسم الثالث الذي أدلى به الشاب إلى السلطات البريطانية في ليبيا على أنه اسمه، وهو «ليفي كوهين»... ولأن اليهود المصريين كانوا يتوجسون خيفة في تلك الأيام من الثورة المصرية، فلقد كان الأمر يحتاج إلى بعض الوقت... أما بالنسبة للأسماء

المصرية الثلاثة التي وردت في حديث الفتى، فلقد كان الأمر بطبيعة الحال يختلف... كانت هذه الأسماء هي: عادل مرقص سيدهم، وأحمد العلايلي، ورأفت الهجان!

وبالرغم من كثافة التحريات في الإسكندرية وشمولها وانتشارها في جميع أحياء الثغر، فقد جاءت كل النتائج سلبية... فلم يكن هناك من يدعى بالتحديد «عادل مرقص سيدهم»... لكن محسن ممتاز لم يركن إلى هذا، وأمر باستمرار التحريات، بل وامتدادها إلى البحيرة ورشيد وغيرهما من المناطق المحيطة بالعاصمة الثانية لمصر!

ولأن محسن ممتاز كان من أصل ريفي عريق، فلقد كانت مسألة «العائلات» بالنسبة إليه مسألة على جانبٍ كبير من الأهمية... ذلك أن الناس في الريف المصري إذا عرفوا ـ مثلًا ـ أن فلانًا قد تزوج من فلانة سألوا: بنت من هي؟!... ومن أية عائلة؟!... ومن أي فرع من فروع هذه العائلة؟!... ثم، من إخوتها وأخواتها وأعمامها وأخوالها؟... و... وهم لا يفعلون ذلك من باب الفضول كما يتصور البعض، لكنهم يفعلونه من باب تأصيل الأمور، ورؤية الصورة كاملة بالنسبة للمجتمع الذي يعيشون فيه!

ولذلك... ولما كان محسن يعرف أفرادًا من عائلة العلايلي، فلقد أثبتت التحريات بعد أربع وعشرين ساعة فقط ـ لأنه كان يعرف كيف يوجهها وإلى أين ولمن بالتحديد ـ أن «أحمد العلايلي» هذا شخص موجود بالفعل، وأنه يعيش حياة عادية، متزوج وله ولدان، يشغل وظيفة محترمة في أحد البنوك... و... ومع استمرار التحريات، عرف أن أحمد العلايلي هذا فقد جواز سفره ذات يوم في ظروف غامضة وأبلغ الشرطة عن الواقعة، وكتب محضرًا في القسم، واستخرج جواز سفر جديدًا!

هل كان الفتى يحترف سرقة جوازات السفر؟!... إن ثلاثة حالات من الأسماء الستة التي ادعاها الفتى لنفسه، ضاعت جوازات السفر الخاصة

بأصحابها... ولكن، وسط عشرات من علامات الاستفهام التي أحاطت بشخصية الفتى، جاءت المفاجأة مع ورود بشائر التحريات الخاصة باسم «رأفت علي سليمان الهجان!».

في زيارة خاطفة لقريته التي كان أبوه عمدة لها، وفي دردشة مسائية على المصطبة في الدوار مع الرجال الذين علموا بوصوله فجاءوا يسلمون ويرحبون ويحتسون الشاي... عرف «محسن ممتاز» أن «الهجاجنة» في مصر ثلاثة بطون، كل بطن يقطن محافظة كان اسمها في ذلك الوقت لا يزال «مديرية»! ـ واحدة في البحيرة والثانية في دمياط... أما الفرع الثالث فكان في الشرقية!

وهكذا انطلقت تحرياته بشعبها الثلاث في سرعة محمومة تبحث عن «الهجان» الذي ادعى الفتى أنه ينتمي إليه... ولم يكن الأمر سهلًا في حقيقة الأمر، لكن التحريات في القاهرة جاءت تقول إن ضابطًا في الجيش المصري برتبة «صاغ» ـ رائد ـ اسمه محمد رفيق، متزوج من هجاجنة دمياط... وكان محسن يعرف محمد رفيق هذا منذ دخل الكلية مستجدًّا، وكان رفيق من الطلبة القدامى، وكان شاويشًا عليه... وعندما تحسست التحريات طريقها حول الصاغ محمد رفيق، جاءت المفاجآت بأن حرم الصاغ محمد رفيق اسمها «شريفة علي سليمان الهجان»... فإذا كان الفتى يدّعي أن اسمه «رأفت علي سليمان الهجان»، فإن تطابق الأسماء يدعو إلى الدهشة، فهل يكون شقيقها؟!... أم إنه يدعي ذلك؟!

في تلك الأيام كان محسن، بالرغم من تظاهره بالهدوء، يبدو وكأنه يقف على أطراف أظفاره... وكان السؤال الذي يتردد في ذهنه: هل حقًّا وضع يده على اسم الفتى الحقيقي، على أصله وفصله كما يقولون في مصر؟!... وعلى كل فلقد توالت الأخبار تحمل إليه المزيد من المعلومات... توالت تقول: إن السيدة شريفة هي ابنة الأستاذ المرحوم

علي سليمان الهجان الذي كان ناظرًا لمدرسة النجاح الثانوية للبنين، وإن الرجل أنجب من زوجته الأولى ثلاثة أبناء هم عادل وسليم ومحمود... فلما توفيت زوجته الأولى تزوج من أرملة أنجب منها ولدًا وبنتًا هما: «رأفت» و«شريفة»، ولكن زوجته الثانية توفيت بعد مرض قصير، فحزن عليها حزنًا شديدًا، ولحقها بعد بضعة أعوام تاركًا رأفت وشريفة في رعاية إخوتهما... لكن رأفت كان مدللًا فنشأ فاسدًا، ولم يكمل تعليمه رغم محاولات العائلة التي يشغل أفرادها وظائف محترمة من تلك التي يشغلها عادة أبناء الطبقة المتوسطة المتعلمة في مصر... وهو دائمًا ـ أي رأفت ـ مصدر تعاسة لأفراد الأسرة مما دفعهم إلى إغلاق أبوابهم في وجهه، فيما عدا أخته شريفة التي تزوجت بعد حصولها على شهادة التوجيهية ـ الثانوية العامة ـ مباشرة، وكان رأفت ـ لشدة تعلق كل منهما بالآخر ـ يزورها أحيانًا بالرغم من أن زوجها الصاغ محمد رفيق لم يكن يطيق سماع اسمه... فلقد حدث أن أحد أصدقائه من الضباط كان في زيارته عندما سأله بشكل يبدو عارضًا وغير مقصود بالمرة، إن كان يعرف فتى اسمه «رأفت الهجان»؟!... فإذا به يستشيط غضبًا، ويصيح بأنه لا يعرفه ولا يريد أن يعرفه كما أنه لا يريد أن يعرف عنه شيئًا، وأنه حرم عليه دخول البيت، وأن العائلة كلها قد تبرأت منه منذ سنين... ثم ... ثم سأل محدثه ـ الذي كان مذهولًا من غضب رفيق فهو لم يكن يعرف شيئًا عن الأمر ـ إن كان رأفت قد نصب عليه أو احتال عليه أو سرق منه شيئًا؟! وتلجلج الرجل فعاد الصاغ رفيق يقول: «هو في آني سجن دلوقت؟!» واضطر الصديق، وقد وجد نفسه في موقف لم يستعد له، أن يؤلف قصة مؤداها أن ثمة فتى تقدم لخطبة إحدى قريباته، وأن اسمه «رأفت علي سليمان الهجان»، وأن العائلة لجأت إليه كي يسأل عنه شأن كل العائلات المصرية في مثل تلك الأحوال... فما كان من حضرة الصاغ إلا أن صاح في صديقه محذرًا ومنذرًا طالبًا إليه تحذير الفتاة والعائلة، فالفتى نصاب ومحتال

وغير متعلم وأفاق، وأنه أيضًا، رد سجون ولا يستطيع أن يعول نفسه فكيف سيعول زوجة؟!

وكان محسن سعيدًا.

كان سعيدًا لأنه ـ أخيرًا وفي زمن قياسي ـ استطاع أن يعرف من يكون الفتى على وجه التحديد... لكن سعادته ازدادت عندما توّجت تحرياته بصورة فوتوغرافية لرأفت مع شقيقته شريفة ـ لم نستطع معرفة الطريقة التي حصل بها محسن على هذه الصورة، وفشلت كل المحاولات التي بذلناها في هذا السبيل ـ وكان عمر الصورة بضعة أعوام... و... ولم يكن هذا مهمًّا، بل كان المهم عند محسن أنه تأكد لأول مرة ـ وبشكل قاطع ـ أن الفتى الذي كان في سبيله لإطلاق سراحه، هو بالفعل «رأفت علي سليمان الهجان!».

ولذلك فلقد ابتسم محسن ممتاز تلك الابتسامة التي أدهشت الفتى عندما ذكر له اسمه الحقيقي بجوار شريط الترام الأبيض... وكان للابتسامة في الحقيقة سببان.. الأول: أن الفتى لم يكذب... أما الثاني: وهو الأهم، فلأن الشرط الأول تحقق... إن الفتى مصري لحمًا ودمًا وعرقًا وأصلًا.

* * *

كانت الساعة تقترب من الثانية ظهرًا عندما توقفت سيارة محسن أمام محل من محلات الكباب الشهيرة في ميدان الأزهـار الذي يتوسط المسافة فيما بين ميدان قصر النيل ـ الذي أصبح اسمه ميدان التحرير ـ وبين ميدان قصر عابدين... ضغط محسن على بوق السيارة فالتفت «المعلم» من الداخل، وما إن رأى محسن حتى رفع يده بالتحية مناديًا على أحد رجاله مشيرًا إلى السيارة... هرول الرجل حاملًا لفافة كانت جاهزة قدمها لمحسن الذي تناولها منه ووضعها في المقعد الخلفي، ثم نقده الثمن مع إكرامية وصلت إلى خمسة قروش كاملة ـ

وهو مبلغ لم يكن يدفعه في تلك الأيام سوى الموسرين! ـ وعندما عادت السيارة إلى السير من جديد، كان لعاب الفتى يسيل وقد امتلأت برائحة الشواء... بعد دقيقتين، في أحد الشوارع الخلفية لميدان سليمان باشا في وسط القاهرة، هبط محسن من السيارة حاملًا اللفافة، فهبط الفتى معه... كان نصف ساعة قد انقضى منذ أن غادرا مكانهما ذاك في ظل تلك الشجرة على الطريق الموصل فيما بين العباسية وضاحية مصر الجديدة، لم يجرؤ الفتى خلاله على النطق، فقط، طلب سيجارة فأومأ له محسن بالموافقة، أشعل السيجارة واستغرق في التفكير مدخنًا وقد استبد به القلق... سارا معًا حتى وصلا إلى ميدان سليمان باشا، دلف محسن في باب عمارة من تلك العمارات العريقة المحيطة بالميدان فتبعه رأفت دون كلمة، دخلا المصعد الذي حملهما إلى الطابق الأخير، ثم غادراه ليصعدا طابقًا آخر أوصلهما إلى سطح العمارة، اخترقا ممرًا على جانب منه بضع غرف تشغلها عائلات البوابين، عند سور منخفض يفصل هذا السطح عن السطح المجاور، صعدا سلمًا مكونًا من أربع درجات، ثم هبطا أربع درجات لسلم صغير آخر يوصل إلى سطح العمارة المجاورة، قال محسن شارحًا الأمر:

«ابقى تعالى من السكة دي علشان العمارة التانية مفيهاش أسانسير!».

سارا بضع خطوات توقف بعدها محسن أمام باب أولج فيه مفتاحًا ففتح الباب على الفور، خطا إلى الداخل وهو يقول:

«اقفل الباب وراك».

دخل رأفت وهو يغلق الباب خلفه ليجد نفسه في مسكن صغير وبسيط ومكون من صالة متوسطة الاتساع، في صدرها باب يؤدي إلى غرفة النوم، ولم يكن الفتى في حاجة إلى أن يعرف أن الممر القائم في الطرف الأيمن يؤدي إلى المطبخ والحمام.

ظل الفتى في مكانه لا يبرحه وهو ينظر إلى محسن في حيرة، وضع هذا لفافة الطعام فوق مائدة صغيرة تتوسط أربعة مقاعد، كانت تبدو مستعملة لكنها في حالة جيدة... وقف كل منهما قبالة الآخر لثوان، هتف الفتى بعدها محتجًّا:

«رجعني السجن يا بيه!».

ابتسم محسن وهو يشعل سيجارة ويلقي بجسده فوق أحد المقاعد دون رد، فعاد رأفت يصيح في احتجاج صارخ:

«على الأقل أنا في السجن بابقى عارف أنا فين... لكن هنا...».

قاطعه محسن في رقة:

«ما أنا قلت لك إنك في بيتك».

«بيتي منين بس؟!».

صمت الفتى في انتظار رد، لكن الرد الوحيد الذي جاءه كان الصمت!

«وازاي... إزاي ده يبقى بيتي؟!».

وتلقى الصمت جوابًا، فاسترسل:

«من فضلك يا سعادة البيه فهمني أنا حاتجنن!».

في نغمة معينة قال محسن:

«مش هنا أحسن؟».

أدرك الفتى ما يرمي إليه محسن فصاح مواصلًا الاحتجاج:

«أحسن لو كنت أعرف إيه الحكاية بالضبط!».

«ولع لك سيجارة!».

أشعل الفتى سيجارة وهو يدمدم مغاضبًا، نفث الدخان في عصبية، ثم عاد إلى التساؤل:

«طب على الأقل أعرف ليه كل ده؟».

«إنت قلت للإنجليز في ليبيا إن اسمك إيه؟!».

«ليڤي كوهين!».

«خلاص... خلي اسمك ليڤي كوهين على طول!!».

في فزع صاح الفتى:

«إيه الحكاية دي بقى؟!».

نهض محسن من مكانه بعد أن انتهى من تدخين سيجارته قائلًا:

«في أوضة النوم حاتلاقي بدلة، هي مش جديدة صحيح إنما أحسن من اللي انت لابسها!».

«أنا مش عاوز بدل... أنا عاوز أعرف إيه الحكاية دي؟!».

«وحاتلاقي كام قميص وكام شراب وكام غيار وكام منديل وكرافتة واحدة!».

«يا بيه فهمني من فضلك!».

أخرج محسن عشرة جنيهات ألقى بها فوق المائدة بجوار لفافة الطعام:

«ودول عشرة جنيه علشان تشتري سجاير وتحلق وتدخل سينما!».

«الله أكبر!».

قالها الفتى بنغمة أضحكت محسن بالرغم منه.

«أنا عاوزك النهارده تاخد دوش وتستريح وتتفسح وتعمل كل اللي نفسك فيه... وبكره إن شاء الله، الساعة عشرة بالضبط، أنا جاي لك!».

لم يجد الفتى ما يقوله، ثم إنه لم يجد بدا من الاستسلام... وقف ذاهلًا وهو يتبع محسن الذي كان يخطو نحو الباب، لكن هذا، وقبل أن يصل إلى الباب، التفت إليه، وبنغمة شديدة التأثير قال:

«أظن مش صعب عليك إنك تقول هنا اللي قلته للإنجليز في ليبيا!».

تقدم منه الفتى مندفعًا:

«طب ليه؟!».

«كل الناس، من النهاردة، لازم تعرف إن اسمك ليڤي كوهين، وإنك يهودي، وكنت هربان من مصر والإنجليز هم اللي رجعوك تاني!».

لم يستطع الفتى إلا الصمت أمام هذا المنطق الغريب الذي بدا له وكأنه فوهة بئر بلا قرار، كان محسن، وهو يلقي إليه بحديثه، يبدو صلبًا، يتحدث عما سيكون وكأنه سوف ينفذ دون مناقشة، فتح محسن الباب وهم بمغادرة المكان عندما صاح فيه الفتى:

«يا سعادة البيه!».

التفت إليه محسن فإذا هو يحمل لفافة الشواء إليه:

«سعادتك نسيت دي!».

«ده غداك يا خواجه ليڤي.. تلقاك ماكلتش بقالك كام يوم».

قال محسن هذا، ثم استدار واختفى دون كلمة!

* * *

لا يدري أحد كيف كان الفتى يفكر في تلك اللحظات فهو لم يتحدث عنها كثيرًا فيما بعد، غير أنه ظلّ ساكنًا جامدًا لثوان طالت بعض الشيء، حتى إذا حانت منه نظرة نحو لفافة الطعام، كانت ست وثلاثون ساعة قد

انقضت منذ أن ذاق الطعام لآخر مرة... أزاح الجنيهات العشرة جانبًا، وفتح اللفافة، وانهال على الشواء يلتهمه!

قبل غروب الشمس بقليل، كان «رأفت علي سليمان الهجان» يغادر باب العمارة المطلة على شارع سليمان باشا وهو يبدو إنسانًا آخر... كان حليق الذقن ومصفف الشعر، نظيف الملابس، ثابت الخطى... فكما وجد الملابس في غرفة النوم، وجد الحمام مجهزًا بكل ما يحتاج إليه شاب أعزب... وكان بواب العمارة جالسًا على دكته التقليدية لحظة مرور رأفت به فألقى عليه التحية:

«مساء الخير».

هب الرجل واقفًا وهو يصيح:

«مساء الخير يا خواجه ليڤي!».

وهكذا أدرك رأفت علي سليمان الهجان، بإحساس شديد الغموض، أن عليه أن يودع اسمه منذ تلك الليلة لا إلى حين، ولكن ربما إلى الأبد، وأنه قد قدر عليه أن يعيش لسنوات قادمة لا يعرف عددها إلا الله، كيهودي اسمه ليڤي كوهين... راح يسير في الميدان المتلألئ بالأضواء والمزدحم بالناس، وكان عليه أن يتلبس شخصية اليهودي... ولقد ابتسم في استخفاف، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يفعل فيها هذا!

* * *

دقت الساعة العاشرة في صباح اليوم التالي عندما دق باب المسكن الذي يقطنه رأفت الهجان، أو ليڤي كوهين... كان محسن، وهو الواقف بالباب الآن، قد أدرك منذ الصباح المبكر أن خطته قد حظيت بنجاح لا بأس به، فلقد تلقى تقريرًا في الثامنة صباحًا عن كل ما فعله رأفت طوال ليلة الأمس... علم أنه اشترى صندوقين للسجائر من صنف غال وفاخر، ثم ارتاد إحدى دور السينما التي تعرض فيلمًا أجنبيًا، وعندما

غادر السينما توجه إلى مطعم قريب اشتهر بوجباته السريعة، ثم شرب زجاجة مياه غازية... وعاد إلى البيت فلم يبرحه... ولكن هذا لم يكن مهمًّا بالنسبة لمحسن، كان الأهم لديه أن الفتى عندما فتح له الباب بدت ملامحه وقد عادت إلى استقرارها، كان قد نام ليلته نومًا عميقًا فالتمعت نظراته منبئة عن نشاط غير عادي، أما ابتسامته التي استقبل بها محسن، فلقد كانت تعلن عن أنه فكر طويلًا، وأن رأيه قد استقر، وأنه موافق على كل ما يريده محسن، حتى ولو كان مجهولًا!

«شوف يا ليفي...».

قاطعه الفتى:

«ليفي ده إيه؟!».

استمر محسن وكأنه لم يسمعه:

«شوف... أنا عاوز منّك حاجتين!».

«إيه همَّ؟!».

«الحاجة الأولانية إنك تطمئن تمامًا!».

«يا بيه إذا كنت عاوز تعرف حاجة عن اليهود أنا مستعد...».

«ليفي!».

هكذا زمجر محسن منذرًا، فهتف الفتى:

«ليفي تاني!!».

«ما هي دي الحاجة التانية اللي أنا عاوزها منك!».

«إيه هي؟!».

«إنك تنسى حكاية رأفت الهجان، إنك تنسى حكاية رأفت الهجان نهائي!».

«بس أنا اسمي الحقيقي رأفت الهجان يا فندم، أحلف لك بـ...».

قاطعه محسن:

«طب مانا عارف!».

فغر الفتى فمه دهشة، سأله متوجسًا:

«عارف؟!».

«أيوه عارف!».

«يعني انت مصدقني؟!».

«طبعًا!».

ولا ينسى محسن ممتاز منظر الفتى في تلك اللحظات، فلقد اجتاحت ملامحه ابتسامة راضية... ألقى بنفسه إلى الخلف وأشعل سيجارة وظل ساكنًا لثوان قال بعدها:

«بالشكل ده حتلقاني تحت أمرك في أيها حاجة تعوزها!».

همَّ محسن بالحديث عندما أردف الفتى:

«بشرط!».

«إيه هو؟!».

«إنك في يوم من الأيام تقول لي إيه الحكاية دي بالضبط!».

لم يرد محسن، فقط، بادل الفتى الابتسام، فقال هذا:

«ودلوقت، إيه اللي سعادتك عاوزه مني؟!».

«عاوز أعرف حكايتك من أولها!».

نظر إليه الفتى وقد انداحت فوق الملامح سحابة من حزن عميق ودفين، أدرك أن عليه أن يستسلم لهذا الرجل الذي لا يعرف حتى الآن اسمه، ولا من هو، بل لقد أدرك أنه يريد الاستسلام ويرغب فيه!

«حاتصدقني؟!».

«حاصدقك!».

«أنا اسمي رأفت علي سليمان الهجان، أبويا الله يرحمه هو الأستاذ علي سليمان الهجان ناظر مدرسة النجاح الثانوية للبنين... إخواتي أربعة، ثلاثة أكبر مني هم: عادل وسليم ومحمود، وشريفة هي الوحيدة التي أصغر مني، دي آخر العنقود...»

هكذا بدأ الفتى يحكي قصته!

* * *

نحن لا نملك أمام بعض الوقائع التي سردها ذلك الفتى على ضابط المخابرات المصري «محسن ممتاز» ـ وكما نقلت عنه حرفيًّا ـ إلا أن نأخذها على علّاتها وكما ذكرها رأفت الهجان أو ليڤي كوهين، دون أن ندعي الوصول إلى يقين كامل بصحتها... لا لشيء، لا لأن ما يزيد على الثلاثين عامًا قد انقضت منذ أن وقعت تلك الأحداث وحتى يومنا هذا، وتفرق أبطالها أو رحلوا ـ في الغالب ـ عن عالمنا... أما محسن ممتاز ـ الذي يشغل الآن وظيفة عادية من وظائف الحكومة المصرية ـ فلقد رفض الحديث رفضًا قاطعًا... مرة بحجة أنه من الصعب أن يتذكر التفاصيل بعد كل هذه السنين، ومرة بحجة أن هذا كلام لا لزوم له ما دام الفتى قد قام بواجبه تجاه وطنه... غير أنه بلغنا من مصدر ثقة أكيدة، أن الموضوع عندما فتح ذات ليلة ـ وفي جلسة خاصة ـ أمام محسن ممتاز، قال إن ضابط المخابرات يحمل كمًّا «هائلًا» من الأسرار بل والمعارف أيضًا، وعلى ذلك، فيجب عليه ألا يتحدث، ففي الحديث نوع من المباهاة بما بذله من أجل وطنه، وهو بذل يقدمه الرجال دون انتظار لمقابل، حتى ولو كان المقابل كلمات تتحدث عن جهد بذله... ولم تفلح معه كل الحجج التي سيقت إليه، ولم يقنعه أن «التاريخ المصري الحديث» في حاجة إلى أن تحفظ ذاكرته هذه التفاصيل للأجيال القادمة، خاصة بعد تلك الحملة الضارية والشرسة التي تحاول تزييفه... و...و... ولكنه أصر على موقفه!

وعلى ذلك، فإن التأكد من صدق هذه الأحداث أو كذبها، بشكل قاطع ويقيني، يصبح أمرًا بالغ الصعوبة، إن لم يكن مستحيلًا!!

غير أن الذي يجعلنا نركن إلى ما قيل ونصدقه، أن حديث الفتى وإن كان يقبل التأويل، فإنه ـ دون شك ـ يقبل التحليل أيضًا... ثم، وحتى بعيدًا عن التحليل، فلقد أثبتت التجربة ـ بطول عشرين عامًا كاملة ـ أن تلك الأحداث التي ذكرها الفتى صادقة بشكل عام، بل إن بعضًا منها نزعت عنه الأيام رداء الغموض فأصبح واضحًا أشد ما يكون الوضوح، وأثبت صدقه... وعلى ذلك، فليس منطقيًا أن نصدق جزءًا، ونكذب الآخر!

وإذا كنا لا نلقي هذا الكلام لمجرد الثرثرة... فإن قصة حياة هذا الفتى ـ الذي التقى به واحد من ضباط المخابرات المصرية ذات ليلة وهو بلا اسم ولا دين ولا جنسية ـ تبدو مثيرة وغريبة غرابة تدعو بالفعل إلى الشك... ولأن قصة حياته ليست من قبيل التزيد الأدبي، أو حتى الإحاطة بالشخصية الرئيسية التي تلعب دور البطولة في هذه الملحمة الوطنية، فإن هذه «المعرفة» سوف تكوِّن «الإحساس» الذي سيبني محسن ممتاز حكمه بناء عليه، فيما إذا كان هذا الفتى الجامح يصلح لأن يحمل تلك الأمانة الثقيلة التي كان عليه، لو سارت الأمور على ما يرام، أن يحملها لسنوات لا يدري أحد عددها، ولحقبة قادمة كانت بشائرها تبدو في الأفق مزغردة بالأمل في وطن عظيم!

* * *

دون شك كان رأفت مدللًا ـ هكذا قال لمحسن وهو يحكي قصة حياته في ذلك المسكن الصغير فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا ـ لكنه لم يكن فاسدًا... وربما كان للأب بعض العذر في تدليله هو وشريفة، فلقد توفيت أمه وهو لا يزال في الخامسة وكانت شريفة في الثالثة... وهكذا تولى إخوته تربيته بعد وفاة أبيه الذي

رحل عن عالمنا عندما حصل رأفت على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ـ وهي شهادة كانت ذات قيمة ووزن في تلك الأيام ـ وكان هو في الثانية عشرة من عمره. عندما اجتمع الإخوة وقرروا أنهم لا يستطيعون إلحاق الصبي بإحدى المدارس الثانوية التي تؤهله لدخول الجامعة، وأنه لا مفر من إلحاقه بإحدى المدارس المتوسطة... وبالرغم من أن هذا كان يشكل نوعًا من العار في تلك السنوات، إلا أن الفتى لم يستطع الاعتراض وإن كان قد أحس بالمرارة، فأبوه كان ناظر مدرسة ثانوية، وإخوته الثلاثة جميعًا تعلموا في المدارس الثانوية والتحقوا بالجامعة، وأصغرهم في الطريق إليها ... وعلى كل حال، فلقد اختاروا له مدرسة «التجارة المتوسطة» ـ كان هذا اسمها ـ التي كانت تؤهل التلاميذ للعمل في البنوك والشركات والأعمال الحسابية بفروعها المختلفة... وتفوق الفتى في دراسته خاصة في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهما لغتان كانتا أساسيتين في تلك المدارس نظرًا لأن البنوك والشركات وقتها كانت في الغالب أجنبية وتستعمل في تعاملاتها إحدى هاتين اللغتين... وانتقل الفتى من السنة الأولى إلى الثانية إلى الثالثة إلى الرابعة وهي السنة النهائية دون أن يعرف ـ كعادته من قبل ـ معنى الرسوب، لم يكن أمامه سوى بضعة شهور ويحصل على الدبلوم الذي يؤهله للالتحاق بإحدى الوظائف... وكان في السادسة عشرة من عمره عندما تزوج أخوه وجاء بعروسه كي تعيش معهم في البيت... وبدأت الخلافات تدب بين رأفت وشقيقه لأوهى الأسباب، وهي خلافات أثرت على الصبي تأثيرًا شديدًا؛ لم يكن من السهل عليه أن يهان أمام عروس أخيه التي كانت تقاربه في السن، وجاءت اللطمة عندما رسب في الامتحان النهائي، كما رسب في الملحق، بدأت الخلافات تتفاقم حتى وصلت إلى ذروتها، عندما رسب في العام التالي أيضًا، ثم أصبحت حياته في البيت لا تطاق فقرر أن «يطفش» قبل أن ينهي دراسته، وأن يلقي بنفسه في خضم الحياة!

وهكذا... لم يكن الفتى قد تخطى الثامنة عشرة من عمره، عندما

وجد نفسه في الطريق فلم يحاول أحد من إخوته أن يمنعه، وكان الآن، بلا مأوى، بلا عمل، بلا عائلة، وبلا ملجأ أو مال!

راجت صناعة السينما في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية رواجًا شديدًا، جاء هذا مع إيجاد فرص عمل لعشرات الألوف من شباب مصر الذين نزحوا من كل مكان في القطر المصري ـ هكذا كان اسم مصر في ذلك الوقت!! ـ كي يلتحقوا بالعمل في معسكرات الجيش الإنجليزي التي كانوا يطلقون عليها اسم «الأورنس»... وكان أنور وجدي وحسين صدقي ويحيى شاهين وبدر لاما ومحسن سرحان وفؤاد جعفر وصلاح نظمي وإبراهيم حمودة والوجه الجديد محمد فوزي، نماذج يتلهف المراهقون على تقليدها... ولم يكنِ أمام الفتى من طريق يسلكه سوى السينما، خاصة أنه لم يكن عاملا يتقنِ صنعة فيستطيع الالتحاق بالأورنس... ولم يكن صعبًا أن يجد لنفسه عملًا وسط ألوف الكومبارس أو مساعدي الإخراج أو الريجيسيرات أو المشهلاتية... وعلى كل، فلقد راح يتلطم هنا وهناك ولم يكن يضنيه سوى شيء واحد... ليس هو الجوع الذي أصبح يعاني منه أغلب الأيام، وليس هو الحرمان من المأوى وقد أصبح يلجأ إلى أحط الفنادق والغرف، وإنما هو حرمانه من شقيقته التي كان يزورها بين الحين والحين، وكلما ازداد تبرم زوجها من زياراته ازداد تعلقًا بها وازدادت تعلقًا به... ثم تعرف رأفت على فتاة من فتيات السينما كانت تكبره سنًا وتكسب مبالغ لا بأس بها من عملها في الأفلام التي كانت تظهر فيها وسط الفتيات أو الراقصات... وقعت الفتاة في حبه وعرضت عليه الزواج... وكان قبوله لعرضها كفيلًا بأن يحميه من العوز أو اللجوء إلى إخوته بين الحين والحين، وعندما يعضه الجوع وتذله الحاجة طلبًا للمساعدة، فلا يلقى منهم سوى الازدراء والاحتقار والتقريع والصد، ثم الأبواب المغلقة في وجهه... ولم ينكر رأفت علي سليمان الهجان أنه ساير فتاة السينما لأسابيع، ثم تحولت مسايرته إلى محاولة للارتباط بها دون جدوى، ثمة نداء خفي في أعماقه كان يؤكد

له أنه لا ينتمي إلى هذا الحضيض... ثم لم يستطع الاستمرار، فهجر فتاة السينما كما هجر السينما نفسها يوم قرأ إعلانًا في إحدى الصحف عن وظيفة خالية، نشرته إحدى شركات البترول الأجنبية - وكانت كل شركات البترول في مصر، وبلا استثناء، أجنبية في ذلك الوقت - التي تعمل في البحر الأحمر، وكانت شروط الالتحاق بها صعبة، بل كانت أمنية يتلهف الشباب على تحقيقها، ذلك أن أغلب موظفي هذه الشركات كانوا من الأجانب أو اليهود الذين يتقن الواحد منهم عدة لغات في طلاقة درب عليها منذ الصغر كما دربوا على احتلال مثل هذه الوظائف وطرد المصريين منها... وتقدم الفتى وسط عشرات من أقرانه، وجاءت المفاجأة يوم أن أعلنت الشركة عن نجاحه فسافر إلى البحر الأحمر، وتسلم عمله هناك!

من الأسباب التي دعت رأفت الهجان إلى السعي وراء هذه الوظيفة، أنه أصبح في الأيام الأخيرة غير قادر على ألا يرى شريفة بعد أن أصبحت معارضة زوجها لزيارته البيت صارخة، لم يكن يستطيع أن يسبب لها أزمات عنيفة كلما زارها، ولم يكن يستطيع في نفس الوقت ألا يزورها وهو قريب منها... وجاء عمله الجديد في البحر الأحمر مخرجًا له، انغمس في عمله انغماسًا كاملًا، كانت تجربته في حقل السينما قد أمدته بالكثير من الخبرة في كيفية التعامل مع الآخرين... وإذ اكتشف فائدة اللغتين الإنجليزية والفرنسية في عمله، فهو لم يكتف بحصيلته منهما، بل استجلب من القاهرة، كما استعار من بعض موظفي الشركة ومهندسيها من الأجانب، عددًا لا بأس به من الكتب راح يلتهمها التهامًا، فلقد فتحت له هذه الكتب آفاقًا عظيمة... وما إن مضت شهور قليلة حتى كان رأفت يشكل خطرًا على الموظفين اليهود والأجانب والقلة القليلة من المصريين هناك... كان قد أصبح محل إعجاب رؤسائه... فما كان من زملائه إلا أن راحوا يدسون له - على مهل - يومًا بعد يوم، حتى فوجئ ذات صباح أنه منقول إلى القاهرة!

وعاد رأفت إلى القاهرة رغمًا عنه، لم يكن يريد أن يعاني من جديد، وكانت شريفة في تلك الأثناء قد أنجبت طفلًا أسمته «طارق» وقع رأفت في حبه منذ النظرة الأولى، وكلما رأى حاجة شقيقته إلى رؤيته ازداد عذابه، ولم يكن أمامه سوى الهرب من جديد، حاول العودة إلى البحر الأحمر دون جدوى، فما كان منه إلا أن قدم استقالته، والتحق بعمل في شركة بترول أخرى ـ وكان قد اكتسب خبرة لا بأس بها ـ وسافر إلى البحر الأحمر دون أن تقبل استقالته من الشركة الأولى!

ومن جديد تلاحقه كفاءته وتفوقه وحب رؤسائه، وراح يعاني من حرب ضروس شنها عليه أقرانه، كان مجرد نجاح المصري وسط جو كله أجنبي، أمر بالغ الصعوبة... وعندما وشى به أحدهم ذات يوم إلى المدير، عرف هذا أن استقالة رأفت لم تقبل في الشركة الأخرى، وحسب قانون عقد العمل في ذلك الوقت، وحسب الاتفاق المقام بين الشركات المتنافسة، فلقد فصل من هذه الشركة وفقد كل حقوقه قبل الشركة الأولى... و... وعاد إلى الضياع من جديد!

* * *

توقف رأفت عن الحديث وراح ينظر إلى محسن الذي كان ينصت إليه في صمت وكأنه كله قد تحول إلى آذان تصغي لقصة حياة هذا الفتى الذي لازمه سوء الحظ ملازمة تدعو إلى الدهشة والشك معًا... ولقد ظل محسن على صمته، فأشعل الفتى سيجارة نفث دخانها في صوت مسموع، فكأنه ينفث من صدره حممًا، وما لبث أن رفع رأسه نحو محسن متسائلًا:

«مصدقني يا بيه؟!».

قال محسن في حنان أنكره على نفسه:

«وإيه اللي يخليني ما اصدقكش؟!».

«أصل أنا نفسي مش مصدق... كل ما أروح في حته يطلع لي فيها عفريت!».

عاد الفتى إلى الصمت لثوان ثم انفجر:

«وليه.. واشمعنى أنا؟!».

أحس محسن أنه يقاوم في داخله انفجارًا يوشك أن يبدده، ذلك أنه ما لبث أن هب واقفًا وقد جحظت عيناه، كان صوته مختنقًا وهو يهتف:

«طب أروح فين... أروح فين؟!».

لقد كان هذا هو السؤال الذي وجهه رأفت لنفسه عندما أصبح في الشارع من جديد يستقبل الضياع، ويستقبله الضياع، كصديق طال الشوق إليه... فإلى أين؟!

الفصل السابع

تراجيديَا النكبات

قالت السيدة سمحون في اهتمام واضح إن ما يحكيه عزيز الجبالي يبدو وكأنه إحدى التراجيديات الكلاسيكية وإنه يذكرها بتلك الروايات التي تجري أحداثها في القرن التاسع عشر... فابتسم عزيز قائلًا: إنه عندما سمع هذه القصة لأول مرة من محسن ممتاز، بدت له وكأنها كوميديا مسرحية للفنان المصري الراحل «نجيب الريحاني»!

«كوميديا؟!».

هكذا هتفت فراو سمحون متسائلة، فأجاب عزيز:

«نعم يا سيدتي... فيبدو أن الشعب المصري لكثرة ما عانى على مدى قرون متصلة من المآسي لم يجد وسيلة لمواجهة مآسيه سوى السخرية منها!!».

ويبدو أنها لم تفهم ما الذي يعنيه، فلقد رفعت حاجبيها دهشة، فراح يحكي لها بعض المواقف التي جاءت في مسرحيات الريحاني وأفلامه، وكيف أنها كانت تسخر من سوء الحظ إلى الحد الذي كان يجعل الناس تدمع من كثرة الضحك!... قال عزيز هذا ثم أردف وهو يزفر:

«وعلى كل فلم تكن هذه سوى البداية!».

برقت عيناها الزرقاوان بتساؤل صارخ، فعاد يقول:

«نعم فراو سمحون، لم يكن هذا الذي تسمينه تراجيديا كلاسيكية سوى البداية، فلقد راح سوء الحظ يطارد الفتى إلى بريطانيا وأمريكا وكندا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ثم ألمانيا... حتى دفعه مرة أخرى إلى مصر، كي تبدأ مرحلة جديدة في حياة هذا الشاب الذي قدر له أن يلعب دورًا حاسمًا في حياة وطنه!».

* * *

فصل رأفت الهجان من شركتي البترول بعد اكتشاف أمره، ووجد نفسه يعود إلى الضياع من جديد... فراح يتساءل: إلى أين؟!

في البداية بدت له الطرق مسدودة، لم يكن أمامه سوى طريق واحد، لكنه رفض العودة إلى قاع السينما المصرية حيث كان ألوف المتعطلين يقفون في انتظار إشارة لأي عمل وأية حياة وأي شيء في سبيل لقمة العيش... غير أنه في غمرة يأسه تذكر «ذكري بك».

كان ذكري بك مختار مديرًا لشركة مصرية شهيرة ـ وما زالت حتى اليوم ـ للكيماويات، وكان الرجل في زيارة عمل للبحر الأحمر ذات يوم عندما التقى برأفت الهجان هناك، ولاحظ تفوقه وإجادته للغات الأجنبية واستمع إلى رأي رؤسائه فيه، فطلب إليه ـ في مجاملة سريعة ـ أن يزوره في الإسكندرية ـ حيث مقر الشركة الرئيسي ـ إذا ما احتاج إلى شيء.

وسافر الفتى إلى الإسكندرية، والتقى بذكري بك فرحب به الرجل، واستمع إلى ما حدث وسرعان ما أوجد له عملًا في الشركة الكبرى التي يديرها.

كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت منذ عامين تقريبًا عندما أحس رأفت علي سليمان الهجان لأول مرة ـ منذ وفاة أبيه ـ أنه استقر أخيرًا بعد طول ضياع، ومع الرعاية التي أسبغها عليه ذكري بك مختار، راح

يبذل قصارى جهده في العمل الذي أسند إليه، وأصبح بعد شهور قليلة مصدر فخر للرجل الذي عينه في الشركة والذي أصبح يعامله كما يعامل ولده تمامًا... ومع الأيام عرف ذكري بك قصة رأفت بالكامل، فتح له الفتى قلبه وبادله حبًّا بحب... واكتشف الرجل أنه يمت بصلة نسب بعيدة لأسرة الهجان، ولأنه كان يفكر في هدف معين فلقد أدرك ـ خاصة بعد زيارة عائلية قامت بها إحدى قريباته لشريفة أخت رأفت، دون أن تذكر لها شيئًا عن أخيها ـ أن الفتى حرم من حنان الأبوين واحدًا وراء الآخر، وأنه عانى ـ حقيقة ـ من معاملة إخوته... فراح يسبغ على رأفت حنانًا جعل الفتى يتفانى في عمله أكثر... ووصل الأمر إلى الحد الذي ألمح فيه ذكري بك ذات مرة أنه يفضل لابنته الوحيدة عريسًا في مثل كفاءة رأفت ومواهبه ومستقبله الذي أصبح الآن يبشر بنجاح أكيد... ثم دعاه إلى العشاء في بيته وقدمه لأسرته الصغيرة التي رحبت بالفتى ترحيبًا أعاد إليه ثقته بنفسه، ففكر في إكمال دراسته، بل إنه بالفعل ـ وكان هذا في عام ١٩٤٩ ـ بدأ الاستعداد لدخول الجامعة بدراسة مقررات أربع سنوات مرة واحدة في التعليم الثانوي ـ وكان هذا نظامًا معمولًا به في تلك الأيام ـ لنيل شهادة الثقافة، ثم بعدها التوجيهية ـ ثانوية عامة ـ تمهيدًا لدخوله الجامعة التي كانت حلم أحلامه جميعًا!

كان رأفت قد أصبح واحدًا من شباب الشركة المرموقين عندما أرسله ذكري بك في مأمورية سرية إلى فرع الشركة في القاهرة، والذي كان يديره موظف قديم يدعى «باسيلي جبران»... وكان باسيلي جبران هذا ذا ناب أزرق كما يقولون، كان يتلاعب في حسابات الشركة دون أن يستطيع أحد أن يمسك عليه شيئًا، وكانت مهمة رأفت السرية هي الكشف عن هذا التلاعب!

في تلك الأيام عاد رأفت لزيارة أسرته وقد أصبح الآن موظفًا محترمًا في شركة محترمة لها سمعتها المدوية... وكانت شقيقته شريفة

سعيدة به سعادة تفوق الوصف وهو يحمل الهدايا إلى صغيرها طارق الذي تعلق بخاله كما تعلق خاله به... ولقد أثار رأفت الكثير من الجدل داخل الأسرة التي انقسمت على نفسها... قسم تزعمته شريفة التي استبشرت خيرًا خاصة بعد أن زاره في الشركة واحد من إخوته ولاحظ المكانة المرموقة التي وصل إليها أخوه، والتي كان باسيلي جبران يبالغ فيها لغرض في نفسه... وقسم آخر كان يسخر من كل ما يحدث، مؤكدًا أن «ذيل الكلب لا يستقيم» وهو مثل شعبي مصري يوحي بأن رأفت سوف يعود سيرته الأولى إن آجلًا أو عاجلًا... ولا بد أن تلك الأيام من عام ١٩٤٩ كانت أسعد أيام هذا الفتى على الإطلاق. كان سعيدًا إلى الحد الذي لم يتنبه فيه إلى ألاعيب «باسيلي جبران» الذي كان سهلًا عليه أن يكتشف حقيقة مهمته منذ الأيام الأولى، فدبر له فخًا سقط فيه الفتى بسهولة، وإذا به ذات صباح متهم باختلاس مبلغ من المال كان في خزانة الشركة!

كانت الصدمة عنيفة على الفتى لدرجة أنه سقط صريع المرض ولزم فراشه في البنسيون الذي كان يقيم فيه... ووصل الخبر إلى ذكري بك الذي رفض أن يصدقه، وإن كانت الأدلة دامغة، ولا بد أن حال الفتى وصلت إلى درجة من السوء جعلت قلب «باسيلي جبران» يرق له، فتظاهر بأنه وجد المبلغ بالكامل في غرفة الفتى بالبنسيون... وهكذا أعيد المبلغ إلى خزينة الشركة واكتفت الشركة بفصله دون إبلاغ النيابة!

* * *

سأل رأفت الهجان محسن ممتاز بصوت مغموس في دمع خفي:

«مصدقني يا بيه؟!».

هتف محسن في حرارة:

«مصدقك يا ليڤي!».

«تصور سعادتك أن إخوتي لما حصل اللي حصل، كذبوني وصدقوا باسيلي!!!».

اختنق صوت رأفت بالدمع الذي كان يفيض تحت جفنيه، فأشعل سيجارة في محاولة للسيطرة على انفعالاته، ولزم محسن الصمت تمامًا، حتى إذا انقضى بعض الوقت عاد يقول:

«محدش صدقني غير شريفة وذكري بك!».

اعتدل محسن في جلسته منتبهًا، فاستطرد الفتى:

«ذكري بك قال لي بالحرف الواحد: أنا مصدقك يا رأفت وعارف إنك بريء وإن الغلطة مش غلطتك، دي غلطتي أنا لأنك مش قد باسيلي جبران... لكن ما باليد حيلة، ما أقدرش أرجعك الشركة تاني بعد كل اللي حصل!!».

ران الصمت طويلًا وكان رأفت مطرقًا فسأله محسن:

«وبعدين؟!».

«ولا قبلين، حلفت مانا قاعد في مصر!».

«سافرت؟!».

«ذكري بك هو اللي اتوسط لي بنفسه في شركة الملاحة بتاعة عبود باشا، وعينوني مساعد إداري على مركب اسمها «لوتس» سافرت عليها بعد اتناشر يوم!».

شعر محسن أن ثمة إضافة فريدة ستضاف إلى تجربة هذا الفتى.. هم بسؤاله عن البلاد التي زارها لكنه توقف، كانت ملامح الفتى تتقلص الآن تقلصًا رهيبًا، بدا وكأنه يعاني من انفعالات لا قبل له بها، مال نحوه مناديًا في رقة:

«ليفي!».

فإذا الفتى ينفجر فيه:

«ما هو أنا لو حكيت لك اللي حصل لي بره مش حاتصدق!».

❊ ❊ ❊

كانت آخر الموانئ التي توقفت فيها السفينة المصرية «لوتس» هي ميناء ليڤربول في غرب إنجلترا... وكان رأفت طوال أيام السفر يبدو منطويًا على نفسه، لم يفلح معه إلحاح زملائه لمشاركتهم لهوهم على ظهر السفينة أو في الموانئ التي توقفت فيها أثناء الطريق... كانت الصدمة التي سببها له باسيلي جبران من العنف بحيث جعلته زاهدًا في الحياة راغبًا عن العودة إلى مصر... ولطالما جلس الفتى ـ في أوقات فراغه ـ على ظهر السفينة يرقب سطح المياه ويتأمل الكون اللانهائي المحيط به، ويتساءل عن الأسباب التي من أجلها حدث له كل هذا الذي حدث... بدت له الدنيا سخيفة، والحياة أكثر منها سخفًا... حاول أن يجد لنفسه برًّا يرسو عليه، لكن الطريق الوحيد الذي ارتآه أمامه كان مواصلة الهرب!

ولقد قال لمحسن في جلسته تلك بذلك المسكن الكائن فوق سطح إحدى عمارات وسط القاهرة العريقة... إنه عندما قرر عدم العودة إلى مصر، كان مؤمنًا أنه لا يريد العودة إلى الماضي لا إلى مصر نفسها، كان يريد العودة إلى شريفة وطارق وذكري بك وأسرته ولكنه لم يكن يريد العودة إلى إخوته الذين ظلموه دونما ذنب جناه، وباسيلي جبران الذي كاد يلقي به في السجن وإلى زملائه الذين تسببوا في فصله مرتين!!

في نفس اليوم الذي رست فيه السفينة «لوتس» في ليڤربول تعرّف على «كاي وولف» في أحد محلات الرقص التي كانت منتشرة في أثناء الحرب العالمية الثانية للترفيه عن الجنود، ثم أصبحت في السنوات التالية سمة من سمات المجتمع البريطاني... ضغط عليه زملاؤه وجروه جرًّا إلى هذا المحل المزدحم لكنهم ما إن دخلوه حتى غاصوا وسط

الراقصين والراقصات وظل هو ـ رغم إتقانه لكل الرقصات المعروفة ـ بعيدًا... والتقت عيناه بعينيها ذات لحظة وكان وحيدًا، كما كانت هي الأخرى وحيدة... وعلى غير العادة وجدها تتقدم منه سائلة إياه إن كان ينتظر أحدًا فلما أجابها بالنفي سألته إن كان يمانع في مراقصتها!

وهكذا التقيا، ولم يفترقا إلا عند مغادرته لإنجلترا!

❊ ❊ ❊

كانت «كاي وولف» فتاة إنجليزية تخطت العشرين ببضعة أشهر، أبوها رجل من رجال الميناء من ذوي السمعة الطيبة، والمكانة المرموقة التي أضفاها عليه تدينه الشديد، وبعده عن الدنايا... ولا يدري رأفت ما الذي اكتشفته كاي في شخصه، كل ما يدريه أنها تعلقت به في أيام معدودة إلى حد كان يصعب عليها بعده أن تفارقه... مكثت السفينة لوتس في ليفربول بضعة أسابيع لإجراء إصلاحات ضرورية تمهيدًا لرحلة طويلة إلى بومباي بالهند... في تلك الأسابيع وجد رأفت في صديقته فرصته المواتية... هو لم يحبها رغم جمالها ورقتها وأدبها الشديد وتفانيها في تلبية كل ما يطلب وما يريد، ولقد حاول أن يبادلها تلك العواطف التي أغرقته بها دون جدوى، طلبت إليه «كاي» أن يبقى في إنجلترا، وبالرغم من أن المجتمع البريطاني كان يعاني في تلك الحقبة من تاريخه من أزمات اقتصادية طاحنة بعد خروجه من الحرب التي دامت ست سنوات، وبالرغم من أن منحه تأشيرة تسمح له بالإقامة كان يبدو مستحيلًا، فإنه ـ مع إلحاح «كاي وولف» ـ راح يفكر في الموضوع جديًّا، كما راح يخطط له... حتى إذا تقرر موعد إبحار السفينة أصيب الفتى ذات ليلة بالتهاب حاد في الزائدة الدودية استلزم نقله فورًا إلى المستشفى وإجراء جراحة عاجلة له، هكذا أبحرت السفينة بدونه وبقي هو في المستشفى لعشرة أيام غادرها إلى بيت المستر «إدوارد وولف» والد كاي!!

قال مستر «وولف» للفتى في ذلك المساء الأول وقد اجتمعت العائلة

أمام المدفأة إنه مسيحي، وهو سعيد لأن ابنته أخيرًا وقعت في الحب واختارت فتاها لكنه سيكون أكثر سعادة لو أن الفتى اعتنق المسيحية!

قال رأفت لمحسن ممتاز وهو يصف تلك اللحظات إنه كان يشعر بأن الأرض تميد من تحت قدميه، فلقد وضع في اعتباره كل الاحتمالات الممكنة وكل الظنون المحتملة، واستعد لكل شيء إلا مفاجأة كتلك التي جاءته كضربة فوق الرأس... هو ليلتها لم يجد ما يقوله فلزم الصمت، وعندما طال صمته أشعل الرجل غليونه مخاطبًا الفتى:

«ليس مطلوبًا منك أن تتخذ قرارك الآن فأنا أعرف أنه شيء صعب ولكن... وقبل أن تفكر في الأمر، عليك أن تلتقي بالأب جوشام راعي كنيستنا وأن تجلس إليه!».

ووافق رأفت حتى يعطي نفسه فرصة للتفكير في المأزق الذي وجد نفسه فيه على غير انتظار. كان الآن بلا مأوى ولا مال ولا عمل وفي بلاد غريبة... وكان المال الذي يحصل عليه من مكتب وكيل الشرطة لا يكاد يكفيه ثمن الطعام... لكنه عندما انفرد بكاي قال لها في وضوح: إن الأمر ليس بالسهولة التي يتخيلونها، فهو ـ كمسلم ـ إن لم يعترف بأن السيد المسيح رسول من عند الله فلسوف يصبح إسلامه ناقصًا... شرط الإسلام بعد الشهادة أن يعترف المسلم بالأنبياء والرسل الذين سبقوا محمدًا عليه السلام... ولكن أن يترك دينًا اقتنع به إلى دين آخر، فهذا هو المستحيل نفسه، وعليها أن تفهم ذلك!

قالت كاي وولف إن الأمر لا يعنيها ولا يهمها، بل إنها تفضل أن يظل رأفت على دينه!... فلقد أحبته كما هو، وهي على استعداد للزواج منه وكل منهما على دينه... لكن المشكلة تكمن في أن «الأب جوشام» هذا، هو الشخص الوحيد في ليفربول الذي يستطيع أن يجد له عملًا وأن ينهي مشكلة إقامته في إنجلترا، بل وأن يحصل له على الجنسية إن أراد!!

وقالت كاي وولف أيضًا: إن أباها ـ قبل أن يتحدث إليه ـ ناقش معها

المسألة من هذا المنطلق وليس من منطلق آخر، وإن على رأفت أن يفهم هذا حتى لا يظلم أباها!

وازدادت حيرة الفتى وازداد حرجه فلقد كان يقيم في غرفة نائية من بيت مستر وولف، وكان يعامل كواحد من أفراد الأسرة... ها هي عقبة صعبة تقف في طريق انطلاقه وحريته... ولقد طال بقاؤه في ليفربول لشهور، والتقى بالأب جوشام مرات ومرات وتحول الأمر بينهما إلى مناظرة... واكتشف الفتى أنه يعرف عن دينه الكثير دون أن ينتبه إلى ذلك، وأنه مقتنع به اقتناعًا يفوق قدرته على استمرار المناقشة... كان وكأنه يختزن في قلبه كل هذا الإيمان العميق، الذي دفعه بمجرد عودة السفينة لوتس من الهند إلى الصعود إليها بعد أن ودع مستر وولف وزوجته وشكرهما على كل ما قدماه من رعاية وحنان طوال الشهور الماضية، كما ودع الأب جوشام وداعبه قائلًا: إن عليه أن يفكر جديًا في اعتناق الإسلام... وعندما حانت لحظة الرحيل بكت «كاي»، بكت وهي تقول إنها سوف تظل في انتظاره، وإنها مؤمنة من أنه سيعود يومًا!

* * *

يا للحنين عندما يتفجر من القلب طوفانًا بلا نهاية! ها هي ذي أرض مصر تلوح في الأفق بعد طول غياب، يرقب البحارة الذين تجمعوا فوق السطح عندما غدت الأرض ظاهرة وهم يطبلون ويزمرون ويغنون للشوق واللهفة والحب والحنين والحبيب العائد، يفتحون الراديو على أغنيات مصر التي طال الشوق إليها، فلم تكن إذاعة مصر تصل إلى أبعد من الشاطئ ببضعة كيلو مترات، كما يفتحون القلوب على مصاريعها لاستقبال نسائم الأرض الحبيبة... وعلى السطح وحيدًا بعيدًا كان رأفت يبكي بدموع غزيرة، ها هو ذا يعود إلى مصر مسلمًا كما كان مؤمنًا وموحدًا بالله، وعندما وطئت قدماه أرض الوطن كان كل ما قاله:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله!».

كان عليه قبل أن يستقل القطار إلى القاهرة، أن يذهب إلى مكاتب الشركة... وهناك وجد له بقية من حساب، بضع عشرات من الجنيهات ومعها أمر بفصله من الشركة دون إبداء الأسباب!!

* * *

كان رأفت وهو يغادر مقر الشركة يحمل في يمناه حقيبة امتلأت بالهدايا، هدية لذكري بك، وأخرى لزوجته، وثالثة لابنته... كما كانت الحقيبة مكدسة بالهدايا لطارق ابن شريفة... كم اشتاق إليه! وكم يهفو لأن يرى شريفة!... وها هو يضرب في الإسكندرية على غير هدى، لمن يذهب في القاهرة وقد عاد عاطلًا من جديد؟... ساقته قدماه إلى طريق الكورنيش ظل يسير ويسير بلا هدف، ثم التمع في ذهنه خاطر تشبث به: إن الحياة تحاربه فلم لا يحارب هذه الحياة؟!

وهكذا طوح رأفت علي سليمان الهجان حقيبته المليئة بالهدايا إلى البحر... تخلص حتى من أحبابه وعاد أدراجه إلى الميناء وكان الآن يعرف طريقه جيدًا!!!

* * *

بعد سبعة أيام بالضبط قضاها رأفت الهجان في واحد من أحط فنادق الثغر دون أن يفكر في الاتصال بأي ممن يعرفهم، كان يقف على ظهر سفينة فرنسية مبحرة إلى مرسيليا... على ظهر السفينة التقى بمجموعة من الشباب المصريين الذين كانوا في طريقهم للدراسة في الخارج... ولم يعدم حيلة ـ وهو فوق السفينة راكبًا من ركابها في الدرجة الثالثة ـ لأن يكسب عددًا لا بأس به من الفرنكات الفرنسية القليلة القيمة في ذلك الوقت... في مرسيليا لم يبق سوى بضعة أيام أدرك بعدها أنه لا بد من السفر إلى العاصمة... في باريس ذرع العاصمة الفرنسية طولًا وعرضًا واكتشف بعد أيام استحالة البقاء، كان العرب هناك من الكثرة بحيث

يستحيل إضافة واحد جديد، فوق أن البطالة كانت تنخر في المجتمع الباريسي كالسوس، ولم تكن فرنسا وحدها بل كل دول أوربا، وهكذا لم يكن أمامه سوى طريق واحد، هو العودة إلى كاي، إلى ليڤربول وإلى الأب جوشام!!

* * *

أكثر ما حز في نفسه بعد وصوله إلى ليڤربول أن «كاي» ظنته قد عاد من أجلها، كانت سعيدة بعودته سعادة تفوق التصور، وكانت على استعداد لأي شيء من أجله... وما أن هدأت حرارة اللقاء حتى قال لها بوضوح ودون لف أو دوران إنه ـ أبدًا ـ لن يتخلى عن دينه!

قالت كاي وهي تتلاعب بأزرار سترته:

«ألا تستطيع أمام الأب جوشام؟!».

«حتى هذا لا أستطيعه!».

رفعت إليه عينين متوسلتين فغمغم مبتسمًا:

«ولكن... ... ...».

قالها ولزم الصمت مفكرًا فاستحثته الفتاة المدلهة:

«ولكن؟!».

«ألا تعني عودتي شيئًا دون الحديث في الأمر؟!».

برقت فكرته الخبيثة في ذهنها فابتسمت مستجيبة والتقط هو ابتسامتها متوسلًا:

«كاي... إني في حاجة إلى فرصة واحدة أثبت لهم فيها كفاءتي ولسوف ينسون بعدها مسألة الدين تمامًا!».

نظرت إليه كاي في شك فأردف:

«لقد تناقشت طويلًا مع الأب جوشام، وأعرف يقينًا أنه متحمس

للدين المسيحي لكني أعرف يقينًا يا عزيزتي أن أصحاب الشركات لا يتحمسون إلا للمال!».

كان الفتى مقنعًا وكانت هي عند حسن ظنه، فلعبت دورها بعيدًا عنه، وهكذا ما أن مضت أيام حتى وجد له الأب جوشام ـ بتشجيع من كاي ووعد منها بالذهاب إلى الكنيسة صباح كل أحد ـ عملًا في إحدى شركات السياحة!

* * *

«من مرسيليا لباريس للندن لليفربول ضحكت على ناس كثير قوي كان لازم ألقط رزقي وألاقي ثمن اللوكاندة وآكل واشرب... في باريس حسيت إني ممكن أبقى مليونير بشوية فهلوة، ورغم اللي أنا عملته حسيت إن مش ده اللي نفسي فيه برضه، كان نفسي أشتغل زي بقية الناس وابقى محترم وأثبت لاخواتي أنهم ظلموني... ويوم ما استلمت شغلي في شركة السياحة في ليفربول كنت عارف ومتأكد إن الأب جوشام حاينسى حكاية الدين، وإذا افتكرها هو أصحاب الشركة حاينسوها... لأني كنت عارف إني حانجح!!».

هكذا قال رأفت الهجان لمحسن ممتاز وهما يستعدان لتناول طعام الغداء في ذلك المسكن فوق سطح إحدى عمارات ميدان سليمان باشا... كان الباب قد دق أثناء الحديث وقد انتصف النهار منذ ساعتين، وعندما فتح رأفت الباب وجد البواب أمامه يحمل لفافة تفوح منها رائحة الشواء:

«الكباب يا خواجه ليفي!».

ارتد رأفت ببصره نحو محسن الذي أومأ إليه أن يأخذ اللفافة، تناولها من البواب قائلًا:

«حسابك كام؟!».

«ما انت بعت الفلوس مع الأفندي اللي قاعد عندك ده!».

وابتلع رأفت ارتباكه، شكر البواب ونفحه خمسة قروش وعاد باللفافة مغمغمًا:

«هو انت ما بتنساش حاجة أبدًا!».

وسرعان ما فتحت اللفافة فيما بينهما وكانا جائعين، فراحا يلتهمان الطعام في تلذذ!!

كانت عاصفة الحزن قد خفت وحل محل الشاب المظلوم فتى آخر راح محسن يرقبه في انتباه بالغ!

* * *

كان أول ما فعله الفتى مع مدير شركة السياحة اقتراحًا بأن يحول إلى شركته كل المسافرين المصريين ثم يتلوهم بالعرب... كانت شركة «توماس كوك» العالمية ذات النفوذ، تحتكر ـ حتى ذلك الوقت ـ تسفير المبعوثين المصريين وإعادتهم إلى بلادهم، ولقد سخر منه مدير الشركة قال: إن «توماس كوك» لها نفوذ وإن الأولى به أن يجد طريقًا آخر كي يكسب عيشه فسأله الفتى:

«أعلم كل هذا.. ولكن لم لا نحاول؟!».

هز الرجل كتفيه في لا مبالاة، وبدأ رأفت مشواره الأول إلى لندن!

في السفارة المصرية بلندن استطاع رأفت الهجان بشخصيته الجذابة أن يجتذب عواطفهم ثم عقولهم إليه، كان يعرف كيف يتعامل مع الناس ومع المصريين بالذات... إن تحويل البعثات من توماس كوك إلى شركته سوف يوفر لهم ألوف الجنيهات، كانت وسائل النقل هي هي، والإمكانات هي هي، وفوق هذا فلسوف يدفعون أقل مما يدفعونه لتوماس كوك!

مع جاذبية الفتى ولباقته وأسلوبه الفريد في الإقناع، كانت هناك الوطنية المصرية التي دفعت المسئولين في السفارة إلى مساعدة فتى مصري يبني مستقبله في بلاد الإنجليز... وعلى كل فلم يلبث الفتى في لندن سوى بضعة أيام عاد بعدها إلى ليفربول وقد عقد صفقة كان نصيبه فيها ـ وحده ـ ألفين من الجنيهات الإسترلينية!

ولقد كانت «كاي وولف» هي أكثر سعادة، ليس فقط لأن فتاها عقد صفقة هامة وأثبت كفاءته، بل أيضا لأن الأب جوشام نسي مسألة الدين تمامًا... وإذا كان النجاح يجلب نجاحًا أكبر، فلقد راح الفتى يضرب في كل اتجاه، وازدهرت أعمال الشركة ازدهارا جعل طموح الفتى يمتد إلى بعيد، إلى الشاطئ الآخر من المحيط، إلى الولايات المتحدة الأمريكية!... إنه هناك يستطيع أن يعقد للشركة صفقات سياحية تدر عليها أرباحًا لا شك فيها، وعندما عرض رأفت فكرته الطموح على مدير الشركة كان ينتظر أي شيء إلا أن يوافق الرجل فورًا ودون مناقشة، ولقد كان الأمر مفاجأة بالنسبة إليه، لكنه كان سعيدًا... إن له في الشركة حسابًا وصل إلى خمسة آلاف جنيه إسترليني لم يأخذ منها سوى ألف فقط، أعطاه الرجل تذكرة على إحدى طائرات شركة الخطوط الجوية الفرنسية طار بها رأفت إلى نيويورك فخورًا بنفسه، فها هو يعبر المحيط إلى الدنيا الجديدة، وَدَّعته «كاي» في المطار على وعد باللقاء بعد أسابيع لن تطول، لكنه لم يكن يعرف وهو يودعها أن هذه هي آخر مرة تقع فيها عيناه عليها!

ذلك أنه ما أن دخل مكتب الشركة في نيويورك وقدم نفسه للمدير الأمريكي حتى كانت مفاجأة في انتظاره، كان في انتظاره أمر بالفصل من الشركة بحجة أنه سرق تذكرة الطائرة!

ولم يصدم الفتى هذه المرة، أدرك على الفور سر ترحيب المدير الشديد بفكرته الطموح، غادر مكتب الشركة إلى شوارع نيويورك وقد

أدرك أنهم استولوا على أربعة آلاف جنيه إسترليني وأنهم أرادوا أن يوفروا عمولته من الصفقات التي عقدها بالفعل كما أدرك أنه لا يستطيع شيئًا والمحيط يفصل بينه وبينهم!

كالفأر المذعور راح يخوض في شوارع نيويورك وحواريها وأزقتها ودروبها وأحيائها الدنيا، هو الآن مهدد بجريمة لم يرتكبها، راح يتحرك بحذر وكانت أمواله تنفد يومًا بعد يوم... ثم عاد إلى المحاولة من جديد حتى استطاع أن يجد لنفسه عملًا في إحدى شركات السياحة التي أصبح خبيرًا بأعمالها، واستطاع بما له من موهبة ودراية أن يحقق نجاحًا جعلهم يثقون فيه حتى إذا طلب إليهم إعطاءه شيكات سياحية بمبالغ من المال تسهل له عمله على أن يرد المبالغ مرة أخرى، أعطوه ما طلب وردَّ لهم المال بعد بضعة أيام، ثم طلب شيكات أخرى بمبالغ أكبر، ثم رد المبالغ، ثم طلب شيكات بمبلغ خمسة آلاف دولار صرفها كلها دفعة واحدة وطار إلى كندا!!

لكنه لم يمكث في كندا طويلًا، كان يعرف الآن أن التهمة أصبحت تهمتين، وأنه في مونتريال ليس بعيدًا عن أيدي الشرطة الأمريكية، وسرعان ما تفتق ذهنه عن حيلة... أودع خمسة الآلاف دولار في أحد البنوك الشهيرة ثم طلب دفتر شيكات... وكان النظام المعمول به في تلك الأيام هو طبع المبلغ المودع على دفتر الشيكات وهكذا لم تمر أيام قليلة حتى سحب المبلغ كله بشيك واحد وبقي معه دفتر الشيكات الذي يؤكد أن رصيده في هذا البنك هو خمسة آلاف دولار... ثم طار إلى أوربا!!

كانت أوربا في تلك السنوات لا تزال تتغذى على مشروع مارشال الشهير، وكان للدولار الأمريكي في كل دول أوربا قيمة بالنسبة للعملات المحلية... هبطت به الطائرة في باريس وكانت هذه المرة الثانية التي يزور فيها العاصمة الفرنسية... ولم يكن صعبًا عليه أن يتحرك في حذر فهو مطلوب من شرطة بريطانيا وشرطة الولايات المتحدة، وهكذا راح

يعرض على البعض أن يعطيهم شيكًا بمبلغ ما من الدولارات وأن يقبض ثلث قيمة الشيك بالفرنك الفرنسي على أن يحصل على الثلثين بعد صرف الشيك، وما أن يأخذ المال حتى يذوب، ينتقل من بلد إلى بلد ومن دولة إلى أخرى، ومن فرنسا إلى هولندا إلى بلجيكا إلى ألمانيا... وكان ـ إذا ما أعيته الحيلة ـ دخل ناديًا للقمار كي يتحين فرصة يدرسها جيدًا، حتى إذا حانت ألقى على المائدة بمبلغ من الدولارات كي يخسره في لا مبالاة ويمضي، وهو يعلم أن هناك من يسيل لعابهم للدولارات الأمريكية وأنهم لا بد سوف يتبعونه، فلا يفعل أكثر من أن يعرض عليهم شيكًا بمبلغ ما على أن يأخذ ثلثه بالعملة المحلية ثم يتسلم الباقي عندما يصرف الشيك وهكذا، يكتب الشيك ويستولي على المال... و... ويذوب!!

ولقد كان لا بد من نهاية لهذا الطواف!

وجاءت النهاية في مدينة فرانكفورت الألمانية عندما اعترضت طريقه فتاة راحت تنصب شباكها من حوله... من النظرة الأولى عرف ما تريده ومن هي، كان قد أصبح الآن أفاقًا مجربًا مؤمنًا أن الفتاة إنما تحوم من حوله طمعًا في ماله المزعوم، جاراها ساخرًا لكنه في صباح اليوم التالي وجدها قد تبخرت ومعها جواز سفره ودفتر الشيكات معًا!!

لم تكن الكارثة في دفتر الشيكات بل في جواز السفر الذي كان قد استخرجه قبل أسبوع بعد أن انتهت مدة جواز سفره القديم، وكانت تجارة جوازات السفر في تلك الأيام منتشرة في ألمانيا بالذات، حيث كان النازيون القدامى يحاولون الحصول على جوازات سفر أجنبية تخفي شخصياتهم... وعندما ذهب إلى القنصلية مطالبًا بجواز سفر جديد رفض القنصل واتهمه بأنه باع جوازه الجديد!

وجد رأفت الهجان نفسه في مأزق كان يضيق من حوله يومًا بعد يوم، ولم يكن أمامه سوى العودة إلى مصر من جديد ولكن... من أين له بثمن

التذكرة؟!... ولقد ظل يبذل المحاولات حتى وافقت شركة الطيران الهولندية على أن تصرف له تذكرة إذا ما دفع ثمنها في القاهرة، وهكذا أبرق إلى أخيه كي يدفع عنه ثمن تذكرة العودة ثم جلس ينتظر.

في كل يوم يذهب رأفت الهجان إلى مكتب شركة الطيران سائلًا عن رد من القاهرة دون جدوى، ومرت الأيام وكانت حالته تسوء، حتى إذا ذهب ذات صباح يسأل إن كان هناك رد من القاهرة طلبوا إليه الانتظار قليلًا فاستبشر خيرًا، مضت دقائق جاءت بعدها الشرطة كي تقبض عليه بتهمة سرقة تذكرة طائرة من مكتب السياحة الذي كان يعمل فيه في ليفربول!

في فرانكفورت دخل السجن لأول مرة، مكث فيه ثلاثة أشهر ثم حوكم وحكم عليه بالبراءة لعدم كفاية الأدلة... ولم يكن هذا مهمًّا، كان المهم أن المحكمة أمرت بترحيله إلى بلاده!



في مصر كانت كل الأبواب موصدة في وجهه حتى باب شريفة، فلقد صارحه زوجها اليوزباشي (نقيب) محمد رفيق ـ لم يكن قد أصبح صاغًا بعد ـ أن حضوره إلى البيت أمر غير مرغوب فيه، هكذا بوضوح ودون لف أو دوران أو اعتبار لدموع شريفة أو توسلات طارق الصغير... كانت ثورة ٢٣ يوليو قامت في ذلك الوقت وعرف رأفت أن الشرطة تبحث عنه لسبب لا يدريه، وهكذا... وجد نفسه يدخل مع الدنيا في صراع جديد.

ذات يوم التقى بشاب فرنسي اسمه «دانييل مارتان» جاء إلى مصر في زيارة علمية للآثار، واستطاع أن يصحبه في إحدى جولاته ثم سرق جواز سفره، ولم يكن صعبًا عليه أن يغير الصورة ويزور الختم، وهكذا وضع صورته بدلًا من صورة الشاب، ونزل في أحد الفنادق الكبرى لبضعة أيام استولى فيها على جواز جديد ثم اختفى ليظهر في فندق آخر بجواز سفر آخر وباسم آخر... ولا يذكر الفتى كم مرة لعب فيها هذه

اللعبة، لكنه اعترف بوضوح أنه لعبها كثيرًا وأنه برع في تغيير الصورة وتزوير الأختام... حتى إذا وقع في يده ذات يوم جواز سفر باسم «أحمد العلايلي» غيّر الصورة وزور الختم وسافر إلى بور سعيد!

كان حنينه إلى الحياة المستقيمة يعاوده، وفي بور سعيد التحق بعمل في إحدى الشركات تحت اسم أحمد العلايلي، وما أن مضى شهران حتى طلب إليه صاحب الشركة أن يستعد لاستقبال عميل هام من عملائه وهو إسماعيل بك شوكت... ما أن سمع هذا الاسم حتى هرول إلى بيته، جمع أشياءه كلها وركب القطار عائدًا إلى القاهرة... فلم يكن شوكت بك هذا سوى زوج خالته!

باسم أحمد العلايلي نزل في أحد فنادق القاهرة والتقى في الفندق بفتاة أمريكية تدعى «جوان برات»، ما أن مضى يومان حتى هامت به الفتاة، لكنه لم يكن يريد هيامها بل جواز سفرها الذي استولى عليه وغير صورتها بصورته وبدل اسمها من جوان إلى جوني وغادر مصر عن طريق ليبيا.

لم يكن يعرف إلى أين هو ذاهب، في الطريق إلى بني غازي كان يتنقل من سيارة إلى أخرى بطريقة الأتوستوب، وكثيرًا ما كان يقطع الأميال في الصحراء وتحت لهيب الشمس سيرًا على الأقدام حتى حملته سيارة إلى بني غازي، وهناك توقفت أمام نقطة تفتيش إنجليزية، وما أن طلب إليه الجندي جواز سفره حتى قدمه له في لامبالاة وثقة دون أن ينتبه إلى أن العرق كان قد أفسد الجواز وكشف التزوير وخلع الصورة من مكانها، وكان طبيعيًا أن يلقوا القبض عليه فادعى أن اسمه «ليڤي كوهين» وأنه يهودي هارب من الثورة المصرية... ولأنه كان يتقن الإنجليزية كأحد أبنائها فلقد شكت السلطات البريطانية في أمره، ظنوه واحدًا من جنود الإمبراطورية الذين فروا أثناء الحرب وكان هذا شائعًا في تلك الأيام، وعندما أخذوا بصماته وأرسلوها إلى الشرطة

الدولية «الإنتربول»، عادت الأوراق لتقول إنه مصري وإن اسمه «رأفت الهجان»!

وهكذا أعيد الفتى إلى مصر من جديد!

لكنه لم يستسلم... فما أن وصل إلى الإسكندرية حتى راح يصيح ويهدد ويؤكد أنه أمريكي وأنه يريد القنصل فورا... كانت الأوراق التي عاد بها من ليبيا تقول إنه مصري اسمه رأفت، وإن له اسمًا آخر يهوديًّا هو «ليڤي كوهين»، وشاع في القسم اسمه اليهودي كما شاع أنه يحمل جواز سفر أمريكيًّا باسم جوني برات... في السجن التقى بيهودي آخر اسمه «إفرايم سلومون» راح يرقبه من بعيد حتى تحين الفرصة، وما أن حانت الفرصة حتى اقترب منه سائلا إياه عمن يكون... فإذا برأفت ينهره همسًا ويحدثه في فرنسية ذات لكنة من تلك التي كان يتحدث بها يهود مصر في تلك الأيام، قال:

«لا تتحدث كثيرًا... الحيطان لها ودان».

كان الجزء الأول من الجملة بالفرنسية والجزء الثاني بالعربية، هكذا كان يهود مصر يتحدثون في الغالب الأعم، التصق به «إفرايم سلومون» سائلًا إياه عن المشكلة فنهره بالفرنسية:

«ليست هناك مشكلة».

ثم أردف بالعربية:

«دول مغفلين!».

وسقط إفرايم سلومون في حبائل رأفت، صدق أنه يهودي وأدرك أنه يلعب دورًا عظيمًا وسريًّا لمصلحة الجالية اليهودية ولمصلحة إسرائيل!

غير أن شكوك رجال الشرطة في الإسكندرية تزايدت عندما لم يصلوا إلى حقيقته فقرروا ترحيله إلى القاهرة!

* * *

ساد الصمت وراح محسن يرقب رأفت وقد تهدجت أنفاسه، كان يلهث وكأنه أزاح من فوق كاهله عبئًا هائلًا... بدا الفتى شاحبًا ذلك الشحوب الناتج عن الانفعال الشديد، كان يبدو غاضبًا وكأنه يعيش هذا الذي يحكيه وهو يحكيه، ألقى برأسه إلى الخلف وراح يحملق في السقف طويلًا، احترم محسن صمته فلم ينطق حتى قفز الفتى فجأة وهو يصيح في غضب:

«ما يهمنيش!».

كان الفتى يتحدث إلى نفسه فابتسم محسن متسائلًا:

«هو إيه اللي ما يهمكش؟!».

«ما يهمنيش إنك تصدقني!».

رفع محسن حاجبيه دهشة فأردف الفتى:

«اشمعنى انت اللي حاتصدقني؟!».

سأله محسن مغيرًا مجرى الحديث:

«إنت فاكر الراجل اليهودي اللي اسمه إفرايم سلومون ده؟!».

«طبعا فاكر شكله!».

«كان مقبوض عليه ليه؟!».

«ما اعرفش!».

حاول رأفت أن يتذكر لكنه فشل:

«أنا في الحقيقة اللي قلته علشان أخوفه مني وأبعده عني!».

«يعني هو يعرف إن اسمك الحقيقي مش ليڤي كوهين؟!».

«ده اللي أنا قلته له!».

عاد الصمت يخيم عليهما من جديد كان قلب محسن ممتاز يرقص

الآن طربًا... فها هو القدر يؤازره ويضع ـ بمصادفة غير مقصودة ـ بذرة للهدف الأسمى الذي يريده لهذا الفتى الذي ما لبث أن قال:

«أديني قلت لك كل حاجة، مش حاتقول لي بقى إنت مين؟!».

نهض إليه محسن استعدادًا للانصراف:

«عاوز تعرف إيه؟!».

«على الأقل أعرف إنت اسمك إيه؟!».

«محسن».

صاح الفتى:

«البلد فيها خمسة مليون محسن وحسن حسين وحسان يا بيه!».

ضحك محسن قائلًا:

«اسمي محسن ممتاز!».

«كسبنا صلاة النبي!».

«عاوز تعرف إيه تاني؟!».

«يا بيه فهمني إيه الحكاية، كفاية عليّ اللي حصل أنا مش ناقص!».

ربت محسن على كتفه في ود متسائلًا:

«ما نفسكش تاخد أجازة؟».

«من الأجازة اللي أنا فيها؟!».

«مانفسكش تتفسح؟».

«نفسي أشوف شريفة وطارق!».

«بلاش دلوقت!».

«هيه؟!».

«مش لازم تروح لاخواتك إلا وانت ملو هدومك يا ليڤي!».

«حاتشغلني يا بيه؟!».

أخرج محسن من جيبه ورقة من فئة عشرة الجنيهات قدمها إليه قائلًا:

«خذ العشرة جنيه دي وقدامك تلات أيام تتفسح فيهم زي ما انت عاوز!».

«ليه ده كله؟!».

«إوعى تنسى إن اسمك ليڤي كوهين!».

«ولا يهمك».

«وإذا صادف وقابلت إفرايم سلومون ده، خليه يعرف إن ده مش اسمك الحقيقي برضه!».

«وإذا سألني عن اسمي الحقيقي؟!».

«ما تقولوش حاجة إلا لما أقول لك أنا!».

قال محسن هذا وهو يخطو نحو الباب مستطردًا:

«واشوفك يوم الخميس الساعة عشرة الصبح إن شاء الله!».

هتف رأفت:

«وإذا احتجت لك؟!».

«حاتلقاني جنبك!».

قال محسن هذا وانصرف!

* * *

بدت السيدة هيلين سمحون متعبة، كانت الساعة تشرف على الرابعة

عندما توقف عزيز الجبالي عن الحديث وكان هو الآخر يبدو منهكًا، لم يطل الصمت بينهما فلقد قالت هيلين:

«لقد تجشمت من أجلي عناء عظيمًا!».

«إن هذا دين في أعناقنا لديفيد!».

«تقصد رأفت؟!».

التفت عزيز نحوها وقد اجتاحت ملامحه سعادة جارفة وعادت هيلين تقول:

«أشعر وكأني تسلقت جبلًا شاهقًا!».

«أما زلت تريدين معرفة الحقيقة؟!».

«أكثر من ذي قبل!».

قالت هذا وهي تنهض فنهض عزيز قائلًا:

«إذن فإلى اللقاء غدًا».

وودعها عزيز الجبالي حتى باب السيارة التي كانت تقف أمام المدخل الخاص لكبار الزوار في مبنى جهاز المخابرات العامة المصرية، وعندما كانت السيارة السوداء الألمانية الصنع تجتاز البوابة الخارجية لمبنى الجهاز، كان عزيز الجبالي يعود مهرولا إلى مكتبه وهو ينظر في ساعة يده، فلقد كان وراءه الكثير مما كان عليه أن ينجزه!!

الفصل الثامن

ياكوف بنيامين حنانيا

عاود هيلين سمحون ذلك الإحساس الملح بأنها تعيش حلمًا غريبًا لن تلبث أن تستيقظ منه وتستعيده في دهشة... أو أنها تلعب دورًا في فيلم مثير لا صلة له بالواقع الذي عاشته وتعيشه... كانت ـ عندما غادرت تلك الغرفة المتواضعة الأثاث في مبنى جهاز المخابرات العامة المصرية ـ قد التقت بالضابط حسين شكري الذي لازمها في الطائرة من براغ حتى القاهرة، ثم قدم لها نفسه في السيارة الميكروباس التابعة لشركة مصر للطيران، والتي حملتها إلى تلك السيارة السوداء اللون الألمانية الصنع، ثم جاء بها من تلك الڤيلا الهادئة بضاحية هليوبوليس إلى هذا الجهاز الذي احتوتها جدرانه منذ الصباح، فإذا هي في دوامة عنيفة تتصارع فيها الأفكار والانفعالات، حتى قبيل غروب الشمس من ذلك اليوم من أيام يناير ١٩٧٩.

لم تكن الجولة التي قامت بها مع عزيز الجبالي، عبر التاريخ القريب لشعب من شعوب الأرض هو الشعب المصري، هينة عليها... وبقدر كثرة المعلومات، وكثافة الشحنات العاطفية، بقدر ما كان لهذه الكثرة والكثافة من ضغط عنيف على أعصابها!

في داخلها عشرات من الأسئلة، وعشرات من الأحاسيس المتضاربة

والمتشاحنة... فلقد كانت تعرف هذا الفتى الذي كان يتحدث عنه عزيز الجبالي... في بعض الأحيان كانت تستمع إليه فتستغرق معه فيما يرويه من أحداث وتنسى تمامًا من هو هذا الفتى، فكأنها تقرأ قصة أنستها أحداثها الغريبة كل شيء، وفي لحظة أخرى تتذكر أن هذا الفتى هو «ديڤيد»... حبيبها وزوجها فتصاب بما يشبه الصاعقة!

الاستماع إلى الأحداث أو قراءتها في كتاب أو مشاهدتها في فيلم شيء، ومعرفة البطل شيء آخر... أنت تشاهد فيلمًا تثيرك أحداثه، تنفعل معها، وتضطرب، ويداخلك الخوف وأنت في مقعدك وربما الرعب أيضًا، لكنك في النهاية تستشعر نوعًا خفيًا من اللذة، هي لذة إحساسك بأن هذا كله غير حقيقي... ثم أنت تقرأ قصة فتهزك سطورها هزًا، وقد تضحك مع الكلمات، وقد تبكيك الأحداث، لكنك عندما تغلق الكتاب تشعر بفيض من الراحة يداخلك، ولا بد لك ـ مهما كانت المأساة الكامنة في السطور وفيما بينها ـ من أن تبتسم وتثني على الكاتب وتشيد بالعمل... ولكن، أن تستمع إلى كل هذه الأحداث، أو تقرأها، أو تشاهدها وأنت موقن أنها حقيقية، بل إن بطلها كان صديقك أو أخاك أو زوجك... فهنا تكمن المأساة، وهذا ما كان عليها أن تستوعبه كما ينبغي أن يكون الاستيعاب... جاءت عليها لحظات أحست فيها بذلك الإحساس الغيبي بأن ديڤيد أو رأفت أو دانييل أو جوني أو أيا ما كان الاسم الذي تسمى به ذلك الرجل الذي أحبته وتزوجته وأنجبت منه ثم مات... موجود معهما!

في لحظات بعينها كانت تكاد تشعر بأنفاسه تملأ الغرفة من حولها وحول عزيز، ولكم تمنت... كم تمنت من أعماق القلب ألا يكون هذا مجرد إحساس، وأن يعود ديڤيد إلى الحياة مرة أخرى... فقط، كي تأخذ برأسه فوق صدرها، وأن تربت على شعره الناعم، وأن ترضعه حنانا افتقده وحرم منه بقسوة... ولكن هيهات!

لقد مات ديفيد، مات رأفت بين ذراعيها منذ ما يقرب من شهرين، وهي تشعر الآن برغبة عارمة في أن تنفرد بنفسها، أن تغوص حتى أعمق أعماق ذكرياتها عنه ومعه، أن تعود إلى السباحة في بحره مرة أخرى... فهي الآن، تعلم يقينًا أن كل هذا الذي سمعته لم يكن سوى مقدمة لحياة محفوفة بالأسى والحرمان والمخاطر جميعًا!

ألقت ببصرها عبر نافذة السيارة إلى طرقات القاهرة وقد هبط عليها الظلام وأضيئت الأنوار، كانت السيارة تزحف في بطء وسط زحام الطريق، على يسارها كان يجلس حسين شكري صامتا في احترام عميق لصمتها... كان قد حاول ـ عندما غادرت تلك الغرفة المتواضعة الأثاث مع عزيز الجبالي ـ أن يشيع المرح من حولها، فصاح مازحًا فور رؤيته لها وكأنه ينبهها إلى أن أفكارها تنعكس على صفحة وجهها:

«فراو سمحون... ما الذي فعله بك هذا الرجل؟!».

«لقد تجشم من أجلي عناء كثيرًا».

قالت هذا فلزم حسين شكري الصمت، كان ردها صلبًا كصخرة، وكانت تعلم الآن أن طبيعتها الألمانية الجافة قد عاودتها بعنف... في الطريق إلى تلك الفيلا التي اختارها المصريون مقرًا لها، سألها حسين شكري في رقة غير مصطنعة:

«كيف تريدين أن تقضي المساء؟».

«وحدي».

كانت الكلمة كالطلقة، لكنه لم يستسلم:

«في القاهرة أماكن متميزة لتناول العشاء».

«ليس الليلة هر شكري... ليس الليلة».

وهكذا انتهى الحوار، وهكذا استقبلت فتيات الفيلا بوجه مجهد

فأحطنها برعاية فاقت قدرتها على الاحتمال... فطلبت إليهن في رجاء أن يتركنها وحدها... بدلت ملابسها وتناولت عشاء خفيفًا وتبادلت مع عزيزة - فتاة الڤيلا الخمرية المليحة التقاطيع المجيدة للغة الألمانية - حديثًا قصيرًا، تركتها الفتاة بعده لأفكارها... وهكذا جلست في الشرفة المطلة على تلك الحديقة الصغيرة - ورغم برودة الجو الشديدة - وفي ذهنها يدور سؤال بدا لها محيرًا:

لقد عانى ديڤيد - أو رأفت - كل هذا الذي عاناه من وطنه... عانى الجحود من أهله، والخبث من قوم آذوه دون ذنب جناه، دفعوه إلى التشرد فتشرد، دفعوه إلى اليأس فاحتال، غاضبوه فغضب منهم وهجرهم، هجر الوطن كله... ولكن، ما أن نادته مصر، حتى حمل رأسه فوق كفه من أجلها، وحتى نهاية عمره، وعاش حياة محفوفة بالموت في كل لحظة من لحظاتها، وكان - عندما التقت به - راضيًا، سعيدًا، يحمل الحنين كله إلى هذا الوطن... الآن، الآن فقط تستطيع هيلين سمحون أن تفهم ذلك الحنين الدافق إلى القاهرة، إلى مصر...

مصر؟!

ما هي مصر تلك التي يحبها أبناؤها إلى حد الموت، رغم قسوتها البالغة على بعضهم؟

وحتى صباح اليوم التالي لم تكن هيلين سمحون قد نامت سوى ساعات جد قليلة، ولم تكن بعد قد توصلت إلى جواب.

* * *

أما عزيز الجبالي فلقد كان في صباح اليوم التالي بادي الإجهاد... قضى جزءًا كبيرًا من الليل في عمل متواصل ألزمه مكتبه... وعندما أوى إلى فراشه، شعر وكأن عظامه قد تحطمت تحت وطأة ثقل لا قبل له به... أكثر ما كان يضنيه هو ذلك الانفصال المفروض عليه وهو يحكي لهيلين

سمحون ـ أو حرم المرحوم رأفت الهجان ـ قصة زوجها الراحل... كان يحكي لها «ما يجب» عليه أن يحكيه، لكن الحقائق كانت تفرض نفسها عليه فرضًا... كان لسانه يقول بحساب، وعقله يجمح بلا حساب، هذا تاريخ عاشه وعايشه، هذا جزء من وطنه، جزء قدر له برغم كل شيء ألا يرى النور أبدًا ـ هكذا كان يقدر ـ وجزء آخر كان يخرج من بين شفتيه من ثقوب مصفاة شديدة الضيق... لكنه، وعندما سمع أذان الفجر يسري في سماء القاهرة، تقلب في فراشه وهو يغمغم:

هذا دين في عنق مصر لرأفت الهجان، ولن يؤديه غيري!!

* * *

عندما التقى عزيز بهيلين في صباح اليوم التالي، حاول كل منهما الابتسام في وجه الآخر، لكن ملامحهما كانت تصرخ بأن أيا منهما لم يعرف للنوم طعمًا في الليلة التي مضت إلا لحظات خاطفة، فهي: كانت تتلهف لسماع القصة... وهو كان يضع على لسانه ألف قيد وقيد!!

* * *

قال الفتى فيما بعد إنه لم يترك نفسه للحيرة بعد أن غادره محسن ممتاز في ذلك اليوم طالبًا إليه أن يأخذ إجازة ثلاثة أيام... ذلك أنه كان موقنًا بأن محسن لن يكون إلا ضابطًا من ضباط المباحث الذين تخصصوا في التعامل مع يهود مصر، بعد أن تزايد نشاطهم في تهريب أموالهم من البلاد، بالرغم من أن أحدًا من المصريين ـ حتى بعد حرب ١٩٤٨ ـ لم يربط بينهم وبين إسرائيل، ولم يتعامل معهم معاملة تختلف عن أي مواطن مسلم أو مسيحي.

حقًّا كان محسن يبدو مختلفًا عن كل ضباط الشرطة الذين عرفهم وخبرهم وخبر أساليبهم، لكنه اختلاف أرجعه إلى طبيعة محسن نفسه لا إلى طبيعة عمله... ولقد علمته الأيام أن أصابع اليد الواحدة لا

تتشابه، فهو لم يكن في حاجة إلى أن يفكر أو يقدح ذهنه لأن الأمور بدت له شديدة الوضوح... ولقد كان السؤال الذي طرحه على نفسه في البداية هو: ما الذي يريده منه ضابط مثل محسن ممتاز؟!... وكانت الإجابة النهائية ـ بعد أن قلب الفتى الأمر على كل وجوهه ـ أن محسن لا يمكن أن يطلب أكثر من نقل أخبار هؤلاء المهربين إليه... أما السؤال الذي طرحه على نفسه ولم يجد له إجابة فكان: هل يحتاج الأمر ـ أمر نقل أخبار اليهود ـ إلى كل هذه الاحتياطات، وكل هذا التكتم، وكل هذا التنبيه على عدم الإفصاح عن اسمه الحقيقي المزعوم؟!

لم يجد الفتى إجابة عن السؤال فنحاه جانبًا، لا إهمالًا منه، ولكن لأنه وجد أنه لن يخسر كثيرًا... فهو ـ بداية ـ قد تحول من مطارَد (بفتح الراء) إلى مطارِد (بكسر الراء) وهو أخيرًا قد أمن شر التشرد، ثم إنه عندما سأل محسن إن كان سيجد له عملًا، كانت إجابة الرجل صامتة حقًّا، لكنه صمت كان يعد بالكثير!

كل هذه العناصر كانت عناصر ربح من وجهة نظره، في الوقت الذي وجد فيه أن الأمر لن يكلفه كثيرًا من المشقة، فلقد تعود على انتحال الشخصيات، وإتقان هذا الانتحال إلى حد أنه كان يعيش أحيانًا بالشهور على أنه مسيحي فلا يخطئ مرة، وعلى أنه يهودي فلا يكشف أمره أبدًا.. فالأمر كان بالنسبة إليه سهلًا، وهكذا... ما أن غادره محسن في ذلك اليوم حتى استعد ومعه ما يقرب من العشرين جنيهًا، كي يقضي ثلاثة أيام في نزهة حقيقية وراحة بال طال الشوق إليها... و... و... ودون خوف من مطاردة، وكان هذا هو أهم ما في الأمر!!

ولقد كان رأفت الهجان على حق في تفكيره تمامًا، ذلك أن أحدًا في مصر في تلك السنوات لم يكن يعرف شيئًا أو جهازًا اسمه «المخابرات»، ولم يكن في مصر جهاز بهذا الاسم... وبالرغم من أن القاهرة كانت مسرحًا لعمليات تجسس لا يستهان بها إبان الحرب

العالمية الثانية وفي السنوات التي تلتها... ففي أثناء الحرب العالمية الثانية ـ على سبيل المثال ـ ذاعت قصة هانز إبلر وحكمت فهمي، كما كانت الشائعات حول الدور الذي لعبته المطربة العربية البلورية الصوت «أسمهان» مع الحلفاء، تملأ سماء القاهرة ومنتدياتها، بل وفي الأحاديث العابرة والعادية بين المواطنين... وما أن انتهت الحرب حتى ظهر دور الجماعات الصهيونية، وكان اغتيال اللورد «موين» وزير الدولة البريطاني لشئون الشرق الأوسط قبل انتهاء الحرب بما يقرب من عام ـ وبالتحديد في عام ١٩٤٤ ـ نذيرًا بأن لليهود تنظيمات سرية وشبكات تجسس لا يستهان بها في مصر... وبالرغم من هذا، فإن أحدًا من حكام مصر في تلك الفترة العصيبة التي كانت تغلي بالأحداث، لم يفكر، بل ربما كان الأصح أنه لم يفهم أهمية وجود جهاز للمخابرات يحمي الدولة... أما نشاط التجسس هذا فلقد كان يتولاه في وزارة الداخلية قسم كان يطلق عليه اسم «القلم السياسي» أو «القسم المخصوص»!

* * *

وبينما كان رأفت الهجان يجوب القاهرة طولًا وعرضًا في استمتاع طال البعد عنه، يرتاد دور السينما والمسرح، ويقضي يومًا تحت سفح الهرم الأكبر، ويومًا في حديقة الحيوان، وقد استعاد ذلك الإحساس الغامر بالأمن الذي جعله يتحرك بلا خوف ولا حذر ـ كان محسن ممتاز غارقًا لأذنيه في مهمة بدت له شديدة الصعوبة والتعقيد!

كانت المهمة هي إيجاد تاريخ للفتى، وخلق ماض له!

وصعوبة هذه المهمة وتعقيدها كانا يكمنان في أن اليهود في كل الدنيا ـ لا في مصر وحدها ـ كانوا مجتمعات مغلقة يطلق عليها في العالم كل اسم «جيتو»، وفي مصر اسم «حارة اليهود»، وفي بعض البلدان العربية اسم «حي الملاح»... وكانوا بالتالي ـ أو في الغالب ـ يعرفون بعضهم بعضًا... وكانت الجالية اليهودية في مصر بالذات تمتد شرائحها

الاجتماعية من الذروة حتى القاع... لكنهم كانوا يعرفون بعضهم بعضًا خاصة تلك العائلات الكبيرة والغنية الشهيرة، تلك العائلات التي كان على محسن أن يتجنب البحث فيها عن «أصل» للفتى... كان عليه ـ مرغمًا ـ أن يحصر بحثه في العائلات المتوسطة أو الدنيا!!

ذلك أنه إذا ما أراد أن يزرع الفتى في قلب إسرائيل، وأن يرسل به إلى هناك كي يعيش كإسرائيلي لحمًا ودمًا، فلسوف يصبح عليه بداية أن يجد له «أصلًا» إسرائيليًّا يصعب اكتشافه، إن لم يكن من المستحيل اكتشافه... كانت الكتب التي وصلت إلى يديه، قصص «الطابور الخامس» الألماني بالذات، قد أمدته بالكثير مما يحتاج إليه في مهمة كهذه... وهكذا وجد محسن ممتاز نفسه أمام مأزق آخر... لأنه لو أراد رد الفتى إلى «أصل» من الأصول اليهودية التي تعيش في مصر، أو كانت تعيش في مصر حتى وقت قريب، فلسوف يجد الفتى بالقطع من يعرف هذا «الأصل» فينكشف أمره، وكان لا بد أن ينحصر بحثه في تلك «الأصول» التي غادرت مصر منذ زمن طويل، والتي اندثرت أو كادت ذكراها أن تندثر!

كان المجتمع اليهودي ما زال ـ حتى ذلك العام وفيما تلاه من أعوام وحتى عدوان ١٩٥٦ ـ يعش أفراده حياتهم الاجتماعية والاقتصادية بحرية كاملة... كانت هناك تجمعات لليهود في المقاهي والبارات والنوادي، بل كان هناك ناد رياضي اسمه «نادي المكابي» خاص بأبناء الجالية اليهودية الذين كانوا يملكون واحدة من أقوى فرق كرة السلة في مصر... وكان من أعضاء هذا النادي ملاكم يهودي مشهور هو «رورو هراري»، كما كان هناك مقهى «متاتيا» الذي كان يضم تجمعات من شرائح شتى في المجتمع المصري، من الصحافة إلى الأدب، إلى الفكر إلى الاقتصاد والتجارة، إلى السياسة... إلى ... إلى اليهود الذين كان لهم ركن ـ كبقية الشرائح ـ شهير في هذا المقهى... ثم المعابد اليهودية في القاهرة والإسكندرية... ثم... ثم إذا كانت المصادفة قد لعبت دورها

لصالح محسن عندما ادعى الفتى وهو في الإسكندرية أمام يهودي آخر هو «إفرايم سلومون» أن اسم «ليڤي كوهين» ليس اسمه الحقيقي، فلا بد أن يلتقي به السيد سلومون هذا ذات يوم، ثم لا بد أن يسأله أحدهم ـ سرًّا بالطبع ـ عن اسمه الحقيقي، وهو اسم لا بد أن يكون مرتبطًا بماضٍ وتاريخ وأسرة وعنوان وجيران وأصدقاء ومعارف!

عادت الحلقة تضيق أمام محسن، فلقد كان «إفرايم سلومون» هذا يعرف أن الفتى جاء من ليبيا مقبوضًا عليه... إذن فلا بد من البحث عن «أصل» هذا الفتى في المغرب العربي!

نعم، كانت المهمة صعبة ومعقدة، وكانت تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم... ولم تكن هذه الأيام الثلاثة التي أعطاها محسن للفتى كإجازة، سوى ـ في واقع الأمر ـ فرصة أعطاها لنفسه لاستكمال بحثه الذي كان قد بدأه منذ أن اتخذ القرار بخصوص الفتى... ولقد كان ملاذه ـ في هذه المشكلة أيضًا ـ هو سجلات مصلحة الجوازات والجنسية.

وهناك، لم تكن المهمة سهلة!

لم يكن هناك أرشيف بالمعنى العلمي لهذه الكلمة، ولم يكن سهلًا البحث وسط ألوف الدوسيهات والملفات والأضابير عن عائلة يهودية ذات مواصفات معينة، هاجرت من مصر إلى المغرب العربي بالتحديد، وكانت كلمة المغرب هذه تشمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب معًا، فوق أن هذه البلدان كلها كانت لا تزال واقعة تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي أو البريطاني، ثم إن المدن ـ غالبًا ـ في بلدان هذا المغرب في ذلك الوقت كانت مقسمة إلى ثلاثة أحياء:

أولها: الحي الأوربي... وهو حي بني وصمم على أنه قطعة من أوربا!... وكان مخصصًا للجاليات الأوربية سواء المنتمية إلى الدولة المستعمرة أم إلى سواها!

وثانيها: هو الحي العربي... حي أبناء البلاد وأصحابها الأصليين، وكان محاطًا بسور ـ ولا تزال بعض هذه الأسوار قائمة حتى اليوم ـ له بوابة، ولا يستطيع المواطن العربي اجتياز هذه البوابة خروجًا أو عودة إلا بتصريح!!

أما الحي الثالث: فكان يطلق عليه اسم حي «الملاح» وهي تسمية لها أصول تاريخية بالقطع، لكن حي «الملاح» هذا كان حي اليهود، وكان له أيضًا ـ مثل الحي العربي ـ سور له بوابة، الفرق الوحيد بينهما أن اجتياز البوابة خروجًا أو عودة لم يكن يحتاج إلى تصريح!!

كان معنى هذا أن يهود المغرب معروفون، في أي بلد كانوا، فلا بد أن يعرفهم أهل حي «الملاح» مهما صغر شأنهم أو كبر هذا الشأن!

وكان معنى هذا أيضًا أن الحلقة كانت تضيق أمام محسن ممتاز أكثر وأكثر!

لكن هذا الشاب الريفي الأصل كان عنيدًا لا يعرف اليأس، لذلك ... فلقد داوم بحثه في سجلات مصلحة الجوازات والجنسية وأرشيفها وأضابيرها وملفاتها حتى عثر ذات مساء على كنز!

* * *

في سجلات المصلحة عثر محسن على عائلة صغيرة مكونة من أب وأم وولد وبنت... المثير في الأمر أن الولد أو الصبي وكان اسمه «ياكوف» كان في مثل عمر رأفت، فهو مولود في نفس العام... وكان اسم الأب «بنيامين حنانيا» واسم الأم التي غادرت مصر في سن الثلاثين هو «راشيل»، أما اسم الصبية التي كانت تصغر أخاها بعامين فكان «جان»!

كان «بنيامين حنانيا» تاجرًا متجولًا للأقمشة والخردوات... وإذا كانت أسرته تقيم في أحد أحياء القاهرة الشعبية، فلقد كان هو يجوب ببضاعته التي يحملها على ظهره في «بقجة» هائلة قرى الوجه البحري

وكفوره... كان بنيامين معروفًا في هذه القرى جيدًا، وكان له زبائن كثيرون، وكان أهلها ينتظرونه بطربوشه الذي صنع العرق مع الأتربة حول حافته سياجًا من السواد، وبذلته البنية الكالحة، ثم تلك «البقجة» التي تحوي العجائب مما يعجب النساء والفتيات... ولكن ولسبب ما - قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بعام وبعض عام - قرر بنيامين حنانيا أن يهاجر من مصر إلى المغرب، وكانت سجلات المصلحة، التي انهال محسن عليها بحثًا وتقليبًا، تؤكد أن السيد حنانيا وابنه ياكوف وابنته جان وزوجته راشيل لم يعودوا إلى مصر مرة أخرى!

كان معنى هذا أن تعس الحظ بنيامين حنانيا وأسرته - وبكل الحسابات الممكنة - كان يقيم في المغرب عندما اجتاحته جيوش المحور أثناء الحرب العالمية الثانية... وكان معنى هذا أيضًا أن العائلة بكاملها إما أنها أبيدت أو تفرقت!

من أوراق المصلحة عرف محسن العنوان الذي كانت عائلة حنانيا تقيم فيه منذ ما يقرب من سبعة عشر عامًا، وعلى الفور انتشر رجاله يبحثون ويتقصون ويستفسرون، وجاءت كل النتائج بما أثلج صدر محسن تمامًا، فالعائلة التي هاجرت لم يسمع أحد عنها شيئًا منذ ذلك الوقت... وإن كان بعض كبار السن، قد أدلوا بمعلومات وافية عن هذه العائلة، وتحدث الجيران الذين يذكرون «الست راشيل» والدة «ياكوف» الذي كانوا جميعًا ينادونه باسم «ياكو» والبنت «هند»؛ ولقد أصر الجميع بلا استثناء، على أن اسم الفتاة كان «هند» ولم يكن «جان» كما كان مدونًا في سجلات المصلحة، وأنهم لم يسمعوا باسم «جان» هذا منذ مولد الفتاة في أحد الأدوار الأرضية في بيت كان لا يزال قائمًا من بيوت الحارة! وفي جلسات سمر مع بعض شباب الحي ورجاله، تذكر بعضهم - بوضوح شديد - «ياكو» الصغير الذي كانت له نوادر وطباع يختص بها هو دون سواه!

أما الكبار الذين دهشوا من السؤال عن «الخواجه بنيامين» وتساءلوا عن سبب السؤال عنه، فلقد ذكروا أنه كان عزوفًا عن مخالطة الناس بعكس زوجته الودود، وأنه كان يختفي لأيام وأحيانًا لأسابيع، ليعود مجهدًا متعبًا، فلا يمكث مع العائلة إلا لأيام يشتري فيها بضاعته من بعض تجار حي الموسكي الذين ذكروا أسماءهم.

وكان بعض هؤلاء التجار لا يزال على قيد الحياة!... وكانوا يذكرون بنيامين تمامًا، بل إن بعضهم ذكر بضعة أسماء للقرى التي كانت أسواقًا لهذا البائع اليهودي المتجول... وفي تلك القرى، أدلت بعض العجائز من ذوات الذاكرة الحديدية، بالعديد من الحكايات عن الخواجه بنيامين ـ وإن كن جميعًا لا يعرفن عنه سوى اسم بنيامين فقط ـ وعن أقمشته ذات الألوان الزاهية، وعن الحلي الشعبية الجميلة التي كان يحملها إليهن كلما زارهن في جولة بعد أخرى!

انقضت الأيام الثلاثة، وكان محسن قد ألم إلمامًا وافيًا بأسرة حنانيا... كما أنه استطاع أن «يؤلف» قصة محكمة كان على الفتى أن يرويها إذا ما سئل عن أصله وفصله... وهكذا أصبح جاهزًا للخطوة الأولى في مهمته الصعبة!!

* * *

لم يكن من المعقول أن يصارح محسن رأفت بطبيعة مهمته في البداية، بل كان هذا مستحيلًا بكل المعاني... كانت المشكلة التي تشغل باله وهو مقدم على الخطوة الأولى هي «ترويض» هذا الثعلب الجامح... وفي حقيقة الأمر، فإن محسن لم يأخذ كلام الفتى وهو يقص عليه قصة حياته وما حدث له مأخذ صدق مطلق... حتى إذا كانت تحرياته قد تطابقت بشكل يدعو إلى الدهشة مع ما ذكره عن نفسه... إلا أنه ـ احتياطًا ـ وضع في اعتباره نسبة للمبالغة أو التحريف أو إخفاء ما يشين أو يخجل... لكن الواقع الذي واجهه محسن بعد تلك الأيام

الثلاثة التي قضاها الفتى وحده، أكد له أن الفتى يصدقه القول إلى حد يفوق التوقعات وكل تفاؤل ممكن!

ذلك أن شيئًا غريبًا قد حدث... فبالرغم من أن الفتى في اليوم الأول واليوم الثاني قد فعل كل ما يريد وكل ما يشتهي وكل ما يتمنى، فإنه في اليوم الثالث لم يغادر البيت إطلاقًا!

ظن محسن في البداية أن وعكة قد أصابته، أو نوبة برد كانت تجتاح القاهرة أيامها قد وصلت إليه، غير أنه عندما ذهب في الموعد ودق الباب في ذلك المسكن القائم فوق سطح إحدى عمارات ميدان سليمان باشا... فتح له الفتى وكان في كامل ملابسه، حليق الذقن، بادي الصحة... بل تبدو في ملامحه راحة أضفت عليها نوعًا من البهاء والسحر!

«عملت إيه في الأيام التلاتة اللي فاتوا يا ليڤي؟!».

هكذا سأله محسن بعد أن وضع الفتى بينهما كوبين من الشاي المعد على الطريقة المصرية، ولقد كان محسن يعرف بالطبع ما الذي فعله الفتى دقيقة بدقيقة، بل كانت له ملاحظات بدت له شديدة الأهمية... منها أن الفتى كان يتصرف تصرف الأثرياء وأولاد الذوات. اكتشف محسن أن رأفت الهجان يهوى «الفخفخة» وأنه كان يتصرف في كل مكان ذهب إليه وكأنه ولد وفي فمه ملعقة من ذهب... وبدا لمحسن أن هذا الداء، أو تلك العادة أو الهواية تمثل خطرًا حقيقيًا على خطته التي وضعها، ولذلك... فما أن حكى له رأفت ما فعله في الأيام الثلاثة التي انقضت، حتى سأله:

«يعني انت امبارح ماخرجتش من البيت؟!».

«لا!».

«ليه؟!».

«بصراحة يا محسن بيه خفت!».

«من إيه يا ليڤي».

«أول امبارح وأنا خارج من «البيروكيه» الساعة واحدة بالليل، شفت الراجل اللي اسمه إفرايم سلومون خارج من قهوة إستانبيلوس!».

كان البيروكيه هذا ـ ولا يزال ـ ملهى ليليًّا في وسط القاهرة، كما كان مقهى وبار «إستانبيلوس» يقع في المبنى المجاور مباشرة عند التقاء شارع سليمان باشا وعبد الخالق ثروت... وكان محسن يعلم من هو ذلك الذي يدعى «إفرايم سلومون»، فهو ذلك الفتى اليهودي الذي التقى برأفت الهجان في سجن الإسكندرية عندما كان هذا محتجزًا بعد وصوله من ليبيا... بدا له الفتى على حق في تحفظه، كما بدا له ذكاء الفتى غريبًا وحرصه أشد غرابة... وعلى كل، فلقد سأله متحسسًا الطريق إليه:

«وإيه اللي يخوف في إنك شفت إفرايم سلومون!».

«مش عارف».

قالها الفتى مفكرًا، ثم عاد يقول:

«حسيت إنه ممكن يشبط فيّه، وممكن يسألني اسمك الحقيقي إيه؟!».

«افرض إنه سألك؟!».

«ما انت ما قلتليش على الاسم ده!».

«وهو انت كان لازم تقوله؟!».

«لا ما كانش لازم بس...».

توقف الفتى عن الحديث، ثم دقق نظراته في عيني محسن شارحًا:

«أنا لما ما اقولش وأنا اعرف الاسم... غير لما ما اقولش وأنا ما اعرفوش!!!».

كان رد الفتى مفحمًا، فعاد محسن يسأل ضاغطًا:

«وده اللي خلاك ماتخرجش امبارح؟!».

«أيوه... لأني باحب اشتغل وأنا فاهم راسي من رجليه!!».

لم يستطع محسن أن يخفي دهشته، رفع حاجبيه متسائلًا:

«تشتغل؟!».

«أكيد سعادتك عاوزني في شغل!».

قال محسن ممتاز فيما بعد ـ رغم كل وقاره وتجهمه الطبيعي ـ إنه لفرط إعجابه بما نطق به الفتى كاد ينهض إليه ويقبله... ذلك أن «وعيه» بالأشياء بدا غريبًا ولافتًا للنظر وباعثًا على الشك في نفس الوقت... طال الصمت بينهما حتى سأله الفتى واجفًا:

«أنا غلطت في حاجة يا محسن بيه؟».

«أيوه!».

«شفت بقى... أنا قعدت امبارح في البيت علشان ما اغلطش».

زغردت الفرحة في قلب محسن، فسأله:

«يعني انت عارف إنت غلطت في إيه؟!».

«لو كنت أعرف ما كنتش سألتك!».

«اسمع يا ليڤي... إنت المفروض جاي منين؟!».

«من ليبيا!».

«يعني يهودي هربان، وعلى الحديدة لأنك جيت بطولك وما كنتش لاقي تاكل إلا الأكل اللي كانوا بيقدموه لك في القسم!».

راح الفتى يحملق في وجه محسن محاولًا أن يستشف ما يدور في ذهنه!

«هو اليهودي المفلس يسهر في البيروكيه برضه؟!».

لم يرد رأفت الهجان. كان يفكر فيما قاله محسن، وكان يبدو عليه عدم الاقتناع بهذا المنطق!

«ساكت ليه؟!».

«مستني لما سعادتك تخلص!».

«وأنا خلصت!».

«وأنا مش غلطان في دي!».

«إزاي؟!».

«لأن سعادتك اللي اديتني الفلوس، ده أول هام... وتاني هام لأني ما اعرفش حاجة عن اللي أنت عاوزني اعمله غير إني يهودي وكان الله يحب المحسنين!».

ابتسم محسن لمنطق الفتى الذي لم يتوقف، بل تدفق في الحديث:

«واليهود فيهم جاتينيو وصيدناوي، وفيهم ليڤي كوهين اللي مش لاقي ياكل... وفيهم اللي ممكن يسهر في البيروكيه!».

قال محسن منهيًا الأمر:

«على كل حال لازم تحط ده في اعتبارك، لازم تعيش على قدك!».

مال الفتى نحو محسن هاتفًا:

«يا سعادة البيه قول لي أنت عاوزني أعمل إيه وأنا أعمله!».

«عاوزك تعرف إن دي آخر مرة أجي لك فيها الشقة!».

بان الذعر على وجه الفتى فصاح:

«هو حضرتك كلفتني بحاجة وأنا قلت لأ لا سمح الله؟!».

ابتسم محسن مطمئنًا إياه:

«مش ده يا ليڤي... مش ده!».

كان رأفت قلقًا:

«أمال مش عاوز تشوفني تاني ليه؟!».

«أنا ما قلتش اني مش حاشوفك، أنا قلت إني مش جاي الشقة دي تاني!».

«مش فاهم!».

«إحنا حانتقابل في مواعيد منتظمة... بس بعيد عن الناس، مش لازم حد يعرف على الإطلاق إننا بنتقابل!».

«آآآاه».

قالها الفتى بارتياح صارخ، وعاد محسن إلى الحديث:

«ده نمرة واحد... نمرة اتنين إنت لازم تعرف إن لك عندي مرتب شهري!».

قال محسن هذا وانتظر أن يسأل الفتى عن هذا المرتب لكنه لم يفعل!

«أنا حاديلك الفلوس اللي تقضيك وبس... ولازم تعيش بيها حتى ولو جعت».

«اللي تشوفه حضرتك... بس أنا عاوز اعرف حاجة!».

«إيه هي؟!».

«أنا مطلوب مني أعمل إيه بالضبط؟!».

«ولا حاجة... تعيش على إنك يهودي، تروح الحتت اللي بيروحها اليهود... وتفضل في وسطهم تتكلم معاهم وتحاول تفهمهم كويس، وتعرف هم عايشين إزاي، وتعيش زيهم...».

«بس كده؟!».

«بس كده!».

«بسيطة!».

«بيتهيأ لك!».

«مش فاهم!».

اعتدل محسن في جلسته وراح يتحدث بكلمات بطيئة واضحة حتى تصل إلى أعماق الفتى!

كان المفروض أن يعيش رأفت الهجان لا باسم يهودي فقط بل كيهودي أصيل... عليه أن يتردد على كل الأماكن التي يتردد عليها اليهود... ابتداء من المعبد وحتى قهوة «متاتيا»، ونادي المكابي، وقهوة وبار «إستانبيلوس»، إلى تجمعاتهم الخفية والعلنية... عليه أن يحكي قصة عائلته وتشردها في المغرب وما فعلته بها جيوش المحور... عليه أن يعرف أين كانت تسكن عائلة «حنانيا» المكونة منه ومن الأب بنيامين والأم راشيل والأخت جان التي تصغره بعامين والتي عرفت في الحارة باسم «هند»... وأن يعرف بدقة شديدة عمل أبيه والقرى التي كان يزورها ببضاعته، والتجار الذين كان يتعامل معهم في سوق الموسكي... لأن السيد «حنانيا» ـ كما قال بعض الجيران ـ كان يصحب ولده طوال إقامته القصيرة في القاهرة ولا يفارقه أبدًا... وكان عليه أن يعرف أنه بالرغم من هجرته من مصر وعمره لا يتجاوز سبعة الأعوام فهو يذكر كل شيء بوضوح كاف، فلقد كانت للفتى ذاكرة من حديد وذكاء من نوع غريب... ذاق الأمرين في المغرب هو وعائلته جميعًا عندما اجتاحتها جيوش المحور، مات أبوه ثم ماتت أمه، وافترق هو عن شقيقته التي لا يعرف إن كانت قد لحقت بأبيه وأمه أم أنها لا تزال على قيد الحياة... ثم لا بد له من زيارة مراتع الطفولة بل والتعرف ـ ولكن في حذر شديد حتى لا يقع في خطأ قاتل ـ على بعض أقرانه... وعليه أيضًا أن يبحث عن عمل،

أي عمل مهما كان تافهًا لأن قروشه التي استطاع إخفاءها جد قليلة، لا تمكنه إلا من العيش على الكفاف... حلم عمره أن ينتقم من العالم كله، خلاص اليهود الوحيد في دولة إسرائيل والصهيونية هي أعظم فكر عرفته البشرية، الشرطة تطارده في المغرب لأسباب خفية لا يدلي بها لأحد مهما كانت مكانته، كما تطارده الشرطة في مصر مثلما طارده الإنجليز في ليبيا بلا رحمة!

عليه أن يترك نفسه تمامًا لقدره وسط اليهود... في نادي المكابي يستطيع التعرف على أنماط من مستويات اجتماعية مختلفة، وفي المقاهي والبارات سيلتقي بنوعيات عليه أن يعقد معها صداقات حذرة لأن سره الكبير يجب ألا يعرف... في المعبد عليه أن يتعلم صلواتهم، وأن يعرف، وبدقة شديدة، مذاهبهم الدينية، والخلاف بين هذه المذاهب... عليه أن يكون متدينًا، وأن يواظب على زيارة المعبد، وأن يحترم في صرامة يوم السبت، ثم يختار لنفسه «مقرًّا» في النادي أو أحد المقاهي أو أحد البارات...

ثم هو سوف يلتقي بمحسن مرتين كل أسبوع... لن يكون اللقاء عاديًّا، بل لقاء له خطة وأسلوب سري وغريب ومعقد، عليه أن يتبعه بدقة مهما كانت الظروف، سيعلمه محسن كيف يعرف إن كان مراقبًا أم لا... سيدربه على كيفية الإفلات من أية مراقبة... ولكن، حذار حذار، أن يلتقي به أو يتحدث إليه وهو مراقب حتى ولو كان ملتصقًا به... إذا لم يستطع الإفلات من المراقبة فله أن ينصرف كي يلتقي بمحسن في موعد آخر له جدول خاص سوف يلقنه إياه.

«ومين اللي حايراقبني يا بيه؟».

«البوليس طبعًا».

«يا نهار أسود».

ابتسم محسن متسائلًا:

«إيه ما لك؟».

«إذا كان البوليس هو اللي حايراقبني، أمال سيادتك تبقى إيه؟».

لم يرد محسن لكنه استطرد:

«ده مش حايراقبك بس يا ليڤي... ده ممكن يقبض عليك كمان».

كان هذا فوق طاقة الفتى، فوق قدرته على الفهم بهذه السرعة وهذا الهجوم الذي تعمده محسن حتى يختبر قدرة الفتى على مواجهة الاحتمالات والصمود أمام المفاجآت.

ولقد استلزم الأمر ثماني ساعات كاملة... ثماني ساعات بقيها محسن مع الفتى وهو يقص عليه قصة عائلة حنانيا، وكيف يتصرف، ومع من، وماذا يفعل... كان يلقنه كل ما يريد أن يلقنه إياه، ويدربه على أسلوب اللقاء ويسأله، ويعيد السؤال... ثم إن عليه، في النهاية، أن يحفظ رقمي تليفونه في البيت وفي المكتب... لا لا... ليس كتابة فهذا ممنوع منعًا باتًّا، عليه أن يحفظهما عن ظهر قلب، لا للاستعمال، بل للضرورة القصوى وعندما يصبح أمنه كله في خطر... هل هذا مفهوم؟

«مفهوم يا بيه!».

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساءً عندما أحس محسن أن الفتى قد تشبع تمامًا بكل ما أراد له أن يتشبع به، نهض مستعدًّا للانصراف وهو يطلب إلى رأفت الهجان أن يتحرك على مهل وفي حذر وألا يتعجل الأمور مهما بدت له سهلة وميسرة... وأن يكتب، وكلما كانا على موعد، كل كبيرة وصغيرة عما حدث له أو فعله أو رآه أو سمعه في الأيام السابقة... ورغم الإجهاد الشديد الذي كان يصبغ ما حول عيني رأفت الهجان بلون داكن، فلقد كان يبتسم ابتسامة ذات مغزى، وعندما سأله محسن عن سر ابتسامته، قال:

«لأنك قلت لي اسم أبويا وأمي وأختي، ومقلتليش أنا اسمي الحقيقي إيه؟».

«ياكوف».

ساد الصمت لبرهة، قال بعدها الفتى:

«ياكوف بنيامين حنانيا!».

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتعرف فيها الفتى على الاسم الجديد الذي كان عليه أن يحمله لشهور قادمة... أما محسن، فلقد كان موقنًا الآن أن رأفت ـ أبدًا ـ لن ينسى اسمه الحقيقي المزعوم بعد أن حجبه عنه طوال تلك الساعات وأشعل شوقه لمعرفته... حتى إذا ما ذكره له، غاص الاسم إلى أعماق الفتى، واستقر هناك!

الفصل التاسع

إسْتانبيلوس

انقطع الحديث عندما دخل الشاب الريفي ليضع كأسين من عصير الليمون وفنجانين من القهوة المصرية أمام فراو سمحون وعزيز الجبالي الذي كف عن الحديث فور دخوله... ران الصمت وشمل الغرفة إلا من الأصوات الهامسة التي كان يصدرها ذلك الريفي في حركته الرشيقة، قبل انقضاء دقيقة انتهى من مهمته وغادر الغرفة، ولكن الصمت ظل معلقًا فوق رأسيهما!

بدا عزيز الجبالي مستغرقًا في التفكير وقد ركز عينيه فوق هدف غامض بدا وكأنه معلق في الفضاء، احترمت هيلين هذا الاستغراق وظلت ساكنة تكاد تكتم أنفاسها، حتى مد يده نحو فنجان قهوته، فمدت يدها إلى كأس العصير!

كان ما يحدث لها الآن شيئًا غريبًا تماما، شيئًا وعته ورفضته لكنها لم تستطع إلا أن تستسلم له... شعرت في تلك اللحظات وكأنها تحيا حياة أخرى، لم تكن مندمجة فيما كان يحكيه عزيز فقط، بل كانت تحياه... فالحرارة التي راح هذا الرجل يحكي بها، وتدفق الكلمات من بين شفتيه في إنجليزية سليمة، وإشاراته وإيماءاته، وحركات يديه القليلة والشديدة التعبير، جعلتها تشعر وكأنها تتنفس الأحداث، فداخلتها نشوة

غامضة صاحبها إحساس شديد العمق بالراحة، فاستسلمت... ولم تنبس ببنت شفة، حتى عاد عزيز ـ بعد أن أشعل سيجارة واسترد أنفاسه ـ إلى الحديث من جديد!

* * *

في أواخر عام ١٩٥٤، كان حي مصر الجديدة شبه أرستقراطي، تسكنه العائلات المتوسطة الكبيرة، وعدد لا بأس به من الأثرياء... وكانت بيوته ذات طراز خاص، فالعمارات القديمة الواسعة الردهات والشرفات والسقوف العالية، تلك التي بنتها الشركة البلجيكية التي كانت تملك هذا الحي بأراضيه ومرافقه وخط المترو الشهير الذي كان يربط الحي بوسط المدينة التجارية عند ملتقى شارع فؤاد بشارع عماد الدين، كل هذا كان يجعل للحي مذاقًا غريبًا غير مصري، حتى تلك الڤيلات التي بناها الأثرياء هناك، كانت تتناثر في تباعد يحيطها بوقار ذي طعم خاص... غير أن بعض العمارات الحديثة كانت قد بدأت في الظهور مع قيام ثورة يوليو منذ ما يقرب من عامين، فلقد أحس المصريون ـ ربما لأول مرة ـ أن هذه الأرض أرضهم... وكانت الأرض صحراوية ورخيصة، فزحف إليها بعض من يملكون مالًا يسيرًا، وبدأت تلك العمارات في الظهور وفي تكوين شوارع بكاملها في تلك الضاحية!

ولذلك فإن شوارع مصر الجديدة في تلك الأيام ـ بعد الغروب ـ كانت تبدو شبه خالية، فأصحاب السيارات كانوا يضعون سياراتهم في جراجات خاصة، وكان المار في أحد هذه الشوارع، لا يرى سوى سيارة أو سيارتين تقفان في الطريق، وغالبًا ما يكون أصحابها في زيارة عائلية أو ودية، ولم يكن المار يلمح سوى شخص أو شخصين، أو ـ في الغالب ـ حبيبين يسيران في خطوات متلكئة وهما يتهامسان!

كان أمرًا طبيعيًا أن تدخل الشارع ـ أي شارع ـ سيارة كبيرة أو صغيرة،

ثم تقف أمام إحدى العمارات، وأن يتوقف دوران الموتور، ثم لا يغادر السيارة أحد... فإن الاحتمالات هنا لم تكن تخرج عن حبيب في انتظار حبيبته، أو زوج في انتظار زوجته التي تزور صديقة لها... وإذا ما كانت السيارة تقف في آخر الشارع فإن القادم من أوله كان يستطيع بسهولة بالغة أن يكتشف ـ قبل أن يبلغ السيارة ـ إن كان هناك من يتبعه أم لا.

كان الموعد في التاسعة مساء!

وفي التاسعة إلا خمس دقائق كانت سيارة سوداء اللون أمريكية الصنع، ذات ماركة شهيرة من تلك التي يركبها ذوو اليسار والأراضي من أهل مصر، تدخل إلى واحد من هذه الشوارع في سرعة عادية للغاية، ولقد ظلت هذه السرعة تتناقص حتى توقفت السيارة أمام عمارة جديدة بدت عالية جدًّا، فلقد بلغ ارتفاعها خمسة طوابق!

وكان الجالس خلف عجلة القيادة هو محسن ممتاز.

مرت ثلاثة أشهر منذ امتنع محسن عن زيارة الفتى في ذلك المسكن الكائن فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا، وكانت لقاءاته بالفتى قد تعددت وتعقدت واتخذت أشكالًا عديدة... في كل لقاء من هذه اللقاءات، كان محسن ممتاز يذهب إليه بسيارة ذات ماركة مختلفة ولون مختلف وحجم مختلف، لكن الرقم الموضوع على السيارة أيا ما كانت، لم يكن يتغير أبدًا!

كان محسن، طوال هذين الشهرين، يدرب الفتى على اكتشاف المراقبة والإفلات منها، في بعض الأحيان كان يرسل وراءه من يراقبه عمدًا، ويبدأ الفتى في المراوغة، ويبدأ المراقب في استعمال مهاراته لكن الفتى غالبًا ما كان ينتصر، فلقد أظهر قدرة فائقة بل وعبقرية على الاستيعاب، كما أظهر قدرة فذة على تطوير الأساليب وإدخال التعديلات عليها بما يتلاءم مع طبيعته... كان يمارس دور اليهودي في اندماج واستغراق جعلاه في بعض الأحيان «يساوم» محسن على أي

شيء، لم يكن يساوم لهدف، بل كان يساوم للمساومة، ثم يبتسم قائلًا إنه أصبح يهوديًّا أكثر من اليهود!

كان الفتى يتقدم بسرعة مذهلة وغير متوقعة... وكان تقدمه هذا مثار مناقشات مضنية بين محسن ممتاز وحسن صقر... ذلك الذي ترك أمر العملية كله لزميله وصديقة ومرءوسه منذ أن شاهدا معًا ذلك الفيلم الأمريكي الذي كان يعرض في القاهرة، والذي كان قلقًا أشد ما يكون القلق لتطور الفتى السريع، مطالبًا محسن مع كل خطوة إلى الأمام بأن «في التأني السلامة»!

يقول عزيز الجبالي عن تلك المرحلة في الأوراق التي كتبها:

«وهكذا كانت العملية تتطور وتتقدم نحو الهدف بكل أثقالها الخطيرة على كواهل كل الأطراف... حسن صقر، قائد العملية السري، والمسئول الأول عن مسارها ونتائجها وسلامة جميع القائمين عليها، وهو لذلك يهيمن عليها ويقف على تفاصيلها ويساهم بالفكر في كل شئونها، ولا تتخذ خطوة من الخطوات إلا بموافقته وتصديقه... ومحسن ممتاز المدبر، المنفذ، قائد العملية وروحها، دارس الظروف، واضع المخططات، الممسك بزمام الأمور والمحافظ على سلامة الاتجاه نحو الهدف... ثم مجموعة قليلة من ضباط العمل السري الذين ساهموا بأقصى ما يمكن من السرية والكتمان في إحكام جوانب هذه العملية وبناء سواترها وتدعيم قصصها الوهمية الزائفة بما يجعلها تنطلي على الجميع في داخل مصر وخارجها على السواء!

وأخيرًا... سلاح العملية المتقدم وأداتها الرئيسية... ذلك الذي كان رأفت ثم أصبح ليفي، وهو الآن ياكوف!!».

كان محسن ممتاز في تلك الليلة يحمل للفتى نبأً مهولًا، كان يستعد لمصارحته بالهدف من الأمر كله، وهو قد شحذ كل ملكاته، واستعد بكل أدواته لتلك اللحظة التي كان يعرف كم هي رهيبة، وشاقة وصعبة!

أطفأ الأنوار وأبطل حركة موتور السيارة وراحت عيناه تعسان في المكان بحذر... كان باقيًا خمس دقائق، وكان السكون شاملًا، والشارع خاليًا، وكل شيء يبدو على ما يرام!

في ذلك الوقت هبط الفتى من أحد قطارات المترو في إحدى محطات مصر الجديدة النائية... كان قد اتخذ طريقه من وسط المدينة حتى تلك البقعة الصحراوية عبر عدة مواصلات ومسارات مركبة... وهو في حقيقة الأمر كان دهشًا لهذا الإفراط في السرية كلما كان على موعد مع محسن الذي قال له ذات مرة عندما سأله عن السبب في كل هذا بأنه من الأفضل لسلامته ألا يراه أحد من اليهود، أو حتى من رجال الشرطة معه... ولم يقتنع الفتى، وإنما ابتلعها ـ كما قال فيما بعد ـ «بمزاجه»، وظلت دهشته متقدة، وراح يتساءل:

«سرية على من؟!».

إن السرية هنا لا يمكن إلا أن تكون على رجال الشرطة، فكيف يحتاط رجل شرطة من رجل شرطة آخر، ولماذا؟!... كان رأفت الهجان مقتنعًا أشد ما يكون الاقتناع بأن محسن رجل من رجال الشرطة له وظيفة خاصة باليهود، وأن كل ما سيطلبه إليه في النهاية هو أن يأتيه بأخبارهم، فلقد كان نشاطهم في تلك الأيام يتزايد، وكان قد امتد ـ في مصر بالذات ـ من تهريب الأموال وتهجير الشباب، إلى تدمير المنشآت!!... أقنع الفتى نفسه بأن محسن إنما يفرض كل هذا الذي يفرضه من كتمان، وإعداد وتدريب وما إلى ذلك، لأن البلد في عهد جديد بعد أن باد عهد آخر، «والغربال الجديد له شدة» كما يقولون في المثل العامي المصري... أقنع الفتى نفسه بهذا لأن محسن كان قد أصبح في تلك الشهور القليلة يمثل بعثًا جديدًا لحياته... ولطالما قارن بينه وبين أخيه الأكبر، ذلك الذي ظل يضيق عليه الخناق حتى لم يجد أمامه سوى الفرار من البيت... وما أن ينتهي من المقارنة ـ رغم شدة محسن في بعض الأحيان ونظراته المخيفة

في أحيان أخرى ـ حتى يسلم قياده له أكثر، مقتنعًا بأن كل ما يطلبه إليه هو الصواب بعينه!

كان الجو في تلك الليلة باردًا، وقد حمل شتاء هذا العام إلى القاهرة، مع الأعاصير السياسية التي كانت تجتاحها، أعاصير طبيعية من رياح وأمطار ورعد وبرق وبرودة... غادر الفتى المترو لكنه لم يغادر المحطة، ضم طرفي سترته وانكمش منتظرًا مغادرة كل الركاب... ولم يكونوا سوى راكب واحد، عبر الطريق هرولة واختفى في الظلام وهو ينحني إلى الأمام متقيًا دفع الريح... مضى المترو مبتعدًا، واختنق صوت عجلاته في صمت الليل الكثيف، ألقى الفتى ببصره في حرص من تدرب بقدر يكفي لممارسة هذه النظرات بحنكة.

كان يبدو عليه البؤس!!

هكذا كان يجب أن يكون... كان حليق الذقن مصفف الشعر حقًّا، لكنه كان شاحب الوجه رث الملابس رغم كيها بعناية... دس يديه في جيبي سرواله وألقى نظرة أخيرة على المكان ومضى يعبر الطريق، فبدا جسده الذي ازداد نحولًا وكأنه يتمايل مع هبوب الرياح... بعد عشرين ثانية كان يدلف إلى الشارع الذي توقفت فيه السيارة التي يقودها محسن، في خطوات منتظمة سار... لكنه، وعندما حاذى بيتًا من البيوت، توقف ومال محملقًا في رقم البيت المعلق وكأنه يقرؤه بصعوبة في ضوء الطريق الخافت... لكن عينيه كانتا هناك من حيث جاء، حتى إذا اطمأن تمامًا إلى أنه غير متبوع، اعتدل، وسار نحو السيارة في ثقة... ألقى نظرة على الرقم، ثم مال نحو الباب ففتحه ودلف إلى الداخل!

❁ ❁ ❁

منذ البداية وقع اختيار رأفت ومحسن على أن تكون قهوة وبار «إستانبيلوس» هي مقره الدائم... ذلك أن المقهى ـ مثله مثل قهوة متاتيا ـ يتميز بطابع خاص... كان مقهى إستانبيلوس يحمل سمات

المقهى المصري الصميم، فهناك لاعبو الطاولة والدومينو وأحيانًا الشطرنج، وكان هؤلاء لهم ركن خاص بهم لا يرتاده إلا اللعيبة... ثم هناك ركن لأصحاب المزاج الخاص، يتجمعون فيه من العصر وحتى أذان العشاء يتسامرون ويتهامسون ويتناقلون النكات والأخبار والأسعار، ثم ينصرفون في جماعات صغيرة أو فرادى، كل إلى بغيته بعيدًا عن الأعين... وكان هناك ركن ثالث للسياسيين، هؤلاء الأصدقاء الألداء المختلفو المذاهب والمشارب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، والذين لا يكفون عن المناقشة لحظة، ويتبارون بالأحداث والأحزاب التي ألغيت ويعيّر بعضهم بعضًا بالوقائع في صيحات متشنجة، لكنهم، ومهما اشتد بينهم الخلاف، كانوا دائمًا ما يلتقون، ودائمًا ما يختلفون، لكنهم يشربون الشاي والقهوة معًا، في لقاء حميم من أجل مصر!

أما ركن الصحفيين والأدباء فقد كان مجاورًا لركن السياسيين، كان منهم من يحترف الصحافة أو الأدب لكنه يمارس السياسة، ومنهم من كان يحترف السياسة ويتخذ من الصحافة وسيلة... وهؤلاء كانوا أكثر الأركان هدوءًا، وأشدها صخبًا لو احتدمت المناقشة حول نظرية أو موقف أو قصيدة أو قصة نشرت في الصفحة الأولى لإحدى الجرائد اليومية...

ثم يبقى بعد ذلك ركن اليهود!

كان ركن اليهود مجاورًا لذلك الساتر الخشبي الأخضر اللون، والذي يفصل المقهى عن البار... وكان يتميز بشيء خاص تمامًا، وهو أن كل فرد من رواده، كان لا بد أن تكون له علاقة بأحد الأركان الأخرى... كان منهم صحفيون، ومنهم أصحاب مزاج، ولعيبة طاولة ودومينو، كما كان منهم التجار... لكن الواحد منهم ـ بالرغم من هذا ـ كان يعود دائمًا إلى ركن اليهود لممارسة حياته الحقيقية بين بني جلدته... كان من المستحيل أن تجد واحدًا منهم يعمل عملًا واحدًا، أو يشغل وظيفة واحدة، وكانوا ـ

جميعًا ـ مهتمين أشد ما يكون الاهتمام بكسب المال!... كان هذا الركن يتميز بسجن أصحابه رغم أن منهم من ولد وعاش وتربى في مصر، لكنهم غالبًا ما كانوا يتهامسون ويعقدون الصفقات ويختلفون ويتشاحنون وقد تعلو أصواتهم ويتبادلون الاتهامات، ثم يعودون مرة أخرى متلاصقين، حتى أطلق عليهم أحد أدباء المقهى اسم: «المتلاصقون المتنافرون»!

في الساتر الخشبي الذي يقوم بين المقهى والبار باب صغير أسدلت عليه ستارة ذات لون داكن لا تظهر فيه البقع... جرسونات المقهى من ذلك النوع الذي يرتدي البنطلون الأسود والجاكيت الأبيض و«البابيون» يزين واجهة العنق، في الناحية الأخرى خلف الساتر الخشبي، كان اسم البارمان هو «مانولي خرالامبو»، لكنهم جميعًا كانوا ينادونه باسم «مانو» فقط، أما نجم مقهى وبار «إستانبيلوس»، فلقد كان هو نفسه الخواجة «إستانبيلوس» صاحب المقهى، اليوناني الأصل، ذا اللكنة التي كانت من علامات المجتمع المصري في ذلك الحين... في البداية كان هناك إستانبيلوس الأب، ثم جاء من بعده «إستانبيلوس» الابن الوسيم المتفجر بالحيوية والسخرية معًا... ابن البلد الدون جوان العاشق للنميمة، الخائض في سير كل رواده، العارف بكل تفاصيل حيواتهم ومشاكلهم واحتياجاتهم ونقاط ضعفهم ونقاط القوة في كل واحد فيهم، صاحب النوادر الشهيرة، والحسان اللواتي كن يقفن أمام المقهى بسياراتهن للحديث معه أو للتشاحن حول موعد أخلفه!!!

في مقهى وبار إستانبيلوس بدأ رأفت الهجان خطوته الأولى نحو عالمه الجديد والخطر... في بداية الأمر لم يكن الأمر صعبًا عليه، فلم تمض أيام قليلة حتى عرف جميع رواد المقهى وزبائنه الدائمين، خاصة اليهود منهم، أن هذا الفتى النحيل ذا الملابس المتواضعة والعينين النفاذتين القلقتين اسمه «ليڤي كوهين»... هو يأتي وحده يشرب فنجانًا واحدًا من القهوة لا يزيد، يجلس ساهمًا ساعة أو ساعتين، يحدث من

يتحدث إليه في أدب ورقة بالغين، ولا يتطفل على ركن أو شخص مهما طالت جلسته، ثم ينصرف من حيث جاء!

غير أنه ما إن مر أسبوع وبعض أسبوع حتى عرف الجميع قصة هذا الفتى الغامض!... عرفوها من «إستانبيلوس» الابن نفسه... ذلك أن هذا الشاب كان يعشق النميمة ويعتبرها إحدى الفضائل الإنسانية، كان يتلذذ بسماع الأخبار وروايتها في نفس الوقت... وعندما أعيته الحيلة مع هذا الفتى اليهودي دعاه إلى كأس في الناحية الأخرى من الساتر الخشبي... وفي بساطة ورقة قبل الفتى الدعوة، ودلف مع «إستانبيلوس» إلى حيث كان «مانو» خبيرًا في فك الألسنة المعقودة... والشيء الغريب الذي حدث أن صاحب المقهى انجذب بشكل غامض نحو هذا الفتى الذي ـ بعكس ما كان يبدو عليه ـ كان جذابًا في جلسته التي امتدت معه حتى حان موعد إغلاق المقهى والبار أيضًا... كان الفتى حاضر البديهة، ابن نكتة، تقطر السخرية من بين شفتيه مرة كالعلقم، ثمينة كالذهب... هو بلا أهل، قتل الألمان أباه وأمه في المغرب وافترق عن أخته التي لا يعرف عنها شيئًا... ماله قليل، ولهذا فهو يبحث عن عمل... ولقد تطوع «إستانبيلوس» في اليوم التالي وهو يقص قصة الفتى بسؤال بعض «البكوات» الذين كانوا يستطيعون النظر في الأمر، وإيجاد عمل لهذا الفتى البائس!... غير أن مصادفة غريبة حدثت في اليوم التالي...

جاء ليڤي كوهين ـ أو رأفت الهجان ـ في موعده، واحتل نفس المقعد الذي تعود أن يجلس عليه بجوار الباب المطل على شرطي المرور في ركن الشارع... ولقد أحس الفتى منذ خطوته الأولى داخل المقهى بأن كل الأنظار قد اتجهت إليه فأيقن أن «إستانبيلوس» الابن قد قام بمهمته خير قيام، وأن كل رواد المقهى قد عرفوا الآن قصة حياته المزعومة... طلب فنجانًا من القهوة ما إن وضعه الجرسون أمامه حتى اندفع من الباب شخص اتجه نحو ركن اليهود، حيث كانت هناك مجموعة من

بضعة أشخاص انضم إليهم... اختار الوافد مقعدًا واستدار كي يجلس عليه لكنه لم يفعل، حملق فيما أمامه صائحًا:

«مين؟! ليڤي كوهين؟!».

ابتسم الفتى في ترحيب خجول، وتقدم منه «إفرايم سلومون» ـ ذلك اليهودي الذي التقى به في سجن الإسكندرية ـ مرحبًا، فنهض ليڤي كوهين يصافحه في حرارة، همّ إفرايم بالحديث لكن الفتى ضغط على يده ضغطة خفيفة، فانتبه إفرايم وتوقفت الكلمات خلف شفتيه، دعاه الفتى إلى فنجان قهوة فرحب... دار الحديث بينهما عاديًّا، السؤال عن الأحوال وكيف تسير، ثم همسات وغمغمات عن المصريين والحكومة وما تفعله وما تنويه ثم ـ وكأن إفرايم تذكر شيئًا ـ سأل الفتى بغتة:

«همّ كانوا ماسكينك ليه؟».

لم يرد الفتى بل تلفت يمنة ويسرة في تأفف، ثم أمسك بدفة الحديث وراح يشكو الحال قائلًا: إنه يبحث عن عمل منذ أفرج عنه دون جدوى... لكن إفرايم عاد إلى الإلحاح:

«همّ الإنجليز مسكوك في ليبيا ليه؟!».

كانت قصص الصراع بين اليهود في فلسطين وبين جنود الإمبراطورية البريطانية لا تزال تملأ الأذهان، فإسرائيل ـ في ذلك الوقت ـ لم يكن عمرها يتعدى ست سنوات، التفت الفتى نحو إفرايم متسائلا في سخرية:

«همّ الإنجليز بيمسكوا اليهود ليه؟!».

أراد إفرايم الاستطراد في الحديث لكن الفتى نهض وقد بدا عليه الضيق، وضع قرشين على المائدة مستأذنًا بأنه على موعد مع رجل وعده بعمل... ثم رحل عن المقهى مهرولًا وكأنه يفر من شيء غامض!

لم ينتبه رواد المقهى لما حدث، فلقد تلهت كل مجموعة بما كانت

تتلهى فيه كل ليلة... حتى ركن اليهود، كان يبدو على رواده وكأن شيئًا مما حدث لا يعنيهم... أما إفرايم سلومون، فكان عندما عاد إلى المجموعة، شارد الذهن، ينظر إلى حيث انصرف الفتى وقد استغرق في التفكير، وعندما سأله أحدهم:

«إيه الحكاية يا إفرايم؟!».

راح يقص عليهم قصة لقائه بالفتى في سجن الإسكندرية، وكيف حير رجال الشرطة هناك... لقد جاء مرحلًا من ليبيا لكن التهم التي كانت موجهة إليه لم تكن من الإنجليز في ليبيا فقط، بل من أمريكا وإنجلترا وألمانيا وكان البوليس الدولي يبحث عنه... جاء من ليبيا يحمل اسم «ليڤي كوهين» لكنه كان يصرخ ويهدد طالبًا القنصل الأمريكي في الإسكندرية، ولم ينطق كلمة بالعربية إلا معه وعندما انفردا واطمأن أنه يهودي مثله... حاول أن يعرف التهمة الموجهة إليه ففشل، وعندما سأله عنها نصحه الفتى بالابتعاد عنه حتى لا يصيبه الضرر... استمع الرفاق إلى إفرايم جيدًا، ثم قصوا عليه ما استطاع إستانبيلوس أن يستخلصه من الفتى على يد مانولي وكئوسه المجانية فتطابقت الأقوال مع الأقوال، وعندما انفضت الجلسة في آخر الليل، كان الحديث ما زال يدور همسًا بين اليهود حول الفتى ومن يكون... لكن إفرايم سأل فجأة:

«هو بييجي هنا من إمتي؟!».

«من أسبوعين ثلاثة!».

«وبييجي كل يوم؟!».

«وبيقعد لوحده!».

وهكذا انصرفوا جميعًا، وقد ترك الفتى في نفس كل منهم تأثيرًا واضحًا وغامضًا في نفس الوقت!

* * *

في اليوم التالي، وقبل الموعد الذي تعود الفتى أن يرتاد فيه المقهى، كان إفرايم سلومون هناك... كان يبدو عليه الترقب والقلق، حتى إذا هلّ الفتى عند الباب نهض إليه هذا مرحبًا، سائلًا إياه في اهتمام ولهفة لم يحاول إخفاءهما، إن كان قد وجد عملًا بالأمس، فجلس الفتى مكتئب الوجه بادي الإرهاق وهو يقول:

«لو كنت لقيت شغل إيه اللي كان حايجيبني هنا دلوقت؟!».

«إنت عاوز تشتغل إيه؟!».

وتبسم الفتى في سخرية وهو يقول:

«أي حاجة!».

«تشتغل قومسيونجي؟!».

في لهفة استدار الفتى نحوه متسائلًا:

«مع مين؟!».

«مع أخويا!».

وهكذا، تحققت خطوة هامة في الخطة الموضوعة، تحققت قبل أن تكتمل ثلاثة أسابيع!

* * *

كان تاجر الساعات «موريس ليفي» مشهورًا في ميدان العتبة الخضراء باسم «سوسو»، فلقد ناداه أبوه وأمه بهذا الاسم في الصغر فظل ملازمًا له حتى آخر أيام حياته... كانت تجارة موريس رائجة، فرغم أن كل من تعامل معه كان يشكو من حرصه... ويهوديته، فقد كان أمينًا لا يغش أبدًا، مما جعل زبائنه والمتعاملين معه يتمسكون بعلاقتهم به... وكان موريس ليفي هو شقيق إفرايم سلومون ـ فشلت كل المحاولات التي بذلت للبحث عن السبب في اختلاف اسمي الشقيقين، وليس هناك

تفسير سوى ولع اليهود في تلك السنوات بتغيير أسمائهم لأسباب لم تعد خفية!! ـ وكان إفرايم أثناء المشوار الذي قطعه مع الفتى من شارع سليمان باشا حيث مقهى وبار إستانبيلوس، إلى ميدان العتبة الخضراء حيث محل سوسو الساعاتي سيرًا على الأقدام؛ يلح على الفتى كي يعرف منه حكايته، وفي اقتضاب وتذمر قص عليه الفتى نفس القصة التي حكاها للخواجة إستانبيلوس، ولم يكف إفرايم عن الإلحاح، فراح يسأله عن السبب الذي من أجله رحله الإنجليز من ليبيا... هنا توقف الفتى عن السير مستديرًا نحو إفرايم الذي هتف:

«إنت خايف مني يا ليڤي؟!».

«أنا اسمي مش ليڤي!!».

«ما انت قلت لي في إسكندرية!».

«أيوه... بس مش حاقول لك الإنجليز رحلوني ليه».

همّ إفرايم بالحديث فلاحقه الفتى:

«لأن المصريين لو عرفوا حايدخلوني السجن تاني... وأنا تعبت بقى من التلطيم في السجون!».

عادا إلى السير من جديد وقد لفهما الصمت، بعد بضع خطوات كان يغمغم كمن يتحدث إلى نفسه:

«أنا تعبت وعاوز أعيش لحد ما نشوف آخرتها إيه!!».

وهكذا وبهذا المنطق، فلقد وافق فورًا ودون مناقشة، عندما عرض عليه الخواجة سوسو ـ أو موريس ليڤي تاجر الساعات ـ أن يقدمه لتجار الجملة لتسويق بضائعهم، وأن يضمنه عندهم، على أن تكون له نسبة من أرباحه!

وتحققت الخطوة الثانية في الخطة الموضوعة!

* * *

الذي لا شك فيه أن الفتى كان ذا موهبة خارقة في التعامل مع الناس من ناحية، وفي تقمص الشخصيات من ناحية أخرى... فبعد أسابيع قليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، كان قد حقق نجاحًا تجاريًا لافتًا للنظر... كان هناك ـ أولًا وقبل كل شيء ـ تلك المساندة التي ساندها له يهود مصر من التجار الكبار والصغار على السواء، انتشرت قصته بينهم بسرعة غريبة أكدها الفتى بإصراره على عدم الحديث عن هذا الموضوع أو ذكر أي شيء عن اسمه الحقيقي... وكانت هناك ثانيًا براعة الفتى في التأثير على من يلتقي بهم، وإتقانه الشديد لدور المطارد المتخفي، ولقد تحقق هذا في صورة مكتملة عندما قبض عليه ذات مساء وهو جالس في مقهى وبار «إستانبيلوس»!

كان الفتى قد عرف أن هذا سوف يحدث قبل أيام عندما طلب إليه محسن أن يتحصن في الأيام القليلة القادمة بمزيد من الملابس الثقيلة، فلما سأله الفتى إن كان هناك تنبؤ بموجة باردة في الطريق، ضحك محسن قائلًا إن هناك تنبؤًا بموجة من الاعتقالات لبعض اليهود المشتبه في نشاطهم!

لم يكن القبض على اليهود يتم في مصر لمجرد الاضطهاد... وإذا كانت البلاد قد مرت إبان عام ١٩٥٤ بصراع سياسي عنيف، حتى استقر الأمر أخيرًا بإزاحة اللواء محمد نجيب عن القيادة، وتولي الضباط الشبان لأمور الثورة، فلقد كان هناك ـ على الجانب الآخر من الحدود ـ صراع سياسي من نوع آخر منذ استقالة «ديفيد بن جوريون» من رئاسة الوزارة الإسرائيلية ووزارة الدفاع في عام ١٩٥٣، وتولي موشي شاريت رئاسة الحكومة، وبنحاس لافون وزارة الدفاع... كان بنحاس لافون تواقًا لأن يصنع شيئًا ويثبت وجوده في مواجهة خصومه السياسيين، وكانت إسرائيل في ذلك الوقت تبذل قصارى جهدها كي تدمر أي علاقة بين الضباط الشبان، وخاصة ذلك البكباشي الشديد الوطنية والاعتزاز بوطنه

جمال عبد الناصر، وبين الولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة بعد أن أصدر عبد الناصر أوامره بمنع السفن الإسرائيلية من المرور في خليج العقبة... كان واضحًا أن مجموعة الضباط الشبان ليسوا من هذا النوع من الحكام الذين عرفتهم مصر قبل الثورة، وعلى هذا فلقد قرر لافون الاستعانة بـ«مجموعة للعمليات الخاصة» من الجيش الإسرائيلي كي تدمر بعض المنشآت الأمريكية في القاهرة... ولقد وصلت المجموعة إلى القاهرة فعلًا، ونفذت العملية التي اشتهرت فيما بعد تاريخيًّا باسم «فضيحة لافون»، لكن الشرطة المصرية استطاعت أن تقبض على أفرادها، وأن تكشف اللعبة بكاملها... وهكذا توتر الجو بين الحكومة المصرية وبين اليهود المقيمين في مصر، وخاصة هؤلاء الذين لم يكونوا يحملون الجنسية المصرية... ولهذا فلقد تعددت حملات الاعتقال لليهود في أواخر هذا العام، وكان يتم ترحيل غير المصريين منهم، بينما اليهود المصريون كانوا ـ إذا ما قبض عليهم وأفرج عنهم ـ يتقدمون فورًا بطلبات للهجرة، منها ما كان يقبل، ومنها ما كان يُرفض لأسباب أمنية!!

كان الفتى قد أصبح يكسب ما يكفيه من المال، وعن طريقه كان «سوسو» تاجر الساعات يجني أرباحًا هو الآخر دون جهد يبذله، وتوطدت علاقة الفتى بعدد كبير من يهود مصر، أصبح يعرفهم ويعرفونه، وعقد بضع صداقات مع بعض التجار... ولقد دعاه أحدهم ذات مرة إلى العشاء مساء يوم الجمعة فرفض في غضب، قال إن «السبت» يبدأ في مغرب الجمعة وينتهي في مغرب السبت، وعرف الجميع أنه متدين حقًّا، وأنه لا يذهب إلى المعبد لمجرد التظاهر فقط كما يفعل الكثيرون... كان الفتى ـ في البداية ـ يتردد على المعبد بغير انتظام وعندما بدا أن أحواله قد استقرت، راح يتردد عليه بانتظام، ويتحسس الطريق إلى أصول العبادة عند اليهود، ويقرأ في التوراة ويتعرف على المذاهب... وهكذا ذاع صيته بينهم واشتهر أمره حتى كان ذلك المساء:

كان رأفت يجلس في مقهى إستانبيلوس كعادته، وبجواره يجلس إفرايم سلومون يجاذبه أطراف الحديث، كان حادثة تفجير بعض المنشآت الأمريكية بواسطة ثلاثة من مجموعة العمليات الخاصة الإسرائيلية لا تزال تزكم الأنوف، كان الفتيان الثلاثة ـ أفراد المجموعة ـ قد حوكموا وحكم عليهم بالإعدام... وكان طبيعيًا أن يتحول أمثال هؤلاء إلى أبطال أسطوريين بالنسبة لليهود، كما كانت الإيماءات التي ألقاها رأفت على مسامع إفرايم قد ألهبت خياله، فراح يطارد الفتى ـ كلما التقى به ـ بسؤاله عن حقيقة اسمه وعما فعله بالإنجليز في المغرب، عندما توقفت سيارة «البوكس» ـ وهو الاسم الذي كان يطلق على نوع معين من سيارات الشرطة يجمع فيه المعتقلون ـ أمام المقهى، وهبط من «البوكس» ضابط وبضعة جنود ألقوا القبض على رأفت وإفرايم معًا.

بدا الفتى رابط الجأش في مواجهة المعاملة القاسية والسيئة التي كان يلقاها من الجنود والضابط بشكل خاص... بينما كان إفرايم ـ الذي لم توجه إليه تهمة أو إهانة أو سؤال ـ يرتعد فرقًا... لم يحملهما «البوكس» إلى القسم كما هي العادة، بل حملهما إلى وزارة الداخلية حيث أودعا غرفة منعزلة جلسا فيها قرابة ساعتين دون أن يفتح الباب أو يوجه إليهما سؤال... بجوار نافذة مطلة على الطريق وقف الفتى محملقًا في الشارع بادي السهوم، اقترب منه إفرايم مرتجفًا وهو يسأله لم جاءوا بهما إلى الوزارة وليس القسم كما هي العادة؟... استشعر إفرايم المسكين خطرًا داهمًا في مصاحبة هذا الفتى الصامت، راح يلح عليه متسائلًا عما سيفعلونه بهما، ظل رأفت صامتًا لفترة ثم استدار نحو إفرايم قائلًا في صوت خافت:

«اسمعني كويس، لو حصل لي أي حاجه، لازم تعرفوا أنا مين!».

وصل إفرايم إلى ذروة الاستثارة.

«أنا اسمي ياكوف حنانيا!».

ساد الصمت بينهما لثوان، عاد رأفت بعدها يغمغم:

«اسمي ياكوف بنيامين حنانيا».

لفهما الصمت مرة أخرى ثم جاء صوت الفتى:

«أنا مولود هنا أنا وأختي، أبويا قبل الحرب هاجر بينا على المغرب لكن الألمان اصطادونا هناك!».

التمعت عيناه الآن ببريق مخيف وهو يقول من بين أسنانه:

«لكن يا إحنا يا همّ... يا إحنا يا همّ!».

ثم لم يقل الفتى شيئًا بعد هذا، عاد إلى صمته، كما كان إفرايم هو الآخر قد غرق في الصمت لكن صدره كان يغلي بالتساؤلات عمن يكون «ياكوف بنيامين حنانيا» هذا، وما الذي يفعله أو سيفعله، صفق قلبه طربًا وزايله الخوف فهو الآن في صحبة بطل لا يستهان به... انتصف الليل فطلب الاثنان للمثول بين يدي ضابط شرطة كان في انتظارهما يقلب أمامه في الأوراق، ألقى على كل منهما أسئلة تبدو تقليدية، لكنه توقف عن السؤال وهو يرفع عينيه نحو الفتى ساخرًا:

«قلت لي بقى اسمك إيه؟!».

«ليڤي كوهين يا سعادة البيه!».

نهض إليه الضابط مستفزًّا وهو يصيح:

«ليڤي كوهين والا جون دارلنج؟!».

نطق الضابط باسم «جون دارلنج» فكاد إفرايم سلومون يسقط مغشيًّا عليه، كان في هذا الاسم الإجابة على تساؤلات إفرايم وغيره من اليهود ممن كانوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم عمن يكون ليڤي كوهين؟!

* * *

في تلك السنوات كان «جون دارلنج» هذا قد تحول وسط يهود مصر إلى أسطورة من الأساطير... كان اسمه الحقيقي ـ الذي لم يعرفه أحد إلا بعد سنوات ـ هو «إبراهام دار»، وهو واحد من عملاء إسرائيل الشديدي الخطر، تخصص وبرع في أعمال التجنيد والتخريب والتجسس وتهريب الأموال وتهجير اليهود إلى إسرائيل.

جاء إبراهام دار ـ أو جون دارلنج ـ إلى مصر لأول مرة في عام ١٩٥٢، وكان كل هم إسرائيل هو استجلاب أكبر عدد من يهود العالم، وتجنيد الشبان منهم في البلاد التي يرتعون في خيرها وينتمون إليها لأعمال التخريب أو التجسس... في مصر التقى إبراهام دار بفتاة يهودية هي «مارسيل نينو» ووقع كل منهما في حب الآخر، واستطاعا معًا القيام بعدد لا بأس به من العمليات السرية، وتهريب جزء كبير من ثروات اليهود المصريين إلى الخارج، بل... وتجنيد بعض شباب اليهود الذين يتمتعون بالجنسية المصرية، وإرسالهم سرًّا إلى إسرائيل كي يتدربوا فيها على أعمال التخريب بالذات، ثم إعادتهم إلى مصر مرة أخرى... وكان من ضمن الشبان الذين جندهم إبراهام دار الجاسوس الإسرائيلي الشهير «إيلي كوهين» الذي ولد في مصر، وزرع في أمريكا الجنوبية وأعدم في ميدان عام في دمشق، بعد ذلك بعشر سنوات بالضبط!

وبلا لف أو دوران دوخ «جون دارلنج» الشرطة المصرية وشرطة بعض بلدان أوربا دون أن يتمكنوا من القبض عليه... لم يكن أحد يعرف وقتها من هو، ما شكله، وما اسمه الحقيقي، وكيف يبدو؟... لكن قصصه كانت تملأ آذان اليهود ورءوسهم!

* * *

في تلك الليلة أفرج عن «إفرايم سلومون» واستبقي رأفت الهجان ـ أو ليڤي كوهين ـ في الحبس!

غادر إفرايم مبنى وزارة الداخلية، ليصبح ليڤي كوهين قبل أن يطلع

النهار أسطورة الجالية اليهودية كلها، وشهد مبنى وزارة الداخلية أسرابًا من الفتيات اليهوديات وهن يحملن الطعام والملابس والحلوى لرأفت الهجان، أو ليڤي كوهين، أو ياكوف بنيامين حنانيا... الذي ربما يكون هو نفسه «جون دارلنج»!!

ونحن لا نستطيع الجزم بأن ضابط الشرطة عندما نطق باسم «جون دارلنج» أمام إفرايم سلومون قد نطقه عفوًا ـ كما يؤكد عزيز الجبالي في أوراقه نقلًا عن محسن ممتاز ـ أو أنه قد لُقن بشكل ما وربما بأسلوب غير مباشر أن يذكر الاسم منسوبًا إلى الفتى... وعلى كل الأحوال، وإذا كان الأمر مصادفة أم إنه كان مدبرًا، فلقد انفجر هذا الذي حدث في أوساط اليهود في مصر انفجارًا مدويًّا، وأصبح الفتى بين يوم وليلة بطلًا يهوديًّا قوميًّا!

وتحققت الخطوة الثالثة في خطة محسن ممتاز!

* * *

عندما خرج رأفت من الحجز بعد بضعة أيام، كان يبدو منهكًا مجهدًا، لكنه استقبل من الجالية اليهودية بالقاهرة استقبالًا فاق كل التوقعات، وفتحت له كل الأبواب، ووجد ترحيبًا من الجميع، وعروضًا سخية، لكنه بصرامة المناضل، رفض الارتكان إلى الآخرين، وعاد يمارس عمله كقمسيونجي رغم أنه قدم ـ مثله مثل كل اليهود المصريين الذين يقبض عليهم ـ طلبًا للهجرة، ولكن الطلب رفض، وأحدث رفض الطلب دويًّا آخر وسط الجالية، وارتفعت أسهم رأفت أكثر!

في تلك الأيام كم ضحك محسن ممتاز مع حسن صقر وهما يتحدثان عن الحسان اللواتي التففن حول الفتى في تهافت وتهالك جعلاه يشعر بالامتلاء، فلقد كانت نقطة ضعف الفتى هي النساء!

في أواخر عام ١٩٥٤ انتحر واحد من أفراد مجموعة العمل الخاصة

الذين قبض عليهم في عملية لافون، وفي مستهل عام ١٩٥٥ نفذ حكم الإعدام في الاثنين الآخرين... فارتفعت أسهم الفتى وذاع اسمه في كل مكان وتخطى هذا الاسم ـ بالتأكيد ـ الحدود إلى الخارج، وتكرر إلقاء القبض عليه، وتكرر تقديمه لطلبات الهجرة وتكرر الرفض!

حتى كان يوم دخل فيه رأفت إلى إحدى الوكالات الكبيرة في شارع الأزهر، كان صاحب الوكالة واحدًا من أثرياء اليهود الذين يشار إليهم بالبنان، وكان رأفت ذاهبًا لعمله عندما قيل له إن «الخواجة» يريد أن يراه!

كان الفتى قد تعود ألا يطلب أحدًا من كبار اليهود مهما كان الأمر، هو يذهب إلى الوكالة أو المحل فيحاسِب ويحاسَب وينهي عمله مع الموظفين ويعقد معهم الصفقات ثم يغادرهم حاملًا حقيبته المكدسة بالعينات والبضائع... ولم يكن قد التقى بهذا الخواجة من قبل سوى مرة واحدة وكانت مصادفة، ورغم صيته المدوي فلقد تجاهله الخواجة بدوره... في ذلك اليوم تظاهر أمام الموظفين بالدهشة وإن كان قلبه يزغرد بالفرحة، كان محسن يقول له إن «واحد من الكبار» لا بد أن يطلب مقابلته ذات يوم، وها هو ذا الواحد يطلبه فيتبع الموظف وسط بالات الأقمشة وصناديق البضائع المكدسة في الممرات والحوش الخلفي للوكالة، حتى نفذ من باب إلى ممر شبه مظلم في نهايته باب نقر عليه الموظف في رفق ثم دلف إلى الداخل وانتظر الفتى في الخارج، سمع همهمة جاء بعدها صوت رفيع حاد ثاقب يقول:

«خليه يدخل».

ظهر الموظف عند الباب مفسحًا الطريق لرأفت الذي خطا إلى غرفة واسعة قد امتلأت ـ رغم قدم الجدران البادي ـ بكل ما هو ثمين... سمع صوت الباب يغلق من خلفه في رفق، وقعت عيناه على رجل صغير

الحجم حتى لكأنه يتلاشى غارقًا في المقعد الهائل خلف مكتب كبير المساحة، ثقب صوت الرجل الحاد أذنه:

«تعالى يا ياكوف اقعد قدامي هنا علشان أشوفك كويس!».

اضطرب قلب الفتى فها هو اسمه الحقيقي المزعوم يكرس عند قمة المجتمع اليهودي في مصر، وها هي كل توقعات محسن ممتاز تتحقق... في تؤدة من يعرف قدر نفسه خطا الفتى نحو مقعد مواجه للمكتب وهم بالجلوس عليه، لكن الصوت الحاد عاد يثقب أذنه:

«لأ مش هنا... تعالى على الكرسي ده علشان أشوفك كويس!».

على المقعد الذي أشار إليه الرجل جلس رأفت في مواجهة مصباح كهربائي كبير فوق المكتب، غمر الضوء وجهه والتفت نحو الرجل الذي كان وجهه يقع عند أطراف دائرة الضوء فإذا به عجوز تجاوز الستين، وإذا عيناه زرقاوان باردتان كالثلج، راح الفتى يتملاه كما كان الرجل يحملق في وجهه في صمت... إذن فهذا هو الخواجة «صروف» ثعلب التجارة في الأزهر والموسكي المشهود له بالكفاءة من الجميع... عاد الصوت يثقب سكون الغرفة:

«إنت مين؟!».

ركض قلب الفتى بين ضلوعه، فها هو يواجه امتحانًا عسيرا، ابتسم ساخرًا وهو يقول:

«ما انت ناديتني باسمي يا خواجه!».

انغرست نظرات الرجل الثلجية في لحمه ولم ينطق، فعاد الفتى يقول:

«ياكوف بنيامين حنانيا!».

ازداد بريق العينين الثلجيتين ولزم الرجل صمتًا ثقيلًا جثم على

صدر الفتى فأخرج سيجارة وأشعلها وراح يتلهى بما في الغرفة من أثاث وتحف، طال الصمت لدقيقة وبعض دقيقة حتى داخل الفتى قلق غامض، أحس ـ لسبب ما ـ وكأن الأرض تنفتح تحت قدميه إلى هوة بلا قرار، لمعت في ذهنه حقيقة غابت عنه، فهل غابت عن محسن أيضًا؟!... إذا كان أبوه المزعوم الخواجة «بنيامين حنانيا» تاجرًا متجولًا في ريف مصر، فإنه بالقطع كان يشتري بضائعه من أمثال هذه الوكالة وهذا الخواجة «صروف» المحملق فيه المتمعن في ملامحه، الدارس لوجهه... فهل كان الخواجة يعرف أباه المزعوم؟!

«أنا قلت لأبوك يقعد هنا أحسن له، مارضيش يسمع الكلام!».

دق قلب الفتى في عنف أوجع ضلوعه، اجتاحته سعادة بالغة عقدت لسانه تمامًا، كان يعلم علم اليقين أن جملة الخواجة «صروف» هي جواز سفره إلى عالم اليهود المجهول والغامض... وعندما كان يغادر الوكالة إلى شارع الأزهر بكل ضجيجه وأصواته، كان يشعر بالزهو يملؤه... كان يعرف الآن أنه اجتاز الامتحان الصعب، بتفوق لا شك فيه!

* * *

وهكذا... عندما التقى الفتى بمحسن في ذلك المساء من أمسيات الأيام الأخيرة من يناير عام ١٩٥٥، في تلك السيارة السوداء ـ الأمريكية الصنع ذات الماركة التي اشتهرت في مصر في تلك الأيام ـ كان يحمل معه هذا النبأ وهو يكاد يرقص طربًا وفرحًا وفخرًا... وكان أيضًا يحمل طلبًا محددًا!

ولقد فشلت كل المحاولات لمعرفة الأماكن التي كان محسن يلتقي بالفتى فيها غير السيارة... لكن الأمر المؤكد أن محسن ـ في نفس تلك الليلة ـ كان يحمل هو الآخر إلى الفتى خبرًا هامًا... وكان الخبر في حاجة إلى حوار قد يطول، ومواجهة قد تلزم، لذلك... فلقد قاد محسن السيارة في دورة مركبة، حتى إذا أصبح في ميدان «سانت فاتيما» الشهير بمصر

الجديدة، انحرف يمينًا واتخذت السيارة في الشارع المرصوف ـ الخالي إلا من بضع عمارات متناثرة تفصل بينها مساحات خالية من الأرض الصحراوية ـ مسارها في سرعة راحت تتباطأ تدريجيًا حتى وصلت إلى بيت في آخر الشارع مكون من طابقين فقط...

في الطابق العلوي من هذا البيت استقبلهما «عم عبده» بحرارة ناعسة، فلقد كان الرجل نائمًا عندما وصلا، صنع لهما كوبين من الشاي ثم استأذن لمشوار يشتري فيه بعض اللوازم، وانصرف.

كان رأفت قد تعود أن يحمل معه، كلما كان على موعد مع محسن، تقريرًا عما فعله وعما حدث طوال الأيام التي انقضت منذ لقائه الأخير به... وكان محسن في كل مرة يضع التقرير في جيبه ثم يطلب إلى رأفت أن يقص عليه ما حدث بالتفصيل... كانا طوال الطريق صامتين، وبينما كان الفتى يبدو قلقًا متعجلًا يريد أن يفضي بما لديه من أنباء عن لقائه بالخواجة صروف، كان محسن يبدو صامتًا جامدًا كتمثال... وعندما انصرف «عم عبده» أخرج رأفت التقرير وقدمه إلى محسن قائلًا:

«دلوقت أقدر أقول لك إني جاهز!!».

دس محسن التقرير استعدادًا لجولة طويلة من حوار كان يعلم مدى مشقته:

«جاهز لإيه؟!».

في زهو صاح الفتى:

«جاهز إني أجيب لك أخبار اليهود اللي في مصر واحد واحد!».

انتظر الفتى أن يدهش محسن، أن يسأله عما حدث وماذا يقصد... وكان محسن الآن يجد نفسه مدفوعًا نحو الهدف دون تمهيد، بل لقد رأى الفرصة تسنح وكان لا بد من انتهازها فقال:

«مش ده اللي أنا عاوزه منك!».

لم يخف الفتى دهشته:

«مش فاهم!».

«أنا مش عاوز منك أخبار اليهود اللي في مصر!».

هبط السكون ثقيلًا على الغرفة، كانت عينا محسن مسددتين إلى عيني الفتى، وكان هذا يقدح ذهنه بعنف في محاولة يائسة للفهم، عاوده ذلك الإحساس بأن ثمة هوة تفغر فاها تحت قدميه:

«برضه مش فاهم!».

«أنا عاوز منك أخبار اليهود اللي في إسرائيل يا رأفت!».

* * *

قال الفتى فيما بعد إنه أحس في تلك اللحظة أن يدًا تعتصر قلبه اعتصارًا، فلقد كانت هذه هي المرة الأولى ـ منذ أن التقى بمحسن ممتاز في قسم الزيتون ـ التي يسمع فيها اسمه الحقيقي من فم محسن، كان قلبه يركض الآن بعنف، وكان لسانه معقودًا، ورأسه خاليًا من كل شيء وأي شيء... فقط، وجه محسن المنحوت في صخر من مسئولية جسيمة والذي أشعل سيجارة في هدوء وهو ينهض سائرًا في الغرفة جيئة وذهابًا، لم تكن هذه عادة محسن مع الفتى لكنه الآن كان يفكر في عمق ويتحسس الطريق في حذر:

«أنا مش عاوزك ترد على طول، أنا عاوزك تفكر كويس!».

لم يرد الفتى، تعلقت عيناه بمحسن وهو يشعر بوزنه يخف ويخف وكأنه يسبح في فضاء:

«إذا لقيت نفسك ـ بعد التفكير ـ مش حاتقدر، ما يهمكش، إنت ممكن تخدم مصر وإنت فيها برضه!».

في لوعة من لا يصدق هتف الفتى باسمها:

«مصر؟!».

«أيوه يا رأفت... بس اللي أحب أقول لك عليه، إن مصر محتاجة لك!».

«وأنا رقبتي سدادة!».

قالها الفتى في بساطة تجرح القلب... هتف محسن متقدمًا إليه:

«لأ... أنا عاوزك تفكر!».

«باقول لك رقبتي سدادة!!».

«يا رأفت...».

انتفض الفتى واقفًا مواجهًا إياه:

«أنا اسمي ليفي كوهين يا محسن بيه، واسمي الحقيقي اللي ناداني بيه النهارده الخواجة صروف صاحب وكالة صروف وشركاه اللي في الأزهر هو ياكوف بنيامين حنانيا!».

حملق محسن في وجه الفتى، كأن الخبر الذي زفه إليه الآن مهولًا، جمد لثوان فهو يعرف الخواجة صروف جيدًا ويعرف مقداره وسط أفراد الجالية، تقدم من مقعده وجلس في مواجهة الفتى قائلًا:

«اقعد يا رأفت وقول لي إيه اللي حصل».

«طلع إنه يعرف أبويا!!».

من المستحيل أن تصل دقة التخطيط إلى هذا الحد... عاد رأفت يقول:

«وقبل أبويا الخواجة بنيامين حنانيا ما يسافر، صروف نصحه إنه ما يسافرش وإنه يفضل في مصر لكن هو اللي ركب راسه!».

كانت كلمات الفتى ثمينة كاللؤلؤ!

«أنا أصلي النهارده الصبح رحت الوكالة أورد قرشين واستلم طلبية وشوية عينات، لقيتهم بيقولوا لي إن الخواجة صروف عاوزني!!».

و... وراح الفتى يقص على محسن ممتاز نتيجة جهد تواصل بالليل والنهار لستة أشهر كاملة!

* * *

كان الفتى شامخًا لدرجة أعجزت محسن ـ فيما بعد ـ عن التعبير عما كان يراه... كان وهو عائد إلى بيته ـ في تلك الليلة المشهودة ـ يفكر في هذا الفتى الذي لم يجد من أهله ووطنه إلا الأذى، ورغم هذا فما أن سمع أنهم ـ الأهل والوطن ـ في حاجة إليه، حتى وضع رأسه على كفه!

يا لهذا الوطن الذي ينتمي إليه!!...

في بعض الأحيان كان يشعر بأنه يعمل حتى الموت، وأنه شارك في صنع ثورة، وأنه يشارك الآن في صنع مستقبل لأمة... وإذا بفتى أفاق اهتصره الزمن والعمر القليل السنوات اهتصارًا... يعطي للوطنية والفداء قيمًا أكبر بكثير مما كان يظن أو يفكر أو يحس!

ولقد أوى محسن إلى فراشه لكنه لم يستطع النوم... كان جسده مكدودًا، وعظامه تؤلمه بعد عمل يوم شاق، لكن عقله كان صاحيًا!... نهض من الفراش وغادر غرفة النوم إلى غرفة المكتب ففاجأه رنين جرس التليفون، نظر إلى الساعة وكانت تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل ولا بد أن المتحدث هو زميله ورئيسه وصديقه حسن صقر، ولا بد أن فكرة طرأت له، أو أن هناك عملًا يريد منه أن يؤديه في الصباح الباكر وبشكل عاجل... رفع سماعة التليفون فانقطع الرنين وعاد السكون يلف البيت من جديد:

«ألو...!!».

«سعادة اللواء محسن ممتاز؟!».

جاء الصوت جادًّا كل الجد فانتفض، لم يكن محسن ممتاز لواء في ذلك الوقت وهو لم يصل إلى رتبة اللواء في حياته أبدًا... استشعر الخطر وفي نفس الوقت استشعر الحذر فقال:

«أنا محسن... مين بيتكلم؟!».

«لا مؤاخذة يا افندم. لحظة سعادتك معايا!».

ثوان وجاءه صوت رأفت عبر السماعة:

«مساء الخير يا آبيه محسن!».

«مين بيتكلم؟!».

«أنا رأفت الهجان!!».

صرخ صوت في داخل محسن أن كارثة توشك أن تهدم كل شيء، فكيف يذكر الفتى اسمه الحقيقي في التليفون؟!... طال الصمت لثوان عاد بعدها الفتى يقول:

«أنا رأفت الهجان يا آبيه!».

«إنت بتتكلم منين؟!».

«من نقطة كوتسكا!».

كانت نقطة شرطة كوتسكا لا تبعد عن مقهى إستانبيلوس سوى بضع عشرات من الخطوات، وكان معنى تواجد الفتى في نقطة الشرطة القريبة من مركز انطلاق الفتى أن كارثة قد وقعت.

«إيه اللي وداك النقطة؟».

وكان الذي حدث شيئًا بسيطًا، لكن كان كفيلًا بهدم كل شيء!

الفصل العاشر

ديڤيد شَارل سَمْحُون

يعُود إلى الحيَاة

عندما افترق الفتى عن محسن في تلك الليلة، كان مفعمًا بأحاسيس لا قبل له بها... بدا له الأمر كنوع من الهلوسة... كان معنى ما سمعه من محسن ممتاز أن عليه أن يسافر إلى إسرائيل، وأن يعيش في قلبها يهوديًا إسرائيليًا مؤمنًا بالصهيونية، أن يقطع كل صلة له بمصريته، بل أن يحاربها في الظاهر!... فهل يستطيع؟!

كانت دهشته بالغة عندما وجد محسن يقف أمام موافقته السريعة على السفر موقف المعارض، وهو لا يدري ـ في الحقيقة ـ كيف وافق، وكيف ـ حتى وهو وحيد في جوف الليل يستمع إلى عجلات المترو الرتيبة وهي تحمله من أطراف المدينة إلى وسطها ـ أنه لا يزال موافقًا رغم كل ما يكتنف الأمر من مخاطر مؤكدة وليست محتملة!

وهو لا يدري لم الحماس المتأجج في صدره للسفر وحتى... حتى عندما سأل محسن في لحظة أثناء الحوار عما يمكن أن يحدث له في إسرائيل لو أنهم اكتشفوا أمره... وعندما ابتسم محسن وهو يقول إنهم لا يمكن أن يكتشفوا أمره لو أنه اتبع التعليمات بدقة ولم يتمرد

عليها وكان حريصًا في تصرفاته مفتوح العينين في علاقاته... عاد الفتى يلح:

«يا محسن بيه جلّ من لا يخطئ... افرض... افرض إني غلطت وانكشفت... حايعملوا فيَّ إيه؟!».

في صرامة واستقامة قال محسن:

«ممكن يعدموك!!!».

قال الفتى فيما بعد إنه عندما سمع ما سمع لم يفكر كثيرًا في الأمر، بل إنه حاول أن يفكر، بل حاول ـ في بعض اللحظات وأمام محسن شخصيًا ـ أن يتراجع، لكنه لم يستطع، كان يشعر وكأن قدرًا مجهولًا يدفعه دفعًا إلى الذهاب إلى هناك... لم يكن الفتى سياسيًا ولم يكن بالتالي مهتمًا بالسياسة وربما كان أيضًا لا يفهم في السياسة ولا يريد، لكن الذي قرأه وسمعه عما فعله اليهود بالعرب في فلسطين كان يستفز ـ على حد قوله ـ الحجر الأصم!!... ثمة شيء آخر كان يحز في نفس الفتى، هو ذلك العداء الغريب الذي كان يستشعره من بعض يهود مصر، رغم أنهم مصريون، نحو المصريين... كان قد عاش حياته منذ أن ولد ووعى وعرف وتعلم في المدرسة ولعب في الشارع ومع أقرانه، لا يفرق بين مسلم ومسيحي أو يهودي... كان اليهود في مصر مثلهم مثل الآخرين، يعملون ويكسبون المئات أو الألوف وبعضهم يكسب ملايين الملايين... كانوا شطارًا وكان ـ كالجميع ـ يتندر بشطارتهم... كانوا حريصين، وكان حرص اليهود مثار تندر العالم كله لا المصريين أو العرب وحدهم!... ولكنه، وعندما بدأ خطوته الأولى في عمليته هذه، وتسلل إلى صفوفهم كواحد منهم، راح يكتشف كل يوم ذلك الحقد الدفين على كل ما هو مصري وتلك الكراهية المتأصلة لكل ما هو عربي!

ولقد استفزه هذا، وربما استشعر مما رآه منهم خطرًا عظيمًا على بني وطنه، فلم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة، قال لمحسن:

«إذا كانوا بيكرهونا بالشكل ده وهم هنا... أمال لما يروحوا هناك حايكرهونا إزاي؟!».

كان يحاول الهروب من المناقشة مع محسن الذي عاد يلح:

«برضه أنا مش عاوزك تاخد قرار دلوقت يا رأفت».

كان سعيدًا سعادة غامرة وهو يسمع اسم «رأفت» من محسن بالذات

«يا محسن بيه أنا أخدت القرار وخلاص!».

«إذا كنت فاكر إن عدم موافقتك ممكن ترجعك السجن تاني تبقى غلطان!».

حاول أن يرد لكن محسن أوقفه بإشارة من يده وهو يميل نحوه:

«لازم تفهم إن اعتبارك حايترد لك سواء وافقت على السفر لإسرائيل أو لأ!».

تقدم منه خطوة، وضع يده فوق كتفه في حنان واستطرد:

«كل اللي حصل قبل كده حايتنسي تمامًا وكأنه مكانش، وإذا حبيت تبدأ في مصر، حاتبدأ وصحيفة سوابقك نظيفة تمامًا!».

كان الفتى يشعر بسعادة حقيقية وفياضة وهو يستشعر ذلك التحرر من جرائم ظلت تطارده بذنب وبدون ذنب، وها هي الفرصة تأتيه على طبق من فضة كي يبدأ من جديد، ولكن... ولكنه كان قد اتخذ قراره وانتهى الأمر!

وعلى كل...

فلقد تركه محسن كي يفكر على مهل وما زال هناك متسع من الوقت إن هو أراد أن يتراجع... ولقد كان محسن يعلم أن إلصاق اسم «جون دارلنج» بالفتى قد صنع له وسط اليهود مكانة لم يحلم هو نفسه بأن يصل إليها بهذه السرعة... راح يضع معه خطة لما هو قادم من أيام... عليه

أن يتغلغل أكثر، يتغلغل لما هو أبعد وأعمق... إن العصابات اليهودية منتشرة دوليًا وهي تستعمل كل الأساليب الشريفة وغير الشريفة كي تنهب تلك الأموال، إن تهريب أموال اليهود من مصر محاولة لهز الاقتصاد المصري... وما «جون دارلنج» هذا إلا مغامر صهيوني تخصص في تهريب اليهود والأموال معًا، لا أحد يعرف اسمه الحقيقي ولا جنسيته ولا كيف يبدو... تضاربت الأقوال من حوله ولكن يحميه أن اليهود في كل مكان يشكلون له سواتر تقيه المطاردة الحقيقية أو انكشاف أمره في أية دولة كانت... لم تكن الشرطة المصرية وحدها هي التي تسعى خلف «جون دارلنج»، بل الشرطة في عديد من بلدان أوربا أصبحت تطلبه وتطارده... وعلى ذلك، فمطلوب من رأفت ألا يتمادى في انتحال شخصية «جون دارلنج»، بل لا بد له أن ينفي هذا بعنف، إن نفيه سوف يزيد إيمانهم بأنه هو!

المهم الآن، وفي الأيام القادمة، أن يكون الفتى شجاعًا معهم، مخلصًا لقضيتهم، وأن يشترِك في تهريب أموالهم إلى الخارج... سوف يضع له محسن خططًا تساعده في تهريب كميات بسيطة من المال كي يتحول بعدها إلى موضع ثقة بلا حدود... ثم يصبح عليه بعد هذا أن يشارك في الصفقات الكبيرة، التي تطمع الدولة في ضبطها حتى لا تخرب في اقتصادنا وتزيدنا فقرًا على فقر... ولسوف يسجن مرة أخرى وثالثة ورابعة وعليه أن يحتمل مهما بلغت المضايقات، فلقد اختفى اسم «رأفت علي سليمان الهجان» من سجلات الشرطة تمامًا، ولكن هناك ـ في تلك السجلات ـ ملفًا مكتظًا لشخص أصبح شديد الخطر في عرف رجال الأمن، هذا الشخص هو: «ياكوف بنيامين حنانيا».

«يا نهار اسود!».

«إيه ما لك؟!».

«هم عرفوا الاسم ده؟!».

«طبعًا، إنت فاكرهم بيلعبوا؟!».

عليه أن يترك نفسه لقدره فيما بين اليهود، وأن يستسلم لهذا القدر استسلامًا كاملًا، ثم... عليه أن يحذر وأن يحرص أشد ما يكون الحرص من علاقاته التي تعددت وتشعبت مع فتياتهم!

«يا سعادة البيه... ... ...».

قاطعه محسن في صرامة:

«تقدر تنكر ده؟!».

ابتسم رأفت في حياء:

«لأ ما انكرش بس... ... ...».

قال الفتى هذا لكنه لم يكمل حديثه، كانت نظرات محسن الآن تعريه من ملابسه...

«لازم تعرف يا رأفت إن دي نقطة ضعف ممكن توديك في داهية!».

اتسعت ابتسامة الثقة على وجه الفتى هاتفًا:

«ما تخافش عليّ يا محسن بيه، أنا برضه ... ...».

«إنت إنسان أولًا وأخيرًا، والمغريات كتير حواليك، وممكن تقع في الحب!!».

صاح رأفت:

«أهو ده اللي مش ممكن يحصل!».

«إزاي؟!».

«لأني لو فرض وحبيت واحدة، حاجبها وهي فلانة بنت الخواجة

فلان، حاحبها هي... لكن هي حاتحب واحد تاني غيري، حاتحب ياكوف أو ليفي مش رأفت... إزاي أحب واحدة بتحب واحد تاني؟!».

مرة أخرى يجد محسن نفسه أمام منطق حكيم لا يتناسب مع سن الفتى وإن كان يتناسب مع خبرته الأليمة بالحياة، فلاذ بالصمت لثوان، ثم غير مجرى الحديث!

* * *

صدر عن «فراو سمحون» - في جلستها أمام عزيز الجبالي في تلك الغرفة المتواضعة الأثاث في مبنى المخابرات العامة المصرية، - أنين أوقف عزيز عن الاسترسال في الحديث، رفع رأسه نحوها وكانت عيناها تلتمعان بدمع حائر... بدت نظرة عزيز متسائلة، فابتسمت هيلين وهي تخرج منديلًا رقيقًا من حقيبة يدها جففت به الدمع وهي تقول:

«هر جبالي... إن ما تقصه عليّ الآن يفسر لي الكثير مما كان يبدو لي غامضًا!».

قال عزيز:

«أرجو ألا أكون قد نكأت جراحًا كادت تندمل؟!».

«عندما أنجبنا طفلنا الأول، كان ديفيد، أقصد رأفت، سعيدًا سعادة بعثت بالدهشة إلى نفسي... لكنه في نفس الوقت كان يبدو قلقًا بصورة أزعجتني، ولقد سألته عن سر قلقه فلم يجب بشيء... لكنه كان يردد بين الحين والحين سؤالًا بدا لي غريبًا، وكان يردده في حيرة، وأحيانًا في توسل... كان يسألني إن كنت أحبه حقًّا؟!... في الوقت الذي كنت أذوب فيه حبًّا إذا ما لمستني أطراف أصابعه!!».

اختنق صوتها بدمع كان يتدافع إلى عينيها، وطال بينهما الصمت لدقائق حتى استردت هيلين نفسها، فقالت:

«لنعد إلى ما كنا فيه، فلست راغبة في أن آخذ من وقتك أكثر مما تعطيني!».

ولم يرد عزيز احترامًا لذكرياتها، وعاد إلى الحديث مرة أخرى.

* * *

قال الفتى فيما بعد يصف حالته بعد أن ترك محسن في تلك الليلة إنه كان يشعر بثقة لا حدود لها، أحس أن الدنيا تصالحه أخيرًا، وكان... ولأول مرة في حياته يشعر بهذا الفخر الزاهي يغمره... بدت له شوارع القاهرة وكأنها جديدة تلمع... ازداد إحساسه بهذه الجدة وهو يغادر قطار المترو في وسط المدينة ويقطع الطريق من شارع عماد الدين إلى شارع سليمان باشا حيث مقهى وبار إستانبيلوس سيرًا على الأقدام... أخيرًا، ها هو ذا يجد لنفسه مكانًا وسط هذا المجتمع، حتى ولو كان هذا المكان بيتًا في أرض الأعداء!!

التقى في المقهى بإفرايم سلومون الذي كان يراه فيلتصق به ولا يغادره حتى ينتزع الفتى نفسه منه انتزاعًا... ثرثر معه لساعة وبعض الساعة، ثم استشعر رغبة عارمة في الانفراد بنفسه، لم يكن يعرف متى يأذن له محسن بالسفر، لكنه يعرف يقينًا ـ الآن ـ أنه سيذهب إلى إسرائيل ذات يوم ليس ببعيد!

منذ اللحظات الأولى لوصول الفتى إلى المقهى أحس «إفرايم سلومون» أن بطله مشغول الليلة بأمر هام وبالقطع غامض... حاول هذا الفضولي أن يحترم صمت الفتى لكنه لم يستطع، فسأله عما به وهل هو مريض أو يشعر بوعكة زفر رأفت وهو يقول في صوت خافت:

«أنا ما ليش عيش هنا يا إفرايم!».

في لهفة استعد إفرايم للسماع.

«أنا لازم أهاجر بقى، لازم أسافر إسرائيل!».

همّ واقفًا مستعدًّا للانصراف:

«مش أنا بس... اليهود كلهم لازم يمشوا من البلد دي!».

استأذن من إفرايم، فتركه هذا لحاله مقدرًا لما يشغل باله من هموم قومية!!

* * *

في شارع سليمان كان يخطو مبتعدًا عن المقهى وذهنه مشغول بما حدث، كان في طريقه إلى البيت الذي عاش فيه شهورًا وألف الطريق إليه فاستغرق في التفكير وترك لساقيه حرية قيادته إلى هناك... اصطدم أثناء سيره بشابين كانا يهرولان هربًا من صقيع الليل، التفت نحوهما، كما التفتا هما نحوه... بادرهما على الفور:

«أنا متأسف».

قالها. ثم سقط قلبه بين ضلوعه.

فلقد جمد الشابان في مكانهما الذي تصادف أن كان تحت أحد أعمدة النور، هتف أحدهما في صاحبه:

«شايف ده مين يا دكتور؟!».

لكن الدكتور كان الآن قد أطبق بكلتا يديه في خناق رأفت صائحًا من بين أسنانه:

«والله وقعت يا رأفت يا هجان!».

ارتد بصر الفتى من حيث جاء، ارتد بصره إلى حيث مقهى إستانبيلوس الذي لا يبعد سوى خطوات... لم يكن يعنيه شيء في الدنيا ـ الآن ـ إلا أن يبتعد عن هذا المقهى وأي من رواده الذين يعرفونه ويعجبون به ويجله بعضهم كبطل قومي يلقى العذاب من أجلهم... كان الطريق خاليًا حقًّا، لكن أصوات الشابين راحت تتصايح في

سكون الليل متهمة إياه بالنصب والاحتيال عليهما وإعطائهما شيكًا بلا رصيد!

حدث هذا في باريس!

تذكر رأفت الشابين فور رؤيته لهما، كيف ينسى تلك الأيام السوداء التي دفعته إلى الهرب من الولايات المتحدة إلى كندا، ثم الهرب من كندا إلى باريس... كانت الدنيا تدفعه نحو الجريمة دفعًا، ولقد قاوم طويلًا ثم قرر أن يواجهها... فهل كان كل هذا الذي حدث طريقًا مرسومًا بقدر غامض ومثير كي يوصله في النهاية إلى يدي محسن ممتاز؟!... نعم احتال عليهما وأعطاهما شيكا بلا رصيد في مقابل بضع مئات من الفرنكات ساعدته على الهرب إلى إنجلترا من جديد... كان لا بد له من التخلص - بسرعة - من تلك الوقفة في عرض الطريق وتصايح الشابين الذي أوقف عددًا من المارة كانوا يتكاثرون مع كل دقيقة تمر وهم يشاهدون نوعًا من الصراع غير المتكافئ بين شابين أمسكا بتلابيب ثالث عقدت الدهشة لسانه!... لكن رأفت وجد الحل عندما ظهر أحد رجال الشرطة صائحًا من بعيد:

«إيه الحكاية يا بهوات!».

هكذا سأل الشرطي، فصاح رأفت:

«أنا عاوز أروح القسم يا شاويش!».

كانت نقطة كوتسكا التابعة لقسم قصر النيل لا تبعد أكثر من بضع عشرات من الخطوات، هذا كل ما كان يهم رأفت في تلك اللحظة... لم يكن يبغي إلا أن يبتعد عن شارع سليمان باشا وأن يختفي عن الأنظار في أحد الأزقة أو السجون سيان!!... على البعد لمح في الضوء الخافت للطريق بعضًا من رواد إستانبيلوس يغادرون المقهى وكانت الأصوات بالقطع تصل إليهم وكان بعضهم يتقدم من الجمع والصياح، هذا البعض

لا بد يعرفه، فالجميع هناك الآن يعرفونه معرفة وثيقة، وليس بعيدًا أن يكون إفرايم سلومون من بينهم فهذا هو طريقه في المساء عند العودة إلى البيت... كان لا بد من التصرف بسرعة فما هي إلا خطوات وينكشف أمره ويهدم هذان الشابان كل ما راحا ـ محسن وهو ـ يبنيانه في شهور اكتظت بالأحداث.

انقض الفتى على أحد الشابين بكلتا يديه وأنشب أصابعه في خناقه دافعًا به نحو زميله في عنف مفاجئ:

«انتوا عاوزين مني إيه؟!».

كان لا بد من تصعيد الموقف حتى لا تطول الوقفة، احتدم اشتباكهم وصاح أحدهما:

«وكمان لك عين يا حرامي؟!».

«أنا حرامي؟!... أنا أعرفك منين؟!».

أحس الشرطي بأن وجوده لا بد أن يثبت كما ينبغي فأمسك بيد الفتى ـ لأنه كان يبدو أضعفهم، ولأنه كان المتهم أيضًا، ولأنه بادر بالعنف قبل الآخرين ـ في عنف جاذبًا إياه نحوه:

«كل واحد يلزم حده!!».

«مش سامع بيقولوا عليّ إيه يا شاويش؟!».

«اللي عنده كلمة يقولها في القسم!».

همّ أحد الشابين بالصياح فنهره الشرطي:

«إنتوا مش بتقولوا إنه نصب عليكم؟!».

«وكان عامل ثري أمثل في باريس وشايل لي دفتر شيكات !».

«يبقى تقول الكلام ده لحضرة الضابط في القسم!!».

قال هذا وهو يلتفت إلى الذين تجمعوا من حولهم صائحًا بصوت ملأ فراغ الليل:

«وبلاش تجمهر في ساعة زي دي، وكل واحد يروح لحاله أحسن له!».

مرة أخرى يلعب الحظ لعبته مع رأفت علي سليمان الهجان الذي أصبح الآن ياكوف بنيامين حنانيا الشهير بليڤي كوهين... كانت الأحداث السياسية في مصر في تلك الأيام عنيفة، كانت هناك اعتقالات ومحاكمات وصراع سياسي دفع حكومة الثورة إلى تطبيق قانون الأحكام العرفية، ومنع التجمهر في الطريق العام... ولذلك، ما إن سمع الذين توقفوا «للفرجة» ما قاله الشرطي حتى انصرفوا طالبين السلامة، أراد الجندي أن يؤكد سلطانه على هؤلاء الأفندية فقال ما قال وهو يعرف أنه ينفذ القانون في صرامة... وعلى الفور، وافق الشابان على الذهاب إلى القسم، بل لقد رحبا بتنفيذ هذا فورًا، فلقد كان ما حدث تجمهرًا وكانا هما السبب فيه... وبدأ الركب يتحرك نحو زقاق جانبي كان يوصل إلى نقطة كوتسكا... وما إن ابتعد رأفت خطوات عن الشارع، حتى تنفس الصعداء!

في القسم واجهه الشابان بالتهمة أمام ضابط صغير السن والرتبة، كان الموقف بالنسبة إليه محيرًا، انتهى الشابان من سرد حكاية الشيك الذي أعطاهما الفتى إياه بعد أن أخذ منهما مبلغًا لا بأس به من الفرنكات الفرنسية، ثم عندما ذهبا لصرف الشيك اكتشفا أنه بلا رصيد... بحثا عنه في طول باريس وعرضها، لكنه كان كفص ملح ذاب في محيط... التقيا به منذ دقائق مصادفة، وهما الآن يريدان للقانون أن يأخذ مجراه!

التفت الضابط نحو الفتى متسائلًا:

«إنت اديتهم شيك بدون رصيد؟!».

لم يكن رأفت يسمع ما كان الشابان يقولانه، كان يعرفه... ولذلك،

ففي الدقائق التي مضت، كان هو يقدح ذهنه قدحًا باحثًا عن مخرج... لم يكن الأمر يحتمل انتظارًا ولا تأجيلًا... تذكر رقمي تليفوني محسن في البيت والمكتب، لم يكن ـ قبل هذه الليلة ـ قد احتاج إلى أن يطلبه في التليفون فلم يفعل، كان يستشعر لذة فائقة في الالتزام بتعليمات محسن...وها هي ذي لحظة رعناء، ومصادفة عشواء، يبعثهما الماضي بكل ما فيه... فهل تعاوده نوبات من سوء الحظ مرة أخرى؟!... جاءه صوت الضابط سائلًا:

«يا أستاذ!».

أفاق رأفت مما كان فيه، التفت نحو الضابط مبتسمًا:

«أفندم».

«إنت اسم حضرتك إيه؟!».

«رأفت علي سليمان الهجان يافندم».

لو أن مصادفة حمقاء أخرى دفعت بيهودي إلى نقطة كوتسكا في تلك اللحظة، لانهدم كل شيء، ضاع الأمل في إثبات أنه قادر، وأنه يستحق أن يعيش بين قومه محترمًا... كان الضابط يتحدث إليه لكنه لا يسمع ما يقوله، عليه أن ينتبه، وعندما انتبه، كان الضابط ينهى حديثه:

«... ... ... ده اللي هم بيقولوه، إنت اديتهم فعلًا شيك بدون رصيد!».

«ممكن أطلب من سعادتك خدمة؟!».

في تأفف قال الضابط:

«أفندم!».

«ممكن سعادتك ترفع سماعة التليفون وتكلم اللواء محسن ممتاز في بيته!».

«مين اللواء محسن ده... في الداخلية؟!».

«لأ يا فندم... ده ضابط جيش!».

«وظيفته إيه؟!».

«أنا ما اعرفش، إنما اللي أعرفه إنه ابن خالتي!».

كانت الثورة ثورة جيش، وكل قوادها من الضباط الشبان، وكان قائدها بكباشي فقط ـ مقدم ـ فمن يكون سعادة اللواء محسن ممتاز هذا؟!... وقع الضابط في حرج، فإذا كان الفتى محتالًا كما يقول الشابان اللذان أحدهما طبيب والآخر مهندس وكانا في بعثة دراسية للخارج فلسوف ينكشف أمره... أما إذا كان هذا اللواء موجودًا، وكان ابن خالته بالفعل، فكفى الله المؤمنين شر ثورة الجيش!

رفع الضابط سماعة التليفون متسائلًا في تحد أدركه الفتى:

«نمرته كام؟!».

«٩٧٩٣٥».

نطق رأفت الرقم بسرعة وثقة من يعرف أين تخطو قدماه، أدار الضابط قرص التليفون، وانتظر مستمعًا إلى الجرس على الطرف الآخر... انقطع الرنين فاعتدل الضابط في جلسته عندما أتاه صوت محسن ممتاز، ثم سأل:

«سعادة اللواء محسن ممتاز؟!».

«أنا محسن... مين بيتكلم؟!».

«لا مؤاخذه يا فندم. لحظة سعادتك معايا!».

عندما سمع الضابط صوت محسن يقول: «أنا محسن»، اطمأن قلبه تمامًا... في احترام مد يده بالسماعة إلى رأفت الذي قال متصنعًا الوجل أمام الجميع:

«مساء الخير يا آبيه محسن!».

كان الضابط والشابان يرقبان ما يحدث، فلقد انفجر صوت محسن عبر السماعة عاليًا غاضبًا، وكان رأفت يحاول الرد لكن سيل الكلمات المتدفق عن أخلاقه الفاسدة وحياته الممزقة ألزمه الصمت، ثم توقف الصوت وعاد محسن يسأل:

«هو إيه اللي حصل؟!».

في كلمات مترددة، وفي اختصار شديد، قال رأفت إن ثمة شابين يدعيان أنه أعطاهما شيكًا بلا رصيد وكان هذا في باريس، ثم التقيا به الآن وهو في طريقه إلى البيت فأمسكا بخناقه ورفضا أن يتركاه إلا في نقطة الشرطة هذه... قال الفتى هذا فانفجر الصوت عبر السماعة التي رفعها رأفت عن أذنه حتى يسمع الجميع هدير الرجل على الطرف الآخر وهو يهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور، ثم ما لبث أن جاءهم الصوت صائحًا:

«إديني حضرة الضابط!».

مد الضابط يده إلى السماعة قبل أن يحملها إليه رأفت... وفي حقيقة الأمر لقد كان محسن ـ عندما قال ما قال ـ يعتمد على ذكاء الفتى وإمكان وصول صوته إلى الضابط بالذات، ثم... ثم إنه كان ـ على الوجه الآخر ـ يعطى نفسه الفرصة كي يفكر فيما يمكن أن يفعله... قال الضابط في احترام شديد:

«أفندم يا سعادة الباشا!!».

كان ضباط الجيش ـ قبل الثورة ـ إذا ما رقي أحدهم إلى رتبة اللواء منح معها لقب «الباشوية»، ولقد كانت الألقاب قد ألغيت حقا في مصر، لكنها ظلت تجري على ألسنة الناس... ولقد كان محسن منطقيًا في حديثه مع الضابط... قال إنه لا يفهم في طبيعة أعمال الشرطة وواجباتها

كما يفهمها هو بالطبع، لكنه يرى أنه أمام حالة واضحة، فهناك اتهام من شابين لشاب ثالث بأنه أعطاهما شيكًا بلا رصيد... إذن، فالأمر موكول إلى النيابة، والضابط لا يستطيع حجز الفتى لتهمة غير ثابتة، لكنه يستطيع الإفراج عنه بعد التأكد من محل سكنه، على أن يثبت هذا كله في محضر رسمي كي يخلي مسئوليته، ثم إن على الشابين أن يرفعا دعوى بعد ذلك كي يأخذ العدل مجراه.

كانت المفاجأة بالنسبة إلى الضابط أن محسن اختط له الطريق بأسلوب قانوني محكم، وكان محسن ـ كضابط كبير ـ يعرف الأسلوب الذي يتحدث به من كان مثله مع ضابط صغير الرتبة، وهكذا قال الضابط مؤمنًا وموافقًا:

«تمام يا سعادة الباشا!».

«طب اديني الولد ده تاني من فضلك!».

راح الفتى يستمع إلى محسن وهو يحكي له ما قاله للضابط، وأن عليه أن يطيع هذا تمامًا وأن يذهب بهم إلى البيت كي يعرفوا مكان سكنه... فهتف رأفت محذرًا:

«حاضر يا آبيه... وطبعًا البواب عارفني كويس!».

كان البواب يعرف أن الفتى هو «ليڤي كوهين»، ولقد قال رأفت ما قال كي ينبه محسن إلى هذه الحقيقة حتى يحتاط للأمر إن استطاع... ولقد أنهى محسن المكالمة بسرعة، كان عليه أن يجري بعض المكالمات العاجلة حتى يستطيع تدارك الأمر قبل أن ينكشف الفتى بمصادفة بلا معنى... الوقت أمامه الآن أثمن من الألماس، وبحسبة بسيطة قرر أن المحضر الذي أوعز إلى الضابط أن يحرره لن يأخذ أكثر من خمس وأربعين دقيقة، والمسافة من نقطة كوتسكا حتى بيت الفتى لن تأخذ

أكثر من خمس عشرة دقيقة... إذن، فلا بد أن يكون المسرح جاهزًا قبل انقضاء ساعة، لاستقبال رأفت الهجان!

* * *

في الطريق إلى ميدان سليمان باشا كان الركب يتحرك مكونًا من الشابين ورأفت ثم أحد رجال الشرطة اصطحب الجميع للتأكد من عنوان إقامة المتهم.

قبل أن يصلوا إلى ميدان سليمان باشا ببضع خطوات لمح الفتى سيارة محسن العتيدة تقف في ظلال الليل الكثيفة وبداخلها محسن... وصل الجميع إلى باب العمارة الذي كان مغلقًا... دق الشرطي عليه بعنف من يملك سلطة، جاءه من الداخل صوت البواب النائم يصيح بأنه قادم... فتح الباب عن رجل يرتدي جلبابًا وقد دثر نفسه ببطانية تقيه البرد وحول رأسه «لاسة» هائلة تخفي ملامحه في الظلام، ولم يكن رأفت في حاجة إلى ذكاء كي يكتشف أن هذا الرجل ليس هو البواب... صاح الشرطي:

«إنت مين؟!».

«أنا عبد المحسن البواب يا شاويش... خير؟!».

«تعرف الأفندي ده!».

«مين؟!... رأفت بيه؟!... خير يا سعادة البيه؟!».

قال الشرطي زاجرًا إياه:

«تعرفه؟!».

«إلا اعرفه... ده سي رأفت بيه الهجان اللي ساكن في شقة ٦٢».

التفت الجندي نحو الشابين:

«تحبوا تطلعوا الشقة يا بهوات والا كفاية لحد كده؟!».

كان البرد قارسًا وكان الشرطي متذمرًا... ثم لم يكن هناك ما يبعث على الشك، فتبادل الشابان النظرات، ثم قال أحدهما:

«لأ... كفاية كده!».

وهكذا انصرفا وانصرف الشرطي بعد أن نبه على البواب أنه سيكون مسئولًا أمام الحكومة عن المعلومات التي أدلى بها... ودلف رأفت إلى العمارة واستقل المصعد الذي حمله إلى الطابق الأخير... كان الفتى يفكر فيما فعله محسن، وفيما يمكن أن يفعله في الغد... لكنه ما إن اقترب من باب مسكنه، وما كاد يضع المفتاح في ثقب الباب حتى جاءه صوت من الخلف:

«إنت لوحدك يا أستاذ رأفت؟!».

التفت فإذا رجلان متواريان في الظلام.

«مين؟!».

«إنت لوحدك؟!».

«أيوه؟!».

«اتفضل معانا... محسن بيه في انتظارك!».

لم يكن أمام رأفت سوى الاستسلام، كان أحدهما يحمل حقيبة ملابس كبيرة، اكتشف رأفت بعد أقل من ساعة، وعندما دخل مسكنه الجديد في منطقة أخرى بعيدة عن وسط المدينة، أن بها كل ملابسه وكل ما يخصه في ذلك المسكن القائم فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا.

* * *

اقتحم رأفت ميدان التهريب، وتعامل مع الذين أرادوا إخراج أموالهم من مصر بجرأة وفروسية جعلت منه بطلًا شعبيًا وسط يهود مصر، في

أسابيع قليلة نجح عدد لا بأس به من العمليات الصغيرة التي كان يستعمل في بعضها ذكاءه الخاص، فذاع اسمه واشتهر وأصبح على لسان كل يهودي... من الخارج جاء مندوبو المنظمات الصهيونية المختلفة ليتفقوا معه ويعقدوا الصفقات... كان جريئًا في تعامله معهم، شجاعًا، يخطط بذكاء ويحكم تخطيطه ثم يبلغ محسن بكل شيء ويترك له الباقي... أطلقه محسن وترك ملكاته تعلن عن نفسها في مواجهة الشرطة المصرية التي أصبحت ـ بالفعل ـ تطارده بلا رحمة... كان محسن يترقب تلك الصفقات المهولة التي تستنزف دم مصر، حتى إذا عقد رأفت إحداها مع واحد من كبار الأثرياء اليهود، وما كادت الصفقة تتم بالفعل حتى أطبق رجال البوليس على المهربين، لكن رأفت استطاع الفرار بأعجوبة من أعاجيبه... وهكذا أصبح رأفت الهجان ـ أو ياكوف بنيامين حنانيا ـ هاربًا من وجه العدالة وإن كان لا يزال يعيش باسم «ليڤي كوهين»!

في صفقة أخرى لم يستطع الإفلات فقبضوا عليه لكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا شيئًا ضده وكان محاميه بارعًا بعد أن أوكله عنه أحد أثرياء اليهود!!

ولم يكن ممكنًا ـ والحال هكذا ـ أن يترك اليهود بطلًا من أبطالهم بلا مأوى بعد أن عرفت الشرطة محل إقامته الجديد ووضعته تحت حراسة صارمة... لم يكن ممكنًا أن يتركوه لسطوة رجال الشرطة الذين كانوا يضربونه في كل اتجاه مصادرين ملايين الجنيهات وهي في طريقها إلى خارج مصر... وهكذا راحت الأسر اليهودية تستضيف الفتى وتتنافس في استضافته خاصة تلك الأسر الشديدة الثراء التي كانت تطمع في تهريب أموالها إلى الخارج عن طريق رأفت... وتمضي الأسابيع فإذا الفتى جزء لا يتجزأ من المجتمع اليهودي... اخترق هذا المجتمع حتى نخاعه وهو يعيش في بيوتهم وقصورهم كواحد منهم... رغم مسئولياته والصفقات التي كان يعقدها والخطط التي كان يضعها وتلك التي كان

يعدل فيها والناس الذين كان يلتقي بهم، لم ينسَ أن يتعلم العبرية... أمام الجميع كان يلعن الشتات الذي جعل اليهودي يتقن عدة لغات وينبغ في كل فروع الحياة وينسى لغة الأجداد... في تلك الفترة كانت حياة الفتى حافلة بكل ما هو مثير، ولم يكن يكف عن العمل أو إجراء الاتصالات السرية أو التخطيط الذي برع فيه براعة جعلت له مكانة خاصة وسط عصابات المهربين والأثرياء على السواء!

وكان محسن ـ في تلك الأيام ـ سعيدًا سعادة غامرة، ولولا ذلك الضعف الشديد عند الفتى تجاه فتيات اليهود اللواتي رحن يرتمين بين ذراعيه فيقاوم حينًا ويستسلم أحيانًا، لاكتملت سعادته وبلغت ذراها المنشودة، راح مندوبو المنظمات اليهودية يطلبون لقاءه كلما زار أحدهم مصر كي يستأنسوا برأيه... وكان هو، في حماس بالغ، يساعدهم ويشترك في وضع خططهم ويوجه خطواتهم. وهكذا... وقبل أن ينقضي الثلث الأول من عام ١٩٥٥، كان كل هم المنظمات اليهودية والصهيونية هو إخراج «ياكوف بنيامين حنانيا» من مصر، بعد أن أصبح واضحًا أشد ما يكون الوضوح أن الشرطة المصرية ترفض السماح له بالهجرة، وترفض أن تتركه يفلت من يدها!!

حتى كان يوم من أيام ربيع ذلك العام!

❊ ❊ ❊

وصلت إلى رأفت ـ مع ما يصل إليه من دعوات ـ دعوة من المليونير السكندري «شارل سمحون».

كان شارل سمحون رجلًا من رجال الأعمال الذين سيطروا لزمن طويل على سوق المال في بورصة الإسكندرية... وكان ثريًّا ذلك النوع من الثراء الذي يتحدث به الناس في انبهار وكأنه شيء خارق للعادة... ولذلك، لم يكن من السهل أولًا أن يرفض رأفت الدعوة أو يعتذر عنها

ـ كما تعود أن يفعل مع العديد من الدعوات التي كانت تصله ـ بل على العكس، تلهف على تلبيتها، خاصة أن بيوت الأثرياء الذين كانوا يأوونه في القاهرة قد انكشفت ووضعت تحت المراقبة... وكانت تلك المراقبة تحد من حركته كثيرًا، كما كانت تجعل الاتصال به أمرًا شديد الصعوبة، وهكذا... وعندما وصلت تلك الدعوة من الإسكندرية، كان على رأفت أن يلبيها.

تحت جنح الظلام، وبافتعال مشاجرة جذبت أنظار رجال الشرطة المحيطين بالبيت، تسلل رأفت من حيث كان... تسلل وحده فلقد كان يرفض، وبإصرار، أن يصحبه أحد من اليهود للحماية أو حتى للتمويه، كان يقول إنه وحده يصبح أكثر تحررًا وأخف حركة... وكانوا يحترمون رغبته فيتركونه كي يسعى للقاء محسن على شوق أكيد بعد أن تباعدت مواعيد اللقاء... وهكذا، وعندما دخل رأفت الهجان قصر المسيو شارل سمحون لأول مرة، ذلك القصر المطل من فوق رابية من روابي الشاطئ على البحر المتوسط ـ كان يتطلع ومن حوله عائلة الرجل الذي قدر للفتى أن يحمل اسمه حتى الموت ـ عبر البحر ـ نحو المجهول، إلى حيث كان يسعى الآن، إلى فلسطين، إلى أرض المعاد!

في هذا القصر عاش رأفت حياة أسطورية، كان مطلوبًا إخفاؤه تمامًا عن أعين الناس حتى خدم البيت... وقد وضعت لذلك خطة تولت تنفيذها ابنتا شارل سمحون الباهرتا الجمال، واللتان كانتا ـ في تلك الأيام ـ حديث الأوساط الأرستقراطية في العاصمة الثانية لمصر!

قبل أن يغادر الفتى القاهرة إلى الإسكندرية حذره محسن ـ في لقاء كانت خطته شديدة التعقيد ـ من ابنتي الخواجة شارل، حاول الفتى أن يتخلص من المناقشة لكن محسن نهره محذرًا إياه من مغبة التورط في علاقة قد لا يستطيع التخلص منها حتى إن أراد... كان محسن يعلم أن الفتى مشوق إلى الحنان عطشان للحب.. ورغم كل تحذير فقد وقع

المحظور، وأحبته كبرى ابنتي مسيو شارل، فلقد كانت هي المكلفة، وقت وجود الخدم في البيت، بالسهر على راحته وتلبية كل رغباته!

وفي حقيقة الأمر، ليست الابنة الكبرى هي التي أحبت رأفت الهجان وحدها... كانت دماثة الفتى الطبيعية، وقدرته الفذة على النفاذ إلى قلوب الناس، قد جعلته يحتل مكانة رفيعة في قلوب العائلة كلها، الأب والأم والابنتين معًا!!

ولقد انقضت أسابيع قليلة ورأفت يعيش حياة أقرب إلى الأحلام... كان قد أحيط بكل ما يحتاج إليه من حنان وحب ورعاية وعناية... وحتى تلك النزوات التي كانت تنتابه أحيانًا، والتي كانت تجعل العائلة وكأن أفرادها جميعًا يقفون على أطراف أظفارهم، عندما يعلن عن رغبته في الخروج إلى الشوارع وحده، تلك الرغبة التي كانت تبكي «ماجي» ـ الابنة الكبرى لمسيو شارل ـ كلما أعلنها... لكنهم في النهاية كانوا يخضعون ويحترمون رغبته في الشعور بالحرية!!

في رحلاته الليلية هذه كان يلتقي بمحسن لقاءات مركبة ومعقدة، لكنهما لم يكونا معًا إلا لدقائق محسوبة، كي يعود الفتى مرة أخرى إلى مخبئه في القصر العتيد!

حتى كانت ليلة انصرف فيها الخدم مبكرين، وتناولت الأسرة عشاء خفيفًا، واستعدت للاستماع لبعض المقطوعات الموسيقية من «بيك أب» أنيق وحديث... وكان غرام «ماجي» بالفتى قد أصبح واضحًا للجميع لا يخفى على أحد، كما كان واضحًا أنهم يباركون هذا الحب الذي كان يزداد اشتعالًا يومًا بعد يوم... وقبل أن تكتمل الجلسة حول «البيك أب» طلب مسيو شارل إلى رأفت أن يلحق به في غرفة مكتبه لحديث خاص.

* * *

كان من عادة المليونير اليهودي شارل سمحون أن يدخن مرة واحدة في اليوم، بعد أن يتناول طعام العشاء مع أسرته، ثم يحمل كأس البراندي

الفاخر إلى غرفة مكتبه، كي يدخن «سيجارًا» من نوع خاص كان يستورد باسمه من الخارج... ثم يجلس إلى كتاب أو حسابات يريد أن يراجعها وحده... ويظل هناك حتى العاشرة، ثم يأوي إلى فراشه!

في بعض الأحيان ـ منذ جاء رأفت إلى القصر هاربًا من وجه الشرطة المصرية ـ كان الرجل يدعو ضيفه إلى تدخين سيجار وتبادل الحديث معه... وكان هذا يعني ـ أمام أفراد الأسرة وفي محيط الأصدقاء ـ نوعًا غير عادي من التكريم لشخصية المناضل ياكوف بنيامين حنانيا!

وكان رأفت يلبي الدعوة مهما كانت مغريات «ماجي» أو إلحاحها... كان يشعر أن الرجل الذي تجاوز الستين، ينظر إليه نظرة غريبة وصامتة في نفس الوقت، أكثر حنانًا من الأخريات وأعمق حبًّا منهن جميعًا... كان رأفت يلبي دعوته تلك إلى غرفة المكتب استجابة لهذا الحنان الغامض، ومحاولة لاستجلاء سره الغريب، والذي كان، يومًا بعد يوم، يفصح عن نفسه بأسلوب بدا للفتى آسرًا!

في تلك الليلة، جلس رأفت على المقعد الوثير المواجه لمقعد مسيو شارل سمحون، وراح ينظر إلى الرجل في عجب... كان العجوز يبدو مضطربًا بعض الشيء، أشعل السيجار ورشف من كأسه رشفة، وبدا أنه يبذل محاولة عنيفة للسيطرة على أعصابه! أحس رأفت أن ثمة شيئًا في الطريق إليه فلم ينطق حرفًا، راح يرقب الرجل في إمعان شديد لعله يستشف ما يدور بخلده، حتى إذا ما سأله الرجل ـ وكان الحديث عادة ما يدور بينهما بالفرنسية ـ عما ينوي أن يفعل في الأيام القادمة... اعتدل رأفت في جلسته متحسسًا مواطئ كلماته:

«لم يعد أمامي سوى محاولة الهجرة إلى إسرائيل!».

رماه الرجل بنظرة حانية فعاد رأفت يقول:

«إن حياتي في مصر أصبحت مستحيلة، فهم يطاردونني في كل مكان، ويقيني أنهم أيضًا أصبحوا يعرفون أن اسمي الحقيقي هو ياكوف بنيامين

حنانيا... وعلى ذلك، فإن أي نشاط لي سوف يصبح عديم الجدوى.... فأنا الآن لست سوى عالة عليكم جميعًا!».

رغم تلك الجملة الأخيرة التي أراد بها رأفت أن يستنفر عواطف الرجل، فإن خلجة في وجه الشيخ لم تهتز... بل عاد يسأل:

«وكيف ستهاجر إذن؟!».

«هذا ما أبحث عن وسيلة له في هذه الأيام!».

«لقد وجدت لك الوسيلة!».

همّ رأفت في جلسته وقد فاجأته الجملة... ظن الرجل أن حركة الفتى نوع من الترحيب والتلهف ولكن الحقيقة كانت غير هذا... فلقد تذكر على الفور وفي لمح البصر ما قال محسن ممتاز ذات ليلة عندما سأله الفتى متى يسمح له بالهجرة إلى إسرائيل، فطلب إليه ألا يتعجل الأمور، فإن الجالية اليهودية هي التي ستتولى الأمر عنه، وهم عندما يفعلون ذلك ستكون هذه هي علامة السلامة الكاملة لرأفت في موطنه الجديد!

قال رأفت وهو يميل نحو الثري الشيخ:

«كيف بالله عليك وجدت هذه الوسيلة؟!».

رشف الشيخ رشفة من كأسه، ونفث دخان السيجار الكثيف في هواء الغرفة ثم نهض إلى حيث كانت نافذة تطل على البحر... لزم رأفت الصمت تمامًا وهو يرقب الرجل الذي كان يستعد الآن للإفضاء بسر بدا للفتى رهيبًا... ساد الصمت في الغرفة وجاء صوت هدير الأمواج ليملأه، وما لبث الرجل أن قال دون أن يلتفت نحو رأفت:

«كان لي ابن في مثل عمرك... وكان اسمه ديڤيد».

وضع رأفت السيجار جانبًا، نهض واقفًا وقد غاضت الدماء من وجهه وتثلجت أطرافه، التفت الشيخ نحوه وكانت ملامحه تقطر حزنًا... خطا مبتعدًا عن النافذة وهو يحملق في الكأس التي يحملها في يمينه:

«عندما ولد استخرجنا له شهادة ميلاد... لكننا لم نستخرج له شهادة وفاة عندما مات وهو في الثالثة من عمره!».

حاول رأفت أن يقول شيئًا لكن الدهشة كانت قد عقدت لسانه، تبدت له حقيقة ما كان الرجل يدبره فهاله الأمر... عاد الشيخ يخطو نحوه الآن في بطء، حتى إذا أصبح قريبًا منه توقف، راح يتأمل ملامح الفتى بعينين يسيل منهما حزن غامر، لكنه ما لبث أن استطرد:

«لقد مات ديفيد بالتيفود منذ أربع وعشرين سنة... لكنه في نظر الحكومة المصرية لا يزال حيًّا!».

أدرك رأفت الآن ما الذي كان يقصد إليه الرجل تمامًا!

«سأعطيك اسم ولدي... ومنذ الغد سيصبح اسمك «ديفيد شارل سمحون»، ولن نقدم لك طلبًا للهجرة، بل سنقدم طلبًا للسفر إلى الخارج، فإذا ما خرجت من مصر أصبحت في مأمن!».

هتف رأفت في إشفاق:

«لكنهم سيعلمون أني خرجت... فماذا أنت صانع؟!».

«لا عليك... اترك لي هذا الأمر!».

قال الشيخ هذا وهو يعود إلى مقعده، رشف من كأسه رشفة، ومد يده إلى كتاب كان موضوعًا فوق مائدة قريبة... فتح الكتاب وهو يقول:

«اذهب إلى الفتاتين فإنهما في انتظارك... ولا بد أنك ستفتقدهما في المستقبل القريب!».

* * *

قال رأفت الهجان فيما بعد إنه كان ـ وهو يغادر الغرفة ـ يكاد ينفجر من الدهشة... ولم يكن يتمنى في تلك اللحظات شيئًا في الوجود إلا أن يرى محسن ممتاز... فقط، كي يرفع يده بالتحية!

الفصل الحادي عشر

الرَّحيل

أدرك الفتى في تلك الليلة أن أيامه في مصر أصبحت معدودة، وأن رحيله إلى إسرائيل لم يعد مرهونًا بإرادته، أو إرادة محسن المطلقة!... وإذا كان يهود مصر هم الذين قرروا تهريبه إلى أرض معادهم، فلقد كان عليه أن يجاريهم حتى لا يثير أي نوع من أنواع الشكوك!

كان أول من خطر بباله بعد أن غادر مكتب السيد سمحون هو أخته... شريفة!

كان لا بد أن يراها قبل أن يرحل مهما كان الثمن... فمن أين له أن يعرف إن كان سيراها بعد ذلك مرة أخرى!!

عندما طلب إليه محسن أن يؤجل زيارته لها حتى يذهب إليها وهو «ملو هدومه» استراح لهذا حتى يرحم نفسه من التسلل إلى بيتها في غيبة زوجها الذي كان يرى فيه إنسانًا ضائعًا وعارًا يجب على العائلة أن تتجنبه، حتى يرحمها من مشاحنة هي في غنى عنها لو أن الزوج، الذي كان قد أصبح ضابطًا كبيرًا، علم بزيارته لها!

هو لم ينس شريفة طوال تلك الأسابيع والشهور... وكم اشتاق إليها كما اشتاق إلى صغيرها طارق الذي أصبح ـ بالنسبة إليه ـ قطعة من الحياة

تصبو إليها نفسه... لكنه منذ أن عرف حقيقة مهمته داخله إحساس غامر بالمسئولية، بل داخله إحساس بأنه أكبر من الآخرين... ألا يجب إذن أن ترتفع أحاسيسه إلى مستوى مكانته؟

عندما صعد إلى غرفته كي ينام لاحقته «ماجي سمحون» بلهفتها المتقدة لكنه صدها برفق، كان في حاجة إلى الانفراد بنفسه، عاوده ذلك الإحساس الغريب بأنه يعيش حلمًا طال، وقف خلف النافذة يرقب الأمواج ويستمع إلى هديرها في استغراق ملك عليه حواسه... عندما غادر مصر ـ من قبل ـ كان يعلم أنه لا بد عائد إليها مهما طالت غيبته... لكنه هذه المرة راح يتساءل في إلحاح: متى يعود مرة أخرى؟!... وهل يعود أصلًا أم يكون نصيبه حبل مشنقة يتدلى منه جسده في قلب بيت العدو؟!

في اليوم التالي كان حريصًا على أن يلتقي بالخواجة شارل على مائدة الإفطار التي كان عادة ما يتخلف عنها، كان لا بد أن يتبادلا حديثًا ما فتبادلاه... بدا رأفت ساهمًا فأدرك العجوز أن في صدر الفتى ما يريد أن يبوح به فطلب إلى زوجته أن تأمر السائق بتجهيز السيارة. أيقنت السيدة سمحون أن ثمة حديثًا يريد الرجلان أن يتبادلاه فنهضت على الفور مغادرة المكان... رفع رأفت رأسه نحو مسيو سمحون، وكان هذا ينظر إليه نظرات شديدة الثبات... قال رأفت في صوت هادئ وكلمات واضحة:

«لست أريد أن أشكرك على ما قدمته لي بالأمس، ولكني فقط أريد أن أقول إني لن أنساه!».

تشاغل العجوز بطعامه مغمغمًا:

«هذا كل ما أرجوه».

رشف الفتى من فنجان الشاي رشفة ثم قال:

«أعتقد أنه لا بد لي من السفر إلى القاهرة لتصفية بعض الأعمال المعلقة».

توقف العجوز عن الطعام ملتفتًا إليه... ساد الصمت لبرهة قال بعدها:

«إني أفهم هذا جيدًا!».

بدت إجابته لرأفت غير شافية وكأنها لم تكتمل فلزم الصمت حتى استطرد العجوز:

«أعتقد أني لست في حاجة إلى تحذيرك».

«مم؟!».

هكذا تساءل رأفت فجاءه الجواب:

«يجب ألا يعرف أحد ما اتفقنا عليه بالأمس!».

نظر إليه الفتى نظرة ساخرة ولاحت على شفتيه تلك الابتسامة التي تنبئ عن قدر صاحبها، فمال مسيو سمحون نحوه مؤكدًا في همس:

«حتى من اليهود!».

لمعت عينا الفتى بنظرة دهشة مستفسرة فعاد الرجل يقول:

«إني حتى لم أخبر عائلتي، ولن أخبرها حتى تصبح أنت في مأمن!».

خطا رأفت بالحوار إلى نهايته:

«لن أغيب في القاهرة أكثر من أسبوع!».

«أريد أربع صور لاستخراج جواز السفر».

ضحك رأفت ساخرًا وهو يدس يده في جيبه قائلًا:

«إني أملك من هذه الصور عددًا لا بأس به!».

قدم له الصور الأربع مستطردًا:

«أرجو أن يكون حظ هذه الصور أحسن من سابقتها!».

قال رأفت هذا وهو يناول الصور للرجل... فانتهى الحديث!!

* * *

استمع محسن إلى ما حمله إليه الفتى من أنباء صامتًا... لا أحد يعرف ما الذي كان يدور في صدر ورأس هذا الضابط الشاب في ذلك الوقت، فلقد اختار طريقًا يجعل حتى التنبؤ بما كان يجول بخاطره ضربًا من الرجم بالغيب... غير أن الذي لا شك فيه هو أن تفكيره كان يدور في أرض الواقع المليئة بالألغام القابلة للانفجار في أية لحظة، والتي كان محسن يتحرك فيها بحذر بالغ... كان على علم كامل بما يجري هناك، على الحدود المصرية الفلسطينية... ذلك أن إسرائيل بعد انتصارها المريب على العرب في عام ١٩٤٨، وبعد أن حققت بالشائعات والإعلام المدسوس ـ الذي وقع العرب والمصريون منهم في حبائله ـ كمًّا هائلًا من الأساطير والحكايات حول قسوتهم وقوتهم وقدراتهم، ثم ارتكنت على ضعف النظم العربية، وكاد اسم «إسرائيل المزعومة» يختفي تدريجيًا من صفحات الصحف، بعد أن غرقت مصر في مشاكلها الداخلية التي راحت تتفجر مشكلة وراء مشكلة وسط مباذل حكم هش الأركان، ثم... ثم عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو، كان لا بد للإسرائيليين من جس نبض هؤلاء الشبان الذين كان يتزعمهم ذلك البكباشي العنيد المسمى «جمال عبد الناصر».

وعندما قامت إسرائيل كانت مصر محتلة بثمانين ألف جندي من جنود الإمبراطورية، الذين استقروا بعتادهم وعدتهم بطول قناة السويس، وكان جيش الاحتلال هذا يشكل حاجزًا بينها وبين المصريين... غير أنه الآن، وفي تلك الظروف التي جدت بعد توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا العظمى، ومهما كان ما تحويه هذه الاتفاقية من بنود، فلسوف

تصبح المواجهة بين الإسرائيليين والمصريين صريحة بلا عائق في القريب العاجل لا الآجل!... وبعيدًا عن ألاعيب السياسة وهي مشروعة ومتنوعة، كان لا بد من جس النبض عمليًا عند الحدود... وبدلًا من ذلك الهدوء الذي كانت تقابل به بعض العمليات الإسرائيلية من حكومات ما قبل الثورة، فوجئ الإسرائيليون بردود فعل كان لا بد من عمل حسابات دقيقة لها... خاصة أن الأنباء كانت قد جاءتها من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وإيطاليا وألمانيا وهولندا بأن هذا البكباشي يبحث عن السلاح في كل مكان لجيشه الذي جاءتها الأنباء من الداخل - داخل مصر - تقول إنه أصبح يعده إعدادًا حديثًا وخاصًا!

ولا بد أن محسن ممتاز وهو يجلس في ذلك اليوم إلى رأفت الهجان، الذي كان يستعد في حماس للقفز إلى حلقة النار والبقاء فيها لسنوات لا يعلم عددها إلا الله... لا بد أنه كان يعرف كل هذا، ويحسبه بدقة، وليس هناك أدنى شك في أنه كان - على الوجه الآخر - سعيدًا كل السعادة، فلقد تحققت خطته ليس بأسرع مما تصور فقط، بل وعلى الوجه الأكمل أيضًا... وكان - وهو يتلقى آخر الأخبار من الفتى حول الحوار الذي دار بينه وبين مسيو سمحون - يريد أن يعطي نفسه الفرصة كي يرتب أفكاره... وهكذا، ما إن انتهى رأفت من حديثه حتى فوجئ بمحسن يقول له:

«إنت مش ناوي تزور شريفة؟!».

خفق قلب رأفت خفقانًا شديدًا، وابتسم ابتسامة عرفان للرجل الذي كان يدفعه نحو مخاطر بلا حدود، لكنه في نفس الوقت لم ينس عواطفه نحو شقيقته فقال صادقًا:

«أنا خايف من المقابلة دي!».

«مش يمكن تسافر من غير ما تشوفها!».

«أنا عارف!».

«ولازم تاخد هدية معاك لطارق!».

لزم رأفت الصمت فسأله محسن:

«مالك؟!».

«مش عارف حاقول لها إيه؟!».

«قول لها إنك لقيت شغل في دولة عربية!».

كان الرد جاهزًا بالطبع، وبالطبع أيضًا كان محسن قد فكر في الأمر وبحث عن مخرج، غير أن الفتى هب واقفًا في تذمر وهو يقول:

«البلاد العربية ما بيروحهاش غير المدرسين!».

«مين اللي قال؟!».

«كل الدنيا عارفة ده!!».

«البلاد العربية فيها بترول دلوقت، وانت لك خبرة في شركات البترول!».

إذن فهذا هو ساتر سفره أمام أخته وعائلته إن فكر أحدهم في السؤال عنه... كان ما قاله محسن طوق نجاة له فسرعان ما انفرجت أساريره... دس محسن يده في جيب سترته الداخلي وأخرج حافظة نقوده قائلًا:

«أنا ما كنتش عامل حسابي، إنما دول خمسين جنيه تحت الحساب علشان تشتري هدية لطارق وهدية لشريفة كمان!».

وضع الخمسين جنيهًا أمام الفتى وهو ينهض:

«مش لازم حد يشوفك دلوقت غير شريفة يا رأفت!».

اختفى اسم «ليڤي كوهين» من حديث محسن كما اختفى اسم «ياكوف بنيامين حنانيا»، ولكن صوته اتخذ تلك السمة الصارمة غير القابلة لنقاش وهو يقول:

«كلمها في التليفون بكره الصبح وروح لها بس ما تقعدش عندها كتير!».

مضى محسن تاركًا الفتى وحده في ذلك المسكن الجديد الذي كان قد انتقل إليه منذ أن قابل الشابين اللذين التقيا به في باريس... هرب من أفكاره المحتدمة إلى ذلك الإحساس الغامر بالسعادة لأنه سوف يرى شريفة أخيرًا، راح يرتب في ذهنه ما الذي سيقوله لها وكيف سيقنعها بحجته الجديدة، لاحت منه نظرة نحو الخمسين جنيهًا فاكتشف أنها لم تعد تعني بالنسبة إليه شيئًا، تساءل في عجب وهو يتناولها: كم تتقلص قيمة المال وتصغر كلما اقترب الإنسان من أهداف نبيلة!

أما محسن فلقد كان ذهنه ـ في ذلك الوقت ـ يعمل بسرعة وهو يقود سيارته إلى حيث كان يعلم أنه قد يقضي الليل بطوله دون نوم، كانت العجلة قد بدأت الدوران بسرعة وكان عليه أن يوجهها نحو الهدف بدقة لا تخطئ... هو موقن أن حوارًا سوف يدور بينه وبين حسن صقر، وأن قرارات هامة لا بد أن تتخذ، وكان عليه أن يستعد لكل هذا!

* * *

جاء صوتها ملتاعًا عبر سماعة التليفون:

«رأفت!».

«إزيك يا شريفة!».

«إنت فين؟!».

«أنا...».

«وكنت فين طول المدة دي؟».

«أصل الشغـ... ...».

«وبتتكلم منين؟!».

«من شارع قصـ...».

«شغلتني عليك!».

«يا شر...».

«يعني مش حاشوفك؟!».

«أمال أنا باتكلم ليه؟!».

اختنق صوتها ثم انفجر مغموسًا في دمع فيّاض:

«طب ما تيجي يا رأفت دانت وحشتني قوى!».

«مسافة السكة حاكون عندك!».

أعاد السماعة إلى مكانها وانصرف مهرولًا قبل أن يغلبه الدمع أمام الناس!

... وها هو التاكسي يقطع به الطريق إلى بيت شريفة، بجواره بضعة صناديق تحوي لعبًا لطارق وفستانًا لأخته شريفة... شقيقته الصغرى، صدره الحنون بعد موت أمه ثم أبيه، ذات مرة ـ وهي رضيعة ـ كان يلاعبها عندما صفعته بكفها الدقيق وهي تضحك، أمسك بيدها وقبلها، وكان لفرط حبه لتلك اليد التي صفعته، يود لو أنه أكلها أكلًا!... عندما ماتت أمه لم تكن في سن تسمح لها بمعرفة ماهية الموت، فراحت تبكي وتصرخ وقد أنشبت أظفارها في لحم عنقه صائحة:

«ماما... فأفت.. فأفت.. ماما!».

ظلت تناديه باسم «فأفت» سنوات وسنوات، وحتى عندما كبرت وتزوجت، كانت إذا ما أرادت أن تداعبه أو تدلله نادته «فأفت»... طوته الذكريات طيًّا حتى انتبه والسيارة تقف أمام الباب... نقد السائق أجره وطلب إليه أن ينتظره، غادر السيارة فارتفعت رأسه إلى أعلى وكانت شريفة هناك تطل عليه من شرفة بيتها، لوح لها بيده باسمًا وحمل صناديق

الهدايا وراح يصعد الدرج قفزًا... كانت تقف بالباب وكان هو يرتجف بشوق عنيف، تفجر الحنان في قلبه كبراكين تنفث حممًا من اللهفة، اشتم فيها رائحة الأب وحنان الأم، انحنى مسلمًا لها عنقه فغمرت وجهه بالقبلات، تحت قدميه كان طارق يجذب سرواله صائحًا في سعادة:

«خاله فأفت... خاله فأفت!».

أي قدر هذا الذي يمزق الأخ بعيدًا عن أخته؟!... أجلسته في الصالون وجلست إلى جواره تمطره بالأسئلة ولا تعطيه فرصة لإجابة واحدة، تذكرت أنها لم تقدم إليه شيئًا فهرولت لتأتي له بزجاجة مثلجة، مد يده إلى الزجاجة ثم رفعها إلى شفتيه كي يرطب بها فمه الذي جف لعابه وهو يهرب من نظراتها الفاحصة:

«احكي لي إيه أخبارك وعملت إيه في المدة اللي فاتت وانت دلوقت فين وإيه الحكاية بالضبط، مبسوط والا لأ، وازاي تغيب المدة دي كلها من غير ما تكلمني ولا حتى تبعت لي جواب؟!».

همّ بالنطق لكنها لاحقته وكأنها تذكرت شيئًا:

«وإيه حكاية تذكرة الطيارة اللي بعت تطلبها من ألمانيا دي؟!».

همّ بالإجابة فصاحت مختنقة بدمع لم يجف:

«وإيه اللي وداك ألمانيا يا رأفت؟!».

لم يكن أمامه سوى الصمت فلزمه... التقطت أنفاسها بصعوبة وجففت الدمع وارتفعت يدها تتحسس ذراعه في رفق ثم جاء صوتها وسط صيحات طارق وهو يعالج لعبته الجديدة:

«إزيك يا رأفت؟!».

حاول أن يرد لكنه لم يستطع، حاول أن يقول شيئًا لكنه لم يجد ما يقوله.

«ما لك ساكت ليه؟!».

«مش عارف أقول لك إنتي واحشاني قد إيه؟!».

قال هذا فانفجر الدمع من عينيها مدرارًا، غص حلقه وهو يتساءل بينه وبين نفسه: ماذا هي صانعة فيما هو قادم من سنين؟!!

«شريفة!!».

من خلال الدمع ترقرق صوتها:

«أنا ماليش غيرك يا رأفت!!».

«وأنا ليّ مين؟!».

«طب مش تهدى بالله بقى وتقعد جنبي وتريح قلبي؟!».

«خلاص يا ستي.. فرجت!».

قال هذا وراح يحكي لها عن وظيفته الجديدة، وكيف أن أحد مهندسي البترول الأمريكيين الذين عمل معهم في البحر الأحمر انتقل إلى إحدى البلاد العربية فطلب إليه أن يصحبه... ورغم مشقة العمل في الصحاري فلقد وافق... ما زالت الشركة الجديدة تحت التأسيس، وحتى المناطق التي سيعملون فيها لن تكون ثابتة فهم ينقبون عن البترول في الصحاري الشاسعة... لكنه ـ ومهما كانت المشقة ـ عمل ثابت، والمرتب كبير!

«يعني مش حاقدر أبعت لك جوابات؟!».

سيراسلها هو كلما كانت هناك فرصة، لكنه يعد ـ عندما يستقر به الأمر ـ أن يرسل لها عنوانه... راح الماضي يا شريفة إلى غير رجعة، ولن يعود مهما كان ومهما حدث ومهما كانت الظروف. لقد تغير بالفعل وأصبح إنسانًا آخر ولا بد لها أن تصدقه، وما سبب غيابه عنها طوال هذه المدة إلا أنه اتخذ قرارًا بألا تراه إلا وقد تغير بالفعل، ولقد طلب أن يراها اليوم

حتى يطمئنها ويطلب إليها أن تثق به... المرتب المعروض عليه مجز ولن يمر عامان أو ثلاثة حتى يكون قد اقتصد مبلغًا من المال سوف يعود كي يفتتح مشروعًا يبقيه إلى جوارها إلى الأبد!

«يعني انت مسافر تاني؟!».

صوتها يصرخ بعتاب مر!

«في خلال أسبوع إن شاء الله».

نظرت إليه طويلًا وراحت تتأمله فترك لها نفسه وقلبه يتمزق، كم سيفتقد هذا الوجه في السنوات القادمة... ترى هل قدر له أن يراها مرة أخرى أم أن هذه هي آخر مرة يرى فيها شريفة؟... تمنى لو أنه ضمها إلى صدره لكنه خشي أن تشك في الأمر، في الماضي كانت الشهور تمضي دون أن يراها لكنها كانت في متناول يده، فكيف سيراها في المستقبل وبينه وبينها آلاف الحواجز والموانع؟!

«يعني أنا مش حشوفك قبل سنتين تلاتة؟!».

«لأ طبعًا حاتبقى فيه أجازات!».

«رأفت!».

«نعم يا شريفة».

«إنت مخبي عني إيه؟!».

سقط قلبه بين ضلوعه، فهذه هي شريفة تعريه حتى من أسراره الدفينة!... لم يكن أمامه سوى الابتسام وتطييب خاطرها والتشاغل بملاعبة طارق، ولم يكن أمامه سوى الانصراف قبل عودة زوجها... ولقد تحاشى تمامًا ـ وهو ينصرف ـ النظر إليها!

جاءه صوتها نائحًا وهو يخطف الدرج خطفًا:

«مع السلامة يا رأفت».

«الله يسلمك».

«خلي بالك من نفسك!».

«ربنا يستر!».

«إبقى طمني عليك».

«حاضر يا شريفة».

«رأفت!!».

كان قد وصل إلى نهاية السلم، أوقفه نداؤها، رفع رأسه إليها... كان نصفها الأعلى مدلى من فوق حاجز السلم، رأى وجهها ساقطًا فوق وجهه، قالت بصوت مختنق متهدج:

«مع السلامة!».

فانفلت يعدو إلى السيارة التي كانت لا تزال في انتظاره، وقد غلبه الدمع هذه المرة!

* * *

يقينًا سهر محسن ممتاز مع رئيسه وزميله حسن صقر في تلك الليلة حتى مطلع النهار... وإذا كنا نفتقد شهود عيان أو أدلة مادية تؤكد هذا الزعم، فلقد كان لا بد لنا من اللجوء إلى التحليل واستقراء منطق الأشياء!

قبل بداية المناقشة، وحسب مكانة الأولويات، فلقد أجرى محسن ممتاز أمام حسن صقر ومن مكتبه الذي اجتمعا فيه، مكالمة تليفونية عاجلة مع شخص يدعى «عبد الرحيم» في مدينة الإسكندرية... كان واضحًا أنه أحد رجاله في مصلحة الجوازات والجنسية التي كان له فيها باع طويل، لقد طلب إليه في كلمات ملغزة ألا توضع أية عراقيل مهما كانت أمام طلب استخراج جواز سفر باسم شخص يهودي يدعى «ديڤيد

شارل سمحون»، وأن تتم الموافقة فورًا وبشكل روتيني وطبيعي للغاية على الطلب المقدم من هذا الشخص للسفر إلى الخارج!

لم يكن هناك وقت، وكان لا بد من تجهيز رأفت بأسرع ما يمكن... وعلى سبيل المثال فلقد كان على محسن أن يعلمه كيف يكتب خطابات سرية، كان عليه أن يلقنه أسلوب الاتصال سواء بالبرق أو البريد إذا ما كان في إسرائيل، ثم هناك أسلوب آخر لتحديد المواعيد، تلك الشفرة اللفظية التي كانت جاهزة منذ فترة، وأسلوب الاتصال في المدن الأوربية التي يقع عليها الاختيار لمقابلته عندما يتقرر هذا أو عندما يحتاج رأفت إلى هذا... ثم، وقبل كل شيء عليه أن يلتقي ـ قبل أن يرحل ـ بمصطفى عبد العظيم!

كانا قليلي الخبرة... حقًّا إن حصيلتهما من «العلم» كانت تتزايد يومًا بعد يوم وقراءتهما تتشعب وتتنوع، وسيل الكتب والتجارب والتقارير السرية والمعلومات ينهال عليهما من الخارج بعد أن انفتحت أمام الرجال ـ بالمران والمراس والاحتكاك وتعدد المعارف ـ أبواب لم تكن تخطر ببال أحدهم!...ولقد وصل الأمر ـ في منتصف هذا العام ١٩٥٥ ـ إلى أن مجموعة من الأساتذة المتخصصين كانوا قد بدءوا في وضع برنامج تدريبي للضباط الشبان الذين كانوا ينتقون بعناية فائقة!

راحا يناقشان الموضوع من كل جوانبه، ويقتلانه بحثًا وتمحيصًا... لكن المناقشة التي أخذت وقتًا أطول من غيرها ـ هكذا قال محسن لعزيز الجبالي فيما بعد ـ كانت تدور حول طبيعة الساتر الذي سوف يعيش الفتى خلفه في تل أبيب!

لم يكن الموضوع وليد الساعة بطبيعة الحال، لكن المناقشات السابقة لم توصلهما إلى قرار حاسم بشأن هذا الموضوع... ذلك أن الساتر المثالي الذي ارتأياه بدا لهما باعثًا على الشك!

وإذا كان لا بد لهذا الساتر أو الوظيفة أو العمل الذي كان على

الفتى أن يمارسه هناك حتى تكون حياته طبيعية للغاية، فلا بد أن تكون فيه أجزاء من الواقع ومن حياة الفتى نفسه... فلقد وجدا نفسيهما أمام أربع حقائق هي: أن رأفت علي سليمان الهجان الذي سيصبح اسمه من الآن فصاعدًا «ديڤيد شارل سمحون» قد عمل كممثل لأدوار صغيرة في السينما، وعمل كموظف إداري في شركات البترول، ثم عمل بعد ذلك في السياحة، كما مارس التجارة في الشهور الأخيرة!

استبعدا العمل في السينما لأن إسرائيل في ذلك الوقت لم تكن فيها صناعة للسينما... كما استبعدت فكرة العمل في مجال البترول لأن أراضي فلسطين ليست فيها حقول بترول... ومن ثم فلقد أصبح الاختيار محصورا بين العمل في مجال السياحة من ناحية، ومجالات التجارة من ناحية أخرى!

ولقد تبدى لهما أن العمل في السياحة هو أنسب السواتر إليه، ذلك أن هذا المجال يسهل له الخروج من إسرائيل في أي وقت يشاء فيصبح الاتصال به غير محفوف بالشكوك، فوق أن هذا المجال بالذات يعطيه الحق في التجوال داخل البلاد كيفما يشاء مع أفواج السياح أو حتى وحده، وبذلك تتاح له فرصة تسقط المعلومات والأخبار من أي مكان...

بدت لهما السياحة أكثر السواتر مناسبة لرأفت الهجان أو «ديڤيد شارل سمحون»، لكن السياحة كانت تستلزم مالًا يبدأ به الفتى مشروعه، فمن أين لليڤي كوهين أو ياكوف بنيامين حنانيا ذلك المال؟

كانت هذه عقبة، وكان عليهما أن يجدا مخرجًا، فراحا يقدحان ذهنيهما بحثًا عن هذا المخرج!

بدا لهما الوقت ضيقًا، بل خانقًا...

وضعا شفرة مكونة من كلمات قليلة تفي بالغرض في أضيق الحدود،

كان على رأفت ـ على سبيل المثال ـ إذا ما وصلته برقية تضرب له موعدًا في روما في الساعة السادسة من مساء اليوم الثامن والعشرين، أن يترجم هذا بتغيير روما إلى باريس، والسادسة إلى الرابعة، واليوم الثامن والعشرين إلى اليوم الثلاثين.

كان على محسن أن يدربه على الكتابة السرية بواسطة طريقة شديدة البدائية، لم تكن الأحبار السرية ـ التي برعت فيها المخابرات المصرية والإسرائيلية معًا فيما بعد، وتفوقتا فيها على كل دول العالم ـ معروفة... وكان على الفتى أن يكتب خطاباته فوق ورق «زبدة» على أن يضع تحته ورقة بيضاء، ذلك أن المادة الشحمية في ورق الزبدة سوف تلتصق بالورقة البيضاء دون أن تظهر، فإذا ما كتب فوق هذه الورقة البيضاء خطابًا يحوي أي كلام بالحبر العادي... ثم وصل الخطاب إليهما عبر مسالك بالقطع مركبة، كان عليهما أن يسكبا فوق ورقة الخطاب البيضاء زجاجة حبر كي تتشربه فيما عدا تلك الكلمات المكتوبة بشحم ورق الزبدة... وهكذا يقرءان الخطاب!

كانت الأساليب التي يتبعانها بدائية، بل ودون مبالغة ساذجة!!... ولكن، أي طريق آخر كان باستطاعتهما أن يسلكاه؟!

الشيء الهام الذي استقر عليه رأياهما والصباح يقترب هو ألا يكلف الفتى، في الفترة الأولى لذهابه، بأي نوع من أنواع النشاط السري، بل أن يحظر عليه هذا حظرًا تامًّا... وأن يكرس كل جهده، وكل إمكاناته، في بناء ذلك الساتر الذي كان عليه أن يعيش خلفه، وأن يتعرف على المجتمع والناس... وأن يتأقلم ويبني علاقاته بحذر بالغ... ثم، ثم إذا ما استقر له الأمر تمامًا، أعطياه الضوء الأخضر كي يبدأ نشاطه!

* * *

ارتد الفتى إلى الخلف عندما رأى محسن يقف بالباب ـ في الموعد تمامًا ـ ذلك أن محسن لم يكن وحده!

لم يخف رأفت دهشته وهو يصافح محسن وضيفه... استقر بهم المجلس فسأله محسن:

«رحت لشريفة».

«ويا ريتني ما رحت!».

«أكيد تعبت يا رأفت!».

«ولسه تعبان لحد دلوقت!».

أدرك الفتى أن هذا الوافد الجديد مع محسن على علم بكل شيء... كان شابًّا نحيلًا أسمر الوجه لامع البشرة ذا شعر ناعم فاحم وشارب رقيق يجعله أقرب إلى أثرياء الهنود منه إلى المصريين، رأى ملامحه تشع ابتسامة دائمة حتى ولو لم تبتسم شفتاه، بدا أنيق الملبس حتى ليبدو وكأنه لوحة مرسومة لا إنسانًا يتحرك ويحيا... سألهما الفتى عما يشربان فطلب إليه محسن شايًا مركزًا على الطريقة الريفية، فلقد كان في حاجة إلى تنبيه كل حواسه بعد ليلة شاقة، ويوم كان أكثر مشقة... ما إن وضع الشاي بينهم حتى قال محسن بأسلوبه المستقيم:

«الأخ مصطفى عبد العظيم».

«أهلًا وسهلًا!».

«الأخ مصطفى هو اللي حايبقى يقابلك بره!».

في لهفة هتف رأفت:

«وانت يا محسن بيه؟!».

ضحك محسن صائحًا:

«وهو أنا فاضي لك يا أخينا؟!».

تضاحك الثلاثة ثم ساد الصمت لثوان عاد محسن بعدها إلى الحديث:

«طبعًا أنا حاجي علشان أشوفك، لأنك بالتأكيد حاتوحشني!».

عاد هذا الثعلب يعزف على أوتار عواطفه وكان لا بد أن يلين.

«فيه شوية حاجات عاوزين نتفق عليها ونتعلمها، وبيتهيأ لي إن ما فيش وقت!!».

* * *

كان الليل قد انتصف منذ ساعة وبعض الساعة عندما قاطع رأفت محسن وهو يهتف:

«كل ده حلو يا محسن بيه بس شركة السياحة دي محتاجة لفلوس!».

«طبعًا!».

«وانت قلت لي إن اليهودي الفقير المهاجر لإسرائيل، بيوزعوه على الموشاف أو الكيبوتز!».

«ده صحيح!».

«وأنا بقى المفروض إني على الحديدة، ياكوف بنيامين حنانيا كان بيدور على شغل هنا ومكانش لاقي ياكل!».

«تمام!».

«يبقى حايوزعوني على الموشاف أو الكيبوتز!».

«ده لو مكانش معاك فلوس تبدأ بيها!!».

«وليفي كوهين والا ياكوف حنانيا حايجيب فلوس منين؟!».

«حاندبر الحكاية دي!».

هم رأفت بالحديث فارتطم بكلمات محسن:

«قلنا حاندبر الحكاية دي!!».

فلزم الصمت!

* * *

في اليوم التالي، كانت هناك جلسة أخرى... امتدت الجلسة خمس ساعات متوالية، قال رأفت بعدها:

«تفتكر الإسرائيليين ما يعرفوش حكاية ورق الزبدة دي؟!».

«طبعًا عارفينها!».

«يا خبر اسود!».

«ما لك؟!».

«دول ممكن يكشفوني بالشكل ده!».

«همّ ممكن يكشفوك لو الجواب رايح لك... إنما حايكشفوك إزاي والجواب طالع من عندهم... دول لازم يراقبوا الكام مليون اللي عايشين في إسرائيل علشان يوصلوا لك!».

«معنى كده إنكم مش حاتبعتوا لي جوابات أبدًا!».

«ونبعت لك جوابات ليه؟!... كل ما توحشنا نبعث لك تلغراف عادي بيحدد لك ميعاد في لندن يوم ١٨ الساعة ٩ صباحًا!».

«يبقى معناها إن الميعاد في بون يوم ١٦ الساعة حداشر الصبح!».

«ولو كان الميعاد في روما يوم ستة الساعة ٤ بعد الظهر؟!».

«يبقى معناها إن الميعاد في أثينا يوم أربعة الساعة ستة مساءً!».

* * *

لم يكن محسن ممتاز من هؤلاء الذين يدفنون رءوسهم في الرمال هربًا من الحقيقة، كان يعرف أن تلك الأساليب التي لقنها لرأفت وعلمه إياها أساليب شديدة البساطة، بل البدائية، لذلك لم يكن له همّ سوى:

«خليك حريص مهما كانت المغريات، وفتح عينيك كويس، ولا تعملش أي حاجة غير إنك تأسس الشركة وتشغلها وتعمل علاقات مع الناس وبس!».

«وإذا.........».

«مفيش إذا يا رأفت، سلامتك أهم من أي حاجة تانية!!».

كانا الآن يقفان كل منهما قبالة الآخر ومحسن يستعد للانصراف، سرى بينهما تيار عاطفي غامض، فقال محسن:

«وما تنساش لما تنزل من المركب في نابولي إنك تدور على مكتب الوكالة اليهودية وتروح لهم وتقول لهم إنك عاوز تروح إسرائيل...».

همّ الفتى بالحديث فقال محسن:

«أنا ممكن أديك عنوان الوكالة، لكن أنا عاوزك تدور عليه وتسأل عنه فعلًا!».

«أكيد حايبقوا مزحومين قوي!».

«بيتهيأ لك!».

في دهشة سأل رأفت:

«همّ اليهود مش بيطلعوا من هنا على إسرائيل؟!».

«أكيد فيه كام يهودي حايطلعوا معاك على نفس المركب، إبقى شوف كام واحد فيهم حايروح إسرائيل، ولما نتقابل ابقى احكي لي!».

ابتسم رأفت قائلًا:

«أنا حاشوفك في أوربا!».

«بالتأكيد لازم آجي أشوفك مع الأخ مصطفى!».

ساد الصمت بينهما وكانا لا يزالان في مكانهما بالقرب من باب المسكن، أحس رأفت بالحنين إلى محسن قبل أن يغيب هذا عنه!

«على العموم إحنا حانتقابل في إسكندرية قبل ما تسافر زي ما اتفقنا!».

«بس حكاية فلوس شركة السياحة دي مخلياني قلقان حبتين!».

«ما تقلقش... سيب الحاجات دي عليّ، وخلي بالك انت من نفسك».

ولم يكن هناك ما يمكن أن يقال، مد محسن يده إلى رأفت فتصافحا في حرارة... وكانا على موعد في الإسكندرية بعد يومين فقط، فلقد كانا يعلمان أن الوقت يجري بسرعة!

* * *

عندما عاد الفتى إلى الإسكندرية كانت ستة أيام قد انقضت في عمل متصل وتدريب شاق، لكنه ـ وهو يركب قطار الإكسبريس الذي راح ينهب الطريق بين حقول الدلتا ـ كان يشعر بأنه تغير كثيرًا، وأن ثمة أشياء جديدة وهائلة قد أضيفت إليه... هرب من التفكير في شريفة وطارق وراح يصبو بذهنه إلى ما هو قادم من أيام... شيء غريب لفت نظر الفتى، فلقد كان يعلم علم اليقين أنه ذاهب إلى حيث قد لا يعود، ورغم هذا فهو لم يكن خائفًا!... قد يكون، في أعماقه، عصبيًّا بعض الشيء، لكنه ليس خائفًا!

الأغرب من هذا، أنه كان سعيدًا بذلك الإحساس الغامر بأنه ذاهب إليهم كي ينازلهم في عقر دارهم!... كان الآن بعد أن عرفهم وخبرهم يعلم أنهم يستعملون كل أسلحتهم وأمضاها ضد وطنه، وكان سعيدًا لأنه سوف يستعمل أسلحته وملكاته كلها ضدهم، ولسوف ينتصر!!

* * *

كانت «ماجي» ثائرة عندما وصل رأفت إلى بيت «مسيو سمحون» بعد ظهر ذلك اليوم من أيام يونيو عام ١٩٥٥، كان الفتى قد غادر البيت - يوم غادره - دون أن يودعها، ولقد ظنت في البداية أنه في نزهة أو جولة من جولاته، لكنها عندما علمت بسفره إلى القاهرة ثارت ثورة عارمة وقررت اللحاق به... لكنها تراجعت عن قرارها عندما صوب إليها أبوها تلك النظرة الباردة وهو يطلب إليها أن تكف عن هذا العبث... فرجل مثل «ياكوف» يحمل على كتفيه مسئولية جسيمة، وكان عليها - إن كانت تحبه حقًّا - أن تحترم هذه المسئولية!

عندما وصل استقبلته العائلة استقبالًا حافلًا، قضى معهم فترة ما بعد الظهر حتى حان موعد العشاء... بعد العشاء حمل مسيو سمحون كأسه ثم دعاه إلى غرفة المكتب... طوال الساعات التي مضت كان الثري العجوز يتجنب الحديث معه في أي شيء، ورغم أن الفتى كان مشوقًا لأن يعرف نتائج سعي الرجل في استخراج جواز السفر والحصول على تأشيرة خروج باسم «ديڤيد شارل سمحون»... فإنه لزم الصمت هو الآخر ولم يسأل!

أغلق الفتى باب غرفة المكتب وسار العجوز إلى مكتبه، تقدم الفتى من المقعد الذي تعود الجلوس فيه أمام الرجل في الوقت الذي كان السيد سمحون يفتح درج مكتبه، همّ رأفت بالجلوس عندما سقط أمامه، فوق المكتب، جواز سفر!... لاحت على وجهه دهشة صادقة وهو يمد يده نحو الجواز ملتصقًا إياه في لهفة قائلًا:

«بهذه السرعة؟!».

«إني دائمًا ما أنجز أعمالي بدقة ودون تأخير!».

صاح الفتى وهو يقلب في صفحات الجواز:

«لقد حصلت على تأشيرة الخروج!».

قال الرجل وهو يسير إلى مقعده المفضل حاملًا كأسه:

«لم يعد باقيًا سوى أن تحدد موعد السفر قبل مضي أسبوعين، وإلا اضطررنا إلى طلب تأشيرة خروج جديدة!».

«سأذهب إذن في الصباح للسؤال عن السفن التي ستقلع إلى أوربا في الأيام القادمة!».

«لا تجشم نفسك عناء هذا!».

قال العجوز هذا وهو يمد يده إلى ورقة مطوية فوق المكتب، قدمها إلى الفتى مستطردًا:

«ها هو جدول بمواعيد كل السفن المقلعة إلى أوربا خلال الأسبوعين القادمين!».

ساد الصمت فلقد كان العجوز يشعل الآن سيجارًا... نفث الدخان في هواء الغرفة وراح يتتبعه ثم قال فجأة: «إن ماجي متيمة بك!».

كان ما قاله الرجل مفاجأة لم يتوقعها الفتى لكنه هتف:

«أعرف هذا!».

صمت لثوان عاد بعدها إلى الحديث:

«أعرف هذا وإن كنت لا أستطيع أن أصنع شيئًا!».

أطال العجوز النظر إليه كمن يطلب تفسيرًا، فاستطرد الفتى:

«إن حياتي غير مستقرة كما تعلم... ثم إني ذاهب إلى مجهول لا أعرفه... قد يكون الأمر حسنًا في إسرائيل وقد لا يكون، فكيف أربطها بعجلة غير مستقرة الدوران؟!».

التمعت في عيني العجوز نظرة رضا لم تخطئها عين الفتى.

«إننا لم نتحدث عما ستفعل».

«كنت أظن أنه معروف تمامًا أني ذاهب إلى إسرائيل!».

«ليس هذا ما أقصده... إني أسألك عما ستفعل هناك!».

«لست أدري على وجه اليقين وإن كانت هناك أفكار تراودني!».

«مثل؟!».

«إن لي خبرة لا بأس بها في السياحة».

«هل تريد العمل في إحدى شركات السياحة؟!».

«لم أتعود أن أكون مرءوسا لأحد!!».

«إذن فلسوف تفتح مكتبًا أو تنشئ شركة!».

«هذه هي العقبة!».

دس العجوز يده في جيب سترته الداخلي وأخرج مظروفًا دفعه نحو الفتى قائلًا:

«هذا شيك بخمسة عشر ألف دولار، وهي كافية تمامًا لإنشاء شركة محترمة في تل أبيب!».

جمد رأفت في جلسته ذاهلًا، كانت المفاجأة أقوى من كل توقعاته... لاح له وجه محسن ممتاز وهو يقول في إصرار: «حاندبر الحكاية دي»... ولطالما ألح عليه بالحديث حول أمر التمويل لكنه كان يرجئه لسبب بدا له غامضًا، فهل كان يتوقع ما فعله الخواجة سمحون؟!

«ألا تريد النقود؟!».

كانت يد الرجل ممدودة بينما ظل رأفت جامدًا في مكانه... وجد نفسه أخيرًا فقال دون أن تمتد يده إلى المال:

«لقد فعلت من أجلي الكثير!».

«لكل شيء ثمن!».

انتبهت حواس الفتى:

«وما هو الثمن؟!».

«ألا تغير اسمك... أن تظل ديڤيد شارل سمحون!».

ولم يتردد الفتى، وقال:

«هذا وعد!!».

* * *

مالت الشمس نحو الغروب واصطبغت مياه البحر بلون قان، وكان محسن يجلس مع الفتى في الشرفة الخشبية لإحدى كبائن شاطئ سيدي بشر رقم واحد... كان عدد المصطافين قليلًا، فامتحانات المدارس لم تكن قد بدأت بعد وكان باقيًا على موسم الإجازة الصيفية شهر أو بعض الشهر!

قال محسن في بساطة إنه أخّر مسألة تمويل شركة السياحة لأنه كان يتوقع - وإن لم يكن واثقًا - أن يفعل الثري العجوز ما فعله، لا لشيء، إلا لأن الأمر الآن سيصبح أكثر طبيعية ولن يبعث على أدنى درجة من الشكوك أو الخطورة... لقد كان جاهزًا بالمال وكانت الحجة صلبة وسليمة ومأمونة في نفس الوقت... وإذا كان الفتى قد عمل على تهريب أموال بعض اليهود من مصر فلقد كان يتقاضى منهم عمولة لما كان يفعله، وبإحصائية بسيطة كان من الممكن للفتى أن يقتصد في الشهور الأخيرة مبلغًا يقارب المبلغ الذي أعطاه إياه السيد سمحون!

وقع الاختيار على السفينة الإيطالية «إسبريا» كي يرحل عليها الفتى لأنها كانت تسير على خط ملاحي منتظم فيما بين الإسكندرية ونابولي... وسوف يتيح له موعد إبحار السفينة فرصة أطول كي يبقى في مصر... سيكون هذا هو لقاؤهما الأخير فوق أرض الوطن فهذا أفضل من الناحية الأمنية، وعليه أن يزداد تأقلما وسط عائلة السيد

سمحون، فحياته وسطهم سوف تفصله ولو بالخيال عن مصر... حتى إذا ما حان وقت الرحيل كان الأمر أقل مشقة!!

أخرج الفتى مظروفًا مغلقًا من جيبه كتب عليه بخط واضح:

«لا يفتح إلا بعد موتي!!» وكان التوقيع «رأفت الهجان» قدم المظروف المغلق إلى محسن وهو يقول:

«ممكن تخلي الجواب ده عندك؟!».

قرأ محسن ما كتبه الفتى فوق المظروف، فرفع إليه عينين مليئتين بالعتاب... هتف الفتى:

«الأعمار بيد الله يا محسن بيه!!».

أطرق محسن صامتًا وهو يدس المظروف في جيبه، فقال الفتى بصوت مغموس في عواطف فياضة:

«إنت وعدت إنك حاتجيني مع مصطفى بيه!».

«وحاوفي بوعدي إن شاء الله!».

«مش عاوز تقول لي حاجة تانية؟!».

«أيوه... فيه حاجة مهمة عاوز أقول لك عليها!».

«إيه هي؟!».

«مصر أمانة في إيديك يا رأفت!!».

«وأنا رقبتي سدادة».

ولأول مرة... لأول مرة منذ أن التقى الفتى بهذا الضابط الشاب يغمره ذلك الفيض من الانفعالات والعواطف، وهو يسلم نفسه لذراعي محسن المفرودتين بكل اتساعهما... ضم كل منهما الآخر في عنف من يريد أن يحتفظ بصاحبه داخل صدره... استسلم الفتى لتلك اللحظات

في سعادة قال عنها فيما بعد إنها كانت ذروة من ذرا حياته، قال الفتى وهو يخطو مغادرًا الكابينة:

«أشوفك بخير!».

«خلي بالك من نفسك يا رأفت... البلد محتاجة لك!».

وكانت هذه هي آخر الكلمات التي سمعها رأفت علي سليمان الهجان من محسن ممتاز قبل الرحيل!

* * *

قال له محسن كثيرًا إنه سوف يشعر بالخوف في البداية، وإن هذا أمر طبيعي، وإن عليه كي يقاوم الخوف أن يندمج تمامًا في حياته الجديدة... لكنه أبدًا لم يشعر بالخوف حتى وهو يخطو صاعدًا سلم السفينة «إسبريا» في طريقة إلى مجهول يفغر فاه... على الرصيف، وكما توقع محسن، التقى بالعديد من يهود مصر الذين سيسافرون معه، كان من بينهم «سوسو ليڤي» تاجر الساعات بالعتبة الخضراء، والذي كان قد باع دكانه وصفى أعماله... بدا الفتى لهم غريبًا، كان أنيقًا يرتدي أفخر الثياب، كان متورد الوجه وقد اختفى ذلك الشحوب الذي ينبئ عن حياة شاقة، لكن دهشتهم اختفت وهم يرون عائلة سمحون في وداعه، كان هناك المليونير اليهودي وزوجته وابنتاه، وكانت إحداهما تبكي بلا توقف وقد تعلقت بذراعه... ثم سرى الهمس بين الجميع بأن «ليڤي كوهين» الذي اسمه الحقيقي «ياكوف بنيامين حنانيا» يخرج من مصر تحت ستار أنه «ديڤيد شارل سمحون»... وكان لا بد من احترام هذا احترامًا رفيعًا، وعندما حانت لحظة الوداع تعلقت «ماجي» بعنقه وانفجرت في النحيب، قبلته أختها في وجنتيه كما قبلته أمها، وصافحه الأب بحرارة، لكنه ما لبث أن ضمه إليه... وها هو صعد سلم السفينة إلى حيث كان أحد ضباطها في انتظاره، وقد عرف أن هذا السيد الصاعد من ركاب الدرجة الأولى... حمل البحارة حقيبته إلى كابينته في الطابق

الثالث، لكنه آثر الوقوف بعض الوقت مع مجموعات اليهود التي تناثرت فوق السطح وهم يثرثرون ويضحكون ويتصايحون بالنكات والسخرية من مصر والمصريين... كانوا ـ الآن ـ يقفون فوق أرض أجنبية، ولا يستطيع أحد من المصريين لهم شيئًا، حاول أن يجاريهم لكنه لم يستطع، تركهم متسللًا إلى الطابق العلوي... في الممر الظليل الذي يطل على رصيف الميناء سار، ولم يكن يعرف إلى أين هو ذاهب، ولم يكن هناك هدف يسعى إليه إلا الابتعاد عن هؤلاء الذين عاشوا في بلاده وتمرغوا في خيراتها وخيرات شعبها وطيبة قلبه، ثم تصبح أولى كلماتهم وهم يغادرونها سبًّا وهتكًا لعرضها!!

الآن يستطيع القول إن بحورًا أصبحت تفصل بينه وبين شريفة!

أكد له محسن أنه سوف يشعر بالخوف فلم لا يشعر به ؟!

دوت صفارة السفينة معلنة وقت الرحيل، فنشط البحارة على السطح وفوق الرصيف سواء بسواء، تعالت الصيحات وشملت السفينة حركة راحت تدب بعنف أخذ يتصاعد حتى تحركت مبتعدة عن الرصيف الذي تشبثت به عيناه، كانت «ماجي» تلوح بمنديل أبيض ودمعها ينهمر بغزارة، راح يلوح لها وهو يسبح بعينيه فوق الوجوه فهي آخر من سوف يراه فوق أرض مصر، في لحظة مجنونة ارتج حتى الأعماق وكأن صاعقة قد أصابته، جحظت عيناه وفغر فاه وهو يحملق في الرصيف!

كان محسن هناك!!

أمامه مباشرة، خلف عائلة سمحون تمامًا، همّ بأن يلوح له وهو ينتفض لكنه تراجع، فكيف يصبح وداع الأصدقاء حرامًا؟!

دوت صفارة السفينة مرة أخرى بنغمة خاصة فرفع كل من فوق الرصيف أيديهم ملوحين مودعين، كما رفع كل من فوق سطح السفينة أذرعهم ملوحين مودعين، وكانت عائلة سمحون بكاملها تلوح له،

خلفها كان محسن يلوح هو الآخر، فرفع يده وأخذ يلوح له... لم يكن يرى سواه، وكان كل منهما يلوح للآخر... حتى أصبح نقطة بعيدة المنال!

* * *

عندما كانت السفينة إسبريا تعبر بوغاز ميناء الإسكندرية في طريقها إلى عرض البحر اللانهائي هبت الريح فتمايلت السفينة يمنة ويسرة، وحمل الهواء جيوشًا من رذاذ الماء راح يلطم وجه الفتى وكأنها إبر ناعمة الملمس فارتجف... ضم ذراعيه أمام صدره وهو يستشعر شيئًا غريبًا في أعماقه، شيئًا كالثعبان كان يتلوى في لاوعيه بازغًا إلى الوعي في إصرار منكود، استغرق الفتى في النظر إلى مياه البحر الزرقاء وهو يستسلم لهذا الإحساس الذي ما أن انتبه إليه حتى سرت في جسده قشعريرة طاغية... فلقد اكتشف أنه الآن، والآن فقط، كان يشعر بالخوف عملاقًا مهولًا راح يجتاحه اجتياحًا!

* * *

كان الليل قد هبط على القاهرة وأضيئت أنوار الشوارع عندما وقفت «فراو سمحون» بباب المبنى الرئيسي لجهاز المخابرات العامة المصرية... بجوارها كان يقف عزيز الجبالي وقد بدا عليه الإرهاق الشديد، قالت قبل أن تدلف إلى السيارة السوداء الألمانية الصنع التي خصصت لها منذ أن هبطت أرض مصر: إنها تشعر وكأنها عاشت في يومين سنوات بكاملها... ثم أبدت دهشتها البالغة من حدة ذاكرة عزيز الجبالي، قالت باسمة:

«كان يخيل إليّ في بعض الأحيان أنك لا تسترسل في الحديث بتلقائية.. لقد كنت تحكي وكأنك تقرأ كتابًا مفتوحًا!».

ضحك عزيز موضحًا:

«لقد قصصت عليك ما لم أعشه، فلقد كنت في تلك السنين ملازمًا في الجيش المصري!».

تنهدت هيلين سمحون وهي تستعد لركوب السيارة قائلة:

«على كل لقد كانت هذه قصة رأفت الهجان... أليس كذلك؟!».

بدت الدهشة في عيني عزيز وهو يتساءل:

«ماذا تقصدين فراو سمحون؟!».

«إنني في انتظار الغد... كي أسمع قصة ديفيد شارل سمحون!».

قالت هذا وهي تدلف إلى السيارة التي انطلقت بها في جوف الليل، إلى حيث مقرها السري في مصر الجديدة!

الجزء الثاني

الفصل الأول

لقاء في مدينة محترقة

قال عزيز الجبالي لهيلين سمحون في صباح اليوم الثالث: إن القصة تدخل الآن مسارًا محفوفًا بالمخاطر، وإذا كان الفتى قد غادر مصر في بداية النصف الثاني من عام ١٩٥٥، فإن مصر كانت تنتظر عامًا حافلا وخطيرًا ومليئًا بالأحداث، لم يكن أحد ينتظر أو يتوقع تلك المعارك الضارية التي أصبح على مصر أن تخوضها بعد عام وبعض عام دفاعًا عن كرامتها واستقلالها وسيادتها على أرضها، بل ووجودها كدولة ذات كيان واعتبار ودور قُدر لها أن تلعبه في تلك الحقبة من تاريخ العالم... وعلى كل، فإن الفتى عندما أبحر على ظهر سفينة الركاب الإيطالية «إسبريا» لم يكن مطلوبًا إليه أن يصنع شيئًا سوى بناء ساتره وتأمين نفسه، وبالرغم من ذلك فلقد صنع... لم يكن مطلوبًا إليه أن يتسمع أو يتسقط الأخبار والأسرار أو يعرض نفسه ومشروعه للخطر... ولكنه ـ وعندما كان معرضًا لخطر حقيقي ـ لم يستطع إلا أن يقوم بواجبه ضاربًا عرض الحائط بأمنه وسلامته وحياته كلها!

ولقد قال الفتى فيما بعد: إنه لم يستطع إلا أن يفعل ذلك، فعندما أمم جمال عبد الناصر قناة السويس، أدرك ـ وقد كان هناك في بيت العدو ـ حقيقة ما يضمرونه تجاه مصر، لم يكن لإسرائيل في القناة ناقة ولا جمل،

وبالرغم من ذلك، هاجت وماجت ولعبت تحت السطح ألعابًا خطرة سرعان ما تكشفت، وكانت صدورهم تغلي بالحقد والغل وقلوبهم ترتجف رعبًا وخوفًا من أن تصبح مصر قوية!!

* * *

كانت لحظات الإبحار عصيبة عليه، ولقد حكى بعد سنوات ما حدث له في تلك اللحظات، قال: إنه لم يستطع أن يحبس دمعه رغم كل محاولاته لحبس الدمع، كان قد غادر مصر قبل ذلك مرات فلم تدمع عيناه، لكنه في تلك المرة راح يتساءل ـ وعيناه تتشبثان بالأرض التي كانت تبتعد عنه لحظة بعد لحظة ـ إن كان قد قدر له أن يرى مصر مرة أخرى... أم أن هذه هي آخر مرة يستنشق هواءها، وتنعم عيناه برؤية أرضها... قال فيما بعد محاولًا التعبير عن نفسه: إن حب مصر ليس كحب الأوطان، فهو نوع من العشق الخفي العسير على التفسير... تساءل والسفينة تبتعد إن كان سيرى شريفة مرة أخرى، طلب إليها ـ بينه وبين نفسه ـ أن تسامحه فذلك هو قدره... قال: إن دموعه كانت تتساقط وهو يقف وحده في الممشى العلوي للسفينة، بينما ضحكات اليهود وصيحاتهم تأتيه من السطح السفلي مجلجلة بالسخرية من وطنه ومواطنيه!

وعلى كل، فلقد استطاع ـ ولم يكن أمامه طريق آخر ـ أن يتغلب على آلامه ومخاوفه التي كانت لا تزال كامنة متوارية أمام طوفان الحب الذي تدفق في صدره نحو بلده... استطاع أن يعود إلى رفاق الهجرة من اليهود في اليومين اللذين قضاهما على ظهر السفينة، وأن يندمج معهم حتى وصلت إلى نابولي... كان لا بد أن يدرب نفسه على سماع السباب وهو ينهال على وطنه، والغل وهو ينهش ناسه... غير أن الأحداث راحت تتوالى مع وصول السفينة إلى الميناء الإيطالي الشهير، كان هناك عدد لا بأس به من مندوبي الوكالة اليهودية في استقبال المهاجرين، وكان

الاستقبال دون شك حافلًا، غير أن استقباله هو بالذات كان ذا طبيعة خاصة!

«السيد ياكوف بنيامين حنانيا... أليس كذلك؟!».

لم يكن قد غادر السفينة بعد، كان لا يزال يقف فوق السطح بجوار حقيبته الوحيدة وسط زحام الركابِ وصيحاتهم وحركة البحارة ونداءاتهم... انتفض ملتفتًا ليواجه رجلًا أسمر الوجه ربع القوام أشيب الشعر يقف بجواره شاب أشقر قوى العضلات قاسي الملامح... ها هم يأتون إليه باسمه الخفي متربصين أو مخدوعين وعليه أن يحتفظ بيده فوق أيديهم منذ البداية ومهما كانت نواياهم!

«ماذا أستطيع أن أقدم لكما؟!».

قال الرجل في أدب مقدمًا نفسه:

«صموئيل عازار!».

ثم التفت نحو زميله الشاب:

«وهذا زميلي شيمون بن جور!».

في صرامة قال الفتى:

«وأنا ديفيد شارل سمحون!».

ابتسم الرجل ابتسامة العارف ببواطن الأمور، ثم قال وكأنه يطمئنه:

«نحن من الوكالة اليهودية!».

تلفت حوله متظاهرًا بالقلق مغمغمًا في سخرية:

«إن كنتما كذلك حقًا، فلا بد أنكما تعرفان أن السفينة مليئة بغير اليهود!».

تبادلا نظرة دهشة فأردف في حسم غاضب:

«إن في مصر رجلًا أعطاني اسمه، وزور هناك أوراقًا رسمية كي

يساعدني على الخروج... ولو اشتم أحد من المصريين حقيقتي، فلست أدري ما الذي يمكن أن يفعلوه بهذا الشيخ المسكين وزوجته وابنتيه؟!».

راح ينظر إليهما متلذذًا بالحرج الذي أوقعهما فيه... تمتم الرجل معتذرًا:

«الحق معك سيد سمحون، لكننا جئنا كي نرحب بك!».

رد في اقتضاب:

«شكرًا».

عاد الرجل إلى الحديث في تزلف:

«أعتقد أنك ذاهب إلى إسرائيل؟!».

شدد الفتى على نغمة السخرية:

«وهل هناك مكان آخر؟!».

تهلل وجه الرجل وهو يهتف في صوت خافت.

«نحن هنا في خدمتك... فإن كانت لديك أية رغبات فإنه يسعدنا أن نلبيها!».

«ليس لي سوى رغبة واحدة، أن أقضي بضعة أيام في راحة تامة!».

ولقد فهما ما يقصد، قالا إنهما حجزا له غرفة في فندق، وأن تذكرة سفره إلى إسرائيل جاهزة ودون أي مقابل وما عليه إلا أن يحدد موعد سفره... صحباه إلى فندق، وكان أول ما فعله أمامهما هو تقديم الشيك الذي أعطاه إياه السيد سمحون في الإسكندرية إلى إدارة الفندق راجيًا صرفه بأقصى سرعة...

ودع الرجلين وصعد إلى غرفته بعد أن أفهمهما أنه ليس في حاجة إلى أي إزعاج فلقد كانت أيامه الأخير في مصر شاقة... ولقد ردّ الشاب قائلًا

إنهما يفهمان ما يقصد جيدًا، وإنهما يعتذران مرة أخرى عن الخطأ الذي وقعا فيه دون قصد، وإن كل ما يبتغيانه أن يسهلا له الإقامة في نابولي ثم السفر إلى إسرائيل، قال الشاب هذا فأردف زميله:

«ولكن هناك نقطة أخرى نطلب مساعدتك فيها!».

«مساعدتي؟!».

قال الرجل:

«لقد بلغنا أن المجموعة التي خرجت معك من مصر في حاجة إلى من يقنعهم!».

«يقنعهم؟!».

«نعم... يبدو أن بعضًا منهم قرروا السفر إلى أمريكا اللاتينية، والبعض الآخر ـ ربما لارتباطات عائلية ـ قرروا الهجرة إلى فرنسا أو الولايات المتحدة!».

في استنكار حقيقي ودهشة غير مصطنعة هتف الفتى:

«ما هذا الذي تقوله؟!».

«للأسف ... إنها الحقيقة!».

لم يكن الفتى قد ناقش مع أي من رفاق الهجرة مسألة الذهاب إلى إسرائيل أو إلى أية دولة أخرى... وبالرغم من حديث محسن معه في الموضوع، فلقد كان يتصور أنهم جميعًا ذاهبون إلى أرض المعاد!

«ألم يخرجوا من مصر كي يذهبوا إلى إسرائيل؟!».

هكذا تساءل في عجب، فهز الرجل رأسه نفيًا، ونظر إليه كمن يستنجد به، فقال الفتى وهو يمضي نحو مصعد الفندق:

«على كل فما زال أمامنا بعض الوقت!!».

* * *

صعد إلى غرفته وكان عليه أن يستعد الآن للقائه الأول - خارج مصر - مع مصر!... عليه أن يستعد للقاء بعد يومين مع ذلك الشاب الأسمر الشديد الأناقة اللامع الشعر الذي جاء به محسن ذات يوم إلى مسكنه بالقاهرة، عليه أن يستعد للقاء مركب ومعقد مع «مصطفى عبد العظيم»... وكان عليه - قبل كل شيء - أن يعد نفسه للقفز إلى بؤرة النار!!... للسفر إلى إسرائيل!

حاول أن ينام فلم يستطع!

حاول أن يستريح دون جدوى!

بدأت الشكوك تداعبه في عنف، فأخذ يدخن وفي رأسه سؤال يتردد بلا انقطاع: ألا يكون الإسرائيليون قد اكتشفوا أمره دون أن يشعر هو ومحسن؟!... من الواضح أنهم يعرفون عنه كل ما أشاعه عن نفسه وسط اليهود في القاهرة، وليس ذكاء منه أن يكتشف ذلك فعيونهم في مصر تمدهم - أولًا بأول - بكل شيء... فمن يدريه أن عيونًا أخرى لا يعرفها هو أو محسن قد تجسست وتحسست وعرفت بأمره فقرروا اصطياده؟!... ثم، ألا يكون هذا الترحيب المبالغ فيه نوعًا من «جر الرجل» إلى إسرائيل حيث يصبح في قبضتهم هناك وتحت رحمتهم؟!... إنه الآن في أرض إيطالية، ولا بد أنهم يتظاهرون بكل هذا الذي يتظاهرون به حتى يصبح بين أيديهم خالصًا لانتقامهم، ألا يصبح - والأمر كذلك - كل ما يراه من ترحيب واحترام بل وموافقة على كل ما يقوله أو يقترح وكأنه الآمر الناهي في عالم لا يعرف عنه شيئًا - أمرًا منطقيًا إلى أبعد الحدود؟!

عاش رأفت طوال اليومين التاليين في عذاب مقيم... ولقد فكر في التراجع، فكر - عندما يلتقي بمصطفى عبد العظيم - أن يعتذر، وكفى الله المؤمنين القتال ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه أيضًا... لكنه - بالرغم من كل هذه المخاوف التي كانت تعربد في صدره - كان يندفع في تمثيل دوره وكأن قوى خفية تدفعه دفعًا إلى حيث لا يستطيع التوقف أو التراجع!

ولقد كان هذا الموضوع بالذات هو أول ما فاتح به مصطفى عبد العظيم، عندما التقى به وسط أطلال مدينة محترقة!!

* * *

في صباح اليوم الثالث لوصوله إلى نابولي، اطمأن أنه غير متبوع! خلال اليومين السابقين بذل جهدًا شاقًا في إقناع يهود مصر بالهجرة إلى إسرائيل! عاود رجلا الوكالة اليهودية الاتصال به وتعاملا معه كما يحب ويرضى، عقدا له عدة اجتماعات مع رفاق السفينة الذين غادروا مصر معه، وكان لكل منهم حجة وارتباط في أي أرض في الدنيا عدا أرض «المعاد»... بذل كل ما يستطيع من جهد فلم يقنع أحدًا منهم سوى «سوسو ليڤي» تاجر الساعات في ميدان العتبة الخضراء، ذلك الذي قاسمه رزقه لشهور طويلة... شكره مندوبا الوكالة اليهودية على ما بذله من جهد في حرارة وهما يسألانه إن كان في حاجة إلى شيء... غمغم متذمرًا بأن الشيك لم يصرف بعد، وإذا كان مسحوبًا على أحد بنوك سويسرا فلا بد أن الأمر يقتضي بعض الوقت، ولكن يومين مضيا دون أن يأتي رد وهذا كثير، وعده مندوبا الوكالة بأن كل شيء سيكون على ما يرام في خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة.

«ثم إن هناك أمرًا أرى أنه بالغ الأهمية!».

«ما هو سيد سمحون؟!».

«ألا تريان أن اهتمامكما الشديد بشخصي قد يلفت أنظار البعض هنا؟!».

«ما الذي تقصده بالضبط؟!».

«ألا يكون هذا الاهتمام خيطًا يوصل المصريين - ولا بد أن لهم عيونًا هنا - إلى حقيقتي؟!».

ابتسم الشاب ذو الملامح القاسية وهو يقول ساخرًا:

«لا تخش شيئًا يا سيدي، إنك هنا في حمايتنا!».

بدت على ملامحه علامات امتعاض واضح:

«ليس هذا ما أقصده!».

ارتبك الشاب وهم الرجل بالحديث فاستطرد الفتى:

«أنا لا أقصد شخصي بالذات... ففي مثل هذه الأمور أستطيع أن أتصرف كما ينبغي، ولعلكما تعرفان أن لي مع المصريين جولات عديدة!».

صدَّقا على حديثه بكلمات مختلطة فداخله السرور.

«إن ما أخشى عليه ـ مرة أخرى أيها السيدان ـ هو هذا الشيخ الذي أعطاني اسمه في الإسكندرية!».

تبادلا النظرات وكانا يبدوان في حيرة.

«إن له ابنتين في عمر الزهور!!».

أراد الرجل أن يحسم المناقشة فقال:

«وما الذي تطلبه منا سيد سمحون؟!».

«أن تعاملاني على أني ديڤيد شارل سمحون وليس ياكوف بنيامين حنانيا!».

«مرة أخرى لا بد لنا من أن نعترف بأن الحق معك!».

وهكذا اطمأن رأفت الهجان إلى ابتعاد الوكالة اليهودية عنه، راح يراقبهما وهما ينصرفان مهرولين كطفلين أذنبا، تيقن اليوم من أنهما أطاعا توجيهاته... في صباح اليوم التالي غادر الفندق في العاشرة، قام بجولة حول المكان فازداد اطمئنانه، استقل سيارة أجرة حتى وسط المدينة، دلف إلى أحد المقاهي الشهيرة واحتسى فنجانًا من القهوة الإيطالية باللبن ـ كابوتشينو ـ مسحت عيناه المكان في يقظة، أشارت

الساعة في معصمه إلى اقتراب موعد المكالمة التليفونية التي كان عليه أن يجريها في صباح اليوم الثالث لوصوله إلى الأراضي الإيطالية، غادر المقهى وسار في الشارع كمن يتسكع على غير هدى، مر بكشك تليفون كان قد رصده قبل دخوله إلى المقهى، توقف كأنه تذكر شيئًا وأخرج نوتة تليفوناته الصغيرة وفتحها وراح يقلب صفحاتها حتى توقف عند صفحة لكنه لم يقرأ شيئًا، كمن وجد الرقم دلف إلى الكابينة، كان يحفظ الرقم عن ظهر قلب وكان ممنوعًا عليه أن يدونه، أدار القرص فدق الجرس على الطرف الآخر دقة واحدة:

«برونتو!».

«بونجورنو!».

«بونجورنو سنيور!».

بالعامية المصرية وقلبه يقفز إلى حلقه قال:

«إيه رأيك في أكلة سمك؟!».

جاءه الرد المتفق عليه بصوت كان مرحبًا مرحًا:

«بربون حجر؟!».

هتف الفتى:

«عز الطلب!».

«اضبط ساعتك!».

نظر في ساعة يده فجاءه الصوت من الطرف الآخر:

«الساعة دلوقت حداشر وست دقايق بالضبط!».

«تمام».

«الساعة تلاتة ونص في محطة السكة الحديد!!».

همّ بالحديث، قفزت كلمة «مع السلامة» إلى لسانه وكاد ينطق بها لكنه في اللحظة الأخيرة أمسك لسانه وأغلق فمه كما أغلق الخط بيده الأخرى وقلبه يخفق في عنف... ولو أنه نطق حرفًا أو قال «مع السلامة» كما تعود الناس أن يقولوا لفشل اللقاء... هذه هي التعليمات وعليه أن ينفذها بدقة ودون خطأ واحد فأية حياة تلك التي هو مقدم عليها؟!

الكلمة لها مدلول آخر، والساعة ليست هي، والكلام غير الكلام... فالسؤال عن أكلة السمك هو سؤال عن اللقاء، والجواب بأنه نوع من بربون الحجر يعني أن اللقاء سيتم، ومحطة السكة الحديدية هي قمة جبل بركان فيزوف، والثالثة والنصف هي الثانية عشرة والنصف و... و... وأبسط الأخطاء من الممكن أن يلغي موعدًا أو يسبب كارثة، فماذا... ماذا لو أنه ـ دون قصد وبالرغم منه ـ نطق كلمة «مع السلامة»؟!

«يبقى الأخ مصطفى مش حاييجي لك في الميعاد!».

«ليه؟!».

«حايعرف إن فيه حاجة غلط».

«زي إيه؟!».

بوضوح واستقامة قال محسن:

«زي إنهم يكونوا مسكوك!».

«الله أكبر!».

«طبعًا حايحاولوا يقرروك... مش كده والا إيه؟!».

في سخرية هتف:

«أمال حايلعبوا معايا طاولة؟!».

«من غير تريقة يا رأفت!».

اعتذر قائلًا إن الموقف يحتمل قفشة!

«لو ده حصل، إنت حاتقاوم في الأول شوية، لكن إذا اضطريت إنك تقول لهم، قول كل حاجة!».

هتف الفتى دهشًا:

«طب وبعدين؟!».

«حايطلبوا منك إنك تمثل الدور معانا وتشتغل لحسابهم!».

«معقولة؟!».

«إذا طلبوا ده، وافقهم!».

«وأخون بلدي؟!».

«طبعًا لأ!».

«أمال أوافقهم إزاي؟!».

«ما هو إنت لو وافقتهم حايطلبوا منك أن تكمل معانا حسب الاتفاق وتطلبنا في التليفون!».

«ولما أطلبكم؟!».

«أي مصري بيتكلم في التليفون بيقول إيه في آخر المكالمة؟!».

«مع السلامة!».

«علشان كده، لو أنهم أجبروك إنك تكلمنا، وجيت في آخر المكالمة وقلت مع السلامة، هم مش حياخدوا بالهم، إنما إحنا حانفهم إن فيه حاجة غلط!».

* * *

كان يستعيد حديثه مع محسن ممتاز وهو معلق في الهواء على ارتفاع بضعة آلاف من الأقدام فوق وادٍ سحيق، كان جالسًا على مقعد صغير معلق بسلك «التليفريك» الذي يتحرك به إلى قمة بركان «فيزوف»، في

المقعد التالي لمقعده فتاة مليحة ذات لكنة أمريكية كانت تتصايح خوفًا ومرحًا وهي تنادي عليه وتلوح له وتضحك وتصرخ وحمدًا لله أنه لم يخطئ، تمت المكالمة التليفونية بسلام ولكن هاجسًا جديدًا راح يلح عليه: فمن يدريه أن الذي تحدث إليه كان مصطفى عبد العظيم؟ إنه لم يلتق به في القاهرة سوى مرتين ، ولم يحدثه في التليفون مرة واحدة، فقد لا يكون الصوت صوته!!

من جديد راح يستعيد احتياطات أمنه وسلامته التي كان عليه أن يحفظ تركيباتها عن ظهر قلب وألاّ يدونها في نوتة أو ورقة وألا يخطئ فيها أبدًا... كم ألح عليه محسن وهو يطلب إليه أن يعيد ويزيد حتى إذا تذمر ذات مرة مللا صاح فيه محسن مغاضبًا:

«لازم تحط في اعتبارك إن ده كله لمصلحتك إنت أولًا!!».

كم كان يسعده ويضنيه في نفس الوقت ذلك الشعور بأن هناك من يهتم به ويخاف عليه، ودائمًا ما كان يتذكر إخوته في مثل تلك اللحظات فيشعر في حلقه بغصة، ويتذكر شريفة فيذيبه الحنين إلى شقيقته... قبل أن يصعد إلى الأتوبيس من نابولي إلى سفح جبل البركان الشاهق، لف ودار واختبر وتأكد حتى اطمأن، صعد إلى الأتوبيس وسط السائحين والسائحات، كان قد ابتاع تذكرة وانضم إلى أحد الأفواج... وها هو ينظر إلى الوادي السحيق سابحًا مع ذكرياته رغم صيحات الفتاة التي كان صداها يتردد في جنبات الوادي... الشمس ساطعة والجبال شديدة الخضرة والصمت له طعم السعادة والمقعد يتأرجح صاعدًا به إلى قمة البركان... وصل المقعد إلى محطته النهائية فغادره ووقف يشمل المكان بنظره، لم ينتبه إلى وصول المقعد التالي الذي يحمل الفتاة الأمريكية التي غادرته مندفعة كي تصطدم به ربما عن عمد وربما عن شقاوة، أمسكت بذراعه ورفعت إليه وجهًا صافي اللون قائلة بصوت خافت:

«آسفة!».

اجتذب وجهها المليح انتباهه.

«لا داعي للاعتذار، كان هذا من دواعي سروري!».

حتى وهو يقترب من الموت لا يستطيع أن يكف عن الغزل... ابتسمت له الفتاة متسائلة:

«يوناني؟!».

كالعادة، وبفخر شديد اندفعت كلمة «مصري» إلى لسانه فلهث قلبه رعبًا مانعًا الكلمة ـ بالكاد ـ عند طرف اللسان... قال وقد تمالك نفسه وصحا عقله:

«إسرائيلي!».

أحرقت الغصة حلقه، فهل يتخلى عن مصريته حتى من أجل مصر؟!... واجهت الفتاة نظراته الفاحصة وهي تقول:

«كاتي نلسون».

مال عليها هامسًا:

«وأنا ديڤيد سمحون!».

أكثر ما كان يضايقه أن يأتي الصيد في غير موعده، سار مع السائرين إلى فوهة البركان الخامد... خيل إليه في لحظة أنه يقف عند قمة الدنيا، كان صوت الدليل يتردد في فضاء الكون شارحًا بإنجليزية ذات لكنة إيطالية تاريخ البركان وثوراته وحممه... وكانت عينا الفتى تجوسان في المكان بحثًا عن ذلك الوجه الأسمر ذي الشعر الأسود الناعم... حذره محسن ممتاز من الحديث مع مصطفى عبد العظيم عند قمة البركان عندما يراه هناك، كان عليه إذا ما رآه أن يتبعه فقط... اقتربت الساعة من الثانية عشرة والنصف وأفواج السياح تترى من ناحية محطة الوصول،

فجأة رآه فانتفض قلبه بالفرح، كان مصطفى عبد العظيم يغادر المحطة تتأبط ذراعه فتاة إيطالية صارخة الجمال... وكانت كاتي نلسون تطارده وهو يتهرب منها على مضض فلقد كان عليه الآن أن يتبع مصطفى وألا ينصرف إلا معه... عندما توجه مصطفى بفتاته إلى طريق العودة كان من حظه أن امتطى المقعد التالي لهما... زغردت عيناه وهما تشملان إيطالية مصطفى الفاخرة في حسرة... عند سفح الجبل تبع مصطفى والفتاة إلى السيارات الأجرة التي تنقل السياح من بركان «فيزوف» إلى مدينة «بومبي» الفاخرة... تلك التي أحرقتها حمم البركان ذات يوم فأحالتها، بمن فيها وما فيها، إلى جثة مكسوة بمعدن مصهور، وتحولت هذه الجثة في العصر الحديث إلى أثر سياحي يؤمه الناس ليتفرجوا على الأجساد المتفحمة في سعادة ودهشة... وصلوا إلى «بومبي» فتفرق السياح داخل المدينة على موعد مع سائق السيارة بعد ساعتين.. في السيارة كان يجلس إلى جوار مصطفى كتفًا في كتف لكنهما بدوا كغريبين التقيا وسط غرباء في أرض غريبة، لم يتبادل معه كلمة، ولا حتى تحية ولا نظرة!!

كان عليه في بومبي أن يضرب في شوارع المدينة على غير هدى وفي أي اتجاه يروق له... فقط، لا بد من تجنب الصحبة أو الاقتراب من الآخرين... ثم، سوف يلتقي به مصطفى عبد العظيم فلا داعي للقلق لو أن الأمر طال لدقائق... كان يتوق إلى لقاء مصطفى ليتزود منه بنظرة أخيرة إلى وطنه، وبالتأكيد... فلسوف يسعده الاقتراب من إيطاليته الفاخرة الحسن... كان مستغرقًا في التفكير عندما وجد مصطفى أمامه، تهلل للقائه لكنه أصيب بخيبة أمل حقيقية، فلقد كان مصطفى وحده، وكانت فتاته قد اختفت!

قال مصطفى عبد العظيم وهما يجوسان بين أطلال مدينة «بومبي» المحترقة وكأنهما سائحان استغرقتهما المناقشة حول ما يشاهدان من آثار إن كل هواجسه بلا معنى، وإن تلك الهواجس من الممكن أن

تكون سببًا في تعطيله وربما كشف أمره إذا لم يردعها وتركها تستفحل في نفسه، أبدى إعجابه بالطريقة التي عامل بها رجلي الوكالة اليهودية: «كويس كده»، ثم قال وكأنه يشكو للفتى أمرًا خاصًا: إن العرب منذ عام ١٩٤٨ اخترعوا أساطير عن ذكاء اليهود وقسوتهم وإمكانات أفرادهم، وكلها أساطير ليست حقيقية بكل أسف، والمؤلم في الأمر أن اليهود استغلوا الابتكار العربي لصالحهم ولتحقيق مآربهم... ثم سأل الفتى مستشهدًا به:

«إنت مثلًا... اتعاملت مع اليهود في مصر، وعرفت ناس منهم في نيويورك، وقابلت ناس منهم هنا... فيهم حاجة أكثر مننا؟!!».

«طبعًا لأ!».

«طب ما تقول لنفسك!».

أخذ يراجع معه صيغة البرقيات الكودية التي سيتبادلانها، ثم راجعا أسلوب الخطابات التي سترسل منه أو إليه بدون حبر سري، والتي ستبدو وكأنها خطابات عادية تمامًا، لكن ثمة كلمات معينة ستوضع في سياق الحديث حسب ترتيب خاص عليه أن يحفظه عن ظهر قلب... هذه هي وسائل الاتصال الوحيدة، والمتاحة، الآن... لكن المستقبل قد يحمل وسائل أكثر أمنًا فمن يدري؟!

قدم له ورقة طلب إليه أن ينقل ما فيها من أرقام... هذه هي أرقام صناديق البريد التي سيرسل الفتى خطاباته عليها في عدد من عواصم أوربا وحسب جدول خاص، وهناك ـ وسط هذه الأرقام ـ أرقام أخرى وهمية... اكتشف مصطفى أن للفتى ذاكرة حديدية، فلقد حفظ الأرقام الحقيقية والوهمية وفرق بينها في سرعة مذهلة، وفي إصرار رفض رأفت أن يكتب الأرقام!

«أوعى تفتكر يا رأفت إننا سايبينك هناك لوحدك!».

هذا الثعلب الأنيق والحنون كأم رءوم يخشى عليه من خوفه، وكلما ابتعد بهما الحديث عن هذا الخوف عاد مصطفى إليه كي يبثه الطمأنينة إذا ما افتقدت ... هم الفتى بالحديث فإذا مصطفى ـ مرة أخرى ـ يبتعد عن الموضوع:

«بس المهم إنك تلتزم بالتعليمات التزام كامل... وفي الوقت الحاضر ومهما كانت المعلومات قدامك وبين إيديك وسهلة ومتاحة، إوعى تبعت حاجة لحد ما نتقابل مرة ثانية، وأكيد حاتكون فاكر كل اللي شفته!!».

تحول الفتى إلى آذان تصغي إلى دبيب النملة في حديث الرجل الذي استطرد:

«أهم شيء دلوقت يا رأفت إنك تثبت أقدامك ومكانتك في تل أبيب وتعيش في المجتمع الإسرائيلي بشكل طبيعي جدًّا، زيك زي غيرك، ومن غير أي مبالغة في أي تصرف!».

* * *

قبل أن يفترق عنه مصطفى عبد العظيم سأله في ود:

«خايف يا رأفت؟».

«قوي!!».

هتف الفتى بالكلمة وكأنه يصرخ، فقال مصطفى في هدوء:

«أمر طبيعي!».

وكان الوداع قاتلًا!!

وقف الشابان كل منهما تجاه الآخر... هذا هو لقاؤهما الثالث وقد يكون الأخير فمن يدري ما يخبئه القدر؟!... كان كل منهما يشعر في أعماقه بأنه عاش عمره كله مع الآخر، وأن مصير كل منهما مرتبط

بالآخر... في العيون نظرات تغني عن أي كلام... كانا يقفان في حديقة نبتت وسط الدمار والأطلال المحترقة، شد كل منهما على يد الآخر في قوة، انفعل الفتى فجذب يده من يد مصطفى يريد الهرب من الموقف وقد جاش صدره بأحاسيس لا قبل له بها، لكن يد مصطفى أطبقت على يده في ود حميم... وما لبث كل منهما أن ضم الآخر إلى صدره في قوة!!

* * *

ومثلما حدث في الإسكندرية، وقف الفتى على سطح السفينة التي أقلعت به إلى إسرائيل وعيناه متشبثتان بالرصيف، كان موقنًا أن وجه مصطفى سيظهر فجأة بين وجوه المودعين كما ظهر وجه محسن على رصيف ميناء الإسكندرية... ولكن هيهات!

أبحرت به السفينة من فراغ... إلى فراغ!!

* * *

تعالت الصيحات من حول الفتى عندما ظهرت شواطئ فلسطين وهي تزين الأفق وتحدده، تجمع المهاجرون على السطح وراحوا يشيرون ويتصايحون ويثرثرون ويحلمون... شعر الفتى بأنه يهرب داخل نفسه، أحس بمن يقف إلى جواره يكاد يلتصق به، التفت فوجد «سوسو ليڤي» تاجر الساعات وعلى شفتيه ابتسامة بدت له غريبة!

«الحمد لله على السلامة!».

«الله يسلمك!».

صمت اليهودي الذي امتص جزءًا من عرقه لشهور لكن ابتسامته الخبيثة لم تغادر شفتيه، تحفزت مخالب الفتى فاستدار إليه بكليته:

«فيه حاجة يا سوسو؟!».

«أبدًا... بس أنا كنت بافكر من شوية في اليوم اللي شفتك فيه أول مرة مع أخويا إفرايم!!».

سخر منه الفتى متحديًا:

«اشمعنى؟!».

«كنت باقول إن محدش قدر يكشفك ولا يعرف انت مين».

هم الفتى بالنطق فعاد اليهودي مؤكدًا:

«لا المصريين، ولا حتى إحنا!!».

داهم الفتى خوف عربيد وهو يواجه نظرات تاجر الساعات الباردة، بدا على وجه رأفت الامتعاض وهو يسأل تاجر الساعات:

«قصدك إيه يا سوسو؟!».

ربت سوسو ليفي على ذراعه قائلًا:

«قصدي إنك تبقى تفتكرنا بالخير لما توصل والأمور تستقر!».

قال اليهودي هذا ثم تركه ومضى!

تركه نهبًا لخوف مروع ينهش صدره، كانت السفينة تقترب من الشاطئ وحديث تاجر الساعات ليس في حاجة إلى تفسير أو تأويل، وإلا... فما معنى قول هذا الرجل بأن أحدًا لم يستطع كشف أمره من المصريين أو اليهود... ها هو المحظور يقع ولا بد من الاعتراف بأنهم أحكموا اللعبة وكانوا أكثر ذكاء منه ومن محسن ومصطفى جميعًا... ولو أنه أراد التراجع الآن فهل يستطيع؟!

اقترب الشاطئ وبدت مباني يافا واشتدت الحركة فوق سطح السفينة مع اقتراب زورق الإرشاد الذي كان يشق المياه متقدمًا من السفينة بسرعة... في مؤخرة الزورق بدا له العلم الإسرائيلي غريبًا بلونه الأبيض ونجمته الزرقاء... التفت بحثًا عن سوسو ليفي لكن هذا كان قد عاد إلى

الجموع التي تزاحمت فوق سطح السفينة وراحوا يتماوجون مع حركة السفينة فوق المياه وهي تدخل إلى الميناء عابرة بوغازها الصغير... كان يقف في السطح العلوي وحيدًا، تحرك إلى لا هدف وكان كل شيء من حوله يضج بالحركة وقد اقتربت زوارق أخرى وراحت تطلق صفاراتها مرحبة بالقادمين الجدد... رست السفينة إلى جوار أحد الأرصفة وكان مزدحمًا بالمستقبلين الذين راحوا يتبادلون الصيحات مع القادمين، أحس في لحظة أنه عبر الزمن إلى برج بابل، وها هو يسمع صيحات بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والعربية والعبرية ولغات لا يعرفها.

«السيد سمحون؟!».

انتفض ملتفتًا وقد سقط قلبه بين ضلوعه، كان ثمة ضابط من ضباط السفينة موفدًا من قبل القبطان مودعًا... استمع إلى كلمات الضابط وقلبه يخفق في عنف... حقيبته الوحيدة إلى جواره والضابط يسأله إن كانت هناك حقائب أخرى فيرد عليه بأنه لم يمتلك في حياته أكثر من حقيبة واحدة... نظرة إعجاب تلك التي أطلت من عيني البحار الشاب أم ترى هي نظرة سخرية؟... انصرف الضابط وكان سلم السفينة الآن قد استقر فيما بينها وبين الرصيف... سرعان ما تعالت أصوات أقدام رجال الجمارك وشرطة الميناء وهي تدب فوق السلم فتتحول دباتها إلى مطارق في رأسه فهل أصيب بالجنون؟!... وها هو الضابط الشاب يقف عند قمة السلم مستقبلًا رجال الشرطة الذين توقفوا متحدثين إليه متسائلين فإذا الضابط يرفع عينيه إلى حيث السطح الذي يقف عليه وإذا عيناه تلتقيان بعينيه وإذا هو يشير إليه وإذا رجال الشرطة يهرولون نحوه وإذا هم يتقدمون منه في خطى تعرف طريقها جيدًا.

تسمر في مكانه!

حاول الحركة فلم يستطع.

جف حلقه وزاغت عيناه فتذكر قول محسن ذات مساء: «عمرك شفت واحد خايف عينيه ما بتقولش إنه خايف؟!»... وهو خائف فكيف يخفي الخوف من عينيه؟... كانوا ثلاثة وقفوا قبالته، ضابطين ورجلًا بملابس مدنية ومن خلفهم رابع يرتدي ملابس الجنود، شد قامته ووقف في انتظار قدره، تقدم منه الرجل ذو الملابس المدنية وعلى شفتيه ابتسامة بلا معنى.

«السيد سمحون؟!».

«أنا هو!».

صمت الرجل طويلًا وهو يتأمله من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ركض قلبه بين ضلوعه في عنف أوجعه، ولدت على ملامح الرجل ابتسامة راحت تتسع وتتسع فكأنها تفسح الطريق لأنياب الرجل الذي مد له يده مصافحًا وهو يقول:

«أخيرًا!».

أخيرًا وقع في أيديهم فلا يحتاج الأمر الآن إلى تأويل، مد للرجل يده فشد هذا عليها مستطردًا:

«أنا مكلف باستقبالك!».

حاول أن يرد، أن ينطق، فخانه صوته، قال أحد الضابطين:

«تفضل معنا!».

لم يكن أمامه سوى الاستسلام فاستسلم لقدره، همّ نحو حقيبته لكن الجندي كان أسرع إليها منه، سأله الضابط إن كانت هناك أمتعة أخرى فأجاب بالنفي... راح يخطو مغادرًا السفينة وسط حراسه الذين أحاطوا به... وكان ـ وهو يخطو نحو السلم المؤدي إلى الرصيف ـ يسير وسط جموع المهاجرين الذين أخذوا يفسحون الطريق للركب الغريب!

الفصل الثاني

إسْتر بلينسكي

ضحك عزيز الجبالي وهو يقول لهيلين سمحون التي كانت مستغرقة في الإنصات إليه... إن الفتى قال فيما قال: إنه لم يعرف معنى الخوف كما عرفه في ذلك اليوم، لا لأن ثقته بنفسه أو بمحسن ممتاز الذي دفعه إلى هذه الحياة قد اهتزت، ولكن لأنه لم يكن هناك ما يشعر به سوى الخوف...

كان المشهد غريبًا كل الغرابة، فكل المهاجرين الذين جاءوا حالمين بأرض «المعاد» كانوا قد صنعوا كتلة بشرية راحت تحدق فيه بعيون حاسدة وهم يفسحون له الطريق ـ مع حراسه ـ إلى سلم السفينة... وحتى، عندما هبط السلم مع وفد استقباله، فلقد كان المشهد على الرصيف وفي مكاتب الميناء وأروقتها يدعو إلى الشك العظيم لدرجة أنه فكر في الفرار فعلًا... كان الفرار بالقطع مستحيلًا، وكان هو يعلم ذلك تمام العلم، غير أن كل ما كان يتمناه هو أن يطلق لساقيه العنان، ولحنجرته أيضًا كي تصرخ كما تشاء!!

كان هناك مهاجرون آخرون في الميناء، بعضهم قضى ليلته هناك، والبعض الآخر وصلت سفنهم قبل وصول سفينته، وكان الزحام أمام النوافذ طوابير تطول لأمتار، وقد ملأت الأمتعة فضاء الأرصفة

والممرات بينما اكتشف الفتى أن ضابطي الشرطة، إنما جاءا مع هذا الذي يرتدي ملابس مدنية، كي يسهلا له إجراءات خروجه من الميناء، تلك الإجراءات التي لم تستغرق سوى دقائق لم تزد على الساعة... ولقد حاول مرافقه أن يشرح له تكدس المهاجرين أمام النوافذ قائلًا:

«إن من يريدون الذهاب إلى الكيوبتزيم ـ جمع كيوبتز ـ يقفون هنا، ومن يفضلون مستعمرات الموشاف التعاونية يقفون هناك!».

كانت إجراءات الخروج تتم بسرعة عندما سأله الرجل:

«هل تحب أن تنزل في أحد بيوت الوكالة اليهودية، أم تفضل فندقًا؟!».

قال الفتى في تهكم محاولًا السيطرة على خوفه:

«أعتقد أني جئت إلى هنا بحثًا عن بيت».

هتف الرجل موضحًا:

«ولكن عليك يا سيدي أن تنتظر قليلًا حتى نجد لك مسكنًا مناسبًا!».

«إذن فلنذهب إلى فندق!».

قدم له أحد ضابطي الشرطة أوراقه وخرجت حقيبته دون أن تمسها يد ... ودعه رجلا الشرطة في احترام، وكانت هناك سيارة إنجليزية الصنع من بقايا الاستعمار الإنجليزي في انتظاره.

أمام أحد فنادق الدرجة الأولى توقفت السيارة، ترك الحقيبة للحمال الذي تقدم إليها وتبع الرجل الذي كان الآن يهرول إلى موظف الحجز في الفندق وقد بدت على وجهه علامات الجدية الشديدة... أبطأ خطاه وهو يتلفت حوله لكنه كان ـ في الحقيقة ـ يرقب موظف الفندق وهو يستمع إلى الرجل في اهتمام وينظر نحوه في احترام وهو يهز رأسه إيجابًا... ما إن اقترب منه حتى سأله هذا في أدب شديد:

«هل يحب السيد سمحون غرفة أم جناحًا؟!».

على الفور قال:

«إن غرفة تكفي فلن أبقى طويلًا!».

قال هذا ثم التفت نحو الرجل متسائلًا:

«أليس كذلك؟!».

هتف الرجل في تأكيد:

«سندبر كل شيء يا سيدي، سندبر كل شيء!».

تم الحجز فغادره الرجل كي يستريح مؤكدًا أن شخصًا آخر سوف يتصل به في صباح اليوم التالي... صعد إلى غرفته وأغلقها عليه وارتمى فوق الفراش محملقًا في السقف غائبًا في دوامة من الشكوك راحت تمزقه تمزيقًا... راح يتساءل إن كانوا قد ابتلعوا الطعم بهذه السهولة حقًّا أم أن وراء ما يحدث أشياء وأشياء؟!... هل هم أغبياء إلى هذا الحد؟... هل ما يراه ترحيبا أم أن هذا كله ليس سوى وسيلة للإيقاع به في تلذذ؟!

عندما دق جرس التليفون في الصباح التالي انتفض من غفوة كانت قد ألمت به، فهو لم يعرف للنوم طعمًا طوال الليل، داهمته الكوابيس فحرمته الراحة، قضى ليلة فتكت به فيها هواجس بلا حصر، لم يغادر غرفته طوال الأمس في انتظار المجهول، رفع سماعة التليفون وكان المتحدث من الوكالة اليهودية وكان في انتظاره في بهو الفندق، قال بصوت حاول أن يجعله متماسكًا:

«قد أتأخر لبعض الوقت فأنا لم أحلق ذقني بعد!».

عندما هبط إلى البهو كان نصف ساعة قد انقضى وتقدم الرجل منه في ترحاب... وجد في انتظاره سيارة فرنسية فاخرة، طلب إليه الرجل أن يركب فركب دون أن يسأل إلى أين، كانت معركته مع الخوف طوال

الليل قد هدت قواه، قال والسيارة تزحف به في شوارع تل أبيب محاولًا إدارة دفة الحديث:

«لم أكن أعرف أن تل أبيب قريبة إلى هذا الحد من يافا!».

ابتسم الرجل في أدب وهز رأسه دون كلمة... راح الفتى يتتبع معالم الطريق موقنًا أنه الآن في قبضتهم فلماذا يرد الرجل عليه أو يتبادل معه حديثًا؟... أمام مبنى قديم في شارع بدا له مزدحمًا توقفت السيارة، صعدا الدرج إلى الطابق الأول ودلفا إلى مكتب وضعت على بابه لافتة تقول إن اسم صاحبه هو «يوسف الأزرع» وأن مهنته هي المحاماة... كان يوسف الأزرع رجلًا أصلع قصير القامة طويل السحنة مشدود الجلد معروق اليدين، هب من خلف مكتبه كثعلب وهو يرحب به بالعبرية:

«مرحبًا بك يا سيد حنانيا!».

قرر أن يدخل المباراة على الفور فرد بالفرنسية:

«أعتقد أن الاسم المدون في جواز سفري هو ديڤيد شارل سمحون».

انصرف مرافقه وخلت الغرفة إلا منه ومن المحامي الثعلبي الوجه، رد الرجل عليه وهو يميل إلى الأمام وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مطمئنة!

«إنك الآن في إسرائيل أيها السيد!».

«أعرف هذا!».

«ونحن نعرف كل شيء عنك!».

«وهذا أيضًا أعرفه... ولكني أعرف شيئًا آخر!».

«ما هو؟!».

«أن المصريين ليسوا بالغباء الذي تظنونه!».

نهض الثعلب من خلف مكتبه مستهينًا كمن يستعد للدفاع عن قضية مضمونة، قبل أن ينطق عاجله الفتى في حدة:

«لقد تحدثت في هذا الموضوع من قبل في نابولي، ولكن لا بأس من وضع حد نهائي له هنا!».

بجوار المكتب وقف الأزرع ناظرًا إلى الفتى في دهشة... ولقد كان على حق في دهشته، ذلك أن الفتى أقسم ذات مساء - بعد سنوات - في عاصمة أوربية وهو يشرح تلك اللحظات، بأنه لم يكن يعي ما الذي يفعله، كل ما كان يذكره أنه أحس في لحظة أضناه فيها الخوف بأنه إن كان لا بد من الموت فليمت مرفوع الرأس. وضع ساقًا فوق ساق مستطردًا:

«إن المسيو شارل سمحون عندما أعطاني اسم ولده في الإسكندرية كان له رجاء حار... أتدري ما هو؟!».

«ومن أين لي أن أدري؟».

«لقد رجاني أن أحتفظ بهذا الاسم وألا أتخلى عنه!».

صمت الفتى لثوان كمن يقيس تأثير حديثه على الرجل، لكنه ما لبث أن غمغم:

«ولربما كان في هذا عزاء لفقدان ولده الذي كان في مثل عمري!».

سبحت في ملامح يوسف الأزرع ابتسامة إعجاب فعاد إلى مقعده قائلًا:

«لك كل الحق... وعلى كل فهذا أمر يخصك وحدك!».

مضت لحظات صمت كان الرجل يرتب فيها بعض الأوراق فوق مكتبه بحركة روتينية توحي بوضوح أنه كان في الحقيقة يرتب أفكاره... رفع رأسه نحو الفتى هاتفًا:

«والآن... ماذا تحب أن تفعل في إسرائيل؟».

«أنوي أن أعيش فيها!».

ككرة من مطاط نهض الأزرع ثم جلس بلا داع.

«هذا طبيعي، ولكني كنت أقصد العمل!».

في استقامة من يعرف طريقه جيدًا قال رأفت:

«لقد ادخرت بعض المال، وأعطاني السيد سمحون الكبير بعضًا آخر يكفي لأن أبدأ مشروعًا سياحيًا صغيرًا!».

هم يوسف الأزرع بالحديث لكن الفتى استطرد:

«لكنه سيكبر مع الأيام بطبيعة الحال!».

تهدلت ملامح المحامي وبدت عليه خيبة الأمل فقال الفتى:

«أرى أنك لست متحمسًا لمشروعي».

غمغم المحامي من بين شفتيه وقد تجهمت نبراته:

«كنا نتمنى أن تفكر في اتجاه آخر!».

كاد الفتى يسأله عما يقصد لكنه تراجع، قال في ضيق:

«لقد تعبت!».

«كلنا تعبنا!».

لم يصدق الفتى أذنيه، كانت جملة يوسف الأزرع المحامي هي أول بشير له بالسلامة منذ أن عرف حقيقة مهمته من محسن ممتاز... كان الرجل يتحدث إليه على مستوى القادة والفدائيين والذين بذلوا جهدًا... مال نحو المكتب ودق عليه بأطراف أصابعه:

«يكفيني ما فعلته وما عانيت منه حتى الآن!».

«إنك لا تزال في شرخ الشباب!».

«لقد عشت حياتي كلها من أجل إقامة هذا الوطن!».

«نحن نعلم هذا!».

«ولقد آن لي أن أعيش حياة عادية وبسيطة!».

هم الرجل بالحديث فعاجله الفتى:

«ثم... ألا ترى أن الحديث في مثل هذا الأمر سابق لأوانه؟!».

أحس الرجل بتراجع الفتى فانتقل إلى مقعد مجاور له، أخذ الحوار مسارًا دائريًّا حول حياة رأفت وخبرته في مقاومة البوليس المصري والسلطات الإنجليزية والألمانية والإيطالية في المغرب العربي، كانت حجة يوسف الأزرع أن الفتى يملك خبرة وأن إسرائيل في حاجة إلى هذه الخبرة... قال الفتى في سخرية إنه حتى لا يعرف باسم من يتحدث يوسف الأزرع، فابتسم الثعلب العجوز ولم يرد راح يستفيض في شرح طبيعة العمليات التي قام بها الفتى، وأن «الوطن» لا يزال في طور التأسيس وهو في حاجة إلى جهود كل أبنائه، اكتشف الفتى أن كل ما ادعاه عن نفسه في مقهى إستانبيلوس في شارع سليمان باشا بالقاهرة قد وصل إلى تل أبيب كحقائق غير قابلة للمناقشة... أبناء الأفاعي يتجسسون على وطنه بمن يعيشون فيه ويتمرغون في خيراته... راح يوسف الأزرع يشرح كيف أن الوطن قد أقيم فعلًا لكنه في حاجة إلى من يحميه من أعدائه العرب المتربصين به من كل جانب، فوجئ المحامي الثعلب بالفتى يضع يده فوق يده كي يوقفه عن الحديث، استجاب الأزرع فإذا الفتى يقول بالعامية المصرية:

«شوف يا خواجه يوسف، ماتتعبش نفسك!».

جمد العجوز لثوان فاعتدل الفتى قائلًا:

«أنا عارف إنك بتتكلم عربي كويس!».

«عرفت ازاي؟!».

«إنت عشت في مصر قد إيه؟!».

«كتير!».

«وبرضه ما تعلمتش من المصريين حاجة!».

«علشان كده إحنا محتاجين إنك تعلمنا!».

«طب مش أرتاح لي شوية وبعدين نفكر في الموضوع ده؟!».

«وهو كذلك!».

«إزاي اقدر ألاقي شقة على قدي؟!».

«سيب الحكاية دي علينا!».

«إنتومين؟!».

اقتنص الفتى الفرصة فبدا الأزرع وكأنه أخذ على غرة، راوغ قائلًا:

«أكيد حانلاقي لك شقة مناسبة!».

داعب الفتى جشعه الغريزي عندما قال:

«بس بسرعة، لأني عاوز أناقش معاك مشروع شركة السياحة!».

«إنت مصمم؟».

«إنت متجوز؟».

«طبعًا!».

«أنا كمان نفسي أتجوز زيك!».

كانت قفشة ضحكا لها معًا، كما كانت ردا أفحم المحامي الذي صافحه مودعًا موصلًا إياه حتى الباب، وهناك طلب إليه الفتى أن يصرف السيارة والمرافق، وأن يتركه للوطن الجديد كي يتعرف عليه على مهل... عندما هم بالانصراف هتف به الأزرع:

«على فكرة حساب اللوكاندة مهما كانت الأيام مدفوع!».

❁ ❁ ❁

لم يكن صعبًا على الفتى أن يجوس خلال المجتمع الإسرائيلي وأن يتسلل إليه في رفق... كان قد تعود على اختراق المجتمعات الغربية منذ أيام تشرده في أوربا وأمريكا... خفت حدة خوفه في الأيام التالية فلقد اكتشف أنه غير متبوع ولا مراقب، راح يجوس في شوارع تل أبيب ويرتاد محلاتها متعرفًا على المدينة في تذوق المحترف... لفت نظره أن أغلب شركات السياحة تقع في شارع «بن يهودا» الذي يقطع تل أبيب من الشمال إلى الجنوب حيث يصبح امتداده شارع «أللنبي» الشهير، ذكره شارع «ديزنجوف» ـ الشارع الرئيسي في تل أبيب ـ بشارع فؤاد بالقاهرة، كما ذكره شارع «هايركون» بكورنيش الإسكندرية... كان أكثر ما اهتم به هو الـ«شاباط» ـ أي يوم السبت ـ فرغم أن المجتمع الإسرائيلي غير متجانس تحكمه خلافات وانقسامات اجتماعية وعرقية حادة، إلا أنه وجدهم جميعًا يقدسون عشاء الجمعة حيث يبدأ السبت مع الغروب، تجتمع العائلة حول مائدة الطعام، ويضيئون الشموع، ثم يصلون قارئين جزءًا من سفر «الخروج» بالتوراة، خروج اليهود من مصر:

«... فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم* وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياب* وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين».

عاود يوسف الأزرع الحديث في موضوع العمل مرة أخرى فوجد من الفتى إصرارًا على موقفه، عثر رأفت على مسكن صغير في أطراف المدينة يصلح لشاب أعزب متوسط الحال، لم يكن العثور على المسكن صعبًا فلم يمكث في الفندق سوى أسبوع واحد... كان موقع السكن مثاليًا رغم أن محسن لم يتحدث إليه في هذا الموضوع بأكثر من أن يعيش كما يعيش الناس وفي وسطهم، وألا يسرف في الإنفاق فالمفروض أنه

محدود الموارد يبحث عن مصدر للرزق... وإذا كانت المرأة تشكل نقطة ضعف أكيدة في شخصيته، فإن حب الفخفخة ـ لا حب المال لذاته ـ هو نقطة ضعف أخرى وعليه أن يتغلب عليهما مهما كان الثمن!

كان لرأفت الهجان حس مرهف بالأمن يدعو إلى الإعجاب حقًا، وقع اختياره على هذا المسكن لموقعه المثالي في أطراف تل أبيب، كانت «الشقة» في عمارة سكنية ترتفع عدة طوابق، أهم ما فيها تلك الشرفة التي إذا ما أطل منها كشف القادم من مسافة تكفي لإخفاء ما يريد إخفاءه!

ساعده يوسف الأزرع مساعدة قيمة في استخراج تلك الأوراق التي تثبت شخصيته وتقننها وتدعم وجوده... ما إن انتقل إلى مسكنه الجديد ـ هذا الذي ارتبط به لعدة سنوات تالية ـ حتى بدأ البحث في قضية إنشاء شركة السياحة المرتقبة... اكتشف أن الأمر يستلزم العديد من الإجراءات المعقدة والمصاريف الباهظة... قال فيما بعد وهو يضحك: إنه اكتشف أنه كي يستطيع أن يشق طريقه بسهولة وسط الإسرائيلين عليه أن يتصرف ويفكر كيهودي، كان قد حول جزءًا من ماله إلى إسرائيل وترك في الخارج جزءًا يعينه وقت الحاجة إليه... اتخذ قراره بأن ينشئ المكتب أو الشركة مع شريك آخر... شريك يعرف المجتمع الإسرائيلي معرفة تعفيه من الخوض في تعقيدات إدارية هو في غنى عنها... ثم إن هذا الشريك ـ إن وجد ـ سوف يعلمه الكثير مما يجب عليه أن يتعلمه!

في زيارة قام بها ذات يوم إلى مكتب يوسف الأزرع المحامي تطرق الحديث إلى مشروعه وما الذي تم فيه، أبدى الفتى ضيقه البالغ من التعقيدات والروتين والمصاريف الباهظة وضرورة دفع رشوة هنا وهناك... ألمح إلى أنه يبحث عن شريك يتولى عنه الأمور الإدارية والمالية كي يتفرغ هو للأمور الفنية، أبدى دهشته لأن حجم السياحة في إسرائيل ما زال صغيرًا رغم أن هناك إمكانيات تبشر بحركة نشطة... أبدى المحامي الثعلب تفهمه الكامل لوجهة نظر الفتى لكنه لم يعرض عليه

شيئًا... بعد بضعة أيام تلقى منه الفتى دعوة على العشاء عند عائلة محترمة يشرفها أن تتعرف عليه... رب العائلة أستاذ جامعي وزوجته مهندسة كيميائية وابنتاه مجندتان في جيش الدفاع الإسرائيلي، رحب الفتى لكنه عندما ذهب مع الأزرع في الموعد وجد عددًا آخر من المدعوين على نفس العشاء... كولونيل في الجيش الإسرائيلي وزوجته،كان اسم الكولونيل «بيخور شطريت» وكان رجلًا في منتصف العمر مثله مثل زوجته التي كانت تكبره بعامين أو ثلاثة... ولسبب غامض، أحس الفتى أن الكولونيل الكهل يتقرب إليه، بل أحس وكأن الرجل قد ارتاح إليه... وأكثر من ذلك، كان إحساسه صارخًا بأنه سوف يرتبط به مع الأيام ارتباطًا وثيقًا... وتأكد إحساس الفتى بذلك عندما طلب إليه الكولونيل أن يتبادلا أرقام التليفونات، ثم... عندما تقدم الليل وشرب الكولونيل شطريت قدرًا كافيًا من الخمر، اقترب منه مغمغمًا:

«ما الذي جاء بك إلى هذا الجحيم أيها السيد!».

ولم يرد عليه الفتى، بل لم يهتم بأن يبحث عن رد فلقد كان واضحًا أن الكولونيل يقول ما لا يعي... اندمج رأفت في الحديث مع بقية المدعوين، كان أحدهم مدرسًا شابًا يمت بصلة القرابة إلى أصحاب البيت وبصحبته خطيبته الحسناء، كما كان هناك مذيع جاء بصحبة أمه التي بدت طوال الليل وكأنها تجلس فوق مقعد مرتفع وتنظر إلى الجميع من عل... ولكن الشخصية التي لفتت نظر الفتى كانت لرجل أعمال اسمه «جدعون شاباتاي»، ولقد بدا هذا الرجل الذي قدموه له على أنه رجل أعمال، وكأنه جاء إلى هذا العشاء في مهمة خاصة، فلم يكن يربطه بالآخرين أي نوع من أنواع العلاقات، كان السيد شاباتاي طويل القامة ضخم الجثة محني الظهر خفيف الشعر هائل التقاطيع مهدل الملابس، وكان لا بد أن يدور الحديث بعد العشاء الذي أقيم على شرف الفتى حول المستقبل، وما ينوي الفتى صنعه في تل أبيب... ولقد تحدث الفتى عن

مشروعه في اقتضاب من يثق في كل كلمة تصدر عنه، ثم اختتم حديثه بأن قال إنه يبحث الآن عن شريك يتولى الأمور الإدارية والمالية التي تصيبه عادة بالملل الشديد، وهنا انبرى جدعون شاباتاي متسائلًا:

«ما هي فكرتك عن المشروع؟!».

«الأمر يتوقف على قدرات هذا الشريك!».

قال الرجل وهو يحك جلد يده في عنف:

«ربما وجدت لك هذا الشريك لو تحدثنا أكثر في التفاصيل!».

وأدرك الفتى على الفور أنه كان محقًّا في إحساسه، فسرعان ما تحدد موعد بعد يومين في مكتب يوسف الأزرع... وعندما ذهب الفتى في الموعد كان موقنًا بأن لجدعون شاباتاي هذا علاقة بيوسف الأزرع، وكان أول ما اكتشفه الفتى أن للسيد شاباتاي شقيقًا يشغل وظيفة هامة في شركة الطيران الإسرائيلية «العال»، وأن الأزرع هو الذي يتولى أعمال جدعون الأخرى... تدفق الفتى في حديثه حول المشروع واحتمالات نجاحه خاصة أن يهود العالم، إن لم يرغب بعضهم في الهجرة إلى إسرائيل والعودة إلى أرض «المعاد»، فإنهم بالقطع يتوقون لرؤيتها ورؤية المجتمع الجديد الذي ظلوا يخططون له قرابة نصف قرن من الزمان ويحلم به الأجداد من ألوف السنين... وهذا هو الوتر الذي يجب أن تلعب عليه الشركة لاستجلاب السائحين من مختلف أنحاء العالم...

كانت فكرة الفتى براقة، كانت منطقية وكانت أيضًا قومية!

«كم يلزمك من المال؟!».

هكذا سأله جدعون فرد الفتى في وضوح وحسم الأمر:

«ليست هذه وظيفتي، فلست أعرف المجتمع هنا ولا الأسعار ولا التكاليف كما تعرفها أنت، وعليك أن تخبرني كم يلزمنا من المال!».

ابتسم السيد شاباتاي وقد أدرك أن الفتى كشف أوراقه فغمغم:

«وهذا يتوقف على حجم المشروع!».

«لست من هواة القفز إلى القمة!».

«إذن فلنبدأ بمكتب صغير!».

«على ألا يزيد عدد موظفيه على اثنين أو ثلاثة!».

بعد سبعة أيام كانا ـ رأفت الهجان وجدعون شاباتاي ـ قد استأجرا مكتبًا في شارع من أهم شوارع تل أبيب، هو شارع «يوشع بن نون»، رفض فكرة استئجار مكتب في شارع ديز نجوف أو شارع بن يهودا حيث تتكدس شركات السياحة مفضلًا الابتعاد عن مواطن المنافسة، انتهت الإجراءات المبدئية للتعاقد بينهما كشريكين وتركا الأمر ليوسف الأزرع كي يضع كل شيء في صيغته القانونية... كان أول المهام بعد تأثيث المكتب هو البحث عن سكرتيرة... حرص الفتى أشد ما يكون الحرص ـ طوال الأيام التي انصرمت ـ على البعد عن النساء.

«همّ دول نقطة ضعفك الوحيدة يا رأفت... لازم تاخد بالك من نفسك في النقطة دي بالذات!».

هكذا قال له محسن ذات ليلة بعد حوار صريح بين صديقين عن حياة الفتى وتجاربه وما مر به في مصر والخارج.

«خلي الكلام ده حلق في ودانك علشان ما تنساهوش أبدًا!».

لم يكن قد صارح محسن بكل شيء بطبيعة الحال، كان ما قصه عليه «قشورًا» من بحر زاخر بالوجوه والجمال والسعادة وما يفوقها مما يعرفه هو ويدريه عن نفسه... كان قراره النهائي ألا يقع في الحب مهما كانت المغريات... عندما بدأ البحث عن سكرتيرة تقدمت خمس عشرة فتاة لنيل الوظيفة... اكتشف رأفت منذ الوهلة الأولى أن «جدعون» قد رتب الأمر وأعطى وعدًا لآنسة في الخامسة والأربعين من عمرها اسمها

«سيبيل يوسف» بأن تشغل الوظيفة... ترك جدعون يجري الاختبار مع الفتيات وحده وجلس هو إلى جواره مستمعًا، في البداية كان ظنه أن المجتمع الإسرائيلي قد لا يتشابه مع المجتمع الأوربي أو الأمريكي لكنه لم يجد فارقًا يذكر... تراوح مستوى الجمال بين الفتيات فيما بين قمة أثارت إعجابه، وجمال متواضع تمثله صديقة جدعون المتلهفة على شغل الوظيفة... غير أن فتاة بعينها، جاءت وجلست وسئلت وأجابت ثم مضت بوعد بالاتصال بها مثلها مثل الأخريات، لم تفارق صورتها خيال الفتى أبدًا... لم يكن فيها ما يلفت النظر سوى عينين تبدوان وكأنهما تبحثان عن مأوى، ترددت عيناها فيما بين السيد شاباتاي والفتى ثم تشبثتا بوجه الفتى في استغاثة صامتة، عندما جلست قبالتهما، سألها جدعون:

«ما اسمك يا فتاتي؟».

«إستر بلينسكي».

«بولندية؟».

«المفروض أني إسرائيلية!!».

تبادل جدعون النظرات مع الفتى ثم عاد يسألها وقد ابتلع الرد الغاضب:

«كم لغة تتقنين؟».

«ثلاث لغات عدا البولندية والعبرية هي الإنجليزية والفرنسية والألمانية!».

«متزوجة؟».

عادت عينا الفتاة تتشبثان بوجه الفتى وهي تقول:

«مخطوبة».

«ماذا يعمل خطيبك؟».

«المفروض أنه مهندس طائرات!».

«وماذا يعمل غير ذلك؟».

«إنه يقضي أغلب أيامه في رئاسة الأركان... فهو ضابط احتياطي».

ولم يسمع الفتى شيئًا بعد ذلك، راح يرقب الفتاة التي كانت تجيب على الأسئلة بنبرة رافضة متوسلة في نفس الوقت. شيء غريب في «إستر بلينسكي» كان يجذبه إليها، انتهت مقابلات الفتيات في يومين وكان اختيار جدعون لصديقته «سيبيل يوسف» واضحًا، عندما سأله عن رأيه قال الفتى إنه أكثر دراية منه بالإسرائيليات وإنه يترك له حرية الاختيار، تظاهر جدعون بأنه يقلب في الأوراق التي أمامه ثم قال زافرًا:

«لست أرى من تفوق سيبيل يوسف خبرة ومقدرة!».

«كنت أعلم هذا منذ البداية!».

جاءت كلمات الفتى مثل لطمة مفاجئة فالتفت إليه جدعون مستفسرًا، فإذا الفتى يقول في وضوح:

«كنت أعلم منذ البداية أن اختيارك سيقع عليها!».

«ولكنها أكثرهن خبرة وتدريبًا!».

«هذا صحيح... ولكني أفضل أن نفصل بين حياتنا الخاصة وبين العمل!».

هم جدعون بالرد وكان يحك ظهر يده في عنف:

«أرجو ألا تنكر فلقد كان الأمر واضحًا أشد ما يكون الوضوح!».

نهض جدعون مدافعًا وإن كان الحرج يكبل كلماته:

«حتى ولو كان الأمر كما تدعي، فإننا في حاجة إلى سكرتيرة مدربة تستطيع أن تفهمنا معًا حتى لا توقعنا في مآزق نحن في غنى عنها!».

«ولكن الآنسة سيبيل ستفهمك وحدك يا عزيزي جدعون!».

بقدر ما كان في لهجة الفتى من صرامة تحدد ملامح العلاقة، كان هناك اتهام معلق فوق رأس شريكه الذي أخذ يتراجع مغمغمًا:

«يبدو أنك عنيد بقدر كاف يا ديڤيد!».

«مال الفتى قائلًا وهو يضغط على كلماته حتى تصل إلى الرجل واضحة:

«لقد عشت عمري كله يا سيد شاباتاي أعمل من أجل إقامة هذا الوطن، والآن وقد تحقق الحلم، فلا بد لي من أن أعيش فيه كما ينبغي... والحقيقة التي لا بد أن تعرفها بوضوح أني لا أملك من المال سوى هذا الذي قدمه لي السيد شارل سمحون، وعلى ذلك فأنا لست على استعداد لتبديده لسبب أو لآخر، ولا بد أن ينجح هذا المشروع مهما كان الثمن وأي تهاون في أي أمر من أمور الشركة لن أقبله!».

كانت دهشة الفتى شديدة، وكانت سعادته أشد وهو يرى جدعون يعود إلى مقعده وقد استسلم تمامًا:

«حسن... حسن... افعل ما شئت، واختر من الفتيات من تروق لك!».

«ولا هذا أيضًا أقبله!».

في حيرة رفع الرجل إليه عينيه فاستطرد الفتى:

«في مصر مثل شعبي يقول: اللي أوله شرط آخره نور... هل أدركت معناه؟».

«يقينًا!».

«إذن فعلينا أن نفعل كل شيء معًا، وأن يكون كل منا ـ فيما يختص بالعمل ـ على علم كامل بخطوات الآخر!».

«ما الذي تريده بالضبط؟!».

«أن نختار السكرتيرة معًا».

وهكذا راحا يراجعان أسماء الفتيات وصورهن ومؤهلاتهن وسنوات خبرتهن وقدراتهن... ولم يكن صعبًا على الفتى الآن أن يدفع جدعون شاباتاي إلى اختيار «إستر بلينسكي» ثم يتظاهر هو بالتردد، ثم يدفعه في لحظة عناد إلى التشبث بهذا الاختيار متحررًا من تهمة التحيز فهو لا يعرف الفتاة ولم يلتق بها من قبل وليست بينه وبينها علاقة، حتى إذا ما أبدى الفتى موافقته، أبداها وكأنه يتنازل لشريكه ويخضع لرأيه!

* * *

ضحكت هيلين سمحون وهي تقول لعزيز الجبالي:

«يبدو أني تزوجت ثعلبًا!».

«هذا صحيح... ولكنه كان يحمل قلب طفل!».

أطلقت عينا هيلين نظرة مشتعلة فابتسم عزيز في خبث مداعبًا إياها:

«كان هذا قبل أن يلتقي بك يا سيدتي!».

وضحكا معًا!

* * *

بعد ثلاثة أشهر كانت إستر في وداع الفتى في المطار، قبل أن يغادرها قدمت له تذكرة الطائرة وجواز السفر وأكدت على وجود بعض الأوراق والملفات في حقيبته ثم نبهته إلى مواعيد الدواء الذي وصفه له الطبيب وأوصته بألا يعرض نفسه لبرد أوربا فهي تريده أن يعود إليها في كامل صحته... كان الصيف قد انقضى وجاء الخريف بأوراق أشجاره المتطايرة ورياحه الباردة... حقق المكتب عددًا لا بأس به من الرحلات لكن مجال السياحة في تلك الأيام كان مجدبًا، فراح الفتى

يراسل بعض مكاتب السياحة في روما وباريس ولندن ونيويورك... ذات يوم جاءه خطاب من صديقة قديمة تعيش في باريس تعلن فيه سرورها البالغ لاستقراره أخيرًا وافتتاحه هذا المكتب ولو أنها: «أفتقدك وأفتقد ليالي باريس معك!» وكان معنى هذه الجملة أن مصطفى يريد أن يراه في روما، وقالت مدموازيل مارسيل - هذا اسم الصديقة - إن هناك ثمانية أفلام جديدة تعرض الآن في العاصمة الفرنسية، وكان معنى هذا أنه يريد أن يراه في اليوم الثامن من الشهر القادم، ثم ختمت مارسيل خطابها بقولها: «لو فكرت في الحضور فلا بد أن تبرق لي بموعد وصولك حتى أكون في انتظارك»... وأدرك الفتى أن مصطفى عبد العظيم يريد أن يراه بأي شكل!

عندما انتهى من الخطاب رفع رأسه فإذا إستر بلينسكي تنظر إليه في عتاب صارخ، ليس هذا جديدًا عليه وإن كان الأمر أصبح يحيره كثيرًا... كان موقنًا أن الفتاة قد وقعت في حبه وأن الغيرة أصبحت تأكلها أكلًا، لم يكن هذا ما يعنيه بقدر ما كان يعنيه أن قلبه كان يخفق إشفاقًا على نفسه أولًا... فهل قدر له أن يعيش بقية عمره راهبًا مطيعًا لتوصيات محسن ممتاز؟!... أمسك بالقلم وكتب برقية إلى الآنسة «مارسيل موريناك» في باريس، طلب إلى إستر أن تجهز له كل الأوراق الخاصة بمراسلاته مع شركات السياحة في روما وباريس، وأن تحجز له مقعدًا على الطائرة المقلعة إلى باريس مرورًا بالعاصمة الإيطالية... ولقد قال الفتى فيما بعد: إنه كان يشعر بفرحة طاغية وهو في طريقه إلى لقاء مصطفى، كانت شهور ثلاثة قد انقضت لم ينطق فيها لسانه بحرف عربي واحد، قرر أن يلزم نفسه بالحديث بالعبرية حتى يتقنها تمامًا... وصل إلى روما في اليوم السادس من أكتوبر عام ١٩٥٥ وكان أمامه يومان حتى يلتقي بمصطفى، طوال هذين اليومين راح يعمل ويتصل بمكاتب السياحة وشركاتها ويتفاوض ويناقش ويجادل ولقد حقق إنجازًا لا بأس به... كان أسلوب لقائه مع مصطفى مركبًا ومعقدًا فازداد الشوق في صدره للقاء وطنه...

راح يتساءل إن كان مصطفى قد سافر إلى القاهرة منذ غادره هو في «بومبي» أم أنه ظل في أوربا طوال تلك المدة... كان الشوق إلى مصر كشوق العطشان إلى شربة ماء... داعبت خواطره شريفة أخته وطارق ابنها، داعبت خياله صور إخوته وطارديه من جنة العائلة إلى حيث أوصله القدر إلى ما لم يخطر بباله قط، توقفت الخواطر عند محسن ممتاز، كم أشتاق إليه وكم سينتظر من شهور وربما أعوام حتى يراه مرة أخرى... كيف ارتبط بهذا الضابط المتجهم وكيف أحبه وكيف صنعا معًا ما صنعا؟!... في السابعة من مساء اليوم الثالث لوصوله إلى روما كان يدلف إلى إحدى العمارات المكتظة بالسكان في قلب المدينة... دلف إلى المصعد وترك للآخرين تحديد أرقام الطوابق، عندما وصل المصعد إلى الطابق الثامن غادره رجل بدا في عجلة من أمره، خطا الفتى خارج المصعد متمهلًا حتى اختفى الرجل وساد السكون من حوله، انتظر لثوان ثم هبط الدرج إلى الطابق السادس، انتظر قليلًا حتى اطمأن تمامًا ثم تقدم إلى أحد الأبواب ودق الجرس دقة واحدة، فتح الباب فإذا الذي أمامه هو محسن ممتاز بلحمه وشحمه، هم بالصياح وقد انتفض بفرحة طاغية لكن هذا جذبه إلى الداخل بعنف وأغلق الباب، عندما التفت محسن إلى الفتى وكانت الابتسامة تملأ وجهه، وجد عيني الفتى مغرورقتين بالدمع.

«إيه المفاجأة الحلوة دي يا محسن بيه؟!».

«أصلك وحشتني قوى يا رأفت!».

حال سماع الفتى لاسمه الحقيقي لم يستطع أن يمنع دمعه من الفرار!

* * *

قضى الفتى ليلة سعيدة في روما، راح يحكي لمحسن ممتاز ومصطفى عبد العظيم الذي حضر ذلك اللقاء بالطبع، كل ما مر به خلال

الشهور الماضية وبأدق التفاصيل وأشدها إملالًا لكن حديثه بدا للرجلين كأحلى ما في الكون من أغنيات... ترك مصطفى عبد العظيم للفتى فرصة الحديث مع أستاذه وانتحى هو جانبًا يستمع في صمت ويشارك بين الحين والحين مجاملة... قال الفتى إنه يشك في أن «يوسف الأزرع» على اتصال بالموساد، لكن محسن استبعد هذا الاحتمال، وعندما وصل الحديث إلى «إستر بلينسكي» التمعت في عيني محسن نظرة تأنيب فهتف الفتى:

«والله العظيم ما حصل حاجة!».

«أنا متأكد!».

«أمال بتبص لي كده ليه؟!».

«علشان ما يحصلش حاجة يا رأفت!».

«ده خطيبها ضابط احتياط في رئاسة الأركان و........».

«لأ!».

خرجت الكلمة من بين شفتي محسن كطلقة مدوية أصابت هدفها، صمت الفتى فقال محسن:

«ابعد عن أي حاجة دلوقت، ما حناش عاوزين منك غير تدعيم مركزك وحياتك!».

«إنت عارف دول بيعاملوني إزاي؟!».

«ولو!».

«وإذا كانت الأخبار بتجيني لحد عندي؟».

«إديها ضهرك وخليك في حالك!».

رغم عنف الحوار، وحدته أحيانًا، كان اللقاء حميمًا... لم يكن مطلوبًا إلى الفتى سوى تدعيم مكانته وسط المجتمع الإسرائيلي، حتى

إذا ما حان الوقت قام بدوره على الوجه الأكمل... ظل الحوار حتى ساعة متأخرة من الليل وقدم الفتى كشفًا بكل المصاريف التي أنفقها خلال الشهور التي مضت لكنه قدم تقريرًا شفهيًا عن أعمال المكتب وما استطاع إحرازه من نجاح محدود فقال محسن:

«معنى كده إنك حاتحتاج فلوس قريب!».

«لما احتاج حابقى أديلكم خبر... بس أنا خايف!».

ثم راح يطرح الأمر بدقة متناهية، ولو استمر الحال على ما هو عليه فلسوف يحتاج إلى نقود في القريب حقًا ولكن ليس هذا ما يشغله، إن ما يشغله هو الخواجة شارل سمحون.

«ما له؟!».

«إيه أخباره؟».

«بيستعد إنه يسيب مصر!».

«حايروح فين؟!».

«غالبًا فرنسا».

«إنت متأكد يا محسن بيه؟!».

«دي المعلومات اللي عندنا لحد دلوقت!».

قال الفتى إن من أشد الأمور أهمية أن يعلن عن مصدر المال لو أنه ذهب بمدد منه إلى إسرائيل، وليس هناك مصدر أجدر بالثقة بالنسبة للمحيطين به أكثر من الخواجة سمحون... قال الفتى إن أكثر ما أثار غيظه أنه وجد كل كلمة فاه بها في مقهى إستانبيلوس بالقاهرة قد انتقلت إلى إسرائيل، حتى ذلك الحوار الذي دار بينه وبين الخواجة صروف مليونير حي الموسكي... قال إن من أشد الأمور أهمية بالنسبة إليه في الوقت الحاضر هو الساتر الخاص بمصدر المال خاصة أن جدعون شاباتاي

هو المشرف على الأمور الإدارية والمالية... وهو لهذا كان يفكر في أن يرسل من باريس ـ وهو لا بد ذاهب إليها كي يثبت صحة البرقية التي وصلته ـ خطابًا للسيد سمحون في الإسكندرية، وآخر لابنته ماجي... ولقد تردد في طرح هذا الاقتراح حتى لا يتهمه محسن بأن نقطة ضعفه تجاه الجنس الآخر هي التي تدفعه إلى هذا.

«وليه ما تبعتش الجوابات دي من هنا؟».

«يعني إنت موافق؟!».

مد محسن يده في جيبه الداخلي وأخرج «كارتَيْ بوستال» إيطاليين وهو يقول:

«أنا اشتريت دول علشان أبعتهم لمصر، خدهم وأنا حاشتري غيرهم!».

تناول الفتى الكارتين وهو ينظر إلى محسن نظرة إعجاب فائق... أدرك على الفور أن أستاذه لم تفته المشكلة فاشترى الكارتين قبل أن يلتقي به فلعله نسي!

«يعني بلاش أبعت جوابات؟!».

«مين اللي قال؟... ابعت الكارتين دول من هنا، وابقى اكتب الجوابين في باريس!».

راح الفتى يرمقه في صمت، فابتسم محسن وقد أدرك ما يجول في خاطره قائلًا:

«مش كده يبقى أحسن؟».

«إنت ما بتنساش حاجة أبدًا؟!».

«إذا كانت مصر بتديني مرتب على كده، أنسى إزاي يا رأفت؟».

قال الفتى مرحًا:

«يا بخت مصر باللي زيك!!».

* * *

عندما وضع بين الثلاثة عشاء خفيف صاح الفتى في مرح:

«أنا كنت لسه حاسألكم إن كنتوا سمعتوا عن اختراع اسمه الأكل!».

سأله مصطفى:

«جعان يا رأفت؟».

«قوي!».

سأله محسن:

«لكن انت ماقلتليش!».

«على إيه؟!».

«مين اللي كانت بتتعشى معاك في المطعم اللي على البحر يوم الأربع اللي فات في تل أبيب؟!».

توقف الفتى عن المضغ فاغر الفم ذاهلًا... ابتسم محسن متسائلًا:

«إيه ما لك؟!».

قفز الفتى من مكانه صائحًا في احتجاج:

«ما هو أنا مش حاعيش ملاك يا محسن بيه!».

ثم استدار نحو مصطفى مستنجدًا:

«أنا إنسان... إنسان يا عالم!!».

وكان الغريب أن محسن ممتاز ومصطفى عبد العظيم راحا يتناولان العشاء في صمت ودون كلمة أو تعليق... حاول الفتى أن يعود إلى الحديث لكنه لم يستطع، لم يكن هناك ـ أمام صمتهما الغريب هذا ـ ما يقوله، ولم يعد الفتى، ولا محسن، إلى الموضوع مرة أخرى!!

قبل الفراق شد محسن على يده باسما:

«ما سألتنيش على شريفة؟!».

«خايف أسألك!».

«جوزها اترقى، بقى بكباشي!».

«وهي إزيها؟».

«بمب!!».

«وطارق؟».

«دخل المدرسة!».

تردد الفتى قليلًا فسأله محسن:

«عاوز تقول حاجة؟».

«ممكن أبعت لها جواب؟».

«بلاش دلوقت يا رأفت».

قالها محسن في اعتذار واضح، هز الفتى رأسه موافقًا، هم محسن بالحديث كي يشرح وجهة نظره لكن رأفت أوقفه:

«أنا عارف... أنا عارف!».

تصافح الرجلان في حرارة، لكن الفتى انتزع يده من يد أستاذه ثم ضمه إلى صدره في قوة وحرارة، استدار بعدها كي يصافح مصطفى، ثم، وقبل أن يفتح الباب، همس:

«أشوفكم بخير!».

وكان الذي دمعت عيناه هذه المرة هو محسن ممتاز!

الفصل الثالث

هَلْ أحْمل السلاحَ ضدّ وَطني؟

طار الفتى إلى باريس كي يقضي يومين حاول فيهما أن يعقد اتفاقًا خاصًا بالشركة... كانت العلاقات الفرنسية الإسرائيلية تمر في تلك الأيام بأزهى مراحلها، ولذلك فلقد أفلح جزئيًا في مهمته، غير أن أهم ما كان يعنيه بعد أن غادر محسن ومصطفى في روما، هو العمل على استمرار علاقته بالسيد شارل سمحون، أبيه بالتبني وراعيه ومموله السكندري... كان موقنًا من أنه سوف يحتاج إلى المال في القريب كي تستمر الشركة، وأن محسن سوف يحول له ما سوف يحتاج إليه من مال. ولكنه كان يريد لهذا المال مصدرًا شرعيًا واضحًا أمام الجميع في إسرائيل... وبالرغم من أن محسن طمأنه تمامًا بأن أحدًا هناك لن يهتم بمصدر المال ما دام ما يصله منه ليس فوق احتياجاته، وأن علاقات العمل بينه وبين شركات السياحة في دول أوربا لا بد أن تحول له بضعة آلاف من الدولارات، وأن في هذا غطاء كافيًا له... بالرغم من كل هذا، فلقد كان قلقًا أشد ما يكون القلق... كان يرى في علاقته بالسيد شارل سمحون ضمانًا يواجه به الجميع في إسرائيل، ولذلك، فلقد قضى ليلة كاملة من ليلتيه في باريس كي يكتب خطابين، أحدهما لشارل سمحون، والثاني لابنته ماجي.

ظل الفتى طوال الليل ينتقي الكلمات بعناية، كلمة وراء الأخرى...

كتب لأبيه بالتبني شارحًا له كل ما حدث في الشهور التي انقضت منذ أن غادره بالإسكندرية ـ كان الفتى يتحدث بالطبع عن الشركة والتمويل والشريك وما إلى ذلك دون إسرائيل أو تل أبيب أو أية إشارة إلى حياته الجديدة ـ ثم تحدث عن الكساد والتعثر اللذين يواجههما مشروعه الجديد، وإن كانت احتمالات النجاح في المستقبل ـ ومع بعض الجهد ـ تبدو مضمونة وأكيدة، على الوجه الآخر كان الفتى حريصًا كل الحرص على تقديم معلومات دقيقة وصادقة للسيد سمحون، فهو لم ينس أن أخباره في مصر وصلت إلى إسرائيل بدقة أذهلته، ثم إنه كان حذرًا كل الحذر من الوقوع في أخطاء قد تؤدي ولو إلى مجرد تساؤل واحد!... وعلى كل، فإن رأفت الهجان الذي أصبح الآن مواطنًا إسرائيليًا محترمًا اسمه ديڤيد شارل سمحون، رغم كل ما قاله في خطابه، لم يطلب، لا تلميحًا ولا تصريحًا، أي نوع من أنواع المساعدة المالية... وإن كان قد طلب إلى الثري العجوز الذي خاطبه في أول الرسالة بكلمتي «أبي العزيز» أن يطمئنه بأية صورة من الصور وأي أسلوب من الأساليب عليه وعلى العائلة... ثم وضع في نهاية الرسالة توقيعه:

«ديڤيد!».

أما ماجي فلقد كتب يبثها أشواقه، ويحدثها عن المستقبل الذي يرجوه لنفسه، وعن الحياة الجديدة التي لا يزال يحبو فوق أرضها متعثرًا وإن كان واثقًا أشد ما تكون الثقة في النجاح... كتب لها عن كل ما تريد أن تعرفه عنه دون أن يلتزم حيالها بوعد أو إحساس... وكان لديه بالطبع عذره في هذا، فلقد كان المفروض أنه يكتب إلى «أخته»!

عندما وضع الفتى الخطابين في ظرفيهما، كتب اسم الدولة والمدينة فقط باللغة الفرنسية، لكنه كتب العنوان مع الاسم بخط عربي جميل كان يتميز به منذ أيام دراسته في مدرسة التجارة المتوسطة... ورغم أنه لم يكن هناك ما يثير الشجن، فإن رؤيته للخط العربي واسم مصر ثم

الإسكندرية، ثم... ثم كل هذا الذي كتبه، بعث في نفسه حنينا شديدًا نحو الوطن، حنينًا كان عليه لا أن يقاومه فقط بل يقتله في نفسه قتلًا... فلسوف يطير الخطابان إلى مصر، أما هو، فلسوف يطير إلى إسرائيل!!وهكذا عاد الفتى إلى تل أبيب وقد أدى ما عليه من مهام. لكنه كان يشعر بقلق كانت أسبابه ـ بالنسبة إليه ـ واضحة أشد ما يكون الوضوح!

لم تكن الشركة بكل مشاكلها هي مبعث هذا القلق، فهو في النهاية سيحصل على ما يريد من مال إذا ما احتاج إليه، ثم هو سوف يستطيع ـ بشكل أو بآخر ـ أن يجد ساترًا مناسبًا ومأمونًا... ولم يكن «جدعون شاباتاي» ـ شريكه ـ هو مصدر قلقه أيضًا، فلقد كان الفتى يعرف أن للرجل أعمالًا أخرى تلهيه عنه، كما كان واضحًا أن السيد شاباتاي يبدو سعيدًا ما دامت الأمور الإدارية والمالية بين يديه... كذلك لم تكن حياة الفتى في إسرائيل هي مصدر قلقه برغم ما فيها من تعقيدات، فلقد اكتشف أن حذره وحرصه بل وحركته المنضبطة داخل المجتمع الإسرائيلي قد تحولت مع الأيام إلى عادة لا تكلفه جهدًا.

كان مصدر قلقه بالتحديد هو سكرتيرته: «إستر بلينسكي».



ولقد كان الفتى صادقًا كل الصدق عندما أقسم لمحسن ممتاز في روما، أن ليس بينه وبين تلك الفتاة البولندية الأصل أي شيء، فلقد بذل جهدًا مضنيًا في مقاومة «نقطة ضعفه» هذه حتى يظل بعيدًا ـ بالعاطفة ـ عن الفتاة التي راحت تخترق حياته وتشرف عليها وتنظمها في إصرار يبعث على الدهشة والارتباك معًا... ليس فقط من أجل سلامته وأمنه. فهو في تلك المرحلة كان «نظيفًا» ـ حسب التعبير الشائع ـ من أية أدوات أو معدات أو أدلة... وكانت حياته عادية تمامًا... لكنه أراد ألا يعطي لجدعون شاباتاي الفرصة كي يمسك عليه تصرفًا اعتبره هو في البداية خطأ، عندما أراد جدعون أن يوظف الآنسة «سيبيل يوسف» في الشركة!

«أنا مش باقول لك ابعد عنها يا رأفت، دي سكرتيرتك وانت لازم يبقى عندك سكرتيرة، أنا بس باقول لك خليك حريص، خصوصًا من خطيبها إلياهو جادوسكي».

هكذا قال له محسن، ولقد كان على حق ـ بطبيعة الحال ـ في طلبه هذا... فلقد كان الميجور «إلياهو جادوسكي» ـ خطيب إستر ـ ضابطًا ملحقًا برئاسة الأركان... التقى به الفتى مرة واحدة، تناول معه العشاء في مسكن إستر عندما دعته ذات مرة كي تقدم كلًّا منهما للآخر... ومنذ اللحظة الأولى بدا له الميجور جادوسكي منفرًا بالرغم من أن الرجل استقبله في ترحاب شديد واحترام بالغ بعد أن عرف من إستر قصة كفاحه من أجل بناء وطن قومي لبني جنسه، إلا أن الفتى وجد فيه ذلك النوع من البشر الذين حولوا عقدهم النفسية إلى أهداف قومية!!... وطوال تلك الليلة لم يكف «إلياهو جادوسكي» عن الحديث عن نفسه، عن طفولته وصباه المبكر في بولندا، عن اضطهاد أقرانه الصغار له، لا لشيء إلا لأنه يهودي... حكى، بعد الكأس الرابعة، كيف ودعه أقرانه في الحي بالرهانات واللعنات عندما قرر أبوه الهجرة إلى فلسطين قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضع سنوات... ثم حكى كيف انضم إلى «الهاجاناه» قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره... وإذا كان قد حكى ما لحقه على أيدي الأوربيين بألم بالغ لدرجة أنه كان يبدو بتقلص ملامحه أثناء الحديث وكأنه لا يزال يعاني من هذه الإهانات حتى بعد مرور عشرين عامًا، إلا أن تلذذه كان واضحًا وهو يحكي ما فعلوه مع العرب في فلسطين، كيف أحرقوا القرى وأبادوا السكان وبقروا البطون وأعدموا الصغار، وثقبوا ظهور النساء وهن يعدون هربًا وخوفًا وفزعًا!

ولكن... بقدر نفور الفتى من إلياهو جادوسكي، كان انجذابه إلى خطيبته إستر بلينسكي، التي لم تكن تخفي إعجابها به، وإن كانت ـ أمام خطيبها أثناء ذلك العشاء ـ قد تصرفت بتعقل شديد، فهي في الأيام

الأخيرة قبل سفره إلى أوربا، بدت وكأنها ارتبطت بالفتى ارتباطًا لا فكاك منه!!

كان الفتى يفكر بقلق بالغ فيما يمكن أن يفعله ميجور الاحتياط الملحق برئاسة الأركان الإسرائيلية لو أنه اكتشف هذا الحب أو الإعجاب... حقًا لقد اكتشف الفتى بعد أسابيع قليلة طبيعة تلك العلاقات العاطفية المبالغ فيها داخل إسرائيل، والتي لا تختلف عن مثيلاتها في مصر فقط، بل في كل الدول التي زارها من أمريكا إلى ألمانيا، كان رأفت الهجان قد اكتشف أن هذا المجتمع يعيش في حالة من التوتر الحاد والدائم تدفعه إلى الاستمتاع بالحياة في شراهة وحرية تفوق أية حرية شاهدها أو عرفها أو حتى سمع عنها... في البداية حيره هذا كثيرًا، وربما ساعده على الابتعاد عن الجنس الآخر، لكن هذه ليست مشكلته الآن، المشكلة التي تقلقه هي أن الأمر لو استمر على هذا المنوال فلا بد أن يأتي يوم يعلم فيه جادوسكي كل شيء... وهو، مهما كان، ليس أعمى... فما الذي يمكن أن يحدث في ذلك الوقت؟!

ماذا يفعل؟

بل ماذا يجب عليه أن يفعل؟

هل يخوض معركة هو ليس في حاجة إليها ولا يسعى لها ولا يريدها، أم يفصل إستر بلينسكي من وظيفتها في الشركة ويبتعد عنها؟!

سؤال ظل يلح عليه - طوال رحلته بالطائرة من فرنسا إلى إسرائيل - حتى هبطت الطائرة في مطار «اللد» وكانت إستر هناك، تنتظره بشوق وقلق.... ارتمت بين ذراعيه وتعلقت بعنقه بل وقبلته... ولم يجد بدا من الاستسلام حتى لا يلفت أنظار المستقبلين في المطار... ترك لها ذراعه كي تتأبطه، ومضى إلى جوارها وقد تحققت كل مخاوفه، واشتعل رأسه بالتفكير بحثًا عن مخرج!

* * *

في السيارة التي كانت إستر بلينسكي تقودها، راحت تحكي له، لا عما تم من عمل أثناء غيابه، ولكن عنها هي، عن شوقها إليه، عن إحساسها بأنها تعيش ـ بدونه ـ في فراغ، عن قلقها البالغ والغامض والغريب الذي انتابها!

«ولم القلق؟!».

هكذا سألها بصوت بذل جهدًا حتى يأتي طبيعيًا!

«لست أدري!».

«ولكن لا بد من سبب».

«أعلم هذا».

«ثم إني كنت أتحدث إليك تليفونيًا كلما كان هذا ممكنًا».

«ورغم هذا داخلني إحساس فظيع بأنك بعيد عني، خاصة في الأيام الأولى عندما كنت في روما... كنت أشعر بأنك بعيد، بل شعرت بما هو أفظع من ذلك يا ديفي!!».

تعودت إستر بعد بضعة أسابيع وبعد أن أصبحا صديقين أن تدلله باسم «ديفي» في السهرات أو إذا كانا على العشاء أو في اللحظات الخاصة... وكان لا بد للفتى أن يسألها عما شعرت به وكان ـ على حد قولها ـ فظيعًا للغاية...!

«ظننت أنك لن تعود أبدًا».

«إستر!».

هتف الفتى باسمها وقد تحققت الآن كل مخاوفه، أدرك أنه لا مناص من البعد عنها، أحس أن سره المكنون يتعرض للخطر فقد تكشفه مخاوف امرأة تحب!!... أراد الآن أن يضع حدًا لكل الأمور... حاول الحديث فلم يستطع، كان لا بد له أن يرتب أفكاره أولًا!

«ديفي!».

كان ساهمًا مستغرقًا في أفكاره فلم يرد، عادت تناديه في حنان متذمر:

«ديفيد!».

التفت نحوها دون رد.

«فيم تفكر؟!».

«لا شيء يا عزيزتي... لا شيء!».

«لا بد أن اللاشيء هذا استطاع أن ينسيك وجودي!».

التفت نحوها بكليته استعدادًا لمعركة فاصلة:

«إستر... ما الذي تريدينه بالضبط؟!».

«أريد أن أحبك!».

«لاحظي أن الـ....»

قاطعته:

«ألم تشعر بالشوق إليَّ؟!».

مرتبكًا قال:

«بالتأكيد!».

«ولم لا تقول هذا؟!».

هتف:

«إستر... أرجوك!».

ثم ساد الصمت!

ساد الصمت حتى وصلا إلى مسكنه!

وهناك، ووسط أضـواء السيارة الغامرة لمدخل العمارة، كان ضابط الاحتياط، الميجور إلياهو جادوسكي، الملحق برئاسة الأركان الإسرائيلية، يقف هناك ووجهه ينبئ بالكثير!!!

فهل وقع المحظور؟!

* * *

كانت مصر في الشهور الأولى من عام ١٩٥٦، تخطو خطوات حثيثة نحو الاستقرار بعد أن حسم الصراع السياسي الذي دام ما يقرب من عامين، بين رجال الثورة بعضهم وبعض من ناحية، ورجال الثورة والقوى السياسية الأخرى، والتي راحت تتساقط في صمت يبعث على الأسى!

منذ شهور، كان الشاب جمال عبد الناصر قد سافر إلى باندونج، واستطاع وسط عمالقة السياسة في آسيا وإفريقيا، ومع رجال من أمثال الزعيم الهندي جواهر لال نهرو والرئيس الإندونيسي سوكارنو ورئيس وزراء الصين شواين لاي... استطاع وسط حشد ـ هؤلاء نجومه ـ أن يثبت وجوده، وأن يكتسب احترام الجميع، ويؤكد قدراته كسياسي وثائر رغم أنه لم يكن قد أصبح بعد رئيسًا للجمهورية.

في شهر مارس سنة ١٩٥٥ شنت إسرائيل ـ دون مبرر ـ عدوانًا على قطاع غزة أبادت فيه قوة مصرية كانت هناك، وفي نوفمبر من نفس العام شنت عدوانًا آخر على موقع «الصابحة» واغتالت عددًا لا بأس به من الجنود أيضًا... وكان هذان العدوانان قد حددا الطريق أمام الثوار الشبان... مما دفع جمال عبد الناصر إلى أن يخطب في مناسبة افتتاح المبنى الجديد للكلية الحربية، وتخريج دفعة ١٩٥٥ من الضباط، ثم تسليم الكلية علمها الجديد، خطب ناصر قائلًا:

«لقد كلفت القائد العام للقوات المسلحة ـ عبد الحكيم عامر ـ بمقابلة العدوان بالعدوان!».

كان الموقف متوترًا، ولم يكن أمام مصر سوى طريق واحد، هو ضرورة شراء السلاح بأي ثمن كي تحمي طموحات ذلك الجيل من أبناء مصر الذي انطلق في كل اتجاه، يبني ويعمر ويشيد المصانع ويسابق الزمن الذي كان قد سبقه بمراحل، كان لا بد من طيها حتى نصل إلى موقع العالم من حولنا... واجتاحت البلاد حركة اجتماعية واقتصادية وسياسية وفنية راحت تتصاعد يومًا بعد يوم... ودخلت حياة الناس في تلك الأيام ولأول مرة كلمات جديدة تمامًا، مثل: التخطيط والتنمية والفولكلور... وكان الإعلان عن صفقة الأسلحة التشيكية واعتراف مصر بالصين الشعبية كنوع من التحدي لسلطان الغرب الذي فرضه على مصر طوال سبعين عامًا خلت... كانت القوات البريطانية تنسحب من منطقة القناة، ولم يكن باقيًا ـ حسب المعاهدة المبرمة بين مصر وبريطانيا العظمى ـ سوى أسابيع ويخرج من البلاد آخر جندي بريطاني بعد استعمار جثم على أنفاسها لعشرات السنين!

وأنشئت مصلحة الفنون، التي أصبحت فيما بعد وزارة الثقافة، لم تكن مصر تعرف وزارات أو مصالح بهذه الأسماء من قبل، ورأس المصلحة الوليدة واحد من ألمع كتاب الرواية في مصر هو الأستاذ يحيى حقي، وأنشئ المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون، كان يرأسه وزير التربية والتعليم كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة، ويديره واحد من ألمع كتاب القصة الشبان هو يوسف السباعي... ووجد الشبان فرصة للتعبير عن أنفسهم بعد أن لمع في الصحافة المصرية جيل جديد يحمل فكرًا جديدًا... وقفزت الموسيقى قفزة هائلة بظهور كوكبة من المطربين والمطربات تزعمهم شاب ريفي نحيل أسمر عذب الصوت اسمه: عبد الحليم حافظ... قاد تلك القفزة الموسيقية ثلاثة من الموسيقيين الشبّان هم: كمال الطويل، محمد الموجي، ثم لحق بهم مجنون اسمه بليغ حمدي!... وأنشئت مؤسسة فنية جديدة عرفت باسم «مؤسسة المسرح»، تولى رئاسة مجلس إدارتها واحد من أساتذة

المسرح في مصر هو الدكتور على الراعي، كما تولى إدارة المسرح القومي الصاغ (رائد) أحمد حمروش، وهو من ثوار يوليو المثقفين، وكان عضوًا في تنظيم الضباط الأحرار، ورئيسًا لأول مجلة أسبوعية تصدرها الثورة هي «التحرير»، كما أنه أصدر في مايو ١٩٥٦ مجلة ثقافية جديدة اسمها «الهدف» حشد فيها أقلام عمالقة الأدب والفن والفكر والاقتصاد والعلوم... وطفرت الحركة المسرحية طفرة قام بها مجموعة من الشبان قدر لهم أن يقودوا الحركة المسرحية لسنوات طويلة قادمة، لا في مصر وحدها، ولكن في العالم العربي كله... في تلك الأيام لمعت أسماء نعمان عاشور ويوسف إدريس وألفريد فرج وسعد الدين وهبة ولطفي الخولي، ثم لحق بهم محمود دياب وعلي سالم فيما تلا ذلك من أعوام.

وعادوا من بعثاتهم إلى إيطاليا وفرنسا والاتحاد السوفييتي كل من سعد أردش وكرم مطاوع وجلال الشرقاوي وكمال يس ونجيب سرور... وتلألأت على خشبة المسرح القومي ـ مع المخضرمين من أعضائه ـ أسماء مثل سناء جميل وسميحة أيوب ومحمد الدفراوي وشفيق نور الدين وتوفيق الدقن وحمدي وعبد الله غيث والممثلة الشابة التي راحت تتألق بسرعة: سهير البابلي!

وفي مسرح القطاع الخاص احتل فؤاد المهندس عرش الكوميديا من خلال الإذاعة في برنامج ساعة لقلبك، وعلى خشبة المسرح، ولازمته الفنانة خيرية أحمد ثم شويكار التي اقترن اسمه باسمها حتى تزوجا، وبجوارهما كان دائمًا الفنان عبد المنعم مدبولي ومن حولهم عشرات الأسماء التي أصبحت نجومًا فيما بعد.

كانت مصر في تلك الأيام تبدو وكأنها عملاق يصحو بعد طول سبات... وكان التغيير يتم بسرعة وفي كل اتجاه وفي كل مكان أيضًا...

وكان أمرًا طبيعيًا أن يؤثر هذا التغيير الذي شمل كل أنحاء الدولة في جهاز المخابرات العامة المصرية الوليد!

* * *

وإذا كان هذا الجهاز قد ولد في الأيام الأولى للثورة، فإننا لا نستطيع أن نجزم بأن «الفكرة» فكرة إنشاء جهاز للمخابرات العامة كانت واضحة في الأذهان وضوحًا كافيًا... ومن هنا يصبح أمرًا طبيعيًا أن تتغير القيادات العليا فيه مرة بعد مرة... وكان طبيعيًا أيضًا أن يكون البحث عن «أسلوب» لإدارة هذا الجهاز وتبين احتياجاته في نفس الوقت هو الهدف الأساسي لكل قيادة... ولذلك، فإننا نستطيع أن نعتبر أن قرار تعيين الصاغ (رائد) صلاح نصر، وهو واحد من أهم الضباط الأحرار قبل الثورة وبعدها، كنائب لرئيس الجهاز قبل العدوان الثلاثي مباشرة، ثم رئيسًا له بعد ذلك... كان إيذانًا ببدء مرحلة جديدة وحاسمة في حياة هذا الجهاز.

كانت الأحداث تتسارع في المنطقة بعد شهور بدت رتيبة، وشغلت معركة تمويل السد العالي أذهان الناس، ودخلت المفاوضات الخاصة بها أطوارًا خطرة وصعبة وتحولت إلى مساومات مرهقة... وفي مثل هذه الظروف، ومع إعادة ترتيب البيت، كان أمرًا طبيعيًا أن ينقل «محسن ممتاز» إلى وظيفة أكثر خطورة وأثقل في المسئولية، تستلزم منه الابتعاد عن مصر لشهور قد تطول... ولقد حدث هذا بعد لقائه مع الفتى في روما ببضعة أيام، فعندما عاد إلى القاهرة وجد أن المطلوب إليه هو الانتقال إلى وظيفة أخرى، ولأنه جندي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فلقد أطاع الأمر، وسلم ما تحت يده من أعمال وحالات إلى زميل آخر، بعد أن شرح الأمور ـ كعادته ـ في استقامة ووضوح!

كان جهاز المخابرات الوليد ـ كمنظمة ـ يشهد تغييرات جذرية... إدارات تضم إلى إدارات، وأخرى تنشأ من جديد، وثالثة تلغى... وواجبات ومسئوليات، ووجوه جديدة أخذت تزحم الهدوء الذي كان

سمة من سمات المكاتب في ذلك المبنى... ووسط هذا كله، كان مذهلًا، بل ومزعجًا في نفس الوقت، أن يصل مصطفى عبد العظيم من أوربا وهو يحمل في حقيبته كارثة!

رغم كل التعليمات، والتلقين، والإلحاح، والتشديد... فلقد كان مصطفى يحمل خطابًا مكتوبًا بالأسلوب السري، أرسله الفتى من إسرائيل، يحوي معلومات شديدة الخطورة عن الطيران الإسرائيلي!

«...... أعرف أني سأتلقى تأنيبًا عنيفًا لأني خالفت التعليمات... ولكني لم أستطع أن أسمع كل هذا الذي سمعته ثم أقف مكتوف اليدين.....»

* * *

فوجئ الفتى عند وصوله إلى البيت بصحبة إستر بلينسكي من المطار، بوجود الميجور جادوسكي في انتظارهما، أدرك أن ثمة كارثة على وشك الوقوع، وأن مخاوفه تحققت قبل أن يحتاط لها جيدًا... لكن المفاجأة الكبرى جاءته عندما قال جادوسكي ـ وكان يبدو في عجلة من أمره ـ إنه جاء كي يودعهما قبل سفره الذي تحدد فجأة في فجر اليوم التالي، أي بعد ساعات... سألته إستر عن وجهته فلم يجبها وإنما راح يتحدث مع الفتى عن الظروف المحيطة بإسرائيل، قال إن الجيش البريطاني سينسحب من قاعدة قناة السويس خلال شهور قليلة، وإن معنى هذا أن المواجهة بينهم وبين المصريين ستكون صريحة... قال إن غارتي غزة والصابحة جاءتا بنتائج عكسية تمامًا، فلقد لمع اسم «جمال عبد الناصر» الذي كان يسلح جيشه الآن بأقصى ما يستطيع من طاقة. وكان يدربه عليه أيضًا... ثم، ها هي الولايات المتحدة، مع البنك الدولي، سوف تقدم لمصر قرضًا ومساعدات فنية لبناء ما يطلقون عليه اسم السد العالي!!

عندما صعد معهما إلى مسكن الفتى قال إنه لن يمكث إلا لدقائق

لكنه قضى هنالك ساعة وبعضًا من ساعة تالية، واحتسى عددًا لا بأس به من الكئوس، وتجنبه الفتى وتجنب توجيه أي أسئلة إليه في البداية، تركه «يفضفض» بما في قلبه... كان جادوسكي متحفزًا لسبب مجهول للفتى، راح الضابط يدمدم بأن إسرائيل يجب أن تتسلح حتى الأذقان، ووصل الميجور جادوسكي إلى ذروة انفعاله هاتفًا:

«إن هذا لم يكن في الحسبان... إن العرب يستيقظون، والذي يوقظهم هو هذا الكولونيل العنيد جمال عبد الناصر!».

ابتسم الفتى وهو يقدم إليه رباط عنق باريسيًّا فاخرًا:

«رغم أني أعرف أنك لا تستعمل أربطة العنق، فقد وجدت هذا مناسبًا لك!».

شكره جادوسكي وهو يأخذ رباط العنق في فرحة طفل، لكنه سرعان ما جمد تمامًا كمن انتبه إلى شيء، فرفع رأسه نحو الفتى قائلًا:

«يبدو أنك لم تكن تستمع إليَّ يا عزيزي ديڤيد!».

ضحك الفتى هاتفًا:

«إلياهو جادوسكي... ليس فيما قلته الآن شيء جديد!».

«هذا حقيقي، ولكن علينا ألا ننساه!».

أمده الفتى بكأس جديدة قائلًا:

«ثم إني لا أرى علاقة بين سفرك وكل هذا الذي قلت!».

«هل نسيت أني ملحق برئاسة الأركان؟».

«كيف أنسى؟».

تقدم جادوسكي من الفتى هاتفًا:

«ديڤيد... لست أعتقد أنك بمثل هذا الغباء!».

نهرته إستر مغاضبة:

«إلياهو!».

وضحك الفتى في براءة قائلًا:

«جميل أن يكتشف الإنسان حقيقته بعد عمر مثل عمري!».

«هل تظن أني ذاهب إلى نزهة؟!».

«أنا لم أظن شيئًا!».

عادت إستر إلى التدخل:

«إلياهو جادوسكي... إذا كنت تريد الإفصاح عن شيء فأفصح عنه وأرح نفسك!».

هتف جادوسكي في غضب:

«حتى أنت؟!».

بدأت العراك:

«إنك تبدو وكأنك تهذي!».

«ولكني لا أهذي!».

«كف عن الشراب!».

بدا الأمر وكأنه صراع خفي بين الفتى الصامت والميجور الغاضب، فض الفتى الاشتباك بين الميجور وخطيبته قائلًا:

«لا بد أن لديك معلومات من الصعب أن تتوافر لمن كان مثلي يا عزيزي إلياهو... فلا تلمني!».

«هذا حقيقي!».

صاحت إستر:

«ألا تستطيع أن تكف عن المباهاة أيها الرجل!».

قال جادوسكي وقد أرضاه اعتراف الفتى بجهله:

«ليس في الأمر تباه، ولكننا في سبيلنا لعقد صفقة هامة!».

تشاغل الفتى عنه، وأشاحت إستر دون رد فاستطرد:

«سنطير في الصباح إلى باريس، هناك مفاوضات لشراء طائرات فرنسية!».

عاد الصمت يلف المكان فقال:

«ولكن الأمر في غاية السرية... إنه في غاية السرية!».

* * *

قال الفتى فيما بعد إنه حاول أن ينام في تلك الليلة دون جدوى، انصرفت إستر مع خطيبها وتركاه نهبًا لصراع عنيف، قال إنه ظل يذرع البيت جيئة وذهابًا وقد أطفأ الأنوار وراح يقلب الأمر على وجوهه... استعاد كلمات محسن وهو يحذره من إرسال أية معلومات مهما كانت قيمتها في الوقت الحاضر... اعترف بأنه لم يكن يعرف بالدقة قيمة المعلومات التي أتيحت له في تلك الليلة فلقد كان يرى أن الأمر الطبيعي أن تتسلح إسرائيل، فكر في إرسال برقية إلى مصطفى عبد العظيم يطلب موعدًا لكنه تراجع فما هو المنطق الذي يدفعه إلى السفر بعد وصوله بساعات من رحلة إلى الخارج استغرقت ما يزيد على السبعة الأيام... فكر في كتابة خطاب سري فخشي من تأنيب محسن أو مصطفى... ظل نهبًا للأفكار طيلة أيام وحاول أن ينسى الأمر لكنه لم يستطع، فلقد كان كل ما حوله يوحي بشيء غريب وخطير... كانت هناك محاولات لجذبه إلى الهستدروت ـ اتحاد النقابات الإسرائيلي ـ فذهب مرة ومرتين ووجد للأحاديث في غرف هذا المبنى وردهاته طعمًا يختلف، كانت الأحاديث عن مصر وعبد الناصر والخطر الذي يتهددهم يتزايد يومًا بعد يوم، راحت مقاومته تنهار تدريجيًّا حتى وجد نفسه ذات مرة

يشتري «ورق زبدة» ويعود إلى البيت، يغلق النوافذ والأبواب والأنوار ويبدأ في كتابة خطابه هذا الذي ختمه بقوله....

«...... الشائعات تملأ البلد عن أشياء غامضة وغير محددة، والحديث في كل مكان عما يجب أن تفعله أمريكا والبنك الدولي تجاه تمويل السد العالي الذي يعلنون أن بناءه يشكل خطرًا حقيقيًا على إسرائيل، ولكني لا أرى شيئًا محددًا ولا أستطيع أن أقول بشيء محدد!».

❁ ❁ ❁

من الصعب التكهن برد فعل هذا الخطاب في القاهرة وكيف نوقش الأمر، أو قيّمت المعلومات التي حواها، لكن المؤكد أن هذه المعلومات وجدت طريقها إلى القيادة السياسية مشفوعة بتقييم كامل لمصدرها!

ولقد كان الرد على الفتى أمرًا مستحيلًا ومرفوضًا، فكتابة خطاب سري له محفوفة بمخاطر بلا حدود، كان معروفًا الآن ـ ومنذ واقعة الصابحة في ٢ نوفمبر عام ١٩٥٥ ـ أن ثمة توترًا في إسرائيل، وكان معنى انكشاف الخطاب المرسل إلى الفتى بتلك الوسيلة البدائية هو نهاية الفتى تمامًا... كما كان من الصعب الرد عليه ببرقية، وكان استدعاؤه إلى الخارج كفيلًا بإثارة الشكوك خاصة أنه عائد لتوه من رحلة استغرقت نحو أسبوع كامل... وهكذا ـ لا بد أن الأمر كان كذلك ـ رئي أن أسلم الردود على الفتى هو الصمت والانتظار.

كان جهاز المخابرات العامة المصرية في تلك الأيام يمر بمرحلة حاول الرجال فيها إيجاد تنظيم دقيق وعلمي للبناء الذي كان يوشك أن يوضع أساسه... وعلى كل، فلقد كانت الشهور تمضي بسرعة، والأحداث تتلاحق لاهثة، خاصة بعد إعلان «جون فوستر دالاس» وزير الخارجية الأمريكي، والبنك الدولي، سحب مشروع تمويل السد العالي بحجة أن الاقتصاد المصري لا يستطيع احتمال مثل هذا المشروع العظيم...

كانت المحاولات والضغوط تتزايد على مصر كي تنضم إلى حلف بغداد، ومع إصرار مصر على رفض الانضمام إلى هذا الحلف أو غيره، بدا الأمر وكأنه يخرج من أيدي القوى العظمى في الغرب، والتي تعودت أن تأمر فتطاع... وهكذا جاء سحب تمويل بناء السد العالي مثل لطمة وجهت إلى النظام الذي كان يحاول تثبيت أقدامه، لا في مصر وحدها، ولكن على خريطة العالم كدولة مستقلة ذات إرادة تنبع من مصالحها الخاصة وليس لأي اعتبار آخر!

أحدث سحب تمويل مشروع السد العالي دويًّا في العالم كله، وهللت الصحف الإسرائيلية للقرار، وبدت لعيني الفتى ـ وهو يعيش في تل أبيب ـ تلك الفرحة التي اجتاحت، لا أجهزة الإعلام الإسرائيلية فقط، ولكن المواطن الإسرائيلي العادي... أحس الفتى أنه يعيش في محيط من العداوة المحمومة!

قال الفتى فيما بعد إنه عاش أيامًا عصيبة مع تزايد الحملات ضد مصر والشماتة فيها، وإذا ما كان خطابه السري الأول قد قوبل من هناك بالصمت التام، فإنه كان يشعر يقينًا بأنه قام بواجبه الذي من أجله أرسل إلى هذه البلاد... ولذا، فلقد تفرغ، بل انهمك، في بناء سواتره، وانغمس في حياته الجديدة التي كانت دائرتها تتسع يومًا بعد يوم... وإذا كانت إستر بلينسكي الآن قد أصبحت خالصة له بعد سفر خطيبها الميجور، فلقد حاول ـ بإخلاص ـ أن يهدئ من حدة اشتعال عواطفها... قالت له ذات مساء وهما يتناولان العشاء في مطعم على الشاطئ إن خطبتها لإلياهو جادوسكي تمت تحت ضغوط عنيفة:

«ففي مثل هذا المجتمع المتنافر الذي نعيش فيه يصبح على المرء أن يقترب بقدر ما يستطيع من بني وطنه!».

هي بولندية كما أن جادوسكي بولندي، وليس في المسألة عصبية أو قبلية، ولكن لا بد للإنسان من الإحساس بالأمان مع أقرب الناس إليه...

ليس ما بينهما حبًا وجادوسكي يعلم هذا كما تعلمه هي... الحب شيء آخر على الإنسان أن ينعم به رغم كل المعوقات والعقبات... استمع الفتى إلى شكواها بقلب مفتوح، حاول أن يقاوم، بذل جهدًا حقيقيًا وصادقًا ومضنيًا، لكنه اعترف ذات يوم أن مقاومته انهارت... كانت إستر مرشدته إلى المجتمع الإسرائيلي، كان تخليه عنها معناه أن يتخبط في مجتمع أصبحت هذه الفتاة دليله إليه... عرف كل شيء عن «الاشكيناز» (يهود الغرب) و«السفارديم» (يهود الشرق) وأدهشه ـ وربما أسعده ـ أن اليهود المصريين الذين تجمعوا في حي «حولون» بتل أبيب، كانوا يعاملون باحترام بالغ... كما أدهشه أن أغنى اليهود في إسرائيل هم يهود العراق!!

عن طريق إستر دخل بيوتًا عديدة، وأقام صداقات مع قوم يشغلون وظائف هامة ومتنوعة، ارتاد محلات الميسر فتعرف هناك على عدد لا بأس به من المقامرين، وارتاد البارات فتعرف على عدد آخر من مدمني الخمر... في حذر شديد أخذ ينمي علاقاته حتى تحين الفرصة فيلتقي بمصطفى وربما بمحسن ويطرح على أي منهما كل ما يحيط به.

عاد إلياهو جادوسكي من فرنسا وكان يبدو مثل الديك الرومي منفوش الريش واثق الخطى، توطدت العلاقة بينهما فهدأت أعصاب إستر بلينسكي... حتى جاء يوم السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦، وأعلن جمال عبد الناصر قراره بتأميم قناة السويس، فاشتعلت النيران في إسرائيل!

* * *

قال الفتى فيما قال بعد ذلك: إنه في تلك الليلة لم يعرف للنوم طعمًا، قال إنه كان يشعر ـ بمتابعته للصحف الإسرائيلية والغربية ـ أن ثمة أشياء تزخم الجو من حوله، تعوّد في المساء ـ إذا ما عاد إلى البيت

وحده ـ أن يحرك مؤشر الراديو إلى القاهرة ويخفض الصوت ويعيش في وطنه للحظات ولو بالخيال... عندما انفجر خبر تأميم قناة السويس كان يجلس في إحدى غرف الهستدروت، أقسم أنه كاد يقفز من الفرحة ضاربًا عرض الحائط حتى بحياته... كان ما أمامه يدعو إلى الجنون لا الغيظ فقط، كانت هناك حمى اجتاحت كل شيء في إسرائيل، وجد أن الطريق الوحيد لسلامته أن يلتزم الصمت والتجهم، ولا شيء آخر... في صدره فرحة تزغرد بالفخر والسعادة، وأمام عينيه وجوه متقلصة بغضب جامح، وأفواه تطلق الكلمات كالقنابل والرصاص والبغض والرعب معًا... غادر الهستدروت واتجه إلى شارع «ديزنجوف» وكان كل شيء فيه يبدو وكأنه أعلن الحداد، وجوه الناس مكفهرة وخطواتهم دبيب محموم نحو هدف غامض... أقسم الفتى أن إحساسًا طاغيًا استولى عليه في تلك الليلة بأن إسرائيل لا بد أن تصنع شيئًا مجنونًا، السؤال الذي حيّره أكثر من غيره هو أن إسرائيل ليس لها في القناة ناقة ولا جمل، فلم كل هذه الهستيريا؟!... سابق الدقائق إلى بيته، كان يريد أن يختلي بمصر، يريد أن يسمع صوتها في الراديو، يريد أن يطير إلى وطنه بأجنحة خيال اشتعل بالخبر الهائل، ما إن دلف إلى البيت وأغلق الباب واطمأن إلى أنه وحده حتى انفجرت الدموع من عينيه شلالًا لا يتوقف، يا لهذا الإحساس الرهيب بأنك تنتمي إلى وطن عظيم! أدار مؤشر الراديو وكانت القاهرة تعيد إذاعة خطاب الرئيس، كان أول ما وصل إلى أذنيه هو صوت عبد الناصر يهدر كأحلى ما تكون الموسيقى:

«....... رئيس الجمهورية....».

«تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية!».

مع هدير الملايين في جميع أنحاء العالم العربي، هتف الفتى بصوت مختنق: «تحيا مصر»... كان صوته محمومًا، ودمعه غزيرًا، وقلبه يرقص

طربًا وفخرًا، ولم يعد يسمع بعد ذلك شيئًا، استلقى على ظهره، وترك صوت الزعيم يسري إلى دمائه... فإذا هو إنسان آخر!

* * *

كان العشاء خفيفًا... أعده الفتى على عجل بعد أن فاجأته إستر بلينسكي وخطيبها الميجور إلياهو جادوسكي ذات مساء... كانت أسابيع طويلة قد انقضت منذ تلك الليلة المشهودة... ذات مرة قال الفتى ضاحكًا إنه كان العربي الوحيد الذي احتفل بتأميم قناة السويس في غرفة مظلمة!... وطوال الأسابيع التي انقضت منذ ليلة السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٦، حتى تلك الليلة التي جاءته فيها إستر بصحبة خطيبها في زيارة غير منتظرة ـ كان يتابع الصحف والإذاعة بشغف وقلق مشوبين بخوف غامض، كان قليل الخبرة بالمجتمع الذي يعيش فيه محدود العلاقات والصداقات، يخطو في حذر بالغ ويدير شئون شركته بأقصى ما يستطيع من جهد حتى يؤجل ـ بقدر الإمكان ـ طلبه للمال... لكن شيئًا غامضًا كان يملأ الجو من حوله برائحة البارود ـ كان هذا تعبير الفتي بالنص ـ ورغم هذا فهو لم يحاول أن يعرف شيئًا، لم يكن ليوجه سؤالًا واحدًا لأحد... فعندما جاءه الصمت ردًّا على رسالته الأولى، أدرك أن خير السبل هو اتباع نصائح محسن!

في تلك الليلة من ليالي أكتوبر عام ١٩٥٦، كانت رياح الخريف قد بدأت رحلة عودتها محملة هذه المرة بالأخطار، وكان إلياهو جادوسكي يبدو مثل وحش حبيس... أدرك الفتى منذ فترة أنه كلما ناء بما يحمل من أخبار أو أسرار، أصبح في حاجة لمن «يفضفض» أمامه بما في صدره، ساعدته إستر في تجهيز العشاء وكانت ضحكاتها تملأ المكان بالسعادة، أترع الفتى لإلياهو جادوسكي كأسه مرة ومرتين وثلاثًا ثم وضع الزجاجة إلى جواره طالبًا إليه أن يتولى أمر نفسه... وضعت إستر في «البيك آب» أسطوانة للموسيقى الخفيفة، دارت الأحاديث حول ما كان دائرًا الآن

في العالم كله، دارت الأحاديث حول جمال عبد الناصر الذي تحطمت عند قدميه كل جهود الغرب في العودة إلى الاستيلاء على القناة، هتف جادوسكي في لحظة وقد احتقن وجهه:

«لست أدري ما الذي يريده هذا الكولونيل!».

قال الفتى في لا مبالاة اليائس:

«ليس المهم ما يريده الآن، ولكن المهم أنه ما زال صامدًا أمام كل تلك الضغوط من حوله».

زايد عليه جادوسكي متحديًا:

«ولكنه لن يصمد طويلًا على كل الأحوال!».

دق ناقوس الخطر في رأس الفتى وهتفت إستر مستنكرة:

«هل تظن أننا نستطيع شيئًا حيال هذا الرجل العنيد؟!».

هم بالحديث فلاحقه الفتى منبهًا:

«لا تنس أنه استطاع الحصول على سلاح لجيشه!».

«لكننا لن نواجهه وحدنا!».

كاد الفتى يصرخ دهشة لكنه تملك نفسه مستطردًا:

«ولا تنس أيضًا أن الإنجليز انسحبوا من مصر منذ يونيو الماضي!».

«لكنهم سوف يعودون!».

دق قلب الفتى بعنف... ألم يكن هذا هو الخبر؟!

«إنك تحلم!».

هكذا قال، فزايد الميجور:

«ومعهم الفرنسيون!».

هتفت إستر:

«هكذا أنت كلما أفرطت في الشراب!».

«لست سكران... إن هذا ما سوف يحدث قبل مرور أسبوعين!!».

قال جادوسكي هذا فهبط الصمت على الجميع، رشف من كأسه رشفة، وراح يتحدث!

❊ ❊ ❊

في اليوم الثاني والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦، وصل ضابط المخابرات المصري المقيم في إحدى العواصم الأوربية إلى مطار القاهرة الدولي، وكانت الأحداث السياسية في المنطقة وتطوراتها ساعة بعد ساعة تملأ أسماع الدنيا، وبالرغم من وصول الطائرة بعد منتصف الليل بقليل، فلقد وجد في المطار سيارة في انتظاره، حملته فورًا إلى ذلك المبنى القائم وسط الحقول في أطراف القاهرة... كانت برقية شفرية عاجلة قد وصلت منه قبل ساعات فقط ولذلك... فلقد كان هناك من هو في انتظاره.

سلم الرسالة التي وصلته في صباح ذلك اليوم من تل أبيب... التي، ما إن أظهر ما فيها من كتابة سرية عند الظهر، حتى هاله الأمر... فلقد كانت الرسالة تحوي معلومات غريبة غرابة تفوق الخيال، وكانت المعلومات مشفوعة بمصدرها الذي كان هو نفسه الرائد إلياهو جادوسكي، الملحق برئاسة الأركان الإسرائيلية، والذي حكى عن خطة محكمة لعدوان ثلاثي تقوم به كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في الأيام القليلة القادمة!

كان الخطاب خطيرًا!!

والمعلومات التي يحويها بالغة الأهمية!

لكن الغريب في الأمر أن هذه المعلومات التي وضعت تحت يد القيادة السياسية بعد ساعة واحدة من وصول مصطفى عبد العظيم، والتي

أرسلها المواطن المصري «رأفت علي سليمان الهجان» الذي يعيش في إسرائيل تحت اسم «ديفيد شارل سمحون»؛ كانت تلقي الضوء وتكشف الجوانب الخفية في معلومات أخرى وصلت إلى مصر قبل يوم واحد، من مصدرين على وجه التحديد، وكان أحد هذين المصدرين في باريس نفسها!

❊ ❊ ❊

كانت آخر الكلمات في رسالة الفتى تقول:

«.... لست أدري ماذا أفعل إذا استدعيت للخدمة العسكرية!! هل أحمل السلاح ضد وطني؟!! فليرحمني الله!!».

الفصل الرابع
العُثور على كنز مُهْمل!

عندما توقف عزيز الجبالي عن الحديث في ذلك المساء الثالث لوصول السيدة هيلين سمحون إلى القاهرة، نظر في ساعة يده ـ كما هي عادته كلما جاء إلى نهاية يوم معها ـ موحيًا بأن حديث اليوم قد انتهى... ولكن السيدة سمحون كانت تبدو وكأنها وصلت إلى ذروة التوتر، فلقد هتفت:

«وهل حمل رأفت السلاح ضد وطنه؟!».

زفر عزيز قائلًا:

«لا يا سيدتي، لحسن الحظ أنه لم يفعل، ولكن... ...».

قال هذا ثم صمت، وأخذت السيدة سمحون تحملق فيه وكانت عيناها الزرقاوان تشعان بريقًا غريبًا، أخذت ترقبه بإمعان فأحست ـ كما قالت فيما بعد ـ وكأن الكلمات كانت معلقة على طرف لسانه تمنعها شفتاه المزمومتان في عناء... ولقد مضت لحظات بدا الرجل بعدها وكأنه اتخذ قرارًا هامًّا، فلقد قال:

«لكنه عانى أشد ما تكون المعاناة من جراء هذا العدوان... وظلم

ظلمًا فادحًا، واتهم بالتقصير والإهمال، وحامت حوله الشكوك بأنه ليس سوى نصاب ومحتال ولا يسعى لغير المال!!».

صاحت هيلين مستنكرة:

«رغم كل ما فعله؟!».

قال عزيز موضحًا:

«لم يكن الخطأ خطأ الذين ظلموه... كما لم يكن خطأه أيضًا!».

بدا الأمر محيرا للسيدة سمحون، وعاد عزيز ينظر في ساعته وكان يتعجل الانصراف، ففاجأته هيلين وكأن الفكرة خطرت ببالها توًّا قالت:

«هر جبالي... هل تقبل دعوتي على العشاء الليلة؟!».

اعترف عزيز الجبالي فيما بعد أن الأمر كان مفاجأة لم يتوقعها... وأنه راح يحملق فيها بدهشة... أحس وكأن هناك تقصيرًا قد حدث في ضيافة هذه السيدة، خاصة أن «معلوماته» كانت تقول إنها كانت تغادره إلى الڤيلا التي تقيم فيها لا تبرحها حتى صباح اليوم التالي... رغم العروض الكثيرة والمغرية التي عرضت عليها للعشاء في أرقى محلات القاهرة... أراد أن يذكرها بذلك فقال:

«فراو سمحون... لعلك تعلمين أن هناك دعوة مفتوحة لك لتناول العشاء، بل والإقامة في أي مكان، لا في القاهرة وحدها، بل في مصر كلها!».

أدركت هيلين أنها أوقعت الرجل ـ الذي يتجشم كل هذا العناء من أجلها ـ في حرج غير مقصود، أرادت أن توضح له ما قصدت إليه فهتفت ضاحكة:

«ليس هذا ما قصدت إليه يا سيدي!».

بدت علامات الاستفهام على ملامحه فاستطردت:

«ألـم تلاحظ أن موعِدي مع دكتور كـارل جـاروسـلاف في تشيكوسلوفاكيا أصبح وشيكًا!».

«سوف ننتهي من كل شيء قبل الموعد!».

«هل تظن أن هذا ممكن؟».

«مع بعض التركيز!».

هتفت:

«ولكني لا أريد تركيزًا، أنا أريد التفاصيل مهما صغر شأنها!».

قالت هذا ثم صمتت صمت من يستعد للإدلاء بخبر هام، وظل عزيز صامتًا منتظرًا حتى استطردت:

«بعد كل هذا الذي سمعته، لم يعد الأمر خاصًا بولديّ فقط هر جبالي... لكنه أصبح يخصني شخصيًّا!».

أطلت من عيني عزيز نظرة استفسار فقالت موضحة أكثر:

«إني أفكر في أن أكتب كتابًا عن حياة زوجي!».

كانت وكأنها تدق ناقوس خطر، فلقد هتف عزيز:

«حقًّا؟!».

«لاحظ أن هناك جوانب في القصة لم تعشها أنت!».

ابتسم وهو يعيد إليها الكرة بسرعة:

«ربما... ولكن ألا تصبرين حتى تعرفي ما لم تعرفيه؟!».

«ولهذا دعوتك إلى العشاء!».

هم عزيز بالحديث لكنها أردفت:

«أعتقد أننا لو تناولنا العشاء في شرفة الفيلا التي أقيم فيها، فلسوف تتاح لنا الفرصة لأن نستكمل الحديث، ونكسب بعض الوقت!».

مرة أخرى حاول الرد فحاصرته في إصرار:

«إن الجو في بلادكم رائع في مثل هذا الوقت من السنة!».

فتح فمه لكنها أسكتته معاتبة:

«لا تنس يا هر جبالي، أني منذ جئت إلى بلادكم وأنا أتناول العشاء ـ كل ليلة ـ وحدي!».

ابتسم عزيز لعتابها الرقيق مستسلمًا:

«لا يسعني أمام إصرارك يا سيدتي إلا قبول الدعوة!».

نهضت مستبشرة:

«إلى اللقاء إذن!».

«سأوافيك بعد ساعتين!».

وكانت هيلين سمحون تفكر وهي في طريق عودتها إلى الڤيلا، وبمزيد من الدهشة، في حمرة الخجل التي صبغت وجه هذا الرجل وهو يقبل الدعوة لكنها لم تلبث أن ابتسمت مغمغمة:

«يا له من داهية!».

* * *

عندما وصل عزيز الجبالي إلى تلك الڤيلا القائمة في أحد أحياء ضاحية مصر الجديدة، وكان يرتدي بذلة ذات لون داكن، وكان رباط عنقه بسيطًا بلا نقوش، لكنه كان يصنع ـ مع لون البذلة والقميص ـ نغمة لونية تنبئ عن ذوق رفيع... ولكن هذا لم يلفت نظر السيدة سمحون، أو حرم المرحوم رأفت الهجان، بقدر ما لفت نظرها أن عزيزًا بدا بوجهه المتورد وبريق عينيه النشط، وكأنه قضى يومه في استجمام على حافة حمام سباحة تحت شمس دافئة... فتعجبت. لكنها لم تعلق!

استقبلته هيلين في رداء هادئ اللون ذي ياقة مرتفعة، وعلى كتفيها

كان ثمة «شال» وردي اللون مصنوع من صوف فاخر، فبدت وكأنها ملكة تجلس على عرش من صنع وجدانها... كانت تبدو وكأنها تشعر بفخر متزايد بما فعله زوجها الراحل!

غير أن الشيء الغريب الذي استوقفها حقًّا، هو أن «عزيزة» ـ تلك الفتاة الخمرية اللون ذات الجمال الدافئ، والتي تلازمها في مقرها السري هذا منذ وصولها إلى القاهرة ـ تعاملت مع عزيز وكأنها تراه لأول مرة، بل الأغرب، أنها عاملته ـ بالفعل ـ كضيف يحل على صاحبة الدار ـ هيلين سمحون ـ التي قادته فورًا إلى ركن دافئ من الشرفة، بعيدًا عن تيارات الهواء البارد التي راحت تهب بعد غروب الشمس على القاهرة... وكانت المائدة المستديرة هناك على استعداد لاستقبالهما... وما أن اقتربا منها حتى أوسع عزيز من خطوته ليسبقها في خطوات إيقاعية، ويقدم لها مقعدها كأي «جنتلمان»... حتى إذا جلست وخطا هو نحو مقعده قال:

«إن تقاليدنا يا سيدتي كانت تحتم عليّ أن ألبي دعوتك بصحبة زوجتي!».

تابعته هيلين هاتفة في لهفة:

«ولمَ لم تأت بها؟!».

«إنها لا تعرف شيئًا عن الأمر!».

همت بالحديث فاستطرد مسددًا نظراته إلى عينيها:

«ويجب ألا تعرف!».

كانت نظراته ثابتة، ورده حاسمًا وحازمًا... فارتبكت هيلين سمحون ولم تجد أمامها ما تفعله سوى الهرب بنظراتها إلى حيث الحديقة الرابضة تحت أقدامها في الظلام، تزين أشجارها بعض اللمبات الكهربائية المتناثرة هنا وهناك.. وما لبثت أن رفعت رأسها نحو السماء التي كانت

صافية فيما عدا نتفًا من سحاب بدت كغلالات ملائكية تحيط وجه البدر المضيء... ثم ما لبثت أن تمتمت في تعجب:

«إن شتاءكم كالأحلام!».

ولم يعلق عزيز... لكنه ـ ومع بداية طقوس العشاء ـ انزلق بها إلى الحديث في رفق!

* * *

قال عزيز الجبالي ـ أول ما قال ـ في تلك الليلة إنه مضطر لأن يتوقف عن الاسترسال في «قصة» الفتى عند هذه النقطة، كي يلقي نظرة ـ يراها ضرورية ولازمة ـ على المحيط الذي كان يتحرك فيه، لا الفتى وحده، بل جهاز المخابرات المصري نفسه... ذلك أننا ـ بالضرورة وبحكم سياق القصة نفسها ـ نجد أنفسنا مضطرين لأن نقفز بالزمن قرابة عامين كاملين... منذ ما قبل العدوان الثلاثي في آخر أكتوبر عام ١٩٥٦ ـ وهو تاريخ إرسال الفتى لرسالته الخطيرة تلك ـ وحتى منتصف شهر يوليو من عام ١٩٥٨.

وبداية... لا بد لنا من الاعتراف بأن العدوان الثلاثي الذي قامت به كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر في عام ١٩٥٦، لم يكن بأي حال من الأحوال عملًا يقدم عليه العقلاء... كان إقدام بريطانيا وفرنسا بالذات على حماقة مثل تلك التي اقترفها كل من «جي موليه» رئيس وزراء فرنسا في ذلك الوقت، وسير «أنتوني إيدن» رئيس الوزراء البريطاني، بمساعدة «ديفيد بن جوريون» الذي قفز إلى الحكم كي يحقق واحدًا من أحلامه الدموية؛ أمرًا من المستحيل توقعه... كما كان صمود مصر أمام ثلاثة جيوش، وعدم استسلامها، أو انهيار نظامها، أو... سقوط جمال عبد الناصر الذي كان الهدف الأساسي لهذا العدوان ـ كما أكد الفتى في رسالته، وكما قال له الرائد إلياهو جادوسكي الملحق برئاسة الأركان الإسرائيلية، ثم وكما عرف وأذيع فيما بعد بوضوح ودون غموض ـ

شيئًا ألهب خيال العالم أجمع... وبصرف النظر عن الإنذار السوفييتي، والموقف الأمريكي للرئيس دوايت أيزنهاور، فلقد كان انسحاب جيوش تلك الدول ـ ومنها إمبراطوريتان ـ نذيرًا ببدء عصر جديد لدول العالم الثالث، خاصة تلك الدول، ومنها دول عربية، التي كانت لا تزال ترزح تحت نير الاستعمار الأوربي!

بعد العدوان الثلاثي ارتفع نجم جمال عبد الناصر إلى ذرا لم تخطر ببال أحد... وعاشت الشعوب المستضعفة أيامًا مجيدة، وبدت الأمة العربية ـ من الخليج إلى المحيط ـ وكأنها تستيقظ من سبات عميق... وبعد الفرحة التي هللت لها إسرائيل، واجتاحتها وسيطرت الأوهام على رءوس قادتها لدرجة أن ديڤيد بن جوريون أعلن في الكنيست الإسرائيلي ضم سيناء رسميًا إلى دولتهم... كان هناك إحباط وحزن وحسرة مزقت الناس هناك بعد الانسحاب، وقد أحسوا أنهم أصبحوا يواجهون خطرًا حقيقيًا لم يكن في حسبانهم، وليس خطرًا وهميًا يصرخون به في آذان شعوب الأرض ـ وهم ينشبون أظافرهم وأسنانهم في لحم العرب ـ طالبين النجدة!!

«كان هذا ملخصًا لتقرير أرسله الفتى فيما بعد يصف فيه، باستفاضة، الحالة النفسية للإسرائيليين بعد انسحابهم من سيناء».

وكان طبيعيًا أن تندفع مصر في حماسة ـ بعد انحسار العدوان ـ ملتفتة إلى الداخل كي تبني بمزيد من الثقة، وتعيد ترتيب البيت من جديد، وعلى أسس جديدة... باحثة عن طريق يقودها للمستقبل المأمول!

في نفس الوقت كانت الأحداث العالمية تتصاعد حدتها من حولها، وكانت الثورة الجزائرية تقدم مئات الألوف من الشهداء، ولكن عودها كان يشتد يومًا بعد يوم... وتحركت شعوب إفريقيا متململة وقد أصبح عبد الناصر رمزًا يقتدون به، وتصاعد المد العربي

بسرعة، تصاعد حتى أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا في اليوم الأول من شهر فبراير عام ١٩٥٨.

* * *

في ذلك اليوم بالذات، كانت هناك مجموعة من الشباب لا يزيد عددهم على الاثني عشر شابًّا، تدور أعمارهم جميعًا حول سن الخامسة والعشرين، يدخلون إلى ڤيلا مهجورة تقع عند حافة صحراء الهرم الذي يطل عليها من فوق هضبته شامخًا... وكانوا ـ في هذا اليوم ـ على موعد مع أول دورة تدريبية، تقام على أسس علمية، في أول معهد أنشأه جهاز المخابرات المصري لهذا الغرض!

كان عام وبعض عام قد مضى منذ انحسار العدوان الثلاثي... وخلال تلك الفترة، شهد الجهاز الوليد تغييرات كثيرة وجوهرية، لا في الأشخاص والمناصب فقط، بل في فلسفة الإدارة نفسها بعد أن اتضحت للقيادة السياسية ـ وقد تحررت مصر نهائيًّا، حتى من المعاهدة التي كانت قد أبرمت بينها وبين بريطانيا في عام ١٩٥٤ ـ أبعاد العلاقات الدولية في صورة أشمل وأوضح، وأهمية الحصول على المعلومات التي أصبحت واحدة من أمضى الأسلحة في معترك هذه الكرة الأرضية!

وكان اليوم الأول من شهر يناير عام ١٩٥٧ إيذانًا ببدء حركة نشطة ـ بل ومحمومة إن صح التعبير ـ لوضع نظام متكامل لكل نشاطات الجهاز، وإداراته، وعلاقة كل منها بالأخرى، وحدوده، واحتياجاته... كانت السنوات القليلة التي مرت قد أكسبت الرجال الكثير مما كانوا يجهلونه، كما كان استجلاب خبرات الآخرين قد أصبح أكثر سهولة عن ذي قبل، بعد أن تعاطفت معنا دول عديدة من الشرق والغرب على السواء... بل إن بعض هذه الدول راحت تخطب ود مصر التي أصبحت ـ بعد اتحادها مع سوريا ـ «الجمهورية العربية المتحدة»، وبعد أن أصبحت هذه الجمهورية الوليدة قوة سياسية لا يستهان بها، لا في منطقة الشرق الأوسط فقط، بل

في العالم كله، حيث امتد تأثيرها إلى دول العالم الثالث في إفريقيا وآسيا وبعض دول أمريكا اللاتينية!

كان جهاز المخابرات المصري في دور البناء حقًّا، لكن هذا لم يمنع أولئك الرواد الأول من الاندفاع ـ في محاولة مستميتة لحماية الجمهورية الوليدة من عشرات المؤامرات التي راحت تحاك من حولها ـ نحو العمل بكل الطرق والأساليب، مستفيدين من الاحتكاك نفسه، ومن أخطاء كان لا بد ـ بالضرورة مرة أخرى ـ أن يقعوا فيها.

كانت هناك عمليات لا بد أن تتم أثناء احتدام الصراع واحتلال سيناء سواء من ناحية إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، أو من ناحية مصر التي أدركت ـ وهي تواجه العداء في أبشع وأخس صوره ـ أن حاجتها إلى المعلومات لا تقل أهمية عن حاجتها إلى السلاح، بل ربما إلى رغيف العيش!!

واستطاع الرجال ـ في خطواتهم الأولى نحو التنظيم ـ بما لهم من صداقات وعلاقات مع مجموعة كبيرة من الضباط الأحرار، أن يضموا إلى الجهاز تلك العناصر التي عرفت بالصرامة والاستقامة والكفاءة في نفس الوقت... ولقد استجاب لهم الكثيرون، وتخصص كل منهم في فرع من فروع هذا العلم... واستطاعت مصر ـ وقد أصبحت مطمحًا لصداقات العديد من الدول ـ أن تحصل لهؤلاء الضباط على دورات تدريبية مكثفة ومنهكة ومتعبة، في عدد لا بأس به من الدول التي تملك الخبرة في هذا المجال، سواء في الشرق أو في الغرب!

وكان طبيعيًّا أن تجري حركة تنقلات بين الرجال مع إعادة التنظيم، وكان بدء الدراسة في تلك الدورة التدريبية التي وقع الاختيار على أفرادها من جميع أفرع القوات المسلحة، ومن الشرطة، ومن المدنيين أيضًا، وانتقوا من بين عشرات غيرهم بعد اختبارات سرية صارمة ودقيقة وعديدة، وكان بدء هذه الدورة هو الخطوة الأولى نحو تنظيم علمي ودقيق لهذا الجهاز الوليد.

تخرجت تلك الدفعة بعد ستة أشهر وقد تلقت دراسة مكثفة كانت تستمر يوميًا من الصباح المبكر وحتى ما بعد غروب الشمس، وتولى التدريس فيها أساتذة في كل فروع هذا العلم المركب... كان منهم من أمدته خبرته بالكثير مما أخذ ينقله إلى هذا الجيل الجديد، ومنهم من كان قد التهم عشرات الكتب والمذكرات التي استجلبت من الخارج بشتى الطرق وبكل الوسائل، فتشرب العلم وقوانينه، وطور بعضها واحتفظ بالبعض الآخر ثوابت أساسية لا تتغير!

حتى إذا جاء منتصف شهر يوليو عام ١٩٥٨ تخرجت تلك الدفعة الأولى ووزع أفرادها على إدارات الجهاز المختلفة، والتي كانت الآن موزعة على عدد لا بأس به من المباني المتناثرة في قلب القاهرة وضواحيها ومن حولها تحت أسماء وهمية لإدارات حكومية أو شركات لا وجود لها.

وكان ذلك المبنى القائم وسط الحقول عند أطراف إحدى ضواحي القاهرة، والذي كان في الأصل مستشفى للأمراض العصبية والنفسية، قد أصبح واحدًا من تلك الإدارات المتعددة، وكان نصيبه من شباب تلك الدفعة الأولى من ضباط المخابرات... ثلاثة، تخصصوا جميعًا في التعامل مع إسرائيل.

من هؤلاء الشبان الثلاثة كان عزيز الجبالي!

* * *

في إحدى ليالي النصف الثاني من شهر يوليو عام ١٩٥٨ ورغم انتصاف الليل منذ ساعة وبعض الساعة... كان الجو شديد الحرارة راكدًا، كما كان القمر محاقًا والظلام دامسًا فيما يحيط بهذا المبنى الذي وضعت عليه منذ ما يقرب من عامين، لافتة كتب عليها «إدارة البحوث والإنشاء» دون أن يعرف أحد أي بحوث تلك وأي إنشاء هذا الذي يتم بين جدرانه... كان الظلام جاثمًا على المبنى فيما عدا ضوءًا هنا

وضوءًا هناك فوق السور المحيط به... وكانت نوافذه كلها مظلمة فيما عدا نافذة واحدة كانت الإضاءة تبدو فيها مختنقة بحرارة الجو... بدت الغرفة بسيطة الأثاث، ثمة مكتب خشبي متوسط، خلفه مقعد وأمامه مقعدان من هذا النوع من المقاعد الخشبية التي كانت منتشرة في مصر في تلك الأيام تحت اسم «مقاعد الظايط»، وفيما عدا المكتب والمقاعد الثلاثة لم يكن هناك شيء على الإطلاق سوى خزانة، بدت بحجمها الكبير ومنظرها المتقدم، متنافرة تنافرًا زاعقًا مع الأثاث البسيط... كانت الخزانة من ذلك النوع الذي يفتح ويغلق بأرقام سرية لا يعرفها إلا صاحب الغرفة فقط، وكان الرقم فيما عدا هذا يحفظ في خزانة أخرى... في وسط الغرفة وقف شاب في السادسة والعشرين من عمره وقد خلع قميصه وأصبح عاري الصدر وكان بادي التعب والغيظ معًا... أتم «عزيز الجبالي» دورته التدريبية منذ أيام تعد على أصابع اليدين... وكانت الدورة التدريبية قد فتحت له آفاقًا من المعرفة لم تخطر له على بال، لكنها كانت آفاقًا حولته من إنسان إلى إنسان آخر، بعد أن أضاف التعامل مع الحقائق المجردة إليه الكثير من الدهشة، وربما الفزع، والعلم أيضًا!

راح عزيز الجبالي في وقفته تلك يحك جلده المبتل بقطرات عرق كانت تتساقط من جسده ووجهه كشلال لا ينقطع، وقد تناثرت فوق لحم الذراعين والكتفين والظهر بقع حمراء صنعتها لدغات الناموس الذي كان يهاجم الغرفة من الحقول المجاورة في أسراب وراء أسراب.

في ذلك اليوم بدأ عزيز الجبالي عمله ـ كالعادة ـ في الثامنة صباحًا... منذ يومين قدموا له مجموعة لا بأس بها من الملفات كان عليه أن يدرسها ويتفحصها ويقرأ كل حرف فيها، ثم ينظمها ويرتبها ويبوبها ويستكمل ما فيها من نقص كي يضع في النهاية رأيه، ثم يتولى بعد ذلك أمرها إلى عدد قادم من السنين كان لا يزال في علم الغيب!

كان كل ملف يعني إنسانًا ما في مكان ما من الكرة الأرضية.

كان من أصحاب هذه الملفات أوربيون وأمريكيون وإفريقيون وآسيويون... وكان منهم يهود يتعاملون مع مصر ويكونون شبكة متماسكة الأطراف تغذي الدولة الفتية بمعلومات عن هذا العدو الذي أثبت، بما لا يقبل الشك، أنه متربص ومستعد دائمًا للانقضاض!

استغرق عزيز في عمله حتى دهمه الليل، لكنه ما يكاد يتعامل مع شخصية من تلك الشخصيات حتى توقظه لدغة ناموسة ثقيلة الوطء، لم يكن هناك جهاز تكييف ولا حتى مروحة ترطب قليلًا من الجو الخانق وتحرك هواء الغرفة، فقرر ذات لحظة أن ينصب للناموس مصيدة... فجاء بطبق عميق ملأه بالمياه وزرع في وسطه شمعة أضاءها، ثم أطفأ النور... واندفعت جيوش الناموس الهائمة في الغرفة نحو ضوء الشمعة تحوم حولها، حتى إذا مستها النار اندفعت إلى انعكاس الضوء في المياه... وما تلبث أن تغرق!

كانت عشر دقائق تكفي للقضاء على الناموس في الغرفة، لكنها كانت كافية أيضًا لاستجلاب الذكريات من الماضي القريب... ذلك أن علاقة عزيز الجبالي بإسرائيل لم تكن جديدة عليه، كانت علاقة ذات طابع خاص، وإن شئنا الدقة فلقد كانت علاقة ذات طابع شخصي، علاقة صنعها الاحتكاك المباشر في الحرب الخفية والمعلنة، وكان آخر حلقاتها هو أسر دام لأربعة أشهر مع عدوان عام ١٩٥٦.

«تخرج عزيز الجبالي في الكلية الحربية في عام ١٩٥٣، حضر فيها عهدين: الحكم الملكي، وقيام الثورة... في نوفمبر عام ١٩٥٥ وقعت حادثة الصابحة وكان هو ضابطًا صغيرًا برتبة ملازم أول، وكانت الخدمة في الجبهة شرفًا يتيه به الضابط فخرًا... لكنه كان يعمل في إحدى وحدات التدريب في القاهرة، وكان من ضمن خسائرنا في واقعة الصابحة وحدة مدفعية هاون صغيرة استشهد معظم أفرادها وأسر الباقون... وكان مطلوبًا

وحدة أخرى لسد الخسائر، فتطوع الملازم أول عزيز الجبالي لسد هذه الخسائر، وسافر إلى الميدان ورأسه مليء بتلك القصص التي تتحدث عن مهارة اليهود في القتال وقسوتهم ودقة تصويبهم وقدراتهم... ولأنه كان في عنفوان شبابه فلقد قرر أن يواجه تلك المهارة والدقة والقدرات وأن يرد الصاع صاعين وأن ينتقم لزملائه الذين استشهدوا... اكتشف ـ منذ اللقاء الأول ـ أن كل ما سمعه لم يكن سوى تهويل لا ظل له من الحقيقة، وكانت الشهور التي قضاها هناك منذ ذلك الوقت وحتى وقوع العدوان الثلاثي، شهورًا ملتهبة بنيران المدفعية، واستطاع مع جنوده أن يحققا انتصارات شهد له بها حتى اليهود أنفسهم... غير أنه عندما عاد إلى القاهرة في إجازة قبل العدوان، سمع من الضباط ـ الذين لم يكونوا يعرفون شخصيته ـ عن «ولد زي الوحش» اسمه عزيز الجبالي يدوخ اليهود في الجبهة، وكانوا ينسبون إليه من الأفعال والبطولات ما لم يقم به!!».

أحس عزيز أن وقفته أمام النافذة قد طالت فاستدار نحو زر النور يبغي العودة إلى العمل، لكنه في منتصف الطريق توقف ألحت عليه الذكريات، انقلبت حياته رأسًا على عقب يوم سأله ذلك الضابط الكبير الذي كان قائدًا له ذات يوم إن كان قد سمع شيئًا عن خبر نقله من وحدته، وكان قد عاد من الأسر منذ ما يقرب من عام، علمته تجربة الحرب والأسر أن خلاص مصر في جيش قوى، احتك بالإسرائيليين سلاحًا بسلاح، ووجهًا لوجه، واحتك بهم أسيرًا، وقال ذات مرة يصف تجربته معهم:

«أنا قاتلت الإسرائيليين في قتال دواير وكماين وقتال مكشوف وبالسلاح الأبيض وأسروني واستجوبوني وعرفتهم كويس... كويس قوي!!»... ثم عاد من الأسر كي يستعد ـ رغم صغر سنه ـ لدخول كلية «أركان حرب»... الجيش القوي هو الخلاص وهو الملاذ، العلوم

العسكرية تتقدم والأسلحة تتطور والحرب تتغير ولسوف تتغير، وعلى هذا الجيل الذي ينتمي إليه أن يضطلع بمسئولياته!

عندما عرف من الضابط الكبير أنه نقل إلى المخابرات العامة، ثار وهاج وماج واحتج ورفض أن يكون جاسوسًا على مواطنيه، وأن يتحول من ضابط إلى واش وكاتب للتقارير... استمع إليه الضابط الكبير في صبر، وقد أدرك أنه لا يعرف شيئًا عن عمل المخابرات، ابتسم في مواجهة ثورته ثم سأله إن كان يعرف النقيب «ماجد عثمان»... قال له إن ماجدًا صديقه وزميله بل ودفعته، فأعطاه الرجل رقم تليفون طالبًا إليه أن يطلب ماجدًا في هذا الرقم ولسوف يعرف منه كل شيء!

في اليوم التالي طلب ماجدًا وكان يغلي بالدهشة والغضب وحب الاستطلاع معًا... تمالك نفسه في البداية فدار بينهما الحوار ـ كما كان دائمًا ـ مرحًا فكهًا، تبادلا التحية والسؤال عن الحال والأحوال، فجأة قطع ماجد الحديث هاتفًا:

«ما تيجي يا عزيز!».

استُفز عزيز الجبالي فقال بصوت صارم:

«آجي فين؟!».

أعطاه ماجد عنوانًا، وطلب إليه إذا ما وصل إليه أن يسأل عن السيد مصطفى!

«مين مصطفى ده؟!».

ضحك ماجد على الطرف الآخر قائلًا:

«لما تيجي حاتعرف!».

«وعاوزني آجي إمتى؟!».

«الساعة حداشر ونص بالليل!».

استنكر عزيز في دهشة:

«الساعة حداشر ونص بالليل؟!».

في برود سأله ماجد:

«إنت بتنام الساعة كام؟!».

غمغم منهيًا الحوار وكانت الدهشة تعربد في صدره... في الموعد ارتدى ملابسه الرسمية ـ نمرة واحد ـ وتأنق كمن يريد أن يؤكد للجميع أنه ضابط بالجيش المصري... كان العنوان الذي أعطاه إياه ماجد لڤيلا في حي منشية البكري بدت له من الخارج عادية تمامًا ولا تختلف عما يحيط بها من المساكن... عند باب الحديقة الصغير علقت لافتة كتب عليها «الشركة العامة للبحوث الفنية»... قبل أن يقترب من البواب الذي كان يرتدي جلبابًا ولاسة ويجلس فوق دكة تذكر أنه لم يعرف من ماجد لقب مصطفى هذا... وربما كان هناك مصطفيان أو ثلاثة، فكر في العودة والبحث عن تليفون قريب لعله يجد ماجدًا في ذلك الوقت فيسأله لكنه تراجع عندما تقدم منه البواب:

«أفندم؟».

«السيد مصطفى من فضلك!».

«اتفضل!».

لدهشته البالغة قاده الرجل إلى الباب الداخلي للڤيلا، كان بابًا زجاجيًا محاطًا بحديد مشغول، يجلس بجواره ـ في الداخل ـ وخلف مكتب صغير شاب في مقتبل العمر... سأل مرة عن السيد مصطفى فسأله الشاب عن اسمه، ثم رفع سماعة التليفون وأدار رقمًا وهمس ثم أعادها قائلًا:

«ثانية واحدة!».

مضت بضع ثوان ظهر بعدها شاب آخر قاده إلى الطابق العلوي وسار به في ممر شبه مظلم وفتح له بابًا ما إن عبره حتى وجد نفسه أمام ماجد وجهًا لوجه، صاح على الفور:

«فهمني بقى إيه الحكاية دي؟!».

* * *

وها هو قد فهم وعرف وتعلم وأصبح جزءًا في لعبة جهنمية، عرف أن اسم مصطفى هذا ليس سوى الاسم «الكودي» لماجد، كما أن اسمه لم يعد «عزيزًا» بل أصبح «عثمان»... في البداية كان الأمر يبعث على العجب، ثم أصبح ـ بعد المعرفة ـ يبعث على الإعجاب، عمل محفوف بالمخاطر ومحاط بالسرية ويتعامل مع الحقائق مهما كانت قسوتها برجولة... وعلى أكتافهم ألقيت مسئوليات جسام!

أحس عزيز الجبالي أن وقفته وسط الغرفة قد طالت، سار إلى زر النور وضغط عليه ليغمر الضوء الغرفة... عادت أسراب الناموس وعاد هو إلى ملفاته... كان يشعر منذ أن بدأ العمل وقرأ ما تحويه الملفات من ملحوظات وأعمال وإنجازات وفشل، وتطلع إلى صور رجال ونساء لم يلتق بهم من قبل لكن المطلوب إليه أن يعرفهم ويوجههم ويتعامل معهم، أحس أن شيئًا ناقصًا... هؤلاء رجال ونساء أغلبهم من جنسيات ثالثة ـ ليسوا مصريين ولا إسرائيليين ـ يمدون مصر بالمعلومات في رحلات يدخلون فيها إلى إسرائيل لكنهم ليسوا مقيمين فيها، هناك كم لا بأس به من المعلومات حقًا، ولكن ما ينقصنا كثير... كان ينقب في الملفات بحثًا عن شيء غامض، عندما حاول أن يبدأ من جديد أحس أن التعب يهد جسده هدًا، تذكر أنه يعمل منذ الثامنة صباحًا وأنه لم يتناول طعامًا سوى سندوتش فول وآخر طعمية، شعر أنه يتحرق شوقًا إلى كوب من الشاي بعد طبق مفعم بالبيض والبسطرمة، ذلك الطبق الذي كان غرامه الغذائي لسنوات طويلة، اتخذ قراره بأن هذا يكفي لعمل يوم واحد فبدأ

يستعد للرحيل... فتح الخزانة وراح يعيد الملفات إليها حسب ترتيب معين، حمل أحدها فإذا شيء يسقط منه، رباط عنق ذو ألوان صارخة ونقوش غريبة، فعرف على الفور أنه وسيلة تعارف، انحنى على رباط العنق وفتح الملفات كي يعيده إليه فإذا صورة تطالعه... صورة صغيرة لشاب في مثل عمره: وجه مستطيل وشفتان رقيقتان وعينان تصرخان بنداء غامض... وكما يحدث في القصص الرومانسية الخيالية توقف عزيز الجبالي عند الصورة، شدته نظرة العينين والابتسامة الكامنة خلف الملامح، زحفت عيناه إلى الاسم فوجد اسمين أحدهما مصري والآخر إسرائيلي!

ودون أن يرفع عينيه عن الملف عاد إلى مقعده بشعور طاغ بأن ثمة شيئًا هنا يناديه... كان الاسم المصري: «رأفت علي سليمان الهجان»... أما الاسم الإسرائيلي فكان: «ديفيد شارل سمحون».

غلبه التعب فهم بإغلاق الدوسيه، وإعادة رباط العنق إلى مكانه، وكما يحدث عادة قلب ورقة ليلقي نظرة أخيرة وهو يهم بالنهوض إلى الخزانة المفتوحة، وقعت عيناه على ورقة كتب في أعلاها بخط واضح وجميل كلمة «وصية»... اجتاحه اضطراب غامض، قلب صفحة أخرى بشعور لا إرادي ليجد ظرفًا متوسط الحجم أبيض اللون مكتوبًا عليه بخط كبير: «لا يفتح إلا بعد موتي!».

كان الظرف مفتوحًا وفي أسفله تأشيرة بالحبر الأحمر تقول: «فتح بمعرفتي»، وكان التوقيع واضحًا:

«محسن ممتاز!».

وجمد عزيز في مكانه.

شعر وكأن تيارًا كهربيًا يسري في جسده ويشده إلى مقعده بعنف، عاد إلى الصفحة الأولى وتسمرت عيناه فوق الوصية، لكنه لم يقرأ شيئًا...

إذن فهذه إحدى عمليات «محسن ممتاز» الأسطورة... ذلك الضابط الشهير من الرعيل الأول الذي سمعوا عنه وتعلموا من تجاربه وأعجبوا به، ولم يره أحدهم بعد.

عادت عيناه إلى السطور، فترك لهما حرية القراءة:

«هذه وصيتي...».

«أضعها بين أيديكم الكريمة».

«السلام على من اتبع الهدى».

«بسم الله الرحمن الرحيم».

«إنا لله وإنا إليه راجعون».

«هأنذا أقدم لسيادتكم وصيتي».

«في حالة عدم عودتي حيًّا أرزق إلى أرض الوطن الحبيب مصر، أي أن تكتشف حقيقة أمري في إسرائيل وينتهي بي المطاف إلى المصير المحتوم والوحيد في هذه الحالة، وهو الإعدام شنقًا... فإنني أرجو صرف المبالغ الآتية من مستحقاتي لديكم:

١ ـ لأخي من أبي عادل علي سليمان الهجان، القاطن في رقم ٦ شارع الفيوم بمصر الجديدة، مبلغ وقدره ثلاثمائة جنيه مصري لا غير... أعتقد أنه يساوي إن لم يكن يزيد عن المبالغ التي صرفها عليَّ منذ وفاة أبي المرحوم علي سليمان الهجان في عام ١٩٣٥ وبذلك أصبح غير مدين له بشيء.

٢ ـ لأخي سليم علي سليمان الهجان، ومكتبه بشارع عماد الدين رقم ٩٢، مبلغ خمسين جنيهًا كان يدعي أني مدين له به، وليترحم عليّ إن أراد!

٣ ـ مبلغ مائة وخمسين جنيهًا لشقيقتي شريفة علي سليمان الهجان،

حرم الصاغ محمد رفيق، المقيمة بشارع الإمام على رقم ١٥ بمصر الجديدة، بصفة هدية رمزية متواضعة مني إليها وأسألها الدعاء لي دائمًا بالرحمة!

٤ ـ المبلغ المتبقي من مستحقاتي لدى سيادتكم يقسم كالآتي:

(أ) نصف المبلغ لطارق محمد رفيق، ابن شقيقتي والصاغ محمد رفيق، وليعلم أني كنت أكن له محبة كبيرة.

(ب) النصف المتبقي يصرف لأحد ملاجئ الأيتام.

وبذلك أكون قد أبرأت ذمتي أمام الله بعد أن بذلت كل ما في وسعي لخدمة الوطن العزيز.

والله أكبر والعزة لمصر.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله».

ثم كان التوقيع: «رأفت علي سليمان الهجان».

* * *

حاول عزيز الجبالي ـ فيما بعد ـ أن يعبر عما انتابه من أحاسيس وانفعالات، ولكنه وجد صعوبة في ذلك... كل ما استطاع أن يعبر به عن نفسه هو أن دمعة فرت من عينيه مصحوبة بصدى صوت الأستاذ إسماعيل ـ ولم يكن العهد بعيدًا بمحاضراته ـ وهو يؤكد ويلح وينبه ويوقظ:

«لا دخل للعواطف في العمل... لا دخل للعواطف في العمل... لا دخل للعواطف في العمل!».

كان قلبه يخفق في عنف، جمد في مكانه ولم يعد يأبه، بل لم يعد يشعر بلدغات الناموس الذي كانت أسرابه تعود فتقتحم نافذة الغرفة المضيئة... استعان على انفعالاته بسيجارة أشعلها وهو يحملق في

الصورة فإذا العينان تصرخان بذلك النداء الغامض... تململ في جلسته إعياء، وحاول الاكتفاء بهذا القدر كما حاول أن يغلق الملف لكنه لم يستطع، كان صوت الأستاذ إسماعيل يطن في أذنه ويحذره من فوران عواطفه. وعلى كل، فلقد كتب عزيز الجبالي في تلك الأوراق التي كتبها عن هذه العملية يقول:

«هكذا بدأت قصتي مع هذه العملية ذات ليلة حارة في صيف ١٩٥٨، في ڤيلا منعزلة بين الحقول، وكنت قد انتهيت لتوي مع مجموعة قليلة العدد من الزملاء الشبان، من إتمام دورة تدريبية متكاملة خاصة بالجوانب السرية من أعمال المخابرات، وكنا مكلفين بالعمل على تطوير النشاط السري الإيجابي ضد الدول المعادية لمصر على أسس علمية سليمة وعندما قرأت ما قرأت لم أستطع أن أحبس دمعة فرت من عيني، رغم أني كنت أعرف بل كنت مؤمنًا بأن رجل المخابرات لا يتعامل ويجب ألا يتعامل مع العواطف... وإنما تعامله فقط مع الحقائق وجهًا لوجه!».

* * *

وقد كان لا بد لعزيز الجبالي أن ينحي عواطفه جانبًا، فاستيقظ عقله، وراح يقلب الأوراق، فإذا به أمام تقرير أرسله الفتى - بالأسلوب السري بالطبع! - في منتصف أكتوبر عام ١٩٥٦، وكان نص ما كتبه رأفت الهجان في بداية التقرير عن الحالة داخل إسرائيل:

«لقد أصيب هذا البلد بالجنون، التعبئة العامة أعلنت، التحريات العسكرية في كل مكان، والكل يجمع أن هناك عمليات عسكرية سوف تحدث، والكل يستعد لهذه العمليات التي يقولون إنها موجهة ضد الأردن... ...».

كان هذا التقرير الأول يصف الحالة في إسرائيل والاستعدادات التي تجري فيها والحشود التي تتجمع و... و... ويقلب عزيز الجبالي أوراق

الملف فإذا به أمام تقرير آخر وصل إلى مصر في الثلث الأخير من نفس الشهر!

مرة أخرى يرتجف عزيز بالانفعال!

عاد التيار الكهربي يسري في جسده فإذا حواسه كلها مستيقظة وإذا أعصابه مشدودة، كيف ينسى هذا التاريخ وقد كان هناك على الجبهة يواجه العدو وجهًا لوجه، يربطه بالعالم المشتعل من حول بلاده جهاز راديو صغير... وبعد أن كانت التحرشات بينهم وبين الإسرائيليين يومية، وبعد أن كانوا هم الذين يهاجمون الإسرائيليين ويتحرشون بهم وينصبون لهم الكمائن ويتسللون إليهم في الظلام يدمرون ويقتلون وينتقمون لشهدائهم في غزة والصابحة... جاءتهم الأوامر ـ في الثلث الأخير من أكتوبر ١٩٥٦ بالذات ـ بعدم الرد على الإسرائيليين ووضع الأعصاب في ثلاجة!

كانت الذكريات تطغى في طوفان هادر لكنها انمحت مع أمواج عاتية بعث بها هذا التقرير الذي وقعت عليه عينا عزيز الجبالي ـ الذي كان اسمه الآن عثمان ـ فإذا قلبه ينبض بسرعة موجعة!

كان ما أمامه مذهلًا!

وقع العدوان الثلاثي منذ ما يقرب من عامين واندحر وانسحبت جيوش المعتدين وانكشفت الألاعيب لكن ما بين يديه كان تقريرًا وافيًا ومذهلًا عما وقع بالفعل قبل أن يقع... بل قبل أن يتصوره أحد!

كان التقرير يتحدث عن رائد اسمه «إلياهو جادوسكي» ملحق بهيئة أركان القوات الإسرائيلية، وخطيبته إستر بلينسكي... وكان يحكي، في دقة لا تصدق، كيف سوف تصطنع إسرائيل خلافًا مع مصر، وكيف ستسقط بعض المظليين بالقرب من قناة السويس، حتى إذا ردت مصر العدوان وجهت كل من بريطانيا وفرنسا إنذارًا للدولتين بالابتعاد

عن قناة السويس شرقًا وغربًا لمسافة عشرة كيلو مترات حفاظًا على المصالح الدولية... وكيف أن معنى هذا أن تترك مصر سيناء لقمة سائغة لإسرائيل التي سوف تقبل الإنذار فورًا، فإذا ما رفضته مصر ـ بطبيعة الحال ـ فإن هذا سيكون مبررًا لكلتا الدولتين أن تتدخلا وتحتلا منطقة القناة بأكملها!

ويستمر التقرير حتى نهايته، يحدد الهدف من كل المؤامرة، وهو: إسقاط جمال عبد الناصر!

كان التقرير مدهشًا في دقته وكان تاريخ وصوله إلى مصر قبل العدوان الثلاثي ببضعة أيام.

مرة أخرى، كتب عزيز الجبالي في أوراقه عما عثر عليه في تلك الليلة يقول:

«... ... كان ما أمامي مذهلًا بكل المقاييس، فلو اجتمع سير «أنتوني إيدن» ومسيو «جي موليه» و«ديفيد بن جوريون» ليكتبوا ملخصًا لخطتهم في العدوان على مصر، لما اختلف ما كتبوه عن هذا الذي أرسله رأفت أو ديفيد... وهنا، أصبح الأمر شخصيًّا بالنسبة لي... فلقد كنت أحد ضحايا هذا العدوان كمصاب وأسير... كان الوقت في الهزيع الأخير من الليل وأنا أنتقل من صفحة إلى صفحة، كنت أشعر أني عثرت على كنز ثمين... حتى وصلت إلى النموذج المرفق... ...».

وصل عزيز الجبالي إلى النموذج المرفق، وهو ورقة مطبوعة يكتب فيها الضابط المسئول رأيه في هذا المندوب، وما إن وقعت عيناه على الملحوظات التي كتبت حتى أصابه الذهول، ولم يصدق عينيه... لكنه كان لا بد أن يقرأ... فقرأ عن رأفت الهجان الذي يعيش في إسرائيل تحت اسم ديفيد شارل سمحون أنه:

«جبان!».

«لا يسعى بإيجابية للحصول على المعلومات!».

«ويعتمد على الشائعات وما يسمعه من أحاديث الناس!».

«كثير الطلب للمال!».

وكانت التوصية الأخيرة تقول:

«أنصح بوضع حد لهذه العملية وإعادة هذا المندوب إلى مصر فهو لا يصلح!».

وحتى مطلع النهار لم يعرف عزيز للنوم طعمًا!

الفصل الخامس

قصّة المندُوب ٣١٣

تلك ليلة كانت حاسمة في حياة عزيز الجبالي، ولا أحد يدري ما الذي كان يمكن أن يفعله ذلك الشاب لو أنه عرف ما خطه القدر لعلاقته بهذا الإنسان، وعلى مدى عشرين عامًا قادمة شهدا فيها الحلو والمر، والهزيمة والنصر، والنجاح والفشل... دون أن يلتقيا مرة واحدة... لا أحد يدري!

غير أننا لا نستطيع أن نغفل هذا العنصر الغريب والوافد والذي كان له ذلك التأثير السحري على ضابط المخابرات الشاب... ومهما تعارضت هذه الرؤية مع ما كان يجب أن يكون، ومهما اختلفنا في الرأي، فإننا لا نستطيع إلا أن نتوقف أمام تلك الكلمات التي فاه بها عزيز الجبالي ـ عن قصد بالطبع فمثله دائمًا ما ينطق بحساب ـ عندما رأى صورة رأفت الهجان، لا نستطيع إلا أن نتوقف ونحن نتساءل عن مدى ثبات القوانين الموضوعة، وإلى أي مدى يمكن للإنسان أن يأخذ بها وفي أي حدود؟!... ذلك أن إحساسًا غامضًا وغريبًا وغيبيًّا ربط عزيز الجبالي منذ تلك الليلة بصاحب هذه الصورة، إحساسًا كان يدفعه دفعًا إلى التعاطف معه، بالرغم من كل ما كتب عنه من ملاحظات متناقضة ـ هذه كلمة عزيز بالتحديد ـ تؤيده بعضها بتحفظ، وترفضه أغلبيتها بلا تحفظ!

في البداية جلس عزيز جامدًا أمام الأوراق التي قرأها، تمزقه الحيرة، وتشده الصورة شدًا وهو يحاول انتزاع نفسه من تلك الابتسامة الغامضة خلف الشفتين الرقيقتين، وتلك النظرة المنادية.. ولم يكن هناك سبيل إلى ذلك إلا أن يكون منتبهًا صاحيًا نشيط الجسد كما أنه نشيط الذهن متوقده... لم يكن هناك سبيل إلا بأن ينفض عن جسده عرق عشرين ساعة من العمل المتواصل في يوم قائظ وأن يستيقظ يقظة لا شك فيها... وهكذا قرر ـ رغم صعوبة الأمر ـ أن يستحم بماء بارد يستجلبه من تلك المضخة القائمة في الحديقة بجوار جدار المبنى... ولقد فعل، راح يسكب المياه على جسده بلا حساب، عقله صاح متقد يعمل بنشاط يرهق جسده الذي لم يعرف الراحة منذ صباح الأمس، كان قد انتبه وهو في مكتبه إلى بزوغ الفجر عندما سمع صياح الديكة الآتي من بيوت الفلاحين البعيدة عبر الحقول المحيطة، صنع لنفسه كوبًا من الشاي المصري الداكن، وضع الكوب أمامه وتجنب النظر إلى الصورة، وجهز ورقة بيضاء كي يكتب فيها ملاحظاته.

كان الملف الموضوع أمامه يحمل رقم «٣١٣»، وبالتالي فلقد كان اسم صاحب هذا الملف هو «٣١٣»... هكذا يجب أن يتحدث عنه مع زملائه أو رؤسائه أو من يعنيهم الأمر، هذا أسلوب عمل عليه أن يلتزم به... ثم، ثم تبقى هنالك بضع حقائق لا سبيل إلى تجاهلها:

كانت الحقيقة الأولى تقول: إن صاحب هذا الملف شاب مصري اسمه «رأفت علي سليمان الهجان»، وأنه يعيش في إسرائيل تحت اسم «ديڤيد شارل سمحون» أي أنه مزروع هناك... فمن الذي زرعه؟!... هل هو محسن ممتاز صاحب التوقيع على مظروف الوصية المفتوح، أم إنه ضابط آخر؟!... وقبل هذا، من هو رأفت أو ديڤيد؟!... ما هي قصته؟!... كيف تم تدريبه؟!... ومن الذي دربه وإلى أي مدى وصل هذا التدريب؟!... ثم، كيف أقنع الفتى، وكيف اقتنع الفتى، وكيف سافر، وكيف يعيش الآن في إسرائيل، وتحت أي ستار؟!

هذه كلها أسئلة تحتاج إلى إجابات حاسمة ودقيقة... وفي الملف الموضوع أمامه ـ هذه حقيقة لا مناص من الاعتراف بها ـ لم تكن هناك إجابات بل لم تكن هناك حتى إشارات... فكيف؟!

الآن فهم عزيز الجبالي ـ الآن فقط ـ المعنى الحقيقي لما قيل أثناء الدورة التدريبية من أن واجبهم الأول والأساسي وقبل أي شيء آخر هو إعادة ترتيب كل شيء وتنظيمه على تلك الأسس العلمية التي كانوا يتعلمونها!

❊ ❊ ❊

قال عزيز الجبالي للسيدة سمحون عندما وصل إلى هذه النقطة بالذات... إن بعض الناس ـ خاصة في العالم الثالث ـ يخجلون من ذكر الأخطاء أو إعلانها إذا ما وقعوا فيها، ويفضلون تجاوزها لا أمام الغير فقط، ولكن ربما بينهم وبين أنفسهم، وهذا بالطبع خطأ فادح، ذلك أن ذكر الحقائق هو الخطوة الأولى لتفادي الأخطاء في المستقبل... ولقد كانت الحقيقة السافرة في هذه الحالة تقول إن الملف الخاص بهذا الفتى كان خاليًا من كل الأساسيات المطلوبة بالنسبة لعملية خطيرة كهذه... ليس عيبًا أن نعترف بذلك، فمن هنا بدأنا، فلم تكن للرجال خبرة، ثم... لم يكن من المعقول أو المقصود ـ حتى لو كان هذا من البديهيات ـ أن يقوم رجل مثل محسن ممتاز بعمل كل شيء في كل حالة من عشرات الحالات التي كان يتولاها في مصر وخارج مصر... كان العمل كثيرًا، والحمل ثقيلًا، والمسؤولية فوق طاقة أفراد كانوا يشقون طريقًا للمستقبل وسط ركام من التخلف ورثوه ممن سبقوهم!

❊ ❊ ❊

وعلى هذا فلقد أصبح عليه الآن ـ كتب هذا في الورقة البيضاء ـ أن

يجد إجابة لكل سؤال من تلك الأسئلة التي كانت في ذهنه حول هذه «العملية»!

وإذا كانت هذه الحقيقة الأولى، فإن الحقيقة الثانية والواضحة في هذا الملف هي:

إن هذا الفتى إنسان بائس!

إن نظرة سريعة إلى «الوصية» التي تركها، ترسم صورة صارخة لعلاقته بأفراد أسرته، بإخوته بالذات، وطبيعة هذه العلاقات التي لا بد أنها كانت ـ على الأقل ـ متوترة... كان واضحًا أنه إنسان وحيد لا يربطه بالدنيا شيء سوى شقيقة ترك لها بعضا يسيرا من المال، وابن شقيقة هو في الغالب لا يزال طفلًا، ترك له نصف ما تبقى، والنصف الآخر لملاجئ الأيتام... إذن، ففوق البؤس، قد عانى هذا الفتى من اليتم!

أما الحقيقة الثالثة التي توصل إليها عزيز الجبالي في ذلك الفجر الغريب، وبعد أن قلب كل الأوراق وأعاد قراءتها ودراستها هي أن هذا الفتى مهما قيل عنه من جبن وتراخ وما إلى ذلك فهو دون أدنى شك بطل... إنه هناك يعيش وحيدًا، في قلب بيت العدو، حياته معرضة للخطر ليل نهار، ثم إنه ـ فوق هذا ـ «حالة» نحن في أشد الحاجة إليها، إنه بالتحديد ذلك الشيء الناقص الذي كان يبحث عنه منذ صباح الأمس في هذه الملفات ويفتقده، هو عين مصرية خالصة داخل إسرائيل، وليس زائرًا يلتقط الأخبار طائرًا.. فكيف يوصف بالجبن من يعرض نفسه للخطر؟!

وتبقى الحقيقة الرابعة التي حيّرت هذا الضابط الشاب.. فلقد كتب في تقريره عن العدوان الثلاثي اسم مصدره، وهو الرائد إلياهو جادوسكي، ولقد كان هذا الاسم ـ لو أن الخطاب وقع في أيدي السلطات الإسرائيلية،

وكان هذا واردًا جدًّا في مثل الظروف التي كانت تعيشها إسرائيل قبل العدوان ـ كفيلًا بأن يشير إليه ببساطة وأن يودي به دون جهد يذكر.. فهل فعل الفتى هذا مغامرًا بحياته حتى يؤكد لبني وطنه صدق رسالته، ويدفعهم إلى الحذر والاحتياط مهما كانت الأخطار المحيقة به، أم إنه فعل ما فعله دون أن يعرف خطورة فعلته؟!

هل كان الفتى فدائيًا... أم إنه كان غافلًا؟!

هل ... وهل... وهل... و...

وعشرات الأسئلة التي راحت تضطرم في رأس عزيز الجبالي حتى وصل الجميع من منازلهم في الثامنة صباحًا، واكتملت أربع وعشرون ساعة منذ دخل هذه الغرفة في صباح الأمس! وبدأ في هذا المبنى المعزول وسط الحقول يوم جديد... وكان أول من وصل منهم هو «محمد كساب».

* * *

كان محمد كساب شابًا في نحو الثلاثين من عمره، أكثر ما يميزه أنه كان جميل الطلعة، خافت الصوت، يبدو رقيقًا مهذبًا خجولًا لدرجة تدعو إلى الدهشة.. لكنه اشتهر وسط الذين عرفوه جيدًا... بأنه ذو قلب ميت!

ووسط الضباط الأحـرار عرف «محمد كساب» بأنه واحد من الفدائيين الذين يتصدون لأكثر المهمات صعوبة وخطورة... يحكون عنه أنه عندما يضطلع بواحدة من تلك العمليات الفدائية الخطيرة الجسورة داخل معسكرات الإنجليز في القناة، كان يقوم بها في هدوء وبرود يبعثان بالقشعريرة إلى الجسد... وفي أشد المواقف خطورة وحرجًا كان يتصرف بحسم وقوة دون أن تهتز في رأسه شعره!

كان كساب هذا، هو الرئيس المباشر لعزيز الجبالي الذي دخل عليه

في ذلك الصباح من يوليو عام ١٩٥٨ وهو يتأبط ملفًا، ولم يكن الرجل قد استقر في مقعده بعد!

«أنا عاوز أتكلم مع سيادتك يا فندم!».

«اتفضل يا عزيز!».

ولقد قال كساب فيما بعد إن الأمر بالنسبة إليه كان باعثًا على الدهشة، فلقد كان واضحًا أشد ما يكون الوضوح أن عزيز الجبالي لم ينم منذ صباح الأمس، حول عينيه هالة سوداء تنبئ عن إجهاد وسهر متواصل، ولم يكن هذا غريبًا أو مستغربًا، لكن الغريب حقًا هو أن عزيزًا بدا في تلك اللحظات من الصباح، وكأنه يتأهب ـ رغم أسلوبه المهذب ـ لدخول معركة... لذلك، فلقد أعطاه كل اهتمامه وهو يرقبه في انتباه بالغ!

وضع عزيز الملف فوق المكتب دون أن يشير إلى صاحبه وجلس، سأله كساب:

«خير؟!».

«أنا عاوز أتكلم مع سيادتك عن المندوب ٣١٣».

«مين ٣١٣».

«صاحب الملف ده!».

قال عزيز هذا وهو يقدم الملف لكساب الذي تناوله منه عبر المكتب، وما أن فتحه وألقى عليه نظرة سريعة حتى أغلقه وهو يعيده إلى الضابط الشاب قائلًا:

«آه... دي عملية فاشلة!».

هم عزيز بالحديث فاستطرد رئيسه وكأنه ينهي الأمر برمته:

«عاوزين نرجّع الولد ده مصر بهدوء ونقطع بعد كده علاقتنا بيه!!».

«بس يا فندم... ... ...».

قاطعه كساب بصوته الهادئ وفي حسم باتر:

«أنا عارف إنك حاتتكلم عن التقرير اللي بعته عن العدوان الثلاثي... بس دي مرة وحيدة ولا اتكررتش أبدًا، وكل المعلومات اللي بعتها بعد كده مكانش لها أي قيمة!».

«أنا قريت الملف كويس!».

«نبقي متفقين!».

ألح عزيز:

«سيادتك مش شايف إننا ممكن نطوره؟!».

«مستحيل!».

«ليه يا فندم؟!».

مال كساب نحو الضابط الشاب ضاغطًا على كلماته:

«لأنه جبان، ومن يوم ما راح هناك لحد النهار ده مالوش شغلانة غير إنه يطلب فلوس ويأمن نفسه!».

«عنده حق يأمن نفسه !».

نظر كساب نحو عزيز نظرة طويلة متفحصة، لم يكن الأمر جديدًا عليه بطبيعة الحال، ولقد نبهته لهجة عزيز وردوده الجاهزة إلى توتره الشديد الذي عزاه ـ بينه وبين نفسه ـ إلى الإجهاد والسهر والتعب... ساد الصمت بينهما لثوان ثم:

«اسمع يا عزيز... مفيش داعي تضيع وقتك!».

قال هذا ثم أردف:

«ده رأيي!».

اندفع عزيز في الحديث مدافعًا:

«بس الملف مافيهوش أي حاجة عنه يا فندم، حتى تقصيره في الفترة الأخيرة بعد العدوان الثلاثي ممكن ما يكونش له ذنب فيه!».

صمت كساب مبتسمًا وهو يحتضن بعينيه الشاب الملتهب بالحماس أمامه، وعاد عزيز إلى الحديث في حرارة:

«على الأقل نعرف إيه حكايته!».

«إنت شايف كده؟».

«ده رأيي».

«يبقى لازم تتكلم مع محسن ممتاز!».

انتفض عزيز بالحماس لدى سماعه اسم محسن، هتف:

«أنا شفت توقيعه على المظروف بتاع الوصية!».

«لأن هو اللي فتح الظرف بنفسه!».

«هو السيد محسن اللي بعته هناك؟».

«وهو الوحيد اللي يقدر يقول لك كل حاجة عنه!».

وهكذا انتهى الحوار، ونهض عزيز حاملًا الملف في يده.. لكنه قبل أن يغادر الغرفة توقف كمن يريد أن يقول شيئًا، وقبل أن يفتح فمه قال كساب باسمًا وكأنه يقرأ أفكاره:

«محسن مسافر، أول ما يوصل تقدر تقعد معاه وتعرف منه كل اللي انت عاوزه!».

* * *

لم يكن عزيز الجبالي يعلم أن رأفت الهجان ـ أو المندوب رقم ٣١٣ ـ كان مثار مناقشات طالت لأسابيع، وأن مجموعة الضباط الذين التحقوا بالجهاز خلال العامين اللذين مضيا كانوا يسابقون الزمن في محاولة للحاق بعصرهم بعد أن أرسلوا إلى الخارج شرقًا وغربًا في

دورات تدريبية وضعت أقدامهم ـ فقط ـ على أول الطريق الذي كانوا يعلمون كم هو شاق، وكم هو طويل... من هذه المجموعة المختارة من الضباط كان ثمة ضابط شاب تخرج في كلية أركان حرب قبل قيام الثورة ببضعة أشهر.. اسمه شريف والي!

وحتى منتصف عام ١٩٥٧ كان شريف والي لا يزال ضابطًا في الجيش... وعندما قام بإجازته في صيف هذا العام، عاد من الإجازة كي يجد أمرًا من رئيس الجمهورية بنقله إلى المخابرات العامة... وكانت كل فكرته عن عمل المخابرات هي تلك العلوم التي تلقاها في كلية أركان حرب، عن المخابرات الإستراتيجية والمخابرات التكتيكية وما إلى ذلك من علوم نظرية... وعندما تسلم عمله الجديد، تسلم معه مجموعة مخيفة من الكتب العلمية التي وضعت بين يديه، وكان عليه أن يلتهمها التهامًا، وأن يدرسها بعناية، ويعيها وعيًا كاملًا... فموعد سفره إلى الخارج كان يقترب.. تلك أيام كان هؤلاء الشبان يصلون فيها ليلهم بنهارهم وهم يكتشفون في كل يوم، ومع كل معلومة تضاف إلى معارفهم، أنهم في حاجة أكثر إلى العلم، ربما قبله التجربة العملية والاحتكاك الملتهب الذي فرض على بلادهم وأمتهم...

ولقد سافر «شريف والي» في بعثة قصيرة إلى إحدى دول أوربا، عومل وتعامل منذ لحظة مغادرته بيته في القاهرة في طريقه إلى المطار، بأسلوب سري، وكان قد زود بكل ما يحتاج إليه من جمل شفرية كانت تقوده، عبر مسارات مركبة ودول عديدة، إلى حيث أقام في مكان منعزل بعيدًا عن العمران في دولة لا يعرف لغتها ولا ناسها... وكان عليه أن يقضي، مع زميلين له، في هذا المكان المنعزل، بضعة أشهر لا يغادره، يتلقى الدروس والتدريب منذ الصباح وحتى المساء، ثم يقضي أغلب الليل في القراءة والاستذكار والمناقشة... وبعد انقضاء شهرين كان الإرهاق قد أخذ منه ومن زميليه كل مأخذ، فأرادوا الترفيه عنهم، وإذا بهم

يستقلون سيارة أسدلت على نوافذها الستائر، وإذا السيارة تحملهم إلى أحد مسارح أوربا الشهيرة، كي تصل قبل بداية العرض بثوان، ليدخلوا المسرح من باب خلفي، ويقودهم دليل ـ وسط الظلام ـ إلى مقصورة كان عليهم أن يغادروها إلى إحدى غرف المسرح قبل أن تضاء الأنوار في الاستراحات حتى لا يراهم أحد أو تقع عليهم عين!

وما أن أسدل الستار الأخير حتى غادروا أماكنهم إلى السيارة المنتظرة عند الباب الجانبي، لتحملهم إلى مقرهم السري من جديد... وكان هذا هو الترفيه الوحيد الذي قدم لهم خلال ما يزيد قليلًا على الخمسة الأشهر!

عندما عاد شريف والي من الخارج، كان عليه أن يتولى مسئولية «هيئة الخدمة السرية» في المخابرات العامة المصرية.. في ذلك الوقت، كان البحث عن تنظيم جديد ونهائي لا يزال قائمًا، وكانت حركات التنقلات والضم والفصل والإنشاء والإلغاء في الإدارات والأشخاص هي لغة كل يوم... وما أن استقر الأمر لتلك المجموعة من الشباب الذين عادوا من دول شتى، ودربوا في مدارس مختلفة... كان عليهم أن يتدارسوا الأمر بعناية، وأن يقارنوا بين أسلوب عمل وأسلوب عمل آخر بحثًا عن أسلوب مصري «خالص»، كان الرجال موقنين أن كل ما حصّلوه هو كل ما يستطيع الآخرون إعطاؤه لهم، وليس كل شيء!

كان أول ما فعلوه عندما عادوا من الخارج هو دراسة كل «العمليات» التي تراكمت على أيدي الرواد الأول مثل حسن صقر ومحسن ممتاز... ولقد جرت بين الجدران مناقشات حادة وحارة كانت تستغرق الأيام تلو الأيام والأسابيع بعد الأسابيع، كان على هؤلاء الشبان ـ مع رغبتهم العارمة في التطوير والتنظيم ـ أن يواصلوا الدراسة، الدراسة العلمية، ودراسة تلك الحالات التي وضعت بين أيديهم لعشرات النماذج من

البشر في جميع أنحاء الأرض... وإذا بهم ذات يوم يصطدمون بحالة المندوب «٣١٣» الذي يحمل اسم «ديڤيد شارل سمحون» في إسرائيل، بدلًا من اسمه الحقيقي «رأفت الهجان»!

في تلك الأيام كان محسن ممتاز في الخارج، حملته خبرته وجلده على العمل وقدرته على التعامل مع أنماط مختلفة ومتباينة من البشر، إلى مناطق عديدة من الكرة الأرضية.. عرف الرجال أن محسن هو الذي قام بكل العمل، وكانت المعلومات التي بين أيديهم تشير إلى أن حصيلة الفتى، فيما بعد العدوان الثلاثي، كانت ضئيلة وغير ذات قيمة في نفس الوقت.

كان مصطفى عبد العظيم قد انتقل من روما، وتواتر على الفتى آخرون، وبدأت الآراء والأفكار من حوله تتضارب، فالفتى بطبعه جامح متمرد ولا أحد يعرف عنه ما كان يعرفه مصطفى أو محسن.. وطوال عام ١٩٥٧ وحتى منتصف عام ١٩٥٨ لم يكف الفتى عن طلب المال بحجة كساد سوق السياحة في إسرائيل وتبرم شريكه «جدعون شاباتاي» ورغبته في الانسحاب من الشركة، وفي نفس الوقت كانت حصيلته من المعلومات متواضعة فراح يتلقى المؤاخذة تلو المؤاخذة والتأنيب بعد التأنيب... حتى إذا استقر الأمر بالرجال في هذا التنظيم الأخير انقسمت الآراء من حوله.

قال «شريف والي» فيما بعد: إن الأمر بالنسبة إليهم كان محيرا، فكل الحالات التي تعاملوا معها كانت واضحة ومحددة، إلا أن الفتى بدا لهم كشيء هلامي - هذا تعبيره بالضبط - فهو هناك في قلب إسرائيل ليس في متناول اليد من حيث السيطرة والمراقبة ومعرفة المحيط الذي يتحرك فيه... وهكذا انقسمت الآراء من حوله إلى أقسام:

قسم رأى أن الفتى لا يصلح بالمرة، وأن ما حصل عليه من معلومات قبل العدوان الثلاثي جاء بطريق الصدفة لا أكثر ولا أقل، وعلى هذا،

فلا بد من تصفية العملية وتوفير ما ينفقه الفتى من مال كان يلح في طلبه كل بضعة أشهر!

وكان هناك قسم آخر رأى أن الفتى يتعامل مع الإسرائيليين كما يتعامل مع المصريين، وأنه تحول في خلال العامين اللذين مضيا عليه هناك إلى «عميل مزدوج»، وكان هذا القسم يرى أن القرار المطلوب هو: هل يتم التعامل معه على هذا الأساس. أم أن هناك أسلوبًا آخر للتعامل معه كخائن!

لكن رأيًا ثالثًا قال بضرورة الاستمرار معه... كان الرأي الثالث يرى أن الفتى يصلح لأن يكون «خميرة» في قلب مجتمع تل أبيب، وأن هذه «الخميرة» من الممكن أن تنمو وتتطور وتستغل بأسلوب علمي يعطينا منها أكبر قدر ممكن من الفائدة.

استمرت المناقشات طويلًا لكنها لم تصل إلى نتيجة حاسمة ونهائية... قال شريف والي إنه كان مطلوبًا ـ سواء استقر الأمر على هذا الرأي أو ذاك ـ التحرك بحذر شديد، فالرجال كانوا يعلمون أنهم يتحركون في مواجهة جهاز مخابرات قوى هو الموساد، فوق أن التسليم المطلق بأن الفتى ليس عميلا مزدوجا وأنه لا يزال على العهد أمر بدا شديد الصعوبة بعد تلك السنوات التي عاشها الفتى في إسرائيل... وعلى هذا، فلم يكن هناك مفر من مواجهة رأفت الهجان والاحتكاك به مباشرة ومعرفته وإعادة علاقته الطبيعية مع وطنه... وحتى هذه الخطوة، كان من الصعب الإقدام عليها قبل عودة محسن ممتاز من الخارج وإشراكه في المناقشة أو على الأقل استكمال المعلومات اللازمة عن الفتى منه... كان شريف والي ـ من موقع المسؤولية ـ ينتظر عودة محسن، أو بمعنى أصح، ينتظر أن يغلب رأي رأيًا!

* * *

لم يكن عزيز الجبالي يعرف شيئًا عن هذا الذي تم، كل ما كان يعرفه ـ وقد عاد إلى الانهماك في العمل والتنظيم والترتيب والتقييم ـ أنه في انتظار عودة محسن من الخارج كي يجلس إليه ويسأل ويعرف منه كل شيء عن صاحب تلك الصورة الغامضة والابتسامة المنادية!

يعترف الضابط الشاب الذي أصبح اليوم كهلًا تخطى الخمسين من عمره، أنه كان بين الحين والحين يخرج الملف من الخزانة، وكان قد وضعه في مكان خاص، كي يجلس إليه يقلب الأوراق، ويقلب الأفكار أيضًا، ثم يلقي بعينيه إلى الصورة، فإذا بها تناديه ذلك النداء المجهول رغم مرور الوقت وبرود الانفعال!

طالت غيبة محسن في الخارج لثلاثة أسابيع كاملة... وفي عمر ذلك الزمان، كانت الأسابيع الثلاثة كافية لأي تغيير أو تبديل أو تطوير أو نقل... تمامًا كما حدث مع محمد كساب الذي أسندت إليه مهمة استدعت مغادرته القاهرة في البداية، ثم مصر كلها بعد ذلك!

وعاش عزيز الجبالي أيامًا يتخيل فيها لقاءه مع محسن ممتاز... لم يكن قد التقى به من قبل، لكنه بالطبع سمع عنه الكثير... حتى كان ذات يوم من أيام أغسطس عام ١٩٥٨، وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بعد الظهر، وكان عزيز منهمكًا في العمل عندما فتح باب الغرفة، ووقف في فراغه عملاق رياضي الجسد يحمل في كل يد من يديه حقيبة بدت ثقيلة، وربما مثقلة بما فيها من أوراق وأسرار... رفع عزيز الجبالي عينيه إلى الوافد فأدرك على الفور أن هذا الذي اقتحم عليه خلوته ليس سوى محسن ممتاز، فهتف مرحبًا:

«أهلًا يا فندم!».

«إنت عارف أنا مين؟!».

«أكيد سيادتك السيد محسن!».

برقت عينا الرجل المخضرم ببريق لم يغب عن عيني الضابط الشاب... قال محسن:

«قالوا لي إنك عاوز تشوفني!».

«أنا مش عاوز أشوفك بس يا فندم.. أنا محتاج لسيادتك!».

ابتسم محسن، ربما لبراعة الشاب في الحوار، وخطا نحو الداخل وهو يغلق الباب بقدمه ويضع الحقيبتين على الأرض، وقبل أن يجلس أشعل لفافة تبغ نفث دخانها في الهواء ثم جلس على أحد المقعدين الموضوعين أمام المكتب، فجلس عزيز وقد تعلقت عيناه بوجه الرجل الذي خط الشيب شعره فأضفى على الملامح مهابة واحترامًا!

«خير يا أخ عزيز؟!».

«أنا عاوز أتكلم مع سيادتك حوالين المندوب ٣١٣».

«مين ٣١٣ ده؟!».

اندفع عزيز نحو الخزانة وعاد يحمل في يده ملف الفتى.

«رأفت الهجان».

«آآآآآآآه».

هكذا قال محسن، وهكذا بدأ الحديث بين الرجل المثقل بالأعباء، والضابط الشاب الذي كان يستعد لحمل مسئولية أشد ما تكون ثقلًا وخطورة في نفس الوقت!

❊ ❊ ❊

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل، عندما غادر محسن وعزيز ذلك المبنى القائم وسط الحقول... طال الحديث بينهما لساعات حكى فيها محسن ـ بالتفصيل ـ قصته مع الفتى منذ أن كان الأمر فكرة في رأسه ورأس حسن صقر، وحتى سافر الفتى إلى

إسرائيل... سأل عزيز وألح في السؤال، وأجاب محسن وأفاض في الإجابة... غير أنهما ـ وقد جلسا الآن متجاورين في سيارة عزيز الصغيرة يقطعان الطريق إلى قلب القاهرة عبر الضواحي والطرق الجديدة التي كانت تشقها الثورة في كل مكان من العاصمة ـ كانا صامتين تمامًا، غرق كل منهما في خواطره وأفكاره وقد أثارت قصة الفتى شجونًا كامنة، وكانا يبدوان متعبين منهكين، حتى إذا ما توقفت السيارة أمام بيت محسن في أحد أحياء القاهرة الشهيرة، التفت هذا نحو عزيز متسائلا:

«تفتكر إنك حاتقدر تعمل حاجة يا عزيز؟!».

«إن شاء الله!».

قال الضابط ما قاله في اقتضاب من كان يعرف ثقل الحمل الذي ألقي على كتفيه...

ثم افترقا.

افترقا وكان محسن يشعر ـ يقينًا ـ بأنه يترك قطعة من لحمه وعمره أمانة في يد ضابط صغير السن متفجر بالحماس والنشاط... وكان وهو يصعد الدرج نحو مسكنه يتساءل عن مصير الفتى... كان موقنًا أنه لن يعرف عنه شيئًا بعد ذلك، بل كان موقنًا أنه يجب ألا يعرف عنه شيئًا بعد ذلك!!!

* * *

أيقن شريف والي رئيس هيئة الخدمة السرية بالمخابرات العامة المصرية في ذلك الوقت أن الضابط الشاب عزيز الجبالي سوف يطلب مقابلته بين يوم وآخر... عرف بطبيعة الحال أنه تحدث مع محمد كساب في أمر المندوب ٣١٣، كما عرف أيضًا أنه التقى بمحسن ممتاز في نفس يوم وصوله وجلس إليه لساعات طالت إلى ما بعد منتصف الليل بساعتين ونصف... كان موقنًا أن الضابط الشاب

قد توقف أمام هذه الحالة التي حيرته كما حيرت الرجال.. وهو لم يشأ أن يبادر بسؤال عزيز عما وصل إليه أو ما ينتويه، بل فضل أن يترك للأمور أن تأخذ مجراها الطبيعي، لكنه بالقطع كان مشوقًا ـ وسط مشاغله الكثيرة ـ لأن يعرف رأي هذا الضابط الجديد.

وفي حقيقة الأمر إن مشكلة المندوب ٣١٣ كانت تشغل باله هو الآخر.. وإذا كانت المناقشات التي تمت حول هذه الحالة لم توصلهم إلى نتيجة حاسمة، فها هو عنصر جديد، ودم جديد، يدخل إلى حلبة المناقشة كي يدلي برأيه.

ولكن..... إلى أي رأى كان يميل شريف والي؟!

قال الرجل بعد سنوات طويلة، وبالحرف الواحد:

«كان الأمر بسيطًا، فلقد كنا مختلفين على الورق... ولم يكن أمامنا سوى أن نتصل بالفتى اتصالًا مباشرًا كي نعرف من هو وجهًا لوجه، ثم نتخذ بعد ذلك قرارنا!».

ولذلك فما أن طلب عزيز الجبالي من رئيس هيئة الخدمة السرية مناقشة «عملية» رأفت الهجان، حتى وجد من الرجل ترحيبًا شديدًا، واستعدادًا أشد!

* * *

عكف عزيز الجبالي ـ بعد لقائه مع محسن ممتاز، وقد عرف الآن كل شيء عن الفتى ـ على وضع دراسة مفصلة عن الحالة... خرج منها بأن الفتى، بالرغم من كل ما يمكن أن يؤخذ عليه، لم يلق العناية الكافية، بل والواجبة!

اكتشف أن الفتى منذ أن سافر إلى إسرائيل لم يتلق أي نوع من أنواع التدريب... ذلك أن محسن ممتاز عندما أرسله في بداية النصف الثاني من عام ١٩٥٥ ـ أي منذ ثلاث سنوات كاملة ـ كان كل ما طلبه منه أن يبني

ساتره، وأن يعيش وسط المجتمع الإسرائيلي كواحد منه... ثم لا شيء بعد ذلك، لا تدريب، ولا توجيه، ولا حتى احتياجات أرسلت إلى الفتى كي يرد عليها! فكيف نستطيع ـ والأمر كذلك ـ أن نقيم قدرات الفتى وإمكاناته التي لم تستغل ولم توجه التوجيه الصحيح؟!

ثم اكتشف ـ بدهشة بالغة ـ أن الفتى لا يزال يستعمل وسيلة شديدة البدائية للكتابة السرية، وأنه منذ عام ١٩٥٦ وحتى ذلك اليوم لا يزال يستعمل «ورق الزبدة» في الكتابة السرية... والأمر الطبيعي يقول إنه إذا كانت وسائله في الاتصال ـ وهي شديدة الخطورة والأهمية ـ تتم بهذا الأسلوب البدائي، فلا بد أن تكون قدراته وحصيلته من نفس المستوى... فالذنب إذن ليس ذنبه!

وبعد ذلك... إذا كان اشتراك إسرائيل في العدوان الثلاثي، ثم كل ما تلا ذلك العدوان من آثار على سمعة إسرائيل في العالم، مما جلب الكساد فعلًا إلى سوق السياحة فيها ـ فإن حديث الفتى عن الخسائر التي أخذت تتوالى على الشركة التي أنشأها مع المدعو «جدعون شاباتاي» يصبح أمرًا منطقيًا، كما يصبح منطقيًا أن يتذمر السيد «شاباتاي» ويفكر في الانسحاب، ويصبح منطقيًا أيضًا أن يستميت الفتى في إقامة البناء الذي يكاد ينهار بين يديه، ولم يكن أمامه طريق سوى طلب المال!

وهكذا خرج عزيز الجبالي من دراسته بأن رأفت علي سليمان الهجان في حاجة إلى تدريب مكثف وسريع، كما كان في حاجة إلى شخص له مواصفات خاصة كي يقوم بالمهمة... وإذا كانت شخصية مثل محسن ممتاز هو الذي أعد الفتى في البداية، فإن شخصية في نفس المستوى لا بد أن تعيد الاتصال به من جديد، لتحكم السيطرة عليه من ناحية، ولتعيد روابطه مع بلده من ناحية أخرى، ثم تدربه على فنون العمل التي كان يجهلها تمامًا!

عندما بدأ الحوار بين شريف والي وعزيز الجبالي، سأل الرجل:

«إنت متحمس للعملية دي يا عزيز؟».

«أنا شايف إنها ممكن تتطور يا فندم وتجيب نتائج ممتازة!».

«طب ما تعمل لي دراسة عليها!».

«الدراسة جاهزة يا فندم!».

قال عزيز هذا وهو يقدم للرجل ملفًا ليس به سوى ثلاث ورقات مكتوبة بخط اليد، حوت كل شيء عن الموضوع في نقط شديدة التركيز... ساد الصمت وقد استغرق رئيس هيئة الخدمة السرية في القراءة، حتى إذا انتهى رفع رأسه نحو الضابط الشاب متسائلًا:

«يعني انت رأيك إننا نستدعيه خارج إسرائيل وندربه؟».

«وأنا عندي اقتراح بدورة تدريبية ممكن ياخدها في حوالي أسبوع!».

ابتسم شريف والي قائلًا:

«خلاص. حط لنا خطة مكتوبة واطلع انت دربه!».

«لأ يا فندم!».

رفع شريف حاجبيه دهشة وأردف عزيز:

«مش أنا اللي حادربه!».

«أمال مين؟!».

«نديم هاشم!».

* * *

فتح الباب وأطل منه نديم هاشم هاتفًا:

«تقدر تقول لي انت عاوز إيه؟!».

تهلل عزيز الجبالي لرؤية نديم الذي كان يكبره سنًّا ورتبة وخبرة، لكنه كان صديقًا له، صاح:

«أهلًا قلب الأسد!».

اندفع نديم بعد أن أغلق الباب نحو عزيز:

«إيه الحكاية يا عزيز بالضبط؟!».

«إنت مش عاوز تسافر بلاد بره؟».

هتف نديم ممازحًا:

«أسافر علشان أتفسح مش علشان أشتغل!».

قال عزيز في جدية بالغة:

«العملية دي ممكن تجيب نتائج هايلة يا نديم !».

«قول لي إنت عاوز إيه بالضبط وخلصني».

* * *

في اليوم السابق كان عزيز الجبالي قد حصل على إذن بزيارة بدروم إحدى العمارات القديمة في حي الزمالك الأرستقراطي... كانت العمارة مملوكة لإحدى شركات التأمين، ومنذ بضعة أشهر استطاعت شركة من شركات الأدوية أن تستأجر هذا البدروم من شركة التأمين لاستعماله كمخزن... وبالفعل، فلقد نقل إلى هذا البدروم ـ والغريب أن النقل دائمًا ما كان يتم في جوف الليل ـ عدد كبير من الصناديق والمكاتب القديمة والمقاعد المتهالكة والثلاجات والمواقد... أشياء غريبة تنقل بين يوم وآخر... لكن الأغرب، أن أحدًا من السكان لم يلحظ أن موظفي هذا المخزن كانوا وكأنهم أشباح... كان هناك موظفون حقًّا، لكن أحدًا من السكان لم ير أحدهم مرة، وإن كانوا يشعرون بوجودهم... ذلك أن أحدًا لم يتنبه إلى أن للبدروم بابًا

خلفيًا يوصل إلى الشارع مباشرة عبر ممر منحدر بجوار العمارة كان في الأصل جراجًا لسيارة واحدة!

حصل عزيز على إذن بزيارة البدروم، وكانت هذه هي زيارته الأولى لهذا الفريق المذهل من العلماء الشبان الذين فجروا - فيما بعد - الأعاجيب العلمية التي أذهلت العدو قبل الصديق!

وصل عزيز الجبالي إلى هناك بعد الغروب، واجهه - لحظة أن دلف من الباب - حائط يسد الطريق، انحرف إلى اليسار حيث نفذ من باب أفضى به إلى ما يشبه مصنعًا صغيرًا لأشياء تعبأ في أكياس... كان المكان رطبًا فالعمارة مجاورة للنيل، والموائد متناثرة هنا وهناك، والإضاءة مسلطة فوق المعدات محجوبة بقبعات مصمتة تحجب الضوء عن النوافذ الموازية للشارع... ووسط كل هذا كان فريق العلماء الشبان يتحركون وينتقلون فيما بين الموائد والمواقد والثلاجات بلا صوت... ما أن خطا نحو الداخل خطوتين حتى أمسك بتلابيبه صوت رفيع ثاقب لرجل نحيل أسمر اللون محني الظهر يرتدي نظارة طبية ويدخن بلا انقطاع!

«أهلًا سيد عزيز... اتفضل هنا!».

التفت عزيز ليجد نفسه في مواجهة الدكتور عبد المنعم بسيوني... لم يكن أحدهما قد التقى بالآخر من قبل... كل ما هناك أن إشارة تليفونية جاءت في الصباح إلى الدكتور عبد المنعم - أو «منعم» كما يناديه الجميع بلا ألقاب - تقول إن السيد عزيز الجبالي سوف يزوره في السابعة والنصف من مساء نفس اليوم... وهكذا، عندما شاهد دكتور منعم وجهًا غريبًا سمح له بالدخول أدرك على الفور أنه السيد عزيز الجبالي... كما أدرك هذا أن الذي تصدى لمقابلته لا يمكن إلا أن يكون ذلك العبقري الذي سمع عنه الكثير!

كان الدكتور عبد المنعم بسيوني ـ ولا يزال ـ واحدًا من علماء مصر الأفذاذ في الكيمياء... وعندما عرض عليه إنشاء هذا القسم العلمي طلب مهلة للتفكير... غاب أيامًا وعاد يسأل عن الغرض من إنشاء هذا القسم، وكان الغرض ـ بطبيعة الحال ـ قد شرح له في المرة الأولى، لكنه قال إنه جاء هذه المرة كي يسأل عن الغرض الحقيقي!!! فابتسموا، وعادوا يشرحون له الأمر بالتفصيل، وأجابوا عن أسئلته التي بدت ساذجة أحيانًا، ومستفزة في أحيان أخرى، حتى إذا انتهى طلب مهلة أخرى للتفكير... ثم غاب أسبوعًا وبعض أسبوع، وعاد يسأل إن كان عمله هذا له علاقة بتعذيب الناس والإضرار بهم... ولم يكن النفي كافيًا، كان لا بد من إدارة حوار صبور مع هذا العالم العصبي توضع الأمور أثناءه في نصابها تمامًا، وشرح له وظيفة الجهاز على وجه التحديد وفي صرامة وصراحة شديدتين!... ورغم أنه في تلك المقابلة أبدى تفهمًا للموقف ولكل ما قيل إلا أنه طلب مهلة للتفكير أيضًا... لكنه بعد أربع وعشرين ساعة أعلن موافقته وبدأ العمل!

* * *

جلس عزيز إلى مائدة صغيرة صنعت من ألواح بعض الصناديق الخشبية... كان الدكتور عبد المنعم بسيوني يستعملها كمكتب، فوق المائدة عشرات الأشياء كان من بينها أنابيب وأوان وميزان حساس ومواد كيميائية ثم موقد في متناول يده، بجوار الموقد صندوقان من المعدن، خصص أحدهما للشاي والثاني للسكر، وبجوار الصندوقين كنكة ذات لون كالح!

سأله الدكتور منعم وهو يضع الكنكة فوق لهب الموقد:

«خير إن شاء الله يا سيد عزيز؟».

في اختصار قال عزيز إنه يريد حبرًا سريًا حديثًا يصعب كشفه، فجاءه صوت الرجل الثاقب:

«منين؟!».

«البركة فيكم يا دكتور!».

«البركة في دين محمد يا سيدي، بس إحنا لسه في أول السكة!».

ضحك عزيز هاتفًا:

«كلنا في الهم شرق!».

لكن الدكتور منعم لم يضحك، وراح يضع السكر والشاي في أنبوبتي اختبار كان يستعملهما ككوبين... كانت حرب الأحبار السرية، التي برعت فيها ـ فيما بعد ـ المخابرات المصرية والإسرائيلية وبزتا فيها كل دول العالم، تبدأ مرحلة تحد جديدة وخطيرة... وكانت إسرائيل متقدمة على مصر بفراسخ بحيث بدا للبعض أنه من المستحيل اللحاق بها... وكان فريق العلماء هذا قد ووجه بالكثير من العقبات عندما عهد إليه بإظهار حبر سري في خطاب مرسل إلى الخارج... لم تكن هناك إمكانات، وربما لم تكن هناك فكرة واضحة عن الأمر كله... وهكذا، وكما بدأت الحرب الخفية بين الضباط الشبان الذين كانوا يمثلون النواة الأولى لجهاز مخابرات عصري ومنظم، بدت حرب علمية كان عنفها يتزايد يومًا بعد يوم، خاصة أن بعض هؤلاء العلماء الشبان كانوا إذا ما نجحوا في إظهار بعض الكتابات السرية يقرءون ـ بطبيعة الحال ـ ما يظهرون من معلومات فيفزعون... ويومًا بعد يوم، راحوا يتمثلون الأخطار التي يتعرض لها وطنهم من جواسيس الأعداء في الخارج، وبعض ضعاف النفوس في الداخل!

رفع الدكتور منعم عينيه وأطل من خلف نظارته الطبية متسائلًا:

«إنت بتحب الشاي كشري والا مغلي؟».

«زي ما بتشربه انت يا دكتور!».

«الحبر اللي عندنا مش بطال بس هم حايكشفوه قريب أكيد!».

«مفيش حبر جديد؟».

«عندك وقت قد إيه ؟».

«مش أكتر من أسبوع!».

«إنت وحظك بقى... إحنا لسه بنعمل تجاربنا عليه!».

لكنه تلقى بعد خمسة أيام من الدكتور عبد المنعم بسيوني نوعا جديدا من الأحبار السرية، كان بمقاييس تلك الأيام معجزة علمية بحق!

* * *

في عصر يوم من أيام شهر سبتمبر عام ١٩٥٨، كان نديم هاشم يستعد للسفر إلى إيطاليا مع عزيز الجبالي، لمقابلة الفتى... وفي حقيقة الأمر، لم تكن «العملية» جديدة عليه... فمنذ شهور ـ قبل مجيء عزيز إلى هذا المكان ـ كان قد قرأ الملف قراءة مستفيضة، وكان له رأي فيه... وفي جلسته الأولى مع عزيز الجبالي تبادلا وجهتي نظرهما... لكنه، قبل سفرهما، كان لا بد له من جلسة أخرى طالت لساعات مع عزيز، كي يتزود منه بتفاصيل بدت له على درجة عالية من الأهمية، خاصة بعد أن عرف عزيز من محسن ممتاز كل ملابسات العملية وظروفها!

في حقيبة نديم حبر سري حديث لم يسبق لأحد في الدنيا أن استعمله من قبل، مع الحبر السري كانت هناك وسيلة إظهاره بمركب كيميائي... عرف نديم وتدرب ـ كي يدرب الفتى ـ على أسلوب الكتابة بهذا الحبر وأسلوب إظهاره... ووسط ملابسه في حقيبته الصغيرة، كان يرقد رباط عنق صارخ الألوان ذو نقوش غريبة... هو نفسه رباط العنق الذي عثر عليه عزيز الجبالي في ملف الفتى.

كان نديم ـ مثل عزيز ـ مشوقًا لرؤية هذا الفتى الذي يعيش في إسرائيل تحت اسم «ديڤيد شارل سمحون»... والذي وصلته برقية ـ قبل يومين ـ من إحدى شركات السياحة الإيطالية، تطلب إليه الحضور لاستكمال الاتفاق الخاص بعدد لا بأس به من الوفود السياحية الإيطالية، التي كانت تزمع زيارة إسرائيل قبل حلول الشتاء!

الفصل السادس

ريَاح الشك

تلقى السيد «ديڤيد شارل سمحون» صاحب ومدير شركة «ماجي تورز» في تل أبيب، برقية مطولة من إحدى شركات السياحة في جنوا تطلب إليه فيها ـ بناء على المفاوضات والمراسلات التي تمت بينهما ـ الحضور إلى إيطاليا لإتمام التعاقد الخاص بثلاثة أفواج، كل فوج يتكون من مائتين وخمسين سائحًا يريدون زيارة إسرائيل قبل حلول الشتاء!

عندما وصلت تلك البرقية كان ديڤيد سمحون يجلس في مكتبه مستغرقًا فيما آلت إليه الأحوال في شركته... تسلمت إستر بلينسكي ـ سكرتيرته ـ البرقية بمزيد من الفرح، اندفعت إلى مكتبه تزف إليه البشرى وقد أشرق وجهها بالسعادة... ها هي الأزمة التي تحكمت في الشركة لشهور على وشك أن تحل... ما أن دلفت إلى الغرفة حتى تسمرت في مكانها وقلبها ينخلع حنانا... كان ديڤيد مضطجعًا في مقعده إلى الخلف ملقيًا بنظراته إلى السقف غارقًا فيما كان يغرق فيه من أفكار، خاصة في الآونة الأخيرة، بعد أن انسحب شريكه «جدعون شاباتاي» من الشركة بأسلوب مستفز وغريب وغير كريم... فاض قلبها بالحنان وهي ترقب ديڤيد الذي غادره مرحه وإشراقه بعد أن تركه السيد شاباتاي على شفا

إفلاس حقيقي وسط كساد كان يشتد يومًا بعد يوم، وقتها عرض عليها مخدومها وحبيبها أن تبحث لنفسها عن عمل آخر لكنها رفضت أن تتركه وحده، اضطر إلى تخفيض مرتبها فقبلت دون تردد... لم تكن في حاجة شديدة إلى المال بعد أن تم زواجها من الميجور «إلياهو جادوسكي»، راح ديڤيد يبذل محاولات مستميتة وسط منافسة لا ترحم وفي كل اتجاه دون جدوى... وبدلًا من نشاطه ذاك الذي اشتهر به أصابته كآبة كان يحاول أن يخفيها عنها... ظلت في وقفتها تلك لثوان، لكنه بدا وكأنه لم يشعر بوجودها، كانت تحمل البرقية في يدها وهي تنتفض بالفرح عندما همت إليه جاءها صوته مكدودًا:

«ماذا وراءك يا إستر؟».

اندفعت نحوه هاتفة:

«مفاجأة!».

ابتسم ابتسامة باهتة واعتدل في جلسته:

«هات ما عندك!».

لوحت بالبرقية أمام عينيه:

«ثلاثة أفواج إيطالية!».

هم بالحديث فمالت نحوه تزف إليه بقية الخبر:

«كل فوج من مائتين وخمسين شخصًا!».

مد يده نحوها فناولته البرقية وهي تنتفض بالانفعال، راحت ترقبه وهو يقرأ السطور في إمعان، ها هو البريق يعود إلى عينيه بعد طول غياب، وها هي ابتسامته تلوح على وجهه أخيرًا... ما أن انتهى من قراءة البرقية حتى طواها ودسها في جيبه مغمغمًا:

«يبدو أن الأزمة سوف تنفرج!».

دارت حول المكتب في حماس حنون، قالت في صوت مفعم بالحب:

«هل أحجز لك تذكرة إلى روما؟».

دون أن ينظر إليها نهض من مكانه:

«ألا يحتاج الأمر إلى قليل من التفكير؟».

كاد يصطدم بها في حركته فسرت في جسدها رعشة امتدت إلى صوتها فتكسر.

«أي تفكير هذا؟!».

«في قدرتي على الوفاء بالتزامات هذه الأفواج!».

خطا نحو الباب فلاحقته:

«ولكن البرقية تقول... ... ...».

«ولا بد من تدبير بعض المال، ثم الاتفاق على وسائل نقل الأفواج بعد أن سحب جدعون شاباتاي سيارتي الأوتوبيس، ثم هناك تحديد الأمكنة التي سيزورها الضيوف!».

هتفت محتجة:

«ولكن... ديڤيد... إن الـ...».

قاطعها في تأفف:

«ألا تتعلمين أبدًا يا صغيرتي؟!».

«إن البرقية تحدد الـ... ...».

«لقد قرأتها يا إستر جيدًا وأعرف ما فيها!».

بدت عليها خيبة الأمل، وأطلت من عينيها نظرة عتاب، لكنه استطرد:

«عليك فقط أن تقومي بعملك دون أن تتدخلي في عملي!».

قال هذا... ثم تركها وانصرف!

❊ ❊ ❊

ظلت إستر بلينسكي في وقفتها تلك حائرة وهي تتساءل عما أصاب مخدومها وحبيبها والرجل الذي استطاع أن يخلع قلبها من صدرها كي يعبث به بين أصابعه... كان المفروض أن يسعد لوصول برقية مثل هذه التي ستدر على الشركة دخلًا لا بأس به وتعفيه من اللجوء إلى السيد شارل سمحون، ذلك المليونير الذي أعطاه اسمه في الإسكندرية وتعامل معه مثل ابنه والذي تعود ديفيد أن يلجأ إليه كلما ألمت به الأزمات... ولكن، ها هو يتلقى الأمر في برود يبعث على الدهشة، أخذت تردد البصر فيما بين مقعده الخالي والباب الذي خرج منه وكانت رياح الشكوك تهب في صدرها عاتية فهل في الأمر امرأة أخرى؟!... هل هي ماجي سمحون ـ ابنة السيد شارل ـ التي وقعت في حب الفتى في الإسكندرية، ثم راحت تحرضه على الإقامة معهم في فرنسا بعد أن هاجروا من مصر؟!... أم هي امرأة أخرى في تل أبيب؟ وما أكثر مَنْ يلقين بشباكهن حوله!!... هل هو انسحاب شاباتاي الذي أصابه بكارثة لم يستطع أن يفيق منها حتى الآن؟!... أم إنه يفكر في مغادرة إسرائيل إلى الأبد؟!...

أين ديفيد؟!

سؤال كان يلازمها في أيامها الأخيرة حتى وهي بين ذراعيه، أحست أن يدًا تعتصر قلبها اعتصارًا لا رحمة فيه، فغادرت الغرفة وقد اغرورقت عيناها بالدموع!

❊ ❊ ❊

غادر رأفت الهجان ـ أو ديفيد شارل سمحون ـ شركته في شارع يوشع بن نون وقد اصطخبت الأفكار في رأسه... كان ـ الآن ـ يريد الاختلاء

بنفسه، وقراءة البرقية على مهل وحل رموزها وكشف أسرارها... هو موقن أنهم يطلبونه للقاء يتم في الخارج، لم يكن في حاجة إلى «مفتاح» يحل به الرموز أو يستجلي به أسرار الكلمات، فلقد حفظ كل شيء عن ظهر قلب... لكنه اليوم، واليوم بالذات، يريد التأكد من كل حرف وكل كلمة وكل سطر... منذ أيام والرغبة تساوره في إرسال برقية يطلب إليهم فيها لقاء عاجلًا، وبالرغم من حاجته إلى هذا اللقاء فهو يخشاه ولا يريده... تلقى البرقية في لهفة حقيقية، لكن لهفته لم تكن لأنه سيغادر إسرائيل فهو الآن يستطيع أن يغادرها وقتما يشاء ويعود إليها عندما يريد، فكر في العودة إلى بيته حتى يختلي ببرقيته هناك لكنه لم يستطع، كان يعلم أن لا أفواج هناك ولا يحزنون... لكن عليه أن يتصرف وكأن كل شيء حقيقي... مر بمكتب يوسف الأزرع المحامي وتحدث إليه قليلًا عما فعله به صديقه جدعون شاباتاي الذي فر من السفينة وهي موشكة على الغرق ساحبا معه مجدافيها المتمثلين في سيارتي الأوتوبيس اللتين كانتا ملكًا للشركة... هو الآن قادم للتفاوض على استئجار سيارتيه لحمل الأفواج القادمة من جنوا ـ مجرد تغطية لا بد منها للبرقية التي وصلت ـ ولقد سئم كل هذا، سئم حياته تلك، كما سئم مساومات يوسف الأزرع... أي وطن قومي هذا الذي يريدون إقامته وكل منهم ينهش لحوم آخرين من أجل شيكل أو ليرة... خضع في النهاية لمساومات المحامي الثعلب فهو يعلم أنه لن يستأجر السيارتين، ولن تكون هناك أفواج، وأنه سيسافر إلى إيطاليا ويعود مدعيًا أن الصفقة لم تتم، وأن الشروط المعروضة كانت مجحفة... غادر يوسف الأزرع وترك قدميه تحملانه إلى شارع «بن يهودا» حيث بنك «هابو عاليم» ـ العمال ـ الذي يودع فيه حساباته المتدنية، التقى هناك بموظف قدم له البرقية وناقش إمكان منحه قرضًا بفائدة معقولة... عندما غادر البنك لم يعد قادرًا على الانتظار، عاد إلى بيته وأغلق الأبواب والنوافذ وترك نفسه للصمت والسكون والأفكار الصاخبة... استرد أنفاسه وأخرج البرقية ومعها نوتة تليفوناته الصغيرة

التي لا تفارقه ليل نهار، هو يحفظ «مفتاح» الكلمات حقًّا، لكنه يريد ـ كما علمه محسن ـ أن يتأكد من كل شيء دون شك مهما كان صغيرًا، في إحدى صفحات نوتة التليفونات أسماء وأرقام تبدو بريئة المظهر، لكنها كانت طريقة إلى حل طلاسم الرسائل أو البرقيات التي تأتيه من الخارج... وضع البرقية أمامه، عاد يتأكد من الأبواب والنوافذ، ثم بدأ العمل!

رغم الأزمات التي كان يمر بها ديفيد شارل سمحون ـ أو رأفت الهجان ـ فإنه أصبح ـ بعد ثلاث سنوات ـ شخصية مرموقة في تل أبيب... اتسعت دائرة علاقاته الاجتماعية لتشمل قطاعات عديدة ومتنوعة من ذلك المجتمع الذي أصبح يعرفه معرفة شبه كاملة... بل لقد أصبح له دور مؤثر وفعال بعد أن انضم إلى نقابة السياحة وأخذ يتردد على الهستدروت ـ اتحاد النقابات الإسرائيلية ـ وكانت له أفكاره وآراؤه التي اكتسبت ـ مع الاحترام ـ إعجابًا واضحًا من الكثيرين... كان ديفيد شارل سمحون بعد هذه السنوات الثلاث، يمارس حقوقه السياسية كأي مواطن إسرائيلي صالح!

استقر به المقام في إسرائيل حقًّا، لكن حنينه إلى الوطن ما زال يتأجج حارقًا في صدره، وكان يفكر، بعد كل ما مر به، بأنه قد آن الأوان كي يعود إلى مصر، فثلاث سنوات بذل فيها قصارى جهده تكفي... ثلاث سنوات فعل فيها كل ما يستطيع، لكن شيئًا مما كان ينقله من أنباء العدو وأخباره إلى الوطن لم يكن يرضيهم!

عندما التقى بمصطفى عبد العظيم، بعد رسالته تلك عن العدوان الثلاثي، شكره هذا وأثنى عليه وشجعه وطالبه بالحرص أكثر وطلب إليه أن يتبع تعليمات محسن ممتاز بكل دقة، أعاد عليه ما اتفقا عليه من قبل، ثم قدمه بعد ذلك إلى واحد من الرجال... ومنذ اختفى مصطفى أو لنقل تغير الحال... أصبح كل ما ينقله إليهم بلا قيمة،

وأصبح يتلقى المؤاخذة تلو المؤاخذة، والتأنيب بعد التأنيب، ويعود إلى إسرائيل، ويستميت في التنصت والتسمع وتسقط الأخبار والأنباء والأسرار، ويظن في بعض الأحيان أنه قد وقع على سر الأسرار، ويطير إلى الخارج منتظرًا أن يسمع كلمة ثناء، فلا يسمع منهم ـ رجلًا بعد رجل ـ سوى أنه كسول لا يعمل، ولا يبذل جهدًا، وأن حصيلته في واقع الأمر بلا قيمة... حتى أصبح مقتنعًا بأنه لا يصلح، وأن هذه هي حدوده وإمكاناته... فلماذا يبقى إذن؟!... ولماذا لا يوفرون مزيدًا من المال يضطر إلى طلبه، ويضطرون إلى إمداده به متذمرين؟!... ولا داعي لبذل المزيد من الجهد على مشروع كان ينهار يومًا بعد يوم لولا جهوده المستميتة!

وإذا كان رأفت الهجان يدرك بوضوح أن انهيار شركة السياحة سينسحب بالضرورة على وجوده كله في إسرائيل، فإن عودته الآن أصبحت، في قلبه وصدره ووجدانه، مطلبًا ملحًّا ولا مفر منه!

أصبح رأفت الهجان ـ أو ديڤيد شارل سمحون ـ شخصية مرموقة في تل أبيب، وكان ـ كلما فكر في العودة إلى الوطن، وإنهاء مهمته كاملة ـ ينظر حوله في حسرة متسائلًا: ما الذي سوف يحدث له إذا ما عاد إلى مصر؟! كيف سيعيش؟!... ماذا سيعمل؟!... كيف سيعامل؟!... أكد له محسن ممتاز أن صحيفة سوابقه أصبحت في خبر كان، وأنه ـ وقبل أن يغادر مصر ـ أصبح مواطنًا شريفًا... فكيف سيحافظ على هذا الشرف إذا عاد؟!... وهل ألغيت صحيفة سوابقه حقًّا، أم إنهم سيواجهونه بما اقترفه في زمن صعب؟!

كان رأفت الهجان ينظر حوله فيشعر بالحسرة، لأنه ـ من خلال علاقاته وصداقاته ومكانته وشركته ـ يستطيع أن يصنع الكثير لبلاده، ولكنه لا يدري كيف؟!

أصبح من أصدقائه ومعارفه ضباط وعلماء وموظفون ورجال أعمال

ومهنيون وحرفيون وأغنياء وفقراء وأساتذة جامعة ومدرسون وصحفيون وأطباء وطيار مقاتل ومهندس في أحد المطارات الحربية، وعدد لا بأس به من المجندات في جيش الدفاع الإسرائيلي، كن يسببن سرطانًا عاطفيًّا لإستر بلينسكي!

كانوا جميعًا أدوات في يده لا يعرف كيف يستعملها؟! إنه يسمع منهم وينقل ما يسمعه إلى الرجال فيبدون غير راضين، فما الذي يريدونه منه بالضبط؟!

كانت إستر بلينسكي هي نواة مجتمعه اللصيق وصداقاته القريبة... اكتشف وقد ازدادت علاقته بها توثقًا وعمقًا، أنها قنبلة موقوتة من غيرة عمياء من الممكن أن تنفجر في أية لحظة دون أي اعتبار مهما كان... تم زواجها من إلياهو جادوسكي منذ عام وبعض عام، فألقى بها زواجها من هذا المتغطرس إلى ذراعيه أكثر!!

أما الكولونيل «بيخور شطريت» ذلك الهائل الجثة الذي التقى به مع يوسف الأزرع المحامي في ذلك العشاء الذي أقيم للترحيب به بعد وصوله إلى تل أبيب بأيام - فلقد أصبح يجد ملاذه وراحته في صحبة الفتى بعد أن توثقت العلاقات بينهما... هو متزوج من سيدة متسلطة تكبره ببضع سنوات، وكان يعاني من عشرتها معاناة لم يتحرج من البوح بها لرأفت، ولكن... يكفيه أن يذهب إلى الفتى الذي فتح له بيته وأذنيه وقلبه وزجاجات خمره، فيشرب، ويتدفق في الحديث بلا توقف... حتى إذا ما طلع النهار، نسي كل ما قاله في اليوم السابق!!

كان لبيخور شطريت - عدا زوجته - هموم أخرى خاصة بالوطن، وآراء يخشى أن يجاهر بها... وبين يدي «ديفيد العزيز» تعود أن يجد راحته من هذه وتلك... وكم من مرة هم الفتى بأن يسأل شطريت عن بعض أسرار عمله - وكان الرجل يحتل مركزًا خطيرًا في قيادة الجيش - لكنه دائمًا ما كان يتراجع، ويمسك لسانه... فهكذا طلب إليه

محسن ممتاز ومن بعده مصطفى عبد العظيم الذي أكد له ذات مرة في إصرار:

«بلاش انت تسأل دلوقت يا رأفت، سيبهم يتكلموا وانت اسمع وبس!».

«طيب ليه إذا كان... ... ...».

قاطعه مصطفى:

«لأن سؤالك ممكن يكشفك!».

همّ بالاحتجاج فأردف مصطفى:

«ولأن طريقة السؤال تفرق يا رأفت!».

«إزاي؟!».

«فيه أسلوب معين حانبقى نقول لك عليه!».

«ما تقول لي من دلوقت!».

«لأ... كل شيء في وقته، إنت واجبك الأول والوحيد في المرحلة دي إنك تدعم وجود الشركة وبس!».

و... ولقد كان على استعداد لأن يتحمل كل شيء من أجل الوطن وأي شيء، كان على استعداد لأن يستمر حتى يتعلم أو يعلموه لولا ذلك الذي حدث منذ بضعة أسابيع فأحال حياته جحيمًا لا يطاق!

* * *

فذات صباح دق جرس التليفون في بيته وكان الوقت مبكرًا، استيقظ متأففًا ورفع السماعة وكان يعرف أنها إستر توقظه حتى يباشر العمل... وراحت تغازله وتلاطفه لكنه ظل يتصنع النوم حتى قالت له:

«ولكنك لم تقرأ صحف الصباح».

تساءل متثائبًا:

«هل من جديد؟».

«قبضوا بالأمس على جاسوس يعمل لحساب مصر».

قفز جالسًا في مكانه وكأن عقربًا لدغته، طار النوم من عينيه وسرت في جسده رعدة وركض قلبه بين ضلوعه في عنف... أراد الحديث لكنه أغلق شفتيه حتى لا يفصح صوته عن اضطرابه الشديد، مضت لحظات صمت فجاءه صوتها معاتبًا:

«ديفيد... هل عدت إلى النوم من جديد؟!».

قال بصوت متناوم لا مبال:

«أي جاسوس هذا؟!».

«سائح ألماني شك فيه رجال الموساد!».

«إنهم يشكون في أمهاتهم!».

«ولكنهم أوقعوا به متلبسًا!».

«إن تلفيق التهم هو سمة هذا العصر الملعون يا صغيرتي!».

«ولكنه أدلى باعترافات كاملة!».

سرت البرودة في أوصاله فارتجف:

«ماذا قال؟!».

«قال إنه يعمل لحساب مصر، وإن هذه ليست المرة الأولى التي يزور فيها إسرائيل للتجسس!».

تصنع التثاؤب في محاولة مستميتة لأن يتمالك نفسه قائلًا:

«مسكين هذا الرجل!».

صاحت فيه مزمجرة:

«مسكين؟!».

«لأنه اختار المهنة الخطأ!».

«إن له شركاء آخرين!».

اخترقت كلماتها الأخيرة صدره كنصل حاد... حاول الحديث فلم يستطع، تدفقت إستر في الحديث وهي تنقل له ما نشرته صحف الصباح جميعًا في الصفحة الأولى لكن عقله كان قد سافر إلى بعيد...

استطاع بعد جهد أن ينهي المكالمة مغمغمًا بأنه سيكون في المكتب بعد قليل، أعاد السماعة إلى مكانها وقد غاضت دماؤه وتثلجت أطرافه وتكاثفت شكوكه واضطرب وجدانه وانهمر في رأسه طوفان بلا نهاية من الأسئلة:

فهل يعرفه هذا الجاسوس؟! هل كان - مثلًا - يحمل إليه رسالة ما من القاهرة؟!... وهل سيعترف باسمه؟!... مضى الفتى يفكر إن كانت النهاية قد جاءت على حين غرة لتأخذه دون خطأ جناه!!

ذات مرة ساورته الشكوك فأفضى بها إلى مصطفى عبد العظيم في إحدى زياراته للخارج، أكد له مصطفى أنه من المستحيل أن يذكروا اسمه لأحد مهما بلغت درجة ثقتهم فيه، ألح على مصطفى بشكوكه ومخاوفه فسأله الرجل:

«تفتكر يا رأفت إن انت الوحيد اللي لمصر في إسرائيل؟!».

«لأ طبعًا!».

«طيب... إحنا قلنا لك اسم حد منهم؟!».

عندما قرأ الجرائد اليومية - وكان يتقن العبرية الآن إتقانًا تامًا - لم يجد لهذا الجاسوس صورة ولا اسمًا... قال أحدهم في الهستدروت عندما تساءل في براءة عن اسم الجاسوس إن عدم ذكر الاسم أو نشر

الصورة يرجع إلى أن رجال الموساد يتتبعون شركاءه... عاش أيامًا بعدها في رعب قائم، ثم كانت تلك الليلة التي جاءه فيها جدعون شاباتاي ـ ودون مقدمات ـ يطلب فض الشركة ويطالب بنصيبه فيها، وقع في مأزق ولكن ما كان يعنيه هو لماذا يفعل جدعون هذا، وبهذه الصورة، وفي هذا الوقت بالذات؟!... لم يكن أمامه سوى التفاوض والتنازل، فتنازل عن الكثير لكن الرجل ركب رأسه وأصر على موقفه قائلًا في نغمة ساخرة اعتصرت قلبه إنه إذا كان «ديڤيد» قد عثر على أب مثل شارل سمحون يملك مالًا يمده به كلما احتاج إلى مال، فإنه لم يكن يملك سوى رأس ماله هذا الذي كان يتآكل في الشركة يومًا بعد يوم... وهكذا انتهى الأمر بينهما ذات ليلة في مكتب يوسف الأزرع المحامي كما بدأ في نفس المكتب!

فلماذا جاء انسحاب جدعون شاباتاي بعد الإعلان عن القبض على هذا الجاسوس؟!... وهل كان الأمر مصادفة أم إن الرجل عرف شيئًا فآثر الانسحاب بعيدًا عن مواطن الشكوك؟!... وإذا كان الأمر مصادفة، فهل كانت مصادفة أيضًا أن الكولونيل «بيخور شطريت» لم يلب واحدة من دعواته إليه وهو الذي كان يهرول إليه كلما دعاه، وكان كثيرًا ما يأتيه دون دعوة؟!... وهل كانت مصادفة أنه ـ منذ ذلك اليوم المشئوم ـ لم يُدْعَ إلى العشاء مرة، ولم يسع إليه أحد؟!... بدا له الأمر وكأن الجميع هجروه فيما عدا إستر التي كانت تذوب فيه حبًا... فهل كان هذا الذي تبديه له حبًا، أم إنهم طلبوا إليها أن تستمر في تمثيل دورها معه حتى تحين اللحظة المناسبة للإيقاع به؟!

* * *

وها هي رموز البرقية تفصح عن نفسها في وضوح... عليه أن يطير إلى روما في الثامن عشر من الشهر كي يبقى فيها ليومين، ثم يسافر بالقطار إلى جنوا في صباح اليوم الثالث، وينتظر هناك شخصًا يرتدي رباط عنق حتى

ذا ألوان صارخة وخطوط متشابكة تتداخل وتدور حتى تصنع في النهاية رسمًا لقارب صغير... في جنوا عليه ألا يفعل شيئًا سوى الانتظار حتى يلتقي به من يرتدي رباط العنق هذا، ويوم أعطاه محسن ممتاز رباط العنق قال له:

«الكرافتة دي يا رأفت مفيش منها غير نسخة واحـدة بس غير دي، والنسخة دي عندنا... لازم تحفظ الألوان وشكل الرسوم لكن ما تلبسهاش أبدًا... وإذا فرض وكان اللي جاي يقابلك جديد عليك، حاتلقاه لابس النسخة الثانية... وأول ما تتقابلوا حايسألك الساعة كام، حاترد تقول له إيه؟!».

«خمسة تحت الصفر!».

«حايقول لك يظهر إن الدنيا حر قوى!».

«إذا قال كده بأي لغة، أنفذ كل اللي يطلبه مني من غير مناقشة ولا حوار!».

معنى هذا أنه سيلتقي بشخص جديد، معناه أن الحوار سيتكرر وسيسمع نفس الكلام ويتلقى نفس التأنيب والمؤاخذة!

هو اليوم في أشد الحاجة إلى المال من أي وقت مضى، ولا بد له أن يطلب مالاً، ولسوف يطلب ولسوف يتذمرون ولسوف يناقش ويفند ويقدم الأوراق والمستندات، ولسوف يقولون إنه لا يتحرك كما ينبغي ولا يجلب من المعلومات ما يساوي كل هذا الذي ينفقه، وأن حصيلته ضعيفة ومعلوماته منشورة في الصحف... و... وهو قد مل هذا، مل حاجته الملحة إلى المال، ومل كثرة طلبه له، ومل تذمرهم، كما مل اتهاماتهم ودفاعه عن نفسه... وهو اليوم، موقن أشد ما يكون اليقين أنهم في مصر عادوا ينظرون إليه نظرتهم إلى نصاب أو محتال... وحتى هذا لم يعد يعنيه، ولسوف يعفيهم منه تمامًا. لأن ما يعنيه الآن

أن يطرد حبل المشنقة عن مخيلته... ذلك الحبل المتأرجح دائمًا في أحلامه... وما من ليلة أغمض فيها عينيه إلا تراءى له حبل المشنقة مداعبًا خياله... بلغ به التوتر حدًّا أدى به إلى أنه إذا ما قبل فتاة، قبلها مفتوح العينين!!

لا...

لن يطلب مالًا!

ولا بد أن ينتهي كل هذا، فهو يريد العودة إلى وطنه!

هكذا اتخذ رأفت الهجان قراره، فطوى البرقية ودسها في جيبه، وغادر البيت لا يلوي على كل شيء!

* * *

عندما طرح عزيز الجبالي اسم «نديم هاشم» على رئيس الخدمة السرية، لم يكن اقتراحه آتيًا من فراغ، فلقد كانت الأيام التي انقضت منذ أن التقى بصورة الفتى في ملف وبضعة أسطر في ليلة من ليالي يوليو الحارة ـ وحتى وصول محسن ممتاز في النصف الأول من أغسطس ـ كانت كافية لأن يقرأ الملف كلمة كلمة ومرة بعد مرة... ذلك الفتى الذي كانت صورته تناديه في غموض لم ينكره ولم يحاول أن يخفيه عن نفسه... بل نحاه جانبًا، راح يدرس كل ما كتب في هذا الملف، ويضع تلك المعلومات التي أرسلها رأفت في ظروفها الموضوعية... كي يأتي تقييمه للفتى على أكبر قدر ممكن من الدقة... حتى إذا جاء محسن وقص عليه قصة رأفت الهجان، أصبحت الصورة أمامه واضحة أشد ما يكون الوضوح.

أدرك عزيز الجبالي في وقت مبكر، وهو لايزال يخوض شواطئ هذا المحيط المتلاطم من العلوم والغموض، أن «المعرفة» هي سلاح المستقبل... وأن الدول الصغيرة ـ مثل مصر ـ لا قبل لها بمواجهة

أطماع الدول الكبيرة بالسلاح والعتاد... وأنها ـ بالتالي ـ لا تستطيع الحفاظ على استقلالها، أو احتلال مكانتها في المجتمع الدولي، ولا مجابهة هذا العصر المجنون الذي تخوض البشرية في غماره، إلا بالمعرفة... هذه «المعرفة» التي كان من أشد الأمور وضوحًا أمام عينيه أنها سلاح إسرائيل الرئيسي، لا في تغلغلها في المجتمع الدولي فقط، ولكن في تغلغل رجالها ـ من اليهود في كل الأمم ـ داخل أجهزة الدول الكبيرة، بل وفي مناصبها الحساسة!!

وإذا كانت الغالبية العظمى من هؤلاء الأصدقاء الذين يمدوننا بالمعلومات عن إسرائيل ـ ومنهم من كان لا يستهان بقدراته ـ ليسوا أكثر من زائرين لها لأيام أو لأسابيع قليلة... فإننا في حاجة إلى ركيزة في قلب بيت العدو، إلى عين تعيش في الداخل، عين ترى وترصد وتحلل، وأذن تسمع وتتسمع وتنصت... وإذا كان الفتى قد استطاع ـ دون تدريب علمي أو تجهيز كان ضروريًا ـ أن يحصل على معلومة مثل خبر العدوان الثلاثي قبل وقوعه، وبهذا التفصيل المذهل، بالرغم من كل ما أحيطت به هذه المؤامرة من سرية... فما الذي يمكن أن يفعله إذا تعلم وعرف ودُرِّب؟!

كانت الآمال تداعب خيال هذا الضابط الشاب مداعبة جعلته يبني قصورًا شامخة من المعلومات والمعرفة عن العدو... فانطلق ـ لا يلوي على شيء ـ لتحقيق أحلامه وآماله... ركيزته الأولى في كل خطواته: رأفت الهجان!

وضع عزيز هذه الحقائق نصب عينيه، ثم انطلق بعد ذلك إلى تقدير الموقف!

كان هناك ـ أول ما فكر فيه ـ ذلك الإحساس العاطفي الذي اعتراه تجاه الفتى وقصته، والذي واجهه في وضوح وصرامة وقسوة... وإذا

كانت «صورة» الفتى ثم بعد ذلك قصة حياته، قد فعلتا به كل هذا الذي فعلتاه... فما الذي يمكن أن يحدث لو أنه التقى به وجهًا لوجه؟!

هذا الاعتبار وحده كان كافيًا لأن يلغي فكرة لقائه «هو» بالفتى، فإذا ما أضفنا إليه أن واحدًا من أهم دروس الأستاذ إسماعيل التي ضغط عليها وألح وراح يكررها كي يعيها هؤلاء الضباط الشبان وعيًا كاملًا ومطلقا كان هذا الدرس يقول: «إذا ما أصبحت ضابط حالة، فلسوف تظل إلى الأبد ضابطًا لهذه الحالة!»... وكان معنى هذا أن ضابط المخابرات إذا ما أقدم على «عملية» ما، أو صنعها ووضعها موضع التنفيذ، فإنه سوف يظل مرتبطًا بها إلى الأبد... ذلك أن أحدًا غيره لا يمكن أن يلم بكل الظروف الموضوعية والنفسية والسياسية لهذه الحالة وتطوراتها واحتمالات نجاحها أو فشلها، مثله... الدليل العملي الذي لمسه بيده، هو أن الذين تولوا أمر رأفت الهجان دون معرفة سابقة بكل الملابسات والظروف التي أحاطت به، تضاربت أقوالهم عنه ـ دون حسم محدد ـ فيما بين مؤيد ورافض معارض... حتى هو نفسه، رغم ذلك التعاطف الخفي مع الفتى، لم يستطع أن يبت في الأمر ويتخذ قرارًا نهائيًا، إلا بعد أن جلس إلى محسن ممتاز!

وعلى ذلك... فإن عزيز الجبالي ـ دون أن يعرف كم من السنوات سيظل ضابطًا لهذه الحالة ـ أراد أن يضع القاعدة موضع التنفيذ... ومهما كان الأمر، هو أو غيره من الرجال، فلا بد أن يظل المسئول عن رأفت الهجان مجرد «فكرة» في ذهن الفتى لا تتجسد إلا في خياله صرحًا شامخًا ومهيبًا... «فكرة» تستطيع أن تكبح جماحه وتتعامل معه ومع قدراته!

وإذا كانت شخصية محسن ممتاز... كان لها هذا التأثير السحري على الفتى، فإن تلك الشخصية التي سيجسدها خياله لا بد وبالضرورة أن ترتبط ارتباطًا وثيقًا بشخصية محسن... وبناء عليه، فلقد كان مطلوبًا

للقاء رأفت الهجان والالتقاء به وفهمه ومواجهة تمرده وكبح جماحه ثم من بعد ذلك تدريبه والسيطرة عليه - شخصية معادلة لشخصية محسن حتى يستطيع صاحبها أن يتعامل مع الفتى كما ينبغي أن يكون التعامل!

وهكذا... لم تكن مصادفة بالطبع أن عزيزًا فكر في «نديم هاشم».

* * *

كان نديم هاشم من ذلك الرعيل الثاني من جيل رجال المخابرات المصرية، هؤلاء الذين تم اختيارهم قبل التنظيم وبناء على ملكاتهم وكفاءاتهم الشخصية وقدراتهم الذاتية، حتى يواجهوا ما كان الوطن يواجهه من مؤامرات ومعارك خفية وعنيفة في تلك السنين!

هذا جيل طُلب إليه أن يمارس العمل اعتمادًا على قدراته الخاصة، وأن يحصل العلم وهو يلهث وراء الأحداث!

كان نديم رياضيًا من نوع خاص... عرف عنه في المدرسة الثانوية أنه يمارس الملاكمة والهوكي وكرة القدم والسلة والتنس معًا.. نشأ في عائلة تمارس الفن وترى فيه أسمى أساليب التعبير عن الإنسان. وسط اللوحات والألوان تربى... كان فائر الجسد قوي العضلات أكولًا... وعندما قرر أن يمارس الرياضة مارسها بإحساس فنان مشتعل الخيال!

ذات مرة كان عليه أن ينازل - في حلبة الملاكمة - خصمًا أقوى منه بكل المقاييس، كان الخصم بطلًا معروفًا ذا لكمات حديدية لا ترحم ولا تخطئ، ولقد نصحه مدربه بألا ينازل هذا الخصم فالمباراة خاسرة خاسرة، كما أجمع الأصدقاء - وما كان أكثرهم وأخلصهم في تلك الأيام - على ضرورة تلافي موقعة لا مجال للانتصار فيها، ثم ولأنهم يعرفون أن نديمًا شديد العناد وأنه لن يستسلم فوق الحلبة، فلقد رأوا أن المباراة ستكون قاسية عليه... و... واستمع نديم إلى الجميع بهدوء، ثم أعلن

تصميمه على إتمام المباراة... وراح يواصل التدريب والاستعداد! بينما وضعوا هم أيديهم على قلوبهم إشفاقًا عليه من خصمه العتيد.

لكن المفاجأة جاءت مذهلة!

انتصر نديم هاشم بسرعة لم يتخيلها أحد، بادر بمهاجمة خصمه بعنف لم يتوقعه، تلقى لكماته في جلد من قرر أن يكون الفوز من نصيبه، وكال له اللكمات بلا تهور فجاءت كلها صائبة غير طائشة، صمد خصمه جولة وجولتين لكنه أعلن انسحابه في بداية الجولة الثالثة، فصافحه نديم في حرارة قائلًا له إنه ملاكم ممتاز.

ولقد فسر نديم هاشم ـ الذي أطلق عليه أصدقاؤه منذ تلك المباراة لقب قلب الأسد الذي لازمه وظل يلازمه حتى اليوم ـ سر انتصاره في تلك المباراة في جملة شديدة البساطة، وبلكنته المهذبة تلك قال:

«أنا اكتشفت إن كل اللي اتغلبوا قدامه، اتغلبوا لأنهم كانوا خايفين منه... وأنا في الحقيقة ما كنتش خايف!».

وكانت هذه الجملة بالذات هي سر نجاحه في كل العمليات الخطيرة ـ من اختطاف عبد الحميد السراج من سجن المزة إلى تدمير الحفار في أبيدجان ـ التي قام بها ببساطة موظف في دائرة حكومية يؤدي وظيفته الكتابية، والتي أذهلت العالم، وجعلته ـ فيما تلا ذلك من سنوات كانت حافلة بأخطر الأحداث ـ أشهر ضابط مخابرات في الشرق الأوسط على الإطلاق!

* * *

طال اللقاء الثاني بين نديم وعزيز لأكثر من أربع ساعات... اتفقا في اجتماعهما الأول على الخطوط العريضة لما كان المفروض أن يتم مع الفتى في اللقاء المرتقب... وعندما جلس كل منهما إلى الآخر في المرة الثانية كان موعد السفر قد تحدد، كما أرسلت برقية لاستدعاء

رأفت الهجان من تل أبيب... كان عليهما الآن أن يقتلا الأمر بحثًا وأن يدرسا أبسط التفاصيل. كان أول ما استقر عليه الرأي بينهما أن نديم لا بد أن يلتقي بالفتى وحدهما ودون وسيط، وما دامت المرحلة التي سيدخلها رأفت الهجان في الأيام القادمة مرحلة جديدة في كل شيء فلا بد أن يكون كل شيء فيها جديدًا، الوجوه والأماكن... وحتى الأسلوب!

غير أن الأمر الذي شغلهما أكثر من غيره، هو التأكد من أن الفتى في قدومه من إسرائيل إلى إيطاليا ليس مراقبًا أو متبوعًا بأي شكل من الأشكال، وإذا كانت مهمة نديم الأولى مع رأفت هي اختباره وسبر غوره ومعرفة حقيقة موقفه، فإن معرفة إذا ما كان الفتى على اتصال بأحد أو متبوعًا بشكل ما سوف تساعد بالقطع على استجلاء الحقيقة... ولذلك، فلقد اتخذ عزيز الجبالي قراره بالسفر إلى إيطاليا كي يرى الفتى أولًا ـ دون أن يراه الفتى أو حتى يشعر بوجوده ـ وأن يشترك بنفسه في تلك الخطة التي ستوضع في روما، لتسلم الفتى منذ هبوطه من الطائرة وحتى عودته إلى تل أبيب!

عندما هم نديم بالانصراف قدم له عزيز الجبالي رباط العنق هذا الذي وجده في ملف الفتى يوم التقى به لأول مرة ذات ليلة من ليالي يوليو الحارة... كان نديم ـ الآن ـ يستطيع التعرف على الفتى بعد أن انطبعت صورته في ذهنه تمامًا، لكن الفتى لن يطمئن إلى نديم، ولن يتعرف عليه إلا بوسيلة التعرف هذه... إذا ارتدى رباط العنق هذا... ثم تبادل معه حوارًا خاصًّا!

أمسك نديم هاشم برباط العنق وراح يتأمل ألوانه الصارخة وخطوطه المتشابكة التي تتداخل وتدور كي تكون في النهاية رسمًا لقارب صغير، ثم ما لبث أن تساءل:

«وده مين اللي يلبس كرافته بالشكل ده؟!».

ضحك عزيز هاتفًا:

«شوف انت بقى!».

مط نديم شفته السفلى كعادته كلما استغرق في التفكير، ثم قال بعد ثوان:

«النوع ده من الكرافتات ما يلبسوش إلا البحارة!».

«علشان كده انت حاتقابله في جنوا!».

قال عزيز هذا، فضحك نديم وهو يطوي رباط العنق كي يضعه في جيبه!

وكانت هذه هي نهاية الحوار الذي دام طوال تلك الساعات الأربع، وكان هذا إيذانًا بأن ينطلق عزيز الجبالي في وضع الرتوش الأخيرة لتلك الخطة التي اشترك نديم قلب الأسد في أدق تفاصيلها... والتي عكفا عليها كي يضعاها ويحكما وضعها!

* * *

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها ديفيد شارل سمحون إلى الخارج بالطبع، ولكن إستر بلينسكي بدت قلقة لسبب مجهول، لكنها كانت مستسلمة لسفره لعله يظفر بصفقة تقيلهم من عثرتهم المادية... كانت إستر هي الإنسان الوحيد الذي فضل البقاء إلى جواره، رغم كل الأعاصير التي تعرضت لها الشركة نتيجة لكساد سوق السياحة في إسرائيل... نعم، كانت إستر قلقة، وكان قلقها هذا يثير في نفسها الكثير من المخاوف التي راحت تتقاذفها حول علاقتها بديفيد... أما هو، على الوجه الآخر، فلقد كان مستغرقًا فيما كان فيه، لاهيًا عنها بتجهيز حقيبته الملقاة فوق الفراش فاغرة فاها لما يلقيه فيها من ملابس على عجل وفي إهمال من تعود مثل تلك السفرات، راحت إستر تلح عليه بالسؤال عن عدد الأيام التي سيبقاها في روما، ثم في جنوا، تطلب إليه

أن يتصل بها كلما رحل من مكان إلى مكان، ثم... ثم اشتد ضغطها عليه فالتفت نحوها صائحًا في نفاد صبر:

«ألا تكفين عن هذه الأفكار الصبيانية؟!».

تبرمت معترفة:

«حاولت فلم أستطع!».

«وماذا بعد؟!».

«أشعر أنك ذاهب هذه المرة كيلا تعود!».

اضطرب ديڤيد لما قالته إستر، ما الذي تعرفه هذه السيدة عن نواياه، هل استطاعت أن تنفذ إلى عقله وتقرأ أفكاره؟!... تقدم منها ملاطفًا:

«إستر!».

«ماذا لو طلب منك السيد سمحون أن تبقى إلى جواره؟!».

تنفس الصعداء، ابتسم:

«وما يدريك أني سأزور السيد سمحون؟».

«أليست جنوا قريبة من الحدود الفرنسية؟».

ضحك:

«وما يدريك أني سأقبل البقاء في فرنسا؟!».

«إن الحياة هناك أكثر رغدًا!».

«ثم ماذا؟!».

ارتمت بين ذراعيه مرتجفة:

«ديڤيد... هل تعود إليّ حقًّا؟!».

لم يعد باقيًا على موعد إقلاع الطائرة سوى ساعة وبعض الساعة، رفع إليه وجهها هامسًا:

«ألا تكفين عن غيرتك الحمقاء هذه؟!».

«لقد اعترفت لي أن ماجي تحبك!».

«كانت...».

«ألا تحرضك على البقاء في فرنسا؟».

«أتريدين إلغاء السفر؟».

انتفضت مبتعدة وهي تمسح دمعة فرت:

«لا... لا...».

هي تعلم أن الشركة في حاجة إلى مدد مالي سريع... وسواء حصل ديفيد على المال من الشركة السياحية التي أبرقت إليه أو من السيد سمحون فلا بد له من السفر... راحت تساعده في إعداد الحقيبة المفتوحة فوق الفراش، وعاد الفتى من جديد إلى الأفكار المتلاطمة في رأسه، والتي كان صخبها يعنف لحظة بعد لحظة وقد أيقظت حرارة هذه السيدة الصغيرة وشكوكها كوامن القلق في نفسه.... هو يعلم أنها على حق، فهو ذاهب هذه المرة كيلا يعود... أكدت له الأيام الماضية شكوكه، ظل بيخور شطريت على ابتعاده عنه، بل إنه لم يكلف نفسه عناء الاتصال به رغم علمه بسفره... هو الآن موقن من السبب الذي من أجله لم يقبضوا عليه، إنهم يعلمون أنهم هنا، في تل أبيب، لن يجدوا دليلًا واحدا يدينه... ولذلك، فلسوف يتركونه يسافر حتى يضعوا أيديهم عليه متلبسًا في الخارج... لكنه، لكنه لن يعود!

راح يتأمل إستر وهو يتساءل: هذه التي تبكي الآن من أجله، ألم تكن منذ أيام ليست كثيرة العدد ثائرة كوحش كاسر تطالب بإعدام جواسيس مصر؟!... فما الذي يمكن أن تفعله، وهي تذوب الآن فيه حبًا، إذا علمت أنه مصري لحمًا ودمًا... أي قدر هذا الذي كتب عليه؟!

زفر الفتى ـ رغمًا عنه ـ زفرة حارة فالتفتت نحوه إستر وقد انطلقت

نظراتها متساءلة. هرب منها إلى بعض من ملابسه يضعه في الحقيبة كيفما اتفق، مد يده إلى حمالة أربطة العنق فانتقى منها ثلاثة من بينها ذلك الرباط ذو الألوان الصاخبة والخطوط المتشابكة التي تتداخل وتدور كي تصنع في النهاية رسمًا لقارب صغير... جاءته صرختها فانتفض قلبه:

«ديڤيد!».

التفت نحوها، وما كاد يرد حتى اختطفت من يده رباط العنق صائحة في سخرية:

«طالما دهشت لاحتفاظك بمثل هذا الكرافت ذي الألوان السخيفة والذوق الفاسد!».

اضطرب الفتى بعنف... لِمَ انتبهت إستر إلى هذا الرباط دون الآخرين وقد كان موجودًا في دولابه منذ أن وصل إسرائيل؟!... هل تعلم هذه السيدة شيئًا؟!... غمغم جانحًا بالحوار إلى مسار آخر وهو يتصنع التذمر:

«ألا تكفين لحظة عن الغيرة؟».

صاحت ممازحة:

«لا بد أنها كانت فتاة ليل!».

«بل مليونيرة».

قال هذا ضاحكًا بفتور، لكنه ما لبث أن أردف مغاضبًا:

«ثم إن هذه الألوان الفاسدة الذوق كانت ذات يوم موضة يرتديها كل رجال أوربا!».

أحست أنها أغضبته فاقتربت منه ملاطفة:

«لم أقصد إلى مضايقتك!».

راح يتأمل رباط العنق في استغراق، أراد لألوانه الصاخبة وخطوطه

المتشابكة أن تنطبع في ذهنه ولا تبرحه... داعبه خوف غامض فلقد خطر له خاطر رأى فيه مخرجًا مما هو فيه كما رأى فيه مغامرة غير مأمونة النتائج ولكن أين المفر؟!... أعاد إليها الرباط قائلًا:

«على كل، تستطيعين التخلص منه إن أردت!».

«ديفيد!».

«كان هذا هو آخر هدية قدمتها لي ماجي».

«ألهذا كنت تريد أن تأخذه معك؟!».

«لاحظي أنها أختي!».

هتفت ساخرة:

«أختك؟!».

احتدم مواجهًا إياها:

«وأني لست ذاهبًا إلى فرنسا!».

«وما يدريني؟».

«هل نسيت أني أحمل اسم أبيها يا إستر؟».

همت بالرد، فأردف وهو يغلق الحقيبة دون رباط العنق:

«وفوق ذلك، فنحن نعيش بنقوده حتى اليوم!».

كان يعرف أن ما قاله سوف ينفذ إلى قلبها كما كان يعلم أيضًا أنه يقامر... فلو أن السيد شارل سمحون، أو إحدى ابنتيه، قد ظهر الآن في أي مكان في العالم، لانكشف أمره... انقطعت عنه أخبارهم منذ انقطع محسن ممتاز، أرسل إليهم بدل الخطاب خطابات ولم يأته رد بطبيعة الحال، فلقد كان يرسل إليهم خطاباته من أوربا إلى مصر، ولم يكن ممكنًا أن يكتب لهم عنوانه في إسرائيل... قال له محسن في آخر لقاء معه إن الرجل ينوي الهجرة إلى فرنسا، وهو كلما سافر إلى فرنسا

تقصى وبحث دون جدوى... عندما طلب من وطنه مددًا ماليًا أرسلوه له على نفس البنك الذي أعطاه شارل سمحون الشيك محولًا إليه حتى تبدو الأمور طبيعية، لكنه كان في حاجة إلى مصدر للمال يوحي به حتى لإستر التي كانت تعلم بحكم وظيفتها كل شيء عن الشركة، قص عليها حكايته مع شارل سمحون وادعى أنه أمده بالمال... لكنه كلما سأل رجلًا من الرجال عن الرجل المفقود لم يجد جوابًا... فهل يعلم القادم الجديد، ذلك الذي سيتعرف عليه من رباط عنق صارخ الألوان متشابك الخطوط، شيئًا عن السيد شارل سمحون وعائلته؟

اضطربت أفكاره اضطرابًا عنيفًا، فكر في كل شيء وتساءل بينه وبين نفسه: لم يسأل عن السيد شارل سمحون وهو لن يعود إلى تل أبيب ولن يكون في حاجة إلى أن يبرر شيئًا بعد الآن؟... حمل الحقيبة وهم بالحركة فاقتربت منه إستر لكنه بادرها:

«تخلصي من هذا الكرافت يا إستر!».

ضمته إليها في حنان وقد ظنت أنه قال هذا إرضاء لها... تخلص منها وهو ينظر في ساعة يده، فقد أزف موعد الطائرة، وكان لا بد له من مغادرة البيت إلى المطار... ثم، ثم إلى حيث لا يدري!

الفصل السابع

الضيَاع في مَدينة صَاخبة

جاوزت الساعة منتصف الليل عندما ودعت السيدة هيلين سمحون عزيز الجبالي... كانا قد انتقلا من الشرفة إلى بهو الڤيلا الداخلي منذ ما يقرب من ساعتين بعد أن انخفضت درجة الحرارة في الخارج... ولقد توقف عزيز الجبالي عن الحديث عندما لمح في عيني فراو سمحون طبقة رقيقة وحائرة من الدمع في عينيها، ساد الصمت لفترة نظر بعدها في ساعة يده، فابتسمت، ولم يملك الرجل إلا أن يبادلها الابتسام فقالت:

«يكفي أن تنظر في ساعة يدك حتى أعرف أنك انتويت التوقف عن الحديث!».

«لقد جاوزت الساعة منتصف الليل، وآن لك أن تحصلي على قليل من الراحة!».

ضحكت السيدة سمحون قائلة:

«وآن لك أن تعود إلى زوجتك!».

«نعم يا سيدتي ولكن... ليس قبل أن أنتهي من بعض الأعمال المتأخرة!».

أحست هيلين بالحرج، كان معنى كلامه أنه سيغادرها إلى مكتبه وليس إلى بيته، أدركت في لحظة أنها تأخذ من هذا الرجل وقتًا ثمينًا قد يكون بيته في حاجة إليه، وقد تكون بلاده في حاجة أكثر، برقت عيناها وبدت حائرة، أرادت أن تقول شيئًا لكنها لم تعرف ما هو... أحس عزيز بما يعتمل في نفسها فابتسم ملطفًا من سخف الموقف قائلًا:

«على كل فإن زوجتي لم تعد تتقن هذه الأيـام شيئًا أكثر من الصبر!!».

«معها كل الحق».

قالتها هيلين سمحون في حرارة حقيقية فهتف بها عزيز مدافعًا:

«قبل الزواج أخبرتها بكل شيء، وكان هذا من اختيارها المطلق!».

همت هيلين بالحديث لكنه استطرد:

«وعليها أن تتحمل مسئولية اختيارها».

ساد الصمت وكان كل منهما يقف قبالة الآخر وسرعان ما قالت هيلين سمحون وكأنها تعيد الأمور إلى نصابها:

«لقد عاش رأفت لسنوات طويلة لم يعرف فيها المعنى الحقيقي للنوم!».

«لكنني أستطيع أن أؤكد لك يا سيدتي أنه عرفه يوم تعرف عليك!».

اندفعت الدموع إلى عينيها بلا مواراة، فغمغم عزيز:

«وعلى كل، فلكل منا قدره!».

سارت هيلين معه نحو الباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة... قالت:

«غير أنه يبقى سؤال يحيرني حقا هر جبالي!».

توقف عزيز ملتفتًا نحوها رافعًا حاجبيه في تساؤل فأردفت:

«كيف عرفت كل هذه التفاصيل عن حياته وقد كان يفصل بينكما جدار سميك من السرية والأميال معًا... فوق أنك لم تلتق به مرة واحدة كما تقول؟!».

«إن الحديث عن هذا قد يطول، لكننا نستطيع أن نلخصه في شيء واحد!».

«ما هو؟».

«لقد تعوّد نديم هاشم، الذي اكتسب ثقة الفتى منذ أول لقاء، ثم أصبح صديقًا حميمًا له بعد ذلك، أن يجلس إليه وفيما بينهما جهاز تسجيل صغير... ثم يتركه يحكي عن نفسه وحياته وذكرياته ومخاوفه وآماله، كل ما يريد، وكل ما يعن له، وكل ما يخطر بباله بلا قيود!».

ابتسمت هيلين سمحون ابتسامة ذات مغزى، فلما سألها عزيز عن سر ابتسامتها أجابت:

«كنت أعلم أنك تملك ردًّا مقنعًا على كل سؤال قد يطرح عليك!».

«إلى اللقاء في الغد إذن!».

«إلى اللقاء يا سيدي!».

* * *

كان نديم هاشم وهو يستعد لصعود الطائرة المتجهة إلى روما لمقابلة الفتى لأول مرة، متوترًا أشد ما يكون التوتر، راح يعيد حساباته مرة بعد مرة، ويُسمِّع لنفسه تلك الخطة التي وضعها مع عزيز الجبالي كأي تلميذ يستعد لدخول الامتحان ـ هذه كلماته بالتحديد! ـ ولم يكن السبب في توتره أن هذه كانت المرة الأولى التي يقوم فيها بتدريب أو تلقين واحد من الأصدقاء، مستخدمًا شخصيته وقامته الفارهة وكلماته

المنتقاة وقدرته على التعامل مع أنماط متباينة من البشر... ولكن السبب كان يكمن في أن كل الذين دربهم أو لقنهم من قبل كانوا زوارًا لإسرائيل وليسوا مقيمين فيها، كان يدربهم في بلادهم وفي أمان كامل، وما كان التدريب والتلقين إلا لتلك السفرات القصيرة التي كانوا يقومون بها بين الحين والحين عندما يطلب من أحدهم أن يحصل على معلومة معينة، أو يكتشف سرًا ما... أما الفتى فكان له وضع آخر، فهو أولًا يعيش في داخل إسرائيل ويحيا حياته كأي مواطن إسرائيلي صالح... ودون شك، كان معروفًا في مجتمع تل أبيب كواحد من مناضلي الصهيونية القدامى... ولذلك فإن اللقاء به في الخارج، وفي إيطاليا بالذات، حيث يوجد ضابط المخابرات الإسرائيلي «ميخائيل باريهودا» كان محفوفًا بالمخاطر!

قال نديم هاشم وهو يتذكر تلك الأيام من عام ١٩٥٨:

«بالتأكيد أنا كنت باحسب لنفسي كل خطوة باخطيها، وكل كلمة حاقولها لديڤيد ـ لم ينطق نديم وهو يتحدث عن الفتى، وعلى مدى ساعات طالت، اسم «رأفت» أبدًا ـ لأن دي كانت أول عملية في حياتى أقوم بها مع شخص عايش داخل إسرائيل، اللي ماكنتش أعرف عن مجتمعها كتير في الوقت ده!».

كان نديم صادقًا فيما قاله تمامًا، فهو ـ في تلك السنوات ـ لم يكن يعرف الكثير عن المجتمع الإسرائيلي، وكان إذا ما التقى بواحد من هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا يزورون إسرائيل، طلب منه أن يحكي له عن هذا المجتمع، وكانوا يقولون ويحكون بل ويحللون... لكنها جميعًا بدت له حكايات وتحليلات عابري سبيل، لا تطفئ عطشًا، ولا تشبع جوعًا!

وقبل أن يتسلم عزيز الجبالي تلك الملفات بما يقرب من عام، كان نديم هاشم قد اطلع عليها في محاولة للدراسة، ففي تلك الأيام لم يكن أمامه ـ كي يعرف ويتعلم ـ سوى القراءة، قراءة كل ما يمت إلى الخدمة

السرية بصلة... قرأ الكتب العلمية الجافة بنفس النهم الذي التهم به الروايات الخيالية منها، وكان أكثر نهمًا لقراءة تلك العمليات التي فشلت، وأسباب فشلها الخفية والمعلنة... وفي كل هذا، كان يبحث دائمًا عن دور اليهود فيها، ذلك أنه اكتشف أن كل عمليات الخدمة السرية سواء في الشرق أو الغرب كان اليهود هم القاسم المشترك الأعظم فيها... يحكي التاريخ عن هذه الظاهرة قصصًا بلا نهاية، وكلما قرأ نديم عن هؤلاء وعن الأدوار التي لعبوها منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا يتساءل: ما هي إسرائيل إذن؟!

كم تمنى لو أنه استطاع أن يخترق هذه الدولة وأن يتعرف على تركيبة مجتمعها الاقتصادية والسياسية والنفسية والعرقية أيضًا... كان مقتنعًا ـ من دروس التاريخ ـ أن اليهودي ارتكز في كل العصور على دعامتين متناقضتين... الدعامة الأولى: هي انتماؤه لقضية بعينها، هي قضية أنه يهودي!! أما الثانية فهي: حبه الشديد للمال!

وإذا كانت الدعامتان متناقضتين على المستوى المثالي ـ المبدأ والمال ـ فلا بد أن يحمل المجتمع الإسرائيلي هذا التناقض، بل يصبح من المستحيل ألا يحمله!

كان نديم تواقًا لمعرفة هذا المجتمع من الداخل، ورؤية هذا التناقض رؤية حسية ـ إن صح التعبير ـ وها هي الفرصة تأتيه كما لم يتخيل، ففوق إحساسه بأن هذه العملية تبدو له من الناحية النظرية نموذجية بكل المقاييس، فإنه من خلال رأفت يستطيع الآن أن يلمس المجتمع الإسرائيلي ويتعرف عليه!

كان الآن في طريقه إلى لقاء الفتى، وهو مستعد لذلك... ولكن، ثمة مشكلة أخرى كانت تحتل جزءًا من تفكيره منذ أن عرف بموعد سفره إلى إيطاليا، وبالرغم من أن عزيزًا كان قد سبقه إلى روما لتدبير أمر هذه المشكلة مع حسن القطان ـ رجلنا في روما ـ فإن وجود ضابط

المخابرات الإسرائيلي «ميخائيل باريهودا» في إيطاليا، كان يشكل نوعًا من الخطر يجب الاحتراس منه!

«لم نستطع الوصول إلى الاسم الحقيقي لهذا الضابط الإسرائيلي، إن لم يكن هذا هو اسمه بالفعل... كما أننا لم نستطع معرفة السبب في أن يطلق الرجل على نفسه اسم «ميخائيل» وهو اسم مسيحي... غير أن التعليل الوحيد الذي نملكه لهذا الموضوع هو أن ضباط المخابرات الإسرائيلية تعودوا أن يطلقوا على أنفسهم أسماء عربية، سواء أكانت إسلامية أو مسيحية أو مشتركة بين الأديان الثلاثة، مع ملاحظة أن اسم «ميخائيل» هذا هو الاسم العربي لاسم «مايكل» الإنجليزي أو «ميشيل» الفرنسي!!».

كان «ميخائيل باريهودا» هذا واحـدًا من أكثر ضباط الموساد كفاءة وتدريبًا.. وكان يرأس ما يمكن أن نطلق عليه «محطة التجسس الإسرائيلية في أوربا» ومركزها روما في ذلك الوقت... أكثر ما كان يميز السيد باريهودا هو طوله الذي يصل ١٨٦ سنتيمترًا تقريبًا، وطريقة سيره اللافتة للنظر، والتي كان يلقي فيها بساقيه إلى الأمام في خطوات شديدة الاتساع... هو أحمر الشعر أجعده شأنه شأن الأسكتلنديين، اشتهر بذكائه الشديد، خاصة في تلك العمليات التي كان عملاؤه المنتشرون في طول أوربا وعرضها يحاولون فيها تجنيد الشباب العربي للعمل ضد بلادهم بطرق مبتكرة، ما أن اكتشفها ذلك الجيل من الرواد الأول في المخابرات العامة المصرية، حتى اشتعلت الحرب فيما بينهم اشتعالا جعل من وجود أي واحد منهم في روما بالذات علامة خطر يشحذ لها السيد «باريهودا» كل أسلحته... وربما هذا هو السبب في اختيار جنوا مكانا للقاء الفتى بنديم هاشم الذي لم يكن معروفًا في ذلك الوقت للمخابرات الإسرائيلية، وأيضًا في القرار الذي اتخذه عزيز الجبالي ـ الذي كان هو الآخر وجها جديدا بكل المقاييس ـ بالسفر إلى روما

لتأمين الفتى من ناحية والاشتراك في مواجهة «ميخائيل باريهودا» لو استدعى الأمر!

* * *

كان مطار «شامبينو» ـ القديم ـ في روما مزدحمًا بالمستقبلين عندما وصلته طائرة شركة العال الإسرائيلية القادمة من تل أبيب... فقبل وصول الطائرة بدقائق، هبطت طائرتان أخريان تابعتان لدولتين مختلفتين إلى المطار، فازدحمت صالة الوصول بالوافدين إلى العاصمة الإيطالية... ووسط القادمين من تل أبيب كان رأفت الهجان يخطو في ثقة من يعرف قدر نفسه، لكن رأسه كان مشحونًا بالأفكار، فهو يعلم أن عليه أن يبقى في روما ليومين كاملين حتى يطمئن تمامًا على سلامته... ثم يستقل القطار ـ إن كان كل شيء على ما يرام ـ في صباح اليوم الثالث إلى جنوا، وهناك عليه أن ينتظر... فقط ينتظر ولا شيء سوى الانتظار حتى يلتقي به رجل يرتدي رباط عنق صارخ الألوان متشابك الخطوط التي تتداخل وتدور كلها كي تصنع في النهاية رسمًا لقارب صغير.

ووسط المستقبلين في المطار وقف عزيز الجبالي ونديم قلب الأسد... لم يكونا متجاورين طبعًا، بل كان كل منهما يقف بعيدًا عن الآخر في زاوية تتيح له رؤية كل القادمين والمستقبلين على السواء، أكثر ما كان يميزهما أنهما لم يكونا مميزين بأي حال من الأحوال، وبينما كان أحدهما ـ نديم هاشم ـ يبدو بملابسه ولون بشرته أنه واحد من شباب الجنوب الإيطالي الأشداء، كانت هيئة الآخر ـ عزيز الجبالي ـ تكاد تصرخ بأنه واحد من موظفي إحدى الشركات الإيطالية الكبرى.

كان رأس كل منهما يشتعل بالأفكار وصورة الفتى محفورة في ذهنيهما... وعلى كل، فلم يطل بهما الانتظار... فسرعان ما هل الفتى قادمًا نحوهما، فاختطف كل منهما من الآخر نظرة سريعة، وكأنه يقول لصاحبه: «هو ده!».

اعترف عزيز الجبالي بعد سنوات طويلة بأن قلبه في تلك اللحظات كان يخفق بعنف، الإحساس الصارخ الذي سيطر عليه، ولا يزال حتى الآن، هو أنه كان يعرف هذا الفتى من قبل معرفة وثيقة، كان يعرفه... في زمن ما... شيء غريب هذا الذي أحس به ضابط المخابرات الشاب الذي راح يمتص كل حركة من حركات الفتى، وكل خطوة من خطواته الرشيقة التي كانت تحمله إلى الخارج.

* * *

كان الشاب الذي رآه كل منهما لأول مرة في مطار روما: متوسط الطول، نحيف الجسد، دقيق التكوين، قمحي اللون... شديد الأناقة!

اختار الفتى فندقًا تعود النزول فيه كلما جاء إلى روما... منذ أن وضع قدمه على أرض إيطاليا اجتاحه هذا الإحساس بالراحة الغامرة التي كانت تجتاحه كلما غادر إسرائيل، لكن هذا الإحساس لم يمنعه من مراقبة كل ما يحيط به لتأمين نفسه والتيقن من أن كل شيء على ما يرام... استقبله موظفو الفندق بترحاب وود، قبل أن يصعد إلى غرفته تسكع في بهو الفندق قليلًا وألقى بنظرة هنا ونظرة هناك، لم يغادره إحساسه بالخطر رغم وجوده خارج إسرائيل، عندما اطمأن تمامًا صعد إلى غرفته، ما أن استقر به المقام فيها، حتى أجرى مكالمة تليفونية مع شركة السياحة التي أرسلت لاستدعائه إلى جنوا، كان يعلم أن رقم التليفون قد لا يكون لشركة سياحة وقد يكون... يستوي الأمران، قال لمحدثه إن البرقية وصلته وأنه سيكون في جنوا بعد يومين، انتظر أن يتلقى ردًا، أي رد، لكنه فوجئ بالموظف المسئول يتحدث إليه في التفاصيل، في عدد الأفواج، وعدد كل فوج وإمكانات شركته وقدرتها على استيعاب هذا العدد من السائحين والأماكن التي سيزورونها... و... و... ولم يكن أمامه سوى الرد والمناقشة... أثلج صدره أن الحرص عليه وتأمينه وصلا بالرجال في مصر إلى هذا الحد الذي لو

كان هناك من ينصت إلى المكالمة لما شك لحظة في أنها حقيقية، أعاد السماعة إلى مكانها دهشًا لكنه كان سعيدًا... وهكذا اختطف السماعة مرة أخرى في نشاط كي يجري مكالمة طال الشوق إليها... أمامه الآن يومان بلا عمل لا بد أن يعيشهما طليقًا... أجرى المكالمة الموعودة وكانت مع فتاة إيطالية اسمها «لاورا»، ما أن سمعت صوته حتى تعرفت عليه فجاءه صوتها مزغردًا مرحبًا، قالت إنها ستلغي كل مواعيدها كي تلتقي به... ضرب لها موعدًا وأعاد السماعة وراح يفكر فيمن عساه أن يلتقي به مرتديًا رباط عنق صارخ الألوان متشابك الخطوط... استعاد في ذهنه صورة رباط العنق الذي تركه وراءه في إسرائيل، طاف بخياله ما سوف يلقاه ـ كالعادة ـ من لوم ومؤاخذة... هز كتفيه في لا مبالاة من طرح الأمر نهائيًا عن كاهله... تذكر شريفة أخته فجرفه الحنين إلى ذلك المحيط الصاخب من العواطف الذي يصطرع في وجدانه كلما غادر إسرائيل... ثلاث سنوات مضت دون أن يرى شريفة وطارق ودون أن يعرف عنهما أو يعرفا عنه شيئًا... شريط الذكريات يفرض نفسه عليه فرضًا وما زال صوت شريفة حيًا في ذاكرته في لقائهما الأخير: «إنت مخبي عني إيه يا رأفت؟»... كان يخفى عنها مجهولًا أصبح اليوم حياة كاملة، حياة تسير به فوق نصل سيف باتر، طريق عرضه شعرة، وآه لو أنه لم يحسن السير، آه لو سقط... ترى ما الذي ستفعله شريفة لو علمت أنه مات؟

واغرورقت عيناه بالدموع، وأصبح تصميمه على العودة إلى مصر أكثر رسوخًا في نفسه!!

* * *

حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة، كان عزيز الجبالي ونديم هاشم يجلسان إلى «حسن القطان» ـ رجلنا في روما في ذلك الوقت ـ وهما يراجعان معه خطة مراقبة الفتى وتأمينه!

كانا قد التقيا بحسن لقاءً سريًّا محسوبًا بدقة فائقة وبعيدًا عن مكان عمله أو حتى الأماكن التي يتردد عليها... طرح حسن عليهما ظنه بأن «باريهودا» بدأ يشك في أنه ضابط مخابرات... راح يضحك وهو يحكي لهما بعض النوادر والألاعيب بينهما... وفي حقيقة الأمر، فإن حسن القطان عندما تلقى تلك الرسالة الفائقة السرية التي وردت إليه من القاهرة، أدرك على الفور أن عليه أن يتحرك في سرعة شديدة ودقة محكمة... هو يعلم أن ميخائيل باريهودا بدأ في وضع العيون من حوله ورصد كل تحركاته... وعلى هذا، فلقد رأى أنه لا بد أن يبعد نظر هذا الثعلب الإسرائيلي الأحمر الشعر عما هو قادم إليه من مهام... فما كان منه إلا أن أجرى اتصالين سريين مع اثنين من الشباب الإيطالي كانا معروفين بأنهما يعملان لحساب المخابرات المصرية هما: «ماريو ألبيني» و«دوبيني فليتسي» ـ هذه الأسماء حقيقية وليست مستعارة! ـ في هذين الاتصالين اللذين تما بأسلوب سري، كان حسن يرصد بدقة عملاء السيد باريهودا وهم يلاحقونه من مكان إلى مكان، كما أنه عهد إلى كل منهما بمهمة في غاية السرية... اتفق مع سنيور «ماريو ألبيني» أن يجري بعض الاتصالات، التي يجب أن تتم في سرية بالغة ـ !! ـ في أنحاء متفرقة من روما وداخل مدينة الفاتيكان... وهكذا راح السنيور «ألبيني» يتحرك، وعلى مدى أسبوع كامل، حركة سريعة ومعقدة ومتشابكة أنهكت قوى عملاء السيد باريهودا... أما السنيور «دوبيني فليتسي» فلقد طلب منه أن يسافر بالسيارة إلى ميناء نابولي في الجنوب، وأن ينتظر وصول سفينة معينة كي يتسلم رسالة من بحار حددت له أوصافه وما سوف يرتديه في دقة بالغة، كما حدد له حوار التعارف الذي كان لا بد أن يدور بينهما قبل أن يتسلم الرسالة، أكد عليه حسن القطان ألا ينتظر وصول السفينة لأكثر من أسبوع، فإن لم تصل، فعليه أن يستقل سيارته إلى ميناء «لوفورنو» في شمال نابولي، وأن يجري هناك اتصالًا تليفونيًّا معينًا مع إحدى شركات الملاحة، كي يسافر في اليوم التالي إلى مدينة «بيزا» السياحية والشهيرة

ببرجها المائل... وهناك، وفي الحديقة المحيطة ببرج بيزا المائل، عليه أن يجلس على مقعد معين في ساعة محددة مرتديًا نظارة شمسية وفي يده أحد أعداد مجلة إيطالية شهيرة... وهنالك سوف يأتيه حامل الرسالة كي يسلمها إليه بعد حوار تعارف حدد له!

قبل وصول عزيز إلى روما بيومين، بدأت تلك الحركة الغريبة التي ألهبت خيال السيد باريهودا بالفعل... ولقد كان حسن القطان يعرف مثلا أن سنيور فليتسي سينتظر السفينة في نابولي لكنها لن تصل، لكنه سوف يتسلم بالتأكيد رسالة في الحديقة المحيطة ببرج «بيزا» المائل بعد ثمانية أيام كانت كافية لكي تبعد أنظار باريهودا وعملائه عما كان يتم من أجل الفتى ومن حوله بالفعل!

حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة التي وصل فيها الفتى إلى روما، كان عزيز الجبالي ونديم هاشم يجلسان إلى هذا الثعلب المهذب الأسلوب المنمق الكلمات والمسمى بحسن القطان... أثناء الجلسة جاءتهم الأنباء بأن كل الدلائل تشير إلى أن الفتى غير متبوع أو مراقب حتى في الفندق الذي ينزل فيه، حيث كان يعامل معاملة الضيف صاحب المكانة الخاصة... وكان هذا كافيًا لبث الطمأنينة في أنفسهم!... غادرهم حسن القطان، فاستغرقا بعد ذلك في مناقشة ما يحتاج إليه الفتى.

* * *

بداية... كان مطلوبًا أن توضع قدم رأفت الهجان على أول الطريق ـ علميًّا ـ المؤدي إلى هذا البحر الزاخر بالمعارف والأساليب والألاعيب أيضًا!

كان على الفتى مثلًا أن يتعلم كيف تكون «الإثارة».

و«الإثارة» وحدها علم كامل تنمو حدوده وتتكشف دهاليزه وتتشعب وتتعقد وتتسع يومًا بعد يوم!

«الإثارة» هي علم الحصول على المعلومات بوضع من تريد منه البوح بما لديه من معارف أو أسرار في حالة نفسية تدفعه دفعًا إلى الحديث والبوح بما لديه دون أن تطلب منه ذلك، أو حتى تشير ولو من بعيد إلى ما تريد أن تعرفه!

«الإثارة» لها طرق وأساليب متعددة ومتشابكة ومتوقفة على شخصية المراد إثارته... ورغم هذا، فلم تكن هي وحدها المطلوب تلقين الفتى أسرارها... فإذا كان رأفت الهجان يعيش في إسرائيل منذ ثلاثة أعوام، فلا بد ـ كأمر طبيعي يضاف إليه شخصية الفتى الجذابة وقدرته على اكتساب المعارف والأصدقاء ـ أن يكون قد صنع لنفسه محيطًا أو مجتمعًا يتحرك فيه بحرية وثقة... ثم، إذا كان رأفت الهجان يمارس حياته ـ الآن ـ داخل إسرائيل ببساطة وبعيدًا عن ضغوط الخوف والترقب والحذر التي تلازم من يقوم بنشاط فعال... فإنه قد آن الأوان كي يمارس تجنيد العملاء القادرين على إمداده بالمعلومات المطلوبة، أو سوف تطلب في المستقبل.

فوق هذا وذاك، كان على نديم هاشم أن يلقنه أساليب التأمين ـ تأمين نفسه ـ الحديثة، حتى يتأكد أنه غير متبوع أو مراقب... فتلك الأساليب التي تعلمها الفتى منذ ثلاث سنوات في القاهرة، أصبحت الآن أساليب عتيقة ومعرضة للكشف بأبسط الوسائل!

كان لا بد من تلقين الفتى عشرات التفاصيل في تركيز سوف يصيبه ـ حتمًا ـ بالتعب والإرهاق ومن ثم بالتذمر ـ إن لم يكن قد جاء من إسرائيل متذمرًا بالفعل ـ فلا بد من إحكام السيطرة عليه، كي يتم تلقينه كل هذا في أقصر مدة ممكنة، وحتى لا تطول فترة إقامته خارج إسرائيل فيلفت إليه أنظار المحيطين به!

باختصار... كان المطلوب أن يعد الفتى إعدادًا علميًا كافيًا ـ كمرحلة

أولى - في فترة يجب ألا تتعدى عشرة الأيام، كي يمارس الدور الذي من أجله أرسل إلى إسرائيل، وبأعلى كفاءة ممكنة!

* * *

في عصر اليوم التالي دعا نديم عزيزًا إلى جلسة في مقهى «الدونيه»، فسأله عزيز:

«إيه الدونيه دي؟!».

ضحك نديم ضحكة بدت لزميله وصديقه غامضة بعض الشيء وهو يقول:

«إذا ما قعدتش في الدونيه، تبقى ما جيتش روما!».

أنبأت ملابسهما التي اختاراها عن أن أحدهما رياضي والآخر دون جوان، هبطا من السيارة التي استقلاها بعيدًا عن المقهى وراحا يتسكعان في الشارع أمام الفتارين وعلى النواصي وهما يرقبان المكان من حولهما بعيون شديدة اليقظة... بدا لهما كل شيء مطمئنًّا تمامًا، وكان عزيز - طوال الوقت - يبحث فيما حوله عن تفسير لضحكة نديم الغامضة. ولقد وجد التفسير وهما يقتربان من المقهى الذي بدا لهما، على البعد، مزدحمًا برواد في الداخل وحول الموائد المتناثرة على الرصيف تحت تلك المظلة الأنيقة التي اشتهرت بها مقاهي روما... عندما أصبحا على بعد خطوات من المقهى أحس عزيز بلكزة خفيفة في ذراعه، انطلقت بعدها نظراته تمسح كل الموائد والوجوه في سرعة حتى توقفت عند رأس أحمر الشعر أجعده، عرف على الفور أنه الآن أمام واحد من أعتى ضباط المخابرات الإسرائيلية، عرف في صاحب الرأس «ميخائيل باريهودا»، وكان له في المخابرات المصرية عدد لا بأس به من الصور... في لغة غريبة تفاهم عزيز مع نديم فاتجها مباشرة إلى المائدة المجاورة لضابط الموساد - التي تصادف أن كانت خالية - الذي كان يجلس مع شقراء

صناعية الشعر... بجواره احتسيا القهوة الإيطالية دون أن يتبادلا سوى كلمات متفرقة خافتة، ودون أن يلقي أحدهما بنظرة نحو ضابط الموساد الذي كان يجلس يكاد يكون ملاصقًا لهما غارقًا في اطمئنانه... حتى إذا كانت لحظة، برقت عيونهما وهما يحملقان في الشارع أمامهما، سرعان ما تبادلا نظرة خاطفة ثم عادا ببصريهما إلى الشارع من جديد... وأمامهما مباشرة، كان رأفت الهجان يعبر الطريق تتأبط ذراعه غادة إيطالية بديعة الحسن... بدا لهما بجسده الدقيق وأناقته المفرطة وملامحه المتناسقة، كنجم من نجوم السينما ذوي الطابع الخاص، مضى أمامهما في خطوه الرشيق، فراح كل منهما يتبعه ببصره من طرف خفي، حتى ذاب وسط الناس، فابتسما!

في تلك اللحظات، انشغل ذهن عزيز الجبالي بسؤال بدا له غريبًا ومخيفًا في نفس الوقت، فلو أن كل الأطراف الذين جمعتهم المصادفة في هذا المكان قد عرفوا كل الأطراف، فما الذي كان يحدث؟!

* * *

في القطار المنطلق عبر السهول والأنفاق وسفوح الجبال من روما إلى جنوا، كان رأفت الهجان يحتل أحد مقاعد الدرجة الأولى... كان الديوان الذي اختاره خاليًا تمامًا، ولقد ظل خاليا إلى ما قبل قيام القطار بثوان، عندما ظهر عجوزان يهرولان على الرصيف كي يلحقا بالقطار الذي أزف موعد تحركه... ولقد بدا طبيعيًّا تمامًا اختيارهما لنفس الديوان الذي كان الفتى يحتل مقعدًا فيه، لا لأن بقية المقاعد كانت خالية فقط، ولكن لأن أحد موظفي المحطة تصادف وجوده أمام الديوان، وما أن وقعت عيناه على العجوزين المهرولين، حتى بادر بمساعدتهما وفتح باب الديوان الذي يطل على الرصيف مباشرة... ولقد شكره العجوزان اللذان ما أن احتلا مكانيهما حتى تحرك القطار!

وعلى كل، فهما لم يزعجا الفتى إطلاقًا، كانا قليلي الكلام رغم طول

المسافة، استغرق كل منهما في قراءة كتاب... لكن الغريب في الأمر أنه بالرغم من وقوف القطار على عدد لا بأس به من المحطات في الطريق فإن أحدًا منهما لم يغادره إلا في جنوا، كما أن أحدًا لم يصعد إلى الديوان غيرهما!

* * *

استغرق رأفت الهجان طوال الطريق فيما كان مقدمًا عليه، لم يقرأ كتابًا ولا صحيفة ولا مجلة، فقط... راح يدخن السيجارة تلو الأخرى... كان كلما أمعن في التفكير أحس أن قراره بالعودة إلى مصر لا بد وأن يكون نهائيًا، وكان الدمع يصعد إلى عينيه كلما تذكر شريفة... فقط كلما لاحت لذهنه ولو من بعيد!

وفي حقيقة الأمر... فلقد كان الفتى غافلًا عما يدور حوله... وإذا كان الرجال يعرفون عددا لا بأس به من عملاء ضابط المخابرات الإسرائيلي «ميخائيل باريهودا» بفضل بعض الشباب العرب الذين فضلوا أوطانهم على الخيانة - ومنهم الفنان المصري المعروف سمير الإسكندراني الذي كانت له جولة لا بأس بها مع ميخائيل نفسه - ورغم ما فعله حسن القطان لتشتيت اهتمام هذا الضابط الشديد الذكاء، فإن خبرًا غريبًا جاءهم قبل قيام قطار الفتى من روما إلى جنوا بما لا يزيد على الساعة، كان الخبر يقول إن واحدًا من هؤلاء العملاء قد ركب نفس القطار، بل نفس العربة التي يركبها الفتى!

ولم يكن هناك وقت، قد يكون الأمر مجرد مصادفة فكل ما قام به الرجال في اليومين السابقين كان يؤكد بما لا يدع مجالًا لأي شك أن الفتى آمن تمامًا، ولكن نسبة الشك ولو كانت واحدًا في كل مليون لا بد أن توضع في الحسبان... ولا أحد يدري كيف تلقى هذان العجوزان رسالة تليفونية تطالبهما بالسفر حالًا إلى جنوا، كما أننا لم نستطع أن نعرف أين كان نديم وعزيز في ذلك الوقت، وهل كانا في نفس القطار،

أم إنهما انتقلا إلى جنوا بالسيارة... وعلى كل، فإن النتيجة التي وضعت بين أيديهما في جنوا أن عميل السيد باريهودا قد غادر القطار في واحدة من محطتين قبل جنوا لم نستطع الوصول إليها بشكل يقيني.

وهكذا... غادر الفتى القطار في جنوا... وكان الجو مهيأ تمامًا لاستقباله.

* * *

وقع اختيار رأفت الهجان على أحد الفنادق القريبة من محطة السكة الحديدية... كان عليه الآن أن يفعل ما يشاء، ويذهب إلى أي مكان ويتحرك بملء حريته، حتى يتم الاتصال به في لحظة ما... وقبل أية جولة من جولاته تلك التي اعتادها في الموانئ والعواصم والمدن، كان لا بد له أن يجري اتصالاً مع شركة السياحة... فأجرى الاتصال الذي لم يدم أكثر من دقيقة، لكنه عندما أعاد السماعة إلى مكانها كانت دهشته شديدة بحق، بل لقد لعب الفأر في عبه وبدأت الشكوك تساوره من جديد... ذلك أنه فوجئ بأن الشركة على استعداد لاستقباله في أي وقت يشاء، ولم يكن أمامه سوى أن يحدد لهم موعدًا، فحدده بعد ساعتين... لكنه سرعان ما طرد شكوكه في حزم، ذلك أنه تيقن أنه هناك ـ في الشركة ـ لا بد أن يلتقي بمن يرتدي رباط العنق هذا ذا الألوان الصارخة والخطوط المتشابكة، التي تتداخل وتدور كي تصنع، في النهاية، رسمًا لقارب صغير، وأن عليه في هذه الحالة أن يناقشه بشكل طبيعي، وحسب مسار الحديث، حتى يضرب له هذا موعدًا ـ وسط المناقشة أو بأية وسيلة ـ وأن عليه أن يشحذ ذاكرته كي ينطبع فيها المكان والزمان تمامًا!

لكن المفاجأة التي حدثت له في الشركة كانت شديدة الوقع على نفسه، بل إنها أحيت شكوكه تلك التي راودته في الأيام الأخيرة في تل أبيب... فعندما ذهب إلى هناك في الموعد، التقى بموظف كان في انتظاره، وقاده الموظف إلى مدير الشركة الذي أحسن وفادته، ولم تأخذ

المناقشة وقتًا، بل إن الإجراءات النهائية بدأت تتخذ... جهزوا العقد وشيكًا ببضع مئات من الألوف من الليرات الإيطالية، وبعد نصف ساعة كان كل شيء قد تم. ولم يكن باقيًا سوى أن يمر على الشركة في الغد كي توضع الرتوش الأخيرة في العقد، ويضع توقيعه ويتسلم الشيك... حدث كل هذا دون أن يظهر رباط العنق الموعود ولا من يرتديه... نعم، كانت هناك صفقة، وصفقة مجزية تبدو كأنها الحل الأمثل لكل مشاكله المالية في تل أبيب... لكن الغرض من اللقاء، ومن إرسال البرقية أصلًا، لم يتم... فما الذي حدث؟!... أو... ما الذي يحدث؟

غادر الفتى الشركة ـ ولم يكن هناك ما يبرر بقاءه ـ إلى الطريق متوترًا... راحت الشكوك تنهش رأسه فأخذ يراجع كل الخطوات التي اتخذها منذ أن وصلت البرقية حتى لحظته تلك التي كان يضرب فيها على غير هدى في شوارع جنوا!

راح يتساءل بينه وبين نفسه إن كان هناك خطأ قد وقع فيه؟!

ولم يكن هناك خطأ، والبرقية التي أرسلت إليه في جيبه لحسن الحظ، كان قد راجعها مرة ومرة وهو في إسرائيل، وحل رموزها في كل مرة فجاءت الكلمات واضحة لا تنبئ بأي شيء غريب!

وهكذا وجد نفسه أمام موقف من اثنين: إما الإسرائيليين قد اكتشفوا أمره فافتعلوا تلك البرقية حتى يتبع كل الخطوات التي كان يتبعها إذا ما كانت مرسلة إليه من مصر، وأنهم يريدون التأكد تمامًا من خيانته لهم، حتى إذا قبضوا عليه وأنكر جاء إنكاره بلا جدوى...

وإما أن المصريين قد وصلوا إلى درجة من الدقة تبعث على الحيرة!

ذلك أنه كانت هناك خطوة قد بقيت أمامه، خطوة واحدة بدت له كالقشة يتعلق بها الغريق... هذه الخطوة هي أن ينتظر حتى يظهر ذلك الذي يرتدي رباط عنق صارخ الألوان.

لكن، حتى هذه الخطوة بدت له أملًا بعيد المنال، وبعيدًا عن التصديق أيضًا!

تقاذفته رياح الشكوك بلا رحمة، انقبض صدره فراح يتلفت حوله في قلق رغم أن أول الدروس التي لقنه إياها محسن كانت تحرم عليه أن يتلفت حوله مهما كانت شكوكه... إن من يفعل هذا ينطبق عليه قول القائل: يكاد المريب يقول خذوني... تمنى في لحظة أن يأخذوه ويعدموه وينتهي كل شيء وتنتهي تلك الحياة التي لم يعرف فيها سوى العذاب والألم والقلق... راح يضرب في الشوارع فاقد الحيلة ممزق الوجدان... انحدر به الطريق نحو الميناء فغسلت وجهه نسمة هواء ذكرته بالإسكندرية، اعتصر الشوق قلبه وتدافعت الذكريات كالطوفان لكن شيئًا واحدًا توقف مغروسًا في ذاكرته كالسكين يدميها... ولا يدري الفتى لم تذكر الرهوناتي اليهودي الذي تسبب في موت عمه كمدًا وإفلاسًا... اشتد انقباضه رغم أن الذكرى بعيدة موغلة في البعد فلم يكن يومها قد تعدى الخامسة من عمره... لاح له بيت عمه والشارع والسواد ودموع زوجة عمه وبكاء أولاده ووجه أبيه يقطر حزنًا على أخيه وهو يستمع إلى ما حدث... وكان الرهوناتي أمام الباب مباشرة في مواجهة البيت... دكان هائل له ثلاثة أبواب وفيه الآلاف من الأشياء وليس هناك سوى ذلك الرجل ذي الأنف المعقوف والوجه الطويل والحاجبين الكثيفين والناس تدخل إليه ذليلة وتخرج من لديه ذليلة... عبر النافذة تشير زوجة العم إلى المرابي قائلة: هو ده اللي قتله!... عندما عاد مع أبيه إلى القاهرة استمع إلى القصة مرة أخرى وأبوه يحكيها مختنق الصوت مرتجف النبرات وما لبث الرجل الهائل أن انكفأ ينهنه باكيًا أخاه الفقيد فكيف ينسى؟! كيف ينسى وهو يعيش وسط مليوني رهوناتي في إسرائيل؟! أي عمر هذا وأية حياة تلك؟!... حياة يخشى أن يغفو فيها لحظة، مجرد لحظة... حياة حرم عليه فيها الحب، صوت محسن بجرسه المحذر يأتي من عمق السنين: «أوعى تقع في الحب يا رأفت، ده أخطر

حاجة على حياتك!»... وهو... هو لا يحتاج ولا يشتاق ولم يطلب من هذه الدنيا سوى الحب... ثم يلقي به قدره إلى حيث يأكل ما لا يحب، ويشرب ما لا يريد، ويصادق من يكره، ويؤاخي عدوه!!

❁ ❁ ❁

توقف الفتى فجأة عن السير وهو يهز رأسه بعنف كمن ينفض عنه الشكوك، تلفت حوله وكان الآن يخوض في بحر من البشر، ابتسم وقد تعرف على المكان وتساءل ما الذي جاء به إلى هنا؟!... أنب نفسه قائلًا إنه لا بد أن ينتظر تلك الخطوة الباقية، لا بد أن ينتظر حتى يظهر من يرتدي رباط عنق صارخ الألوان متشابك الخطوط ويتوسطه رسم لقارب صغير، غير أنه ما كاد يتنفس الصعداء حتى واجه سؤالًا التف حول عنقه كالثعبان السام: فكم من الأيام سوف ينتظر؟!... وإذا انتظر ولم يظهر صاحب رباط العنق فماذا يفعل؟!... هل يعود إلى إسرائيل ويضع حبل المشنقة حول عنقه؟!... أم يعود إلى مصر وينجو بحياته؟!

❁ ❁ ❁

في كل موانئ الدنيا، شارع يمتد موازيًا لسور الميناء بكل تعرجاته وانحناءاته يطلق عليه البحارة ـ في كل الدنيا ـ اسم: شارع الفساد!!

هذا شارع يجد فيه البحار كل ما يريد وما لا يريد أيضًا، كل ما خطر بباله أو راوده في أحلامه وهو يجوب بحار العالم ومحيطاته معلقًا بين السماء والماء... هذا شارع يشتد فيه الصخب وتصرخ الألوان ولا تكف الموسيقى عن العزف ليل نهار في استقبال البحارة في كل وقت وأي وقت... هذا الشارع بالذات له في جنوا طابع فريد ومتميز!

الذين ارتادوا شارع الفساد في جنوا من البحارة يتندرون بأن من يسير فيه يشعر وكأنه لم يغادر سطح سفينته المتأرجحة فوق الأمواج... هو شارع يمتد بطول عدة كيلو مترات، تتلاطم الحياة فيه تلاطمًا عنيفًا،

ويشتد الصخب والهدوء معًا، يشعر من يسير فيه أنه يسير في كرة أرضية قد تجمعت فيها الأضواء والألوان والفتيات والفتيان والمقاهي والبارات والمطاعم ودور السينما والمسرح والألعاب والسمر والضحك والبكاء أيضًا... في هذا الشارع تجتمع، في كل يوم، وعلى مدار السنة، كل أجناس الأرض بكل لغاتهم وأشكالهم وحتى ألوان جلودهم، هناك لا يملك البحار سوى أن يلتهم الدنيا التهامًا وكأنه ماض عنها بلا عودة... في هذا الشارع كان رأفت الهجان يخوض وسط البشر وقد غربت الشمس وتلألأت الأضواء، أضناه الخوف ومزقته الشكوك فسعى إلى النسيان وكان لا يعرف إلى أين يذهب... كان في أشد الحاجة إلى أن يهدأ تمامًا كي يستطيع ترتيب أفكاره حتى يأخذ قرارًا لما هو قادم من أحداث... تشبث بالأمل وراح يتساءل: هل فعل المصريون هذا؟!... هل هم وراء صفقة شركة السياحة هذه بحيث يأتيه المال من مصدر علني وواضح؟!... هل قرءوا أخيرًا أفكاره كما كان يفعل محسن ممتاز فأرادوا إعادته إلى إسرائيل رضي أم أبى؟!... ولكن وقبل الإغراق في الأمل من أين لهم أن يصلوا إلى هذا المستوى من الأداء؟!... وإذا كان هذا كله صحيحًا فلِم لم يفعلوا هذا منذ ثلاث سنوات أضناه فيها التعب والقلق والتأنيب والمؤاخذة والاتهام بأنه كثير الطلب للمال؟!... مضت ساعتان كلت فيهما قدماه فتوقف، انتبه إلى أن أفكاره وقلقه وغضبه جرفته بعيدًا عن الحرص فلم يؤمن نفسه ولم يتأكد إن كان متبوعًا أم غير متبوع... برزت مخالب أمانه فدلف إلى أول باب صادفه، لا بد له الآن من الانتباه ومراقبة ما يحيطه بعيون يقظة، كان المكان مزدحمًا برواده وقد تكاثفت سحب الدخان في سمائه كما تكاثفت الصيحات والضحكات والموسيقى ورائحة الشوق المعربد للحياة... التقطته فور دخوله فتاة مليحة صاحت به في صوت متكسر النبرات:

«هل تريد احتساء القهوة!».

ربت على ذراعها في رفق قائلًا:

«إنما جئت إلى هنا لاحتساء شيء آخر يا فتاتي!».

همت بالإلحاح وكان يعرف كيف يوقفها، أزاحها عن طريقه ومضى إلى البار... هو يعرف أن احتساء القهوة اصطلاح لشيء آخر لم يكن الآن في حاجة إليه... طلب كأسًا ومسح المكان بعينيه فانطبعت وجوه الجالسين في ذهنه... دلف من الباب بحار ضخم الجثة يضع فوق رأسه طاقية زرقاء اللون ويرتدي بذلة متنافرة الألوان تنبئ عن ذوق شديد الفساد... أخذ البحار يترنح في سيره رغم محاولاته الواضحة للتماسك... بدا الفتى مشغولًا بمعاينة الوجوه المحيطة به، تعثر البحار في سيره لكنه استطاع أن يتمالك نفسه... شد قامته وهم بأن يتجشأ لكنه تراجع، خطا إلى الأمام لكن ساقيه ترنحتا نحو الفتى فاصطدم به دون قصد وكاد يسقط لولا أن سارع الفتى ـ بتلقائية ـ لمساعدته... سقط البحار على ركبتيه وكان محنيا نحو الأرض تضرب ذراعاه في الهواء على غير هدى فامتدت يدا الفتى إلى إبطيه كي يقيله من عثرته... تمالك الرجل نفسه وانتصب واقفًا بعد جهد فإذا رباط عنق صارخ الألوان متشابك الخطوط متداخل النقوش في وسطه رسم لقارب صغير يزين صدره... دق قلب الفتى في عنف أوجعه، كادت ملامحه تنبئ عن فرحة ودهشة لولا أن ضغطت على ذراعيه يدا البحار محذرة وهو يدمدم بكلمات اعتذار متلعثمة... قال وهو يتمايل في وقفته:

«ترى كم الساعة الآن؟!».

نظر الفتى في ساعته وكانت فرحته طاغية رد باسمًا:

«خمسة تحت الصفر!».

لوح البحار بذراعه في ملل وهو يقول:

«لا بد أن الجو شديد الحرارة!».

كان البحار يتلفت حوله بعينين بدتا للفتى وكأنهما عينا صقر تنفذان من عظام البشر، تحدث إليه بالإنجليزية فربت الفتى على ذراعه كما يحدث عادة... وكما يحدث عادة دعاه إلى كأس لكن الرجل المترنح اعتذر وهو يلقي إليه بعنوان كان على رأفت أن يشحذ كل قدراته على السمع كي يلتقطه وسط الضجيج والصخب والضحكات... ألح على البحار في الدعوة وكان معنى ذلك أنه يريد التأكد من العنوان، فقال الرجل بصوته المتلعثم إنه أفرط في الشراب ولا بد له من العودة إلى شارع جيوفاني آلدو رقم ٧٠٤ شقة ٩١٤ في السابعة من مساء الغد... ألقى البحار بالعنوان مرة أخرى في صوت نفذ إلى عقل الفتى ثم انسحب ملوحًا... عند الباب كاد يسقط مرة أخرى لولا أن التقطته إحدى الفتيات ضاحكة ولكنه لم يستجب، تركها وألقى بنفسه إلى الطريق!

* * *

قضى رأفت الهجان ليلة هادئة تمامًا... اعترف أن رؤيته لرباط العنق كانت مفاجأة لم يتوقعها، ثم لقاؤه الأول بنديم قلب الأسد بأسلوب أعاد إليه إعجابه القديم بقدرات محسن ممتاز... تأكد طوال الليلة أن كل شيء على ما يرام، عاد إلى ذهنه صفاؤه هذا الذي افتقده طويلًا... غادر المحل وعاد إلى الفندق سيرًا على الأقدام فازداد اطمئنانه، استغرق في النوم كطفل لا يشغل باله شيء... في الصباح كان ذهنه قد ازداد صفاء، ولذلك فلقد انتبه إلى شيء غاب عنه في دوامات الأمس، فلو أن كل شيء سار على ما يرام في شركة السياحة، فلسوف يصبح بقاؤه في جنوا بلا معنى... وعندما ذهب إلى الشركة حسب الموعد، وجد هناك بعض العقبات وبعض التعديلات مما سيقتضي منه البقاء لبضعة أيام قادمة... غادر الشركة راضي النفس فهكذا يجب أن تسير الأمور... في المساء التقى رأفت الهجان لأول مرة مع نديم هاشم وكان اللقاء بالنسبة إليه ـ وكما قال هو بعد ذلك ـ

غريبًا ومثيرًا في نفس الوقت... استمر اللقاء خمس ساعات كاملة، وعندما كان يغادر نديمًا على موعد آخر سأله سؤالًا كان يلح عليه منذ أن التقى به بالأمس بحارًا يترنح من السكر:

«إلا انت امبارح كنت سكران بصحيح؟!».

وأطلق نديم ضحكة صافية، جاءت من أعماقه تعبيرًا عن ارتياح بالغ.

الفصل الثامن

وداعًا إستر بلينسكي

كان لقاء الفتى بنديم قلب الأسد لقاء فريدًا في نوعه!

وبداية... لم يكن العنوان الذي ألقى به نديم إلى الفتى في ذلك المحل الصاخب في جنوا هو العنوان الحقيقي، بل... ربما لم يكن في جنوا كلها شارع باسم «جيوفاني آلدو» فلقد كان اسم الشارع ورقم البيت ورقم الشقة تخضع كلها لتلك العمليات الحسابية التي تعلمها الفتى، والتي قادته بالفعل إلى العنوان الحقيقي!

ذهب الفتى في الموعد تمامًا، وكان ذهابه أيضًا يخضع لعمليات أمنية مركبة ومعقدة، دار حول البيت، ثم عاد إلى الشارع، ثم دخل بيتًا آخر ثم خرج فجأة كمن أخطأ العنوان، حتى إذا اطمأن تمامًا، دلف إلى واحدة من تلك العمارات الشاهقة التي تطل على البحر في جنوا، صعد إلى طابق بالمصعد، ثم هبط أو صعد عن طريق السلم إلى طابق آخر، حتى إذا توقف أمام الباب، كان قلبه يخفق... لم يدق الجرس، بل دق الباب بأصبعه دقة واحدة، تبعتها فترة صمت طالت قليلًا، ثم دق دقة أخرى تبعتها دقتان متتاليتان... وهنا فتح الباب!

«أهلًا ديفيد!».

هكذا هتف نديم هاشم فور رؤيته للفتى الذي أُخذ فور سماعه لاسم ديڤيد، لاحظ نديم ما انتابه فابتسم وهو يصافحه في حرارة غير مصطنعة، ضغط على يده وهو يجذبه إلى الداخل في ود وأغلق الباب... أحس الفتى بقبضة نديم على يده قوية فاستجاب لها، وقف كل منهما تجاه الآخر في بهو الشقة الصغير، والذي كان ينتهي بشرفة تطل على البحر مباشرة... كانت الأضواء عادية تمامًا، لا هي بالخافتة ولا هي بالعالية، وفي جو المكان كانت تسبح موسيقى هادئة خافتة!

أشار نديم إلى مقعد قائلًا:

«ما تتفضل!».

لكن الفتى لم يجلس، كما أنه لم ينطق، أحس نديم أن في الأمر شيئًا فاستدار نحو مقصف صغير يواجه الشرفة وهو يسأل:

«تشرب ليمون؟».

«ليه ناديتني بديڤيد؟!».

كان صوت الفتى غاضبًا فالتفت إليه نديم باسمًا:

«لازم اسم رأفت وحشك؟!».

هكذا بدأ الحوار بينهما... وهكذا اقتحم نديم هاشم أول الحصون إلى قلب الفتى الذي صاح متذمرًا:

«مش كفاية عليّ اسم ديڤيد جوه إسرائيل؟!».

عاد إليه نديم بكأس الليمون متسائلًا:

«بالمناسبة... إيه الأخبار عندهم؟».

«مش لما اعرف أنا باكلم مين الأول».

«اسمي نديم هاشم!».

«ده اسمك الحقيقي؟».

«وهي تفرق معاك كثير؟».

«جدًّا!».

«اشمعنى؟!».

«لأني عاوز أرجع مصر!».

«وما له!!».

رفع نديم كأسه إلى شفتيه مغمغمًا:

«اشرب الليمون بتاعك!».

كان نديم الآن موقنًا من أنه مهد الطريق إلى حوار مثمر، فجر في نفس الفتى كوامن تمرده وغضبه وتذمره، وأصبح عليه بعد أن فعل ذلك أن يقوده بعيدًا عنها... وجهة نظره التي قادته إلى هذا الأسلوب في التعامل مع رأفت أن مثل هذا النوع من البشر ليس بسيطًا ولا يمكن أن يكون كذلك بأي معنى من المعاني... هذا رجل مغامر، أبسط ما يمكن أن يقال عنه إنه يغامر بحياته كلها في سبيل شيء ما، قد يكون مالًا، وقد يكون حبا، لكنه في حالة فتانا هذا هو المبدأ والعقيدة وحب الوطن... هذا النوع من البشر يتسم دائمًا بالعناد الشديد، يحتاج من يتعامل معه إلى عنصرين لا بد من توافرهما حتى يستطيع النفاذ إلى قلبه وعقله: هما الجد الشديد، والفهم الذي يقوده إلى تفاهم كامل ومطلق... هذا نوع من البشر يتميز بالاستهتار مع الوقاحة، يحيا حياته بجنون لأنه يشعر بتسربها من بين أصابعه كمن يقبض على حفنة من الماء... إنه يموت في كل لحظة، وليس بعد الموت شيء... وفي حالة الهجان ـ ولكل حالة مقوماتها الخاصة بها ـ كان نديم يرى من قراءاته النظرية ودراسته لملف الفتى، وحواره الذي دام لساعات مع عزيز الجبالي... أنه كثير التذمر، كثير الطلبات، لديه إحساس غامر بأنهم في حاجة ماسة إليه. وأنه كنز في يد المخابرات المصرية لا بد أن تحرص عليه أشد ما يكون الحرص.

جلس كل منهما تجاه الآخر صامتًا، حتى قطع الفتى حبل الصمت قائلًا:

«شوف يا سيد نديم... ...».

قبل أن يستطرد قال نديم:

«مش نتعرف على بعض الأول؟».

هم الفتى بالحديث لكن نديم أردف:

«بالمناسبة، السيد محسن ممتاز بيسلم عليك!».

انتفض الفتى بالشوق، ولم يغب هذا عن عين نديم المترصدة!

«إزيه؟ وإيه أخباره؟.... وهو فين دلوقت؟».

«مش هو بس اللي بيسلم عليك!».

ضم الفتى ما بين حاجبيه مائلًا برأسه في تساؤل فقال نديم:

«مصر كلها بتسلم عليك يا رأفت!».

وسقطت الكأس من يد الفتى فارتطمت بالمائدة وتحطمت، هتف نديم:

«أخذ الشر وراح!».

وراح رأفت يحملق في الرجل الجالس أمامه بدهشة، ولم يمهله نديم:

«وعلى فكرة... شريفة كويسة قوي، أنا قبل ما آجي كنت حريص إني أطمن عليها هي وطارق، اللي بقى طولك باسم الله ما شاء الله!».

صعدت الدموع إلى عيني رأفت الهجان فلم يحاول أن يخفيها، انزلقت من عينيه دمعتان انحدرتا في بطء على وجنتيه، ولكنه ظل جامدًا بلا حراك... نهض نديم من مكانه وراح يجمع بقايا الكأس المحطمة ويعد للفتى كأسًا آخر وهو يتحدث مثرثرًا:

«وجوزها اترقى وبقى عقيد ومسك مركز كويس قوي... أما إخواتك فكلهم بخير!».

«ومصر؟».

فوجئ نديم بالسؤال فاستدار إليه قائلًا:

«مصر بخير، بدأنا نبني البلد بعد اللي حصل في ١٩٥٦، والبركة فيك».

عندما قال نديم جملته الأخيرة، كان موقنًا بأنه أجهز على الفتى تمامًا، واجهه حاملًا إليه كأسًا آخر من الليمون فنهض رأفت ودمعه يتحدر على وجنتيه، مد يده إلى الكأس هامسًا:

«ممكن أطلب من سيادتك طلب؟».

«قوي!».

«احكي لي عن مصر شوية!».

أطلق نديم ضحكة تفجرت من أعماقه وهو يهتف:

«مش قبل انت ما تحكي لي عن إسرائيل!».

* * *

شرح نديم هاشم، بعد سنوات طويلة من هذا اللقاء، وجهة نظره كأستاذ في هذا العلم خاض حقوله الملغومة لسنوات تصل إلى ربع قرن من الزمان، قال: إن ضابط الخدمة السرية لا يستطيع أن يتقن عمله إن لم يكن مقتنعًا بقضيته، اكتشف مبكرًا ـ وأكدت الخبرة اكتشافه هذا ـ أن هؤلاء الذين استطاعوا تحقيق قدر من النجاح في هذا المجال كان دافعهم الأول والأساسي هو الإيمان بالقضية التي يدافعون عنها ويعملون من أجلها... قال إنه ليس كل إنسان يصلح لأن يكون ضابطًا في الخدمة السرية، كما إنه ليس كل إنسان يصلح لأن يكون لاعب كرة

قدم... ضابط الخدمة السرية لا بد أن تكون له مقومات خاصة، أهمها على الإطلاق... هي رغبته الأكيدة والصادقة في فهم من يتعامل معهم من الناس، خاصة إذا ما كانوا في موقع كموقع رأفت الهجان!

حاول نديم هاشم ـ قبل أن يلتقي بالفتى ـ أن يتعرف عليه، أن يضع نفسه في مكانه بالضبط كي يرى ما الذي يمكن أن يشعر به... أما الآن، وهو يجلس إليه وجهًا لوجه، فلقد كان حريصًا أشد ما يكون الحرص على أن يترك للفتى حرية أن يعبر عن نفسه تعبيرًا صادقًا، ذلك أن هذا التعبير الصادق هو المؤشر الحقيقي لتلك الشخصية التي لا بد أن تكون مركبة... وعلى ذلك، فلقد ترك رأفت حتى هدأت انفعالاته قليلًا، لم يحاول أن يقتحم عليه أفكاره وانفعالاته التي تفجرت بمجرد أن ذكر له اسم شقيقته وأبلغه تحية شعبه وناسه ووطنه!

رشف رأفت من كأسه رشفة رطبت شفتيه، ثم أشعل سيجارة وهو ينظر إلى نديم في امتنان لم يحاول أن يداريه... تنفس ملء صدره وهو يقول:

«كل ده حلو قوي... بس أنا تعبت لحد كده!».

ها هي بوادر التمرد تتقدم بجحافلها، اعتدل نديم مسددًا إليه نظراته قائلًا في استقامة:

«أنا عارف إنت تعبت قد إيه... وعارف كل اللي انت بتشتكي منه... بس علشان أعرف أكتر لازم تقول لي الأول إنت عايش في إسرائيل إزاي، وتحكي لي شوية عن المجتمع الإسرائيلي... وبالتأكيد إنت بقت عندك خبرة كبيرة أنا نفسي أتعلمها منك!».

جاءت جملة نديم الأخيرة مثل «نوك آوت» ـ ضربة قاضية ـ أجهزت على مقاومة الفتى الذي قال مستسلمًا:

«عاوز تعرف إيه؟».

«كل اللي انت عرفته!».

اعتدل الفتى في جلسته استعدادًا، لكنه قبل أن يبدأ الحديث فوجئ بنديم يقول:

«ممكن استأذنك في حاجة؟».

«اتفضل!».

«إيه رأيك لو سجلنا الكلام اللي انت حاتقوله؟!».

ابتسم الفتى فبادله الابتسام مردفًا:

«للتاريخ».

ولقد قال الفتى ضاحكًا بعد سنوات من هذا الحديث إن الأدب الشديد الذي تعامل به نديم معه، كان مشفوعًا بنظرات حاسمة جعلته يستجيب لكل ما يطلب منه هذا العملاق المفتول العضلات... وضع نديم جهاز التسجيل بينهما وتدفق الفتى في الحديث، راحت الأشرطة تمتلئ شريطًا بعد آخر، امتدت الجلسة لساعات فنهضا معًا إلى المطبخ وراحا يعدان عشاء خفيفًا، خلع الفتى جاكتته وشمر أكمام قميصه وأعادت له تلك الجلسة ذكريات جلساته مع محسن ممتاز، وكما أسلم رأفت قياده ذات يوم لمحسن بثقة لا حدود لها، أسلم اليوم قياده لنديم هاشم وهو يحكي أمام مسجل لا يبتعد عنه حتى لا تضيع من كلماته كلمة أو يفلت معنى... قص رأفت الهجان كل ما مر به منذ أن وطئت قدماه أرض إسرائيل وحتى يومه ذاك... حكى عن يوسف الأزرع المحامي وجدعون شاباتاي وإستر بلينسكي وإلياهو جادوسكي وبيخور شطريت ومجندات جيش الدفاع الإسرائيلي... حكى عن الهستدروت وما يدور في غرفه المغلقة والمفتوحة معًا، حكى عن المجتمع والناس في البيوت والشوارع والمحلات، حكى عن السفارديم (يهود الشرق) والإشكيناز (يهود الغرب) كما حكى عن الكيوبتزيم والموشاف... استطاع رأفت

الهجان بحماسه وحرارته وتدفقه أن ينقل نديم من مقعده ويطوف به في جميع أنحاء إسرائيل في لغة بسيطة سهلة حولت كلماته وأفكاره الذكية إلى صور ضاحكة أحيانًا، عابسة أحيانًا، وباكية في أحيان أخرى.

«اسمح لي أقول لك يا سيد نديم إنكم بتدوا إسرائيل أكثر من حقها... الناس هناك عايشة في قلق دائم، وتوتر مالوش نهاية... وده هو سر حبهم الشديد للعلاقات العاطفية الزايدة، وحبهم للسهرات والاجتماعات!».

كان الفتى كمن يفرغ حملًا أثقل صدره، وكان نديم كالأرض العطشى تمتص كل ما يلقى إليها من ماء كي ترتوي تربتها... تركه نديم يحكي كما يحلو له، لم يقاطعه ولم يسأله ولم يستفسر عن شيء ولم يعلق إلا مرة واحدة عندما كان الفتى يحكي كيف انسحب جدعون شاباتاي من الشركة، فلقد غمغم نديم معلقًا:

«أحسن».

وألهب هذا التعليق خيال الفتى، ولطالما أحس أن جدعون شاباتاي عقبة تحد من حركته لكنه كان في حاجة إليه خاصة بعد عدوان ١٩٥٦ وما أعقبه من كساد في سوق السياحة الإسرائيلية... جاوزت الساعة منتصف الليل عندما توقف رأفت باسمًا، وكان يلهث... بادله نديم الابتسام وهو يتساءل عن سر توقفه فقال:

«تعبت من كتر الكلام!».

هم نديم بالتعليق فصاح الفتى ممازحًا:

«لاحظ إني عايش هناك أسمع وبس!!».

وتضاحك الاثنان معًا، قال نديم وهو يوقف جهاز التسجيل إن هذا يكفي اليوم، وإن عليه الآن أن ينصرف للترويح عن نفسه، جنح الفتى بالحديث نحو العمل فأوقفه نديم:

«ما تستعجلش، إحنا قدامنا وقت كفاية وشغل كتير قوي!».

ضرب له موعدًا في اليوم التالي، وعندما همَّ الفتى بالانصراف هتف به نديم:

«خد دول تحت الحساب!».

تردد الفتى في قبول المال فغمغم نديم:

«دي فلوسك... ده حقك!».

في بطء امتدت يد الفتى نحو المال فأردف نديم ضاحكًا:

«لاحظ إن حسابك عندنا كبر قوي!».

أخذ المال وفي عينيه بريق بدا لنديم وكأنه ضوء تشعه العينان، ظل في مكانه دون حراك وابتسامته تجتاح الوجه كله فسأله نديم:

«فيه حاجة عاوز تقولها؟».

«أيوه!».

«ومستني إيه؟ ما تقول!».

«إلا انت امبارح كنت سكران بصحيح؟!».

وأطلق نديم ضحكة صافية، جاءت من أعماقه تعبيرًا عن ارتياحه البالغ!

* * *

عندما التقى نديم هاشم بعزيز الجبالي في تلك الليلة، سلمه بضعة أشرطة سجل عليها حديث الفتى وهو يقول بصوت مفعم بالدهشة:

«ده شيء غريب جدًّا!».

«إيه هو اللي غريب؟!».

«الولد ده يا عزيز مدرَّب طبيعي... ده ملكاته غير عادية!».

* * *

وصل الفتى في اليوم التالي في موعده، صافح نديم بحرارة، بادله هذا إياها وهو يسأله:

«تشرب قهوة والا شاي يا ديفيد ؟».

«ما بلاش حكاية ديفيد دي».

«أنا جايب بن محوّج من مصر... إيه رأيك في فنجان قهوة معايا؟».

وهكذا، وببساطة شديدة، أوحى إليه نديم أن لهذه الجلسة طعمًا آخر، ووظيفة أخرى، وهدفًا آخر... كان نديم يعلم أنه بالرغم من صعوبة لقاء الأمس، فإن هذا اللقاء هو الذي سوف يحدد ـ وبشكل قاطع ـ مصير الفتى في الأعوام القادمة... كان يعلم ـ وهذه وجهة نظره كما أكد هو ـ أن «المعلومة» التي أرسلها الفتى عن العدوان الثلاثي تفوق قيمتها كل ما أخذه الفتى وما أنفقه منذ ذهابه إلى إسرائيل وحتى ذلك اليوم الذي جلسا فيه معًا، بينهما فنجانان من القهوة المصرية تفوح رائحتهما متصاعدة إلى أنف الفتى لتملأ صدره بالحنين!

مضت لحظات تكاثفت فيها سحب الدخان فوق رأسيهما فلقد راح كل منهما يدخن في شراهة تنبئ عن توتر دفين... بدأ رأفت الهجان حديثه مترددًا، كان يعلم أن قراره بالعودة سوف يصيب الرجل الجالس أمامه بخيبة أمل بلا حدود، طوال الأمس كان يقلب الموضوع على كل وجوهه، ثم قرر أن يظل على موقفه لا يتزحزح... أكثر ما أدهشه في الأمر أنه بحث عن ذلك الشك الذي عذبه وأضناه في أيامه الأخيرة في إسرائيل فلم يجد له أثرًا في نفسه وكأن لقاءه مع نديم هاشم بلسم شفى كل الجراح!!... أكان مشتاقًا إلى مصر أم كان يطلب عونها؟ تكسرت الكلمات بين شفتيه دون سبب واضح، قال إن ثلاث سنوات تكفي، وإنه يريد العودة إلى الوطن، وإن محسن ممتاز وعده بالعودة يوم يطلب العودة... استمع إليه نديم حتى إذا ما انتهى سأله:

«إنت عاوز ترجع مصر والا عاوز تزور مصر؟».

هم الفتى بالنطق مندفعًا لكن الكلمات توقفت على شفتيه، كان ما طرحه عليه نديم جديدًا تمامًا!

«هو أنا ممكن أزور مصر ؟!».

«بالتأكيد... ده حقك!».

تلك لغة جديدة لم يتعودها منذ سافر إلى إسرائيل.

«إمتى أقدر أزورها؟».

«أول ما نجهز لك رحلة... إنت عارف طبعًا إن رحلة زي دي عاوزة ترتيبات وما يكونش فيها ثغرة واحدة، سلامتك لازم تيجي في المقام الأول!».

بدت على وجه الفتى ملامح شك فيما كان يقوله نديم، فإذا هذا يهتف به:

«تقدر تعتبر ده وعد مني!».

قاوم رأفت تلك الرغبة التي راحت تتسلل إلى نفسه بالتراجع عن قراره.

«لكن إيه فايدة وجودي في إسرائيل إذا كان شغلي مش عاجبكم؟!».

«ما انت لازم تتعلم شوية حاجات جديدة علشان شغلك يعجبنا!».

«ثم إن حكاية الفلوس دي بصراحة عاملة لي قلق مزمن!».

«أمر طبيعي!».

قفز الفتى مغاضبًا:

«أنا عارف إنكم فاكريني نصاب ومحتال و... ...».

قاطعه نديم ناهضًا إليه في حدة:

«ده مش صحيح!».

التفت إليه رأفت فعاجله هذا بقوله:

«إحنا عارفين إنك وطني ومتأكدين من أمانتك، وواثقين إنك بتضحي كثير علشان بلدك، ومقدرين الخطر اللي انت بتتعرض له، ومدركين القلق اللي انت عايش فيه!».

وقف الفتى محملقًا في العملاق الذي كان وجهه ينبئ عن ثقة بلا حدود، تذكر محسن ممتاز وتمنى لو أنه رآه والتقى به مرة أخرى كي يشكو له ما فعلوه به... مضت لحظات هرب فيها من نظرات نديم وهو يخطو في الغرفة على غير هدى، لكنه ما لبث أن كابر مستطردًا:

«هو أنا لسه حارجع تاني؟ ولسه حاقول للناس إن الخواجه شارل هو اللي بيديني الفلوس؟ ولسه... ...».

«بالعكس، أنا مش عاوزك تجيب سيرته تاني!».

اندفع الفتى نحوه شارحًا الموقف:

«إنت ممكن تتصور إني لحد دلوقتي باقول للناس إن الفلوس اللي بتتحول لي دي من الخواجة شارل... تقدر تقول لي إيه اللي حايحصل لي لو الراجل ده ظهر فجأة وقال إنه ما ادانيش غير القرشين اللي اداهم لي في مصر؟!».

«اطمّن... الخواجة شارل مش حايظهر!».

«تضمن منين؟».

«لأنه مات!».

«إيه؟!».

هتف بها الفتى وقد اجتاحت ملامحه سحابة حزن حقيقي.

«الخواجة شارل سمحون مات السنة اللي فاتت في نيس، في جنوب فرنسا!».

«وبناته... ومراته؟».

«الأم عايشة في باريس لوحدها، والبنت الكبيرة اتجوزت في بلجيكا!».

«وماجي؟!».

«في كيوبيك سيتي في كندا!».

«اتجوزت؟!».

«قبل أبوها ما يموت بسنة ونص!».

«يعني... ...».

«يعني ما تقلقش!».

عاد الفتى إلى مقعده وقد اعتراه وجوم استمر لثوان، لكنه ما لبث أن استدار نحو نديم هاتفًا:

«وبعدين أنا عاوز أقول بصراحة كمان إن حكاية ورق الزبدة دي مسببة لي رعب!».

«وعلشان كده أنا جبت لك معايا حبر سري!».

«حبر سري؟!».

«وحانغير الكود اللي بيننا وبينك، والكود الجديد حايفرحك لأنه ما يتحلش أبدًا!».

«ما هو يا سيد نديم... ... ...».

في وضوح واستقامة جلس نديم أمام الفتى وهو يسدد له سبابته:

«شوف يا رأفت... أنا قلت لك إني عارف كل مشاكلك، وإني جاي أحلها لك... وإحنا قدامنا دلوقت سكة من اتنين، إما إنك ترجع مصر وننهي العملية بالكامل، وإما إنك تعرف إن البلد محتاجة لك وتكمل!».

وهكذا وضع نديم في يد الفتى حرية الاختيار... كان يعلم أن لهجته وأسلوب حديثه قد نفذا إلى قلبه، كما كان موقنًا أنه سيقاوم بضراوة المقبل على موت مؤكد... ساد الصمت بينهما فتيقن أن رأفت قد استوعب تمامًا كل شيء، وأنه يعرف، إذا ما اختار، أن الاختيار هو مسئوليته الكاملة... بدا الفتى ممزقًا أشد ما يكون التمزق، قال فيما بعد إن شيئًا غريبًا وغامضًا كان يدفعه إلى القبول والعودة، وكان خوفه وقلقه يدفعانه ـ بنفس القدر من القوة ـ إلى الرفض والعدول.

«لكن اللي حصل معايا في إسرائيل بعد ما قبضوا على الجاسوس الألماني اللي... ... ...».

«مين اللي قال لك إنه كان فيه جاسوس؟!».

«أمال حا يألفوا؟!».

«علشان لو كان فيه حد بيشتغل لحساب مصر عندهم يترعب!».

نهض الفتى متذمرًا غير مصدق:

«سيد نديم!».

«ما هو لو كان فيه حد لينا هناك واتمسك... كنا حانعرف، والا إيه؟!».

«مش فاهم!».

«دي لعبة لازم يلعبوها كل شوية!».

«برضه مش فاهم!».

«هم نشروا صورته؟».

«لأ».

«نشروا اسمه؟».

«برضه لأ».

«إذا كانوا قبضوا على راجل ألماني بيشتغل لحسابنا، إيه اللي يمنعهم من نشر صورته واسمه ما داموا نشروا الخبر؟!».

«علشان يمسكوا شركاءه!».

«وإذا كان ليه شركاء، مش حايعرفوا إنه اتمسك؟!».

بدأت الصورة تتضح للفتى فعاد إلى مقعده أمام نديم وهو يغمغم:

«بقى ده معقول؟!».

«مش معنى كده إنت تطمن قوي، لاحظ إن عندهم جهاز مخابرات كويس!».

بدا رأفت حائرًا كل الحيرة لما يسمع فاستطرد نديم:

«ومش معنى كده إنهم ماقبضوش على حد!».

انتفض الفتى:

«يعني إيه؟!».

«من حوالي ستة شهور قبضوا على واحد من رجالتنا بس ما أعلنوش عنه خالص!».

«ليه؟!».

«بيشغلوه لحسابهم وفاكرين إننا مش عارفين!!».

وكأن الفتى تذكر شيئًا، هتف:

«أمال إيه اللي خلى الناس تبعد عني... إيه اللي يخلي واحد زي بيخور شطريت يقاطعني بعد ما كان بيجري كل ما أشاور له بس!».

«لأن جدعون شاباتاي قال لهم إنك مفلس!».

صاح رأفت:

«تصور... إستر بلينسكي قالت لي كده!».

«لأنها فاهماهم كويس!».

عاد الفتى إلى السهوم فنظر نديم في ساعة يده مبديًا التأفف رغم لهفته وقلقه انتظارًا لرد الفتى، تجنب النظر إليه وتشاغل عنه بإشعال سيجارة حتى جاءه صوت الفتى قائلًا:

«وهو كذلك... نشتغل!».

وبدأ نديم ـ على الفور ـ مهمته الكبرى!!

* * *

عندما التقى قلب الأسد بعزيز الجبالي في تلك الليلة كان منهكًا متعبًا... ألقى بنفسه فوق مقعد دون أن ينطق حرفًا، ظل عزيز صامتًا وقد أدرك كل شيء، صنع فنجانين من القهوة وعاد بهما إلى حيث كان يجلس نديم مستغرقًا في أفكاره، كان عزيز قلقًا هو الآخر ينتظر نتيجة ذلك اللقاء الذي كان يعرف أنه حاسم، رشف من فنجانه رشفة غمغم بعدها:

«إيه الأخبار؟».

«شيء لا يصدق!!».

قالها نديم بالإنجليزية، فلقد كانت هذه هي الجملة الوحيدة التي استطاع أن يعبر بها عن دهشته وإعجابه معًا!

* * *

كان القسم الأهم في تدريب الفتى، والذي استغرق أغلب الأيام ينصب على: «أساليب تجنيد العملاء في مثل ظروف هذه العملية التي تجري بين دولتين متعاديتين وفي حالة حرب مستمرة» ـ كما كتب عزيز الجبالي في أوراقه تلك التي كتبها عن العملية ـ كان نديم يفتح أمام الفتى آفاقًا ما كان يخطر ببال رأفت أنها موجودة، صاح ذات مرة:

«أنا بالشكل ده كنت مظلوم!».

علمه نديم كيفية الكتابة بالحبر السري الجديد، وكيفية إظهاره لو فرض وكتبوا له خطابات.

«ليه أنا ماتعلمتش الحاجات دي من الأول؟!».

«لأن مكانش المفروض إن ده يحصل!».

«ليه؟!».

«ما احنا قلنا يا رأفت، علشان تتفرغ لبناء الساتر بتاعك وتأمين نفسك!».

«طب ليه خليتوني أشتغل أصلًا؟!».

تسلح نديم بالصبر وكان متعبًا منهكًا وقد مضت خمسة أيام كان يعمل فيها طوال الأربع والعشرين ساعة بلا توقف فيما بين تدريب الفتى وتحضير ما يمكن أن يعمله له أو يلقنه إياه، رد:

«كان لازم تشتغل علشان ماتنساش واجبك الأصلي وتبقى بتاع سياحة!».

«لكن ده حصل تأنيب ومؤاخذات و...».

قاطعه نديم ناهرًا إياه:

«لازم تفهم شوية حاجات يظهر إنك مش واخد بالك منها!».

«زي إيه؟!».

«زي إن بقيلك تلات سنين بتتفسح في إسرائيل على حساب مصر من غير ما تعمل حاجة!».

«ده ما كانش ذنبي!».

«وإن كل اللي حصل ده حصل حسب تخطيط كان هدفه تأمينك وسلامتك!».

ابتسم الفتى ناظرًا نحو نديم الذي أدهشته ابتسامته:

«ممكن تسلم لي على السيد محسن ممتاز وتقول له إني نفسي أشوفه».

«حايحصل!».

وعادا إلى العمل وكل منهما يبتسم لسبب خاص!

* * *

«لازم تبعد عن إستر بلينسكي!».

«طب إزاي و... ... ...».

«مش عاوز مناقشات في الموضوع ده يا ديفيد».

تعود الفتى أن يناديه نديم باسم ديفيد كلما غضب منه فابتسم:

«أقسم لك إني ماباحبهاش ولا حاجة».

«لكن هي بتحبك».

«طب أرفدها بأي سبب؟».

«اللي زي إستر دي ممكن تبقى خطر عليك!».

«ماتنساش إن إلياهو جادوسكي جوزها، وإنه في رئاسة الأركان وإن... ... ...».

«إن شا الله يكون في رئاسة الوزراء! سلامتك عندنا أهم!».

«طب إزاي أرفدها وأنا راجع بتلات أفـواج حايخلوا الحركة تزدهر؟!».

مل نديم كثرة الإلحاح فنظر إليه نظرة ألقت بالرعب إلى قلبه فتوسل:

«ممكن أخليها لحد الأفواج دي ما تمشي؟».

احتدمت النظرة في عيني نديم وهو يتحدث من بين أسنانه:

«إنت عارف الراجل اللي اتمسك من ست شهور ده اتمسك ليه؟».

«وحاعرف منين بس».

«أنا حاقول لك... اتمسك لأنه قاوح زيك ولا سمعش الكلام... انكشف ولو انه في أول رسالة بعتها لنا قدامهم بعت فيها التحذير اللي قال لنا إنه اتمسك!».

«يعني... ...».

«يعني كل اللي حواليك لازم يفهموا إنك هوائي ومش بتاع حب!».

صاح الفتى:

«ومعنى كده إن عمري ما حاتجوز!».

«طول ما انت في إسرائيل».

«طب إزاي وانت بتطلب مني أوثق علاقاتي الاجتماعية خصوصًا مع الجماعة بتوع الذرة وبتوع الاقتصاد؟!».

«بإنك تكون إنسان محترم في تصرفاتك!».

«بس... ...».

أرعد نديم بصوته:

«إستر بلينسكي لازم تمشي!».

* * *

«الأفواج السياحية دي ممكن تغطي لك جزء من مصاريف الشركة، مش كده؟».

«دي حاتغطي المصاريف لكذا شهر جايين».

«على العموم إحنا حولنا لك مبلغ مش بطال على نفس البنك».

«وإيه لازمته ده؟».

«لازمته إنك حاتحتاج في الفترة اللي جاية مصاريف كتير».

* * *

في الاجتماع الأخير الذي تم بينهما كان كل شيء قد وضع في مكانه الصحيح... درب الفتى على أحدث أساليب الإثارة، حددت له أهدافه بأولوياتها... سأله نديم في لحظة:

«إيه الحاجة اللي تهمنا في إسرائيل قبل غيرها؟».

«القوات المسلحة طبعًا».

«يبقى لازم تركز على الناحية دي».

«يعني أبدأ مع إيزاك بن عميتاي؟».

«أول ما نبعت نقول لك أوكي، هو ودان رابينوفيتش وبيخور شطريت!».

ضحك الفتى:

«بيخور شطريت مش محتاج تجنيد، وعمري ما حافاتحه في حاجة!».

نظر إليه نديم نظرة استفسار فأردف:

«بيخور شبطريت بعد ما يشرب له كاسين، ومع التالت بيتكلم لوحده، بس المهم إني آخد الإذن إني أسأله وهو حايجاوب على طول... وتاني يوم تلقاه ناسي كل اللي حصل في الليلة اللي فاتت!».

«خليك حريص يا رأفت!».

«ما تخافش عليَّ».

وكما درب الفتى على كيفية التقاط من يصلحون للعمل معه، درب على الكتابة بالحبر السري وكيفية إظهاره...

«على العموم إنت مش حاتلحق تستعمل الحبر ده كتير».

«ليه؟!».

«إن شاء الله المرة الجاية حاجيب لك حبر أحسن».

ولقد كان الفتى سعيدًا، كان يشعر الآن أنه إنسان آخر، قال لنديم إنه كان يشعر طوال السنوات التي مضت أنه يحارب جيشًا مدججًا بالسلاح وهو أعزل... أما الآن فسلاحه في يده، ولسوف يعرف كيف يحارب!

«بس اوعى تفاتح حد، أي حد، إلا لما تقول لنا عليه، إحنا نديك إشارة الأمان».

«وهو كذلك».

«مهما حسيت إنك واثق ومطمئن».

«ما تنعاش هم».

«أي غلطة من النوع ده ممكن تكشفك وإحنا مش مستغنيين عنك!».

مد الفتى يده مصافحًا نديم، فأمسك هذا بيده في قوة.

«مش عاوز حاجة يا رأفت؟».

«ممكن أبعت جواب لشريفة؟».

«طبعًا».

هتف نديم بالكلمة فاجتاحت ملامح الفتى سعادة غامرة، مد يده في

جيبه وأخرج مظروفًا مفتوحًا كتب عليه: الشقيقة العزيزة السيدة/ شريفة علي سليمان الهجان. حرم المقدم محمد رفيق ١٥ شارع الإمام علي بمصر الجديدة... تليفون...

تناول نديم الخطاب قائلًا:

«تصور إني كنت لسه حاسألك إن كنت عاوز حاجة منها!».

«مش ده المهم يا نديم بيه المهم إنك ما تنساش وعدك».

«ثق من ده تمامًا... وأول ما حانرتب لك الزيارة ونشوف الظروف المناسبة حانديك خبر، وحاتيجي مصر، وحاتشوفها، وحاتفرح بيها، وحاتحبها أكثر!».

بعدها ساد الصمت تمامًا، وكل من الرجلين ينظر إلى الآخر، لكن نديم ما لبث أن فتح ذراعيه - لأول مرة - فإذا الفتى يتقدم منه ويضم كل منهما الآخر في قوة.

«أشوفك بخير يا رأفت وربنا معاك!».

وهرول الفتى منصرفًا وصدره يجيش بانفعالات لا حدود لها... لكنه قبل أن يصل إلى الباب جاءه صوت نديم مناديًا:

«رأفت!».

استدار إليه، فجاءه صوت ذلك العملاق حنونا أشد ما يكون الحنان:

«خلي بالك من نفسك، مصر محتاجة لك قوي!».

* * *

في القاهرة كان التقرير الذي قدمه نديم هاشم إلى «شريف والي» رئيس هيئة الخدمة السرية يوضح المستوى الذي درب عليه الفتى، والتلقين الذي تلقاه... أما عنه شخصيًا فلقد كان الرأي الذي سجله

نديم بخط يده يقول: إن رأفت الهجان لديه استعدادات ممتازة، وإنه كان مظلومًا في كل ما وجه إليه من لوم وتأنيب ومؤاخذة. وإن وطنيته فوق كل الشكوك، وإنه عانى أشد ما تكون المعاناة في تلك السنوات الثلاث التي مضت... وإن كان هذا الذي حدث قد أضاف إلى رصيده في إسرائيل أسهمًا ما كان يمكن أن تتحقق لولا هذه السنوات، فهو الآن فوق كل الشكوك، يستطيع أن يبدأ مهمته فوق أرض صلبة!

* * *

أما عزيز الجبالي، فلقد كان يجلس في نفس اللحظة في مكتبه سعيدًا أعمق ما تكون السعادة، كان هذا الضابط الشاب يقف على أعتاب عصر كامل يحمل في طياته الكثير من الخبرات الجديدة التي سوف تضاف بالقطع إلى أبناء وطنه... كان فخورًا بما حققه نديم هاشم من إنجازات مع الفتى، وهو - وحتى اليوم وقد مضى ربع قرن من الزمان - ما زال يتنفس عبير تلك الأيام التي وضع فيها الرجال كل ما يملكون من إمكانات وقدرات في خدمة أمتهم... كان يعلم أن الطريق لا يزال أمامهم طويلًا وشاقًا ومليئًا بالعرق والمخاطر... وكان مستعدًا لكل شيء، في سبيل هذه الأمة التي أنجبت شابًا مثل «رأفت الهجان».

الفصل التاسع

رسَالة إلى شريفة الهجّان

عندما عاد عزيز الجبالي إلى القاهرة، كان مفعمًا بثقة لا حدود لها، وآمال ملأت عليه خياله... سارت الأمور كما خطط لها وتمناها.

عاد إلى مكتبه في شوق غريب إليه وكأنه يعود إلى حبيبة طال البعد عنها... أغلق باب المكتب ـ كما هي العادة دائمًا! ـ وراح يرتب أفكاره وأوراقه فيما حول الفتى وما يكون أن يصنعه لبلده وأمته... كانت هناك تلك الأشرطة التي سجلها نديم هاشم والتي كان عليه الآن أن يعيد الاستماع إليها مرة، ومرة ومرات، وأن يفرغها ويبوبها ويحولها ـ على الورق ـ إلى كائن حي يعيش معه ويتعايش لسنوات قادمة... كما كان هناك ذلك التقرير الذي قدمه نديم هاشم إلى «شريف والي» رئيس هيئة الخدمة السرية عن رأيه في الفتى وعما تم معه... ثم كان عليه أيضًا أن يجد حلاً لتلك المشكلة العويصة التي ألقاها نديم بين يديه بعد آخر لقاء له بالفتى في جنوا قائلًا:

«ديفيد عاوز يبعت الجواب ده لأخته».

لم يكن نديم بطبيعة الحال يستطيع أن يصنع شيئًا حيال هذا الخطاب الذي كتبه رأفت لشريفة، ورغم أن الظرف كان مفتوحًا فهو

لم يقرأ الخطاب ولم يطلع عليه فليست هذه مسئوليته، في نفس الليلة سلمه لعزيز الذي دسه في جيبه دون أن يفضه أو يلقي عليه نظرة، أجل قراءته لحين تفرغه له تمامًا، فها هنا نقطة شديدة الحساسية عليه أن يوليها اهتمامًا خاصًّا، عليه أن يفكر فيها وأن يزنها بميزان يزن الحاضر واحتمالات المستقبل معًا، عندما خلا إلى مكتبه توجه إلى خزانته ـ تلك التي لم يكن قد ابتعد عنها منذ أن تسلمها ـ أحس وكأن الملفات شخوص ترحب به، كما أحس بقلبه يخفق شوقًا إلى هؤلاء الأصدقاء الذين يعرضون حياتهم للخطر من أجل وطنه، امتدت يده إلى ملف الفتى وكانت الصورة في ذهنه الآن قد اكتملت كما كانت قد اختلفت، وضع فيه ما أراد أن يضع من أوراق باللغة السرية، وعندما هم بوضع الخطاب راودته نفسه على قراءته، لكن شيئًا غامضًا منعه من ذلك، هو موقن أشد ما يكون اليقين أن هذا الخطاب لا بد أن يصل إلى صاحبته ولكن كيف؟!... ألمَّ بقلبه هاجس خفي فخشي مواجهة الأمر قبل أن يستعد له... انقضت ثلاثة أيام رتب فيها أوراقه وأنجز فيها ما كان قد تأخر من عمله وأفرغ أشرطته ووضع كل شيء في مكانه، وكان عليه في النهاية أن يواجه الأمر... كانت الشمس تميل نحو الغرب والهدوء يدثر الحقول المحيطة بالمكان لا يسمع فيها سوى حفيف رياح الخريف بأوراق الشجر وسيقان الزرع... فض المظروف وأخرج الخطاب وقرأ:

«شقيقتي الغالية شريفة.

أكتب لك هذا الخطاب على عجل كي أطمئنك على حالي، فأنا والحمد الله في صحة جيدة، وأحوالي على ما يرام... أتمنى من الله عز وجل أن يطمئنني عليكم جميعًا، كما أرجو منه سبحانه وتعالى أن يهيئ لي فرصة زيارتكم قريبًا... مرسل لك مبلغ مائة جنيه مصري هدية متواضعة مني لابني وحبيبي طارق رفيق، الذي أرجو أن يكون تلميذًا

مجدًّا في المدرسة، وأن يكون في أكمل صحة وعافية... وإلى الملتقى في القريب، والسلام ختام.

أخوك المحب

رأفت الهجان»

* * *

وانقبض قلب عزيز.

هو لايدري لم انقبض قلبه، ولكن عددًا من الملاحظات كان قد أمسك بتلابيبه!

منذ الكلمات الأولى في الخطاب لم يستطع ذلك الضابط الشاب إلا أن يبدي إعجابه بالأسلوب الذي لا ينبئ عن شيء ولا يشير إلى حقيقة ولا يذكر أين هو ولا كيف حياته، أو كيف يعيش... بدا الفتى وكأنه خلق كي يحيا حياة سرية... ثم لفت نظره ذلك الحنان الدافق الذي يشير إليه الأسلوب لا الكلمات، والإحساس الدفين لا التعبير الصريح، كان الخطاب يحمل تلك الشحنة العاطفية الخفية التي سرت عدواها إليه فإذا به يفتح الدوسيه ويقلب أوراقه حتى تطل عليه صورة الفتى وفي نفسه حديث يريد أن يفضي به إليها!... هي هي نفس الصورة التي طالعته لأول مرة في ليلة من ليالي يوليو الحارة، فإذا بها ـ الابتسامة والنظرة ـ تهيب به أن يسلم الخطاب فورا... أعاد إغلاق الملف هربًا فلقد كانت المشكلة ـ في واقع الأمر ـ عويصة، والمسالك تبدو مسدودة!

بداية...

لم يكن منطقيًا أن يرسل الخطاب من خارج مصر، سواء من أوربا أو أي بلد عربي، وفي داخله أوراق نقدية مصرية تصل إلى مائة جنيه ـ كان هذا المبلغ في تلك الأيام ضخمًا ـ كما كان من الصعب أن يحصل مواطن مصري على أوراق نقدية مصرية في الخارج، أما الأصعب وغير

المصدق هو وضع النقد في خطاب وإرساله إلى مصر، فلو أنها مرت من مكاتب البريد في الخارج، فيقينًا كانت ستثير شكوك مكاتب البريد في الداخل، ولقد كان من الممكن علاج كل هذا وتوصيل الخطاب ـ عن طريق البريد! ـ إلى شريفة الهجان، ولكنِ... ألن يثير مثل هذا الأمر شكوكها، أو شكوك زوجها الذي كان ضابطًا في الجيش يحتل منصبًا هامًا؟!... ألن يلقي ماضي الفتى بظلاله على الأمر كله فيبعث على التساؤل ويدفع العقيد محمد رفيق إلى تصرف قد يهتك أستار السرية حول الفتى؟!

بدا هذا الطريق أمام عزيز الجبالي مسدودًا.

ثم...

لم يكن منطقيًا أن يرسل الخطاب من مصر، إن المعنى الوحيد لهذا هو أن رأفت كان في مصر أو علي الأقل مر بها دون أن يتصل بشقيقته... وكان المأزق هنا أن شريفة أولًا ـ إذا ما كان الفتى صادقًا في وصف علاقته بشقيقته ـ لن تصدق أن أخاها يفعل هذا، وأن ظنها سوف يقودها إلى السؤال أو التساؤل... أما إذا صدقت الأمر، فأي ألم سوف يسببه مثل هذا الخطاب لها؟!

بدا هذا الطريق هو الآخر مسدودًا... وفكر عزيز الجبالي في وضع مائة الجنيه داخل المظروف وإغلاقه وإرساله مع رسول ولكن...

ما الذي سوف يقوله الرسول لشريفة الهجان وهو بالقطع لا يعلم شيئًا ولن يعلم عن الأمر... كيف يكون رده عليها إذا ما سألته عمن أعطاه الخطاب أو سألته عن رأفت أو... أو...

وجد عزيز الجبالي نفسه في مأزق كان عليه أن يخرج منه، فلا بد من تسليم الخطاب مهما كان الأمر...

«مكانش قدامي غير إني أسلمه بنفسي!».

هكذا قال وهو يسرد قصة تلك اللحظات الموغلة في الزمن إلى ما يقرب من ربع قرن من الزمان، وهكذا كتب في تلك الأوراق التي كتبها عن «العملية»... ولكن، وحتى قوله هذا، يدفعنا إلى التوقف والتأمل!

فهل كان الطريق مسدودًا حقًّا أمامه؟!... أم إنه أراد أن يكون كذلك؟!

هل يعدم ضابط مخابرات وسيلة لتوصيل هذا الخطاب بحجة أو بأخرى؟!

إن الإجابة عن هذين السؤالين تبدو واضحة ليست في حاجة حتى إلى التفكير... فما الذي دفع عزيز الجبالي إلى هذا التصور؟!...

وما الذي دفعه إلى وضع السدود أمام كل المسالك؟!

هل هو حب الاستطلاع، وهو ـ على كل الأحوال ـ أمر مشروع في مثل تلك الأحوال أم هي الرغبة في التيقن من صدق الفتى فيما يختص بعلاقته بأخته؟!

إننا هنا نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام تلك الطبيعة التي يكتسبها ضابط المخابرات منذ اليوم الأول لعمله في هذا الحقل المليء بالشكوك، نجد أنفسنا أمام أسئلة لا مفر من مواجهتها حتى نفهم الكثير مما يحدث أو سوف يحدث في هذا العالم المتدثر بعباءات سرية كثيفة ومعتمة ولا سبيل إلى اختراقها إلا بعد جهد وجهود لا بد أن تبذل...

هل هو الشك الدائم الذي ينسلخ به هذا النوع من الرجال في كل أنحاء الأرض؟!

أم هي الرغبة في تأصيل الأشياء والتأكد منها حتى لا تبقى ذرة شك واحدة؟!

وبالرغم من أن كل الأحداث التي مرت قد أكدت صدق الفتى بما لا يقبل الشك فإن نقطة كهذه ـ لو بقيت معلقة في ذهن الرجل الذي كان

الآن مسؤولًا عن رأفت الهجان مسئولية كاملة - كانت كفيلة بأن تعكر ذلك الصفاء الناصع الذي اتصفت به العملية!

كان السؤال - حتى تكتمل الصورة - الذي طاف بذهن عزيز الجبالي ربما كي يبرر لنفسه قراره بالذهاب لتسليم الخطاب هو: إذا كان رأفت الهجان يحب شقيقته كل هذا الحب - وهذا ثابت لا شك فيه - فهل تبادله شريفة نفس القدر من الحب، أم إنها انضمت مع الأيام إلى صفوف الذين يريدون التخلص منه ومن مشاكله وحتى سيرته أو اسمه؟!

أليس هذا احتمالًا واردًا؟!

ثم يبقى ذلك الإحساس الغريب الذي لازم ذلك الضابط الشاب طوال عشرين عامًا، ذلك الإحساس الغامض الذي جعله، بيقين، يشعر وكأن صورة الفتى - كلما طالعته - تناديه وتلح عليه وترجوه أن يسلم الخطاب بنفسه.

ولقد سئل عزيز الجبالي عن هذا الإحساس، أفليس غريبًا على ضابط مخابرات سلاحه الأقوى - وربما الأعظم - في عمله وحياته ومصيره ومصير أمته هو التعامل مع الحقائق وجهًا لوجه دون النظر إلى أي اعتبارات أخرى مهما كانت، أليس غريبًا أن يكون لإحساس غيبي مثل ذلك التأثير - مهما كان ضئيلًا - على تصرفه؟!

وكان رد عزيز الجبالي الحاسم هو:

«ده مش غريب وبس، ده غير عادي، وخطأ، وغلط، وخطر في نفس الوقت!!».

هذا هو رأيه الآن!

ولقد كان هذا هو رأيه حتى وهو يستجيب لنداء الصورة في تلك الأيام البعيدة من عام ١٩٥٨.

لكنه حدث!

نعم حدث، ولم يكن حدوثه سهلا عليه.... فلقد كان لا بد له من وضع خطة محكمة لتسليم الخطاب إلى شريفة... كان عليه أن يجهز قصة، ويجهز إجابة لكل سؤال قد توجهه شريفة وزوجها أو أيًا من كان هذا الذي سوف يلتقي به!

ولقد وضع عزيز الخطة.

والتقى بشريفة.

وليته ما فعل!

* * *

عاد الفتى إلى إسرائيل يملؤه إحساس غامر بالانتصار!

كان هذا اللقاء الذي تم في مدينة جنوا الإيطالية في شهر سبتمبر من عام ١٩٥٨ بينه وبين نديم هاشم، نقطة تحول هامة، لا في تاريخه فقط، ولكن في تاريخ وتجربة جهاز المخابرات المصري بكامله!... فلقد كانت تلك العملية تكاد تكون التجربة الأولى، المكتملة كل عناصرها، في حياة هذا الجهاز الذي كان يستعد الآن، بحماس الشباب وإيمانهم، لأن يلعب دورًا شديد الأهمية والخطورة فيما هو قادم من سنوات!

ولسوف يصبح علينا ـ كي نفهم ما كان يحدث في تلك الأيام ـ أن ندرك أنه مع التنظيم وإنشاء أقسام وتحديد مسئوليات ووضع إطار متكامل، فإنه على الوجه الآخر ـ وفي جهاز مقاومة التجسس، أو التجسس المضاد ـ كانت التجربة أيضًا حافلة بكل ما هو مثير ومخيف في نفس الوقت... كان الرجال يكتشفون في كل يوم ضراوة الحرب التي كان عليهم أن يخوضوها، اكتشفوا أن المسألة شديدة التركيب والتعقيد، وأن بلادهم مستهدفة من قوى عالمية عاتية ومتعددة، وأن جواسيس الأمم يملئون مصر ويحاولون هتك أسرارها!

وبالطبع، لم يكن هذا ليخفى ـ في خطوطه العريضة أو حتى همسًا ـ

على هؤلاء الذين تخصصوا فيما يطلق عليه عالميًّا اسم «هيئة الخدمة السرية»... ولقد كانت هذه المعرفة تدفع الرجال في هذه الهيئة إلى بذل أقصى ما يستطيعون من جهد، وتحفزهم إلى المزيد من الإجادة والتطوير واللحاق بهذا العصر الذي بدا لهم مجنونًا.

ونحن إذا ما بحثنا عن الأسباب التي تضافرت كي تجعل من هذه العملية ـ عملية رأفت الهجان، أو المندوب رقم ٣١٣، أو ديڤيد شارل سمحون ـ نموذجية بكل المقاييس، فلسوف نجد العديد من العناصر، كإحكام السرية واتباع القواعد العملية وما إلى ذلك... غير أنه يبقى دائمًا ذلك السبب الكامن وراء كل الأطراف وفي قلوبهم جميعًا، وهو أن الأسلوب الذي اتبع مع «رأفت الهجان» كان أسلوبًا مصريًّا خالصًا!

وإذا كان رأفت شابًّا مصريًّا، فلقد كان نديم هاشم أيضًا كذلك، وكان كل منهما يعيش ويعرض حياته للموت من أجل مصر... وبصرف النظر عن الدقة العلمية المتناهية التي كان نديم هاشم حريصًا على تطبيقها مع الفتى أثناء تدريبه أو تلقينه، إلا أن «الأسلوب» الذي اتبعه نديم في التعامل مع الفتى كان أسلوبًا مصريًّا، فيه من الحنان قدر كاف لأن يشعر رأفت بدفء الأهل والوطن، وفيه من الصرامة قدر كاف لأن ينبه الفتى إلى خطورة مهمته، فيه بعض من «الفهلوة» ـ إن سُمح للتعبير بأن يستعمل ـ وبعض من خفة الدم أيضًا.

وكانت «المصرية» هي الدافع قطعًا لأن يرتكب عزيز خطته تلك لتسليم الخطاب إلى شريفة!

كما كانت «المصرية» هي التي أوصلت رأفت الهجان إلى وضع خطة للتخلص من إستر بلينسكي!

* * *

قال الفتى فيما بعد إنه عاد إلى إسرائيل في تلك المرة إنسانًا آخر، فلقد أصبح الآن مسلحًا بالمال كما صار مسلحًا بمصالحة حميمة مع بني وطنه... وأحس وهو يهبط من الطائرة في مطار اللد ـ وكانت إستر بلينسكي في انتظاره ـ أن آفاقًا جديدة قد فتحت له كي يلعب دوره ويعيش قدره في إسرائيل، أسعدته تلك الجلسات التي عقدها مع نديم وأمدته بما لم يخطر له ببال، كانت القواعد الآن في يده أسلحة ماضية عليه أن يشرعها، وأن يبدع!

وبقدر ما استقبلته إستر في حرارة لم تحاول أن تخفيها، فلقد استقبلها هو بفتور لم يخف عليها، كما لم يخف عليها تلك السعادة البادية والتي كانت تشرق في ملامح الفتى دون مواربة!

ولقد فكر الفتى طويلًا أثناء تلك الأيام القليلة التي قضاها في إيطاليا بعد أن افترق عن نديم هاشم فيما عساه أن يفعل مع إستر بلينسكي، كان يدرك ـ رغم مقاومته لنديم ـ أن إستر بالفعل خطر عليه، ليس فقط لأن احتمالات أن يقع في حبها كانت قائمة، بل أيضًا لفرط حبها له وإحساسها البالغ بكل ما يفعله ويحيط به... ودون الخوض في كثير من التفاصيل، فإن رأفت الهجان واجه نفسه بسر تردده ومقاومته لنديم هاشم، كان السر يكمن ليس في استمتاعه بحبها له فقط، بل في تلك الأحاسيس الدفينة، والعميقة الغور في نفسه، التي كان يشعر بها نحو إستر... إن تلك الأحاسيس، رغم عدم ظهورها الواضح، كانت موجودة... وهي لا تنبئ إلا عن شيء واحد كان يمثل رعبًا في حياته، هي لا تنبئ إلا عن الحب... وإذا كانت النساء هي نقطة ضعفه التي يدرك الآن بعد أن تعلم ولقن كم هي خطيرة، فإن الوقوع في الحب يصبح مقتله الوحيد!

كان الفتى سعيدًا كل السعادة بما عاد به، فلم يخف سعادته، بل حرص على إظهارها!

كان سعيدًا بما حققه، وازدادت سعادته عندما أنبأته إستر ـ وهما في

السيارة في طريقهما إلى البيت ـ أن برقية وصلت منذ يومين من إحدى شركات السياحة الفرنسية تعرض فيها إرسال فوجين سياحيين إلى إسرائيل... أدرك الفتى أنهم ـ في مصر ـ أصبحوا الآن يساندونه بكل السبل والطرق التي تؤمن حياته، وأن عليه أن يبذل قصارى جهده في المقابل...

* * *

لم تفت إستر علامات السعادة تلك التي كانت تجعل الفتى يتقافز أمامها كظبي مرح، كما لم يفتها أن الفتى كان يعاملها في فتور، وأنها عندما أرادت أن تقبله أعطاها وجنته وعيناه تبرقان وتهيمان بعيدًا عنها وعن المكان... سألته عما به فقال في دهشة:

«سعيد يا إستر، ألست سعيدة بما حققناه؟».

كان يضرب عصفورين بنفس الحجر فيصيب، اقتربت منه في شوق:

«كنت موقنة أن الأزمة سوف تنفرج».

ابتعد عنها متسائلًا في نغمة موحية:

«ما رأيك في استعادة سيارتي الأوتوبيس من جدعون شاباتاي؟!».

«لقد اتصل بك مرتين وقال إنه يريد أن يراك فور وصولك!».

«هل علم أن الصفقة قد تمت في جنوا؟!».

«هل يخفى شيء كهذا عن شاباتاي؟».

«وهل علم بأمر البرقية الأخيرة؟!».

«أنت تعلم أن لجدعون عيونًا حتى في مصلحة البرق».

«ماذا عن بيخور شطريت؟».

«التقيت بزوجته في عشاء السبت الماضي فسألتني عنك وكانت متلهفة لسماع أخبارك!».

مال نحوها قائلًا إنه متعب ويرغب في الراحة ولو لساعات، كانت الأيام التي انقضت مليئة بالاجتماعات والمفاوضات والمساومات والمناقشة... خفق قلب إستر واعتصرته يد قاسية وقد أدركت أن في الأمر شيئًا فليس هذا هو فتاها المتلهف. سألته:

«هل عبرت الحدود إلى فرنسا؟».

«لا...».

«هل تحدثت إلى السيد شارل سمحون بالتليفون؟».

«لم يكن هذا ممكنًا».

«ألم تتصل بماجي؟».

«لم أستطع».

برقت عينا إستر بشك صارخ وهتفت بصوت مرتجف:

«ديفي... هل تعلمت الكذب أخيرًا؟!».

«هذا غير صحيح».

احتدم صوتها بغضب جامح:

«أتريد مني أن أصدق أنك لم تلتق بهم ولم تتصل بأحد منهم طوال تلك الأيام العشرة ولم يكن يفصلك عنهم سوى بضع مئات من الكيلو مترات؟!».

راح الفتى يفرغ حقيبة ملابسه في هدوء من لا يعنيه شيء مما يدور حوله:

«قلت لك إن هذا كان مستحيلًا يا إستر».

«وكيف كان ذلك؟!».

توقف عما كان فيه، التفت نحوها وكانت شاحبة تنتفض بالانفعال:

«لقد توفي السيد سمحون».

بهتت إستر. أحست بالندم لتسرعها، جمدت عاجزة عن الحديث، بدت حائرة معتذرة وعاد الفتى لما كان فيه في صمت، فاندفعت نحوه في محاولة لمواساته:

«لا بد أن الأمر كان شاقًّا عليك!».

قبل أن تصل إليه خطا جانبًا وهو يغمغم:

«وتفرقت العائلة!».

ازداد شحوب إستر وقد أدركت مدى الحزن الذي يعيشه فتاها.

«ألم تعرف أين ذهبن؟!».

«انتقلت الأم إلى باريس، وتزوجت الابنة الكبرى في بلجيكا!».

«وماذا عن ماجي؟!».

«سمعت أنها انتقلت إلى كندا مع زوجها!».

صرخ هاجس في صدر إستر وهي ترقب فتاها اللامبالي في حركته: وماذا إذن؟!

لم يكن أمامها سوى التخمين فتوسلت في لوعة:

«ديڤي... ديڤيد!».

التفت نحوها دهشًا:

«ماذا بك؟!».

«ما الذي ألم بك؟!».

«ألم أقل لك... إنني سعيد!».

وأدركت إستر بلينسكي في تلك اللحظة، وبإحساس الأنثى المتقد، أن كل شيء قد انتهى!

حاولت أن تلومه فلم تستطع، حاولت أن تثور فخذلها حزنها، حاولت أن تتعارك معه فصدها عنه بروده الثلجي، حاولت أن تحاوره فلم تجد للكلمات معنى... حدث ما حدث فجأة دون مقدمات أو توقع منها، كم تساءلت فيما مضى متى تأتي النهاية لتحرمها من حبها الوحيد، وها هي النهاية قد حلت واضحة ظاهرة لا لبس فيها فلِمَ لا تنسحب في هدوء؟!

«إذن فإلى اللقاء في الغد!».

خطت إلى الخلف وكانت شديدة الشحوب فجاء رده كحجر يقذفها به:

«إلى اللقاء».

كادت تستدير لكنها تشبثت بأمل واه.

«لا تنس العشاء... إنه في الثامنة».

«وهل أستطيع أن أنسى؟!».

قالها مغمغمًا دون أن يلتفت نحوها، بدا مستغرقًا فيما كان فيه ولم تكن هذه عادته معها، حاولت انتزاع قدميها من مكانهما فبدا لها الأمر صعبًا، قفزت نحو الباب وتعثرت لكنها غادرت المكان لا تلوي على شيء!

أغلقت الباب خلفها فاستقام الفتى في وقفته وكان قلبه يخفق في عنف ويضرب جدران صدره بدقاته وكأنه يستغيث، أدرك أن الخطوة الأولى في خطته قد أفلحت، كما كان موقنًا أنه في ذلك العشاء الذي ستقيمه في مساء الغد على شرفه سوف يقطع ـ بسكين مرهف النصل ـ كل علاقة له بهذه السيدة التي أعطته طوال سنوات ثلاث كل شيء، كل شيء... أعطته الحب، كما قدمت له صداقتها وأغرقته بحنانها وأمومتها الكامنة... خفق قلبه في لوعة، تعلقت عيناه بالباب،

تمنى لو أنه استطاع أن يعتذر لها. بل لقد هم في لحظة محمومة بأن يلحق بها، أن يناديها، أن يضاحكها ويمازحها ويأخذها بين ذراعيه ويضمها إليه كما تعود دائمًا أن يفعل معها... اكتشف رأفت الهجان في وقفته تلك أن قلبه يسيل حبًّا لإستر بلينسكي، فغامت عيناه وتداخلت أمامهما المرئيات وأدرك كم كان نديم هاشم على حق!

* * *

في الساعة العاشرة من صباح أحد أيام شهر أكتوبر عام ١٩٥٨، دق جرس التليفون في منزل العقيد محمد رفيق في إحدى عمارات شارع الإمام علي بمصر الجديدة... كان البيت ـ في ذلك الوقت من اليوم ـ خاليا إلا من زوجته السيدة شريفة علي سليمان الهجان!

كانت شريفة الهجان تعد مثالًا للسيدة المنتمية ـ قلبًا وقالبًا ـ للطبقة الوسطى المصرية التقليدية، علمتها تربيتها وسط إخوتها والصرامة في التوجيه والتدين والتزام الأخلاق أن ثمة تقاليد وعادات تعتبر الحيدة عنها جريمة لا تغتفر، ما إن أتمت دراستها الثانوية حتى تقدم زوجها لخطبتها فاكتفت بهذا القدر من التعليم راضية... تزوجت من ضابط ريفي الأصل متمسك بتقاليد قريته في حدود لا تزمت فيها... كانت معتدلة في كل شيء في ملابسها وزينتها ومطالبها وعلاقتها بزوجها... علمها أن البيت هو كل شيء، هو الملاذ والملجأ، فأعطت زوجها وولدها حياتها بكاملها، فهذا هو عالمها ودنياها ليس من ورائهما ما يستحق اهتمامها سوى شقيق عاثر الحظ أراد أن يعفيها حتى من وجوده فاختفى تاركًا في أعماق قلبها حزنًا عظيمًا كان يدفع بالدمع إلى عينيها كلما تذكرته.

تعودت شريفة ـ منذ أن تزوجت ـ ألا تستأجر أحدًا لخدمتها في البيت رغم أن زوجها كان قادرا على ذلك، بل لقد استجلب لها مرة ومرات فتيات من قريته كن يتقن للبقاء في القاهرة، لكنها أبت...

في ذلك اليوم كانت شريفة قد أمضت صباحها ككل صباح، قبل السابعة كان طارق جاهزًا بمريلته وحقيبة كتبه الصغيرة وسندوتشاته وحذائه اللامع لأن يستقل أوتوبيس المدرسة، ودعته عند الباب وهي توصيه بأن يأكل السندوتشات حتى لا تغضب منه، أطلت من الشرفة حتى ركب ولدها الأوتوبيس ولوح لها من النافذة، عادت إلى الداخل في نشاط كي تجهز لزوجها طعام إفطاره وكوب شايه الريفي وبعضًا من اللبن... جاءتها سعلته التقليدية من الحمام وهو يحلق ذقنه. هرولت إلى غرفة النوم تعد له بذلته الكاكية اللون ذات النسر الذي احتل على أكتاف الضابط مكان التاج وبجواره نجمتان، أحست بالفخر والسعادة وهي تقطع الصالة إلى المطبخ كي تجهز الشاي والإفطار، ما أن دخن زوجها سيجارته الأولى مع كوب شايه وتبادل معها كلمات حول «الولد» والمدرسة والأحوال حتى تعالى صوت بوق السيارة التي تقله إلى عمله... ودعها زوجها فعادت إلى واجباتها اليومية في همة، فلقد كانت على موعد مع «ثريا» صديقتها للتسوق في وسط المدينة... عندما دق جرس التليفون غزت وجهها ابتسامة سعيدة فلقد كانت قد انتهت لتوها من تجهيز طعام الغداء، عبرت المسكن إلى حيث التليفون وهي موقنة أنها ثريا تريد أن تستحثها على مغادرة البيت إلى محطة المترو حيث كان موعدهما معًا، رفعت السماعة هاتفة في مرح :

«أنا جاهزة يا ثريا».

جاءها من الطرف الآخر صوت مفعم بالحرج شديد الأدب:

«لا مؤاخذة يا فندم!».

ارتبكت شريفة وقد أدركت أنها تسرعت فلزمت الصمت حتى عاد الصوت مرة أخرى:

«أنا متأسف يا فندم، يا ترى ده منزل سيادة العقيد محمد رفيق؟».

في أسلوب مباشر وقد خمنت أن المكالمة تخص زوجها قالت:

«أيوه».

«يا ترى السيدة حرم سيادة العقيد موجودة؟».

انقبض قلبها لسبب غامض لكن ردها جاء كطلقة مباشرة:

«ليه؟!».

«معايا رسالة ليها».

في غضب من يستعد للانفجار - فقد ظنتها معاكسة سمجة - تساءلت:

«رسالة؟!... رسالة إيه؟!».

عاد الصوت يلح:

«بس هي موجودة؟».

كادت تعيد السماعة إلى مكانها لولا شيء منعها فقالت محتدمة الصوت:

«أنا حرم العقيد».

«أنا معايا رسالة لحضرتك».

«من مين؟!».

«من واحد اسمه... رأفت الهجان».

وكأن بركانًا قد تفجر في أعماقها على غير انتظار فإذا حممه تتدفق بجنون لا يرحم. خفق قلبها في عنف وها هو الجرح الغائر الكامن يلفظ دمه بغزارة، داهمها دوار عات وأحست برغبة شديدة في الصراخ وتدافع الدمع إلى عينيها، أصابها شلل حوّلها إلى تمثال يحتدم بالفرحة والخوف والقلق والارتباك جميعًا... آه من الجرح المزمن عندما يتفجر ألمه

الكامن تحت السطح فإذا الحلق يغتسل بطعم الدم المختزن فيه... ثلاث سنوات مضت منذ ودعها ها هنا، في هذا البيت... فوق هذا المقعد كان يجلس.. اختفى رأفت وهي موقنة أن سر اختفائه هو رغبته في سعادتها لا البعد عنها، لم تعد تسمع عنه شيئًا سوى ما يدمدم به زوجها أو أحد إخوتها إذا ما جاءت السيرة!

«ألو».

هكذا جاءها الصوت من الطرف الآخر مترددًا. حاولت أن تتماسك دون جدوى.

«أيوه...».

جاءت كلمتها مرتعشة بالرغم منها مرتجفة باللهفة مغموسة في دمع راح ينهمر بلا انقطاع.

«حضرتك معايا يا مدام؟!».

«أيوه!».

«باقول لسيادتك أنا معايا رسا... ... ...».

«هو فين؟!».

ساد الصمت لثوان قال بعدها صاحب الصوت:

«هو مين يا فندم؟!».

«إيه أخباره؟!».

«يظهر إن سيادتك مش... ... ...».

«آخر مرة شفته كانت إمتى؟!».

«يا مدام الحكاية إن... ... ...».

«صحته كويسة؟!».

«أنا ما اعرفش غير... ...».

«يعني هو مش عيان ولا حاجة؟!».

«يا ريتني أعرف!».

ترقرقت الكلمات فوق قطرات الدمع المتحدر على وجنتيها بلا توقف، توسلت:

«فين رأفت؟!».

ساد الصمت على الطرف الآخر فهل تركها حامل الرسالة ومضى؟!

«ألو...».

«أفندم!».

«هو رأفت في مصر؟!».

قبل أن يأتيها الرد تلهفت:

«ساكن فين؟!».

«يا مدام!».

«عنوانه إيه؟!».

كاد الصوت يصرخ:

«ما عرفش... أنا ما عرفش حاجة عنه خالص».

«يبقى رأفت جرى له حاجة!».

«يا ستي ده مش صحيح».

«إذا كان جرى له حاجة قول لي على طول!».

«اسمعيني من فضلك!».

«عاوز تقول إيه؟».

«أنا ماعرفش الأستاذ رأفت شخصيًا ولا عمري شفته!».

«أمال إداك الجواب إزاي؟!».

«يا فندم أنا...».

«أرجوك ما تخبيش عليَّ!».

«ما هو لو سيادتك سمعتي الـ... ... ...».

«هو الجواب مش معاك؟!».

«معايا يا فندم!».

«بيقول إيه؟!».

«ماعرفش حضرتك ده الجواب مقفول».

توقف صاحب الصوت لاهثًا. جاءتها أنفاسه مضطربة عبر السماعة فلا بد أن شيئًا قد حدث لرأفت... لا بد أن يكون... ...

«من فضلك فين الجواب؟!».

كان بكاؤها الآن صريحًا لا مواربة فيه.

«تحبي أجيبه لسيادتك».

«ياريت!».

«إمتى... ...».

«دلوقت!».

«حاضر!».

«العنوان... ...».

«العنوان مكتوب على الظرف يا مدام. أنا بعد ساعة حاكون عندك!».

همت بالحديث لكن السماعة وضعت على الطرف الآخر... تمنت لو أن المتحدث لم يضع السماعة حتى تستزيد منه شيئًا عن أخيها، في بطء أعادت السماعة وجلست على مقعد قريب وكان دمعها مطرًا لا يتوقف، حدثها قلبها بآلاف الأشياء، استجلبت ذاكرتها أحداث السنين فإذا بمطر الدمع يزداد انهمارًا، راحت ترتجف وتنهنه وهي تهمس باسم شقيقها من خلال شفتين مبللتين... ترى أين رأفت؟!... وماذا صنعت به الأيام بعدما صنع به الأهل ما صنعوا؟!... هل لا يزال يبحث في هذه الدنيا عن مقر ومستقر أم إنها أخيرًا قد رحمته وآوته وأعطته بعضًا من سعادة لم يعرف لها طعمًا منذ ماتت الأم ومات الأب من بعدها حزنًا عليها... انتفضت من استغراقها عندما دق جرس التليفون ورفعت السماعة فجاءها صوت ثريا هاتفًا في احتجاج مرح:

«إنتي لسه في البيت يا شريفة؟!».

«ثريا... أنا مش حاقدر آجي معاكي».

«مالك يا شريفة؟!».

«ولا حاجة».

«هو انتوا ما بتبطلوش خناق أبدًا؟!».

«إحنا ما تخانقناش».

«أمال إيه بيكي؟! صوتك متغير».

«ثريا... معلش، روحي إنتي لوحدك النهار ده وخليني أنا ليوم تاني».

«تحبي آجي لك؟!».

«لأ... لأ يا ثريا!».

جاء رفضها حادًا حاسمًا فساد الصمت لثوان قالت بعدها ثريا:

«براحتك يا شريفة!».

«مع السلامة».

قالتها شريفة وهي تعيد السماعة إلى مكانها دون أن تنتظر ردًّا، فلقد كان عليها الآن أن تستعد لاستقبال الضيف الذي لا تعرفه!

* * *

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يذهب فيها عزيز الجبالي إلى بيت العقيد محمد رفيق، فهو ـ عندما اتخذ قراره بأن يوصل الخطاب بنفسه ـ قام بزيارة للشارع وعرف البيت ورقم الشقة!

صَدَقَ الفتى في كل ما قاله وكل ما ذهب إليه ولم يكذب مرة واحدة منذ أن التقى بمحسن ممتاز، فأي معدن هذا من البشر الذي إذا ما وجد السبيل سار على الدرب دون أن تراوده نفسه للحظة بأن يتنكبه؟!

ما إن سمعت شريفة اسم أخيها حتى تفجرت عواطفها شلالًا أربكه وأوقعه في الحيرة حتى كاد ينسحب ويرسل الرسالة مع رسول غيره... لم يكن صوتًا هذا الذي سمعه عزيز الجبالي عبر سماعة التليفون لكنه كان دمعًا يتحدث ولوعة تحترق شوقًا لمعرفة شيء عن الشقيق الغائب... وكان الآن وهو في طريقه إلى شارع الإمام علي بمصر الجديدة يقاوم ذلك الطوفان من العواطف التي يجيش بها صدره... منذ أن سمع صوت شريفة المبلل بالدمع وهو مشفق على نفسه، يتحسس الخطاب الذي أغلقه منذ أيام وبداخله الجنيهات المائة، يقترب حثيثًا بالسيارة من الشارع فيخفق قلبه متسائلًا عما يمكن أن يلقاه إذا ما التقى بها وجهًا لوجه، ما إن انحرف إلى الشارع حتى تعلقت عيناه بالبيت، في شرفة الطابق الثالث كانت شريفة هناك تبحث عن سيارة أو من يحمل خطابًا من رأفت... مر بالبيت دون أن يتوقف أو حتى يهدئ من السرعة، انثنى إلى شارع جانبي كي يختفي عن عينيها تمامًا، أوقف السيارة وظل ساكنًا

في مكانه في محاولة لالتقاط أنفاسه... غادرها وعاد إلى شارع الإمام علي من الاتجاه الآخر. لم يرفع عينيه إلى أعلى، ولم ينظر نحو شريفة وكان واحدًا من عشرات المارة الذين يعبرون الطريق في تلك اللحظات، لكنه يقسم ـ وحتى اليوم! ـ أنه أحس بنظراتها تكاد تخترق رأسه، دلف إلى البيت وراح يصعد الدرج على مهل، ما إن وصل إلى الطابق الثالث حتى وجدها في انتظاره، فكيف عرفته؟!

كيف عرفت أنه هو؟!

كيف أدركت أنه يصعد ـ الآن ـ سلم البيت إليها؟!

كيف انتظرته بهذه الثقة موقنة من أنه حامل الرسالة؟!

لا بد من السير في الشوط حتى نهايته ولو راودته نفسه بالتراجع، كانت عيناها حمراوين وتقاطيعها منتفخة من أثر بكاء حار... أخرج الرسالة وقد توقف قبل درجتين أو ثلاث، وهم بالحديث عندما جاءه صوتها كضربة مطرقة:

«اتفضل».

أتت الكلمة جافة باترة بلا تحية ولا مقدمات وكأنها تصرخ فيه أن يكف عن ألاعيبه. تسمر في مكانه وأراد أن يعطي نفسه فرصة للتماسك. قال:

«مدام شريفة الهجان؟».

«اتفضل».

للمسكن بابان، أحدهما يوصل إلى البيت والآخر كان مفتوحًا ويوصل إلى غرفة الاستقبال، أفسحت له الطريق وتركت يده الممتدة بالرسالة، ولم يكن أمامه سوى الدخول فدخل، وجد نفسه في غرفة استقبال تقليدية وإن كانت تنبئ عن بعض اليسار، دخلت وراءه فوقف في منتصف الغرفة وما زالت الرسالة في يده... تركت الباب

مفتوحًا واتجهت إلى مقعد وأشارت إلى مقعد مقابل وعادت تقول في إصرار:

«اتفضل».

لم يكن أمامه سوى الاستجابة لكنه ما كاد يجلس حتى جاءه صوتها متسائلا:

«فين أخويا؟!».

رأى عزيز الجبالي في شريفة الهجان النسخة الأنثوية من شقيقها، الجسد الرقيق والملامح الدقيقة والسمرة الخفيفة والشعر الأسود ينسدل على كتفيها مهذبا ينبئ عن استقامة خلقية واحترام شديد للنفس... تمنى لو أنه لم يأت، فلقد كانت شريفة تقاوم طوفانًا من الدمع كان يتدافع إلى العينين فيكسوهما مترقرقًا خلف الجفون، هم في جلسته نحوها وهو يمد يده بالخطاب لكنها ظلت جامدة دون حركة وعيناها مسددتان إلى وجهه في نظرة ثابتة لا تتحول ولا تحيد!

«رأفت فين؟!».

«يا مدام أنا نفسي أوضح لك حاجة مهمة جدا».

«اتفضل».

«أنا ما اعرفش حاجة خالص عن الأستاذ رأفت».

«أمال الجواب ده جالك منين؟!».

هل يصمد ذكاؤه وخطته أمام إنسان يضطرم باللهفة والشوق والقلق؟!

«أنا ليّ واحد صديقي بيشتغل في السعودية بقى له كام سنة، وكان في إجازة في أوربا، وهو راجع السعودية عدى على مصر... وفي الحقيقة هو كان مشغول جدًا لأنه ما قدرش يقعد هنا أكتر من يوم واحد...

قبل ما يسافر رجاني أني أجيب لسيادتك الجواب ده. وأديني جبته... اتفضلي».

هم إليها بالخطاب لكنها ظلت على جمودها، أعادته نظرتها الثابتة إلى مكانه، سألته:

«يعني رأفت في السعودية والا في أوربا؟!».

كانت تحاصره، بل تكبله، هتف محتجًّا:

«يا فندم أنا ما اعرفش عنه حاجة أبدًا».

«يعني هو كويس؟!».

يا لهذه السيدة الدقيقة الحجم وما يفعله ضعفها ولهفتها به!! جامدة هي كالمقعد الجالسة عليه رغم يده الممدودة في إلحاح، طال الصمت ويده ممدودة وصمتها مقيم، بحث عن رد فلم يجد، هبطت يده إلى ركبته حائرًا، هرب من نظرتها فلقد خشي أن تفضحه عيناه، عادت تسأل:

«رأفت عيان؟!».

«طب أقول لسيادتك إيه؟!».

«يعني هو مش عيان؟!».

«صدقيني أنا لا أعرفه ولا عمري شفته ولا سمعت عنه إلا من صديقي ده!».

«طب هو فين دلوقت؟!».

انتفض عزيز في مكانه ألمًا، تجمع الدمع في الحدقتين ثم راح ينساب إلى الوجنتين في صمت.

«ممكن سيادتك تاخدي الجواب، يمكن يطمنك!».

نهض إليها مقدمًا الخطاب قائلًا:

«خدي الجواب!».

امتدت يدها كي تأخذ الخطاب وتعود به إلى حجرها فعاد عزيز إلى مقعده، راحت أصابعها تبحث عن طريقة لفتح المظروف وكانت عيناها متشبثتين به كمن تخشى من هربه... فتحت الخطاب وألقت إليه بنظرة خاطفة فطالعتها الأوراق النقدية فعادت تغلق المظروف من جديد. ازداد انهمار الدمع وجاءته كلماتها باكية:

«يعني هو كويس وسليم؟!».

تمنى عزيز لو أنه استطاع أن يبكي، تمنى لو أنه اختلى بنفسه وترك لمشاعره العنان فلقد كان يشعر برأسه يكاد ينفجر، احتقن وجهه ولم يرد عليها فلم يكن هناك ما يمكن أن يقوله أو يفعله، عادت تفتح المظروف وتسللت أصابعها إلى الرسالة لتخرجها... فردت الورقت المطوية وراحت تقرأ، كان الخطاب مكونًا من بضعة أسطر، لكن عينيها ظلتا تتمسحان بالكلمات والخط الذي عرفت فيه خط شقيقها... فجأة رفعت إليه عينيها متسائلة:

«قول لي بصراحة... رأفت في السجن؟!».

أدرك عزيز أن كل ما كانت تفعله منذ أن جاء كان اقترابًا من هذا السؤال، أراد أن يطمئنها لكنه وجد في سؤالها الدامي فرصته وطوق نجاته، هم واقفًا وهو يتصنع غضبًا لم يكن له أثر وهو يقول وعيناه على الباب المفتوح المؤدي إلى السلم:

«سجن؟!.... سجن إيه يا مدام؟!».

توسلت والدمع ينهمر:

«من فضلك قول لي!».

انتفض عزيز:

«هي حصلت للسجون يا ست هانم؟!».

اندفع نحو الباب فرارًا فجاءه صوتها راجيًا:

«يا أستاذ!».

عند الباب توقف مستديرًا، أمده مخرجه من ورطته بشجاعة جعلته ينفي ظنها:

«يا مدام أنا راجل محترم، صديقي كمان إنسان محترم، ما اعتقدش إنه يعرف ناس بيدخلوا السجن!».

همت بالنطق فصاح محتجًّا:

«عن إذنك!».

وعبر الباب قافزًا درجات السلم قفزًا حتى كاد ينكفئ... لكنه ما إن غادر البيت وأصبح في الطريق... حتى تنفس الصعداء، وكان كل ما يعنيه الآن أن يصل إلى سيارته، قبل أن تفر من عينيه دمعة قاوم طويلًا حتى لا تنحدر!

* * *

كانت دموع هيلين سمحون تنحدر صريحة عندما زفر عزيز الجبالي قائلًا: إنه ظل قرابة يومين كاملين بعد هذا اللقاء وصورة شريفة الهجان لا تغادر مخيلته، بل إن تلك الصورة تلح عليه أحيانًا كلما تذكر رأفت... غير أنه ـ ومنذ ذلك اليوم ـ أحس أن ارتباطه بالفتى قد أصبح أكثر عمقًا وقوة... وهو يذكر أنه كان ـ وهو يقود السيارة في شوارع القاهرة ـ يحاول أن يحبس الدمع بجهد شديد، يذكر أنه كان يتساءل وهو يرى الناس في الشوارع يروحون ويغدون ويعيشون حياتهم في أمان... هل يعرف أحد منهم أن ثمة إنسانًا يضع نفسه في قلب النار، يحترق في كل لحظة من ليله ونهاره بالقلق والحرمان والعذاب، من أجلهم؟!.... وهل يعرفون أن اسمه «رأفت الهجان»؟!

وعلى كل... فلقد كان أمام عزيز الجبالي مهمة بدت له في غاية

الأهمية... كان يقينه الآن أن هذه السيدة لن تسكت وأن الرسالة سوف تدفعها إلى السؤال، وقد يقودها السؤال إلى كشف سر الفتى... أبسط ما تراءى له في خياله صورة منشورة في إحدى الصحف اليومية لرأفت الهجان، مكتوب تحتها اسمه مشفوعًا بنداء من شريفة تطلب إليه العودة... أية كارثة من الممكن أن تحدث للفتى لو أن شقيقته فعلت ذلك؟!

كان عليه أن يضع خطة كي يمنع كارثة!!

كان عليه أن يسكت شريفة!!

الفصل العاشر

إنّها تحبّك بجنُون يا ديڤيد

نام الفتى في تلك الليلة التي وصل فيها إلى إسرائيل نومًا متقطعًا.. كان كلما أوغل الليل، أوغل هو في التفكير، وازداد اقتناعًا بأنه لا بد أن ينفصل، بل ويبتعد تمامًا عن إستر بلينسكي.

ألحت عليه البداية!

تذكر كيف تسللت إستر إلى حياته وكيف ارتبطت به وكيف قاوم، لكنه عاد فتناسى الأمر واستمر حبها له ورعايتها إياه... أيقن أنه كان ينزلق إلى حبها بهدوء ودون أن ينتبه إلى خطورة ما كان يحدث... تذكر قول محسن ممتاز، ومن بعده نديم هاشم الذي كان يلح عليه:

«خليك هوائي يا ديڤيد... وخليهم يعرفوا عنك إنك هوائي مش بتاع حب أو ارتباط!».

بدا له نديم شخصية فريدة وغريبة وجذابة في نفس الوقت، طالما احتج على اسم ديڤيد الذي كان يناديه به، لكن نديم ببراعة فائقة كان يتحاشى الرد ويستمر فيما هو فيه ولا يناديه باسم رأفت إلا في النادر... استطاع هذا العملاق المفتول العضلات المهذب الكلمات والأسلوب، صاحب النظرات النارية، أن يجعله متقدًا بالإيمان والرغبة في العمل...

كان إحساسه بما تعلمه يدفعه إلى حماس بلا حدود... اقتنع بالحجج التي ساقها إليه نديم... وبصرف النظر عما انتابه من مخاوف في الأيام الأخيرة كان سببها قلة المال والتوتر من أجل الاستمرار... وكانت تكفيه نظرة واحدة إلى مكانته في مجتمع تل أبيب، حتى يؤمن بأنه الآن في وضع أفضل وأقوى مما كان عليه قبل عام أو عامين، وأن السنوات الثلاث التي مضت، إنما كانت تدعمه وتدعم مكانته وتحيطه بسياج كثيف من الأمن من الصعب اختراقه... فهو الآن يستطيع أن يتحرك بسهولة ويسر وثقة، يستطيع أن يجند العملاء ويبحث عن الأسرار مطمئنًا فاهمًا واعيًا لدوره!

فكر رأفت فيمن يمكن أن يرشحهم من شخصيات، فتذكر أيضًا قول نديم:

«ما تستعجلش، أنا عارف انت قد إيه متحمس... لكن ثق تمامًا أن نظرتك ليهم دلوقت وبعد ما اتعلمت كل اللي اتعلمته ده، حاتختلف... استنى لما ترجع إسرائيل، وادّي لنفسك فرصة كاملة... وتأكد من كل خطوة من خطواتك قبل ما تخطيها، إحنا مش مستغنيين عنك!».

كلما أضناه التعب وغفت عيناه قليلًا تراءى له وجه إستر الشاحب وهي تنسحب كمن تلقت طعنة غير منتظرة، فإذا به يقفز من فراشه قلقًا مشفقًا... انقضت الليلة، وكان عليه أن يستعد للقائها في المكتب، كما كان عليه ـ أيضًا ـ أن يستعد للعشاء الذي ستقيمه على شرفه في المساء.

غير أنه راح يتساءل ـ وقد غادر فراشه مبكرًا ـ فيما عساه أن يقوله لها إذا ما دق جرس التليفون وكانت هي المتحدثة كالعادة؟!...

أدرك أنه ـ مع قلة نومه وتوتره ـ لن يستطيع الإمساك بدفة الحديث، فإما أن يهزم، وإما أن يكون قاسيًا مثل قسوته بالأمس... فضل أن يغادر البيت قبل موعده، وأن يتناول إفطاره في كافيتريا قريبة من المكتب كان قد تعود أن يحتسي فيها قهوة الضحى، وأن يبتاع منها غداءه إذا ما استدعى

الأمر بقاءه في الشركة... راح ـ وهو يتناول إفطاره في الكافيتريا ـ يفكر في الخطة التي وضعها للمساء، أخذ يتحسس الوجوه المحيطة به، ويحيي الذين يعرفهم ويتبادل معهم كلمات مجاملة وعيناه تخترقان جماجمهم... كان ـ كلما التقى بشخص يعرفه ـ يفكر دون إرادة منه، فيما إذا كان هذا الشخص يصلح أم لا يصلح... يقينه الذي لم يتزحزح حتى آخر أيام حياته أن «الولاء» للوطن في إسرائيل أمر مشكوك فيه خاصة من هؤلاء الذين لم يولدوا في فلسطين وكانت لهم أوطان من قبل. انتهى من إفطاره وقطع الطريق إلى المكتب سيرًا على القدمين... تسكع قليلًا في شارع يوشع بن نون وهو يتأمل الحياة تدب من حوله، وكان يهرول إلى عمله... هذه هي إسرائيل إذن، هذه هي العاصمة تل أبيب... قبل أن يأتي إليها كان يشعر بأن إسرائيل لغز يستعصي على الحل... لكنه الآن في قلب هذا اللغز، يقلب صفحاته ككتاب مفتوح... ترى ما الذي سيفعلونه به لو أنهم عرفوا أنه مصري، لو أنهم عرفوا أنه قفز بمظلة خفية ليواجههم في عقر دارهم... عندما كان يحكي لنديم هاشم عن المجتمع الإسرائيلي، رأى الرجل أمامه كالنشافة ـ هذا تعبيره ـ يمتص كل كلمة بل كل حرف في شغف بالغ... أحس في تسكعه أنه يؤجل لحظة لقائه بإستر، ولم يكن هناك مفر من لقائها، عبر الشارع، وما إن وصل إلى باب المبنى حتى وجدها أمامه وجهًا لوجه، أقبلت عليه في لهفة:

«بوكير طوف!».

«بوكير طوف إستر».

ألقت عليه تحية الصباح بالعبرية فردها وهو يتجنب النظر إلى وجهها، كانت شاحبة منتفخة العينين كمن لم تذق للنوم طعمًا طوال الليل...

«ديفيد!».

التفت إليها مبتسمًا تلك الابتسامة الفاترة التي لا تعني شيئًا.

«لِمَ غادرت البيت مبكرًا؟!».

عبر مدخل المبنى وهو يتمتم بكلمات لا معنى لها، لاحقته ملحة:

«طلبتك في التليفون وعندما لم ترد انتابني القلق!».

في صمت دلفا إلى الشركة فاتجه إلى مكتبه دون كلمة، عكف على بعض الأعمال وبدأ يجري اتصالاته من أجل استقبال الأفواج القادمة من إيطاليا، كتب ردًا على البرقية الفرنسية وأعطاه لإستر كي ترسله، انهمك في العمل فوجد في انهماكه هذا مهربًا من أزمته، بدأت إستر في تحين فرصة لحوار كان يعرف كيف سيدور، تهرب مرة ومرة، لكنها راحت تضيق عليه الخناق حتى وقفت أمامه في لحظة منتصبة شاحبة بيضاء الشفتين، أحس بقبضة تهتصر قلبه اهتصارًا فنهض قبل أن تتفوه بكلمة قائلًا إنه مضطر للانصراف لأنه على موعد هام وقد لا يعود إلا في الغد، همت بالحديث فألقى إليها ببعض التعليمات وطلب إليها إجراء بعض الاتصالات وكان يتساءل عمن عساها تستطيع أن تملأ مكان إستر بلينسكي، ليس في حياته فقط، وإنما في العمل أيضًا، عندما خطا نحو الخارج هتفت ملتاعة:

«ديڤيد!».

استدار إليها فتوسلت:

«هل ستأتي على العشاء؟!».

استنكر سؤالها:

«وهل في هذا شك؟!».

«لا تتأخر أرجوك، إن الجميع في لهفة للقائك!».

هز رأسه إيجابًا وهرول مغادرًا المكان، راح يضرب في الشوارع على غير هدي، عزف عن العمل فعاد إلى البيت... كان أول ما فعله هو

إجراء مكالمة تليفونية مع من تدعى «ريفكا وايزفيتش» ـ هذا هو اسمها الحقيقي!! ـ حمراء الشعر هي، باهرة الحسن ذات جسد متناسق، مجندة في جيش الدفاع الإسرائيلي متعصبة لصهيونيتها بضرواة متجانسة مع شعرها المشتعل وعينيها الباردتين الشديدتي الزرقة، هي صديقة قديمة لإستر التي كانت تخشاها خشية الموت نفسه، منذ أن تعرف إليها وإستر تخوض معركة ضارية كي تبعدها عنه ولقد أفلحت، قالت له ذات يوم في معرض الحديث عنها إنها تعمل لحساب الموساد، فأعطته بذلك تفسيرًا لتصرفات تلك الفتاة الغريبة وسفراتها المتعددة إلى الخارج، ترك للمعركة بينها وبين إستر أن تأخذ مداها، وكان انتصار إستر عليها جزءًا من تدبيره، فلقد آثر وقتها أن يبتعد عن الشر... ولكن، ها هو يقترب من عرين الوحش ثابت الخطا، جاءه صوت على الطرف الآخر فسألها دون تحية إن كانت مرتبطة على العشاء في تلك الليلة، هتفت ريفكا وقد تعرفت على صوته:

«حتى لو كنت مرتبطة أيها الثعلب، أين كنت طوال تلك الأيام؟!».

«في إيطاليا».

«هل تريد دعوتي على العشاء؟!».

«إنني مدعو وفي حاجة لمن أستند إليه!».

صمتت الفتاة على الطرف الآخر، فلقد كان معنى ذهابه معها إلى حفل عشاء دعي إليه أنه يعلن على الملأ نوعًا من الارتباط بينهما، لم ترد لثوان فلزم الصمت هو الآخر، سألته في شك:

«هل أنت متأكد؟!».

كان يعلم ما الذي تقصده بالضبط.

«لست من هواة المغامرة».

في وضوح جارح سألته:

«وماذا عن إستر؟!».

«إنها هي الداعية».

جاءته شهقتها فضحك بالرغم منه هاتفًا:

«ماذا بك؟!».

جاء صوتها بعد ثوان:

«سأكون جاهزة في تمام السابعة والنصف».

قالتها في حماس شامت وهي تعيد السماعة إلى مكانها بسرعة وكأنها تخشى من تراجعه!!

* * *

إن نسي رأفت الهجان شيئًا، فهو أبدًا لن ينسى ولا يستطيع أن ينسى عدوان ١٩٥٦، سلحته ذكرى هذا العدوان الرخيص بدروع واقية ضد العواطف أو غيبوبة التعايش مع هؤلاء الناس، عندما أخبره الميجور إلياهو جادوسكي بنبأ العدوان لم يصدقه. لكنه آثر أن يرسل ما نما إلى علمه تحسبًا، كان يعلم أنه غير مطلوب منه شيء، لكنه لم يستطع، وعندما وقع العدوان كاد يصاب بالجنون، كان ينظر حوله في الشوارع والبيوت والمقاهي والمطاعم والمكاتب فيرى الناس وقد انتابتهم حالة هستيرية ورغبة عارمة في التدمير، عاش وسطهم واستمع إلى منطقهم وتناقش معهم لكن شيئًا واحدًا ظل جامدًا كالصخر في وجدانه... هو هذا العداء المروع لبني وطنه... في تلك الأيام كانت إسرائيل تعيش في فرح وحشي مفعم بالشماتة... عندما أعلن بن جوريون في الكنيست ضم سيناء إلى إسرائيل بلغت السعادة من حوله آفاقًا طاولت السماء، اندب الحزن في قلبه كسكين حاد النصل، آثر الوحدة لأيام وهو يفكر في أغنياء اليهود ومتوسطيهم وفقرائهم وهم يعيشون في مصر قرونًا بعد قرون ويتعاملون مع الناس ويأكلون طعامهم ويشربون شرابهم فما

شعر يومًا بالعداء نحوهم... فلم كل هذه الكراهية لوطنه وبنيه؟!

عندما أممت قناة السويس كان التأميم عودة الحق إلى أصحابه، ولم يكن يضير إسرائيل في شيء... ولطالما جمعته الجلسات الطويلة مع إستر في تلك الأيام، وكان إلياهو جادوسكي مشغولًا بالحرب، فإذا بها كتلة من الغل لا حدود لها... لم تكن إستر قد ذهبت إلى مصر أو عاشت فيها لكنها بدت له وكأنها رضعت كراهية المصريين من ثدي أمها... فهل ينسى أنه مصري؟!

وعلى غير ما توقع الفتى وجد العشاء في بيتها مزدحمًا بالمدعوين، وفيما عدا إستر وزوجها وجد هناك يوسف الأزرع وجدعون شاباتاي وسيبيل يوسف وبيخور شطريت وزوجته الشمطاء وإيزاك بن عميتاي وزوجته سارة عمرام، وصحفيًا كان في صحبة عضو في الكنيست الإسرائيلي حاولنا عبثًا أن نحصل على اسميهما.

كانت إستر ـ رغم شحوبها والحزن المطل من عينيها ـ متألقة أشد ما يكون التألق... ارتدت ثوبًا في لون النبيذ وقد عقصت شعرها بالطريقة التي كان يفضلها... بدت عصبية المزاج عالية الصوت كثيرة الضحك بسبب وبلا سبب... أصابتها رؤيتها لريفكا وايزفيتش بنوع من هستيريا المرح... وصل إلى الحفل متأخرًا عن الموعد قليلًا... عندما مر على «ريفكا» استمهلته قليلًا فانتظرها في السيارة وكان يعلم أنها تتلكأ عن عمد. اكتشف في تلك الدقائق أنه عصبي المزاج، فلقد كان موقنًا أنه مقبل على معركة لا بد من حسمها في نفس الليلة وإلا فلسوف يطول الأمر... عندما هلت عليه ريفكا انتفض مغادرًا السيارة وقد اجتاحته دهشة بالغة... كانت الفتاة ترتدي ثوب سهرة في لون السماء، زينتها بسيطة، لكن شعرها بدا وكأنه شعلة لا تنطفئ... دار حول السيارة كي يستقبلها وفتح لها الباب متمتمًا:

«لست في حاجة إلى كل هذا!!».

لم تسمعه ريفكا جيدًا فسألته وهو يدلف إلى السيارة:

«ماذا قلت؟».

أدار الموتور وهو يقول في صوت واضح:

«كنت أقول إنك لست في حاجة إلى كل هذا، فوجودك وحده يكفي!».

ظنته الفتاة يغازلها فأشرق وجهها وهي تهتف ملتفتة إليه:

«كيف واتتك الشجاعة؟!».

«أتريدين معرفة الحقيقة؟!».

قالها متحديًا فصمتت الفتاة لثوان، وكانت السيارة تسير بحذاء شاطئ البحر، لكنها ما لبثت أن قالت في حسم:

«لا...».

* * *

هلل الجميع لوصول الفتى وأبدوا من المشاعر الطيبة ما كان قد افتقده طويلًا قبل رحلته الأخيرة إلى إيطاليا... ألقى رأفت بنفسه وسطهم وتجنب النظر إلى إستر وترك للمفاجأة أن تفعل فعلها واندمج في حديث حميم مع الكولونيل بيخور شطريت حول نوع فاخر من النبيذ استجلبه معه من إيطاليا خصيصًا من أجله... سال لعاب الكولونيل وهو يتودد إليه معتذرًا عن تلك الأيام التي اختفى فيها قائلا إن ثمة أعمالًا هامة قد شغلته... ما كاد الكولونيل ينفرد بالفتى حتى اقتحم عليهما الحديث جدعون شاباتاي الذي أقبل متهللًا:

«لقد افتقدتك كثيرًا يا شريكي العزيز!».

أعطى الفتى ظهره لبيخور شطريت كما أعطى اهتمامه كله لجدعون شاباتاي.

«أما أنا فلقد افتقدت سيارتي الأوتوبيس!».

«حدثني يوسف في الأمر».

التفت الفتى نحو يوسف الأزرع، ذلك المحامي الثعلبي الوجه وكان جالسًا في أحد الأركان التي تتيح له فرصة رؤية الجميع متظاهرًا بالاندماج في الحديث مع سيبيل يوسف صديقة جدعون، سأل الفتى شريكه السابق وعيناه على يوسف:

«ما الذي حدثك به؟!».

«قال إنك تريد استئجار السيارتين لعشرة أيام».

«مع بعض التعديل».

قالها في صوت واضح فالتفت نحوهما يوسف الأزرع، وقال جدعون:

«وما هو هذا التعديل؟!».

«إن هناك عروضًا أرخص لأوتوبيسات أفضل!».

«ولكنك اتفقت مع يوسف بالفعل!».

«كنت راغبًا في الاتفاق حقًا، لكن محاميك رفض أن يعطيني كلمة نهائية!».

هم شاباتاي بالرد لكن الفتى لمح الميجور إيزاك بن عميتاي فاندفع نحوه متهللًا:

«كيف حالك أيها الجنرال؟».

بدا له إيزاك بن عميتاي بائسًا بؤسًا لا شك فيه، منذ أن تعرف إليه عرف أنه مهندس في سلاح الطيران الإسرائيلي، ترك الرجل زوجته المنطوية وأقبل على الفتى مرحبًا متملقًا، التقى به منذ عام وبعض عام حول المائدة الخضراء، وجد فيه مقامرًا يتقن فنون المقامرة إتقانًا

لا شك فيه، لكنه يتقن معها فنًّا آخر هو فن الخسارة... التقى به مرات قليلة كانت كافية لأن يميل عليه الميجور بن عميتاي طالبًا قرضًا يسدده حين ميسرة، رغم حاله وقلة ماله في تلك الأيام، فلقد أقرضه الفتى ما أراد لكنه لم يسترد القرض حتى الآن. تردد الميجور على مكتبه بضع مرات وكان يشكو من سوء الحال، علم الفتى منه أنه يعمل في إحدى القواعد الجوية، لكنه أبدًا لم يتحدث عن عمله، ولم يجرؤ الفتى بالتالي على سؤاله... عندما هاجر إلى إسرائيل جاء إليها يحدوه الأمل في حياة رغدة، ومن ذا الذي يرفض السلام والحرية، وعبادة الرب دون انتظار الجزاء؟!... قاده إلى أرض المعاد ذلك «المثل الأعلى» فإذا الواقع شيء آخر، كانت الصدمة عنيفة فانتابه الدوار لسنوات، وعندما أفاق من دواره وأراد التراجع وجد نفسه زوجًا وأبًا لثلاثة أطفال...

كان يبذل في عمله قصارى جهده، لكن الأشياء من حوله كانت بعيدة كل البعد عن أحلامه... وجد المبشرين بالسلام في واقع الأمر دعاة حرب ووجد دعاة الحرب ممثلين يؤدون أدوارًا تنطلي على الناس الذين يأكلهم القلق والخوف والفزع وهم يتلفتون حولهم فإذا بهم يسبحون في محيط من الرفض، رأى بعيني رأسه من يحتلون المناصب الرفيعة في الجيش مثل بهلوانات السيرك، يضرب كل منهم صاحبه في ظهره، ثم يستدير متظاهرًا بأن لا علاقة له بالطعنة، ويتحين الآخر الفرصة حتى يرد الضربة في الظهر أيضًا... ولو كان هناك متفرجون لاستغرقوا في الضحك... كان إيزاك بن عميتاي يقول للفتى إنه يشعر بأنه محاصر وعاجز، وعندما لجأ إلى زوجته يطلب عونها وجدها غارقة في جماعة دينية متزمتة ترفض الصهيونية وتتشبث بأرض المعاد، كانت سارة عمرام قد ضاعت بعد أن ضاعت منها الأحلام، انطوت على نفسها وتفرغت للعبادة وتربية الأولاد، ورضيت بنصيبها من الدنيا وقد اقتنعت بأن هذه هي إرادة الرب... وجد نفسه وحيدًا وسط عالم لا ينتمي إليه فلجأ إلى الخمر لكنها لم تعطه الخلاص المنشود...

على المائدة الخضراء وجد خلاصه فتشبث بها يحدوه الأمل في كل ليلة بأن يكسب ويظل يكسب حتى يحقق في الخيال أحلامه، لكنه - في كل ليلة - يعود إلى زوجته خالي الوفاض حتى أدمن الخسارة إدمانًا لا شفاء منه... التصق بن عميتاي بالفتى التصاق من وجد فيه ضالته، قال في حرارة - وقد وصل الحفل إلى ذروته - إنه افتقده في الفترة الأخيرة كثيرًا... وعندما لمح على شفتي الفتى تلك الابتسامة الساخرة راح يقسم بكل ما هو مقدس أنه سأل إستر مرات لكنها كانت ترده في كل مرة... طال الحديث بينهما وكان رأفت قد استكان إلى موقعه من المكان وراح يرقب ما يدور حوله من طرف خفي.. ألمح الفتى إلى أنه يبحث عن مجموعة محترمة يمارس معها اللعب دون غش أو اتفاقات جانبية تلهف بن عميتاي قائلًا:

«إني أعرف مكا...».

قاطعه الفتى:

«إن المبالغ التي تلعبون بها لا تستحق مجرد الجلوس إلى المائدة!».

برقت عينا إيزاك وقد وصلته رسالة الفتى وقال:

«إني أعرف مجموعة رفيعة القدر نظيفة اللعب!».

ضحك رأفت ضحكة مقتضبة وهم بالانصراف عندما تمسك به الميجور:

«إنهم من علية القوم صدقني!».

تململ الفتى:

«يا عزيزي إيزاك، أنت تعرف أني لست راغبًا في تضييع الوقت فيما لا جدوى منه!».

«إن من بينهم ألوف مشنيه دان رابينوفيتش!».

برقت عينا الفتى فها هو القدر يسوق إليه صيدًا ثمينًا، إن رتبة «ألوف مشنيه» بالعبرية تقابل رتبة العقيد.

«ولكن دان لا يقامر!».

«بل يفعل بين الحين والحين!».

ابتسم الفتى ساخرًا فأردف إيزاك:

«إن زوجته صديقة حميمة لصاحبة البيت».

«ومن تكون صاحبة البيت؟!».

«سيرينا أهاروني».

«آاااه....».

هكذا هتف الفتى وقد برقت في ذهنه خواطر متعددة الجوانب.

* * *

كانت سيرينا أهاروني واحدة من أشهر الشخصيات في إسرائيل في تلك الأيام، تعرف إليها الفتى ذات يوم في الهستدروت فتحدثت إليه بالعربية قائلة إنهما «بلديات»... مصرية الأصل هي، لا تخفي حنينها لمصر في السر أو العلن، يعلم الفتى أن بيتها يشهد في كل ليلة مجموعة من الصفوة من رجال الأعمال والضباط والساسة وأعضاء الكنيست، كما يشهد الكثير من الفضائح والأسرار... ليست عضوًا في حزب من الأحزاب لكنها تلعب على كل الحبال فيخطب الجميع ودها... دعته ذات مرة إلى بيتها فالتقى هناك ببعض من تنشر الصحف صورهم وأسماءهم محاطة بهالات من البطولة... عندما قدمته إليهم ذكرتهم بأنه ربيب المليونير السكندري المعروف شارل سمحون، انقبض قلبه فلقد كان يعيش في تلك الأيام في أتون من القلق البغيض والخوف

المقيم من انكشاف أمره. لم يعاود زيارتها مرة أخرى لكنه الآن يستطيع أن يعود...

أفرط بن عميتاي في الشراب كما أفرط في الإلحاح على الفتى بأن ينضم إلى تلك المجموعة المنتقاة من المقامرين... هتف به الفتى محتجًا:

«ولكن سيرينا لم توجه إليّ الدعوة أيها العزيز إيزاك!».

«لقد سألت عنك أكثر من مرة!».

قبل أن يرد عليه رأفت الهجان، تعالى صوت إستر بلينسكي فوق لغط المدعوين وأحاديثهم الجانبية والعلنية... كانت تحاول أن تلفت نظر الفتى بعد أن طال تجاهله لها، لكن حمراء الشعر المتنمرة «ريفكا وايزفيتش» لم تكن على استعداد لأن تخسر المعركة مرة أخرى فتصدت لها في حركة صامتة قطعت عليها الطريق، جن جنون إستر وأدرك الفتى أن المعركة واقعة لا محالة، كما كان موقنًا أن الميجور إيزاك بن عميتاي كان في سبيله ـ في تلك اللحظة بالذات ـ لأن يطلب قرضًا... ربت على ذراعه مستأذنًا وخطا نحو «ريفكا» التي كانت تنتفض بالتحدي، وضع يده في رفق على ذراعها وهو يخطو بها مبتعدًا عن أرض المعركة هامسًا:

«هل لديك القدرة على احتمال صديقة أفرطت في الشراب؟».

من بين أسنانها جاءت كلمات ريفكا وهي ترمي إستر بنظرة نارية:

«سوف أهدم البيت فوق رأسيكما لو أنها فاهت بكلمة أخرى!».

«ألا أستحق منك احتمالها ليلة واحـدة سيكون فيها فصل الخطاب؟».

رمته ريفكا بنظرة دهشة متسائلة وقد وصلتها رسالته فهز الفتى رأسه إيجابًا مؤكدًا المعنى الذي أومأ إليه... قبل أن تتفوه الفتاة بكلمة تعالى صوت إستر مرتجفًا بعصبية بلا حدود:

«جدعون شاباتاي!».

كان جدعون قد انضم إلى صديقته سيبيل يوسف وصديقه يوسف الأزرع وكان قد أدرك أن الفتى بدأ معه مناورة سيكون هو الفائز فيها... مع صيحة إستر توقف جدعون عن الحديث ورفع إليها عينيه وخف لغط الحاضرين وهدأت أصواتهم وقد أنبأهم صوت إستر المشحون أن ثمة حادثًا سوف يقع!

«ألا يزال عرضك لي قائمًا؟!».

وقع السؤال على الجميع وقوع صاعقة فالتفتوا جميعًا نحو الفتى الذي كان مستغرقًا مع ريفكا في حديث بلا معنى وإن كانت أذناه تلتقطان كل ما يدور حوله... أدرك رأفت الهجان أن ثمة خبرًا يعرفه الجميع ولا يعرفه هو، سدد نظراته نحو جدعون الذي كان الآن يعاني من حرج بالغ!

«ماذا تقصدين بحق الرب يا إستر؟!».

«ألا تزال الوظيفة التي عرضتها عليّ منذ أيام شاغرة؟».

كشفت إستر سرًا ما كان ينبغي أن تكشفه في وقت كهذا خاصة أنها الداعية إلى هذا الحفل... كانت تقف في منتصف المكان وهي تترنح وعيناها مسددتان نحو الفتى في وضوح أصاب الجميع بالارتباك، أقامت إستر الحفل على شرف الفتى، ولكن ها هي تدمر ما لا يعلمه أحد بعد، ساد الوجوم لثوان نهض بعدها جدعون متأثرًا راجيًا:

«إستر، ليس هذا وقت الـ... ... ...».

فجرت الموقف مقاطعة إياه:

«ألم تعرض عليّ تلك الوظيفة قبل أيام من وصول السيد سمحون من الخارج؟».

دمدم جدعون في غضب واندفع إلياهو جادوسكي ـ زوجها ـ نحوها محتجًّا على تصرفاتها، لكنها تراجعت إلى الوراء وهي تصيح وقد فقدت كل سيطرة على أعصابها:

«هل أنت محرج يا سيد جدعون؟!».

زمجر إلياهو جادوسكي:

«إستر!».

واجهت إستر جدعون في تحد:

«هل أنت خائف؟!».

تقدم منها الرجل مسترضيًا:

«يا عزيزتي إستر... لقد أفرطت في الشراب إلى حد أنك... ...».

«لِمَ الحرج؟! ولِمَ الخوف؟!... العمل هو العمل!».

انقض عليها إلياهو جادوسكي ممسكًا بذراعها وهو يهزها منبهًا:

«إستر!».

«ألم أقل لك منذ أيام إن جدعون شاباتاي ـ وقد تأخر العزيز ديڤيد في الخارج ـ عرض عليَّ وظيفة بمرتب مغر؟».

«ليس هذا وقت الحديث في... ... ...».

«ألم أخبرك أنه قال إن ديڤيد لن تقوم له قائمة بعد ذلك، وإنه لن يستطيع الاستمرار في مجال تحتدم فيه المنافسة احتدامًا لا قبل له به؟».

«لقد فقدت صوابك!».

«ألم أقل لك هذا يا إلياهو؟».

«ليس هذا وقت الحديث في مثل هذه الأمور».

«لكنه يعرض عليّ مرتبًا أكبر!».

قالت هذا وهي ترتد بعينيها نحو جدعون الذي كان يقف غارقًا في الحرج ونظرات الآخرين، وقد سال العرق فوق جبهته ووجهه، عادت تصيح:

«ألا تزال الوظيفة شاغرة؟».

«إنها شاغرة ولكن... ... ...».

«وأنا أقبلها»!!

التصقت «ريفكا وايزفيتش» بالفتى وتشبثت بكلتا يديها في ذراعه وكأنها تحتمي به من قنبلة توشك أن تنفجر... حدثت في المكان ـ مع الصمت الذي هوى فلف الجميع بردائه ـ حركة صامتة، وقد انصبت كل الأنظار على رأفت الذي كان يقف الآن في أقصى المكان باسمًا ابتسامته تلك الآسرة، وكأن الأمر ملهاة يتفرج عليها ولا علاقة له بها... قال الفتى فيما بعد ـ صراحة! ـ إن قلبه كان يتمزق من أجل إستر بلينسكي، كان يعلم أنه سبَّب لها آلامًا دفعتها إلى ما فعلت، بحث في ذهنه عن مخرج لكن الموقف كان قد وصل إلى درجة من السوء يصعب التراجع عنها، أحس بنظرات الجميع كسياط تحثه على التصرف، ولم يكن أمامه من سبيل سوى السير في الشوط حتى نهايته... ومع يقينه بأن الجميع في انتظار كلمة منه، تقدَّم من كأسه في خطوات ثابتة، التقط الكأس ثم رفعها موجهًا حديثه إلى إستر:

«لِمَ لا نشرب نخب الوظيفة الجديدة؟!».

جاء رد الفتى مهذبًا، لكنه كان ـ على الوجه الآخر ـ عنيفًا.. حبس الجميع أنفاسهم ولم يتحرك أحدهم من مكانه ولم يفه واحد منهم بكلمة... بدا الموقف سخيفًا بلا حدود، والفتى ينتقل بعينيه من وجه إلى وجه حتى استقرتا عند وجه إستر المحتقن بالغضب والعذاب والندم معًا، تلقت رد الفتى وكأنها تلقت صفعة أدارت رأسها، هم إلياهو

جادوسكي بالحديث متقدمًا من الفتى في محاولة للاعتذار لكن هذا قطع عليه الطريق قائلًا:

«إذن، فلسوف أشرب النخب وحدي!».

قال هذا وهو يرفع الكأس إلى شفتيه ثم يفرغه في جوفه حتى الثمالة!

وما كاد الفتى يعيد الكأس إلى المائدة، حتى انفجرت إستر بلينسكي في بكاء حار وهي تقول:

«إلى هذا الحد تريد التخلص مني يا ديفيد؟!».

ولم يكن هناك معنى لاستمرار الحفل!

* * *

قال الفتى فيما بعد إنه قضى واحدة من أسوأ لياليه في إسرائيل، غادر بيت إستر بصحبة ريفكا وايزفيتش التي - رغم كل ما حدث - لم تحاول أن تخفي شماتتها وسعادتها معًا، قاد رأفت السيارة إلى بيت ريفكا معتذرًا بأن صداعًا عنيفًا قد أصابه، وكانت الفتاة الحمراء الشعر متفهمة للموقف مدركة لما أصاب الفتى في حفل كان مقامًا على شرفه... غادرته ريفكا فقاد السيارة إلى الشاطئ، ظل جالسًا أمام البحر لساعات طالت حتى الفجر... أكثر ما كان يعذبه أنه لم يكن يشعر بشيء محدد.

تمزقت مشاعره وعواطفه فيما بين وطنه وحياته... اختار الوطن دون تفكير، لكنه كان قد أدرك أن الخطأ كان خطأه من البداية، فلطالما حذره محسن ممتاز من الوقوع في براثن عواطفه... وبقدر ما انتابه من ألم ورثاء من أجل إستر، كان سعيدًا لأنه - بعد هذا الذي وقع في تلك الليلة - قد حقق واحدة من أهم وصايا نديم هاشم... فقد كان موقنًا أشد ما يكون اليقين أن الخبر سوف ينتشر وسط الأصدقاء والمعارف، ولسوف

يسري إلى أروقة الشركات ودهاليز السوق... وأنه سيصبح مشهورًا بأنه «هوائي» لا يستقر على حب ولا يطيق عشرة فتاة لفترة طويلة... أليست هذه هي وصية نديم هاشم؟!

ألحت على ذهنه ـ دون مبرر واضح ـ صورة شقيقته شريفة، فأدرك أنه يشرع الذكريات سلاحًا يدافع به عن نفسه ضد أي ضعف قد ينتابه... تساءل وقد انبلج نور الفجر: هل كان يحب إستر بلينسكي إلى هذا الحد دون أن ينتبه؟!

عندما عاد إلى البيت وجده خاويًا باردًا، فضحك ساخرًا من نفسه، فلقد كان البيت دائمًا خاويًا من حوله، فهل كانت أنفاس إستر هي التي تملؤه بالدفء دون أن يدري؟!

* * *

قال رأفت الهجان، بعد قرابة عامين من ذلك التاريخ، وهو يتحدث أمام جهاز التسجيل، إنه لم يعد يرى إستر بلينسكي إلا لماما، وإنها حاولت في الأيام التالية أن تعتذر عما بدر منها... لكنه أفهمها في رقة أن ليس هناك ما يوجب الاعتذار، وأن ارتباطها بعمل مع جدعون شاباتاي لا يقلل ولن يقلل من قيمة الصداقة بينهما... ولقد حاولت الفتاة أن تتراجع قائلة إنها رفضت العرض بالفعل قبل وصوله من جنوا، وعندما قال لها ـ في حسم ـ إنه اضطر بعد ما فعلته أمام ضيوفها، أن يعطي الوظيفة لفتاة أخرى هي «يهوديت موردخاي» صمتت ولم تفه بكلمة، فلقد بدت وكأن الخبر وقع عليها كالضربة القاضية!

ثم علم رأفت الهجان أن خلافًا حادًا نشأ بين جدعون شاباتاي ـ الذي كان يأمل في العودة إلى مشاركة الفتى ـ وبين إستر التي اتهمها بتدمير واحد من أهم مشروعاته... كما علم أن هذا الخلاف قد احتدم حتى وصل إلى القطيعة الكاملة!

بعد أيام زاره في المكتب الميجور إلياهو جادوسكي ـ زوج إستر ـ في محاولة لإصلاح ذات البين، لكنه وجد هناك تلك الفتاة «يهوديت» ـ هذا هو النطق العبري لاسم «جوديت» الأوربي ـ وكانت تقوم بعملها في سعادة ونشاط واضحين!

استقبله رأفت الهجان استقبالًا حسنًا وكأن شيئًا لم يحدث، ثم قدم له ظرفًا مغلقًا يحوي مبلغًا من المال كمكافأة لإستر عن الفترة التي قضتها معه... قال إنه كان ينوي زيارتها في البيت كي يقدم لها المكافأة بنفسه، لولا انشغاله في ترتيبات استقبال الأفواج القادمة من إيطاليا... وإنه لن ينسى أن إستر وقفت إلى جواره في أيام محنته، وأنها ساندته يوم تخلى عنه الجميع، وكانت حريصة عليه كما كانت حريصة على بذل قصارى جهدها في العمل.

فوجئ الفتى بالميجور المتغطرس وقد أثر فيه تصرفه تأثيرًا كان شديد الوضوح على وجهه، ولا بد أنه تحسس الظرف فأدرك أن المكافأة سخية... أكد الفتى لإلياهو جادوسكي أن الصداقة بينهما ستظل حتى الأبد... لكنه فوجئ بالرجل ينهض وقد اكتسى وجهه بحزن غامر... هم رأفت بمصافحته عندما قال هذا:

«إنها تحبك بجنون يا ديڤيد»!

جمد الفتى في مكانه معقود اللسان وكأن صاعقة أصابته، وأردف جادوسكي:

«إنني موقن أنك لا تعلم شيئًا عن الأمر. لكنها الحقيقة»!

قالها واستدار خاطيًا نحو باب الغرفة تاركًا الفتى وراءه في شبه ذهول!

* * *

لم تكن مخاوف عزيز الجبالي من شريفة الهجان في غير محلها،

فإن احتمال ـ مجرد احتمال ـ أن تنشط هذه السيدة للبحث عن أخيها، كان جديرًا بأن يبعث الرعب إلى قلبه... كان أبسط الوسائل المتبعة في البحث عن الغائبين البالغين في تلك الأيام، هي صورة تنشر في الصحف اليومية، وتحتها نداء اشتهر بين الناس يقول: «يا فلان... عد إلى أهلك!»... فماذا لو نشرت صورة الفتى في إحدى الجرائد اليومية، أو ربما فيها كلها، وتحتها اسمه الحقيقي؟!

انتزعته الذكرى انتزاعًا كي تلقي به إلى تلك الأيام القليلة التي قضاها في روما... ومن كان مثل عزيز الجبالي ويزور روما في مثل الوقت الذي زارها فيه، فإنه لا بد أن يلم بأشياء كثيرة، ويتعرف على أشياء أكثر... وكان أول من سعى إلى معرفته، بل ورؤيته، هو ذلك الضابط الإسرائيلي ذو الشعر الأحمر «ميخائيل باريهودا».

ولا بد لنا من الاعتراف بأن السيد باريهودا كان نشيطًا نشاطًا لا يعرف الكلل، هذه حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها... ولقد قال الذين كلفوا بمتابعة السيد باريهودا، إنه كان لا بد له من التواجد في مطار روما عند وصول طائرة شركة مصر للطيران... كان في غالب الأحيان يذهب بنفسه، وفي أحيان قليلة كان يرسل أحد أعوانه... ذلك أنه كان هناك عدد لا بأس به من عمال وعاملات النظافة في المطار، والذين يقومون بتنظيف الطائرات فور وصولها، كانوا يعملون لحساب هذا السيد الإسرائيلي الذي لا بد من الاعتراف بأنه كان يدفع لهم بسخاء... رغم أنه لم يكن مطلوبًا إليهم عند تنظيف الطائرة المصرية، سوى الاحتفاظ بالمجلات والجرائد القاهرية التي يعثرون عليها بعد مغادرة الركاب الطائرة!

حقًّا كانت الموساد تفعل ما كنا نحن نفعله، وهو الاشتراك في الصحف والمجلات بجميع أنواعها واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كنا ـ وكانوا ـ نشترك في الصحف الإسرائيلية بأسماء

أشخاص لا وجود لهم، أو عن طريق مكاتب معينة أو شيء من هذا القبيل، فالمهم أن تصل الجرائد والمجلات.

ولكي نضع خوف عزيز الجبالي وإشفاقه في مكانهما الطبيعي، علينا أن ندرك أن هناك أناسًا متخصصين في كل دولة في شئون الدول الأخرى، من هؤلاء المتخصصين ضباط في المخابرات ودبلوماسيون وخبراء في جميع نشاطات الحياة وما إلى ذلك... غير أن الاشتراكات كانت تصل متأخرة عن موعد صدور الجريدة أو المجلة بيوم أو يومين وربما ثلاثة... وهنا يبرز عامل الزمن، والسبب في حرص «ميخائيل باريهودا» ـ المتخصص في الشئون المصرية وبث الجواسيس في قلب مصر ـ على الحصول على الصحف المصرية في نفس اليوم... ففي مثل هذا العالم المركب والغامض والمليء بكل ما هو مثير، تصبح معرفة الخبر في حينه شيئًا، ومعرفته بعد يوم أو أيام شيئًا آخر... ففي مثل هذا النوع من النشاط الإنساني تصبح للدقيقة، وليس الساعة أو اليوم، قيمة تصل إلى ما لا يقدر بمال بالنسبة لدولة بعينها... ولم تكن هناك ـ بالنسبة للسيد باريهودا ـ وسيلة للحصول على الصحف والمجلات المصرية في نفس يوم صدورها أسرع من طائرة غادرت مصر منذ بضع ساعات حاملة معها عددًا لا بأس به من تلك الصحف والمجلات!

هكذا كان يفكر عزيز الجبالي... فلو أن شريفة نشرت صورة رأفت في إحدى الصحف اليومية، وتحتها اسمه الحقيقي، ونداء يطلب إليه العودة إلى البيت والأهل، ثم وقعت عين أحدهم، هنا أو هناك، على هذا النداء، فما الذي يمكن أن يحدث للفتى؟!

كان هذا الهاجس يؤرق عزيز لأسابيع طالت حتى تحول الأمر إلى شبه كابوس، ولذلك، فلقد كان حريصًا كل الحرص على معرفة ورؤية كل الصور والنداءات الخاصة بمثل هذا الأمر في كل الصحف المصرية قبل أن تطبع وبوسائل خاصة كان أهمها ألا يعلم أحد ـ مهما كان ـ أن

هناك عينًا تبحث عن صورة أو نداء أو إعلان... وكان هذا وحده يستلزم خطة توضع، وجهدًا يبذل حتى لا يلفت الأنظار... ولقد مرت الأسابيع وعزيز ينتظر على أحر من الجمر، ينتظر شيئًا محددًا... هو أن يرسل الفتى برقية يطلب فيها لقاء... هذا ما كان يجب أن يحدث، أن يكون الطلب منه وليس من عزيز حتى لا يتعجل الأمور... وعلى كل الأحوال ـ فبعد مرور خمسة أسابيع ـ وصلت برقية من رأفت الهجان يطلب فيها لقاءً عاجلًا... وبالرغم من أن البرقية قد أثارت الكثير من الظنون، فلم تكن الأسابيع الخمسة كافية لاختيار أشخاص وترشيحهم، فإن عزيز وجد فيها فرصة كي ينفذ خطته الخاصة بشريفة، وأن يحسم الأمر بشكل نهائي، وإلى الأبد!

* * *

في صباح يوم من الأيام الأخيرة لشهر أكتوبر عام ١٩٥٨، جلس موظف شاب من موظفي جهاز المخابرات المصري في مكتب عزيز الجبالي يتلقى منه تلقينًا أخيرًا بالنسبة للمهمة التي كان عليه أن يقوم بها خلال الدقائق القليلة القادمة... كانت المهمة محددة، والحركة المسموح له بها محدودة... كان عليه أن يجري مكالمة مع سيدة اسمها شريفة الهجان، حرم العقيد محمد رفيق، وأن يبلغها رسالة من شقيقها الأستاذ رأفت الهجان... ولا شيء غير هذا، لا شيء عليه أن يقوله سوى الرسالة. ولا شيء كان يعرفه هذا الموظف المسكين عن الأمر الذي بدا له شديد الغموض باعثًا على الحيرة!

حان الوقت فسحب عزيز الجبالي جهاز التليفون من مكانه ووضعه فيما بينه وبين الموظف. رفع السماعة وراح يطلب الرقم، ما إن دق جرس التليفون على الطرف الآخر حتى ناول السماعة للموظف... مضت ثوان هتف الموظف بعدها.

«صباح الخير يا فندم».

بدا عليه الحرج فعاد يقول:

«أنا طالب منزل سيادة العقيد محمد رفيق!».

«... ... ...».

«أنا اسمي عادل شعيب، موظف في الشركة الشرقية للدخان، شركة إيسترن يعني».

«... ... ...».

ضحك هاتفًا في براءة:

«طب مش أعرف أنا باتكلم مع مين الأول؟!».

«... ... ...».

«حرم العقيد؟!... يعني سيادتك مدام شريفة على كده؟!».

«... ... ...».

«يا ستي أخوك الأستاذ رأفت بيسلم عليك كتير السلام، وبيسلم على الأستاذ طارق ابن حضرتك و...».

«... ... ...».

«أيوه شفته واتعرفت عليه وسهرت معاه واتعشينا سوا كمان».

«... ... ...».

«في باريس».

«... ... ...».

«من حوالي أسبوع، وبالتحديد يوم السبت اللي فات».

«... ... ...».

«لا أبدًا، أنا اتعرفت عليه عن طريق واحد قريبي عايش في باريس، في فرنسا يعني».

«... ... ...».

«في الحقيقة أنا ما شفتوش غير في الليلة دي، ولما عرف إني راجع مصر، إداني نمرة التليفون وطلب مني أن أبلغك تحياته، وأنه في صحة جيدة و... ... ...».

«... ... ...».

«أنا ما اعرفش هو بيشتغل إيه بالضبط لكن واضح إنه مبسوط قوي».

«... ... ...».

«لأ ما ادانيش جوابات، إنما قال لي إنه حايبعت لسيادتك جواب مع واحد صاحبه اسمه سهيل باتع!».

«... ... ...».

«آه. وعلى فكرة الأستاذ رأفت بيسأل إن كانت الأمانة اللي بعتها لحضرتك في جواب مع واحد صاحبه وصلت والا لأ؟».

«... ... ...».

«طب الحمد لله».

«... ... ...».

«سهيل؟... اللي أعرفه إنه مضيف في شركة مصر للطيران».

«... ... ...».

«ما عنديش فكرة».

صمت الموظف قليلًا وبدأت قطرات العرق تنبت فوق جبهته وهو ينظر إلى عزيز مستنجدًا، لكنه ما لبث أن هتف:

«العفو يا مدام، أنا تحت أمرك... مع السلامة».

عندما أعاد الموظف سماعة التليفون كان يلهث انفعالًا، ضحك عزيز متسائلًا:

«إيه ما لك؟!».

«الست كانت حاتنط من السماعة وتجيني هنا!».

ولم يعلق عزيز، ولم يبتسم لمزاح الموظف الشاب، كل ما كان يعنيه أن هذه المكاملة كانت كفيلة بأن تسكن شريفة الهجان انتظارًا للرسالة الموعودة، والتي قدر لوصولها ما لا يزيد على أيام سبعة!

وحتى انقضت تلك الأيام، عاش عزيز الجبالي على أطراف أظافره قلقًا وترقبًا، ليس من أجل شريفة وما يمكن أن تفعله، فإن كل شيء كان موضوعًا تحت رقابة صارمة لا بد منها، وكان احتمال أن يفلت شيء أو تصرف من هذه الرقابة يكاد يكون مستحيلًا!

كان لقلقه وترقبه سبب آخر... فعندما أرسل رأفت الهجان برقيته تلك التي يطلب فيها لقاءً عاجلًا، تحدد له موعدًا في المملكة المتحدة ـ بريطانيا ـ بعد أربعة أيام فقط من وصول برقيته... وطار حسن القطان ـ رجلنا في روما ـ إلى لندن تحت اسم «حسين الحريري»... كان حسن قد التقى بالفتى عدة مرات، وكان رأيه فيه أنه أفاق ذكي يلعب بالبيضة والحجر... رأى مقدرة الفتى على التلون والتملص تفوق قدرات الإنسان العادي، وأن مثل هذا النوع من البشر خطر يجب تجنبه... وعلى كل، فلقد وضع «حسن القطان» رأيه كتابة، وأوصى بتصفية العملية وإعادة رأفت إلى مصر!!

كان عزيز يعلم هذا كما كان يعلم أن تمرد الفتى ليس «مرضًا عارضًا»، ولكنه طبيعة تأصلت في نفسه بعد كل ما عاناه في صدر شبابه، وأنه قد لا يحتمل مؤاخذة ولا تأنيبًا... فهل يستطع كل منهما

ـ حسن ورأفت ـ أن يتعاملا من منطلق جديد، وأن يبدآ مرحلة جديدة، أم أن صدامًا سوف يحدث والفتى يخطو أخطر خطواته على الإطلاق، وأشدها حساسية وتعقيدًا؟!

هذا هو السؤال الذي ظل يؤرق عزيز الجبالي، حتى فوجئ ذات يوم بوصول حسن القطان قبل موعده. وكان يحمل في جعبته مفاجأة لا تخطر على البال!

الفصل الحادي عشر

اختيار العُمَلاء!

كان على رأفت الهجان أن يتوجه إلى لندن، وأن ينزل في فندق من فنادق الدرجة الأولى التي لا تتمتع بشهرة عالمية، وإن كان يتمتع بمميزات أخرى، من أهمها وجود عدد لا بأس به من الفتيات الآسيويات اللاتي يعملن في تنظيف الغرف ـ لم يسمح لنا بذكر اسم الفندق الذي نعتقد أنه نموذج ممتاز لمثل هذا النوع من النشاط، لطبيعة تكوينه المعماري وتوزيع غرفه ـ ولقد وصل الفتى إلى الفندق في موعده، وما إن دخل إلى غرفته وبدأ في إفراغ حقيبته، حتى فتح باب الغرفة واقتحمتها فتاة آسيوية ـ أغلب الظن أنها من بورما ـ تبغي وضع بعض الأشياء التي تجهز بها غرف النزلاء عادة في الفنادق، كالصابون والمناشف وما إلى ذلك... لكنها ما لبثت أن توقفت في حرج وارتدت إلى الوراء وقد فوجئت بالغرفة مشغولة بالنزيل... تمتمت معتذرة وهمّتْ بالتراجع، لكن الفتى طلب إليها أن تقوم بعملها... شكرته في أدب، ثم دلفت إلى الحمام ووضعت فيه بعض المناشف وأكياس الصابون السائل وقبل أن تغادر الغرفة سألته في حياء غير مصطنع إن كان هناك ما يبغيه، لكنه شكرها فانصرفت على الفور!

كان الأمر طبيعيًّا تماما... طبيعيًّا لدرجة أن الفتى اعترف ـ وهو الذي

اشتهر بالتشكك والحذر لدرجة المرض ـ أنه لم يشك في شيء على الإطلاق، فلقد راح يفرغ محتويات حقيبته على مهل، حتى أخرج تلك الحقيبة الصغيرة التي تحوي أدوات حلاقته وفرشاة أسنانه، فحملها إلى الحمام كي يضعها حيث تعود... وما كاد يدلف إلى الحمام، حتى وجد أمامه ـ بجوار الحوض وفي مكان ظاهر ـ مظروفا صغيرًا ومغلقًا، كانت نظرة واحدة إليه تكفي كي يعرف مصدره، تلفت حوله في حذر وهو يلتقط المظروف ثم اندفع نحو الباب كي يحكم إغلاقه بالرتاج، فتح المظروف وكان يحوي خطة اللقاء مكتوبة بذلك الأسلوب المركب الجديد والذي اتفق عليه مع نديم هاشم.

قضى الفتى ليلته الأولى في لندن في أحد المسارح الشهيرة في ميدان «ليستر»، وفي صبيحة اليوم التالي غادر الفندق في تمام الساعة التاسعة، سار على قدميه حتى أقرب محطة لمترو الأنفاق... كانت المسافة ما بين الفندق ومحطة المترو تستغرق بين ثلاث أو أربع دقائق، لكن أكثر ما كان يميزها هو أنها كانت خالية تمامًا من المباني بحيث يستطيع الفتى أن يكتشف ـ في هذا الخلاء الواسع ـ بسهولة إن كان متبوعًا من أحد... اطمأن تمامًا وهبط إلى محطة المترو كي يستقل القطار المتجه إلى شارع أكسفورد، كان عليه أن يتوجه إلى إحدى شركات السياحة، كي يقدم لها عرضًا لاستقبال عدد من الأفواج الإنجليزية في إجازات أعياد الميلاد، وبرنامجًا حافلًا يحوي زيارة لبعض الأماكن المقدسة في فلسطين... وصل إلى الشركة في الموعد الذي حدد له قبل مغادرته لإسرائيل... وجد عرضه قبولًا من مدير الشركة الذي طلب إليه أن يمر عليه في صباح اليوم التالي كي يعطيه ردًّا نهائيًّا... مرة أخرى هبط الفتى إلى إحدى محطات مترو الأنفاق كي يستقل القطار المتجه إلى محطة «فيكتوريا»...

في ساحة المحطة الهائلة الاتساع لف الفتى ودار بضع دورات

تأكد بعدها أن كل شيء على ما يرام، ابتاع تذكرة إلى بلدة صغيرة في مقاطعة «كنت» تبعد عن لندن بنحو خمس وعشرين دقيقة هي «فالكون وود»، عندما غادر القطار صادف أنه كان الراكب الوحيد الذي غادره في تلك المحطة، مضى القطار فتعجب الفتى من تلك الدقة التي أصبح عليها بنو وطنه... وجد المحطة خالية تمامًا إلا منه، تركها إلى البلدة الهادئة الخالية الشوارع النظيفة، والتي تتميز بامتلاء حدائق بيوتها بأنواع جميلة من الزهور صنعت ألوانها وروائحها جوًّا خاصًّا... وقعت عيناه على محل بدا له نموذجًا لتلك المحلات الإنجليزية التقليدية، عبر ساحة المحطة إلى المحل الذي كان صاحبه في الداخل ـ خلف الباب الزجاجي ـ جالسًا على مقعد يتأرجح به وقد استغرق في قراءة جريدة الصباح وتدخين غليونه... كان المحل متخصصًا في بيع الهدايا المصنوعة في الريف الإنجليزي، لكنه أيضًا كان يقوم بخدمة زبائنه الراغبين في احتساء فنجان من القهوة أو الشاي دون جلوس... دلف الفتى إلى المحل ولم يكن هناك غيره، ألقى بالتحية على الرجل الذي رد تحيته وهو يزيح الجريدة جانبًا:

«ما الذي أستطيع أن أقدمه لك يا سيدي؟».

«فنجان من القهوة السوداء من فضلك».

في صمت أعد الرجل فنجان القهوة فوقف الفتى خلف النافذة الزجاجية يرقب الساحة الخالية تمامًا من الناس وكأن البلدة قد هجرها أهلها، تناول فنجان القهوة وراح يحتسيه على مهل، وعاد الرجل إلى مقعده واستغرق في التدخين وقراءة الجريدة... كان رأفت الهجان في انتظار رسالة، ولكن... كان عليه أيضًا أن يتحرك حسب توقيت دقيق... أشارت الساعة إلى اقتراب الثانية عشرة ظهرًا، وضع فنجان قهوته جانبًا واتجه إلى الرجل الذي عاد فنهض كي يقبض الثمن، كان على رأفت أن يغادر المحل دون أن يعرف إلى أين، لكنه الآن لم يكن قلقًا، دق الرجل

فوق زر آلته الحاسبة فمزق صوت جرسها وحركة درجها الذي انفتح السكون الذي يلف المكان، سأل رأفت:

«بكم أنا مدين لك؟».

«تسعة شارع دوق يورك»!

جمد الفتى في مكانه وعلت وجهه ابتسامة إعجاب لم يستطع أن يخفيها، فرد كفه أمام الرجل وفيه بضعة شلنات تناول هذا منها شلنًا واحدًا وهو يقول:

«إنه الشارع الثالث إلى اليمين».

شكره الفتى وغادر المحل، عبر الميدان الصغير وتخطى شارعًا ثم آخر وقبل أن يصل إلى الشارع الثالث توقف كي يشعل سيجارة دون أن يلتفت إلى الخلف، لكنه اطمأن تمامًا... بعد بضع خطوات كان يدلف إلى شارع دوق يورك، وفي تمام الثانية عشرة خطا إلى حديقة البيت رقم تسعة، وكان باب البيت مفتوحًا!

* * *

قال حسن القطان وهو يجلس إلى عزيز الجبالي في القاهرة بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من ذلك اللقاء الذي تم في المنزل رقم تسعة شارع دوق يورك ببلدة «فالكون وود» بمقاطعة كنت البريطانية... إن الشك كان يراوده هو الآخر عندما علم أن الفتى طلب موعدًا، ذلك أنه كان يرى أن الأسابيع الخمسة التي مضت ليست كافية لاختيار الأشخاص والتحري عنهم، والاطمئنان إلى المعلومات التي جمعها من حولهم... ولذلك ـ وبالرغم من الحوار الذي دار بينهما في روما ـ كان لحسن القطان جلسات مع نديم هاشم وعزيز قبل لقاء الفتى، وجلسة أخرى بعد عودتهما من جنوا، لكنه، في النهاية، لم يقتنع بوجهة نظرهما وظل على رأيه بأن الفتى لا يصلح، فلقد تأكد الآن أن رأفت بالفعل

لا يصلح، ولذلك... فعندما طار إلى لندن لمقابلته، كان متحفزًا لوضع حد لهذا التلاعب، حتى إذا ما التقيا، وجلس إليه، كانت المفاجأة التي لم يتوقعها أنه وجد نفسه أمام إنسان آخر... لم يكن هذا الفتى الهادئ الملامح، الرزين الحركة، المرتب الحديث، الصافي الذهن، المتوقد الذكاء ـ هو نفس الفتى القلق المتمرد الذي كان يلتقي به من قبل فيدور بينهما حوار كأنه عراك... قال حسن القطان إنه عندما استقبل رأفت الهجان في ذلك البيت الإنجليزي الطراز صافحه في تحفظ وتبادل معه كلمات مجاملة عادية، وعندما سأله عن أحواله قال رأفت إنه جاء بأسماء عشر شخصيات، وإنه يريد الاستقرار على من سيقع عليهم الاختيار قبل عودته إلى إسرائيل حتى يباشر عمله على الفور، قال حسن إنه كظم غيظه وابتسم ساخرًا من هذا الإفراط في الثقة، لم يكن ممكنًا، ولا متصورًا، أن يستطيع أي شخص أن يلتقط عشر شخصيات وأن يتحرى عنهم ويجمع المعلومات من حولهم من أجل مهمة خطيرة كهذه في خمسة أسابيع فقط... قال إن تحفزه قد ازداد حدة، لكنه أراد أن يساير رأفت في البداية حتى يرى حصيلته، وعندما سأله عن هذه الأسماء العشرة، أخرج الفتى من جيبه مفكرة صغيرة قدمها لحسن قائلًا:

«كل الأسماء مكتوبة في النوتة دي».

ولم يستطع الرجل أن يحتمل أكثر من هذا فانفجر غاضبًا:

«إيه ده يا رأفت... إنت اتجننت؟!».

«ليه؟!».

قالها رأفت باسمًا، فانفجر فيه حسن مؤنبًا وموبخًا ومؤاخذًا... إن أبسط تعليمات الأمن تقضي بألا يكتب الفتى كلمة عن هذه الأسماء، وهو الجنون بعينه أن يفعل شيئًا كهذا، وأن يحمل النوتة في جيبه، إن أي مبتدئ في علم المخابرات يعرف هذا، ويعرف مقدار خطره، فكيف،

وهو الذي دُرِّب تدريبًا خاصًا، وعاش كل تلك السنوات في إسرائيل، يقع في خطأ فادح كهذا؟!

ظل الفتى ساكنًا حتى انتهى حسن من ثورته، لم يغضب، ولم يثر، ولم يتمرد كما كان يفعل في الماضي... بل ملأت وجهه ابتسامة واسعة وقد لاذ بالصمت، وصاح فيه حسن:

«أقدر أعرف إيه اللي بيخليك تبتسم كده؟!».

«طب مش تقرأ الأسامي الأول يا حسن بيه!».

فتح حسن تلك المفكرة الصغيرة في عصبية فإذا به أمام مفاجأة مذهلة... كانت المفكرة خالية الصفحات تمامًا، قلب أوراقها ورقة ورقة لكنه لم يجد حرفًا؛ رفع رأسه نحو الفتى الذي قال في هدوء:

«هي مكتوبة صحيح، بس بالحبر السري»!

وكان هذا إيذانًا بعبقرية تفجرت عنها شخصية الفتى، الذي كان يخطو الآن، في تلك اللحظات بالذات، في تلك البلدة الإنجليزية الصغيرة، أولى خطواته نحو مهمته الكبرى، والمقدسة!

* * *

لم يستطع حسن القطان أن يخفي إعجابه بالفتى، وسعادته بالتطور السريع والمفاجئ الذي حدث لا لتصرفاته فقط، بل ولشخصيته أيضًا... قدم له رأفت تلك المفكرة الخالية الصفحات، ثم أخرج «المظهر» الخاص بالحبر السري، وقبل أن يبدآ العمل معًا، كان لزامًا عليهما أن يتأكدا من تأمين نفسيهما تمامًا بوضع رتاج الباب، والنظر من خلف زجاج النوافذ، وإسدال بعض الستائر بما يحفظ للبيت ـ من الخارج ـ مظهره الطبيعي، وفي حقيقة الأمر كان حسن قد فعل كل هذا قبل وصول الفتى، ولكن... لم يكن هناك ضير من التأكد ـ مرة أخرى ـ من أن كل

شيء على ما يرام، ومن ناحية أخرى، كي يعطى للفتى مثلًا لما يجب عليه أن يفعل إذا ما كان وحده، مهما كان إحساسه بالأمن.

ثم وجد حسن القطان نفسه أمام مفاجأة أخرى طرب لها، فلقد وجد أن صفحات تلك المفكرة كلها تقريبًا، قد امتلأت، لا بالأسماء فقط، وإنما بتحليل دقيق ووافٍ، ومعلومات كاملة عن كل شخصية من تلك الشخصيات العشر التي رشحها الفتى للعمل معه!

* * *

يعرف هؤلاء الذين يدرسون هذا العلم في الأكاديميات الخاصة به، أنه لا يكفي أن يرشح «المندوب» اسمًا من الأسماء للقاعدة كي تقول رأيها فيه، بل لا بد أن يشفع الاسم بكل المعلومات الممكنة عن هذا الاسم، نشاطاته وعيوبه ومحاسنه وقدراته، لا بد من معلومات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعاطفية ومهنية و... و... وهذا فرع من فروع علم تتسع آفاقه يومًا بعد يوم، علم كانت حصيلة الفتى منه حوارًا مدروسًا بعناية فائقة تم بينه وبين نديم هاشم... لكن الغريب في الأمر أن رأفت الهجان ـ وقد سمع هذا من نديم ولم يكتبه ـ قد حفظه عن ظهر قلب ونفذه بدقة تبعث على الدهشة البالغة!

في تلك المفكرة كتب الفتى أسماء لعشر شخصيات رشحها جميعًا للتجنيد... كان العسكريون منهم يشكلون نصف العدد تقريبًا، أما النصف الثاني فكان لقوم يعملون بالسياسة أو الاقتصاد أو العلوم... ومع كل اسم وضع الفتى تقريرًا شديد التركيز يحيط بالشخصية إحاطة كاملة، مع ذكر نقاط الضعف في كل شخصية، وكيف يمكن السيطرة عليها، والفائدة التي سنجنيها من التعامل معها!

غير أن حسن القطان، رغم اغتباطه بكل ما فعله الفتى، أعرب عن مخاوفه بوضوح، عندما سأل رأفت الهجان إن كانت الأسابيع

الخمسة كافية لأن «يلتقط» كل هذه الشخصيات، ويجمع عنها كل هذه المعلومات؟!

وكان رد الفتى بسيطًا كل البساطة، قال:

«ما تنساش يا حسن بيه إن الناس دي أنا معاشرهم وعايش معاهم ثلاث سنين كاملة، وإني عارفهم وعارف عنهم كل حاجة، من غير ما اعرف إني في يوم من الأيام حاستعين بيهم».

وكما تحولت العلاقة بين الفتى ونديم هاشم إلى نوع من الصداقة الحميمة التي تحتفظ لكل منهما بمكانته عند الآخر دون تعد للحدود المطلوبة والضرورية، تحولت العلاقة بين حسن القطان ورأفت الهجان إلى صداقة جعلت من العمل الذي استمر لساعات والمناقشات التي دارت بينهما إلى متعة لا نظير لها!

امتد الحوار بينهما إلى ما بعد الظهر، نهضا إلى المطبخ وجهزا غذاء خفيفًا تناولاه وهما يعملان... أراد الفتى أن يعود إلى إسرائيل هذه المرة، كي يبدأ فورًا في الاقتراب من الشخصيات التي سوف يستقر الرأي عليها مبدئيًا في انتظار الرأي النهائي من القاهرة... وإذا كانت عملية الاقتراب وحدها، وإنشاء تلك العلاقة الغريبة والمركبة بينه وبين أي من تلك الشخصيات على حدة، وبعيدًا تمام البعد عن الآخرين، سوف تستلزم وقتًا قد يطول لشهور قبل التيقن الكامل من أن الشخصية قد أصبحت تحت السيطرة الكاملة، وجاهزة للعمل دون مخاطر محتملة... فإن ثلاث سنوات قد انقضت دون عمل إيجابي تكفي، فليس هناك وقت!، كما أن التفكير في تنفيذ الخطوات الأولية يصبح ضرورة لا مناص منها!

وإذا كانت منطقة الشرق الأوسط تغلي بالأحداث خاصة بعد قيام ثورة العراق في يوليو فإن إسرائيل لم تكن بعيدة عما يجري من حولها... ولقد قال الفتى إنه يحمل نبأ لم يسع إليه، وإنما سعى إليه النبأ على لسان

إيزاك بن عميتاي، الذي أخبره أنهم في أحد المطارات الحربية في إسرائيل، يقومون بإعادة رصف ممرات الهبوط بنوع جديد من الأسفلت ذي خلطة خاصة، وأنهم يطيلون تلك الممرات عن المعدل الموجود بالفعل... ولما كان الفتى لم يفهم مغزى هذا التعبير، إلا أنه آثر أن ينقل الخبر إلى وطنه فقد يجد فيه الرجال شيئًا... قال هذا فحملق فيه حسن هاتفًا:

«معاك خبر زي ده وساكت من ساعة ما جيت؟!».

«كل شيء في وقته يا حسن بيه».

«عرفت مكونات الخلطة الجديدة اللي بيرصفوا بيها الممرات؟».

«مكانش ممكن أسأله طبعًا، إنما اللي عرفته منه كتبته في آخر النوتة لأنه كان صعب عليّ أحفظه».

قلب حسن صفحات المفكرة التي أظهر الفتى ما فيها من كتابة سرية، حتى وقعت عيناه ـ في الصفحات الأخيرة، ولم يكونا وصلا إليها بعد ـ على معادلات رياضية وأسماء لبعض المواد التي لا يفهم وظيفتها في الرصف إلا المتخصصون!

«تفتكر الحكاية دي لها معنى يا حسن بيه؟!».

«إنت رأيك إيه؟».

«رأيي إنه لازم يكون وراها حاجة، لسبب بسيط».

«إيه هو؟».

«الناس دي مش ممكن تصرف قرش من غير ما يكون من وراه فايدة».

«وإيه الفايدة اللي ورا ده؟!».

«ما اعرفش».

ابتسم حسن ـ وكان سعيدًا ـ وهو يقول:

«بس هم في مصر حايعرفوا، أكيد حايعرفوا».

* * *

في نهاية اليوم استقر الرأي بينهما ـ وكان حسن يدير الحوار ببراعة أثلجت صدر الفتى ـ على أن يبدأ رأفت اقترابه من ثلاثة من العسكريين، وشخصية واحدة مدنية!

كانت أسماء العسكريين هي:

سجن ألوف ـ مقدم ـ بيخور شطريت.

ألوف مشنيه ـ عقيد ـ دان رابينوفيتش.

راف سيرن ـ رائد ـ إيزاك بن عميتاي.

فالأول كان على دراية واسعة ـ بحكم منصبه ـ بإمدادات الجيش الإسرائيلي من المؤونة والذخيرة والأسلحة على حد سواء... وكان الثاني يحتل منصبًا هامًّا في غرفة العمليات، أما الثالث فكان ضليعًا في شئون الطيران وإن لم يكن طيارًا!

أما الاسم المدني، فكان للسيدة «سيرينا أهاروني» عضو الهستدروت النشطة، وصاحبة الصالون الذي يجمع شخصيات من كل الاتجاهات، ومن كل العناصر أيضًا.

اتفقا على أن يبدأ الفتى اقترابه من الشخصيات الثلاث الأولى في حذر شديد دون مفاتحة أو مصارحة أو سؤال قبل أن يأتيه القرار النهائي من القاهرة!

كما اتفقا أن يكون اقترابه من السيدة «سيرينا أهاروني» من نوع مختلف، هو اقتراب لا بأس أن يبدأه الفتى فورًا لأنه لن يتعدى حدود العلاقة الحميمة والصداقة الوطيدة... وإذا كان بيت السيدة أهاروني يضم في كل ليلة مجموعة منتقاة من ذوي المراكز الاقتصادية والسياسية

والعلمية والعسكرية أيضًا، فإن علاقة الفتى، إذا ما توطدت بهذه السيدة، سوف تتيح له ـ خاصة بعدما تعلم أسلوب «الإثارة» ـ أن يستمع ويحصل على ما يريد من أسرار... وأن هذه المجموعة من الممكن أن تكون نواة لمجموعات يكونها الفتى فتصبح لديه شبكة من العملاء الذين يطلق عليهم «Unwitting» أي أنهم عملاء لا يدرون أنهم عملاء ولا يعرفون شيئًا عن نوايا الفتى، بل يثقون فيه ثقة تجعلهم يصرحون أمامه بأخطر الأسرار!

قبل أن ينصرف رأفت سأله حسن القطان:

«مش ناوي تكتب جواب لشريفة؟».

كان السؤال مفاجئًا فابتسم دون رد، وأردف حسن:

«بالمناسبة، جوابك الأولاني وصلها، بس يظهر إنها قلقانة عليك شوية».

سرت في ملامح الفتى سحابة حزن وهو يتمتم:

«أنا كمان قلقان عليها!».

«اكتب لها جواب طمنها فيه على أحوالك».

هز رأفت رأسه إيجابًا وهو يخرج قلمًا، فابتسم حسن مؤكدًا:

«وما تنساش تقول لها إنك حاتزورها قريب».

زغردت السعادة على وجه الفتى، أدرك ـ وكان هذا يمثل بالنسبة إليه أهمية من نوع خاص ـ أن نديم هاشم لم ينس وعده له، وأن زيارته للقاهرة ليست مجرد أمل، جلس إلى مائدة صغيرة وكاد يبدأ في الكتابة حين هتف حسن وكأنه تذكر شيئًا:

«قول لها إن اللي حايودي لها الرسالة واحد صاحبك جدًا بيشتغل في شركة مصر للطيران وإن اسمه سهيل باتع!».

توقف رأفت ملتفتًا نحو الرجل الذي كان الآن يجلس بعيدًا عنه متشاغلًا بتقليب صفحات إحدى المجلات الإنجليزية الشهيرة، ظل جامدًا وهو يرقب حسن الذي غمغم منهيًا الأمر برمته:

«وقول لها كمان إن كانت عاوزة تبعت لك جوابات تبعتها مع سهيل».

وكتب الفتى الخطاب في حماس وسعادة.

قال لشريفة إنه يجن شوقًا إليها وإلى طارق، وإن أحواله انصلحت والحمد لله رب العالمين، كما اعتذر عن عدم إرسال عنوانه لأن عمله يقتضي منه التنقل كثيرًا من مكان إلى مكان ومن بلد إلى آخر، ثم وعدها وعد شرف بزيارة قريبة حالما تسمح له ظروف عمله... ثم طلب إليها أن تكتب له خطابًا وتسلمه لسهيل الذي يعتبره في مقام الأخ ويثق فيه بلا حدود... ثم ختم خطابه قائلًا: «مرسل لك هذا المبلغ - لم يحدد الفتى قيمة المبلغ وترك الأمر لتقدير الرجال في مصر - هدية متواضعة مني إلى حبيبي طارق، الذي أرجو أن أراه في زيارتي القادمة وقد أصبح شابا يفخر به خاله، كما أعده بأنه سوف يفخر في يوم من الأيام بخاله».

* * *

لم يستطع السيد «حسين الحريري» - أو حسن القطان - أن يبيت ليلته في لندن فلقد وجد أنه من الأفضل أن يسلم المفكرة وما تحويه من أسماء ومعلومات بنفسه، ويدًا بيد، ثم كان عليه أن يعود إلى مقر عمله في اليوم التالي حتى لا يطول غيابه... ولذلك، فما إن غادره رأفت الهجان، بعد الغروب بقليل، حتى أجرى مكالمة تليفونية تبادل فيها - بالإنجليزية - كلمات قليلة مع محدثه أو محدثته!!... ثم غادر البيت إلى محطة القطار في بلدة «فالكون وود»، كانت الطرقات خالية والمحطة خاوية والقطار أيضًا، وبعد نصف ساعة بالتمام والكمال كان يستقل سيارة راحت تنهب به الأرض من محطة فيكتوريا في لندن إلى مطار «هيثرو» حيث استقل

طائرة ليست تابعة لشركة مصر للطيران، وكانت الطائرة في طريقها إلى عاصمة آسيوية مرورًا بباريس والقاهرة!

* * *

في التاسعة من صباح اليوم التالي، كان الرجل الذي وصل من العاصمة البريطانية منذ ساعات قليلة، يجلس إلى عزيز الجبالي في مكتبه في ذلك البناء الذي يقوم وسط الحقول، واضعًا بين يديه حصيلة كاملة للمناقشات التي دارت بينه وبين رأفت الهجان طوال يوم أمس، والنتائج التي توصل إليها، ورأيه في الشخصيات المدونة أسماؤها في تلك المفكرة الغريبة، والتي سلمها حسن لعزيز فور وصوله.

لكن الغريب في الأمر أن عزيزًا عندما التقى بحسن القطان في الصباح سأله قبل كل شيء:

«جبت معاك جواب لشريفة؟».

وعندما قدم له حسن الخطاب الذي كتبه الفتى وكان الظرف بالطبع مفتوحًا، تناوله هذا باهتمام شديد وحرص وعناية بدت مبالغًا فيها!

لكنه، وعلى الفور، فتح المظروف وراح يقرأ الخطاب في عناية شديدة، حتى إذا انتهى من قراءته، تنهد ارتياحًا وهو يقول:

«كده كويس قوي».

ثم أفضى حسن إلى عزيز بذلك الخبر الذي حمله الفتى حول إعادة رصف ممرات الهبوط في بعض المطارات الحربية الإسرائيلية، مع إطالتها، كما أشار إلى المعادلات الرياضية وأسماء المواد التي دونها الفتى... وكان عزيز راضيًا، ولما كان قد حجز تذكرة لحسن القطان على متن إحدى طائرات شركة مصر للطيران التي ستقلع في نفس الليلة إلى عاصمة أوربية كي يعود الرجل إلى مقر عمله، فلقد اندمجا في العمل دون إضاعة دقيقة واحدة، طرح حسن وجهة نظره بالنسبة لاختيار

الشخصيات الأربع، وكان عزيز موافقًا تمامًا على ما تمّ... في الواحدة ظهرًا ودَّع حسن القطان صديقه عائدًا إلى أوربا، بينما عاد عزيز إلى الكثير من المهام التي كان عليه أن ينجزها بأسرع وقت ممكن!

* * *

في تلك الليلة بالذات، خرج من القاهرة عدد لا بأس به من البرقيات التي بث كل منها إلى رجل أو سيدة في دولة أوربية أو آسيوية، وكانت من بينها برقية واحدة بثت إلى كندا... وفيما عدا هذا، فبعد انتصاف الليل بقليل كانت هناك برقيتان جاهزتان لأن تعبر أجواء الفضاء إلى قلب إسرائيل!

كل برقية من هذه البرقيات كانت تطلب تحريات عن شخصية بعينها من تلك الشخصيات العشر التي وردت أسماؤها في مفكرة الفتى، وكان الأمر المهم الذي شفعت به كل هذه البرقيات هو أن التحريات عنها يجب أن تكون على أكبر قدر من الدقة والشمول والاستيفاء!

* * *

في الأيام التالية، كانت هناك اجتماعات على درجة كبيرة من السرية تعقد بين بعض رجال المخابرات العامة المصرية، والمخابرات الحربية، ومجموعة منتقاة من العلماء... وكانت نتائج هذه الاجتماعات أن تلك الخلطة الجديدة التي ترصف بها إسرائيل ممرات الهبوط في مطاراتها الحربية، ثم إطالة هذه الممرات... لا تعني سوى شيء واحد هو: أن هناك نوعًا جديدًا من الطائرات الحربية المتقدمة والفرنسية الصنع بالذات، في طريقه الآن إلى إسرائيل!!

وعلى مدى الأيام القليلة التالية، شهدت بعض العواصم الأوربية ـ ومن بينها باريس بطبيعة الحال ـ حركة ونشاطًا غامضين، لكنها انتهت إلى معلومة في غاية الخطورة، وهي وجود وفد عسكري إسرائيلي في

باريس ـ وكان قد وصل إليها في سرية وتكتم بالغين ـ وأن هذا الوفد كان يجري مفاوضات لإمداد إسرائيل ببعض الطائرات الفرنسية المتطورة!

ولقد وضعت هذه المعلومات جميعها تحت نظر القيادة السياسية... وما إن أعلن الرئيس جمال عبد الناصر عن هذه الصفقة في إحدى خطبه، حتى تسبب في إرباك شديد للحكومة الفرنسية بالرغم من العلاقات غير الطيبة بينها وبين الحكومة المصرية بسبب مساعدة الأخيرة لثورة الجزائر... أما الإسرائيليون، فلقد جن جنونهم، فكيف اكتشفت مصر أمر تلك الصفقة وقد كان محاطًا بسياج شديد الكثافة من السرية!!

* * *

قال عزيز الجبالي فيما بعد أن أكثر ما كان يعنيه في ذلك الوقت ـ وقد أكد خبر رصف مطارات إسرائيل الحربية قدرة الفتى على تحصيل المعلومات الهامة ـ هو إحاطة وجود رأفت الهجان في إسرائيل بكل ما هو ممكن من وسائل الأمان... أول هذه الوسائل هو بعث الطمأنينة إلى قلب شريفة التي كان شبحها الباكي يلوح له بين الحين والحين فيؤرقه!

أدرك عزيز الجبالي ـ بداية ـ أن زيارة الفتى إلى القاهرة، لا بد لها أن تتأخر عامًا وبعض عام... كانت هناك تلك البداية التي كان على رأفت أن يبدأها ويسير في الشوط حثيثًا حتى تستقر الأمور تمامًا دونما انقطاع أو مقاطعة نفسية، كما كانت الظروف الدولية في المنطقة، تستلزم جهدًا متواصلًا وانتباهًا لا يغفل عما يمكن أن تدبره إسرائيل في الخفاء... ومن ثم، فلقد حرص فيما تلا ذلك من لقاءات مع الفتى، أن يوضع الأمر بين يديه بوضوح... كان عليه أن يعلم أيضًا أن مثل هذه الزيارة تحتاج إلى وسائل تأمين من نوع خاص وصارم، وأن هذه الوسائل تأتي في المقام الأول... وهكذا أدى هذا إلى تطور الخطة الخاصة بشريفة الهجان، التي ما إن التقت بسهيل باتع هذا الذي يذهب إليها في بعض الأحيان بزيه الرسمي الخاص بشركة مصر للطيران، حتى أمطرته بوابل من الأسئلة

عن شقيقها، وكانت إجابات كل هذه الأسئلة جاهزة عند الشاب الذي كان على مستوى المسئولية... ومع قليل من الجهد، استطاع السيد سهيل باتع ـ الذي كان بالفعل واحدًا من العاملين على طائرات شركة مصر للطيران ـ أن يطمئن شريفة على شقيقها، خاصة بعد أن كتبت هي خطابًا إلى رأفت سلمته إلى سهيل، الذي عاد إليها بعد نحو شهر وهو يحمل لها ردًّا من أخيها مشفوعًا بمبلغ متواضع كهدية منه إلى حبيبه طارق!

* * *

بعد أربعة أسابيع، وقد تقل قليلًا، اكتملت كل التحريات الخاصة بالشخصيات العشر التي رشحها رأفت... جاءت كلها، ومن مصادر متعددة بالنسبة لكل شخصية من هذه الشخصيات، كي تؤكد المعلومات، بل والتحليل الذي وضعه الفتى... بل إنه، وبالنسبة للبعض منها، فلقد كانت تقل كثيرًا عما أورده رأفت أو حلله!

ولقد جاءت الآن اللحظة الحاسمة، والشديدة الخطورة، في حياة رأفت الهجان، أو ديفيد شارل سمحون... قال عزيز الجبالي في معرض الحديث عن تلك الفترة:

«... ... إن الغريب في الأمر أن هناك شخصيات كثيرة كانت تصلح لأن يقترب منها رأفت وأن يجندها، لكنه بعد الدراسة المتأنية، وجد أن الحمل عليه ـ خاصة في تلك المرحلة ـ سيكون ثقيلًا... فلقد كانت التعليمات التي وصلت إلى رأفت الهجان هي أن يبدأ العمل فورًا، وأن يخطو خطوته الأولى مع تلك الشخصيات العسكرية الثلاث، في حذر أكدوه عليه مرات ومرات!».

* * *

وفي حقيقة الأمر، فلقد كانت هناك شخصيتان لا تحتاجان من الفتى

إلى جهد يذكر، وبالرغم من هذا فلقد كان متأنيًا إلى حد يبعث على السأم في الاقتراب من بيخور شطريت مثلًا، ثم إيزاك بن عميتاي!

ولقد أصبحت علاقته ببيخور شطريت، وزوجته الشمطاء، جزءًا مهمًا في حياته، وكان رأفت قد اتخذ قرارًا بألا يفاتح بيخور في شيء، وجد أنه يستطيع الحصول منه على أية معلومات مهما كانت أهميتها دون أن يدفع مليمًا واحدًا سوى ثمن زجاجات الخمر التي راحت تتنوع يومًا بعد يوم، ويزداد اقتناء الفتى لأفخر أنواعها نتيجة طبيعية لرواج شركته التي كانت تشهد الآن عصرًا من عصورها الذهبية بحق!

ولا بد لنا من الاعتراف بأن رأفت الهجان كان يحب عمله في شركة السياحة حبًا حقيقيًا، ساعده على تطوير أعمال الشركة بسرعة لم تكن متوقعة، وبعد تلك الأفواج الأولى التي جاءته من إيطاليا وفرنسا ثم بريطانيا، استطاع أن يؤسس لشركته سمعة جاوزت إسرائيل إلى دول أوربا... كان مؤمنًا منذ البداية أن أفضل وسائل الدعاية لشركته هو السائح نفسه... وكان يعرف - بالضبط - ما الذي يريده السائح الأوربي أو الأمريكي - كل حسب جنسيته - من إسرائيل... وإذا كانت المشاعر الدينية هي الدافع الظاهري لتلك الأفواج فإن أمورًا أخرى كانت تهم هؤلاء السائحين من رجال ونساء... وفي خلال عام واحد كان المكتب يضم - عدا سكرتيرته الجديدة يهوديت موردخاي - ثلاثة آخرين... فتاتين وشابا، عدا سائقين متفرغين لقيادة سيارتي الأوتوبيس اللتين استوردهما من ألمانيا لحساب شركته!

* * *

عندما كان بيخور شطريت يزور رأفت في تلك الأمسيات التي ينفرد فيها به كي يحتسيا الكئوس معًا، كان الفتى بطبيعة الحال يتظاهر بمشاركة صديقه الشراب دون أن يشرب، حتى إذا ما وصل الرجل إلى تلك الدرجة من الغيبوبة التي ينفلت فيها لسانه بالحديث، كان انتباه الفتى يصل إلى

ذروته... ولقد سُمح لنا ـ بعد كثير من الجدل ـ أن ننقل فقرة مما كتبه الفتى، بخط يده، عن بيخور شطريت بالذات، قال:

«... ... بعد عدد معين من الكئوس، لم أكن أستطيع أن أميز إن كان هذا الرجل الضخم الجثة، الأكول، حيًّا أم ميتًا... دليلي الوحيد على حياته هو استمرار تنفسه فقط... لم أكن أستطيع أن أعرف إن كان نائمًا أم مستيقظًا، إن كان يتحدث أم أن الصوت يخرج من بطنه، وكأن إنسانًا آخر في داخله هو الذي يتحدث، كان يكفي أن أوجه له سؤالاً واحدًا، حتى يجيب في استفاضة وكأنه جهاز تسجيل ضغطت على زره!».

لكن رأفت الهجان لم يبدأ العمل فورًا رغم أن الموافقة وصلته من القاهرة صريحة... بل راح يجري على الرجل اختبارات واختبارات لأسابيع طالت... كان يسأله ـ في البداية ـ عن أمور عامة وأمور خاصة به وبزوجته وعن أشياء بلا قيمة على الإطلاق وكأن ما يدور بينهما من حديث مجرد دردشة بين صديقين... وكان الرجل يجيب ويسترسل في الإجابة دون أدنى قدر من التحفظ... حتى إذا ما تحقق الفتى ـ فيما تلا ذلك من أيام ـ مما قاله الرجل تأكد له صدقه البالغ... غير أنه إذا ما أشار ـ فيما بعد، وقبل أن يشرب السيد بيخور ـ إلى ما أفضى به إليه علت الدهشة وجه الضابط السكير وهو يؤكد أنه لا يذكر شيئًا مما قاله على الإطلاق، بل كان ـ في بعض الأحيان ـ يضحك خجلاً من بعض ما صرح به!

وعلى كل فلم يكن لفتى مثل رأفت الهجان ـ وهو الذي عاش تلك الحياة الغريبة في بداية شبابه ـ أن ينخدع إذا ما كان الرجل يبغي خداعه... ومع الوقت استطاع رأفت أن يضع يده بالضبط، على اللحظة المناسبة التي يبدأ فيها سؤاله، حتى جاء الوقت الذي كان يسأل فيه عن أدق أسرار الجيش الإسرائيلي، فإذا الرجل يجيب دون تردد، وبمعلومات، بدت في القاهرة، مذهلة في دقتها وصدقها!

ولا بد لنا من الانتباه إلى أن الأحبار السرية كانت تتطور أسبوعًا بعد أسبوع... كان فريق العلماء الشبان هذا ـ في جميع العلم وليس في الكيمياء وحدها ـ قد اقتحم ذلك المجال المذهل فإذا هم أمام عالم بلا حدود... وكلما حصل رأفت على حبر سري جديد، كان يزيده اطمئنانًا، ويدفعه للإجادة أكثر وأكثر... ولكي توضع الأمور في نصابها الحقيقي والواقعي أيضًا، فلا بد لنا أن نذكر أن هذا التطور كان يشهد تطورًا مقابلًا في الأحبار السرية التي كانت إسرائيل تبتكرها، والتي كان نفس هذا الفريق من العلماء يكتشفها بجهد بدا فوق طاقة البشر، حتى تحول الأمر ـ مع الوقت ـ إلى مباراة شبه رياضية بين العلماء هنا، والعلماء هناك!

وهكذا، وبالنسبة لبيخور شطريت بالذات لم يكن الاكتفاء باجتهاد الفتى في السؤال كافيًا... فما إن مضت بضعة أشهر حتى كانت هناك «تكليفات» ترسل من القاهرة، وأسئلة محددة عن معلومات معينة يراد معرفتها أو التيقن منها أو استيفاء بعض جوانبها!

* * *

مع تطور أعمال الفتى الرئيسية كانت أعمال شركته تتطور هي الأخرى بسرعة وثقة، وأصبحت شركته قادرة، لا على استجلاب السائحين من الخارج فقط، بل على ترتيب أفواج سياحية إسرائيلية لزيارة بعض المدن الأوربية... ووسط تلك الأفواج، كانت هناك ثلاث شخصيات بالذات، يقدم لهم الفتى ـ كل على حدة، أو مع زوجته، وبعيدًا تمامًا عن الآخرين ـ الدعوات المجانية، أو بأجور رمزية، لزيارة أوربا في أحد تلك الأفواج، خاصة في الصيف، لقضاء أسبوع أو أسبوعين... هذه الشخصيات الثلاث كانت:

ألوف مشنيه ـ عقيد ـ دان رابينوفيتش.

سجن ألوف ـ مقدم ـ بيخور شطريت.

راف سيرن ـ رائد ـ إيزاك بن عميتاي.

في تلك الرحلات، لم يكن صعبًا أن يرتب الفتى لأصدقائه رحلات خاصة إلى أماكن خلوية ليست موضوعة في جدول الرحلة... وفي هذه الرحلات الخاصة، كانت المخابرات العامة المصرية تلتقط لهؤلاء صورا عديدة، بل وأفلامًا سينمائية، وتجري عليهم ـ دون أن يشعروا ـ عددًا لا بأس به من الاختبارات التي كانت نتائجها تُبلَّغ للفتى، كي تصبح سيطرته عليهم أكبر، وأقوى!

* * *

رفض رأفت الهجان رفضًا نهائيًا وقاطعًا أن يتقاضى من وطنه قرشًا كي يدفعه إلى بيخور شطريت، مؤكدًا أنه لا يقبض منه «شيكلًا» واحدًا، ولا يكلفه سوى ثمن زجاجات الخمر.

أما راف سيرن ـ رائد ـ إيزاك بن عميتاي، ذلك المهندس في سلاح الطيران الإسرائيلي، فلقد بدأ الفتى معه تجربته الأولى في الاقتراب ـ صراحة ـ من عميل لا مانع لديه أن يبيع معلومات سرية عن سلاح من أقوى أسلحة جيش بلاده، إلى قوى أجنبية!

في خلال بضعة أشهر كان بن عميتاي قد ارتبط بالفتى ارتباطًا شديدًا، ليس فقط من أجل تلك الأموال التي كان يقترضها منه بين الحين والحين، ولا من أجل الأموال التي كان الفتى يخسرها أمامه إذا ما جلسا حول المائدة الخضراء... بل لأن الفتى استعمل ملكاته الخاصة في ربط هذا الرجل البائس به ربطًا لا فكاك منه... كان يعرف كيف يعامله برقة أحيانًا، وبحنان أحيانًا، وبحزم في أحيان أخرى، كان يعرف متى يقرضه ومتى يحجب عنه المال... ثم عرف فوق هذا وذاك طريقه إلى بيت إيزاك حاملًا معه بعض الهدايا لزوجته المتدينة، التي كان يسعدها أشد السعادة زيارة السيد ديفيد لهم في الأعياد والمناسبات الدينية... خاصة وأنه استطاع، وبما يجلبه للصغار الثلاثة من هدايا، أن يجعلهم متعلقين

به، وربما أكثر من تعلقهم بأبيهم الذي كان الميسر قد سيطر عليه سيطرة أحالت حياته وحياتهم إلى جحيم!

ومع الوقت، تراكم المال الذي كان بن عميتاي يقترضه من الفتى إلى مبلغ لا يستهان به، ويصعب في نفس الوقت تسديده... ليس هذا فقط، بل لقد تحول هذا المال، إلى مصدر ثابت لا يستطيع بن عميتاي أن يستغني عنه، خاصة بعد أن صحبه الفتى إلى مستويات اجتماعية أرقى من تلك التي كان الرجل يمارس فيها هوايته القاتلة، وفوق كل هذا أدرك الفتى ما للمال من سحر عند هذا الرجل، فأذاقه، دون إسراف، طعم اليسر... حتى كان يوم!

«يا عزيزي إيزاك، أنت اليوم تطلب قرضًا، فهل تعرف بكم أنت مدين لي؟!».

كان السؤال مفاجئًا وغير متوقع فارتبك الرجل ارتباكًا ألجمه لثوان... كانت لهجة الفتى تنبئ عن مطالبة غير متوقعة على الإطلاق، فقال بعد لحظات صمت والكلمات تتعثر على شفتيه:

«ديفيد أيها العزيز... أنت تعرف أني سأرد لك هذا المال في يوم من الأيام».

«أنا على يقين من ذلك يا صديقي، لكنك تعلم أن هذه الأموال ليست أموالي الخاصة... ولكنها أموال الشركة».

«ألست صاحب هذه الشركة يا ديفيد؟!».

«هذا صحيح تمامًا، ولكنك تنسى أن هناك حسابات ومحاسبات وضرائب».

صمت إيزاك بن عميتاي وقد شله الحرج، وراح الفتى يرمقه دون كلمة حتى قال:

«ولكني لا أملك هذا المال الآن!».

في تلك اللحظة دق جرس التليفون، وكانت المكالمة خاصة بالعمل، واستغرق الفتى في الحديث عن حاجته الماسة إلى المال السائل، وراح يشكو مما فعلته معه الضرائب، وكم المال الذي تطالبه به... كان واضحًا من حديث رأفت الهجان أن ثمة أزمة مالية يمر بها، لكنه كان يتحدث دون أن يلقي أي اهتمام إلى الرجل الجالس أمامه يتصبب عرقًا ويتمزق حرجًا وضيقًا... فهو لم يكن عاجزًا عن الدفع فقط، بل لم يكن قادرًا على الابتعاد عن الفتى أو حتى إغضابه، فلقد أصبح ـ الآن ـ نقطة ارتكاز لا غناء عنها في حياته كلها، خاصة بعد أن سمع ـ من الآخرين، وليس من رأفت ـ عن تلك العلاقة الحميمة التي أصبحت تربط الفتى بواحد من كبار قادة الجيش الإسرائيلي، هؤلاء الذين يحتلون في هذا المجتمع مكانة مرموقة يحرص الجميع على الاقتراب منها، بل ويفخر البعض بعلاقتهم بهم!

أنهى الفتى مكالمته التليفونية واستدعى واحدة من موظفاته، وراح يناقش معها بعض المشاكل الخاصة بتلك المكالمة التي أنهاها منذ ثوان... ولم يكن صعبًا عليه أن يدفع الفتاة ـ لم يسمح لنا بمعرفة اسم هذه الفتاة بالذات لظروف أمنية، هكذا قالوا!! ـ إلى البوح بما لا يجوز أن تبوح به أمام الزائرين... فلقد قالت إنه لم يعد هناك مفر من أن تسحب الشركة من البنك أموالًا على المكشوف بعدما تضاءل الرصيد إلى حد لم يعد يفي بالالتزامات المطلوبة إليهم، ولقد وافقها الفتى مبديًا أسفه، ووعدها بإجراء مكالمة مع مدير البنك في صباح اليوم التالي... وعندما انصرفت الفتاة، كان إيزاك بن عميتاي يتصبب عرقًا، وتسيل من عينيه نظرة توسل:

«ديفيد أيها العزيز... إني أعدك... ...».

عاجله الفتى:

«ولكنك وعدت من قبل مرات ومرات دون أن تفي بوعودك!».

«ما الذي أستطيع أن أفعله إذن؟!».

«ليس أمامي سوى طريق واحد!».

في لهفة هتف الرجل:

«وأنا على استعداد لأن أسلكه مهما كلفني الأمر!».

فتح رأفت الهجان درج مكتبه، وأخرج منه عددًا من الإيصالات ملقيًا بها أمام إيزاك:

«وقع لي هذه الإيصالات، فلسوف تعينني على بعض المصاعب، خاصة مع رجال الضرائب، الذين يعتبرون كل مواطن لصًّا حتى يفلسوه».

ودون أن يقرأ بن عميتاي كلمة في هذه الإيصالات، وفي لهفة من يريد التخلص من مأزق رهيب، وضع توقيعه عليها!

وهكذا، تمت المرحلة الأولى في «تجنيد» مهندس الطيران الحربي الإسرائيلي، راف سيرن «إيزاك بن عميتاي» بنجاح!

وبقي أن يخطو الفتى معه خطوته الثانية، والأخيرة والخطيرة!

* * *

كان العام قد اكتمل، وهلت الستينيات على العالم حبلى بأحداث لا تخطر لأحد ببال. ولقد أنكر رأفت الهجان، إنكارًا حاسمًا، أي علاقة له، من أي نوع، بزوجة ألوف مشنيه دان رابينوفيتش، تلك التي كادت تصبح ملكة جمال إسرائيل في يوم من الأيام.... ولقد ظل هذا الأمر ـ وحتى اليوم ـ مثارًا لمناقشات لم تصل ـ مع إصرار الفتى حتى آخر يوم من أيام حياته على موقفه ـ إلى نتيجة حاسمة، لكنه، على كل الأحوال يبدو أمرًا شديد الغرابة أن يستطيع رأفت الهجان أن يدخل ـ أيضًا ـ إلى

حياة دان رابينوفيتش وزوجته الحسناء التي تصغره بربع قرن من الزمان، إلى الحد الذي أصبح الاستغناء عن وجوده أمرًا لا يمكن أن يتصوره أحدهما!

ولا بد لنا من الاعتراف بأن ألوف مشنيه ـ عقيد ـ دان رابينوفيتش كان رجلًا عسكريًّا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه... كان يحتل في ذلك الوقت مركزًا هامًّا في «هيئة العمليات» الإسرائيلية، هو واحد من مجموعة هللت لها الصحف الإسرائيلية بعد عدوان ١٩٥٦ على أساس أنهم حققوا انتصارًا مهمًّا ضد الجيش المصري في سيناء ـ !! ـ ولقد أصبح السيد رابينوفيتش ـ وليس هذا هو اسمه الحقيقي بطبيعة الحال ـ نجمًا من نجوم العسكرية الإسرائيلية، وحتى نهاية عام ١٩٥٦ كان قد اشتهر عنه أنه لا يميل إلى النساء، فلقد قارب الخمسين من عمره دون زواج... وكان طبيعيًّا أن تسعى إليه الفتيات الإسرائيليات في إلحاح...

ولقد شوهد دان رابينوفيتش بملابسه المدنية مرات عديدة في أماكن خاصة بصحبة فتيات عدة... حتى التقى ذات يوم بكلارا ـ لم نستطع الحصول على لقب العائلة بحجة أنها معروفة من ناحية، وأنها لا تزال تعيش في إسرائيل من ناحية أخرى، وكل ما استطعنا معرفته عنها أنها تنتمي إلى عائلة يهودية من أصل إيطالي، وأن هذا نادر جدًّا في إسرائيل لما هو معروف عن الإيطاليين من تمسكهم الشديد بالمسيحية وبالمذهب الكاثوليكي بالذات ـ ولقد كانت كلارا فتاة رائعة الحسن، يحمل جمالها ذلك المزيج الرائع بين دفء الشرق وطلاوة الغرب، بحيث تبدو ملامحها المتناسقة وكأنها ملامح من طراز خاص!

التقى دان رابينوفيتش بفتاته في حفل اختيار ملكة جمال إسرائيل، وكادت الفتاة تفوز باللقب لولا سوء الحظ الذي عزاه دان إلى تلاعب تم بين هيئة المحكمين لإعطاء الجائزة لفتاة أخرى... ولقد أسعد الفتاة

دفاع «رجل مهم» مثل دان عنها، فأصبحت صديقته، لكنها كادت تطير من الفرح يوم اكتشفت أنه وقع أسير هواها!

وتزوجا!

وكان زواجهما محمومًا ـ هكذا رددت الألسن في بيت سيرينا أهاروني، وهكذا كان القوم يستعيدون ذكريات تلك الأيام ـ فلقد بدا أن دان قد قرر تعويض كل ما عاناه من حرمان واتزان مع الجنس الآخر، فلقد انفجر الرجل معربا عن حب عارم مشتعل متقد، لا يبقي ولا يذر، ولا تقف في سبيله عقبة.

أما الفتاة التي لم تكن تفكر أو تهتم إلا بجمالها فقط، فلقد وجدت في زواجها من هذا البطل الذي اكتسح المصريين في سيناء واستولى عليها ـ بصرف النظر عن فارق السن بينهما ـ تلبية لكل حاجاتها... كانت تسمع، بل ترى بعينيها ما يملكه القادة الكبار في إسرائيل من بيوت، أو مزارع، أو شركات، أو مشروعات تدر عليهم الملايين... لكنها عندما تزوجت الرجل اكتشفت أنه لا يملك إلا مرتبه فقط، ولم يكن في حياته أي اهتمام إلى جوار عمله... فلم يصدمها هذا، بل راحت تباهي الآخرين بعفة زوجها ونظافة يده... لكن مباهاتها تلك، واعتزازها بزوجها، لم يمنعاها من الإلحاح في طلب كل ما تحتاج إليه، أو يحتاج إليه جمالها!!

ولم يكن الضابط العجوز يملك إلا أن يلبي في حماس وحرارة كل متطلباتها.

وكان طبيعيًّا أن ينفد ماله.

وكان طبيعيًّا أيضًا أن يلجأ إلى الاقتراض!

ولم يكن هناك ـ في ذلك الوقت ـ أقرب إليه من السيد ديڤيد شارل سمحون، الذي التقى به في بيت السيدة سيرينا أهاروني، بل كان حريصًا كل الحرص على تنمية علاقته بزوجته الحسناء... ولذلك، فما من مرة

سافر فيها إلى الخارج في إحدى رحلاته السياحية تلك، إلا عاد محملًا بأحدث مبتكرات العطور الفرنسية التي كانت تخلب لب الجميلة الصغيرة، أو تلك الصناديق الفاخرة من معدات الماكياج، التي كان يقدمها ـ رغم أثمانها الباهظة ـ كهدايا خالصة من صديق حميم!

كان رأفت موقنًا أشد ما يكون اليقين أن هداياه تلك تسعد القائد العجوز كما تسعد زوجته سواء بسواء... ومع الأيام، ومع توطد العلاقة بينهما، بدأت ديون الرجل تتراكم، شهرًا بعد شهر، بل أسبوعًا بعد أسبوع. كان السيد رابينوفيتش يرتبط بالفتى ارتباطًا لا فكاك منه!

وكما كان إيزاك بن عميتاي لا يستطيع الحياة بدون العزيز ديفيد.

هكذا أصبح السيد وزوجته الجميلة... غير أنه يوم أن ذهب يطلب إليه قرضًا جديدًا... لم يكن يعرف أن مرحلة قد انتهت تمامًا، ومرحلة أخرى شديدة الخطر، كانت على وشك أن تبدأ!

كان الفتى قد قرر أن الوقت قد حان لمفاتحة إيزاك، وسيادة العقيد!

كانت مرحلة بكاملها قد انتهت، ومرحلة جديدة ـ شديدة الخطورة والوعورة معًا ـ لا بد لها أن تبدأ... لا في حياة هذين الضابطين فقط، بل في حياة «رأفت الهجان» نفسه!

الجزء الثالث

الفصل الأول

اطرقَ وَالحديد سَاخِن

قالت السيدة هيلين سمحون، وهي تستمع إلى تلك المرحلة من حياة الفتى، إنها تشعر بالإشفاق، لا على الفتى، ولكن على نفسها... فهي ربما قد التقت ببعض تلك الشخصيات أو الوجوه التي كان الفتى ينصب شباكه من حولها بشكل أو بآخر... وهي تعلم علم اليقين - فليس الأمر في حاجة إلى ذكاء أو استنتاج - أن عزيز الجبالي لا يذكر أسماء أو وظائف حقيقية، إنه يموه ويخفي ويدثر ويغلف الحقائق بما يحفظ لها أسرارها حتى الأبد... لكنها في النهاية بشر، وهي لا تستطيع إلا أن تتخيل وتقارن بين ما يقول عزيز، وما رأته بعيني رأسها في إسرائيل!

ولقد كان ما رأته - بالقياس إلى ما يذكره ويحكيه - مذهلًا بحق!

قالت إن زوجها الراحل كان رجل أعمال مرموقًا في تل أبيب، وإن مجتمعه ومحيطه ومعارفه وأصدقاءه جميعًا، كانوا يحترمونه احترامًا شديدًا، ليس فقط، بل إنها موقنة أنهم كانوا أيضًا يحبونه حبًّا حقيقيًّا صادقًا... وربما كان لشخصية الفتى الجذابة علاقة بهذا، ولكن الغريب في الأمر أنها حتى إذا ما استعادت ذكرياتها معه في لقاءاتها في إسرائيل، لا تستطيع أن تتصور أو تتخيل أن هذا الرجل الذي كان يملأ الأسماع والأبصار ويحنو على الجميع، من الممكن أن يكون حاملًا لسر هائل

كهذا الذي يحمله، ولأعباء جسام كتلك التي قدر له أن يقوم بها تجاه وطنه وأمته... وهي فوق كل هذا وذاك، ورغم كل ما عرفته وسمعته، وإذا ما عادت بالذاكرة إلى الوراء لا تستطيع أن تتخيل أنه من الممكن أن يكون موضع شك من أحد!

قالت إنها تذكر حوارًا دار ذات مرة بينه وبين أحد أصدقائه من رجال الأعمال، وكان الصديق يعاتبه لأن شخصية عسكرية إسرائيلية، مرموقة وذات شهرة عالمية، كانت تشكو لهذا الصديق من أن السيد سمحون لا يلبي دعواته التي تعددت، كما أنه لا يدعوه إلى تلك الحفلات الرفيعة المستوى التي كان يقيمها بين الحين والحين، وأنها دهشت دهشة حقيقية، بل ربما كان هذا من الأسباب التي اجتذبتها إلى الفتى دون أن تنتبه، لأن رأفت تلقى العتاب في بساطة وليس في لامبالاة، وأنه راح يعتذر بكلمات لا معنى لها... وعندما انفردت به سألته - وكان حب الاستطلاع لديها أقوى من محاولتها تجنب التدخل في شئونه الخاصة، بل ربما كانت هي رغبتها في أن تلتقي بتلك الشخصية الفذة وجهًا لوجه!! - عن سر ابتعاده وعزوفه عن مقابلة صاحب هذه الشخصية، فرد عليها الفتى مازحًا:

«إن أية سهرة في الدنيا لا تتسع إلا لنجم واحد!».

قالها ضاحكًا فضحكت معه وقد بدا لها منطقه معقولًا، فلقد كان زوجها الراحل، إذا ما وجد في مكان، كان هو - بالفعل - نجمه الساطع، والشخصية التي يتودد إليها الجميع!

استمع عزيز الجبالي إلى حديثها باسمًا، حتى إذا انتهت منه ذكر لها ببساطة اسم تلك الشخصية العسكرية الإسرائيلية التي كانت تتحدث عنها فضحكت تلك السيدة اللاهثة الأنفاس قائلة:

«كنت موقنة أنك تعرف».

«لقد طلبت إليه في إلحاح ـ وأنا أعلم أن الأمر مغر للغاية ـ أن يبتعد عنه تمامًا».

«لماذا... وقد كان في الاقتراب منه فوائد جمة؟!».

اغتبط عزيز الجبالي عندما جاءه سؤالها، وكان السبب في غبطته هو ذلك الإحساس الذي يعطيه السؤال بالتعاطف مع ما يطرح عليها من قضايا... ولذلك فلقد قال:

«إن الاقتراب من مثل هذه الشخصيات يمثل خطرًا حقيقيًّا على من يقوم بعمل مثل هذا الذي كان يقوم به رأفت الهجان، الذي وصل في نهاية أيامه في إسرائيل إلى تكوين الشبكة المثالية... كانت أعماله ـ كما تعرفين ـ قد اتسعت وتشعبت ولم تعد مقصورة على السياحة فقط، وأصبح الفتى من رجال الاقتصاد المرموقين، إلى الحد الذي أعفى فيه وطنه ـ خاصة بعد نكسة ١٩٦٧ ـ من دفع قرش واحد للصرف على هذه الشبكة التي كانت قد اتسعت وأصبحت ما يشبه الأخطبوط الذي يمد أذرعه إلى كل مكان وكل نشاط داخل إسرائيل!».

لمحت هيلين سمحون سحابة حزن على وجه عزيز، بل لقد شكت في أنها ربما لمحت في عينيه بريقًا يشبه بريق الدمع المتجمع خلف الجفون، وعندما صمت الرجل احترمت صمته وشاركته إياه، حتى قال:

«وصل به الأمر إلى حد أنه أراد أن يحول إلى وطنه نصيبه من أرباح شركاته وأعماله بحجة أن المال في الأصل كان مال هذا الوطن!!».

ولم تستطع هيلين سمحون أن تحتمل أكثر من هذا، فانفجرت الدموع من عينيها!

* * *

ولا بد أن حصيلة الفتى من التجارب المريرة التي صادفته في فجر

شبابه، قد أمدته بمعرفة عميقة بالنفس البشرية... ذلك أنه بالرغم من الرسائل المتتالية التي كانت تبعثها إليه السيدة «سيرينا أهاروني» المصرية الأصل لحضور السهرات في بيتها فإنه لم يذهب لزيارتها قبل أن يدق جرس التليفون ذات مساء في مكتبه... ما إن رفع السماعة حتى جاءه صوتها بالعربية، وباللهجة المصرية بالذات، وكان مرحًا:

«بيقولوا إنك مستني عزومة منّي؟!».

كان هذا صحيحًا تمامًا، فكل الذين حملوا إليه رغبتها في حضوره بعض سهراتها، كان يرد عليهم بقوله: إن هذا من دواعي سروره، لولا أنها لم توجه الدعوة بعد!... وهو في واقع الأمر كان تواقا لمثل تلك الزيارة لأنه يعرف مدى الفائدة التي سوف يجنيها من وجوده في بيتها والالتقاء بأصدقائها... لذلك فما إن جاءته جملتها تلك عبر سماعة التليفون حتى هتف في مرح وترحاب:

«أنا مش مستني عزومة، أنا مستني إذن».

ولا بد أن مجاملة الفتى قد أثلجت صدرها فلقد قالت على الفور:

«واحنا أذنا لك يا سيدي».

في تلك الليلة عرف أنها تتحدث من الهستدروت ـ مركز نشاطها الرئيسي ـ وكان هو في طريقه إليه كعادته في أغلب الأمسيات قبل أن يبدأ سهرته... وهكذا اتفقا على اللقاء هناك!... وهكذا ذهب الفتى وهو يشحذ كل ملكاته كي يقيم علاقة حميمة يصل بها إلى أقصى ما يستطيع مع تلك الشبكة المهمة من المدنيين: علماء، مهندسين، أطباء، أساتذة جامعة، اقتصاديين، سياسيين... الشرط الأول في تحقيق غرضه هو السيطرة على سيرينا سيطرة تحولها إلى معبر آمن يقوده إليهم بما لا يدع مجالًا للشك فيه!

* * *

وجد الفتى أن الوسيلة المثلى للسيطرة على تلك السيدة المرموقة هي معرفة بعض أسرارها الخاصة التي تحرص على إخفائها عن المجتمع... علمته تجربته في الحياة أن لكل إنسان نقطة ضعف أو سرًّا «خاصًّا» يحرص على إخفائه وينوء به صدره... ولم يكن من السهل على رأفت الهجان أن يستحوذ على ثقة سيرينا أهاروني، لكنه وجد السبيل - كعادته - بالكثير من الصبر، وبمعرفة راحت تتدرج من «حياة كل يوم» إلى أدق أسرارها الخاصة... ولقد عرف، وتأثر، بل لقد أحب صحبتها، وحققت له هذه السيدة واحدًا من أعظم أحلامه يوم راحت تحكي له قصة حياتها!

* * *

كانت سيرينا أهاروني سيدة مجتمع بحق، تعلمت فنون الضيافة منذ الصغر، عندما كان أبوها - الموظف بأحد البنوك الأجنبية الكبيرة في الإسكندرية - يستقبل في بيته، هو وزوجته، مجموعة من الأصدقاء من رجالات المال وتجار القطن والمثقفين وأصحاب المراكز المرموقة في العاصمة الثانية لمصر... رأت سيرينا كيف كان أبوها يجمع أصحاب المصالح المشتركة، كما يجمع المضاربين ورجالات الأحزاب المتناحرة دون أن ينتمي إلا لمصالحه الخاصة... رأت منذ نعومة أظفارها كيف يمكن أن تدار الأمور وأن تدر تلك السهرات ربحًا وفيرًا، فدربت على شئون الكبار دون جهد يذكر... وهي، عندما فتحت بيتها في تل أبيب لمثل تلك السهرات، كانت في واقع الأمر تستعيد ذكريات تلك الأيام، بل - ربما!! - كانت تريد بمن تجمعهم حولها من رجال المال والأحزاب والمثقفين، أن تعيش الماضي، ولو في الخيال!

والذي لا شك فيه أن رأفت الهجان استطاع أن يخلب لبها، حتى لقد أصبح قاسمًا مشتركًا في معظم تلك السهرات، كما أصبح كل منهما لصيقًا بالآخر يحتمي به، إلى درجة أن شائعة راجت في تل أبيب في

منتصف عام ١٩٦١، تقول: إن زواجهما بات وشيكًا بالرغم من أنها تكبره بعدد لا بأس به من السنين!

ولقد فسر هذا تفسيرًا لم يتنازل عنه لحظة، وهو أنها كانت تحب مصر!

أفرطت ذات ليلة في الشراب عندما ثارت بعض المتاعب في حياتها، فاعترفت له أنها لم تكن تريد الرحيل عن مصر ولم تفكر في الهجرة إلى إسرائيل، لكنها ـ في تلك الأعوام التي سبقت حرب ١٩٤٨ بعامين أو يزيد قليلًا ـ لم تكن تملك إلا الإذعان لقرار اتخذ بشكل غامض... علمت فجأة أنهم سوف ينتقلون إلى فرنسا ـ وكانت كلمة الهجرة في ذلك الوقت غير واردة ـ بعد أن رقي والدها في وظيفته، وتقرر نقله من فرع البنك في الإسكندرية إلى مقره الرئيسي في باريس... وكان طبيعيًا أن يثلج هذا صدورهم وصدور الأصدقاء من أصحاب الملايين وتجار القطن والمضاربين على أسعاره في بورصته الشهيرة الذين راحوا يتوددون إلى أبيها مؤملين أن يؤدي لهم خدمات خاصة إذا ما انتقل إلى العاصمة الفرنسية... وهكذا أحست أن سفرهم إلى باريس ليس سوى مرحلة ستكون بعدها عودة، أو على الأقل زيارة... لكنها فوجئت، فور وصول السفينة إلى مارسيليا، بأنهم في انتظار سفينة أخرى ستحملهم إلى فلسطين!

أحست سيرينا أهاروني أنها اختُطفت وغُرر بها، كما غُرر بعشرات الأصدقاء الذين ودعوا أباها واضعين فيه ثقتهم، أحست أن ثمة قوى قاهرة تدفعها إلى الابتعاد عن البلد الذي ولدت فيه وأحبته وتركت في عاصمته الثانية قلبها!

قالت للفتى ـ وقد أضناها الصراع ـ إن حبها الذي لم تستطع نسيانه هو إسماعيل مدكور... ابن الجيران الذي تعلمت بين يديه أولى خطواتها في الرقص، وكانت ابنة ستة عشر ربيعًا، وعندما كان يصحبها مساء كل سبت

إلى ذلك المرقص الشهير في محطة الرمل ـ خلف سينما ماجيستيك ـ حيث تتحول ساحة الباتيناج في مساء هذا اليوم من كل أسبوع إلى مرقص يضم عشرات الفتيات والفتيان من كل الأعمار والأديان دونما تفرقة أو إحساس بغربة... هناك، كانا يقضيان الساعات تلو الساعات في الرقص، لا يملان ولا يتعبان.... أكثر ما كان يميز حبيبها هو أنه شامخ الرأس كسهم يوشك على الانطلاق، هو أسمر الوجه كبير التقاطيع، سكندري السحنة، خفيض الصوت، عميق النظرة، قليل الحديث، وكما تعود على اصطحابها إلى ذلك المرقص مساء كل سبت، تعود ـ في شهور الصيف ـ أن يقضي معها يوم الأحد في الرملة البيضاء... حيث كانا يستقلان «الكوتر» ـ قارب كبير مجهز يسع عددًا من الركاب فوق العشرين ـ من باب الميناء رقم ستة إلى تلك البقعة المميزة فوق حاجز الأمواج في ميناء الإسكندرية، حيث كانا يجلسان فوق الصخور المتراكمة فيما بين الميناء من ناحية، ومياه البحر وأمواجه من ناحية أخرى... يقضيان الوقت في السباحة والتهام السندوتشات وشرب المثلجات، يغنيان معًا أو يشاركان الآخرين من حولهما في الغناء!

كانت هذه أجمل سني حياتها، كان الحب بينها وبين إسماعيل مدكور ميثاقًا صامتًا، لكنه يوم أن باح لها بحبه لأول مرة لم تستطع أن تكبح جماح عواطفها، فتعلقت بعنقه وراحت تمطر وجهه بالقبلات... في تلك الليلة بدا لها حبيبها حزينًا، سألته عن سر حزنه فقال:

«علشان إنتو مسافرين يا سيري!».

هكذا كان يدللها.

«مين اللي قال لكم إننا مسافرين؟!».

«بابا».

«ومين اللي قال له؟!».

«باباكي».

وكانت هذه هي المرة الأولى التي عرفت فيها سيرينا أهاروني أنها ستغادر مصر!

* * *

قال الفتى صراحة إنه كان كلما أضناه الشوق إلى وطنه يذهب إليها... وإنه في تلك الليلة التي أفضت له فيها بسرها المكنون، تمنى لو أنه استطاع هو الآخر أن يفضي إليها بحقيقة أمره!!

ولم يكن فيما قالته سيرينا سر حتى الآن لكن سرها جاءه بعد ذلك وقد سرى دفء الذكريات إلى المكان فأحال الجلسة بينهما إلى نوع من الأحلام دفعها إلى الإفضاء بحقيقة مأساتها!

قالت سيرينا أهاروني ـ بعد دقائق من الصمت احتست فيها كأسًا وأشعلت سيجارة ـ إنها لم تستطع رغم هجرتها إلى فلسطين أن تنسى إسماعيل مذكور... كان كل شيء في حياتها قد انقلب رأسًا على عقب واختلف بعنف أفقدها التوازن، احتل أبوها مركزًا مهمًا في أحد البنوك الإسرائيلية، واستطاع بما له من خبرة وما كان يحمله من معلومات أن يحقق لإسرائيل الكثير مما كانت تحتاج إليه قبل إعلان قيامها وبعده ... انساقت مع التيار فانضمت إلى الهاجاناه، التقت بزوجها الراحل فأحبها وتزوجته لأنه كان لا بد لها من أن تتزوج أو هكذا بدا لها الأمر... أعلن عن قيام دولة إسرائيل وأخذت الحياة بعد الحرب طابعًا محمومًا... عندما قامت حرب ١٩٥٦ انضمت إلى جيش الدفاع الإسرائيلي كما ذهب زوجها إلى الجبهة في سيناء... لم تكن تعرف أنه قتل في هذه الحرب عندما ابتلاها قدرها بما لم يخطر لها على بال... كانت نشوة النصر المزيف قد خلبت لب الناس خاصة بعد أن جاءت أفواج الأسرى المصريين كي توضع في المعتقلات!

«أقسم الفتى بأغلظ الأيمان أنها ذكرت كلمتي «النصر المزيف» وأنها كانت تعنيهما، بل إنها ـ وقد رأت على وجهه علامات الدهشة ـ أعادتهما على سمعه كي تؤكدهما!».

كان من نصيبها أن تخدم في معتقل «عتليت» الذي ضم ثلاث مجموعات من الأسرى المصريين: مجموعة من الجنود، وأخرى من الضباط ذوي الرتب الصغيرة، ثم مجموعة ثالثة لا تزيد على الخمسة من الضباط الكبار. لم يكن للفتيات أن يخدمن أو يقمن بالحراسة أو ما إلى ذلك، بل كانت لهن أعمال أخرى حول المعتقل أو في داخله... مضى على وجود الأسرى ما يقرب من شهر وقد وضعت الحرب أوزارها وبدت الأمور وكأنها استقرت بشكل نهائي، عندما اصطدمت عيناها ذات صباح بقامة طويلة ورأس شامخ مشرع كسهم يوشك على الانطلاق... كان إسماعيل مدكور هناك، يضع على كتفيه نجومًا ثلاثة، وكان يبدو في وقفته وكأنه المنتصر لا الأسير، كذبت عينيها لكن الواقع أجج الذكريات بلهب لم ينطفئ... في ثورة الحماس كادت تبلغ الأمر لرئاستها فلربما استطاعت أن تعرف منه شيئًا أو تصنع شيئًا للوطن عن طريقه مستخدمة تلك العاطفة التي اكتشفت أنها لا تزال كامنة في أعماق القلب لم تغادره، لكن شيئًا ما، شيئًا قاهرًا منعها من ذلك... كانت تعرف حبيبها وتعرف مدى اعتزازه بنفسه فلم ترد أن تعرضه للمهانة!

توقفت سيرينا عن الحديث ورفعت عينيها نحو الفتى وكان الدمع فيهما سافرًا!

«بصراحة خفت عليه... خفت يكسر الصورة الحلوة اللي في قلبي!».

ولم يكن هذا هو ما عذبها، اعترفت هي بذلك، كما اعترفت أنها اقتربت من فتاها الذي كان قد أصبح رجلًا، وتعمدت أن تتلاقى عيونهما بعد أن بحثت عيناها عن دبلة في أصبعه فلم تجد... كانت

عشر سنوات قد انقضت منذ رأته آخر مرة لها على رصيف رقم ١٤ في ميناء الإسكندرية وهو يلوح لها بمنديله والدمع في عينيه كما كان ينهمر على وجنتيها... ذات يوم التقت عيونهما صراحة تحفزت كي تحذره من الإتيان بأية حركة تنبئ بأنه يعرفها، لكنه سحب عينيه بعيدًا عنها وتشاغل بما كان يشغله في أسره!

«ما عرفنيش يا ديڤيد... تصور ما عرفنيش!».

كانت تبكي وهي تحكي للفتى في حرقة... وكان هذا ما دفعها إلى أن تقول له وهي تودعه في تلك الليلة:

«عرفت ليه أنا باحبك وباحب أشوفك دايمًا؟!».

ولم يرد رأفت الهجان، مال على وجنتها فقبلها ثم انصرف!

* * *

كانت العلاقة الوحيدة التي سمح للفتى بأن يقيمها مع هؤلاء الذين كان يلتقي بهم في بيت سيرينا أهاروني من العسكريين هي تلك العلاقة مع سجن ألوف دان رابينوفيتش وزوجته كلارا... ولكن بيت هذه السيدة التي ظلت على علاقة حميمة بالفتى وحتى نهاية حياته، كان عونًا له في تكوين شبكتين من أهم شبكات التجسس التي عرفتها الحرب الخفية بين المخابرات المصرية والإسرائيلية!

من هذا البيت كانت نواة تلك المجموعة المختارة بعناية فائقة، وبعد دراسات استمرت شهورًا، من رجال الأعمال والاقتصاديين ـ في مختلف النشاطات ـ الذين ارتبطت مصالحهم فكانوا يلتقون في سهرات أسبوعية ومنتظمة تناقش فيها أحوال البلاد والسياسة بحرية ودون حرج!

وفي بيت سيرينا أهاروني كانت بداية تلك المجموعة الأخرى من العلماء الذين تتنوع مجالات نشاطاتهم من الذرة وحتى استصلاح الأراضي في صحراء النقب... وكان هؤلاء كتومين بطبعهم، يعرفون

أنهم يحملون أسرارًا خطيرة... وإذا كان الهجان يستطيع وسط المجموعة الاقتصادية أن يدلي بدلوه ويناقش ويثير ويحصل على المعلومات بالجدل، فإنه ها هنا كان يعرف قدر نفسه، فيستمع دون أن يتدخل، إلا إذا عنَّ له سؤال بدا للجميع ساذجًا فكانوا يجيبونه في ترحاب حتى ولو مست الإجابة سرًّا من الأسرار الكبرى... يدفعهم إلى ذلك تواضعه الجم، وثقتهم البالغة فيه، وأسلوبه الرفيع في الاحتفاء بهم.

هذه مجموعة ضئيلة رواتبهم لا تكفي كي يروِّح الواحد منهم عن نفسه وأسرته، ولو لأسبوع في كل عام، في رحلة إلى أوربا... لكن «ماجي تورز» التي يملكها السيد ديڤيد شارل سمحون، مكنتهم من ذلك بعمل تخفيضات خيالية في الأسعار، تخفيضات كانت الشركة تعوضها في المبالغة في أسعار رحلات أصدقاء الفتى من الاقتصاديين!

* * *

قال عزيز الجبالي للسيدة هيلين سمحون إن رأفت التقى في بيت هذه السيدة بنخبة من السياسيين والعسكريين والاقتصاديين والعلماء... وإنه في هذا البيت التقى بتلك الشخصية العسكرية المشهورة عالميًّا، وإن سيرينا لعبت دورًا مهمًّا وفعالًا في توطيد الصداقة بينهما... ولقد وجد هذا القائد العسكري في الفتى رفيقًا حلو المعشر، وصديقًا يفهم أن نزوات القادة لا تحط من قدراتهم أو قيمتهم... وفي حقيقة الأمر أن رأفت الهجان كاد يطير من الفرح خاصة عندما زاره صاحب تلك الشخصية المرموقة في بيته ذات مساء على غير موعد، وجلس إليه حتى وقت متأخر من الليل، وثرثر بالكثير من المعلومات التي أسرع الفتى بإرسالها إلى القاهرة، مشفوعة بطلب الإذن بالاقتراب منه، طلب قال فيه بالحرف الواحد:

«... ... ... إنه يثق بي ثقة لا حدود لها، وهو يتحدث أمامي بحرية

وبلا تحفظ، ويدلي برأيه في زملائه وفي السياسيين دون حرج، ووجهة نظري في الموضوع هي أن هذا الرجل يعرف في قرارة نفسه أن الهالة الموضوعة من حوله زائفة، وأنه في الحقيقة ليس بطلًا، لكنه متمسك بأن يلعب دور البطل!».

وصلت هذه الكلمات إلى القاهرة، فصدرت عنها في نفس اليوم برقية إلى إحدى دول أوربا، وانتقلت البرقية في نفس الليلة إلى إسرائيل وكانت تحمل ـ بالرغم من سطورها العديدة ـ كلمة واحدة هي:

«ابتعد!».

وابتسمت السيدة هيلين، وكأنها استراحت من عبء ثقيل!

* * *

الغريب في الأمـر أن المحقق في تلك الفترة ـ بداية حقبة الستينيات ـ التي شهدت أعنف أنواع الصراع بين المخابرات المصرية وجهاز الموساد الإسرائيلي... سوف يكتشف أن كلا الجهازين، في عمليات بعينها هي عمليات تجنيد العملاء بالذات، كان يتبع أسلوبًا واحدًا، وكان الرجال من الجهازين يستعملون في الغالب نفس الحجج، بل ربما نفس الكلمات!

هذه ملاحظة نراها جديرة بالتوقف أمامها، لأنها تثير بالضرورة عددًا لا بأس به من الأسئلة! فهل كان هذا التشابه معلومًا للطرفين منذ البداية؟... أم إنه ظل خافيًا لفترة؟!

وهل بدأت الموساد بهذا الأسلوب، بصفتها الجهاز الأقدم، ثم التقطته المخابرات المصرية كي تطوره وتطوعه وفقًا لاحتياجاتها وأهدافها؟!.. أم أن الظروف التي أحاطت بالمنطقة في تلك الحقبة ضيقت الخناق على الجهازين معًا فلم يجدا أمامهما سوى اتباع نفس الأسلوب ونفس الحجج، بل وربما نفس الكلمات؟!

ومهما كان الأمر، فإننا هنا ـ بالقطع ـ لا نبحث عن إجابة لمثل هذه الأسئلة... ولكننا نطرحها لأنه لا بد من طرحها، ولا بد من أن تكون محل اهتمام ودراسة، أو على الأقل محل تفكير.

ولكي نوضح الأمر نقول: إن المخابرات الإسرائيلية ـ بعد ذلك بسنوات!! ـ عندما أرادت تجنيد فتاة مصرية تدرس في السوربون بباريس ـ وأطلق عليها اسم «عبلة كامل» في قصة «الصعود إلى الهاوية» التي تحولت إلى فيلم سينمائي ـ كانت الحجة التي ساقها ضابط المخابرات الإسرائيلي كي يقنعها بالتعاون معه قبل أن يفصح عن هويته أنه يعمل لحساب منظمة سرية تعمل من أجل السلام العالمي... وعندما تورطت «عبلة كامل» وأرادت أن تجند صديقًا لها في القاهرة ساقت إليه نفس الحجة!

والذي يبعث على الدهشة والعجب معًا أنها نفس الحجة التي ساقها رأفت الهجان لكل من سجن ألوف دان رابينوفيتش وراف سيرن إيزاك بن عميتاي، كي يقنعهما بالتعامل معه!

تراكمت الديون على إيزاك بن عميتاي حتى أصبح احتمال تسديده لها مستحيلًا تمامًا، ولم يكن الأمر بسيطًا بالنسبة لضابط الطيران الإسرائيلي، بل كان خطرًا حقيقيًا يهدد سمعته في المجتمع، وربما شرفه ووظيفته أيضًا... وكان الفتى يعلم هذا تمام العلم، ويعلم مدى الرعب الذي تسببه له تلك الإيصالات التي وقعها، والتي كانت هي الأخرى تتراكم مع كل مبلغ جديد يقترضه... وبالرغم من كل شيء، وقبل أن يخطو الفتى خطوته الخطيرة ويفاتح مهندس الطيران الإسرائيلي في الموضوع، كان قد اتخذ كل احتياطاته في حالة إذا ما حدث ما ليس في الحسبان، وأبلغ عنه ذلك المقامر العتيد!... كان لا بد من احتياطات خاصة بوجوده داخل إسرائيل، وكيف ينكر وكيف

يجعلهم يصدقونه إذا ما أنكر... ثم احتياطات أخرى كانت المخابرات العامة المصرية قد جهزتها له بحيث إذا ما وقع المحظور، واستشعر الفتى الخطر بأي شكل من الأشكال، استطاع أن يقفز ـ دون أن يشعر به أحد مهما كانت الرقابة المضروبة من حوله ـ كي يصبح في مصر في أقل من أربع وعشرين ساعة!

ولا بد لنا من الاعتراف بأن رأفت الهجان قد ابتكر وسائل جديدة، وخاصة به ـ غير التي تعلمها ـ في تأمين نفسه... كان ـ على حد قول عزيز الجبالي ـ خلاقًا في وسائل التأمين تلك، بحيث يضمن لنفسه خط رجعة لا يثير أدنى قدر من الشك!

وعلى كل، فما إن حانت تلك اللحظة المناسبة، حتى كان على السيد ديفيد شارل سمحون المطالبة بحقوقه قِبَل هذا المقامر الذي أنساه داء الميسر كل شيء في حياته حتى أولاده وبيته، ولولا معونة صديقه هذا التي هبطت عليه من السماء، لكان لحياته شأن آخر... وكان طبيعيًا أن يغضب ديفيد في لحظة، بل كان طبيعيًا أن يهدده بما لا تحمد عقباه إذا لم يسدد ما عليه من ديون!

ولم يكن أمام إيزاك سوى أن يتوسل ـ استعمل عزيز الجبالي هنا كلمة «ينوح» ولسنا نعلم إن كان هذا التعبير قد وصله عن طريق الفتى، أم إنه تعبير خاص به! ـ طالبًا إليه أن يمهله بعض الوقت... ووصل به الأمر إلى درجة من الانهيار جعلت الفتى يتذكر إحدى وصايا نديم هاشم الذي قال له:

«شوف يا ديفيد... أوعى تضرب إلا والحديد سخن، اضرب والحديد سخن!».

ولم يكن راف سيرن ـ رائد ـ إيزاك بن عميتاي ساخنًا في ذلك الوقت فقط، بل كان ـ على حد تعبير الفتى ـ منصهرًا!!

قال له ديڤيد ذات مرة:

«إذا كنت غير قادر على تسديد هذه الديون، وإذا كان راتبك الذي تتقاضاه من الجيش لا يكفيك، فلِمَ لا تبحث عن عمل إضافي يدر عليك دخلًا تستطيع به أن توازن أمورك؟!».

كانت اللحظة الحاسمة تقترب، وكان الوقت متأخرًا وقد انصرف موظفو الشركة جميعًا ولم يبق هناك سواهما... وبالرغم من أن الفتى كان قد اطمأن تمامًا إلى عدم وجود آخرين في المكان، فقد اعترف بأن قلبه كان يدق في عنف لدرجة أنه فكر في تأجيل تلك الخطوة الأولى، لولا أنه كان يعلم أنه لو أجل الأمر مرة، فلن يستطيع الإقدام عليه مرة أخرى... كان إيزاك في حالة يرثى لها من التردي عندما قال:

«إنني على استعداد لأي عمل تسنده إليَّ!».

ضحك رأفت:

«لست أنا يا صديقي، فالشركة لا تحتمل وجود راف سيرن في الجيش موظفًا بها!».

«ولم لا تساعدني في البحث عن عمل؟!».

نظر إليه الفتى طويلًا، وبدا عليه السهوم، فهتف إيزاك في توسل:

«أي عمل... أي عمل!».

قال الفتى وهو ينهض زافرًا:

«سأحاول، ولكني أريد المال حتى ولو لم أوفق!».

كانت هذه المرحلة الأولى في تلك الخطوة الخطيرة - بل والمميتة - التي كان الفتى يخطوها... غادره بن عميتاي دون أن يجرؤ على طلب قرض جديد، وتركه الفتى للهفته، وكان يعلم أنه سوف يتركه طويلًا... يتركه حتى يذبل ويسقط وحده!

بعدها... استدار الفتى نحو الآخر، نحو سجن ألوف ـ عقيد ـ دان رابينوفيتش!

* * *

كان الأمر مختلفًا كل الاختلاف مع هذا العقيد الذي كان ـ حتى تلك اللحظة ـ يتخايل في مشيته كالطاووس... فالرجل غارق في حب زوجته إلى أذنيه، غارق في حب تلك الفتاة الباهرة الحسن التي تبدو وكأنها لا تفكر في شيء إلا في ذاتها وجمالها فقط... وكان الفتى يعرف متى يأتيه دان رابينوفيتش كي يطلب قرضًا، وكيف يبدأ الحديث عادة بالشكوى من كلارا التي أصبحت مطالبها لا تطاق... ذلك أن ارتباطاتها بمجموعة من الأثرياء تدفعها إلى الإنفاق على ملابسها وزينتها ببذخ لم يعد في مقدوره أن يسايره أو يلبيه... وأن همها كله أصبح محصورًا في مجاراة هؤلاء الذين كانوا ـ في واقع الأمر ـ يعيشون في أوربا أكثر مما يعيشون في إسرائيل... ولقد كانت كلارا تعلم أن عزيزها ديفيد هو مصدر المال بالنسبة لزوجها، ولذلك، ولأنه كان عزبًا وجذابًا، فلقد راحت تطارده بالدعوات... بينما كان هو ـ حتى بدون تلقين ـ عندما حانت اللحظة المناسبة، يهرب منها ومن زوجها الذي راح يطارده في كل مكان!

كان للحديث مع دان طعم آخر وأسلوب آخر.

«أيها العزيز دان... إن الأمور تتفاقم وديونك تتراكم!».

احتقن وجه الرجل بالحرج، وأردف الفتى:

«أنت تعلم كم يسعدني أن أمد لك يد المساعدة، ولكن الأمر......».

في صلف وغطرسة بالغين قاطعه دان:

«ديفيد... إنني على استعداد لأن أوقع لك إيصالات بكل ما اقترضته منك».

«وهل هذه هي المشكلة؟!».

زفر دان وتلاشى من وجهه علامات الغطرسة فجأة وهو يتمتم:

«ولكنني مضطر... أنت تعرف أنني مضطر!!».

«إذن فعليك أن تبحث عن حل».

«حاولت فلم أجد... أنا لا أتقن شيئًا في هذا العالم سوى عملي».

«ولكن من هم مثلك يمتلكون الكثير في هذا البلد!».

قفز دان كمن لدغته عقرب صائحًا:

«لا تردد على سمعي ما تردده كلارا وإلا فقدت عقلي!».

نظر إليه الفتى باسمًا في سخرية فانفجر فيه هذا:

«لقد حاولت... لكنهم يقفون بالمرصاد لكل من يقترب من نشاطاتهم!».

«هذا أمر طبيعي».

«كما أنهم يريدون الاستئثار بكل شيء».

«ولم لا تبحث عن نوع من النشاط لا يمارسونه؟!».

«قلت لك إنني لا أتقن شيئًا في الدنيا سوى أن أكون رجلًا عسكريًا».

«وماذا في ذلك؟!».

«إن الجنود في هذا البلد لا يتقاضون سوى رواتبهم».

«هكذا حال الجندي في كل بلاد العالم إلا إذا... ... ...».

قاطعه الرجل ممزق الصوت:

«ديفيد إن الأمر... إن... لا بد أن تدرك أن الـ... ... ...».

توقف الرجل عن الحديث وأدرك ديفيد أن هناك ما يعذبه، لزم الصمت وهو يرقب الرجل الذي كان الآن يتمتم بكلمات لا تَبِينُ... حتى إذا كانت لحظة انهار فجأة:

«ديفيد... أنت تعرف كم أحب كلارا!».

كان رأفت بالقطع يعرف، فراح يرقب الرجل المحتقن الوجه وهو يردف:

«وتعرف تلك المغريات التي تحيط بها من كل جانب».

حانت اللحظة الحاسمة فانقض الفتى عليه:

«ألا تريد أن تفصح عما يضايقك؟!».

هتف الرجل معذبًا:

«لست غيورًا كما قد يتبادر إلى ذهنك، ولكن الأمر... ... ...».

كان دان يتمزق، والكلمات تتعثر بين شفتيه وتتساقط، وكلما همَّ بالحديث تراجع وكأنه يخشى من الإفصاح عما لا يريد الإفصاح عنه، لكنه استسلم في النهاية:

«أنت تعرف ذلك الشاب الذي... ...».

عاد فأمسك عن الكلام مرة أخرى، كان الموقف عصيبًا فنهض رأفت الهجان كي يعد له كأسًا، تمتم وهو يقدم له كأسًا مترعة:

«إنها صغيرة السن وراغبة في الحياة».

تناول الرجل كأسه رافعًا عينيه نحو الفتى الذي جلس قبالته:

«في البداية كانت مفتونة بك، تدفعني كل يوم إلى لقائك!».

«دان!».

هكذا حذره الفتى لكن الرجل استطرد:

«وكنت سعيدًا بذلك لأني أعرف أنك تقدس الصداقة».

أراد الفتى أن يقول شيئًا لكنه لم يجد ما يقوله.

«ولكنك ابتعدت في الآونة الأخيرة، ابتعدت حتى ظننت أنك تتعمد الابتعاد!».

«إن مشاغلي كما تعلم... ... ...».

قاطعه الرجل:

«ثم ظهر ذلك الشاب التافه المفعم بالمال!».

«لا تسئ الظن بها!».

«ليس الأمر كذلك، إنه المال وأنا أعرف أنه المال!».

«عدنا من حيث بدأنا!».

«فماذا أفعل إذن؟!».

ولم يفه الفتى بكلمة، كان يدرك أن اللحظة الحاسمة تدنو منهما حثيثًا، أفرغ الرجل كأسه في جوفه فأمده الفتى بكأس آخر، ظل دان رابينوفيتش يحملق في فراغ الغرفة وكأنه يجمع من الهواء شتات نفسه، عندما تحدث جاء صوته واهنا ضعيفًا على غير العادة:

«عندما تزوجتها لم يكن فارق السن بيننا يعني بالنسبة إليَّ شيئًا على الإطلاق... أنا أعلم أن جسدي قوي فلقد حافظت عليه سنوات بعد سنوات، لكني... لكني عندما ضممتها إلى صدري لأول مرة أحسست ـ والدهشة تملؤني ـ كم هي صغيرة، شعرت وكأني جذع عجوز كساه اللحاء الخشن، يضم إليه غصنًا أخضر... لم أشعر أنني تقدمت في السن إلا في ذلك اليوم... إن... إن جسدها يمدني بما يشبه إكسير الحياة!».

صمت الرجل فهبط الصمت ثقيلًا كثيفًا كالزئبق!... راحت كأس دان ترتجف بين أصابعه، وكانت عيناه حمراوين، وجسده يتهدل لحظة بعد أخرى ويتداخل ويتضاءل حتى لكأنه سوف يتلاشى... وعندما عاد إلى الحديث كان صوته متحشرجًا بعذابات بلا نهاية:

«تجاهلت الأمر في البداية خاصة أنها بدت لي سعيدة، لكن كل يوم يمر كان يزيدني إحساسًا بتقدم سني، حتى جاء الوقت الذي أحسست فيه وكأنني دراكيولا... كنت أشعر كلما قبلتها أنني أمتص دماء شبابها كي أجدد به كهولتي... إن شبابها يمدني بشباب طال البعد عنه والشوق إليه واليأس منه... هو... هو شيء بشع ورهيب ومميت، لكنه يفوق الخيال في نشوته!».

سقطت دمعة من عين العقيد الشهير، هم الفتى بمواساته لكن الرجل هز رأسه نفيًا وهو يطوح بالكأس إلى جوفه مردفًا:

«أنت لا تزال في شرخ الشباب يا ديڤيد ولا يمكنك أن تفهم!».

أسرع الفتى كي يملأ له كأسه من جديد فغمغم الرجل بصوت كالفحيح:

«غير أنه أصبح من المستحيل عليَّ أن أعيش بدونها، من المستحيل يا ديڤيد فهي التي تمدني الآن بأسباب الحياة!».

غص حلق الفتى تأثرًا، لكنه أفاق على قول الرجل:

«ولذلك، لا بد لي من المال... لا بد لي من المال!».

وبالنسبة للفتى، وبالرغم من تأثره، فلقد كانت هذه لحظة لا تعوض!!

«هناك وسيلة لست أدري إن كانت تناسبك أيها العزيز دان!».

«إن أية وسيلة تناسبني ما دمت لن أفقد كلارا!».

أطرق الفتى مفكرًا وكأنه يبحث عن حل... قال رأفت الهجان إنه في تلك اللحظة لم يشعر بالخوف أو التردد مثلما حدث له مع إيزاك بن عميتاي رغم أن خطوته هذه أخطر وأوسع بكثير. بعد لحظات تظاهر فيها بالتردد قال:

«سمعت عن منظمة سرية تعمل من أجل إقرار السلام الشامل في العالم كله!».

رشف سجن ألوف دان رابينوفيتش من كأسه رشفة، ثم تساءل:

«أية منظمة تلك؟!».

«لست أدري بالضبط فليست لي بهم علاقة مباشرة».

«وما الذي يسعون إليه؟».

«إقرار السلام في المناطق المشتعلة بالتوتر».

«وكيف؟!».

«بالمعلومات طبعًا».

بدا الانزعاج على وجه العقيد وهو يعتدل في جلسته:

«أية معلومات؟!».

«معلومات تعينهم على تحقيق مهمتهم».

ازداد تحفز دان فسأل في غلظة:

«هذا مفهوم، ولكن أي نوع من المعلومات يريدون؟!».

«لا بد أنها معلومات عسكرية».

«ديفيد!».

هكذا هتف سجن ألوف مستنكرًا وقد نفض همومه وهو يقفز

ناهضًا... ظل الفتى ساكنًا في مكانه ،كأن الأمر لا يعنيه، رفع إليه عينيه في نظرة باردة فأردف هذا:

«ألا تعرف خطورة ما تعرضه عليَّ ديفيد؟!».

«أعرف بالطبع!».

«إنه شيء خطير!».

«كنت أريد مساعدتك».

«بمثل هذا الأمر المروع؟!».

نهض الفتى وكأنه ينفض كل شيء:

«إذن فلننس الأمر برمته».

تشاغل الفتى بإعداد كأس وظل الرجل واقفًا في مكانه دون أن ينصرف أو يجلس، فقط راح يتمايل في وقفته كجذع تحاول رياح خفية أن تقتلعه من مكانه، كان الفتى يعلم أنه في حاجة ماسة إلى المال، وأنه إذا طلب الآن قرضًا فلسوف يعني هذا موافقته... ظللهما الصمت من جديد حتى قال الرجل:

«لا... لالا... إنه أمر خطير للغاية... قد لا تعرف أنت وقد لا تفهم ما وراء هذا، ولكن».

انقطع فجأة عن الحديث وهو يسدد للفتى نظرات ملتهبة، وما لبث أن حسم أمره في لحظة مندفعًا نحو الباب وكأنه يهرب من شبح:

«إلى اللقاء يا ديفيد... إلى اللقاء!».

تلك كانت ليلة عصيبة مرت بالفتى، فبالرغم من ذلك الإحساس الشديد بالثقة فإن قلقًا غامضًا تسرب إلى نفسه: فماذا لو أن الرجل أبلغ عنه؟!... هل يأتونه مباشرة أم يراقبونه حتى يسقط بين أيديهم؟!

هو يعلم أن دان رابينوفيتش لا يستطيع إثبات شيء عليه... ثم إنه كان

قد اتخذ حيطته للأمر بحيث يأتي أي نوع من أنواع الوشاية من العقيد المتصابي على أنه كيد لا أكثر ولا أقل!

مع تقدم الليل كان قلق رأفت الهجان يتصاعد وقد جافاه النوم... كان في استطاعته أن يغادر بيته ليصبح خارج إسرائيل قبل أن يطلع النهار، ولكن... كيف ينسحب بعد الخطوة الأولى ولا ينتظر حتى يواجه النتائج كأي بريء؟!

ما إن جاء الصباح حتى كان قد استقر رأيه على الانتظار حتى تسفر الأحداث عن مكنونها... قرر أن يركز انتباهه على ما ومن يدور حوله، حتى إذا ما اطمأن تمامًا، أعلن الحرب وقرر الإجهاز على إيزاك بن عميتاي الذي كان يلاحقه في صباحه ومسائه سائلًا إياه عن العمل الذي وعده به.

ومرت أيام ثلاثة.

قال الفتى إنه عانى في تلك الأيام قلقًا مزق ساعاته تمزيقًا... في مساء اليوم الثالث جاءه صوت سيرينا أهاروني معاتبة:

«ما هذا الذي فعلته أيها المأفون؟!».

هكذا جاءه صوتها ـ وكانت تتحدث بالعبرية ـ عبر أسلاك التليفون فتساءل:

«ما الذي تقصدينه بالله عليك؟!».

«لماذا أغضبت دان رابينوفيتش إلى هذا الحد؟!».

دق قلب الفتى في عنف لكنه تمالك نفسه وتصنع الضحك:

«أهو غاضب مني؟!».

«إني في انتظارك الليلة كي نحل هذا الموضوع».

أدرك رأفت الهجان أن شيئًا خطيرًا قد حدث، كان معنى جملتها

الأخيرة أنها لا تريد للحديث أن يتم عبر أسلاك من الممكن أن تراقب، أعاد السماعة إلى مكانها وكانت خطة هربه جاهزة!... ظل حائرًا لدقائق وهو يقلب الأمور على كل وجوهها، هل أخبر دان سيرينا بالأمر؟!... إن كان قد فعل فإن معنى هذا أنه لم يبلغ السلطات... إن كان قد فعل فإن معنى هذا أن سيرينا ـ هي الأخرى ـ قد تجاوزت الأمر... وقد يكون معنى هذا كمينًا ينصب له حتى يعترف أمام شاهد آخر!

أغلق على نفسه باب مكتبه وأسدل الستائر وأسرع إلى درج سري في مكان ما في غرفته ـ قال عزيز الجبالي عن المكان إن اختياره كان ذروة في الذكاء والدهاء معًا، وإن البعض ما زالوا يستعملون هذه الوسيلة حتى الآن!! ـ التقط من الدرج السري جواز سفر ذا لون خاص ودسه في جيبه، دق جرس التليفون وعندما رفع السماعة أنبأته يهوديت موردخاي سكرتيرته أن إيزاك بن عميتاي يطلب مقابلته، طلب إليها أن تمهله دقائق وراح يرتب بعض الأوراق، لكن عقله كان يعمل في سرعة شديدة.

سؤال واحد ألح عليه: فإذا كان دان قد أخبر سيرينا، ومهما كانت النتائج، فلن يبقى له عيش في إسرائيل، فلم لا يضرب عصفوره الثاني ـ إيزاك بن عميتاي ـ فقد تصيب الضربة؟!

ما إن جلس ضابط الطيران أمامه حتى سأله:

«ماذا عن العمل الذي وعدتني به يا ديڤيد؟».

على استحياء جاء السؤال الذي كان الفتى في انتظاره، وفي لا مبالاة جاء رد الفتى:

«ما رأيك في منظمة سرية تعمل من أجل السلام؟!».

«منظمة سرية؟!».

«هذا ما قلته بالضبط».

«وما الذي تبغيه؟!».

«بعض التعاون».

«أي نوع من التعاون هذا؟!».

«لا بد أنهم في حاجة إلى بعض المعلومات».

«أية معلومات؟!».

راح الفتى يشرح الأمر لإيزاك بن عميتاي في وضوح، قال إنه لا يعرف هؤلاء الناس لكنه يعرف من يعرفونهم ويتصلون بهم، هو لم يفاتح أحدًا منهم في الأمر حتى لا يسبب له حرجًا إذا ما رفض العرض، لكنه «جس النبض» فعرف أنهم يدفعون بسخاء شديد، هناك راتب شهري يعادل راتبه كرائد في سلاح الطيران الإسرائيلي، ولكن... لكل خبر قيمته وثمنه، فهناك فوق الراتب مكافآت مجزية للمعلومات التي تستحق ذلك، وإذا كان هدف المنظمة السرية هو إقرار السلام في العالم كله فلا بد أن تكون الخطوة الأولى في تلك المناطق المشتعلة كالشرق الأوسط، خاصة مع وجود رجل عنيد وصلب مثل جمال عبد الناصر.

«إلى أية جنسية ينتمون؟!».

«لست متأكدًا وإن كنت أعتقد أنهم يتبعون إحدى دول أوربا الشرقية».

وإذا كان إيزاك من مواليد إحدى دول أوربا الشرقية فلا بد أن يؤثر هذا على مجرى تفكيره.

«أليس في الأمر خطورة؟!».

«لكل عمل مخاطره أيها العزيز إيزاك».

«ألا ترى أن الأمر في حاجة إلى بعض التفكير؟».

«ربما!».

هكذا جاء رد الفتى وهو ينهض معتذرًا بأنه على موعد مهم في بيت سيرينا أهاروني، أوحت لهجته لإيزاك الذي كان يفرك كفيه قلقًا بأنه على موعد مع تلك الشخصية العسكرية المشهورة عالميًّا، نهض إيزاك متزلفًا وكان الفتى يعلم أنه الآن في سبيله لطلب قرض لكنه قطع عليه الطريق باستدعاء سكرتيرته... لم يكن صعبًا على رأفت أن يتخلص من المقامر اللحوح، كان ينبغي الاختلاء بنفسه قبل الذهاب إلى بيت سيرينا ومواجهة قدره هناك... لكنه ـ وقبل أن يدخل البيت ـ أخفى جواز السفر ذاك الذي أخذه من درجه السري... ما إن دخل بيت سيرينا حتى وجد المفاجأة أمامه حاسمة، وغير متوقعة... مفاجأة أطارت النوم من عيني رأفت الهجان لعدة ليال أخر!

الفصل الثاني

ليلة المفاجآت

أطلق الفتى على تلك الليلة التي قضى منها جزءًا في بيت سيرينا أهاروني اسم «ليلة المفاجآت»... اعترف أن توتره كان يتصاعد لحظة بعد لحظة حتى دخل بيت سيرينا التي استقبلته كالعادة بترحاب شديد وقبلات حميمة... كانت المفاجأة الأولى أنه وجد هناك لفيفًا من الأصدقاء من بينهم دان رابينوفيتش وزوجته الحسناء كلارا... وكان هناك أحد أعضاء الكنيست الإسرائيلي، وعالم في الذرة من أصل روسي، ثم أستاذ في الجامعة!

عندما طلبت سيرينا إلى الفتى أن يلتقيا لتصفية الموقف بينه وبين دان، ظن هذا أن الأمر سوف يقتصر عليهما وحدهما... فلقد تصور أن المشكلة بينه وبين المتصابي خطيرة ولا تحتمل لقاء يحضره آخرون... وعلى كل، فلقد داخله ارتياح غامض عندما صافحه الجميع في ترحاب ـ بمن فيهم كلارا زوجة دان ـ بينما صافحه هذا في تجهم واضح وكأنه يعلن غضبته على الجميع!

لما وصل رأفت الهجان كان الموضوع المطروح للمناقشة هو الوحدة بين مصر وسوريا، بعد وصوله استأنفوا الحوار وكأن الرأي الغالب هو ضرورة العمل على فصم تلك الوحدة بأي ثمن لأنها لو بقيت فلسوف

تتأصل، وإذا تأصلت فلسوف تجتاح العالم العربي، ولن يكون في هذا خطر على إسرائيل وحدها، بل ستكون كارثة على المنطقة كلها!

ولقد أدلى عضو الكنيست بدلوه قائلًا إن الوحدة لن تستمر وإن الانفصال ـ استعمل الفتى في تقريره الذي أرسله عن تلك الليلة كلمة الانفصال التي لم تكن قد عرفت بعد!! ـ آت لاريب فيه، فإن إسرائيل ليست وحدها في المنطقة، وهناك دول عربية أخرى تسعى لنفس الهدف، وإن عبد الناصر سوف يتلقى درسًا لن ينساه مدى حياته!

مضت دقائق قبل أن تنتحي سيرينا بالفتى في ركن بعيد هامسة:

«أنا عاوزة أسألك سؤال، وعاوزاك تجاوبني عليه بصراحة».

«اسألي!».

«إنت فيه حاجة بينك وبين كلارا؟!».

«إطلاقًا!».

قالها الفتى في حسم جعل سيرينا تحملق فيه غير مصدقة.

«أنا طلبت منك إنك تجاوبني بصراحة يا ديڤيد!».

«وأنا جاوبتك بصراحة».

هكذا رد رأفت الهجان باسمًا اطمأنت نفسه الآن بعد أيام كابد فيها قلقًا مدمرًا... أدرك أن الرجل لم يصرح حتى لسيرينا بما دار بينهما... التفتت هي نحو سجن ألوف دان رابينوفيتش الذي كان في تلك اللحظة مستغرقًا في الحديث بزهو وخيلاء عن قدرة الجيش الإسرائيلي المتزايدة، عادت إلى الفتى:

«مش دي حاجة غريبة؟!».

«إيه هو اللي غريب؟!».

«إنت تعرف إن دان وكلارا اتخانقوا خناقة جامدة علشانك؟».

قال غامزًا:

«ما هم دايما بيتخانقوا... بس مش علشاني يا سيرينا!».

«أمال إيه مزعله منك قوي كده؟!».

«اسأليه؟!».

«هو طلب منك فلوس؟!».

هرب من سؤالها هاتفًا:

«إذا كان زعلان من حاجة، مش يقول لي عليها؟!».

«إنت مستعد تصفي المسألة؟».

«مش لما أعرف إيه هي المسألة أولًا!».

كان دان قد انتهى من استعراض عضلاته وترك للمناقشة بين الآخرين أن تأخذ مجراها. تحركت سيرينا حركة لفتت نظر القائد فالتفت نحوها، أومأت إليه فنهض على الفور وقد أدرك مقصدها، سرعان ما جمعته مع الفتى متحدثة إليهما بالعبرية، وبصوت شديد الخفوت، قالت:

«على كل منكما ألا يغادر مكانه هذا قبل أن تُصفى كل الخلافات».

تركتهما وانصرفت فقال الفتى:

«أخبرتني سيرينا أنك غاضب منّي!».

«بالتأكيد!».

«ولِمَ؟!».

«لعلك لم تنس لقاءنا الأخير يا ديفيد!».

«وكيف أنساه وقد تركتني بذلك الأسلوب الفظ!».

سدد دان عينين زجاجيتي النظرة قائلًا:

«كان من الصعب أن أبقى دقيقة واحدة!».

التزم الفتى الصمت، فعاد دان يغمغم:

«وكان الأصعب أن أذكر لأحد سبب غضبي».

اقتحم رأفت الموقف:

«وما هو السبب؟!».

احتقن وجه الرجل متحدثًا من بين أسنانه:

«ألم أطلب إليك قرضًا؟!».

وكانت هذه هي المفاجأة الثانية في تلك الليلة، قال الفتى إنه لم يتصور ولم يخطر بباله رغم أنه قلب الأمر على كل وجوهه، أن يكون هذا هو سبب غضب دان رابينوفيتش... قال إنه تعلم في تلك الليلة درسًا لا ينسى، وهو أن الولاء لإسرائيل عند هؤلاء الناس ليس أكثر من مظهر يخفون به ولاءهم الحقيقي لذواتهم... حاول أن يرد على الرجل لكنه لم يستطع... داخله احتقار بالغ لتلك الشخصية التي كانت تتخايل منذ دقائق أمام الناس فإذا واقعها نقيض لا يخطر على بال، غمغم دان مستطردًا:

«لم يكن ممكنًا أن أذكر لأحد ـ ولا لكلارا ـ مثل هذا الأمر الشائن!».

«لعلك لم تنس أنك تركتني مندفعًا دون أن نكمل حوارنا!».

«لقد أحسست أني أقف أمامك عاريًا يا ديفيد!».

«ليس بين الأصدقاء ما يحجبونه بعضهم عن بعض أيها العزيز دان».

«ثم إنك لم تفكر طيلة الأيام الثلاثة التي مضت في أن تتصل بي وقد كنت تعرف حاجتي إلى المال!».

«إني لم أفهم سر انصرافك بهذا الأسلوب المهين!!».

أدرك الفتى أن الرجل يلف ويدور كي يصل إلى تلك النقطة التي يعلن

فيها موافقته على العمل مع تلك المنظمة السرية، ولقد كان في استطاعته أن يختصر الطريق ويوفر عليه مشقة اللف والدوران، ولكنه تركه كي يخطو بنفسه كل ما يلزم من خطوات، جاءته الفرصة عندما هتف دان:

«المؤلم في الأمر يا ديڤيد أني مدين لك بمبلغ لا يستهان به!».

«ولذلك فلقد عرضت عليك حلاًّ لكل مشاكلك!».

دمدم الرجل هاربًا بعينيه إلى بعيد:

«كان الأمر في حاجة إلى تفكير».

اتسعت ابتسامة الفتى ولم يرد، فأردف دان:

«ثم إن الأمر ليس بالبساطة التي تظنها!».

«أنا لم أقل إن الأمر بسيط».

«ثم إنه يبدو أن الحياة في إسرائيل قد أنستك الكثير من حذرك!».

«حذري؟!».

«أنت سليم النية يا ديڤيد!».

«حقًّا؟!».

«ومن حقي ـ لأنك صديق حميم ـ أن أخاف عليك خوفي على نفسي!».

«ومِمَّ الخوف أيها العزيز دان؟!».

«إن مثل هذه المنظمات قد تحمل وراء النوايا الحسنة أخطارًا بلا حدود!».

«كيف؟!».

«قد لا تكون المنظمة للسلام، ولكن للتجسس!».

«إن من حقك أن ترفض».

«ليس قبل التيقن من حسن نواياهم».

«وكيف تتيقن من أمر كهذا؟!».

«بأن ألتقي بواحد منهم».

وكانت هذه هي المفاجأة الثالثة في تلك الليلة الغريبة... وحتى عندما اطمأنت نفس الفتى، فلقد كان ينتظر أي شيء، بل كل شيء... انتظر أن يواجه بأسوأ الاحتمالات، لكنه لم ينتظر طلبًا كهذا... أفاق من استغراقه على قول السيد رابينوفيتش:

«لا بد أن ألتقي بواحد منهم!».

«لست أدري إن كان هذا ممكنا!».

«لماذا؟!».

«هل نسيت أنها منظمة سرية؟! إن لها فروعها في جميع أنحاء العالم».

«حتى لو كان الأمر كذلك، لا مفر... لا بد من أن ألتقي بواحد منهم حتى أطمئن!».

«لست أعدك بشيء».

تشبث الرجل بموقفه:

«إن هذا اللقاء سوف... ... ...».

قاطعه الفتى:

«لا تنس أنني لا أعرفهم».

«هل يدفعون جيدًا؟!».

لم يكن السؤال منتظرًا فضحك الفتى رغمًا عنه... زمجر دان:

«ما الذي يضحك؟!».

تجاهل الفتى سؤاله هذا مجيبًا:

«سمعت أنهم يدفعون بسخاء شديد!».

«إذن... فعليك أن تدبر لي هذا اللقاء في أسرع وقت ممكن!».

كان دان يحاول ـ في مناورة فوتها عليه الفتى ـ أن يطلب قرضًا جديدًا، وكان رأفت يعمل فكره في حيرة من الأمر كله... فلقد وجد لهذا الحوار وجهين لا ثالث لهما، أما الوجه الأول فهو يعني أن الرجل يعلن موافقته الكاملة على التعاون معه وأن شرطه الذي يضعه ليس سوى مبرر واهٍ لتلك الموافقة، وعلى الوجه الآخر كان هناك احتمال أن يكون الأمر فخًا منصوبًا كي يقع في شراكه... فعلى أي الوجهين يلعب هذا الرجل؟!

عاد رأفت الهجان ودان رابينوفيتش إلى الجمع وقد علت الابتسامات وجهيهما، غمغم الفتى وهو ينهض قبل أن ينقض عليه الرجل بطلب قرض جديد:

«علينا أن نعود إليهم مبتسمين».

أسقط في يد دان فتعلقت عيناه بالفتى الذي أردف:

«المفروض أنك غاضب منّي، وأننا تصافينا!».

انضما إلى الجميع، واستغرقوا في الحديث حتى اقترح أحدهم أن يلعبوا الورق، شاركهم الفتى تاركًا نفسه لأمواج السهرة كي تحمله إلى حيث يريدون فلقد كان ذهنه غائبًا وسؤال يلح عليه:

هل من الممكن أن يلتقي دان برجل من القاهرة؟!

وكيف سيدبر الرجال هناك الأمر؟!

وإذا كانت هناك خدعة أو فخ، فكيف يستطيع أن يكتشف الأمر، وكيف يستطيع الفكاك؟!

قبل أن ينصرف رأفت سألته سيرينا عما هو صانع في الغد، فقال على الفور:

«سأطير إلى روما لأربع وعشرين ساعة».

هتفت كلارا رابينوفيتش:

«حقًّا؟!».

التفت الفتى نحوها ممازحًا:

«أنت تعرفين أنني لا أنساك أبدًا أيتها العزيزة كلارا، فقط حددي نوع العطر الذي تريدينه».

اقتربت منه الزوجة الحسناء معلنة أن ما تريده من إيطاليا ليس عطرًا ولكنه شيء آخر، استغرقت معه في الحديث عن نوع جديد من حقائب وأحذية السيدات غزت به إيطاليا أسواق العالم، داعبها الفتى فداعبته ووعدها بتلبية كل رغباتها وكان دان يبدو سعيدًا كل السعادة!

وهي تودعه عند الباب همست سيرينا أهاروني بالعربية:

«وبتقول إن مفيش بينك وبينها حاجة؟!».

* * *

عندما عاد الفتى إلى بيته كانت حواسه كلها ترقب ما حوله، لم يكن قلقًا بقدر ما كان حائرًا، وهو عندما اتخذ قرار سفره في اليوم التالي إلى روما، كان قد اتخذ قرارًا آخر بأن يضع الأمر برمته بين أيدي الرجال فهم أقدر على الاستنتاج أو التحليل أو معرفة الحقيقة، ولو كان في الأمر فخ منصوب فلسوف يصبحون أقدر على حمايته، وعندما صعد إلى بيته كانت وسائل أمانه تنبئ أن كل شيء على ما يرام، كان هناك خيط رفيع من نفس لون الباب يربط «الدلفتين» ـ أصبحت هذه الوسيلة الآن قديمة، بل ومضحكة ـ وكان الخيط في مكانه مما ينبئ عن أن

الباب لم يفتح في غيابه... في الداخل أنبأه التراب المنثور خلف الباب مباشرة أن قدما لم تطأ البيت فاطمأن إلى أن أحدًا لم يقتحمه، طاف بالغرف غرفة غرفة حتى اطمأن، همَّ بتغيير ملابسه عندما دق جرس التليفون فانزعج، جاوز الوقت منتصف الليل فمن عساه يطلبه؟! طافت بذهنه يهوديت موردخاي ـ سكرتيرته ـ فلقد كانت في الأيام الأخيرة قد بدأت تعلن عن غيرتها فتركها تمارس حقًّا من حقوق الأنثى، اقترب من التليفون وقد اتخذ قرارًا بأن يلقنها درسًا يوقفها عند حدها، رفع السماعة فجاءته المفاجأة الرابعة كالصاعقة:

«ديفيد... أين كنت؟!».

«ما الذي حدث يا إيزاك؟!».

قال بن عميتاي مضطرب الصوت إنه طلبه في بيت سيرينا منذ نصف ساعة فأنبأته أنه غادرها منذ دقائق، قال إنه طلبه بضع مرات فلِمَ تأخر في الطريق؟!... أدرك الفتى على الفور أن راف سيرن إيزاك بن عميتاي في مأزق يريد الخروج منه... زمجر غاضب الصوت:

«ما الذي حدث بالله عليك أيها الرجل؟!».

«هل تذكر حديثنا الليلة؟».

«وهل هذا وقت الكلام في الذكريات؟!».

«إني أقبل!».

حمد له الفتى أنه لم يذكر شيئًا عن الأمر صراحة وأنه التزم جانب الحيطة أثناء الحديث في التليفون، غمغم متأففًا:

«حسن... سأحاول أن أصنع شيئًا».

«ولكني الآن في ورطة».

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقامر فيها إيزاك بن عميتاي

مستدينًا حتى يورط نفسه، استمع إليه الفتى فوجد أنه خسر مبلغًا كبيرًا لا بد من سداده الليلة وإلا حدث ما لا تحمد عقباه، راح الرجل يحكي متوسلًا فالتزم رأفت جانب الصمت حتى هتف إيزاك مختنق الصوت:

«ديڤيد... أرجوك!!».

«ولكني لا أحمل هذا المبلغ الآن!».

«فماذا أفعل إذن؟!».

«هل يقبلون شيكًا مني؟».

«انتظر حتى أسألهم».

غاب إيزاك لثوان ثم عاد متهللًا:

«بالطبع يقبلون إذا كان الشيك منك أنت».

«إذن فتعال كي تأخذ الشيك».

أعاد الفتى السماعة وقد بدت له المصادفة غير مقبولة... المحير في الأمر أن كل شيء كان منطقيًا تمامًا وواردًا ومعقولًا... أوصلته الحيرة إلى التليفون، وكان هو الذي طلب يهوديت موردخاي هذه المرة!

أيقظ الفتاة من نومها طالبًا إليها أن تحجز له مقعدًا إلى روما قبل ظهر الغد، زمجرت قائلة إن سفراته إلى إيطاليا أصبحت تقلقها، رد عليها في جفاء مذكرًا إياها بأنه لا يحب من يتدخلون في شئونه الخاصة أو عمله... تراجعت الفتاة وهي تعده بأن التذكرة ستكون جاهزة قبل وصوله إلى المكتب، ثم هتفت في تزلف:

«سوف أمر عليك في الصباح الباكر كي أجهز لك حقيبتك».

«ليس هذا مهمًا فلن أبقى في روما لأكثر من أربع وعشرين ساعة».

أعاد السماعة إلى مكانها، وكان عليه الآن أن يستعد للقاء «حسن القطان»!

* * *

استمع حسن القطان إليه صامتًا حتى انتهى هذا من عرض الأمر برمته، كانت الأنباء التي يحملها رأفت سارة بكل المعاني، لكن طلب السيد رابينوفيتش بدا له محاطًا بالشكوك... عندما وصل الفتى إلى روما، كان أول ما فعله هو طلب حسن بالتليفون، دهش رجلنا في روما عندما جاءه صوت الفتى على غير موعد أو تمهيد، تبادلا ذلك الحوار الملغز واتفقا على موعد في تمام الساعة السابعة، قال الفتى إن إيزاك بن عميتاي جاهز للتعاون، وليس هناك شك في صدقه، أوقفه حسن:

«على مهلك شوية يا رأفت!».

«أنا واثق من اللي أنا باقوله يا حسن بيه».

«مش المهم إنت تثق، المهم همَّ في مصر اللي يتأكدوا من الموضوع ده».

وضع الفتى في مكانه فامتثل هذا دون مكابرة، سأله رأفت عما سيفعل بالنسبة لدان فقال حسن إن الأمر لا بد من وضعه في يد الرجال بالقاهرة... لم يمنع هذا من مناقشة الأمر واحتمالاته، كان رأي الفتى ـ رغم حيرته وشكوكه ـ يميل إلى أن العقيد المتصابي يريد تغطية موافقته بحجة تحفظ له ماء وجهه، اقترح ـ في حالة موافقة القاهرة ـ أن يكلف الرجال واحدًا من أعوانهم الأوربيين بعمل اللقاء، طلب إليه حسن أن يجري اتصالًا مع إحدى شركات السياحة قبل عودته إلى تل أبيب حتى يؤمّن نفسه، ضحك الفتى هاتفًا:

«يظهر إنها فرجت على الآخر!».

«إزاي؟!».

«أنا قبل ماجيلك عملت الاتصال ده والغريبة إني لقيت فوج صغير جاهز للسفر بعد تلات أسابيع».

ودع الرجلان كل منهما الآخر على موعد أو لقاء سوف يتحدد فيما بعد!

❁ ❁ ❁

ظهر اليوم التالي كان حسن القطان يجلس مع «شريف والي» رئيس هيئة الخدمة السرية ومعهما عزيز الجبالي الذي بدا متحمسًا للأمر حماسًا لم يخفه... كانت التقارير التي وصلت من إسرائيل عن سجن ألوف دان رابينوفيتش والدراسات التي تمت على تلك الشخصية تؤكد أن القائد العجوز قد استجاب، سأله شريف والي:

«وناوي تعمل إيه في ممثل المنظمة يا عزيز؟!».

«أنا مش ميال للاستعانة بحد من أوربا».

«أمال حا تعمل إيه؟!».

«حاخليه يقابل ضابط مصري».

اعتدل شريف والي في مقعده، كما انتبه حسن القطان بكل جوارحه... وراح كل منهما يحملق في الشاب الجالس أمامهما. وكانا في انتظار تفسير لهذا اللغز الذي عرضه عليهما!

❁ ❁ ❁

عندما طرح حسن القطان المشكلة التي حملها من روما إلى القاهرة على عزيز الجبالي قبل لقائهما مع شريف والي، كان يرى في الأمر خطورة محتملة، بل تكاد تكون مؤكدة... لذلك ـ هكذا قال لعزيز ـ فلقد قرر أن يطير إلى القاهرة حتى لا يضيع الوقت في التراسل... ولقد قال عزيز

الجبالي إنه لا يدري لِمَ قفز إلى ذهنه اسم المقدم «جلال شرف الدين» عندما سمع برغبة دان في لقاء مع ممثل منظمة السلام المزعومة.

كان جلال شرف الدين ضابطًا في القوات المسلحة، كان من هذا النوع من الشباب المصريين الذين حباهم الله بمميزات تضاف إلى شخصية ابن البلد الخالص... كان طويلًا عريضا مهندم الملابس أنيق المظهر، فوق شعره الذهبي وشاربه الذي ورثه عن جده لأمه التي ولدت في مقاطعة لانكشير في غرب إنجلترا، والتي تزوجت من أبيه الطبيب في أواخر العشرينيات من هذا القرن، وأورثت ولدها مع الملامح الإنجليزية الخالصة لغة إنجليزية صافية. كانت الأم من عائلة مثقفة ذات مركز اجتماعي مرموق، فجمع الفتى بين الأسلوب الإنجليزي المتحفظ، والشخصية المصرية البسيطة في مزيج أعطى شخصيته جاذبية لا تقاوم!

وفي هذا الاجتماع الذي جمعه مع شريف والي وحسن القطان، والذي لم يدم لأكثر من خمس وأربعين دقيقة، طرح عزيز الجبالي فكرته.

إن الأمر بالنسبة للمقدم جلال شرف الدين لن يحتاج إلى أكثر من اتصال مع قيادة الجيش المصري، ثم تلقينه كمية لا بأس بها من المعلومات عن الجيش الإسرائيلي... ودون الخوض في تفاصيل تمس الأمن، فإن عليه أن يتقمص شخصية مندوب لمنظمة دولية تعمل من أجل إقرار سلام عالمي شامل، ثم سيطرة كاملة على الرجل الذي سوف يأتيه مستعدًا للاقتناع... بعد ذلك، فكل ما سوف يحتاج إليه هو اختيار مكان مناسب لهذا اللقاء الذي لا بد أن يعطي رأفت الهجان ثقة زائدة في مواطنيه دون ذكر شيء - حتى لرأفت! - عمن يكون جلال شرف الدين الذي سوف يعطى اسمًا أجنبيًا يحتمل أن يكون من جنسيات أوربية متعددة!

هتف حسن القطان:

«بس رأفت رافض يحضر المقابلة دي!».

«ليه؟!».

«بيقول إنه مش مستعد يكشف نفسه لأي حد مش من الجهاز!».

«هوه معاه حق في النقطة دي، بس أنا محضر له مفاجأة حاتسعده جدًّا، وحاتخليه يوافق!».

هكذا قال عزيز، الذي كان الآن يتحرك في ثقة بلا حدود!!

* * *

عاد رأفت الهجان إلى إسرائيل مفعمًا بالسعادة... أكثر ما أسعده هو تعاقده على هذا الفوج الإيطالي الصغير الذي سيغطي سبب رحلته السريعة إلى أوربا... وهو، على الناحية الأخرى، راح ينتظر ردًّا من القاهرة، راح ـ بينه وبين نفسه ـ يتعجل وصوله!

بدت الأمور للفتى وكأنها تسير نحو استقرار طال الشوق إليه... سأله إيزاك بن عميتاي أكثر من مرة عما تم في تلك الوظيفة التي وعده بها، فحذره الفتى من كثرة الحديث في الموضوع، كما نبهه إلى أن المنظمة سرية ولها فروعها في جميع أنحاء العالم وفي إسرائيل أيضًا، كما أن لها عملاءها الذين قد لا ترضيهم ثرثرته، كما أوضح له بما لا يقبل الشك أن هذا العمل ليس وظيفة وإنما هو تعاون بين المنظمة وبينه... ولقد أكد له إيزاك التزامه بالسرية المطلقة، قال معتذرًا إنه ـ فقط ـ كان يسأل إنْ كانت المنظمة قد قبلت التعاون معه، وكان رد رأفت أنه سيخبره حال وصول الرد، فليس الأمر سهلًا كما يتصور، ولا بد أن لهم رجالًا يتحرون عنه الآن بدقة، فعليه أن يلتزم جانب الاحترام في تصرفاته، وأن يتفانى أكثر في عمله حتى يشعرهم أنه من الممكن أن يكون نافعًا لهم!

ولم ينس الفتى قبل عودته من إيطاليا أن يشتري لكلارا رابينوفيتش كل ما طلبته منه، زارهما ذات مساء فاستقبلاه في ترحاب شديد وأصرا على دعوته للعشاء في تلك الليلة مما سمح لدان بأن يختلي به كي يسأله ـ بعيدًا عن زوجته ـ إنْ كان قد اتصل بأصدقائه... تجاهل الفتى سؤاله ومال عليه سائلًا إياه إن كان في حاجة إلى بعض المال، تهللت أسارير القائد المتصابي واصطبغت بشرته بلون أحمر قان متمتمًا بأن ديونه أصبحت ثقيلة، فدس الفتى في يده بضعة مئات من الليرات الإسرائيلية، ثم انصرف بعد العشاء مباشرة!

انقضت خمسة أيام قبل أن تصل إلى الفتى برقية تطلب إليه لقاء عاجلًا وقصيرًا، كان معنى كلمة «قصيرًا» أن على الفتى أن يطير إلى أثينا دون أن يخبر أحدًا بسفره، ولقد فعلها الفتى، فلقد طار ذات صباح إلى أثينا وعاد في المساء، وهناك التقى بحسن القطان الذي اتفق معه على خطة سفر دان رابينوفيتش إلى الخارج.

كانت الخطة تتلخص في أن يطير كل منهما وحده، ويسافر دان إلى أمستردام بهولندا على أن ينزل في فندق بعينه، وينتظر هناك لقاء لا بد أن يتم مصادفة بالفتى في موعد حدده له... أما رأفت، فكان عليه أن يطير إلى بون بألمانيا الغربية، ثم يسافر بالسيارة إلى مدينة «ديوسبورج» الصناعية، والبعيدة تمامًا عن مراكز النشاطين السياسي والسري معًا... عندما عاد الفتى إلى إسرائيل، انتظر يومين حتى التقى بدان، فقال له في أثناء ثرثرة عادية:

«لقد جاءني الرد من أصدقائنا».

كاد الرجل يقفز من مكانه هاتفًا:

«ماذا قالوا؟!».

«لقد حددوا لك موعدًا في أمستردام بعد أسبوع».

انتفخ دان بالزهو قائلًا:

«ألم أخبرك؟!».

ابتسم الفتى مغمغمًا:

«لا بد أنك تعرف عن هذه الأمور أكثر مما أعرف أنا!!».

«على كل، فهذه بشائر طيبة، ولو كانت نواياهم ليست حسنة، لما وافقوا على لقائي».

قال الفتى إنه تصور في لحظة أن الرجل سوف يتفجر لفرط إحساسه بالزهو والثقة، وهكذا راح يلقنه كيف سيسافر، وأين سينزل، وكيف سيلتقيان، وماذا على كل منهما أن يتظاهر به أمام الآخرين!

* * *

عندما وصل رأفت الهجان إلى بون، كان يعرف خط سيره بدقة، ففي صباح اليوم التالي استأجر سيارة وانطلق بها إلى مدينة «ديوسبورج» في غرب ألمانيا، مر في طريقه بمدينة دسلدورف، ووصل قبل الموعد المضروب بساعة... كان الطريق طويلا مما دفع الفتى إلى حجز غرفة في أول فندق صادفه، ولم يمكث في الفندق أكثر من دقائق كانت كافية لأن يغتسل بسرعة، ويعود إلى سيارته من جديد.

لم يكن صعبًا عليه أن يعثر على العنوان الذي أمده به حسن القطان في أثينا، ورغم الإجهاد الشديد، فإن الفتى كان ممتلئًا بالحماس والنشاط، يملؤه إحساس غامر بالرضا... كان يعرف أن العلاقة بينه وبين حسن القطان قد تحسنت كثيرًا، ولقد قرر أن يسأله في تلك الليلة عن نديم هاشم... كان نديم يلح عليه طوال الطريق، كما كان يلح على ذهنه كلما أحرز نجاحًا أو خطا خطوة إلى الأمام، أليس هو الذي دربه على تلك الأساليب الجديدة والحديثة، أليس هو الذي فتح له آفاقًا ما كانت تخطر بباله؟!... قال عزيز الجبالي بعد سنوات طويلة إن رأفت الهجان

تميز دائمًا بمصريته المفرطة، كان يجل كل من علمه شيئًا إجلالًا يفوق الخيال، ولذلك فلقد قاده تفكيره في هذا الأمر إلى أن أحسن ما يمكن أن يقدم للفتى في مثل تلك الرحلة ـ التي بدأت فيها ملكاته تتفتح ـ هو إعداد تلك المفاجأة السعيدة التي واجهت الفتى على غير انتظار في تلك المدينة الألمانية القليلة الشهرة!

كان موعده مع حسن القطان في ڤيلا تتوسط حديقة نسقت بعناية فائقة، وهو عندما وصل إلى العنوان قام ـ كالعادة ـ بإجراءات أمنه حتى اطمأن، خطا إلى الحديقة فعبرها ودق الباب في الموعد تمامًا وحسب الكود المتفق عليه. وعندما سمع الخطوات خلف الباب تهيأ لملاقاة حسن، ولكن... ما أن فتح الباب حتى وجد أمامه «محسن ممتاز»!!

بهت الفتى، جمدته المفاجأة في مكانه فإذا به تمثال من الدهشة الممزوجة بسعادة لا حد لها، راح رأفت يحملق في أستاذه الذي غاب عنه سنوات ظن بعدها أنه لن يلقاه أبدًا، اجتاحت ملامح رأفت تلك المشاعر التي راحت تتلاطم في صدره فإذا به يهتف بصوت اختنق بالفرحة:

«محسن بيه؟!».

ضحك محسن وهو يجذبه إلى الداخل قائلًا:

«أنا علمتك كده برضه؟!».

أدرك الفتى أن وقفته بالباب وذهوله ليسا من وسائل الأمن الكامل، همَّ بالرد لكن محسن كان قد أغلق الباب وفتح ذراعيه فارتمى رأفت في صدر أستاذه الأول وراح كل منهما ينظر إلى الآخر في مودة دفعت بالدمع إلى عيونهما معًا.. همس الفتى وهو يمسح دمعه:

«مين اللي عمل المفاجأة الحلوه دي؟!».

«شغلك الكويس يا رأفت».

«إنت عارف انت واحشني قد إيه؟!».

«أكيد عارف لأنك واحشني بنفس القدر».

همَّ الفتى بالحديث لكن عاطفته الجياشة أوقفت الكلمات فوق شفتيه مختنقة، برقت عينا محسن وهو يتلقى ذلك الفيض من المشاعر في ثبات، لكنه لم يلبث أن قال:

«جرى إيه يا رأفت، مش تسلم على الراجل؟!».

انتبه رأفت الهجان إلى وجود حسن القطان الذي هتف ممازحًا:

«إذا حضر الماء بطل التيمم!».

عندما صافح رأفت حسن، شد على يده في حرارة قائلًا:

«أنا متشكر قوي على المفاجأة الحلوة دي!».

هتف حسن:

«ماتشكرنيش أنا!».

«أيًا من كان اللي عملها، اشكره بالنيابة عني من فضلك يا حسن بيه».

* * *

«قال رأفت الهجان بعد ذلك بسنوات: إنه في ذلك اليوم بالذات، داخله إحساس غريب وغامض بأن ثمة من يقف وراءه، ومن يحاوره في كل ما يقوله أو يذهب إليه، ومن يوجهه إلى حيث يجب أن يتجه ومن يحميه ويسهر على سلامته... وإن هذا الإحساس ظل يتأكد لديه يومًا بعد يوم، حتى أصبح بعد سنوات يقينًا طالب بعده بلقاء مع «هذا الرجل»... وإن طلبه تحول إلى إلحاح، ولكن هيهات!!».

* * *

في تلك السهرة الحميمة التي جمعت الفتى بأستاذه الأول في هذا

الفن الذي تفوق فيه، بعد انقطاع دام لأكثر من ثلاث سنوات، تم وضع الترتيبات النهائية للقاء سجن ألوف دان رابينوفيتش مع مستر «جريج».

«مين جريج ده؟!».

هكذا سأل رأفت، وكان الحوار دائرًا بينه وبين حسن القطان، فهتف محسن محذرًا:

«جرى إيه يا رأفت، مش عيب تسأل سؤال زي ده؟!».

أقسم حسن بعد ذلك أن حمرة الخجل صبغت وجه هذا الفتى المتمرد كأي تلميذ أخطأ في درسه... لم يكن مفروضًا أن يسأل الفتى أو حتى يحاول أن يعرف من هو مستر «جريج» هذا... فثمة مبدأ مهم من مبادئ علم المخابرات تلتزم به مدرسة بعينها التزامًا صارمًا، مبدأ يقول إن «المعرفة على قدر الحاجة»، ولم تكن هناك حاجة بالفتى إلى أن يعرف شيئًا عن هذا الأوربي القادم للقاء العقيد المتصابي سوى أن اسمه «جريج» وكان خطأ أن يسأل الفتى عمن يكون!

عادت المناقشة إلى مجراها فحاول رأفت التنصل من وجوده في هذا اللقاء المرتقب، متعللًا بأنه يخشى من لقاء الغرباء الذين قد يتصادف زيارتهم لإسرائيل أو الالتقاء به في أوربا على غير موعد في ظروف غير مواتية فيسببون له كارثة، فما كان من محسن ـ الذي لم يتدخل في الحوار إطلاقًا ـ إلا أن قال في اختصار بالغ:

«ماتخافش يا رأفت».

فانتهت المناقشة! وكف الفتى عن التنصل، وانتهى الأمر بالتأكيد على بعض الأشياء التي يراها الرجال ضرورية... حتى فوجئ رأفت بحسن القطان وهو يقول له:

«وفهم الراجل إنك مش حاترجع إسرائيل إلا بعد أسبوع».

«إزاي بقى؟!».

«زي الناس».

«مش ممكن... أنا لازم أرجع علشان أحضر لـ... ... ...».

حانت من الفتى في أثناء حديثه نظرة نحو محسن فأوقفته عينا هذا عن الكلام فتذمر:

«محسن بيه... أصل الـ... ...».

لكنه لم يكمل، كانت عينا محسن ترسلان إليه تحذيرًا آخر، فابتسم مستسلمًا وهو يقول:

«حاضر يا آبيه!!».

وانفجر الثلاثة ضاحكين!

وانقضت الليلة في حديث حميم حول حياة الفتى في تل أبيب، حديث تخللته تحذيرات من محسن ممتاز لرأفت الهجان بأن يبتعد بقدر الإمكان عن النساء، وكان الفتى يراوغ من حقائق كان موقنًا من أن أستاذه واثق منها كل الثقة!!

لكن الغريب في الأمر... أن رأفت الهجان عندما عاد إلى فندقه في تلك الليلة، اتصل بالفندق الذي حجز فيه غرفة في بون وكانت لا تزال باقية باسمه، فوجد فيه برقية من يهوديت موردخاي سكرتيرته تطلب إليه فيها الاتصال بإحدى شركات السياحة الفرنسية، وما إن أجرى الاتصال - في صباح اليوم التالي - حتى وجدهم يطلبون إليه التوجه إلى باريس لمناقشة عقد لإرسال عدد من الأفواج الفرنسية إلى إسرائيل على فترات تمتد من الربيع وحتى آخر الصيف، فاستجاب الفتى بالطبع، وحدد لهم موعدًا وقد امتلأت نفسه بالتساؤل عما يخبئه له الرجال في باريس، لكنه أبدًا لم يصل إلى استنتاج، أو حتى تخمين!

* * *

تصادف أن نزل السيد ديڤيد شارل سمحون عندما وصل إلى أمستردام ـ بعد يومين من ذلك اللقاء الذي تم في مدينة «ديوسبورج» الألمانية ـ في نفس الفندق الذي اختار سجن ألوف دان رابينوفيتش النزول فيه في أثناء زيارته لهولندا... غير أنهما لم يلتقيا في نفس اليوم، ولكن حدث في عصر اليوم التالي لوصول السيد سمحون أن التقى الاثنان أمام مكتب استعلامات الفندق... كانت الساعة تشير إلى الرابعة وعشر دقائق بعد الظهر عندما واجه كل منهما الآخر بصيحات دهشة واضحة، وجاء لقاؤهما عاصفًا لفت أنظار موظفي الفندق الذين تبادلوا الابتسام لتلك المصادفة التي أسعدت العميلين المحترمين... وتصادف أيضًا أن كلا منهما لم يكن مرتبطًا بأية مواعيد بعد ذلك، لذا... فلقد توجها إلى بار الفندق لتناول كأس احتفالًا بهذه المناسبة!

بدا الفتى متألقًا أشد ما يكون التألق في أمستردام، راح يحكي لصديقه، بصوت سمعه البارمان بوضوح أن مجيئه إلى هولندا لم يكن في خطته، لكنه جاء بناء على طلب إحدى الشركات الهولندية التي طرحت عليه تبادل الأفواج فيما بين إسرائيل وهولندا، كما تحدث دان عن أقاربه الذين جاءوا من إحدى دول الكتلة الشرقية للقائه بعد غيبة طالت لسنوات... احتسيا كأسيهما ثم غادرا الفندق للتريض في شوارع الميناء الهولندي وحتى يتحدثا بحرية أكثر فيما جاءا من أجله... دار الحديث حول الموعد الذي تحدد في مغرب اليوم التالي مع رجل اسمه «جريج».

«من أية جنسية هو؟».

هكذا سأل دان، فرد عليه الفتى متذمرًا:

«لست أدري، فهم لم يذكروا عنه شيئًا سوى هذا الاسم أعتقد أنه ليس اسمه الحقيقي!».

ضحك القائد الإسرائيلي مربتًا على ذراع ديفيد:

«بدأت تتعلم يا صديقي... بدأت تتعلم!».

قال له الفتى إن اللقاء حدد له نصف ساعة فقط، فالرجل على ما يبدو لديه الكثير من المشاغل، ثم ألمح بأنه احتج لديهم بأن الوقت قد لا يتسع للإجابة عن الأسئلة التي يريد سجن ألوف أن يلقيها، لكنهم لم يستمعوا لاحتجاجه، وعلى ذلك... فلقد راح ديفيد ينصح صديقه بضرورة استغلال كل دقيقة من تلك الدقائق الثلاثين في معرفة هوية هؤلاء الناس وغرضهم الحقيقي، وعندما سأله دان عن مكان اللقاء أبدى السيد سمحون تبرمه من أسلوب هؤلاء الناس، فلقد أنبئوه أن المكان سوف يتحدد في الغد وقبل الموعد بساعة واحدة، وأنهما لن يذهبا معًا، بل سيذهب كل منهما على حدة، وحسب مسار سوف يتحدد مع تحدد المكان... قال الفتى هذا ثم غمغم في ضيق:

«لست أدري لِمَ كل هذا التعقيد!!».

فحاول دان رابينوفيتش أن يهدئ من سخط صديقه قائلًا إن هذه هي طبيعة العمل السري، وإنه ليس هناك ما يدعو إلى التبرم أو التذمر... بل على العكس، فالمفروض أن يسعدا لكل هذه الاحتياطات التي تحميهم من الفضوليين!

راح الفتى يستمع إلى القائد الذي كان يتحدث منتفخ الأوداج وهو يلقنه «أصول الشغل» مردفًا بأن كل هذه الحيطة تبعث بالفعل على الاحترام بل والثقة. ثم طمأن صديقه مستطردًا:

«وعلى كل فلا تقلق أيها العزيز ديفيد وانتظر حتى يأتي الغد، فلسوف أعرف حقيقة أهدافهم في الدقائق الأولى للقائي مع هذا الـ«جريج»!!».

ولم يرد رأفت، ترك الرجل لغروره الفادح، ثم دعاه إلى العشاء،

وقضيا في أمستردام أمسية كانت رائعة بحق، فلقد أنست هذه الأمسية القائد المتصابي زوجته الحسناء تمامًا!!

* * *

تتميز أمستردام بتلك المباني الغريبة التكوين على أبناء الشرق وبعض أبناء الغرب، والتي تفتح شققها على الشارع مباشرة... فكل باب من تلك الأبواب العديدة التي يراها السائح في تلك البنايات، يفضي إلى المسكن مباشرة... في إحدى هذه البنايات القائمة في أحد أحياء أمستردام المتوسطة، باب يحمل رقم ٧، ولقد شهد هذا الباب في مغرب اليوم التالي زائرين وصل أولهما قبل الثاني بنحو عشر دقائق لا تزيد... كان الأول نحيلًا متوسط الطول، متأنقًا، ذا خطوات تشي بأنه عسكري بالرغم من ملابسه المدنية... عندما وصل الرجل ـ الذي لم يكن سوى سجن ألوف دان رابينوفيتش ـ إلى المكان، ألقى بنظرة إلى اسم الشارع، ثم تقدم في خطوات حتى وصل إلى تلك البناية، وسار بحذاء الأبواب المتقاربة ثم توقف عند الباب رقم ٧... دق على الباب دقتين متتاليتين، تبعتهما دقة واحدة، ما لبث الباب بعدها أن فتح ليظهر خادم أوربي بدا للعقيد الإسرائيلي أطول مما ينبغي، وأنحف من المفروض أن يكون عليه جسد بهذا الطول.

قال دان:

«أعتقد أن السيد جريج في انتظاري».

«ومن تكون يا سيدي؟!».

«صديق من الشرق الأقصى».

ما إن تفوه دان بتلك الجملة الأخيرة حتى أفسح له الرجل الطريق:

«تفضل بالدخول يا سيدي».

دلف دان إلى الداخل، فأغلق الباب فورًا.

* * *

في البناية المقابلة كان رأفت الهجان خلف زجاج إحدى النوافذ التي أسدلت عليها ستارة خفيفة تخفي من يقف خلفها، وإنْ كانت لا تخفي ما يجري في الطريق... بجواره كان يقف حسن القطان وهما يرقبان ما كان يجري، حتى إذا ما أغلق الباب، التفت كل منهما نحو الآخر، فبادره حسن بقوله:

«استنى دقيقتين».

أشعل الفتى سيجارة، وراح يخطو في الغرفة جيئة وذهابًا، حتى إذا مضت الدقيقتان قال حسن:

«يلّا يا رأفت».

أطفأ الفتى سيجارته، وانصرف مسرعًا.

* * *

عندما دخل دان رابينوفيتش ذلك المسكن الهولندي يتقدمه الخادم الذي أعلن قدومه قائلًا: «لقد وصل الضيف يا سيدي»، حتى طالعه على الفور جسد طويل القامة منسق الأعضاء ذو شارب رقيق وشعر في لون الذهب... وكان مستر جريج يرتدي بذلة إنجليزية الصنع والطراز، يضع بين أسنانه غليونًا يتصاعد منه الدخان بلا توقف... هتف المستر جريج مرحبًا:

«أهلًا أيها الصديق، تفضل!».

ما إن جلس دان، حتى أطل عليه مستر جريج من أعلى متسائلًا إن كان يرغب في مشاركته فنجانًا من الشاي، فوافق دان على الفور، واتخذ الرجل مكانه في مواجهته بعد أن أمر بالشاي، ثم قال:

«لقد قيل لنا إنك تريد لقاء واحد منّا!».

«هذا صحيح تمامًا».

«هأنذا أمامك، تستطيع أن تسأل».

«كنت في حقيقة الأمر أريد أن أعرف نوع المعلومات المطلوبة!».

وضع الرجل ساقًا فوق ساق ونظر إلى دان نظرة متعالية وهو يقول:

«إذا كنا نعمل من أجل سلام دائم في العالم كله، فلا بد أن تكون حاجتنا إلى المعلومات العسكرية أهم من غيرها كي نستطيع وقف أي تهور قد يحدث نكبات بلا حدود!».

«وأي نوع من المعلومات العسكرية تريدون؟!».

«لو أنني أعطيتك مثلًا، فلسوف أقول إن... ... ...».

توقف الرجل عندما سمعا دقًّا على الباب في نفس الوقت الذي ظهر فيه الخادم وهو يدفع عربة الشاي أمامه... ما لبث الرجل الفارع الطول أن ترك العربة في منتصف الطريق، وذهب كي يفتح الباب، ولم ينتبه دان رابينوفيتش إلى أن عربة الشاي كانت مجهزة لثلاثة أشخاص لا لشخصين، وسرعان ما وقف المستر جريج لاستقبال السيد ديڤيد سمحون هاتفًا:

«هالو ديڤيد... كيف أنت؟».

«كل شيء على ما يرام أيها العزيز جريج».

هكذا رد الفتى ثم استدار نحو دان باسمًا:

«أرجو أن يكون التعارف قد تم بينك وبين صديقنا العزيز دان».

اتخذ كل منهم مكانه. ووصلت عربة الشاي إلى جوار مستر جريج الذي قال للخادم:

«أشكرك، سوف أقوم أنا بخدمة السيدين»!

انحنى الخادم في احترام وانصرف في صمت وبدأ جريج يعد الشاي مستطردًا:

«كنا نتحدث أيها العزيز ديڤيد عن نوع المعلومات المطلوبة، وكنت في سبيلي لإعطاء مثل على ما نريد... ولا بد أنك تعرف أيها السيد العقيد رابينوفيتش أن إسرائيل ـ على سبيل المثال ـ لديها لواءان عاملان فقط، عدا الاحتياطي بطبيعة الحال، هما الجولاني والجفعاتي».

فغر دان فمه دهشة وهو يتناول فنجان الشاي الذي قدمه له الرجل مردفًا:

«ولكن يبدو أنكم في الأيام الأخيرة، ربما بعد حرب السويس بالتحديد، قد رأيتم أن هذين اللواءين ليسا كافيين الآن... ولقد انتصر الرأي الذي يقول بضرورة البدء في إنشاء وحدات جديدة، وبالفعل فلقد تم إنشاء بعض تلك الوحدات مثل... ... ...».

توقف الرجل عن الحديث مقدمًا فنجان شاي لديڤيد، وكان يبدو على دان أنه أخذ بتلك المعلومات، لكن دهشته كانت تتزايد لحظة بعد أخرى عندما استفاض مستر جريج في الحديث عن تلك الوحدات الجديدة وإعدادها وتسليحها وإمكاناتها وأوجه القصور فيها ومناطق تدريبها... ثم انثنى إلى سلاح الطيران الإسرائيلي فعدد له أسراب الميستير وأسراب الميراج، ثم تناول تلك المفاوضات التي دارت في باريس أخيرًا... و... ويبدو أن الرجل كان مقنعًا إلى الحد الذي دفع سجن ألوف دان رابينوفيتش إلى أن يهتف:

«كل هذا صحيح تمامًا يا سيدي!».

«كما ترى... فالمعلومات التي تلزمنا ليست خاصة بالأشياء العادية، فهذا في واقع الأمر لا يعنينا كثيرًا، لكن الذي يعنينا هو المعلومات الإستراتيجية التي تساعد على إقرار السلام بين الدول!».

تساءل دان فجأة:

«وماذا عن المصريين؟!».

«إن لدينا العديد من الأصدقاء في العالم العربي».

«هل تعتقد أنكم سوف تستطيعون إبعاد شبح الحرب عن المنطقة؟».

«سنستطيع بقدر ما يتوافر لنا من معلومات».

«هذا مفهوم طبعًا».

«ولسوف يكون صديقنا ديڤيد هو ضابط الاتصال بيننا وبينك».

«بالتأكيد».

«ثم إن هناك بعض الأمور الخاصة بالأمن، وهذه سوف يتولاها صديقنا المشترك».

«إني مدرك لهذا تمامًا».

«وهناك أيضًا بعض الأسئلة التي نرجو أن تكون الإجابات عنها وافية».

«ثق يا سيدي أني سأبذل قصارى جهدي».

كان كل من الرجلين ـ دان وديڤيد ـ يتفرس في السيد جريج هذا، بدا الرجل واثقًا من نفسه ثقة بلا حدود... راح يتحدث بنبرة ثابتة ولغة إنجليزية راقية، كما بدا مزودًا بكم هائل من المعلومات عن الجيش الإسرائيلي جعل سجن ألوف يسلم بأنه بالفعل يعلم الكثير... مضى نصف الساعة فنظر الرجل في ساعته، وما لبث ديڤيد أن نهض وتبعه دان الذي صافح الرجل في حرارة قائلًا إنه سعد حقًّا بهذا اللقاء، وإنه يعد بالتعاون معهم إلى أقصى الحدود... وإذا كان دان أتى قبل وصول ديڤيد، فلقد انصرف بعده بدقائق ـ هكذا اقترح الرجل ـ كي يلتقي الصديقان في

ردهة الفندق بعد ساعتين من مغادرتهما للباب رقم ٧... وكان أول ما قاله دان لرأفت:

«ديڤيد... إنهم يعلمون الكثير عنّا!».

ضحك رأفت قائلًا:

«الحقيقة أني لم أفهم كلمة مما كان يقول».

«أمر طبيعي... ولكني موقن أن هذا الرجل ليس إنجليزيًّا كما كان يحاول أن يتظاهر»!

«تُرى... من أية جنسية هو؟!».

«إنه سويدي... أراهن بعمري»!

* * *

عندما نقل رأفت الهجان هذا الحوار لحسن القطان، ابتسم هذا سائلًا:

«وانت رأيك برضه إنه سويدي يا رأفت؟!».

«إطلاقًا».

«أمال إيه؟!».

«ده مصري ابن مصري»!

ولم يعلق حسن، ولم يرد... وراح الرجلان يناقشان خطة المرحلة المقبلة واحتياجاتها وكيفية الاتصال، أعطاه حسن حبرًا سريًّا جديدًا سرَّ له الفتى سرورًا بالغًا، لكنه سأل فجأة:

«إيه حكاية فرنسا دي؟!».

لم يناور حسن هذه المرة، بل قال على الفور:

«إنت مش حاتروح باريس بس».

«أمال إيه؟!».

«إنت حاتطلع من هنا على باريس ومن باريس على مونت كارلو، ومن مونت كارلو على مدريد، ومن مدريد على مصر».

جاءت كلمة مصر كقنبلة انفجرت فأذهلت الفتى لثوان.

«مصر؟!».

«إنت مش بتقول إن شريفة واحشاك؟».

فاض قلب الفتى بالحنان وراح يحملق في وجه حسن وقد امتلأت عيناه بالدموع، وإن كانت الابتسامة تملأ وجهه!

الفصل الثالث

عَشْرة أيّام في القاهِرة

تلك مرحلة شديدة الخطورة في حياة رأفت الهجان، فمنذ أن التقى بنديم هاشم في جنوا، وبحساب الزمن الذي انقضى مع الخطوات التي تقدم في مهمته، بدا الأمر لعزيز الجبالي مرضيًا بكل المقاييس... ولم يكن ممكنًا أن يشعر الفتى بمدى التقدم الذي كان يحرزه، كما أنه بالقطع ـ ومع نجاحاته المتوالية ـ لم يكن ممكنًا أيضًا أن يشعر بمدى الخطورة التي تكتنف تلك الخطوات... ولقد فكر عزيز الجبالي في أن إحساس الفتى بالنجاح قد ينسيه حذره الكامن والأصيل، لذلك... فلقد وجد ـ ومع ظروف أخرى أحاطت بالأمر في القاهرة ـ أنه لا بد من شيئين أساسين:

كان الشيء الأول هو ضرورة مكافأة الفتى على ما أنجز... ولم تكن هناك مكافأة أكبر ولا أثمن من رؤيته لأهله ووطنه وأحبابه الذين انقطع عنهم ما يقرب من ست سنوات.

أما الشيء الثاني فهو أن الفتى كان في حاجة إلى إجازة يسترخي فيها استرخاء كاملًا، إجازة يلقي فيها بكل شيء خلف ظهره، وينسى بحر المخاطر الذي يخوض فيه ولو لأيام لا تتعدى العشرة.

كانت العملية أمام عزيز الجبالي تأخذ الآن شكلًا يكاد يكون متكاملًا، فلقد أنشأ الفتى شبكة نموذجية من الأعوان الذين يستطيعون إمداده ـ فيما هو قادم من سنوات ـ بالكثير مما يلزم الوطن عن العدو... كانت هناك الشبكة العسكرية المكونة من ثلاثة هم: بيخور شطريت السكير، ودان رابينوفيتش المتصابي، وإيزاك بن عميتاي المقامر... وإذا كان الأول يستطيع إمداد الفتى بمعلومات عن التسليح والتموين في الجيش الإسرائيلي، فإن دان يستطيع أن يمده بتلك المعلومات الإستراتيجية الشديدة الأهمية والخطورة، التي تحدد توجهات إسرائيل العسكرية في المدى القريب والبعيد على السواء... أما إيزاك بن عميتاي فلقد كانت المعلومات التي أمد بها الفتى في الشهور التي انصرمت ـ دون قصد منه بالطبع ـ تدل دلالة قاطعة وبعد التيقن منها واختبار صدقها على أنه يستطيع أن يمد الأمة بقدر عظيم من المعلومات عن سلاح الجو الإسرائيلي.

فوق كل هذا، كانت هناك تلك الشبكة من المدنيين وأصحاب المناصب السياسية والنقابية الذين كان بيت سيرينا أهاروني يمتلئ بهم في كل مساء ـ خاصة في مساء السبت من كل أسبوع ـ والذين كان الفتى قد استطاع بالفعل وخلال شهور قليلة، أن يكون البذور الأولى لثلاث مجموعات منهم... المجموعة الأولى علمية، وتضم بعض العلماء وأساتذة الجامعة والباحثين، وشبكة اقتصادية تضم بعض رجال المال والأعمال، ثم تلك الشبكة السياسية الشديدة الأهمية، والتي كانت تضم مع السيدة سيرينا أهاروني نفسها مجموعة منتقاة من السياسيين ورجال الأحزاب، والأهم منهم... رؤساء الشُّعَب في الهستدروت!

«باءت كل محاولاتنا لمعرفة بعض أسماء تلك المجموعات بالفشل الذريع، ولقد اتخذ صورة حادة عندما قيل لنا بوضوح وحسم: إن الأسماء لا قيمة لها، وإن التوثيق الذي نصبو إليه قد تم فعلًا فيما ذكر وما سوف

يذكر من أحداث، وعلى كل... فإن هذا الرفض الصارم لا بد أن يدفعنا إلى التفكير في الأمر بقليل من التمعن والروية!».

كانت الصورة تبدو مكتملة تمامًا، بل تبدو نموذجية في تكوينها وتنظيمها ودقة الحركة فيها، هنا... تجلت قدرات رأفت الهجان الفذة في السيطرة وامتصاص المعلومات امتصاصًا خفيًّا لا يثير الشك أو الريبة، وكان اندفاعه الصاروخي في إتمام كل هذا فيما لا يزيد على العام وبعض العام، يكلفه ـ دون شك ـ جهدًا يفوق طاقات أي إنسان مهما بلغت قدرته على الاحتمال!

بالرغم من ذلك لم يكن هذا هو كل شيء، كانت هناك تلك الظروف التي تحيط بالفتى في مصر، وبالتحديد كانت هناك شقيقته شريفة الهجان!

ففي الوقت الذي كان الفتى يقطع فيه تلك الخطوات التي كتب عنها عزيز الجبالي في تلك الأوراق التي كتبها عن العملية يقول:

«... ... ... تلك خطوات شديدة الخطر بالغة الخطورة، إنها خطوات سوف تنقل ديفيد من مرحلة إلى أخرى، ومن موقف إلى آخر، بل من حياة إلى حياة تختلف!»... في ذلك الوقت كان من الممكن أن تحدث كارثة بالمعنى الحرفي للكلمة، ذلك أن شريفة الهجان أعلنت العصيان، وراحت تطالب صديقه المزعوم ـ والذي أطلق على نفسه اسم سهيل والذي كان يحمل لها خطاباته ـ بمعرفة كل شيء عن أخيها... أين هو؟ وماذا يفعل؟ وماذا يعمل؟ وما مصدر المال الذي يرسله إلى ولدها؟ وكيف يعيش؟ وأين يعيش؟.... كانت كعادتها مهذبة مؤدبة خافتة الصوت، لكنها أيضًا كانت ـ مثل شقيقها الغائب ـ شديدة العناد، إذا ما خطت خطوة في طريق ما، فلا بد لها من السير فيها حتى النهاية!

في بداية الأمر تظاهرت شريفة بالاستكانة لمنطق السيد سهيل الذي

كان يزورها أحيانًا بملابسه الرسمية، كما تظاهرت بالاقتناع بما كان ينقله إليها من أنباء عن شقيقها الذي يلتقي به في سفراته المتعددة إلى بعض عواصم أوربا... حتى إذا كانت مرة، سلمها خطابًا من الفتى، وراحت هي ـ كالعادة ـ تسأل عن أحواله وصحته، والشاب يرد عليها تلك الردود التقليدية التي لُقن إياها في دقة، وإذا بها تهتف فجأة وعلى غير توقع أو انتظار:

«وأنا إيش عرفني إن الكلام اللي انتو بتقولوه ده صحيح؟!».

بهت سهيل وهو يهتف:

«إحنا؟!... إحنا مين؟!».

«إنتو... إنتو!».

«مش فاهم!».

«لأ فاهم!».

كان ردها حاسمًا فصمت الشاب، لم يكن هناك ما يمكن أن يقوله، لكنها هي الأخرى لزمت الصمت، ومضت بهما الثواني ثقيلة بطيئة حتى قال سهيل:

«طيب إيه اللي ممكن أعمله لسيادتك؟!».

«تطمني عليه».

«مانا باطمنك عليه!».

«كلام... ده كله كلام».

ولم يكن هناك ما يمكن أن يقوله ذلك الشاب سوى أن يعدها بنقل رسالتها إلى شقيقها فلم ترد عليه... فقط، رمته بنظرة شك جعلته يغادرها مهرولًا!

ولقد وصل هذا الحوار إلى عزيز الجبالي في الوقت الذي كان غارقًا

فيه لأذنيه في تتبع رحلة الفتى إلى بريطانيا كي يلتقي بحسن القطان في بلدة «فالكون وود» بمقاطعة كنت في جنوب إنجلترا!

فقبل أن يلتقي حسن القطان بالفتى بساعات معدودة، وصلت إلى لندن برقية كانت السبب المباشر في ذلك السؤال الذي سأله حسن لرأفت، بعد انتهائهما من العمل، إن كان يريد أن يكتب خطابًا لشريفة، ثم... في كل تلك التلميحات التي راح يلقنه إياها وهو يتظاهر بتقليب صفحات تلك المجلة المصورة، والتي كان أهمها على الإطلاق، هو قول حسن لرأفت:

«قول لها إن كانت عاوزه تكتب لك جواب، تكتبه وتديه لسهيل باتع».

ولقد وصل هذا الخطاب إلى شريفة التي كانت موقنة من أن الخط هو خط أخيها، ولذلك فلقد كتبت خطابًا مقتضبًا ما إن قرأه عزيز الجبالي حتى ابتسم إعجابًا ودهشة. فلقد كان الخطاب يتحدث عن أمور عائلية وشديدة الخصوصية، أمور لا يستطيع الحديث فيها سوى شخص واحد في هذا الكون، هذا الشخص هو رأفت الهجان نفسه!!

«مرة أخرى فشلنا في الحصول على أي من هذه الخطابات رغم المحاولات العديدة التي وصلت إلى حد الإلحاح، بحجة أنها سلمت إلى رأفت، وأن خطابات رأفت سلمت إلى شريفة، هذا... رغم يقيننا من أنهم لا بد يحتفظون بكل نسخة من هذه الخطابات دون التفريط في واحد منها... وحتى الآن، فإننا لم نصل إلى سر التمسك بالسرية في أمر كهذا!».

وعلى كل... فلقد وصلها الرد، وكان ردًا واضحًا غير قابل للشك في أن رأفت هو كاتبه ولا أحد سواه... كان عزيز يمضي بالفتى خلال عنق زجاجة تحسب فيه الخطوة ألف مرة قبل أن يدعه يقدم عليها، ولذلك، وعندما زارها سهيل باتع يحمل رد شقيقها على خطابها، كان مزودًا

بتعليمات جديدة، فلقد أدرك عزيز أنه حتى هذا الرد لن يزيل قلقها، ولن يثنيها عن عزمها إذا ما كانت قد اعتزمت شيئًا. وهو ـ في تلك الأيام ـ لم يكن يطلب سوى مهلة حتى تتم فيها كل تلك الخطوات الخطيرة في إيقاع متصل لا انقطاع فيه!

تسلمت شريفة رد رأفت في صمت، أخرجت الخطاب من الظرف وأهملت النقود ـ أبدًا لم يحدث أن أرسل رأفت لشقيقته خطابًا دون هدية منه لولدها طارق ـ وما إن انتهت من قراءته حتى رفعت رأسها نحو الشاب وحدجته بنظرة ثابتة، فابتسم قائلًا:

«إن شاء الله تكوني اتطمنتي».

ولكن شريفة لم ترد عليه. وضعت الخطاب فوق المنضدة التي تفصلها عنه، ثم اختفت داخل الشقة دون كلمة... أحس سهيل بخيبة أمل فلقد كاد يخبرها بما لُقن إياه في صباح اليوم من أنباء جديدة، وهو... لم يكن يعلم عن الأمر كله شيئًا سوى هذا الذي يردده على مسامع شريفة، أما من هو رأفت الهجان وماذا يصنع وأين هو وما إلى ذلك، فهو لم يكن يعرف شيئًا على الإطلاق، استشعر الحرج مع الخطر لكن غيبتها عنه لم تطل، فسرعان ما عادت تحمل ظرفًا كبيرًا يحوي كل الخطابات التي وصلتها من أخيها، وكل النقود التي أرسلها... أخرجت الخطابات ووضعت الظرف المليء بالنقود أمامه دون كلمة... فغر الشاب فمه دهشة:

«إيه ده يا مدام؟!».

«دي كل الفلوس اللي جاتني من ساعة صاحبكم اللي جالي أول مرة وألف لي حكاية صاحبه اللي بيشتغل في السعودية لحد آخر قرش جبته معاك النهار ده»!!

«مش فاهم!».

كان سهيل صادقًا، كما كان الحديث حتى تلك اللحظة هادئًا، لكنها صاحت مختنقة بالعبرات:

«مش عاوزة الفلوس دي!».

هم بالنطق فأجهشت:

«أنا عاوزه رأفت!».

«ما هو ضروري حا ييجي».

«إمتى؟!».

«أصل الظروف... ... ...».

«ظروف إيه؟!».

«أنا حاقول لك بصراحة».

وراح سهيل يحكي لها عن ذلك العمل الشديد الأهمية الذي يقوم به رأفت على مستوى عال في الدولة!

«دولة؟!».

هكذا صرخت مكذبة.

«أيوه الدولة يا هانم».

«مين في الدولة يعني؟!».

«ممكن تقولي على أعلى مستوى».

«على مستوى جمال عبد الناصر مثلًا؟!».

«ليه لأ؟!».

«طب أنا حاروح للريس بنفسي وأسأله».

كان الموقف عصيبًا، ولم يكن سهيل في حقيقة الأمر ـ أو هكذا

نتصور ـ مستعدًا لمواجهة بهذا السفور والوضوح، لكنه راح يقاوم مكملًا تلك الخطة التي لُقن إياها في الصباح:

«بالشكل ده أنـا مضطر أقـول لك الحقيقة، بس مش قبل ما توعديني...».

«بإيه؟!».

«إن الأمر يفضل سر بيني وبينك لأنه يمس الأستاذ رأفت شخصيًّا».

«إنت نسيت إنه أخويا؟!».

اعتدل في جلسته متخذًا سمة من سوف يدلي بتصريح خطير:

«شوفي يا شريفة هانم... الأستاذ رأفت بصراحة بيشتغل مع ثورة الجزائر».

هتفت ضاربة فوق صدرها:

«إيه؟!».

«حلمك عليَّ شوية! هو مش بيحارب، إنما بيقوم بعمليات خاصة لمساندة الثورة الجزائرية».

كانت ثورة الجزائر في تلك الأيام تتوهج في ذروة الدنيا مثالًا لنضال شعب وتضحياته وصموده من أجل الاستقلال، ولقد ظن سهيل وهو يدلي بما كان يدلي به أنه سوف يحسم الأمر تمامًا، لكن المفاجأة جاءته مذهلة:

«برضه خدوا فلوسكم، أنا مش عاوزاها، أنا عاوزه أخويا!».

«ما هو... ... ...».

«من غير ما هو... أنا عاوزه رأفت!».

«ما انتي لازم حاتشوفيه».

«يبقى خد الفلوس لحد رأفت ما ييجي ويديها لي بنفسه».

«والفلوس ما لها ومال الـ... ... ...».

لكن سهيل توقف ذاهلًا عن الحديث، فلقد تحولت شريفة الهجان إلى تمثال لا يتحرك ولا يتنفس ولا تنبئ ملامحه عن أي قدر ولو صغير من الحياة فيه... عيناها ثابتتان، وملامحها صخرية... حاول الشاب أن يقول شيئًا، حاول أن ينطق، لكن التمثال أمامه كان يختلج اختلاجات جسد محتضر، وإذا الكفان ترتفعان، والوجه يميل مسلمًا نفسه للكفين اللتين ضمتا الوجه في عنف والأصابع تتقلص وتتقلص حتى انفجر في الغرفة نشيج حار، وبكاء كان يهز الجسد هزًّا لا رحمة فيه.

وفاضت دموع سهيل، ولم يستطع البقاء!!

نهض نحو باب الصالون المفتوح، وأطلق ساقيه للريح تاركًا وراءه كل شيء!

* * *

ذلك كان جرس الإنذار الذي نبه عزيز الجبالي إلى ضرورة اتخاذ خطوات إيجابية في هذا الاتجاه، وعندما التقى بعد أقل من نصف ساعة بهذا الطيار الشاب، أدرك على الفور ما حدث، كانت تجربته مع شريفة لا تزال حية في وجدانه، راح يستمع إلى سهيل وهو يحكي له ما حدث وكان قلبه ينزف لدرجة أنه تمنى في لحظة أن يتوقف الشاب عن الحديث تاركًا إياه لتلك الدموع التي تجمعت خلف عينيه بوخز كوخز الإبر يصيب المرء بالجنون... حتى إذا ما انتهى سهيل من حكايته، زام عزيز وهو يستدير متشاغلًا عنه:

«إنت كنت بتبكي يا سهيل؟!».

ساد الصمت لثوان وكان الشاب مترددًا، لكنه قال أخيرًا:

«غصب عنّي يا فندم!».

استدار نحوه عزيز الجبالي وقد اتخذت ملامحه سمة الصخر الجامد وجاء صوته مؤنبًا:

«عيب ده!».

هذه كلمة لم يقل غيرها، وجاء قوله مثل لكمة تنبه الشاب إلى كثير من الحقائق التي كان عليه أن يدركها قبل أن يصيبه الضعف فيدمع، ومضى سهيل يجرجر أذيال الخجل لأنه بكى، لكنه لو التفت إلى الخلف لحظة، لأصابه الذهول، فلقد كان الرجل الذي أنبه لأنه بكى، يمسح دمعة غلبته على أمره!!

* * *

كانت هذه هي الصورة أمام عزيز الجبالي في الوقت الذي كان الفتى يستعد فيه لذلك اللقاء الذي تم في أمستردام... والذي توج تلك الخطوات الخطيرة في مرحلته الجديدة بموافقة دان رابينوفيتش على التعاون معه... وإذا كانت تصرفات شريفة قد دفعته إلى التفكير في التعجيل باستجلاب الفتى إلى القاهرة، فإن الأمر كان لا بد من أن يتخذ طابعًا أكثر خصوصية بالنسبة لرأفت نفسه... فمما لا شك فيه أن الفتى كان يعرف يقينًا مقدار ما كانت تعانيه أخته من بعده عنها وعدم معرفة شيء يقيني عنه، ومن ناحية أخرى، ألا يستحق عام ونصف العام من العمل الدائب والناجح والخطر ـ سبقها أعوام ثلاثة من القلق وعدم الاستقرار ـ مكافأة للفتى الذي كف حتى عن المطالبة بحقوقه المشروعة منذ أن انغمس في عمله الوطني هذا؟... كانت الفكرة تختمر، وكان لا بد من طرحها على «شريف والي» رئيس هيئة الخدمة السرية، الذي وافق على الفور وهو يرقب حماس ذلك الضابط الشاب بمزيد من السعادة.

حدث هذا قبل أن يبدأ رأفت رحلته إلى أمستردام، وكان المفروض، حسب الخطة التي وضعت، أن يمر بألمانيا الغربية قبل انتقاله إلى هولندا

كي يلتقي بحسن القطان هناك في مدينة «ديوسبورج» الصناعية... وهنا، لمعت في ذهن عزيز فكرة بدت له وكأنها هدية من السماء... فمما لا شك فيه أن زيارة الفتى المفاجئة إلى القاهرة قد تصيبه مع الفرحة بما لا يخطر ببال، كان الأمر في حاجة إلى تمهيد بعد هذه الغيبة الطويلة عن الوطن والأهل، تمهيد يجعلها مقبولة تمامًا ودون أذيال من ردود فعل عاطفية أو وجدانية، بحيث إذا ما زف إليه حسن القطان الخبر جاء الأمر طبيعيًّا للغاية... هبطت الفكرة على ذهن عزيز نتيجة لوجود محسن ممتاز في ألمانيا في ذلك الوقت!

«قال عزيز الجبالي إن لقاء الفتى بمحسن ممتاز في ألمانيا الغربية قد أمده بالمزيد من الحماس، كما ساعد بالفعل على تقبل الفتى، برد فعل معقول، لفكرة زيارته للقاهرة».

ولقد كان عزيز على حق تمامًا فيما ذهب إليه، فلقد كان أهم ما استشعر الفتى في لقائه مع أستاذه العظيم هو أنه استنشق فيه عبير الوطن والأهل، وهو - في تلك الليلة وبعد الانتهاء من العمل مع حسن القطان - لم يكف عن السؤال عن مصر، وأحوالها وناسها وشوارعها وحواريها وكأنه يعيش بالخيال، واقعًا يتمنى أن يحققه... وبذلك، اقترب الفتى - برؤيته لمحسن - من «فكرة» زيارة الوطن في مثل ظروفه التي كان يعيشها.

* * *

عندما زف حسن القطان إلى رأفت الهجان خبر سفره إلى القاهرة، اجتاحت الفتى انفعالات عنيفة وشتى، واستغرق نصف الساعة حتى استطاع السيطرة على تلك الانفعالات... لم يشأ حسن أن يقاطعه، فتركه لصمته وانفعالاته حتى سعى الفتى إليه وكان يبدو سعيدًا سعادة مغموسة في آلام بلا حصر، أراد حسن - وقد خمن ما كان يدور بخلده - أن يهون عليه الأمر، فربت على ذراعه في ود وهو يقول:

«إيه رأيك في المفاجأة الحلوة دي؟!».

ابتسم رأفت قائلًا:

«بس أنا لازم أشتري شوية هدايا قبل ما أسافر».

نظر إليه رأفت في امتنان فأردف حسن:

«عاوز تشتري الهدايا من هنا، حانجيبها لك من هنا، عاوزها من روما حانشتريها لك من هناك... بس انت اكتب كل المقاسات ومواصفات كل هدية، ولمين في إخواتك أو أولادهم أو زوجاتهم أو حتى قرايبك... ولما توصل مصر إن شاء الله، حاتلاقي كل حاجة هناك!!».

كان رأفت الآن ممتنًّا أشد ما يكون الامتنان، قال:

«طب أشكرك إزاي يا حسن بيه؟!».

«بعد اللي انت عملته لمصر يا رأفت، ده أقل ما يجب عمله».

وهكذا جلس الفتى إلى القلم والورق، وراح يكتب قائمة طويلة، ملأت حقيبة هائلة الحجم، بهدايا لكل أفراد العائلة، الذين آذوه، والذين طردوه، والذين رفضوه... لكن شريفة وابنها طارق، كان لهما بالطبع، نصيب الأسد.

* * *

عاد سجن ألوف دان رابينوفيتش إلى إسرائيل بعد أن زوده الفتى بمبلغ محترم من المال كي يشتري بعض الهدايا لكلارا والأصدقاء... ضحك الفتى وهو يودعه طالبًا إليه ألا ينسى أن يشتري له شخصيًّا ـ أي لرأفت ـ هدية، فالمفروض ـ بشكل ما ـ أنهما لم يلتقيا في الخارج!!

وكان على رأفت أن يطير إلى روما بعد أربع وعشرين ساعة، أمضى مع حسن القطان ـ الذي تولى وضع خطة سفره إلى القاهرة وتنفيذها بالكامل في أوربا ـ ساعتين قبل أن يفترقا، في هاتين الساعتين عرف

الفتى بالضبط ماذا عليه أن يفعل وأن يلتزم به منذ هبوطه إلى مطار روما وحتى وصوله إلى القاهرة.

وهكذا، وقد أصبح الآن مدربًا ومحنكًا أيضًا، ما إن وضع قدمه في مطار روما وغادر المنطقة الجمركية حتى توجه إلى دورة المياه، غاب فيها لعشر دقائق لا تزيد، وعندما خرج منها كان يبدو لمن يراه إنسانًا آخر... بداية، كان قد سلم جواز سفره الإسرائيلي - في دورة المياه - إلى إنسان ما، وتسلم منه جواز سفر فرنسيًّا، كما وضع فوق مقدمة رأسه جزءًا صغيرًا من باروكة غيرت منبت الشعر على الجبهة لا أكثر ولا أقل، كما ارتدى نظارة طبية أعطته لمحة فرنسية... والغريب في الأمر أن الصورة المثبتة في جواز السفر الفرنسي الذي تسلمه، كانت طبق الأصل لهذا المظهر الجديد الذي بدا عليه الفتى وهو يخرج من دورة المياه في مطار روما متجهًا إلى البوابة الموصلة إلى طائرة شركة الخطوط الجوية الفرنسية المتجهة إلى باريس، والتي لم يكن باقيًا على موعد إقلاعها أكثر من خمس وأربعين دقيقة... وما هي إلا دقائق قليلة حتى كان يحتل أحد مقاعد الطائرة التي أقلعت في موعدها تمامًا!

في باريس، كانت هناك سيارة «استيشن واجن» في انتظاره، ما إن أقلته حتى انطلقت في رحلة طويلة ومتعبة إلى الجنوب حيث مدينة «نيس»، غير أن السيارة كانت مزودة بفراش صغير استلقى عليه الفتى واستغرق في النوم أغلب الطريق.

وصلت السيارة إلى نيس في صباح اليوم التالي وكانت هناك غرفة محجوزة في أحد الفنادق المتوسطة باسم مسيو «دانييل مارتان» - وهو نفس الاسم المدون في جواز السفر الفرنسي - ولقد ابتسم الفتى وهو يقرأ الاسم الذي انتحله ذات يوم منذ سنوات في أيام كانت عصيبة... بدا له الاسم وكأنه رسالة من جهاز المخابرات المصري عليه أن يعيها جيدًا، ولقد وصلته الرسالة، وفهمها!

كانت الرحلة من باريس إلى نيس كافية تمامًا كي تؤكد نظافة الرحلة، وأن الفتى غير متبوع وأن كل شيء على ما يرام. قال له حسن القطان وهو يودعه إن الأيام القادمة هي إجازة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وإن عليه أن يستمتع في نيس أو القاهرة كما يحب ويهوى، وإن هذه الإجازة هدية إليه من وطنه، لكن الفتى لم يمكث في نيس لأكثر من أربع وعشرين ساعة، كان الشوق إلى القاهرة يأكله أكلًا، وكان التفكير ـ مجرد التفكير ـ في أنه سوف يلتقي بشريفة وطارق ويتنسم عبير القاهرة وشوارعها وناسها، يثير في نفسه مشاعر كالطوفان... في اليوم التالي أقلته طائرة غادرت نيس بعد الفجر بقليل إلى مدريد عاصمة إسبانيا، وكانت هذه هي أخطر محطة في الرحلة كلها... وما حدث في مطار روما حدث في مطار مدريد ولكن بعيدًا عن دورة المياه، فعندما وصل إلى مدريد كان باقيًا على إقلاع الطائرة المتجهة إلى القاهرة نحو ساعتين... غادر مسيو «دانييل مارتان» مطار مدريد كي يعود إليه بعد نصف ساعة فقط وقد خلع النظارة الطبية ورفع تلك الباروكة واستبدل بجواز السفر الفرنسي جواز سفر مصريًا يحمل اسم «فؤاد عزيز فائق»... كان جواز سفر السيد فؤاد عزيز مليئًا بالأختام مما يدل على أن سفراته كثيرة... ما إن صعد إلى الطائرة المتجهة إلى القاهرة حتى تنفس ملء صدره، قادته المضيفة في أدب بالغ إلى مقعد في الدرجة الأولى التي تصادف أن كانت خالية تمامًا إلا منه... ولقد ظل الفتى طوال تلك الساعات التي قطعتها الطائرة وهو يحس وكأنه في حلم، حتى إذا ما أعلن قائد الطائرة أنه سيدور بها حول الأهرامات دورة حتى يتسنى للركاب مشاهدتها وهم في مقاعدهم، خفق قلب الفتى في عنف وهو يهمس:

«تعيشي يا مصر».

هكذا قال في نفس المساء باسمًا.

* * *

قبل ذلك بيومين، وكان الفتى لا يزال في ألمانيا، دق جرس التليفون في بيت العقيد محمد رفيق، كان الوقت صباحًا والمتحدث هو سهيل باتع.

«صباح الخير يا مدام شريفة».

لكن تحية الشاب لم تجد إجابة على الطرف الآخر.

«أنا سهيل».

«عارفة!».

قالتها شريفة في ضجر وضيق وبلا ترحيب.

«أنا عندي ليكي خبر يفرح».

«اتفضل».

«رأفت جاي كمان يومين».

اهتزت أسلاك التليفون بصيحة:

«صحيح؟!».

«من فضلك... المسألة مش سهلة وأنا لازم أشوفك».

«طيب ما تتفضل».

عندما وصل سهيل إلى منزل العقيد محمد رفيق، التقى هناك بشريفة أخرى... شريفة أضافت الفرحة إلى ملامحها جمالًا أخاذًا ورونقًا كان أكثر بهاء في هاتين العينين اللامعتين بالسعادة.

«أنا زي ما قلت لسيادتك إن الأستاذ رأفت بيشتغل مع ثورة الجزائر».

لم يكن هذا مهمًّا الآن، طلبت إليه الاستمرار في الحديث.

«زيارته حاتكون سرية للغاية، وعلشان كده أنا عاوزك تبلغي سيادة العقيد إن الـ... ... ...».

«لأ»!!

قالتها في حسم فرفع الشاب حاجبيه متسائلًا فأردفت:

«الأحسن إنكم انتم اللي تبلغوه، لأني لو قلت له حا يعرف إني كنت مخبية عليه، وده ممكن يعمل مشاكل مالهاش نهاية».

«سيادتك شايفة كده؟!».

«مفيش حل تاني».

نهض سهيل استعدادًا للانصراف فتشبثت به:

«هو رأفت جاي إمتى بالضبط؟!».

«قبل آخر الأسبوع إن شاء الله».

«مش ممكن ييجي قبل كده؟!».

ابتسم سهيل وهو يقول:

«لازم تعرفي إن وصوله مصر سري للغاية، وإن حياته ممكن تكون في خطر لو حد بره العيلة عرف حاجة عن الموضوع».

عندما خطا نحو الخارج هتفت:

«سهيل بيه!».

التفت نحوها.

«هو رأفت جاي بصحيح؟!».

وابتسم سهيل ابتسامة واثقة، لكنه لم يرد، وانصرف!

* * *

في إحدى وحدات الجيش المصري المعسكرة في أطراف القاهرة، وصلت في صباح اليوم التالي إشارة تليفونية على أكبر قدر من السرية إلى قائد الوحدة، تنبئه أن مندوبًا من رئاسة الجمهورية سوف يصل في

الثانية عشرة ظهرًا كي يلتقي لقاء خاصًّا بسيادة العقيد محمد رفيق، وأن على قائد الوحدة تهيئة الجو لمثل تلك المقابلة في سرية وكتمان!

وكان قائد الوحدة مبهورًا وهو يزف الخبر همسًا لزميله وصديقه محمد رفيق الذي بدت عليه أمارات دهشة بالغة وحيرة هائلة.

«إيه يا رفيق... ما لك؟!».

«أنا مش فاهم إيه الحكاية دي؟!».

«على كل حال أديك حاتفهم الساعة اتناشر».

في تمام الساعة الثانية عشرة وصلت إلى الوحدة سيارة مدنية يقودها شاب في الثلاثين من عمره أنيق الملبس دبلوماسي المظهر، ولقد سُمح للسيارة بالدخول فور سؤال سائقها عن سيادة العقيد محمد رفيق... كان كل شيء مرتبًا وقد أخلي مكتب القائد لاستقبال المندوب الذي حياه في أدب شديد، وسرعان ما قدم له القائد العقيد محمد رفيق الذي صافحه في حرارة ودلفا معًا ـ وحدهما ـ إلى غرفة القائد التي وقف على بابها أحد رجال البوليس الحربي التابع للوحدة... بعد ثوان قدم للرجلين كأسان من الليمون وأغلق عليهما الباب... قدم مندوب رئاسة الجمهورية نفسه إلى رفيق الذي كان بادي التوتر قائلًا:

«عادل لمعي من رئاسة الجمهورية».

هز رفيق رأسه متمتمًا بكلمات ترحيب وذهنه مشتت، فطوال الساعتين اللتين مضتا منذ أن أبلغ بالخبر، وحتى لحظته تلك، حاول ـ عبثًا ـ أن يعرف سر هذه الزيارة، أخذته أفكاره يمينًا ويسارًا. بحث في حياته وفي ماضيه وحاضره منقبًا عن سبب لمثل تلك الزيارة دون جدوى. بعد لحظة قال المندوب المحترم:

«أنا جاي لسيادتك بخصوص الأستاذ رأفت الهجان»!

اكفهر وجه محمد رفيق حتى بدت ملامحه وكأنها قد تشنجت، فلقد كان هذا آخر ما فكر فيه، لاحت على وجه المندوب ابتسامة مهذبة وهو يتساءل:

«إيه ما لك؟!».

زفر رفيق مغمغمًا:

«لا أبدًا... هو... هو عمل حاجة؟!».

«عمل حاجات كتير».

«أنا كنت متأكد من ده»!

«وكلها عظيمة»!

«إيه؟!».

جاء سؤال رفيق صارخًا فضحك المندوب رغمًا عنه، وأردف رفيق:

«سيادتك بتقول حاجات عظيمة؟!».

«أيوه».

«يظهر إنك غلطان يا فندم»!

«في إيه؟!».

«في الاسم»

«هو اسم أخو المدام مش رأفت علي سليمان الهجان؟!».

«أيوه... بس ده كان... ... ...».

قاطعه المندوب في حسم وأدب:

«إحنا عارفين عنه كل حاجة، بس اللي سيادتك ما تعرفوش إن الأستاذ رأفت دلوقت بقى حاجة تانية خالص».

«مش فاهم!».

وهكذا راح المندوب المحترم يشرح للسيد العقيد قصة غريبة عن شقيق زوجته الذي يعمل منذ سنوات لحساب وطنه وأمته العربية مع ثورة الجزائر، وأن العمليات التي يقوم بها شديدة الحيوية والخطورة بالنسبة لأمن الثورة الجزائرية... قال السيد عادل لمعي مندوب رئاسة الجمهورية إنه يحمل رجاء شخصيًّا من السيد الرئيس بأن... ... ...

قاطعه رفيق هاتفًا متنفضًا:

«سيادة الريس؟!».

«أيوه، سيادة الرئيس جمال عبد الناصر بيرجو حضرتك إنك تتفهم الموقف، لأن رأفت بيه عاوز يشوف العيلة بعد الغيبة دي كلها، وده حقه وحقكم إنتم كمان... لكن المطلوب إن الأمر يفضل سر بينكم... وبالطبع مفيش حد في العيلة ممكن يقوم بالمهمة دي إلا سيادتك».

«طبعًا... طبعًا... بس... ...».

صمت رفيق بادي الحيرة فسأله المندوب:

«فيه حاجة تانية؟!».

«سيادتك متأكد إن الشخص اللي بتتكلم عنه هو... ... ...».

«سيادة العقيد... رأفت بيه بقى حاجة تانية خالص، ويوم الخميس إن شاء الله حاتشوف بنفسك».

«هو جاي بعد بكره؟!».

«واختار بيت سيادتك بالذات علشان تبقى كل الأمـور تحت سيطرتك».

«وعاوز إخواته كلهم؟!».

«وزوجاتهم وأولادهم».

بدا العقيد متشككًا فيما يقوله الرجل الذي أردف:

«على العموم أنا جاي أبلغك الخبر لسببين... السبب الأول علشان وصول رأفت بيه مايبقاش مفاجأة ليكم خصوصًا بعد الغيبة الطويلة دي... والسبب الثاني علشان نرجوك رجاء شخصي إنك تقابله كما ينبغي... ولازم تعرف إن مركزه النهارده مش شوية».

هتف الرجل كالمستفز:

«سيادتك متأكد إنكم تعرفوا عنه كل حاجة؟!».

حدجه لمعي بنظرة باردة فعاد يقول:

«تعرفوا مثلًا إنه نصاب ومحتال ورد سجون؟!».

لم يرد السيد عادل لمعي وظلت نظرته الباردة تحدج العقيد الذي أصابه الارتباك فغمغم:

«ما هو لازم سيادتك تعذرني».

«أنا عاذرك».

«طيب... طيب إيه المطلوب مني بالضبط؟!».

«إنك تنبه على إخواته كلهم بالتكتم الشديد وبلاش حد منكم يتكلم في الموضوع ده مع أي حد مهما كانت ثقته فيه».

«أكيد ده حايحصل، إنما يعني هو رأفت... ... ...».

صمت رفيق لثوان استطرد بعدها:

«قصدي رأفت بيه حايوصل بعد بكره الساعة كام بإذن الله؟!».

«الساعة سبعة والدنيا ضلمة».

* * *

بعد ظهر نفس اليوم عاد العقيد إلى بيته وكان يبدو عليه الانفعال، كان يعرف أن ما يحمله من أخبار إلى زوجته شيء فوق كل خيال وتصور،

حاول أن يرجئ الحديث في الأمر حتى يزول انفعاله لكنه وجد أن الوقت ضيق ولا بد من ترتيب الأمر مع إخوتها جميعًا، وسرعان ما أفضى بالأمر إلى شريفة التي استمعت إليه دون مقاطعة حتى إذا ما انتهى من حديثه، انفجرت باكية دون كلمة.

«إنتي حقك تفرحي يا شريفة مش تبكي».

لم ترد عليه فأردف:

«هو شيء يسعد فعلًا إن رأفت تحول إلى إنسان محترم بالشكل ده».

وظلت شريفة على صمتها وإن كانت قد انخرطت في بكاء حار، وتركها زوجها لدموعها، فلقد كان يعلم الآن أنها كانت دائمًا على حق في دفاعها عن رأفت، وأنهم جميعًا ـ وهو أولهم ـ قد أساءوا إلى الفتى إساءات بالغة، ولم يقدروه حق قدره!

* * *

وصلت الطائرة القادمة من مدريد إلى القاهرة بعد انتصاف اليوم بساعة أو ساعتين، كان الوقت شتاء والسماء ملبدة بالغيوم والرياح تهب على أرض المطار شديدة البرودة... لكن هذا لم يمنع عددًا من المستقبلين الذين حصلوا على «أذونات» باستقبال بعض المسافرين من الوقوف أسفل سلم الطائرة... وكما كان عدد الركاب قليلًا لا يزيد على الثلاثين، فلقد كان عدد المستقبلين نحو خمسة أشخاص عدا بعض موظفي شركة مصر للطيران الذين كانوا هناك لعمل أو لآخر... من بين هؤلاء الموظفين كان عزيز الجبالي!

تشاغل عزيز بما كان يتظاهر بالقيام به من عمل لكن عينيه كانتا هناك عند السلم، كانت لديه معلومات كاملة عن الطائرة وركابها وعددهم، كما كانت برقية قد وصلت في الصباح الباكر من مدريد تزف خبر صعود

الفتى إلى الطائرة في أمان... وبالرغم من ذلك، فإن هذا لم يمنع القلق من التسرب إلى نفسه عندما غادر كل ركاب الطائرة وراحوا يهبطون السلم ويقطعون أرض المطار إلى مبناه سيرًا على الأقدام دون أن يظهر رأفت.

لكنه أخيرًا ظهر!!

خطا نحو الخارج وهو يومئ للمضيفة التي كانت في وداعه شاكرًا، توقف عند قمة السلم ودار وجهه في كل اتجاه وكأنه يلتهم الدنيا في نظرة واحدة... كان يرتدي معطف مطر وقبعة وفي يمناه حقيبة أوراق سوداء اللون... هبط درجتين لكنه توقف، وضع حقيبة أوراقه على السلم وخلع معطفه وطواه ووضعه على يسراه ثم مال على الحقيبة فالتقطها بيمناه، شد قامته، ملأ صدره بالهواء، ثم راح يهبط الدرج على مهل!

كانت هذه هي المرة الوحيدة ـ خلال تلك الزيارة ـ التي شاهد فيها عزيز رأفت الهجان... راح الفتى يقطع أرض المطار ملقيًا بنفسه وسط الركاب... في صالة الوصول وقف في الطابور أمام ضابط الجوازات، عندما جاء دوره قدم جوازه للضابط الذي قلب صفحاته في روتينية ثم وضع على إحداها ختم القاهرة وأعاده إليه. عبر منطقة الجوازات إلى المنطقة الجمركية وراح يخطو هنا وهناك في انتظار وصول الحقائب. عندما وصلت امتدت يده إلى حقيبة ملابس متوسطة رمادية اللون فحملها مغادرًا المنطقة الجمركية... خارج مبنى المطار كان هناك العديد من المستقبلين والحمالين وسائقي التاكسي ومندوبي شركات السياحة والفنادق والباحثين عن الزبائن... اعترض طريقه أكثر من واحد عارضين عليه خدماتهم وكانت الملاحظة التي أدهشته أنهم جميعًا يتحدثون إليه بلغة أوربية أو بأخرى، حتى تقدم منه سائق تاكسي اقترب منه ـ مثله مثل الآخرين ـ وقال بصوت خفيض وسط ضجيج المستقبلين والقادمين:

«الحمد لله على السلامة يا فؤاد بك»!

وكانت هذه الجملة البسيطة هي كلمة السر التي سلم الفتى بعدها حقيبته للسائق الذي قاده إلى سيارته... وسرعان ما انطلقت السيارة مبتعدة عن المطار!

* * *

قال سائق التاكسي ـ الذي لم يكن سوى واحد من ضباط المخابرات الشبان زيادة في الحرص والتأمين ـ بعد ذلك إن الفتى لم ينطق حرفًا منذ غادر المطار وحتى ترك السيارة أمام تلك الڤيلا الأنيقة التي كانت معدة لاستقباله في أحد شوارع المعادي الهادئة... كان كل ما دار بينهما من حوار هو قول السائق:

«مصر نورت».

«الله ينور عليك».

ثم ساد الصمت، وترك الفتى لعينيه العنان كي تلتهما شوارع القاهرة وبيوتها... بين الحين والحين ـ هكذا قال الضابط السائق ـ كان رأفت يزفر زفرة حارة وكأنه يزيح بها عن صدره عبئًا شديد الثقل... ثم يغرق بعدها في الصمت والتدخين، ليعود بعد دقائق فيزفر من جديد!

* * *

عندما وصلت السيارة إلى الڤيلا كانت الساعة تشير إلى الرابعة وعشر دقائق بعد الظهر، ما إن توقفت أمام الباب حتى هب عم عبده البواب من فوق دكته مرحبًا في أدب جم.

«الحمد لله على السلامة يا سعادة البيه».

على باب الڤيلا الداخلي ظهرت الست أم حسني ـ مديرة البيت ومدبرة أمره ـ والابتسامة تملأ وجهها، ابتسامة ترحيب حار غير مبالغ

فيها هبطت الدرج إلى الحديقة وصافحته في حرارة سرت إليه فبدا عليه التأثر، لكنها سرعان ما جذبت إليها وجهه وقبلته في وجنته وكأنه ولدها غاب عنها لسنين طالت فاحتدم الشوق في صدرها.

«نورت بيتك ومطرحك يا بني»!

يا للوطن عندما يضمك إليه في حنان غير مفتعل!!... ترقرق الدمع في عيني رأفت وهو ينظر إلى تلك السيدة الريفية ذات الوجه المليح، قالت ضاحكة:

«أنا خالتك أم حسني يا بيه... مش فاكرني؟!».

لم يكن الفتى قد رآها مرة في حياته من قبل، لكنه كان صادقًا حتى أعماق القلب وهو يقول:

«وفيه حد ينسى ريحة بلده يا ست أم حسني؟!».

من الداخل هرول عم علي الطباخ مرحبًا، ومن خلفه كان مصطفى السفرجي وطه الجنايني... دلف الفتى وسطهم جميعًا إلى بهو صغير ومرتب كأحسن ما يكون الترتيب... أهم ما فيه تلك المصرية الخالصة التي أثث بها البيت، في أقصى البهو كان ثمة ركن زجاجي الحيطان يطل على الحديقة، في صدره كنبة إستانبولي ذات مساند وشلت، أمامها صينية نحاسية مستديرة ذات نقوش شرقية تتربع فوق حامل من الخشب، فوق الصينية اللامعة كانت هناك معدات القهوة المصرية التقليدية، فتذكر رأفت، كالضباب، أمه!!

كان أول المتحدثين هو عم علي الطباخ:

«من غير مؤاخذة يا بيه... اتغديت؟!».

«جابوا لنا أكل في الطيارة، بس أنا جعان».

«الغدا جاهز».

«عندك إيه؟».

«فضلة خيرك ملوخية بالأرانب وطاجن بامية ورز بالخلطة والحلو أم علي».

أقسم رأفت الهجان بعدها أنه منع دموعه بجهد شديد، وأنه لولا دخول عم عبده البواب يعلن عن وصول زائرين، لانفجر في البكاء وسط كل هذا الحنان الذي أحاط به كدثار من حب شديد الدفء... وسط كل هذا خطا عم عبده ووقف بعيدًا في صمت حتى هتفت به أم حسني:

«خير يا عم عبده!».

وجه الرجل حديثه إلى الفتى:

«فيه ناس عايزين سيادتك بره يا سعادة البيه».

«ناس؟!».

قالها الفتى دهشًا فلقد أحس أن في الأمر خطأ ما.

«فيه واحد اسمه نديم بيه هاشم ومعاه... ... ...».

قاطعه الفتى كالمصعوق هاتفًا:

«خليهم يتفضلوا».

ما إن انسحب البواب حتى انسحب الباقون جميعًا بمن فيهم أم حسني في صمت، خطا الفتى نحو الباب خطوة وكان الذهول ممسكًا بتلابيبه، فإذا نديم هاشم بقامته الفارهة وجسده المتناسق ينفذ من فتحة الباب مرحبًا... تجمد الفتى ناظرًا إليه مالئًا منه عينيه هامسًا:

«نديم بيه؟!».

وفتح نديم ذراعيه كي يضم جسد الفتى الدقيق إلى صدره في عنف حنون، عاد الدمع إلى عيني رأفت الهجان فرأى خلف نديم وجه حسن القطان مترقرقًا، هتف مختنق الصوت:

«أنا تعبتك معايا قوي يا حسن بيه!».

«نورت بلدك يا رأفت».

وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة في حياة رأفت علي سليمان الهجان ـ بعد وفاة أبيه ـ التي انفجر فيها باكيًا منهنهًا كطفل صغير!

* * *

ولقد تركه الرجلان لانفعالاته حتى هدأ، وأصرت أم حسني أن تدعوهما إلى الغداء معه فهذه هي الأصول، بعد الغداء قدمت لهم القهوة بنفسها فاحتج مصطفى السفرجي لكنها لم تلق بالًا إلى احتجاجه وأصرت على القيام بخدمة الفتى طوال إقامته... راح رأفت ـ على مائدة الغداء ـ يلتهم أطباق الملوخية والبامية في شوق عارم، فضحك نديم مداعبًا إياه بقوله:

«على مهلك شوية على نفسك!».

«مصر واحشاني!».

«وحاتعمل إيه في الأكل اللي طابخهولك شريفة؟!».

توقف الفتى عن المضغ ذاهلًا:

«هو أنا حاشوفهم الليلة؟!».

«الساعة سبعة».

«كلهم؟!».

«بربطة المعلم».

وكف الفتى عن الأكل فورًا، واعتذر بعد ذلك لعم علي الطباخ قائلًا إنه يحب البامية البايتة وإن الملوخية في اليوم التالي تصبح أحلى مذاقًا... راح يتجاذب أطراف الحديث مع نديم وحسن الذي منعه من التحدث عن العمل طوال إقامته في مصر، فالإجازة إجازة... أخبراه بكل ما تم

ترتيبه وما الذي قيل للعائلة عنه، ولم يكن أحدهما في حاجة إلى التنبيه عليه بالتزام ما قيل... فلقد كان رأفت الهجان، الجالس أمامهما الآن، في ڤيلا صغيرة في شارع هادئ من شوارع حي المعادي الراقي، إنسانًا آخر بكل ما تحمل الكلمة من معنى!!

* * *

في السادسة تمامًا، كانت العائلة كلها قد اجتمعت في بيت العقيد محمد رفيق... كان هناك عادل الأخ الأكبر الذي طرد الفتى من البيت بعد أن تزوج بأسابيع قليلة، كما وصل سليم ومحمود وزوجتاهما وأولادهما... امتلأ البيت وتعالت صيحات الأولاد ووقف العقيد وسط الجميع وقد ارتدى ملابسه المدنية كاملة وهو يتحرك هنا وهناك بلا هدف... بدا الجميع وكأنهم في يوم عيد، الرجال والنساء وحتى الأطفال كانوا في أبهى حللهم بعد ما بلغ الآباء من أنباء سرية عن مكانة رأفت ومركزه.

في الداخل، في غرفة النوم بالتحديد، راحت شريفة تهندم ولدها بملابس جديدة اشترتها له احتفالاً باستقبال «خاله رأفت» وهي توصيه بأن يتصرف كما ينبغي أمام الخال الذي يحبه حبًّا عظيمًا... كان الصبي الذي بلغ السابعة يعرف كل هذا وقد سمعه عشرات المرات من أمه خلال اليومين اللذين مضيا، لكنه أيضًا كان يعرف أشياء أخرى طالما سمعها من أبيه وأخواله الآخرين عن هذا الخال الغائب الذي يذكره كشبح ضبابي غير واضح المعالم... يذكره عندما كان يضعه على ركبتيه ويغمر وجهه بالقبلات ويتحفه بالهدايا والحلوى والشيكولاته... يذكر الصبي كل هذا كما يذكر ما سمعه من أبيه عن فساد هذا الخال وسجنه وتشرده وأخلاقه وضياعه وقلة حظه من التعليم... ومنذ أن علم من أمه بالخبر وهو لا يكف عن الأسئلة التي لم يجد لها إجابات سوى تحذيرات أمه الهامسة... السؤال العويص الذي ظل يحيره وسط كل هذا الضجيج

والحفاوة والاستعداد هو: هل الضيف القادم الذي يستعدون لاستقباله بكل هذه الحفاوة هو هو نفس الخال الذي كانوا يتحدثون عنه بمزيد من الاحتقار والاشمئزاز والضيق من العار الذي ألحقه بأسرة أمه؟!

وعندما لم يجد الصغير جوابًا لاذ بالصمت ـ على غير عادته ـ وراح يرقب ما حوله في انتظار هذا الخال العجيب!

كانت مائدة الطعام التي تتوسط الصالة مهيأة بكل ما لذ وطاب من حلوى وفاكهة، كما كان المطبخ جاهزًا لوليمة عائلية حشدت فيها شريفة كل ما تستطيع من أصناف طعام يحبها رأفت!

في الصالون راح الإخوة الثلاثة يسألون ـ ويلحون في السؤال ـ زوج أختهم الضابط الكبير الذي لا يريد أن يبوح بشيء وينكر أنه يعرف أكثر مما أخبرهم به... صاح عادل:

«ما هو كل شيء بالعقل يا رفيق... إنت بتقول... ... ...».

قاطعه العقيد:

«عادل ماتسألنيش، أنا قلت لكم كل اللي عرفته، وباقول لكم إن الكلام في الموضوع ده بره البيت ومع أي حد مهما كانت علاقتكم بيه، حاتكون عواقبه وخيمة وانتو أحرار بقى»!

صاحت إحدى الزوجات:

«طب والولاد حانسكتهم إزاي؟!».

«الولاد لما يقولوا إنهم شافوا خالهم مافيهاش حاجة وده أمر طبيعي... هو المهم عدم الكلام في المهمة اللي هو بيشتغلها لأن ده أمن دولة... فاهمين يعني إيه أمن دولة؟!».

سبح الصمت في سماء الغرفة مشحونًا بتوتر بلا حدود، وإنْ كانت العيون تتلاقى في نظرات تحمل أسئلة حيرى وبلا إجابات... من الداخل

جاء طارق يداخله إحساس بأنه وحده المعني بهذه الزيارة، بينما وقفت شريفة بباب الغرفة وقد ارتدت أفخر ثيابها وهي تسألهم إن كان أحدهم يريد أن يشرب شيئًا، فقال سليم:

«خلينا لما ييجي رأفت نشرب معاه يا شريفة!».

مضت الدقائق ثقيلة بطيئة تحمل حوارًا بلا معنى حتى صاح طفل كان يقف في الشرفة:

«خالي جه... خالي جه!».

واندفع الجميع نحو الشرفة كل يريد أن يسبق الآخر كي يرى رأفت... راحوا يتدافعون ويتزاحمون وقد تكدسوا حول سور الشرفة تطل رءوسهم بعيون دهشة على مشهد لم يتخيله أحدهم ولا في المنام....

كانت هناك سيارة أمريكية فارهة الطول تتوقف أمام الباب متهادية، ليفتح باب السيارة الأمامي قبل أن تتوقف تمامًا ويهبط منه مرافق عملاق كان يجلس بجوار السائق، استدار الرجل في رشاقة المدرب كي يفتح الباب الخلفي في احترامٍ بالغ... كانت شريفة الآن تدفع الجميع في عنف مفسحة لنفسها طريقًا وسط الأجساد وصوتها يرتجف قائلة:

«أخويا... أخويا... أشوف أخويا!».

أطلت شريفة في نفس اللحظة التي كان رأفت يهبط فيها من السيارة.

ساد الصمت ووجم الجميع.

يا الله... أهذا هو رأفت علي سليمان الهجان؟!

توقف الفتى فوق الطوار لثوان قبل أن يرفع رأسه إلى أعلى، كان واضحًا أنه يغالب انفعالاته ويحاول السيطرة على أعصابه. ملأ وجهه عيني شريفة فهتفت في لوعة:

«رأفت!».

من الباب الأيسر للسيارة هبط ذلك الشاب سهيل باتع وكان يرافق الفتى، ظلّ رأفت رافعًا رأسه إلى أعلى لثوانٍ لم تطل فلقد اندفع بعدها يعبر مدخل العمارة وهو يخطف الدرج خطفًا وقد ترك لعواطفه العنان فراح يلهث... من الدور الثالث كانت شريفة تلقي بنفسها إلى السلم هابطة نحو أخيها وهي تردد اسمه بلا انقطاع.

ما إن واجه كل منهما الآخر حتى انفجرا في بكاء مر، التقط رأفت جسد شقيقته المتهاوي بين ذراعيه وهبط بها إلى الدرج فجلسا عليه في إعياء، تعلقت شريفة بعنق أخيها تغمر وجهه بالقبلات وقد انفجر الشوق والحرمان والعذاب واليتم وذكريات الماضي تصرخ في الوجدان شياطين لا ترحم، من أعلى كانت كل الرءوس تطل على المشهد وقد اكتست عيونها جميعًا بالدمع، وانفجرت إحدى الزوجات باكية وهي تهرول إلى الداخل... دفعت شريفة أخاها بعيدًا عنها ثم أمسكت بوجهه بين يديها وراحت تنظر إليه وكان الدمع يغرق وجنتيه. همست:

«واحشني يا خويا!».

وصل إليهما زوجها وهو يحاول في استماتة أن يتمالك نفسه، مال على زوجته في حنان هامسًا:

«أنتو على السلم يا جماعة!».

وامتثلت شريفة ناهضة، في الوقت الذي كان رفيق يمد فيه يده لرأفت مرحبًا:

«الحمد لله على السلامة يا رأفت!».

وهرولت الأقدام هابطة الدرج، وأحاط الجميع بالفتى الذي ترك لهم نفسه كي يصعدوا به محفوفًا بالقبلات والحب... تذكر أباه وتذكر

أمه وتذكر آخر مرة جاء فيها إلى هذا البيت متسللًا... ما أعظم الفرق بين الليلة والبارحة!!... ما إن استقر بهم المقام في غرفة الصالون حتى كانت شريفة تجلس إلى جوار أخيها وهي متشبثة بيده وكأنها تخاف من فراره... ووقف طارق أمام خاله في صمت فإذا بالخال يضمه إليه وهو يغمر وجهه بالقبلات والصبي ذاهل بما يحدث.

دق الباب فقفز رفيق من مكانه كي يرى من الطارق، فتح الباب ورفعت شريفة عينيها كي تجد أمامها «سهيل» بلحمه ودمه... لكن سهيل أبعد عينيه عنها متحدثًا إلى زوجها الذي رحب به:

«لا مؤاخذة يا فندم، شنطة رأفت بيه وصلت».

قال هذا ثم أفسح الطريق للعملاق الذي كان جالسًا بجوار السائق وهو يدلف حاملًا حقيبة الهدايا الهائلة الحجم ويضعها في منتصف الغرفة، ما إن هم بالانصراف حتى هتف رأفت:

«أنا متشكر قوي!».

«العفو يا فندم، أي خدمات تانية؟!».

هتف رفيق:

«ماتتفضلوا».

ابتسم سهيل معتذرًا:

«لأ معلش... بس بعد إذنكم الأخ حايقف هنا عند الباب»!

ثم نظر إلى رأفت مردفًا:

«وأنا حاكون في العربية».

عبثًا حاول رفيق أن يقدم لهما ولو كوبًا من الماء فما لبث سهيل أن انصرف، وأغلق الباب من جديد، وأحاطت العيون، كل العيون،

برأفت في انبهار لا يخفى... مضت دقائق تناثرت فيها كلمات ترحيب مغموسة في حرج وخجل، وكان طارق الصغير يجلس على ركبتي خاله يملؤه الإحساس بالتميز على الآخرين... لكنه ما لبث أن صاح بصوت عال...

«خالو!».

«نعم يا حبيبي؟!».

«إلا انت صحيح كنت في السجن؟!».

الفصل الرابع

عَلى حَافة كَارثة

قالت هيلين سمحون لعزيز الجبالي وهي تقاوم طوفان الدمع الذي انهمر من عينيها إنها كألمانية رأت من ويلات الحرب ما رأت من تشتت وتفتت للأسرة، تعودت ـ فوق طبيعة بني جنسها الصارمة ـ ألا تحترم الدموع فالدموع لا تغسل حزنًا، ولا تُقوِّمُ معوجًا، ولا تصلح خطأ... لكنها لم تستطع ـ وهي تستمع إلى قصة الفتى ـ أن تمنع دمعها مرات ومرات، وإن هذا قد دفعها لأن تتساءل عما إذا كانت، وهي تستمع إلى قصة زوجها الراحل، تبكي تلك الحياة التي عاشتها معه، وذلك الحنان الذي غمرها به، رغم كل ما لقيه في حياته من عنت، وإحساسها الغريب بالأمن وهي إلى جواره رغم أن إحساسه هو بالأمن كان مشوبًا بالقلق والحذر... أم أن الأمر مجرد تمامًا، وأن قصة الفتى في حد ذاتها، وبصرف النظر عن حياتها معه وارتباطها به، بلغت مآسيها هذا الحد الذي يدفعها إلى البكاء؟!

كانت هيلين سمحون تجلس جلستها تلك الشامخة المرفوعة الرأس التي ظن عزيز في البداية أنها نتيجة تحفظ فرضته ظروف اللقاء بينهما، ثم اكتشف مع مرور الأيام أنها طبيعة في هذه السيدة التي كان فخرها واعتزازها بزوجها يتزايدان لحظة بعد لحظة، ويومًا بعد يوم... وعلى

كُلٍّ، فلقد كان عزيز الجبالي في تلك اللحظات يبدو وكأن العمر تقدم به سنوات وإن كانت ملامحه تنبئ بذلك الفيض الخفي من الراحة، وكأنه أزاح عن كاهله عبئًا اشتد عليه ثقله... كان يبدو متأثرًا بما استجلبه من ذكريات مضت عليها سنوات... قال لهيلين سمحون إنه ها هنا ـ عند زيارة الفتى الأولى للقاهرة ـ يجب أن تنتهي القصة، قصة الفتى، وإنه لو كان كاتبًا لما كتب حرفًا بعد ذلك... فلقد اكتملت عناصر القصة ـ كعمل فني ـ عند اكتمال الدائرة ووصول الفتى إلى القاهرة منتصرًا.

ثم قال: إن الأيام العشرة التي قضاها رأفت الهجان في القاهرة كانت من أحلى أيام عمره على الإطلاق، زار فيها كل مكان أراد أن يزوره في مصر، دُعِيَ إلى بيوت العائلة بيتًا بيتًا فقبل الدعوة، وقوبل بحفاوة لم يتخيلها... لبيت كل رغباته دون مناقشة، واستطاعت الست أم حسني مع زملائها من الرجال أن يحيطوا رأفت بذلك الدفء المصري الخالص، حتى لقد طلب جلبابًا مصريًّا كي يرتديه في البيت وأثناء النوم... وكم من ساعات قضاها مع عم عبده البواب ومصطفى السفرجي والأسطى علي الطباخ وطه الجنايني في دردشة لا تنتهي، وحكايات عن مصر ونوادرها، والنكت التي كان الناس يتبادلونها، والحياة والثورة والأغنيات والفن... قال رأفت فيما بعد إنه رأى «مصر» أخرى غير تلك التي غادرها، وأن فخره بوطنه كان يشعره بأن رأسه دائمًا مرفوع، وأمده إحساسه بالناس بمزيد من الثقة والأمل في المستقبل.

مكان واحد فقط حُرِّم على الفتى ارتياده أو حتى الاقتراب منه، ذلك هو «مقهى وبار إستانبيلوس».

كان «إستانبيلوس» الابن لا يزال يصول ويجول في مقهاه وما يحيط به ممارسًا حياته كما تعودها، يتذكر مع بعض المخضرمين من رواد المقهى

ذلك الركن اليهودي الذي اختفى، يتذكر معهم أسماء رجال سافروا إلى فرنسا وأمريكا أو إسرائيل... لكنه كان يتوقف دائمًا عند ذكرى ذلك الشاب النحيل الشاحب الصامت، والذي عرفوه باسم «ليڤي كوهين»!... كان حديثه مع الأصدقاء حول الفتى ينتهي دائمًا بتساؤل يظل معلقًا بلا جواب: أين ذهب ذلك الفتى الغامض؟! وماذا كان مصيره؟!... وفي أي أرض هو؟!... لا أحد يدري!

حاول رأفت الهجان قبل الرحيل أن يناقش بعضًا من أمور العمل، لكن الرجال رفضوا، وطلبوا إليه في حسم أن يستمتع بإجازته، وأن يعطى نفسه حق الراحة، وأن ينسى كل شيء عن حياته في إسرائيل!

ثم كان الوداع مؤثرًا. قال لشقيقته، كما قال لإخوته، إنه سيحاول أن يزور مصر، لكنه لا يستطيع أن يعد بقرب الموعد، وإن كان قد وعد شريفة بالذات أن يكتب لها بانتظام!

عندما حانت لحظة الرحيل كان هناك نديم هاشم وحسن القطان... لُقن الفتى أسلوب مغادرته لمصر، وما الذي عليه أن يفعله في خط سيره الذي ينتهي في تل أبيب. ابتسم موجهًا حديثه لحسن، شاكرًا إياه على كل ما تجشم من أجله، لكن حسن ضحك هاتفًا:

«أنا اللي لازم أشكرك يا ديڤيد»!

لم يعد يعني الفتى الآن أن ينادوه ديڤيد أو رأفت فابتسم متسائلًا:

«على إيه؟!».

«على إنك اديتني فرصة آخذ أجازة أنا كمان، لاحظ إن بقى لي عشرة أيام في مصر!».

وقال الذين رأوا الفتى في المطار إن رأفت الهجان كان رابط الجأش طوال إجراءات الخروج حتى غادر مبنى المطار في طريقه إلى الطائرة، فقبل أن يصعد سلم الطائرة توقف، واستدار، وملأ عينيه بأرض وطنه،

أو ربما كان يبحث عن وجه كي يلوح له... لكنه في النهاية صعد السلم، وقبل أن يدلف إلى الداخل، اختطف نظرة سريعة من فوق كتفه، ثم غاب عن الأنظار.

* * *

كانت آخر المحطات التي توقف فيها رأفت الهجان قبل أن يطير إلى إسرائيل هي روما... في روما تسلم نوعًا جديدًا من الحبر السري أكثر تقدمًا، كما قام ـ خلال أربع وعشرين ساعة ـ باجتماعات واتصالات مكثفة لمناقشة أو تلبية عدد من العروض التي كانت في انتظاره من عدد من شركات السياحة... وعندما وصل إلى تل أبيب وجد الجميع في شوق إليه، كما تبادل الهدايا مع دان رابينوفيتش الذي وجده راضيًا كل الرضا...

* * *

أرسلت القاهرة إلى الفتى عددًا من الأسئلة كان عليه أن يوجهها إلى عميليه ـ دان رابينوفيتش وإيزاك بن عميتاي ـ وإذا كانت الشبكة العسكرية تتكون من كليهما ومعهما بيخور شطريت، فإن هذا الأخير لم يكن يدري أن الفتى يوجه إليه أسئلة من أي نوع، ولقد أصر رأفت الهجان على عدم مفاتحة هذا السكير في الأمر، ويكفيه ثمن زجاجات الخمر الفاخرة التي يحتسيها عنده، والتي ـ بعد أن تسري قطراتها في عروقه ـ تحل عقدة لسانه وعقله معًا فإذا هو يجيب بإفاضة عن كل سؤال يوجه إليه، لدرجة أن الفتى وصل به الأمر، في السنوات الأخيرة، أنه كان يكتب في أثناء حديث الرجل، لفرط تدفق المعلومات منه ووفرتها، وخشية أن ينسى منها شيئًا، وثقة في أنه في الصباح لن يذكر كلمة مما قال... كان بيخور شطريت عضوًا في الشبكة العسكرية حقًا، لكنه كان عميلًا «لا يدري»!!... أما الآخران ـ دان وإيزاك ـ فكان لا بد من اختبارهما واختبار دقة معلوماتهما... ولذلك، فلقد بدت الأسئلة

الموجهة إليهما من القاهرة بسيطة وقليلة القيمة، لكن رأفت كان يعلم أن عليه أن يوجهها دون مناقشة ومهما كان رأيه أو رأيهما فيها... ثم عرف فيما بعد أن هذه الأسئلة وضعت بواسطة علماء، كانت تلك الأسئلة اختبارًا لكل شخصية، وامتحانًا لصدقها وجديتها، ولقد أثبت إيزاك بن عميتاي بالذات أنه جدير بالثقة حقًا، فلقد راحت الإجابات والمعلومات تنهال منه على الفتى، وكانت نتائج كل التحريات، وعلى مدى شهور، تؤكد أنها جميعًا صحيحة...

وفي البداية كان دان رابينوفيتش متحفظًا، يجيب عن الأسئلة بدقة متناهية وفي حدودها لا يتعداها. ولم يكن هناك مانع بالطبع، إذا ما أعوزته الحاجة إلى المال، أن يحمل إلى الفتى ـ من تلقاء نفسه ـ خبرًا على جانب كبير من الأهمية، فلقد تعود إذا ما أمد المنظمة بمثل هذه الأخبار المهمة، أن ينال عليها مكافآت سخية بحق... أما عن رأفت نفسه وكيفية إدارته للأمور، فلقد كتب عزيز الجبالي عنه في تلك المرحلة يقول:

«... ... ...ولقد تدرج ديڤيد في طريقه تلك ذات الشعب الثلاث، مع هؤلاء الضباط كل حسب مقتضيات أمره، ففي حلقات الميسر مع المقامر الخائب تارة يخسر له متعمدًا، وتارة يقرضه ما يسدد به خسائره ويعينه على الاستمرار في تلك الآفة حتى يزداد تورطه يومًا بعد يوم... وجلسات الخمر مع ذلك السكير الذي لا يفيق إلا في ساعات عمله في الجيش وكانت أنواع الخمور الفاخرة والنادرة خير نداء يجعل ذلك الضابط يسعى إلى ديڤيد على يديه وركبتيه، يتودد إليه وينشد رضاه... أما زوج المتلافة الشابة، فكانت السبيل إليه هي إغراقه في الديون... وباختصار، كان ديڤيد رائعًا بحق في السيطرة على هؤلاء الثلاثة، كل منهم بعيدًا عن الآخر... كان يعرف متى يعطي ومتى يمنع، متى يسخو ومتى يُقَتِّر، متى يكرم ومتى يذل، متى يجامل ومتى يهين... وإذا كان

كل من يتعلم شيئًا يجنح إلى شيء من التصرف عندما يطبق العلم على العمل، بمقتضى ظروف الواقع المحيط به؛ فإن ديفيد في تطبيقه لما تعلمه كان «أكاديميًّا» ممتازًا!».

وهكذا... ...

وعندما عاد الفتى إلى إسرائيل كانت النواة الأساسية لتلك الشبكة مكتملة تمامًا، ولم يعد أمامه سوى ترتيب أمر الشبكة المدنية التي كانت نواتها الأولى في بيت السيدة «سيرينا أهاروني».

وفي واقع الأمر لم تكن هناك مشاكل تذكر بالنسبة لهذه الشبكة التي تكونت من مجموعات ذات فائدة عظمى لمصر... واستطاع الفتى أن يجعل من نفسه محورًا مهمًّا بالنسبة لهذه المجموعات بعيدًا عن بيت سيرينا التي احتفظ بصداقتها بل وتمسك بها... غير أن المدهش في الأمر أن الفتى وصل إلى حد من الثقة بنفسه، وبما كان يحصله من معلومات من هؤلاء الأفراد، أنه أطلق على كل منهم رقمًا، بالرغم من أنهم لم يكونوا يعلمون شيئًا مما يفعله ديفيد سمحون، وكان معنى هذا أن ثقته في إمكان الحصول من أي واحد منهم على المعلومات بلغت حد اليقين... ولقد أرسلت أسماء أعضاء هذه الشبكة المكونة من مجموعات متجانسة من العلماء والاقتصاديين والسياسيين والصحفيين إلى القاهرة، مع معلومات وافية عن كل عضو... وأثبتت التحريات التي أجرتها القاهرة بوسائلها الخاصة أن رأفت الهجان قد ارتفع مستواه التكنيكي، وبسرعة، إلى آفاق لم تكن منتظرة!

وعلى سبيل المثال:

كانت حاجة القاهرة إلى متابعة حالة الاقتصاد الإسرائيلي والتذبذب الشديد في سعر الليرة الإسرائيلية وقيمتها وأسبابها، تجد من الفتى استجابة سريعة ـ ودورية في بعض الأحيان ـ بل وفورية، ليس لأنه كان قد أصبح رجل أعمال بكل ما تحمل الكلمة من معنى... ولكن لأن

أصدقاءه من الاقتصاديين والوزراء كانوا يناقشون أمامه ومعه كل شيء بحرية كاملة!

كان هذا في الاقتصاد، أما في العلوم فكان هناك ما هو أخطر!

ففي السنوات الأولى من الستينيات وصلت إلى القاهرة معلومات شبه مؤكدة، من مصادر متعددة تقول: إن إسرائيل توصلت بعد أبحاث دامت لسنوات إلى إنتاج رءوس نووية محدودة التأثير... ولقد ترددت الشائعات وقويت إلى حد أن بعض العرب ـ ومنهم مصريون ـ كانوا يتداولون هذا الأمر على أنه واقع لا يحتاج إلى مناقشة، دون أن يدري أحد من الذين أخذوا الأمر على علاته أن إسرائيل لا تستطيع، بل لا يمكنها أن تفكر في إنتاج قنبلة ذرية تقليدية، حتى لو كانت قنبلة صغيرة من هذا الجيل الأول الذي ألقي على هيروشيما ونجازاكي... ذلك أن تأثير مثل هذه القنبلة إذا ما ألقيت على إحدى الدول العربية ـ وهي دول ملاصقة لإسرائيل ـ سوف يمتد بالقطع إلى إسرائيل نفسها، بل قد يدمرها تدميرًا كاملًا، إن لم يكن بالانفجار، فبالسحابات والإشعاعات الناتجة عن التفجير!!

من هنا، كان التفكير الإسرائيلي ينصب على إنتاج «رءوس نووية محدودة التأثير»... بمعنى أنها من الممكن أن تصيب جيرانها، دون أن يمتد تأثيرها إلى داخل حدودها... هذه الرءوس، من الممكن إطلاقها من الطائرات، أو بواسطة صواريخ أرض أرض...

كان هذا هو ما شاع في القاهرة في السنوات الأولى من الستينيات، وإذا كانت المصادر التي حملت الخبر قد أكدت صحته، فلقد كان على القاهرة أن تتحرك وأن تقطع الشك باليقين... وضمن خطوات عديدة وفي اتجاهات متعددة، أرسلت القاهرة إلى رأفت الهجان سؤالًا حول الموضوع ـ في مثل هذه الأحوال لا يصبح السؤال سؤالًا مباشرًا، ولاسؤالًا واحدًا يوجه إلى فرد بعينه، بل هي مجموعة من الأسئلة

المتناسقة الموضوعة بعناية فائقة، بحيث تكوِّن الإجابات جميعًا صورة متكاملة وصادقة عن الموقف!! ـ ولقد تسلم رأفت الهجان تلك «الاحتياجات» ـ هذه هي الكلمة التي تطلق على مثل هذه الأسئلة ـ وما إن مضت أيام حتى وصل إلى القاهرة تحليل كامل ووافٍ عن الموقف في «مؤسسة الطاقة الذرية الإسرائيلية» وبخاصة المفاعل الذري في قرية «ديمونة» والمعروف باسم «مفاعل ديمونة» وكان التحليل ينفي بالأدلة كل المعلومات التي وصلت إلى القاهرة!

وهكذا أصبح السؤال هو: من الذي أطلق الشائعة؟!... وما هو الهدف من إطلاقها؟! و... ولكن هذا حديث آخر!

كان هذا في قطاع العلوم... وكان القطاع العسكري أكثر حساسية وأشد خطورة، لا من حيث المعلومات الوفيرة التي حصلت عليها القاهرة من الفتى عن الجيش الإسرائيلي، فلقد كانت هناك «احتياجات» تبدو عاجلة.

ومرة أخرى، على سبيل المثال:

في واحد من أعياد الثورة، والتي كان يخصص فيها يوم ٢٢ يوليو لمؤتمر شعبي يخطب فيه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، مقدمًا للشعب تقريرًا كاملًا عن الموقف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والصناعي والزراعي وكل نشاطات الحياة في مصر، ويوم ٢٣ يوليو للاستعراض العسكري في الصباح، وحفل نادي الضباط في المساء... في هذا اليوم: الثالث والعشرين من يوليو، ظهر في سماء مصر عند شواطئنا الشمالية سرب من الطائرات الإسرائيلية كان يقوم بجولة استطلاعية ـ كان هذا أمرًا طبيعيًّا فلقد كنا نفعل نفس الشيء بين الحين والحين ـ ولقد تصدت طائراتنا المقاتلة لهذا السرب الذي لاذ بالفرار فور تصديها له... وبدا للطيارين المصريين، وبعض المراقبين على الشاطئ أن طائرتين من هذا السرب قد اصطدمت كل منهما بالأخرى، ثم هوتا إلى مياه البحر!

لم يكن الأمر يحتمل الشك، فهناك العشرات الذين شاهدوا الطائرتين وهما تسقطان في البحر الأبيض المتوسط وتغوصان في مياهه... وهكذا أعلنت القاهرة الخبر... لكن الأمر بدا للمختصين غريبًا بل ومستحيلًا... فكيف تصطدم طائرتان مقاتلتان في الجو ثم تسقطان في البحر؟!

وعلى الفور بدأ رجال المخابرات العامة المصرية تحرياتهم بطول المنطقة التي وقع فيها الحادث وعرضها، وجاءت كل التحريات مؤكدة من شهود عيان لا يرقى الشك إلى أقوالهم أنهم شاهدوا الطائرتين بعيونهم وهما تهويان في البحر... ولكن، عندما خرجت بعض الزوارق الحربية المصرية، تحمل عددًا من أمهر الغواصين والضفادع البشرية كي تمسح المنطقة مسحًا شاملًا وحتى الأعماق، لم تكن هناك أية أجسام لطائرات سقطت في البحر!!

وبدت المعلومات متناقضة تناقضًا مريبًا! معلومات ممن شاهدوا بأعينهم تؤكد سقوط الطائرتين.

ومعلومات ممن بحثوا في المنطقة، وبأجهزة متطورة، تنفي هذا الأمر.

ولم يكن هناك مفر من سؤال رأفت الهجان... وبعد أسبوع لا يزيد، جاء منه الخبر اليقين!

قال الفتى ـ بداية ـ إن سرب الطائرات الإسرائيلية عاد إلى قواعده سالمًا دون أن يفقد طائرة واحدة... وأن ما رآه الناس يسقط في البحر لم يكن سوى خزانين إضافيين من الوقود... خزان لكل طائرة!

فما هي القصة؟!

كان من أهداف إسرائيل ـ وما زال ـ أن تحارب دائمًا بعيدًا عن أرضها... أي أن تدور الحرب داخل أراضي جيرانها من العرب... ولما كان مدى طائراتها المقاتلة في ذلك الوقت لا يكفي رحلة الذهاب إلى

مسرح العمليات فوق الأراضي العربية، ثم القيام بالمعركة، والعودة، فلقد قام علماء إسرائيل بتطوير هذه الطائرات التي لم تكن خزانات وقودها تكفي لقيامها بمهماتها، وذلك بتصميم خزان إضافي للوقود لكل طائرة، بحيث يعتمد الطيار على هذا الخزان الإضافي منذ لحظة الإقلاع وحتى الوصول إلى مسرح العمليات، وهناك... يستطيع أن يتخلص منه كي تأخذ الطائرة سرعتها وقدرتها الكاملة على المناورة معتمدة على خزانها الأصلي الذي يكفيها تمامًا لأداء المهمة، وحتى رحلة العودة إلى القاعدة!

وفي ذلك اليوم، وعندما خرجت طائراتنا لمطاردة السرب الإسرائيلي، كان الخزان الإضافي يمثل عبئًا على سرعة الطائرة حتى وهو خال، لذلك... ولأن الطيارين الإسرائيليين كانا في مهمة استطلاعية وليست مهمة قتالية، فلقد عمدا إلى التخلص من خزاني الوقود الإضافيين، حتى تأخذ طائرتاهما أقصى سرعة ممكنة... وشاهد الناس ـ على الأرض ـ الخزانين يسقطان في البحر!

... وفي تلك الأيام كانت الحرب الخفية يشتد أوارها يومًا بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة... وكان اكتساب جهاز المخابرات المصري لخبرات جديدة وتمكنه من مهمته يزيد من اشتعال هذه الحرب بطبيعة الحال، وفي كل يوم كان هناك خبر جديد كذلك الخبر الذي وصل إلى القاهرة مؤكدًا من مصادره بأن إسرائيل تجري التجارب على سلاح جديد يطلق أشعة غير مرئية، إذا ما سقطت على العين أصابتها بالعمى ودمرت خلاياها!

كان الخبر خطيرًا خاصة أن مصدره أكد صحته، كما أكد أنه شاهد بنفسه بعض المصابين بهذه الأشعة الغريبة وهم يعالجون في مستشفيات إسرائيل... وبدأت القاهرة تحرياتها على الفور، وكان رأفت الهجان هو الذي جاء بالحقيقة كاملة!

اتضح أن إدارة الأبحاث في الجيش الإسرائيلي كانت تقوم بتجارب على نوع جديد من الرادارات الأرضية التي تستطيع كشف «الأفراد» والمركبات الصغيرة، وهو رادار كانت إسرائيل تريد استعماله للكشف عن المتسللين إلى حدودها من الفدائيين الذين أحالوا الحياة فيها إلى جحيم... هذا النوع من الرادار كان يطلق فيما حوله نوعًا من أشعة الليزر التي تصيب الطاقم الذي يقوم بتشغيله ببعض الأضرار في العين، أي أنها لا تصيب الهدف البعيد... وكانت الأبحاث التي قامت على قدم وساق تدور حول كيفية حماية الطاقم الذي يقوم بتشغيل الرادار من تلك الأشعة التي يطلقها على من حوله!!

* * *

وهكذا راحت الثقة في رأفت الهجان تتزايد يومًا بعد يوم، بل وصل الأمر إلى حد أن الشك بدأ ينتاب البعض لوفرة المعلومات التي كانت تصل منه... قال عزيز الجبالي عن هذا الأمر:

«... ... ... ومن فرط المعلومات وأهميتها، دق رءوسنا جرس إنذار معروف جيدًا لكل من يعمل في ميادين المخابرات، وهو الشك في أن تكون هذه المعلومات مدسوسة بغرض التضليل!».

ومرة أخرى انطلقت التحريات في كل اتجاه تبحث عن الحقيقة حول الفتى، ليس هذا فقط، بل وجهت إلى شبكته أسئلة «اختبارية» ـ إن صح التعبير ـ لمعرفة مدى الصدق أو الدس أو... أو... وإذا بكل النتائج تأتي كي تؤكد أن رأفت الهجان قد وصل إلى مستوى أعلى بكثير مما كان متوقعًا... وهكذا، بدأ التفكير في إعطائه دورة تدريبية جديدة، ترتفع به ـ في القدرات والمسئولية ـ إلى ما يقرب من مستوى «ضابط الحالة»... دورة كان لا بد أن تطور فيها أعمال الفتى ونشاطاته تطويرًا حاسمًا، خاصة في نقطة الضعف القاتلة في كل شبكة من شبكات التجسس في العالم، وهي «وسيلة الاتصال»!

وإذا كانت الاحتياجات التي كانت ترسل إلى الفتى تأخذ واحدًا من طريقين، هما طريق الكتابة بالحبر السري، أو طريق اللقاء الشخصي... فلقد كانت هاتان الوسيلتان شديدتي البطء في وقت اشتدت فيه الحاجة إلى الحصول على المعلومات بأسرع ما يمكن... فوق أن وسيلة الخطابات المكتوبة بالحبر السري، والتي كانت ترسل إليه في النادر، كانت قد أصبحت شديدة الخطر بعد أن اكتشف العلماء في مصر وإسرائيل ـ في نفس الوقت تقريبًا ـ جهازًا حساسًا، يكفي أن تمر من تحت عدسته، فوق سير جلدي متحرك، كل الخطابات الواردة من الخارج... فإذا ما كان أحد هذه الخطابات يحوي موادا غير عضوية ـ وهي المواد المكونة لأغلب الأحبار السرية ـ أعطى هذا الجهاز إنذارًا على الفور!

كان هناك عامل الزمن إذن، كما كانت هناك ضرورة الكف عن إرسال خطابات مكتوبة بالحبر السري لحين اكتشاف حبر يعجز هذا الجهاز الحديث عن اكتشافه!

ولقد كان التدريب على رموز اللاسلكي ـ وهي المعروفة دوليًا باسم إشارات «مورس» ـ واحدة من أمنيات عزيز الجبالي المبكرة... كانت تراود خياله تلك العلاقة المباشرة بينه وبين الفتى بواسطة اللاسلكي حيث يستطيعان أن يتبادلا الحديث والمعلومات إرسالًا واستقبالًا كل يوم إن أرادا... لكنها أيضًا كانت واحدة من أعوص المشاكل التي واجهت هذا الضابط الشاب، ليس فقط لأنها شيء جديد تمامًا كان على الفتى أن يتدرب عليه، ولكن لأن رموز اللاسلكي كانت تحتاج إلى شهور كي يتقنها المرء إرسالًا واستقبالًا... وهكذا، لم يكن أمام عزيز الجبالي سوى أن يحمل أحلامه تلك إلى خبير الاتصالات الدولية: «خالد عز العرب».

* * *

كان خالد عز العرب عالمًا حتى أطراف أصابعه، حقق على مدى سنوات قليلة في وسائل الاتصالات اللاسلكية ـ مع مجموعته المنتقاة من العلماء الشبان ـ إنجازات تبعث على الدهشة والإعجاب الشديدين... كان نحيلًا، متوسط الطول، عصبي المزاج، لا تغادر السيجارة شفتيه، يبدو في سيره وكأنه يبحث عن شيء بين قدميه، فهو دائمًا مطرق، تائه النظرات، سريع الكلمات حتى ليضطر من يستمع إليه إلى التركيز الشديد فيما يقوله حتى لا تفوته كلمة من كلمات الرجل التي تخرج من بين شفتيه سريعة متلاحقة بل ومتزاحمة... وعندما عرض عليه عزيز فكرة تدريب الفتى على الاستقبال والإرسال اللاسلكي، سأله خالد في ضيق لا مبرر له:

«إنت تعرف حاجة عن اللاسلكي يا أخينا؟!».

«أعرف مبادئ».

«طب مش تسأل قبل ما تاخد القرار؟!».

وسأل عزيز.

كانا يجلسان في إحدى غرف شقة في عمارة في وسط المدينة، على باب الشقة وضعت لافتة كتب عليها: «الشركة العالمية للتليفزيون والراديو». كان التليفزيون في ذلك الوقت لا يزال حديث عهد في مصر، وكان باب هذه الشركة مفتوحًا على الدوام، تواجه الداخل إليه مائدة طويلة رصت عليها أجهزة تليفزيون بعضها في انتظار الإصلاح والبعض يعمل بلا توقف وقد تم إصلاحه، خلف المائدة غرفة عكف فيها عدد لا بأس به من المهندسين والفنيين على أجهزة راديو وتليفزيون في محاولة لإصلاح ما بها من عطب... ولأن الشقة كانت في عمارة من تلك العمارات القاهرية القديمة، فلقد كان عمقها يفضي إليه باب زجاجي مغلق، لا أحد يعرف ما الذي وراءه، في إحدى تلك الغرف خلف

الباب الزجاجي وقف خالد عز العرب أمام عزيز الجبالي وسيجارته ترسل دخانها بين شفتيه بلا توقف، ومن حولهما تناثرت مجموعة هائلة من الأجهزة الغريبة والمعقدة وقطع الغيار والمعدات... في الغرف المجاورة ـ خلف الباب الزجاجي أيضًا ـ كانت هناك تلك المجموعة الفذة من العلماء الشبان الذين تخصصوا في وسائل الاتصال، التي كانت باكتشاف الترانزستور تتطور باطراد... ساد الصمت ـ وقد انتهى عزيز من السؤال ـ لثوان حتى قال خالد:

«إنت عاوز تعلمه إرسال واستقبال؟!».

«طبعًا».

«ليه... إنت مستغني عنه؟!».

«مش فاهم!».

«لأنك لو خليته يبعت لك باللاسلكي من هناك ممكن ينكشف».

«والحل؟».

«نقسم البلد نصين».

«إزاي؟!».

وهكذا راح الرجل يشرح وجهة نظره. فلو أن الفتى استقبل الاحتياجات المرسلة إليه بطريق اللاسلكي، فلن يحتاج هناك إلا إلى جهاز راديو عادي جدًّا ولكنه يتميز بالحساسية، ثم إنه سوف يتسلم الرسائل في نفس اللحظة التي ترسل إليه فيها، وبذلك ينتفي الخطر من حوله تمامًا حتى لو ضبطت موجة اللاسلكي وحلت الشفرة... ذلك أن موجات اللاسلكي تبث إلى كل مكان في العالم بما فيه إسرائيل، وبذلك يصبح الكشف عمن يستقبل هذه الإشارات أو الرسائل أمرًا مستحيلًا... وعلى الوجه الآخر، يستطيع الفتى أن يرسل معلوماته بالحبر السري الذي كان يتطور يومًا بعد يوم دون خوف عليه، فحتى لو ضبط الخطاب

المرسل منه، فكيف يصلون إلى من أرسل هذا الخطاب وسط الملايين الذين يعيشون في إسرائيل؟!

ولقد اقتنع عزيز بالفكرة تمامًا، خاصة وأنه كان قد نما إلى علمه أن فريق العلماء المصريين توصلوا إلى حبر سري من الممكن أن يشبع به منديل أو قطعة ملابس، بحيث يبدو القماش طبيعيًّا تمامًا، فلا رائحة ولا لون ولا أثر يدل عليه، فإذا ما وضع المنديل أو قطعة الملابس في مياه عادية، وبمعاملات بسيطة، تحولت المياه إلى حبر سري من الصعب اكتشافه!

لكن خالد عز العرب عاد يسأل بعصبيته الطبيعية:

«بس برضه، إذا كنت عاوز تعلمه «المورس» تبقى عاوز وقت طويل».

«مفيش وقت يا خالد».

«تبقى تعلمه رموز الأرقام وبس».

«من صفر لتسعة؟!».

«عشرة على عشرة!».

«ودي تاخد قد إيه في التدريب؟!».

«أسبوع بالكتير».

«وبعدين؟».

«تروح لسعيد مظهر وتطلب منه شفرة... إنت تبعت له الرسالة... ومهما كان حجمها، بالأرقام، وهو هناك يحول الأرقام لكلمات، ويا دار ما دخلك شر».

وهكذا غادر عزيز الجبالي ذلك العالِم «خالد عز العرب» إلى عالِم آخر هو «سعيد مظهر»... غير أنه كان قد أسرّ في نفسه أمرًا: هو أن يحارب

باذلًا أقصى ما لديه من جهد، حتى يدفع خالد إلى السفر كي يدرب الفتى بنفسه على استقبال الإشارات اللاسلكية!

كان عزيز يعرف ما هي الشفرة الرقمية بطبيعة الحال قبل أن يلتقي بسعيد مظهر، فهي شفرة تعتمد على وجود كتاب معين مع كل من المرسل والمستقبل، نفس الكتاب بنفس الطبعة... فإذا ما وصلت الرسالة إلى الفتى ـ مثلًا ـ فلسوف تصل إليه عبارة عن مجموعات متتالية من الأرقام المرتبة ترتيبًا رياضيًّا، ولكنه ـ حسب جدول معين ـ يستطيع ببعض العمليات الحسابية أن يخرج الكلمات أو الحروف المقابلة للرقم المرسل من إحدى صفحات هذا الكتاب بالذات... وبذلك، يصبح من المستحيل حل الشفرة، إلا بوجود الكتاب!

وعلى النقيض من خالد عز العرب كان سعيد مظهر ـ عبقري الشفرة المصري ـ من ذلك النوع الهادئ الساهم... كان يحتل مع مجموعة من معاونيه عددًا من الغرف التي يخيم عليها السكون والهدوء لدرجة تبعث على الرهبة إلى نفس الغرباء... ما إن طرح عزيز طلبه على سعيد، حتى قال هذا في صوت خافت:

«أنا عندي لك شفرة كويسة جدًّا!».

ثم راح على الفور يشرح سر الشفرة الجديدة لعزيز الجبالي الذي غادر الرجل بعد ساعة واحدة راضيًا كل الرضا!!

* * *

كان على عزيز الجبالي ـ قبل أن يعود إلى مكتبه ـ أن يشتري نسخة من كتاب، أي كتاب، هو الذي سوف يستعمل في حل الشفرة الرقمية التي اتفق مع سعيد مظهر عليها... لكنه، منذ أن غادر ذلك العالِم الفذ، لم يستطع إلا أن يتذكر ذلك الذي حدث في لندن، قبل نشوب الحرب العالمية الثانية... فراح، وهو يضرب في شوارع القاهرة، يتذكر القصة.

ذات يوم، في أوائل ١٩٣٩، دخل الملحق العسكري الألماني في إنجلترا إلى إحدى مكتبات لندن، وراح ينتقي إحدى القصص الإنجليزية الحديثة.. كان الرجل «زبونًا» في هذه المكتبة تعود على ارتيادها بين الحين والحين، ومن ثم، فلقد كان معروفًا لصاحب المكتبة الذي رحب به... وانتقى الرجل قصة عادية تمامًا، دفع ثمنها، وانصرف!

كان الأمر طبيعيًا للغاية، ولم يلفت نظر صاحب المكتبة، ولكن... بعد بضعة أيام، دخلت إلى نفس المكتبة زوجة الملحق العسكري الألماني، فرحب بها صاحب المكتبة ترحيبه بزبون دائم ومحترم، وراحت السيدة تبحث عن كتاب، وجاءت المصادفة التي بعثت الشك في نفس الرجل، عندما اختارت زوجة الملحق العسكري الألماني نفس القصة التي اشتراها زوجها منذ بضعة أيام... دفعت السيدة ثمن الكتاب وانصرفت، لكنها تركت الشك معلقًا في صدر الرجل الذي راح يتساءل عن السر في أن يشتري الملحق العسكري الألماني نسختين من كتاب واحد... وأخيرًا، وعندما لم يجد الرجل إجابة شافية، لم يجد مناصًا من التبليغ عن الأمر!

وكان هذا التبليغ بالذات هو الذي كشف الشفرة المستعملة بين السفارة الألمانية في لندن وقاعدتها في برلين... وأصبحت كل الرسائل السرية بين ألمانيا وسفارتها في بريطانيا مكشوفة تمامًا أمام الإنجليز!

وبالرغم من أن عزيز الجبالي لم يكن في دولة أجنبية، فإن حرصه البالغ دفعه إلى اتخاذ الحيطة الكاملة، ليس في انتقاء الكتاب فقط، بل في شراء النسخة الثانية منه... ...

بداية، كان لا بد للكتاب، الذي سيوضع في بيت الفتى، أن يكون في دائرة اهتمام شخصية مثل شخصية ديڤيد شارل سمحون، بمعنى... أن يكون موضوع الكتاب من تلك الموضوعات التي تستهوي شخصًا مثله... وعندما دخل عزيز الجبالي إحدى المكتبات في وسط القاهرة،

راح يطالع عناوين الكتب الإنجليزية والأمريكية فيها، كان هناك شرط أساسي لاختيار الكتاب، وهو ألا يكون هناك على غلافه أو إحدى صفحاته الداخلية أية إشارة إلى المكتبة التي ابتاع منها الكتاب... ولقد وجد الرجل ضالته في ركن يحوي بعض الكتب التي وصلت حديثًا... وسطها وجد كتابًا في علم النفس عنوانه: «كيف تسيطر على المرأة» فلم يتردد في شراء نسخة واحدة، دفع ثمنها وانصرف!

كانت تكفيه تلك النسخة الخالية من أية إشارة إلى المكتبة كي يرسلها إلى الفتى... ثم انتظر أيامًا، وطلب إلى أحد أصدقائه ـ كان صاحب مكتب استشاري قريب من المكتبة، وفي نفس الوقت كان جارًا له ـ أن يشتري له نسخة من الكتاب... ولقد ضحك صديقه من الأعماق عندما عرف عنوان الكتاب، وتبادلا النكات والقفشات حول الموضوع، لكن الصديق في النهاية جاءه بتلك النسخة الأخرى!

والآن لم يعد أمام عزيز الجبالي سوى الجلوس إلى نديم هاشم لوضع خطة لتدريب الفتى على المستوى الجديد والمنشود ـ الشديد القرب من ضابط الحالة ـ ولقد كان في ذهني عزيز ونديم بطبيعة الحال أن رأفت الهجان يعيش في معزل عن قاعدته، فكان لا بد له من القدرة على الحركة والتصرف دون الرجوع إليها إذا استلزم الأمر، كان لا بد لرأفت من التدريب ـ مثلًا ـ على دفع رَجُليه دان رابينوفيتش وإيزاك بن عميتاي ـ ودون أن يطلب إليهما ذلك بشكل مباشر ـ إلى البحث عن أفراد آخرين لتجنيدهم بحيث يكوِّن كل واحد منهما شبكة خاصة به... ذلك أن كليهما كان ضابطًا كبيرًا يستطيع إمدادنا بما نحتاج إليه من قضايا رئيسية، لكننا كنا ـ أيضًا ـ في حاجة إلى تفاصيل أكثر من داخل وحدات الجيش الإسرائيلي ومعسكراته، تفاصيل تحتاج إلى ضابط صغير يعيش وسط الجنود وفي قلب القاعدة، وحيث تبدو التفاصيل المتداولة شديدة الأهمية!

وهكذا بدأت سلسلة من الاجتماعات لوضع تلك الخطة المتكاملة، لإنهاء تدريب الفتى على كل هذا في مدة يجب ألا تتجاوز الأيام العشرة بحال من الأحوال!

ضم الاجتماع الأول: «شريف والي» رئيس هيئة الخدمة السرية، ونديم هاشم، وخالد عز العرب... وبالطبع عزيز الجبالي.

كانت النقطة الأولى التي طرحت للبحث هي أين يتم التدريب؟!!

إن اختيار المكان له شروط أساسية منها: ألا يكون موضع شك، وأن يكون بعيدًا عن العمران حتى يسهل كشف أية مراقبة، وأن يكون ـ وهذا مهم للغاية ـ صالحًا للإقامة دون مغادرة لفترة تمتد إلى تلك الأيام العشرة التي قدر إنهاء المهمة خلالها، ودون أن تثير هذه الإقامة الدائمة أي نوع من التساؤل أو الشكوك!

كان طبيعيًا أن يفكر الرجال في القرى النابتة على سفوح جبال سويسرا، حيث لا يهتم أحد بأحد، وحيث يعيش الناس في عزلة بعضهم عن بعض... كان طبيعيًا أن يفكروا في التيرول أو الريفييرا الفرنسية أو الإيطالية، ولم يكن هذا كله يهم خالد عز العرب ـ الذي قبل المهمة بعد حوار دام لساعات، فلقد كان يرى أن عمله الرئيسي وسط أجهزته ومعاونيه وفي معمله ـ في شيء... قال إن وسائل التأمين شاغلهم وهذا حقهم، لكن شاغله الوحيد الآن هو صلاحية المكان للاستقبال اللاسلكي!

«إذا كنتوا حاتبعتوا رسائلكم لإسرائيل يبقى لازم نختار مكان تكون طبيعته قريبة منها!».

«يعني إيه؟!».

هكذا سأله شريف والي، فرد عليه قائلًا: «لازم نختار مكان تكون زاوية ميل الجبال فيه قريبة من زاوية ميل الجبال في إسرائيل»!

تبادل الواقفون النظرات فلقد كان الأمر يحتاج إلى معرفة واضحة بجغرافية المكان المختار، ولقد أراد خالد عز العرب أن يوضح وجهة نظره فأضاف:

«إذا كنا حاندرب الجدع ده على الاستقبال يبقى لازم يعمل كام تجربة قدامي، ويستقبل من هناك كذا رسالة، ويحلها قبل ما يرجع إسرائيل».

كان كلامه منطقيًّا فلم يعقب أحد، وأردف هو بعد لحظات:

«ثم إني عاوز أتأكد إن الإشارات حاتوصل له بوضوح، وإن الاستقبال حايبقي طبيعي».

قبل أن يعود الحديث إلى مجراه امتدت يد عزيز إلى الخريطة التي كانت تتوسطهم، وضع إصبعه فوق جزيرة قبرص، ثم دق عليها منبهًا فصاح نديم هاشم:

«قبرص يا عزيز؟!».

«ده رأيي».

«قبرص مليانة سواح إسرائيليين خصوصًا في الأيام دي!».

«ده صحيح، بس فيها حاجتين مهمين قوي».

«إيه هم؟!».

«الحاجة الأولانية إن جبالها غالبًا حاتكون زاوية الميل فيها قريبة جدًّا من زاوية الميل في جبال إسرائيل».

صاح نديم محتجًّا:

«طب ما عندنا التيرول وجبالها لها نفس زاوية الميل»!

ابتسم عزيز ابتسامة لم يغب معناها عن نديم:

«بس التيرول فيها سواح على مستوى».

«ودي فيها إيه؟!».

«فيها إن السيطرة في التيرول على رأفت حاتبقى صعب شوية».

زام نديم مغمغمًا وقد اتضح له ما يرمي إليه عزيز الذي أردف مؤكدًا وجهة نظره:

«حاتقدر تسيطر إزاي على واحد زيه وحواليه أجمل بنات في الدنيا؟!».

«وهي قبرص ما فيهاش بنات؟!».

«فيها... إنما كمان فيها سواح يهود على مدار السنة... وبالشكل ده رأفت حايخاف يظهر هناك ويضطر يقعد معاك في البيت الآمن لحد ما يخلص تدريب!».

وكانت هذه هي النقطة الثانية، والفاصلة، التي أثارها عزيز الجبالي... والتي رأى فيها أهمية يجب عدم التغاضي عنها... وعلى كل، فلقد ابتسم نديم مقتنعًا، وقال شريف والي وقد وصلت المناقشة إلى شاطئ واضح:

«على بركة الله».

* * *

بينما كانت الاستعدادات في القاهرة تجري على قدم وساق تمهيدًا لتلك المرحلة التي ستنقل الفتى إلى مستوى يستطيع فيه أن يخدم وطنه بطاقات مثالية... كان رأفت الهجان، في إسرائيل، يعيش أيامًا من أحلى أيام عمره!

في ذلك الوقت كان الفتى منهمكًا أشد ما يكون الانهماك في وضع اللمسات الأخيرة في ذلك البناء الذي أوشك على الاكتمال بشبكتيه العسكرية والمدنية، وإلى جانب هذا النشاط الذي اجتاح شركته ـ بعد

أن وصلت سمعة خدماتها المثالية إلى مساحة واسعة من المجتمع الإسرائيلي ـ كانت هناك تلك السمعة التي اكتسبتها الشركة مع مثيلاتها في اليونان وقبرص وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا، وعبرت المحيط إلى بعض الفنادق والشركات السياحية في الولايات المتحدة الأمريكية.

كان عدد الموظفين في الشركة قد تضاعف وإن احتفظت «يهوديت موردخاي» سكرتيرته بمكانتها القريبة منه، بعد أن عرفت حدودها واكتفت من حب الفتى بما كانت تناله منه من فتات يصيبها بين الحين والحين!!

حتى كانت ليلة!

كانت يهوديت تعرض عليه بعض الخطابات والبرقيات ولكن ملامحها أنبأته بثورة وشيكة من تلك الحسناء التي حاولت ـ عبثًا ـ أن تحتل في حياته مكانة إستر بلينسكي... تعلم من تجربته الأخيرة ألا يترك الحبل على الغارب لتلك العلاقات العاطفية التي قد تكلفه الكثير، تصنع التجهم والضيق وراح يلقي ببعض الملاحظات الجافة حتى يسد أمامها الطريق إلى الاحتجاج أو إعلان الغيرة... دق جرس التليفون بجواره فرفع السماعة وما إن جاءه صوت سيرينا أهاروني حتى تهلل صائحًا:

«مرحى أيتها الحبيبة!».

لم تكن يهوديت بالطبع تعلم من تلك الحبيبة التي تهلل رئيسها لسماع صوتها، وقبل أن تسترسل سيرينا في الحديث استمهلها الفتى لثوان ثم أخذ يلقي إلى سكرتيرته ببعض التعليمات التي كانت تطلب إليها ـ دون تصريح ـ مغادرة الغرفة... شحب وجه الفتاة شحوبًا مزق قلبه حقًا ولكنه كان يدرك أن هذا هو السبيل الوحيد، غادرت الفتاة الغرفة وأغلقت الباب فعاد إلى التليفون:

«سيرينا، كيف أنت أيتها العزيزة!».

جاءه صوتها منفعلًا وكانت تتحدث بالعبرية:

«ديفيد... هل أنت مشغول الليلة؟!».

كان الفتى يعلم أنها تعمد إلى الحديث بالعبرية إذا ما كان هناك ما يقلقها ويشغل بالها، ورغم هذا فلقد ضحك لسؤالها لأنه كان على موعد لقضاء السهرة عندها في نفس الليلة، لذلك فلقد تساءل:

«أترين تأجيل الموعد أو إلغاءه؟!».

«بل أريدك أن تحضر مبكرًا، وقبل أن يأتي الآخرون!».

عرف أنها تتحدث من الهستدروت فلقد كان صوتها خافتًا وكأنها تتحدث إليه بسر... أدرك أن في الأمر شيئًا فاستجاب:

«متى تريدين مني الحضور؟».

«الآن إن استطعت، فلسوف أغادر الهستدروت إلى البيت فورًا».

عبثًا حاول الفتى أن يخمن وهو في طريقه إلى بيت سيرينا أهاروني سر ذلك الاستدعاء الغامض، انتابه القلق وأخذ يعصف به طوال الطريق لسبب غير مفهوم... عرج ـ وهو في طريقه إلى بيت سيرينا ـ إلى تلك البقعة من الشاطئ التي تعود كلما ألمَّ به القلق أن يلجأ إليها... توقف بالسيارة وراح يرقب البحر الغارق أمامه في الظلام، تمنى في لحظة لو أقله قارب سحري عبر المتوسط إلى الإسكندرية... راح يتساءل: إلى متى سيعيش تلك الحياة وذلك القلق الدائم ليل نهار؟!... هو موقن من أن سيرينا تحبه حبًا عظيمًا وتخاف عليه أكثر من أي إنسان آخر في هذا الكون، يعلم أنها ـ كما قالت له ذات ليلة ـ تعتبره كل عائلتها بعد أن فقدت الجميع... للمرة العاشرة ـ ربما ـ راح يتساءل عن سر هذا الانفعال وسر رغبتها في الانفراد به!... هل أبلغ دان أو إيزاك عنه فبلغها الخبر وأرادت أن تحذره قبل أن يطبقوا عليه؟!... أحس برغبة عارمة في الموت فما

قيمة حياة كتلك التي يحياها فوق أتون من الشك تحرقه ألسنة لهب ليل نهار؟!... عاد إلى السيارة ثقيل الخطى فلم يكن هناك مفر من الذهاب ولم يكن هناك وقت للتأمل ولا بد له أن يراها قبل وصول الآخرين... عندما وصل إلى بيتها كانت في انتظاره عند الباب وقد استبد بها القلق.

«ديڤيد، لمَ تأخرت؟!».

«ماذا هنالك يا سيرينا؟!».

بدت مضطربة مغيظة وهي تأخذه إلى ركن في البيت متحدثة إليه بالعربية:

«قبضوا النهارده على جاسوس بيشتغل لحساب مصر!».

انقبض قلبه وهو يحملق في تلك السيدة التي اشتعل مع الاضطراب جمالها الدفين فبدت له وكأنها نجمة من نجوم السينما الأمريكية أو الفرنسية... راودته الظنون وهو لا يدري لم خطر بباله أن سيرينا أهاروني تعمل هي الأخرى لحساب مصر!... قال متحسسًا طريقه إليها:

«ودي فيها إيه يا سيرينا؟!».

«فيها إنهم دلوقت مصابين بحمى اسمها جواسيس مصر!».

«علشان قبضوا على الراجل ده؟!».

«مش بس!».

«فيه إيه تاني؟!».

«جاسوس ضحك عليهم وهرب منهم!».

عاد الشك يعربد في صدر الفتى ممزقًا ذلك الإحساس القشري بالأمن الذي استشعره طوال الشهور التي مضت:

«سيرينا، ممكن تهدي شوية وتفهميني إيه اللي حصل بالضبط؟!».

وراحت سيرينا تحكي له القصة التي سمعتها من واحد من كبار المشتغلين بالسياسة منذ ساعات قليلة، هو واحد من «السفارديم» ـ يهود الشرق ـ الذي كان يحكي لها والقلق والغضب يعصفان به... انتقلت من الحديث بالعربية إلى الحديث بالفرنسية وكانت تعرف أن الفتى يتقنها، قالت:

«أنت تعلم أنهم ـ منذ فترة ـ يشكون في وجود شبكة تجسس تعمل لحساب المصريين في تل أبيب... وأن هناك معلومات مؤكدة تشير إلى أن هذه الشبكة قد توصلت إلى الكثير من أسرارنا، ولقد بلغ بهم الأمر أنهم راحوا يراقبون بعض الوزراء ومستشاري رئيس الوزراء، حتى إذا أعيتهم الحيلة، هداهم تفكيرهم إلى أن ينصبوا فخًّا يوقعون به واحدًا من أفراد تلك الشبكة التي يؤرقهم نشاطها... فإذا ما قبضوا على واحد منهم يصبح الأمر ـ كما تعلم ـ بعد ذلك هينًا!!».

«نحن نظن أن هذه كانت البداية التي قادت الموساد إلى القبض على الجاسوس الإسرائيلي الخطير «دكتور إسرائيل بيير» الذي يشغل مناصب مهمة في جهاز الحكم الإسرائيلي، منها ـ وربما كان أقلها شأنًا ـ أنه كان مستشارًا شخصيًا لرئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت «ديفيد بن جوريون»... والذي قبض عليه بعد شهور قليلة من ذلك الحديث الذي تم بين سيرينا أهاروني ورأفت الهجان، وكان هذا في أوائل عام ١٩٦١... ولقد قيل إن الدكتور «إسرائيل بيير» كان يعمل لحساب المخابرات السوفييتية ـ جاء هذا في كتاب «الموساد» الذي أصدره الكُتَّاب الإسرائيليون الثلاثة «دينيس إيزنبرج، وإيلي لاند، وأوري دان» ـ بينما هناك قول آخر بأنه كان يعمل «بشكل ما» مع المخابرات المصرية!!».

على كل... فلقد كانت السيدة أهاروني على حق تمامًا فيما قالته

للفتى، فلقد دس الإسرائيليون ـ بالفعل ـ على المصريين خبرًا ملفقًا يقول إن «بحثًا» اقتصاديًا على جانب كبير من الأهمية، ويتناول أدق شئون الاقتصاد الإسرائيلي بما في ذلك الميزانية العسكرية يباع في إحدى مكتبات تل أبيب، ثم دسوا ـ مع الخبر ـ اسم المكتبة وعنوانها!

لم تكن هذه المكتبة عادية لبيع وشراء الكتب أو البحوث، بل كان قسمًا يتبع إحدى الوزارات الإسرائيلية، وكان الموظفون الذين يعملون في هذا القسم بالذات هم في حقيقة أمرهم من رجال «الموساد»... وعلى ذلك، فلقد كان يكفي أن يذهب أحد إلى هذا القسم طالبًا ذلك البحث أو الكتاب بالذات ـ الذي لم يكن مطروحًا للبيع أو التداول وليس معروفًا للناس ـ حتى يضعوا أيديهم على أحد أفراد الشبكة التي حيرهم أمرها كثيرًا... وبعد هذا يصبح الأمر سهلًا، ويقع أعضاء هذا التنظيم السري في الفخ المضروب!

قال رأفت الهجان فيما بعد: إنه كان يستمع إلى سيرينا وقلبه يخفق في عنف وسرعة جعلا قدرته على التركيز والاستماع ومتابعة الحديث نوعًا من العذاب، خاصة أن السيدة أهاروني راحت تنتقل في حديثها ـ شأنها شأن اليهود المصريين ـ من الفرنسية إلى العربية مما كان يفضح اضطرابًا وقلقًا بالغًا!

ولقد حدث منذ أسابيع ـ هكذا واصلت سيرينا حديثها ـ أن وصل إلى إسرائيل سائح إيطالي الجنسية يدعى «ألبرتو بولدوني»... وفي اليوم التالي لوصوله إلى تل أبيب توجه السيد «بولدوني» ـ الذي كان يشغل وظيفة باحث في إحدى الشركات الإيطالية الكبرى ـ إلى تلك المكتبة المزعومة طالبًا شراء هذا «البحث»... ولم يتنبه الرجل إلى النظرات التي أحاطته ـ فور طلبه ذاك ـ من كل جانب... وعلى كلٍ، فلقد قدموا له الكتاب وقبضوا ثمنه، وعاد المسكين إلى فندقه مطمئنًا تمامًا، أودع الكتاب في حقيبته، ثم قضى بقية أيامه في إسرائيل في سياحة حقيقية،

لم يتصل بأحد، ولم يتصل به أحد... وهو لا يدري أن كل خطوة من خطواته كانت مراقبة بدقة، وأن غرفته فتشت بعناية ولأكثر من مرة... ثم، وعندما حان موعد عودته إلى بلاده ألقوا القبض عليه وهو في طريقه إلى المطار!!

توقفت سيرينا عن الحديث لاهثة الأنفاس فسألها الفتى:

«وهل اعترف هذا الرجل بشيء؟!».

«الكارثة أنه لم يعترف بشيء على الإطلاق!!».

كان هذا ما يعني الفتى حقًّا، لكنه عاد إلى التساؤل:

«وكيف فسر شراءه لهذا الكتاب؟!».

«قال إن صديقًا أمريكيًا يقيم في روما أعطاه اسم المكتبة وعنوانها، وطلب إليه شراءه!».

«وهل تحروا عن هذا الصديق الأمريكي؟».

«لم يجدوا له أثرًا لا في روما، ولا في إيطاليا كلها!».

«وما الذي قاله الرجل؟!».

«أصر على موقفه، وأنه لا يعرف شيئًا سوى ما أخبرهم به!».

«ربما كان الأمر كذلك بالفعل!».

«لولا ما حدث بعد ثلاثة أسابيع من تاريخ القبض عليه!».

وكان الذي حدث مثيرًا بكل المعاني... فبعد مرور تلك الأسابيع التي تكتموا فيها خبر القبض على السيد «ألبرتو بولدوني» دخل إلى نفس المكتبة رجل آخر يطلب نفس البحث... ولقد ارتبك الموظف الذي استقبله فلم يكن مستعدًّا لمثل هذا الطلب بعد القبض على السيد الإيطالي... فما كان منه إلا أن اعتذر للرجل لأن الكتاب غير متوافر الآن في المكتبة، وطلب إليه أن يمر عليه في اليوم التالي... فدفع الرجل ثمن

الكتاب حرصا منه على حيازة نسخة، وتسلم إيصالا بالمبلغ، ثم قال للموظف إنه ربما سيكون مشغولًا في اليوم التالي، ولذا فلسوف يرسل صديقًا يحمل الإيصال كي يتسلم البحث بدلًا منه!

وكان هذا ما حدث بالفعل.

ففي اليوم التالي جاء الصديق ـ الذي رأت فيه الموساد صيدًا جديدًا ـ والذي كان مواطنًا إسرائيليًا يعمل موظفًا بالميناء قدم الإيصال وتسلم الكتاب كما تسلمه رجال الموساد بالمراقبة وهم يمنون أنفسهم بإيقاع الشبكة بين يوم وآخر... فها هو مواطن إسرائيلي يتعاون مع تلك الشبكة الخطيرة!

ولأيام طالت راحوا يراقبون ذلك الرجل المسكين في كل لحظة من لحظات حياته، في عمله وبيته، في ليله ونهاره، دون أن يظهر عليه ما يريب... وفي النهاية، وعندما ألقوا القبض عليه اكتشفوا أنه ضحية خدعة ـ أو هكذا ادعى ـ من بحار كان يعمل على إحدى السفن التي كانت راسية في الميناء.

قال موظف الميناء الإسرائيلي إن هذا البحار كان صديقًا له، وإنه طلب إليه أن يتسلم البحث بدلًا منه لأنه كان مشغولًا بالعمل فوق سطح السفينة التي كانت ستبحر في نفس اليوم، وعندما اشترى الموظف المسكين ذلك البحث وذهب إلى عمله، جاءه البحار وكان يحمل في يده ملفًا به بعض الأوراق التي تحتاج منه إلى توقيع لإتمام عدد من الإجراءات الروتينية، ولقد أنهى البحار عمله، وتسلم البحث شاكرًا صديقه الإسرائيلي على حسن صنيعه، ثم ـ هكذا تذكر الموظف الذي كان يرتجف من الرعب ـ وضع الكتاب داخل ملف الأوراق وعاد به إلى السفينة دون أن يتنبه أحد إلى الملف البريء المظهر، وقد أضيف إليه البحث المنشود!

صمتت سيرينا أهاروني وكانت لا تزال تلهث، كما لاذ الفتى هو

الآخر بالصمت وكانت أفكاره تصطخب في ذهنه كبحر هائج ثائر مربد الموج... راحت تتحدث مع رأفت الهجان قائلة إن هروب هذا البحار - إن كان هناك بحار بالفعل - وبهذه الطريقة، قد أصابهم بالجنون... وإن تلك الجرأة التي دفعت المصريين إلى معاودة الكرة بعد القبض على السيد الإيطالي «ألبرتو بولدوني» أكدت لهم أن في إسرائيل عيونًا مصرية تعرف كيف تتصرف... قالت إنهم غير مقتنعين بأن ذلك الموظف المسكين ليس عضوًا في الشبكة... بل إن بعضهم يقول إنهم كانوا يشكون فيه منذ فترة ليست قصيرة، وإنهم كانوا سيقبضون عليه لولا حرصه الشديد!

«ربما كان كذلك يا سيرينا!».

هكذا قال الفتى في محاولة لتهدئة أعصاب تلك السيدة الثائرة، فجاءته صيحتها كي تضيء النور باهرًا ليغمر الحقيقة التي أفزعته:

«وربما كان للأمر وجه آخر يا ديڤيد!».

هتف رأفت مستوضحًا:

«هل هذا الموظف من السفارديم؟!».

«هأنتذا قد توصلت إلى لب الحقيقة».

قالت سيرينا هذا فهبط عليهما صمت شديد الثقل، أشعلت هي سيجارة ثم نهضت زافرة كي تعد كأسين من الشراب حملتهما إليه وهي تقول:

«الحقيقة الآن أنهم يريدون إلقاء تبعة فشلهم على السفارديم، حتى ولو اتهموهم بالتجسس!».

هم الفتى بالحديث فلاحقته مؤكدة:

«إن ما وصلني من معلومات يقول إنهم يضعون السفارديم تحت

المراقبة على أمل ضبط تلك الشبكة، بل إنهم ـ وهذا ما لا شك فيه ـ مهتمون بشكل خاص بكل النازحين إلى هنا من مصر!!».

* * *

كانت مشكلة السفارديم (يهود الشرق) والإشكيناز (يهود الغرب) ولا تزال من تلك المشاكل المستعصية داخل إسرائيل... فكل من له عينان داخل المجتمع الإسرائيلي يعرف هذه التفرقة بين يهود الشرق ويهود الغرب معرفة ليست في حاجة إلى دليل... كان يهود الغرب ـ وما زالوا حتى اليوم ـ يحتلون كل المناصب المهمة في الدولة، وكانت هذه المناصب حكرًا على الإشكيناز دون السفارديم الذين يشعرون بأنهم يعامَلون معاملة الزنوج في الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية الأمريكية... وكم من قصص تحكى عن كفاءات لا تعطى الفرصة رغم قدراتها لاحتلال مكانها في المجتمع، لا لشيء إلا لأن أصحابها من السفارديم... بين الحين والآخر كانت المشكلة تثور وتصعد إلى سطح المجتمع فتكاد تثير انقسامًا خطيرًا، لولا ما يلجأ إليه الإشكيناز من دق طبول الخوف من الخطر الداهم المتمثل في العرب المتوحشين الساعين إلى تدمير الوطن الموعود... ولقد كان كل هذا محتملًا... أما أن يأتي ذلك اليوم الذي يلصق فيه الإشكيناز تهمة الخيانة العظمى بالسفارديم، كي يحموا ذلك الانحلال الذي ينخر في المجتمع وفي بنية الدولة الموعودة، فهذا ما لا يمكن احتماله!

قالت سيرينا أهاروني إنها استدعت الفتى حتى ينتبه إلى ما يمكن أن تفعله تلك العصابة الحاكمة التي تضرب الآن في كل اتجاه يوجد فيه يهودي شرقي، وإذا كان موظف الميناء المسكين من «السفارديم»، فإن بحثهم الآن يتركز حول النازحين من مصر بالذات، فعليه أن يأخذ حذره!

* * *

ما إن وصلت سيرينا في حديثها العصبي إلى هذا الحد حتى دق جرس الباب معلنًا وصول أول ضيوف ذلك المساء القاتم... ولقد قال الفتى إن تلك كانت ليلة من الليالي الكئيبة التي مرت ببيت تلك السيدة التي وصلت عصبيتها إلى الذروة مع وجود ضيوف من الإشكيناز وآخرين من السفارديم... وإن الحوار بين الجميع ـ رغم محاولاتهم كي يبدو الأمر طبيعيًا ـ كانت تظلله تلك الشكوك بل، ذلك العداء الكامن في الصدور!!

عاد الفتى في تلك الليلة إلى بيته مثقلًا بما لا يطاق!

عاد إلى بيته حائرًا ممزقًا خائفًا قلقًا فاقد السيطرة على مسار تفكيره الذي أشعلت فيه النار سيدة يحبها ويحترمها ويثق فيها اسمها: سيرينا أهاروني!

قال رأفت الهجان ـ بعد أيام قليلة من تلك الليلة ـ لحسن القطان في روما: إنه لم يذق للنوم طعمًا، وإنه ظل طوال الليل حتى مطلع النهار جالسًا في انتظار من يدق عليه بابه كي يقوده إلى حبل المشنقة!!

الفصل الخامس

نحو عالم رحيب.. ورهيب!

قال عزيز الجبالي لهيلين سمحون إن رأفت الهجان عاش بعد ذلك أيامًا كانت - بكل المعاني - حالكة السواد... وإن الغريب في الأمر أنه عندما وصلته تلك البرقية في صباح اليوم التالي تطلب إليه الكف تمامًا عن أي نشاط، وتجميد كل حركة له أو لرجاله؛ استشعر قليلًا من الأمن، لإحساسه بأن الرجال في مصر يعيشون معه ويشعرون به ويقفون على أهبة الاستعداد لإنقاذه لو أن شيئًا ما حدث أو وقع... لكن هذا الإحساس بالأمن كان يتضاءل ساعة بعد ساعة، مع تلك الحمى المروعة التي اجتاحت تل أبيب - والتي كانت أنباؤها السرية تصل إليه تباعًا - بحثًا عن الجواسيس المصريين!

كانت البرقية التي وصلته - كالعادة - تتحدث عن أمور عادية تمامًا، ولا تثير أي نوع من أنواع الشكوك أو الريبة، لكنها فقط تضمنت اسم فتاة تدعى «روزيتا»... وكان ورود هذا الاسم في أي خطاب أو برقية أو مكالمة تليفونية معناه أن يوقف نشاطه فورًا وأن يجمده وحتى إشعار آخر.

بالرغم من هذا، فإنه لم يشأ أن يتصل بدان رابينوفيتش أو إيزاك بن

عميتاي كي يطلب إليهما الكف عن العمل وتجميد النشاط حتى لا يثير قلقهما، وترك الأمر للظروف.

وعندما جاءه إيزاك بن عميتاي بعد يومين وحاول إمداده ببعض الأخبار سأله الفتى إن كان قد سمع بما حوله، فضحك إيزاك قائلًا:

«أعلم كل شيء، ولكن ما لنا نحن والمصريين؟!».

«وهل تستطيع الموساد ـ في ظروف كهذه ـ أن تفرق بين هؤلاء وأولئك؟!».

قالها الفتى بصرامة بعثت بالرهبة إلى نفس الرجل الذي قال:

«معك حق ولكن... ... ...».

زفر رأفت زفرة من فاض به مقاطعًا:

«يا عزيزي إيزاك، إنهم الآن يضربون على غير هدى، وإن كنت لا تعلم فاعلم أنهم يتشككون في كل مخلوق دون تفرقة بين هذا وذاك، ودون النظر إلى المناصب أو العلاقات أو المكانة الاجتماعية!».

اضطرب إيزاك بالفعل وتساءل:

«وما الذي تراه إذن؟!».

في وضوح، ونحو الهدف مباشرة، سار الفتى:

«أرى أن نكف تمامًا عن النشاط في هذه المرحلة، فلسنا في حاجة إلى متاعب نحن في غنى عنها!».

وهكذا فهم راف سيرن إيزاك بن عميتاي ما كان عليه أن يفعله، فاستسلم دون تعقيب. لكن ما حدث مع سجن ألوف دان رابينوفيتش كان بالطبع مختلفًا... فلقد جاءه الرجل منتفخ الأوداج كعادته، كان الوقت مساءً وقد خلا المكتب من الموظفين والموظفات، بادر الفتى بقوله:

«أعتقد أنه لا بد لنا من الحديث بصراحة ووضوح أيها العزيز ديڤيد!».

«عن أي شيء يا دان؟!».

«ألا ترى أنه من الأصوب أن نكف قليلًا عن النشاط حتى تهدأ تلك الضجة المثارة؟!».

لم يشأ الفتى أن يستجيب لدان على الفور، أدرك أنه جاء كي يطلب إليه ما كان عازمًا على طلبه إليه، مال نحوه متسائلًا:

«لست أدري ما الذي تقصده بالضبط!».

بدا الضيق على وجه دان، صاح:

«ولكن، لا بد أنك تعلم!».

«لم لا توضح مقصدك؟!».

اعتدل دان في جلسته قائلًا:

«أنت لا بد تعلم أنهم الآن في حالة هستيرية بحثًا عن أعوان المصريين هنا، بعد هذا الإعلان عن القبض على ذلك الجاسوس الإيطالي!».

«ليس في إسرائيل كلها من لا يعلم هذه الحقيقة».

«أنا واثق من أن أصدقاءنا لا علاقة لهم بهذا الإيطالي اللعين لكن الحذر واجب!».

«آه...».

«ولو أننا كففنا في الوقت الحاضر عن اللقاء أو تبادل المعلومات لكان هذا أكثر أمنًا».

نهض الفتى كي يعد له كأسًا وهو يقول:

«يا لك من ثعلب!».

ازداد انتفاخ أوداج العقيد الإسرائيلي وهو يضع ساقًا فوق ساق:

«إنهم يضربون في غيظ وعلى غير هدي!».

«هل هذا استنتاج أم أنه معلومة؟!».

نظر دان إلى رأفت الذي كان الآن يقدم له كأسه وهو يتساءل:

«هل تعودت مني المبالغة أو التهويل؟!».

«لم أقل إنك تبالغ».

«وأنا أيضًا لا أستنتج، إنها معلومات أكيدة ولا شك فيها».

قال رأفت إنه لم يشأ أن يسأل الرجل عن مصدر معلوماته رغم يقينه من أنه كان سيحظى بالإجابة لو سأل، لكنه فضل أن يستمر في لعب دور الساذج كي يحظى من الرجل بما هو أهم لديه في تلك المرحلة... لاذ بالصمت وقد عاد إلى مقعده وترك الرجل يختال قائلًا:

«لا بد لنا أن نهدأ تمامًا حتى تتلاشى هذه الضجة من حولنا».

«إذا كان هذا هو رأيك، فلا بد أنه الصواب بعينه».

أصاب تقريظ الفتى وترًا في نفس الرجل فأردف:

«إن مثل هذه الأمور يجب أن تؤخذ بحذر شديد!».

مال الفتى نحوه باسمًا وهو يمازحه:

«لعلك لا تعلم أني في بعض الأحيان أحسد العزيزة كلارا لأنها زوجتك».

أطلق دان ضحكة مجلجلة، ومس تقريظ الفتى هذه المرة أشد الأوتار حساسية في نفس الرجل، الذي رشف من كأسه رشفة مغمغمًا:

«ألا تبالغ قليلًا في تقديري يا ديڤيد؟!».

«ربما... ولكن هذا هو رأيي، إن الاقتراب من رجل مثلك يبعث بالطمأنينة وسط هذا المجتمع المليء بالشكوك».

«غير أن هناك ما يجب عليك ألا تغفله إطلاقًا».

«وما هو؟!».

«علينا بطبيعة الحال أن نبقي علاقتنا الاجتماعية كما هي أمام الجميع حتى لا نثير الشك».

«بالطبع يا عزيزي، بالطبع».

هكذا هتف الفتى في سعادة فلقد كان سجن ألوف دان رابينوفيتش يضع ـ من تلقاء نفسه ـ القواعد الصحيحة بينهما في وضوح، ولقد تذكر رأفت الهجان ما قاله له حسن القطان يوم التقيا في ذلك البيت رقم ٩ شارع دوق يورك ببلدة فالكون وود بمقاطعة كنت البريطانية، وكان يتحدث عن دان رابينوفيتش بالتحديد، قال:

«الناس اللي زي الراجل ده يا رأفت بتبقى عندهم فكرة عن الموضوع، لأنهم بالقطع بيدرسوه في مرحلة من المراحل... ولو ظهر عليه شوية تحفظ ما تقلقش، لأنه بعد كده حايريحك في الشغل قوي».

ثم... فلقد كان الفتى يعلم منذ لحظة دخول دان إليه في ذلك المساء السبب الحقيقي في الزيارة، والسبب الحقيقي وراء إبداء هذا الحرص بهذا الأسلوب، وكان يدفعه ويمهد له الطريق في أثناء الحوار كي يفصح عن غرضه دون حرج، لذلك فلقد انتبهت حواسه عندما قال دان:

«ثم إن هناك أمرًا أريد أن أتحدث إليك فيه»!

ضحك رأفت رغمًا عنه وهو يدس يده في جيبه صائحًا:

«إن مطالب كلارا العزيزة لا تنتهي».

بادله سجن ألوف الضحك وهو يمد يده إلى المبلغ الذي قدمه له الفتى:

«ألا ترى أنها تستحق ذلك؟!».

ولم يرد رأفت... ... ...

وانصرف دان وكان يبدو سعيدًا كل السعادة!

* * *

حملت يهوديت موردخاي ـ سكرتيرة السيد ديڤيد شارل سمحون ـ برقية وصلت إليه من باريس تطلب إليه لقاءً عاجلًا لمناقشة إرسال عدد من الأفواج وتحدد له موعدًا قريبًا، لم تكن كلمات البرقية بالطبع تحمل نفس المعاني التي توحي بها الكلمات، بل كانت تتحدث عن موعد عاجل في روما... وبالرغم من كل ما كان يحيط رأفت الهجان، فإنه لم يشأ أن يتصرف بتردد أو حرص قد يلفت إليه الأنظار، بل قرر أن يتصرف ببساطة وكما تعود أن يفعل دائمًا في مثل تلك الأحوال... ولذلك، فما أن قرأ البرقية حتى طلب إلى السكرتيرة أن تحجز له في صباح اليوم التالي مقعدًا على الطائرة المتجهة إلى باريس مرورًا بروما... تمتمت يهوديت بكلمات مبهمة دفعت الفتى إلى أن يرفع رأسه إليها فإذا وجهها شاحب.

«ماذا بك؟!».

«ستسافر مرة أخرى؟!».

ترك ما في يده واسترخى في مقعده باسمًا.

«إن السفر جزء من عملي».

«كما أن السهر أصبح جزءًا من حياتك!».

اربدت ملامح الفتى وهو يعتدل في مقعده، أردفت:

«ألا يمكنك حتى أن تراعي مشاعري؟!».

«يهوديت!!».

هكذا هتف مستنكرًا فاستطردت:

«إن المدينة كلها تتحدث عن علاقتك بكلارا رابينوفيتش!».

«ولكني لم أر كلارا منذ ما يزيد على الشهر!».

وكان هذا حقيقيًا تمامًا، فمنذ عودة الفتى من أمستردام وضع مع سجن ألوف دان رابينوفيتش خطة للقائهما تخضع لسرية صارمة... كما وضعا خطة أخرى لعلاقتهما الاجتماعية بحيث تبدو عادية تمامًا ولا مبالغة فيها... غير أن يهوديت ردت على ما قاله الفتى بصيحة مختنقة:

«أتريد مني أن أصدق هذا؟!».

«لك مطلق الحرية في أن تصدقي أو تكذبي».

همت بالحديث فأردف في جفاء:

«أيهما تفضلين؟!».

تكسرت الكلمات بين شفتيها وهي تقول:

«إن هذا فوق احتمالي!».

«فلم لا ترفضين الأمر برمته؟!».

بقدر ما كانت الجملة قاسية على الفتاة التي أصبحت مدلهة في حبه، بقدر ما كانت حاسمة واضحة محددة الملامح في وضع أساس لكل شيء... وهكذا انسحبت يهوديت موردخاي دون كلمة أخرى، وعاد الفتى إلى ما كان فيه من عمل، لكنه لم يستطع الاستمرار... رفع رأسه وحملق في الباب المغلق أمامه، دهش لاتهام الناس له بأنه على علاقة بكلارا رابينوفيتش، وهم لا يعلمون أنه يعيش منذ شهور تلك القصة التي داهمته ذات مساء فأصبحت تؤرقه... التقى بها فبهرته بأسلوبها وجمالها وثقافتها ووضوح الرؤية أمامها، قاوم طويلًا ذلك الإحساس الذي تسلل إليه فسيطر وتمكن... قاومت هي الأخرى وكانت أكثر منه صلابة

فاختفت لشهور ظن خلالها أنه سينسى كل شيء، لكنها كانت واحته وسط الجحيم الذي يعيش فيه... ذات يوم عادت إليه معلنة استسلامها لكنه لزم الصمت... كان السؤال المطروح عليه هو: هل يعيش حياته أم يعيش من أجل وطنه؟!... حنينه إلى بيت وزوجة وولد يحمل اسمه أصبح نارًا تتأجج في جوانحه، هو يعلم أنه يستطيع أن يجد في كل يوم امرأة، ولكن... هل يستطيع الرجل أن يجد في العمر زوجة؟!

زفر رأفت الهجان وكأنه يزيح بزفرته عبئًا ثقيلًا يجثم على صدره، نظر إلى سماعة التليفون فجرفه الحنين إلى سماع صوتها، حاول المقاومة لكنه لم يستطع، رفع السماعة وأدار القرص، ما إن جاءه صوتها حتى هتف في شوق:

«حنة!».

صمت لثوان قال بعدها:

«لا شيء، فقط أردت أن أقول إني أفتقدك»!!

ودخلت يهوديت الغرفة لبعض عملها، فأعاد السماعة إلى مكانها!!

* * *

تبادل حسن القطان مع الفتى الضحكات وهو يستمع منه إلى ذلك الحوار الذي دار بينه وبين دان رابينوفيتش... أثنى حسن على تصرف رأفت وحرصه، وأردف الفتى قائلًا:

«بس أنا عشت أيام سودة في إسرائيل».

«أمر طبيعي».

«لكن الراجل الطلياني ده كان بيشتغل لحسابنا حقيقي؟!».

كان هذا السؤال هو أول ما لفت الأنظار إلى أن رأفت الهجان بدأ يتصرف وكأنه «ضابط» في جهاز المخابرات المصري، ليس السؤال

نفسه هو الذي أوحى لحسن بهذا الإحساس لكنه الأسلوب الذي طرح به الفتى سؤاله، ولم يشأ حسن القطان أن يعلق على الأمر، أو أن يعطيه أهمية من نوع خاص، وإن كان قد وضع إحساسه هذا في تقرير أرسله إلى القاهرة، وعلى كلٍ... فلقد رد على سؤال الفتى بسؤال آخر:

«وده يهمك في إيه؟!».

هتف رأفت:

«إلا يهمني في إيه!!... اسمع يا حسن بيه... ... ...».

قاطعه حسن وقد أدرك بالضبط ما يريده الفتى:

«اسمع انت يا رأفت، تعالى نحسبها بشكل منطقي».

«احسبها زي ما انت عاوز».

«إنت يوم ما قبلت تقوم بالمهمة دي، قبلتها على إنها فسحة؟!».

استنكر الفتى هاتفًا:

«لأ طبعًا!!».

«قبلتها على إن فيها نوع من المخاطرة؟».

«بالتأكيد».

كان في كلمة الفتى الأخيرة رد على كل مخاوفه وتساؤلاته، صمت حسن القطان وهو ينظر إليه مبتسمًا تلك الابتسامة الموحية، فابتسم رأفت وقد أدرك أنه وقع في فخ المناقشة، لكنه لم يشأ أن يستسلم فهتف:

«إنت عندك فكرة أنا عشت ولسه عايش لحد اللحظة دي في إسرائيل أيام شكلها إيه؟!».

«أقدر أتصور».

«يبقى لازم نشوف حل للمأزق اللي بالشكل ده».

«آديك قلتها بنفسك».

كانا الآن يتحاوران كصديقين حميمين صنعت بينهما الأيام رباطًا وثيقًا من المحبة والاحترام المتبادل. ورغم جموح الفتى وتمرده فإنه كان يعرف متى يثور ومتى يحتج ومتى يتوقف عن الثورة أو الاحتجاج... ولقد كانت جملته الأخيرة إيذانًا ببدء مرحلة جديدة من الحوار، راحا يتدارسان الأمر معًا... ووصل به ذلك الثعلب، المهذب الأسلوب، المنمق الكلمات، الهادئ الأعصاب، إلى ضرورة التدريب على مستويات أعلى، حتى يستطيع أن يرقى بقدراته ويواكب عصره ويواجه المآزق ويحمي نفسه ورجاله ويتلافى الأخطاء بقدر الإمكان... قال الفتى إنه إن كان هناك ما يجب أن يتعلمه ويتدرب عليه، فدخل حسن في الموضوع مباشرة عندما قال:

«علشان كده إحنا بعتنالك».

«فيه حبر سري جديد؟!».

«مش بس حبر سري، فيه حاجات أكبر!».

«زي إيه؟!».

«خليها مفاجأة».

«إمتى؟».

«يوم ١٥ في الشهر».

ضم الفتى ما بين حاجبيه متذكرًا:

«مش ممكن تغيير الميعاد ده؟!».

«ليه؟!».

«لأن فيه فوج حاطلعه من إسرائيل على قبرص في نفس اليوم ده».

«عز الطلب».

«مش فاهم!».

«اطلع مع الفوج ده»!

أدرك الفتى كل شيء في لحظة، وجم قليلًا وكأنه يرفض تصديق الأمر، ثم سأل في شك:

«سيادتك تقصد إن المقابلة في قبرص؟!».

«بالضبط كده».

«على جثتي!!».

قالها رأفت الهجان بالإنجليزية كمن يريد تأكيدها، اندفع في الحديث قائلًا إن قبرص هي المصيف المثالي بالنسبة للإسرائيليين بالذات... أولًا: لقربها من فلسطين، وثانيًا: لرخص أسعارها الذي يتواءم مع حرص اليهودي على ألا ينفق الكثير من المال... قال إن شركته وحدها تعمل طوال أشهر الصيف، وبلا انقطاع، على خط تل أبيب قبرص، سواء بالطيران أو البحر... وإن تواجده فيها مع هذا الفوج بالذات الذي يضم عددًا لا بأس به من العلماء - ومنهم من يعتمد عليه الفتى في تسقط الأخبار ومعرفة الأسرار - سوف يثير بالتأكيد الكثير من التساؤل لو أنه اختفى لبضعة أيام... و... و...

«وأنا بصراحة يا حسن بيه ما اتحملش في الوقت ده بالذات أي شك أو تساؤل مهما كان صغيّر أو بسيط!!».

«أوعى تنسى إننا مسئولين عن تأمينك».

«على عيني وراسي بس... ... ...».

قاطعه حسن باسمًا:

«وعلى كلٍّ ما هو انت حاتلاقي في قبرص اللي ممكن تلاقيه في أي بلد في أوربا»!

كان فيما قاله حسن القطان تورية دفعت الفتى إلى الصياح:

«بلاش تفهمني غلط من فضلك!».

وانفجر حسن في الضحك، ولم يملك الفتى سوى أن يبادله ضحكاته وقد سرت حمرة الخجل إلى وجهه... كانا الآن شديدي القرب بعضهما من بعض، بل أصبح كل منهما يأنس إلى الآخر ويتطلع إلى لقائه... ساد الصمت قليلًا وقد سرح الفتى فيمن تركها وراءه في تل أبيب، راودته نفسه أن يفاتح حسن القطان في الأمر، لكن شيئًا غريبًا منعه من البوح بسره، كان يعرف ويدرك بل كان موقنًا أن في الكتمان خطرًا قد يهدد ذات يوم حياته، لكنه كان يعرف ويدرك، بل كان موقنًا أيضًا أن في البوح بسره مصادرة كل ما يخفق من أجله قلبه!

«ما لك يا رأفت؟!».

أدرك الفتى أن سهومه وشى به فابتعد عن الأمر متسائلًا:

«وانتو كنتو عارفين ميعاد الفوج ده؟!».

وأدرك حسن القطان بعين الثعلب الكامن في نفسه أن الفتى يعاني من أمر يخفيه عنه، ولم يكن في حاجة إلى الكثير من الذكاء كي يخمن هذا الأمر، فضل ألا يضغط عليه وأن يتركه حتى يبوح بما في نفسه، رد عليه متسائلًا:

«ودي تفرق كتير؟!».

قفز الفتى ناهضًا في احتجاج باذلًا أقصى طاقته في تغيير مجرى أفكاره:

«ما لقيتوش غير قبرص؟!».

«والميعاد يوم ١٥ في الشهر».

«ما هو... ... ...».

«وانت حاتنزل في نفس اللوكاندة اللي بتنزل فيها كل مرة».

التفت إليه الفتى فأردف:

«لوكاندة الخواجة بيمبو».

«وعارفين اللوكاندة كمان؟!».

بالرغم منه ضحك حسن هاتفًا:

«ما انت اللي قايل لي عليها».

عاد رأفت إلى مقعده، أشعل سيجارة، سأل في استسلام:

«ومين اللي أنا حاقابله هناك؟!».

«السيد نديم هاشم».

ضحك الفتى وهو يقول ممازحًا:

«كده يبقى معقول شوية».

قال هذا، واتخذ قراره بأن يفاتح نديم في الأمر.

* * *

عندما وصل رجل الأعمال المصري «زكي سويلم» إلى قبرص، راح يسعى منذ لحظة وصوله باحثًا عن ڤيلا منعزلة تصلح للاصطياف لمدة أسبوعين... كان أمامه أن يستقل السيارة من العاصمة «نيقوسيا» إلى واحدة من مدينتين ساحليتين هما «لارناكا» أو «ليماسول»... حيث يمتلئ الشاطئ بمثل تلك البيوت الصغيرة المنعزلة والمعدة للاصطياف... غير أنه وجد نفسه ـ حتى من قبل وصوله إلى قبرص ـ أمام بضعة محاذير، أهمها: إن المصطافين يفضلون بالقطع أن يكونوا بالقرب من الشاطئ... وهكذا، فلا بد أنهم، حتى ولو كان مركز إقامتهم في قبرص هو «نيقوسيا»، سينتقلون إلى الشاطئ: إلى لارناكا أو ليماسول... ولأن السيد سويلم كان يبحث عن بيت ذي مواصفات خاصة، فلقد فضل أن

يبقى في العاصمة القبرصية ليوم أو يومين لعله يجد فيها ضالته التي من أجلها جاء خصيصًا إلى هذه الجزيرة!

كانت فنادق قبرص في تلك السنوات متواضعة بحق، هي أقرب إلى «البنسيونات» منها إلى الفنادق، كما كان أصحابها ـ في الغالب ـ ممن عاشوا في مصر زمنًا فأتقنوا العربية... وبالرغم من هذا فلقد أراد السيد سويلم أن يبقى غرضه سرًّا فلا يسأل أحدًا، ترك نفسه للظروف حتى يحيط الأمر بأكبر قدر من الكتمان... في الرابعة عصر نفس يوم وصوله غادر فندقه الصغير ينشد التجوال في شوارع المدينة، وراح يتسكع هنا وهناك بحثًا عن منزل يصلح للاصطياف... تصادف أن مر أمامه أوتوبيس لم يكن يعرف وجهته، ولكن... لأن الأوتوبيس كان ذا طبيعة خاصة، فلقد وجده السيد سويلم من ذلك الطراز العتيق المكشوف من كل جوانبه، الموضوع بدل سقفه مظلة من القماش بما يجعل الركوب فيه مع بطئه لمن لم يتعود هذا النوع من المواصلات نزهة بحق!

بدا السيد سويلم للناظر ـ إن كان هناك من يتتبع خطاه ـ وكأن رؤيته للأوتوبيس قد استخفته، فلقد قفز إليه فجأة بادي المرح... ولقد وجد نفسه ـ بعد أقل من ربع ساعة ـ خارج نيقوسيا... شق الأوتوبيس طريقه وسط الجبال التي كستها الخضرة، علم أن هذا طريق دائري سوف يعود به إلى نيقوسيا مرة أخرى، بعد المرور ببضع قرى جبلية تتناثر بيوتها البيضاء اللون وسط خضرة الجبال كالحمائم الرابضة... عندما لمح السيد سويلم ما يشبه كشكًا للمثلجات عند مشارف قرية صغيرة، هرول إلى السائق طالبًا إليه التوقف فتوقف وهو يقول بإنجليزية لا بأس بها إنه سيعود إلى نفس المكان بعد ساعة... مضى الأوتوبيس في طريقه ووقف الرجل يتلفت حوله... بالقرب من كشك المثلجات كانت هناك بضعة بيوت متناثرة متباعدة عند قمة الجبل، حول الكشك كانت ثمة مجموعة من الشباب راحوا يتسامرون ويثرثرون، أوصله إليهم مدق مترب ضيق

راح يتسلقه في نشاط رغم وعورته، طلب زجاجة مثلجة فأسرع أحدهم بتقديمها له دون أن يكف عن الحديث أو يلتفت إليه أحد وكأن وجوده ـ وهو الغريب ـ أمر طبيعي تمامًا، أخذ يرشف من الزجاجة على مهل متحينًا الفرصة وسط ثرثرة الشبان كي يطرح سؤاله المنشود:

«هل أستطيع أن أجد بيتًا للإيجار؟».

كان الجو فوق الجبال رائعًا، هبت نسمة رطبة فملأ زكي سويلم رئتيه بالهواء، راح عقله يعمل بسرعة، وهو ـ عندما خرج للتريض في شوارع نيقوسيا ـ لم يتصور أنه سوف يجد ضالته بهذه السهولة، كان المكان مثاليًّا لإقامة أصدقائه بعيدًا عن أعين المتطفلين، الذين حتى إذا ما أرادوا التلصص فلسوف يكتشف أمرهم بسهولة، وهكذا اتخذ قراره وهو يحدد الجهات الأربع الأصلية مستعينًا بموقع الشمس الغاربة في الأفق حاسبًا ـ على وجه التقريب ـ زاوية ميل الجبال نحو وطنه... ما إن سأل سؤاله حتى صاح أحد الشبان ـ دون رد عليه ـ بحنجرة جبلية شديدة القوة مناديًا على كهل سرعان ما ظهر من أحد بيوت القرية مهرولًا... رحب الكهل بالضيف وهو يسأله عن بغيته، وما لبث أن صحبه في جولة طافا فيها بعدد من تلك البيوت المتباعدة عند قمة الجبل، بدا للضيف القادم واحد منها مناسبًا من كل الوجوه، قبل أن تنقضي ثلاثون دقيقة كان قد دفع العربون وتسلم إيصالًا، قال للسمسار الكهل إن أصدقاءه سوف يأتون في اليوم الخامس عشر من الشهر، وإن عليه أن يسلمهم الفيلا إذا ما قدموا له الإيصال، قبل أن يغادر الرجل سأله إن كانت هناك وسيلة أخرى للمواصلات غير الأوتوبيس فقال السمسار غامزًا بعينه إن سيارات الأجرة لا ينقطع مرورها، فعلى طول الطريق ـ خارج نيقوسيا ـ بيوت من هذا النوع الذي يفضله المصطافون ذوو المزاج الخاص بعيدًا عن العيون، هرول زكي سويلم هابطًا الجبل وكان السمسار على حق، فلم تمض دقائق قليلة حتى استوقف سيارة أجرة أقلته إلى قلب المدينة

حيث أرسل برقية قال فيها إن مهمته انتهت وإنه عائد في اليوم التالي، لكنه تلقى بعد ساعتين ـ وكان في الفندق ـ مكالمة تليفونية عرف منها أن ردًّا على برقيته قد وصل، عندما تسلم الرد وجدهم يطلبون إليه التوجه إلى روما بدلًا من القاهرة!

* * *

في روما التقى السيد زكي سويلم ـ الذي لم يكن سوى عزيز الجبالي! ـ بنديم هاشم وحسن القطان... تم اللقاء مصادفة ـ!! ـ في ڤيلا بورجيزي قبل الغروب بقليل، تصافحوا بحرارة وتبادلوا الأسئلة، ثم جلسوا على أحد المقاعد المتناثرة في الحديقة وقد استخفهم المرح لذلك اللقاء غير المنتظر... راحوا يتجاذبون أطراف الحديث ضاحكين... في براءة سأل عزيز صديقه حسن عما حدث في لقائه الأخير مع «صاحبنا»!

أخذ حسن يقص ـ بالتفصيل ـ كل ما تم بينه وبين رأفت الهجان، بعد أن انتهى من حديثه سأله نديم هاشم:

«إنت قلت له إنه حايلاقي في قبرص اللي بيلاقيه في أوربا؟!».

«أيوه!».

«يبقى يقابلني!».

وضج الثلاثة بالضحك!

ما إن هدأت الضحكات حتى قال حسن وقد اتخذت نبرته سمة جدية واضحة:

«بس فيه حاجة متغيرة في رأفت!».

في لهفة سأل عزيز:

«حاجة زي إيه؟!».

«بيتهيأ لي إنه بيحب!!».

سأله نديم:

«هو قال لك؟!».

«كان عاوز يقول لي، إنما ماقدرش!».

هز نديم رأسه وقد وصلته رسالة صديقه وزميله، أدرك على الفور أن مهمة أخرى قد ألقيت على عاتقه مع هذا الفتى الذي كان يتحول بين يديه إلى كنز لا يقدر بمال... عندما جاء دور عزيز الجبالي في الحديث كان يمسك في يده فرعًا صغيرًا سقط من شجرة، راح يخطط به فوق الأرض ـ أمام الاثنين وفي حديقة عامة ـ شارحًا مكان البيت الذي استأجره وعنوانه وكيفية الوصول إليه بالأوتوبيس أو السيارة الأجرة، ذاكرًا اسم السمسار الكهل... أخرج الإيصال وسلمه إلى نديم، مضت ساعة أو أقل قليلًا ثم انفض الصحاب كل إلى مقصد... نديم إلى الفندق حيث سيكون في انتظار تحديد لقائه بخالد عز العرب عالِم الاتصالات اللاسلكية الفذ، وحسن إلى حيث يربض متربصًا للأحداث متعاملًا معها... أما عزيز الجبالي فبرغم الرسالة التي وصلته من شريف والي على لسان نديم هاشم بأنه في حاجة ماسة إلى إجازة بعد أربع سنوات أو يزيد قليلًا قضاها في هذا الجهاز دون يوم واحد للراحة، فإنه رأى أن بلاده تدفع الكثير، وهو ليس على استعداد لكي يحملها، في إجازته، قرشًا واحدًا، فلقد اتخذ قراره بالعودة إلى مصر في اليوم التالي مباشرة!

* * *

قبل ظهر اليوم الرابع عشر من أغسطس عام ١٩٦٢ وصل نديم هاشم إلى نيقوسيا قادمًا من روما، كان جواز سفره يحمل اسم «محمود بسيم»، وأمام الوظيفة كتبت كلمة «محام»... توجه نديم إلى فندق «بيمبو» بناء على توصية من صديق مصري تعود أن ينزل في هذا الفندق كلما زار قبرص... أما خالد عز العرب فلقد وصل إلى نفس المطار في

المساء، والغريب في أمر هذا الرجل أن جواز سفره كان يحمل اسمه الحقيقي، أما المهنة فلقد كُتِبَ أمامها: أستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة.

وعلى عكس نديم فقد استقل خالد سيارة أجرة من المطار، وأعطى السائق عنوان تلك الڤيلا المنعزلة خارج نيقوسيا، بعد أقل من نصف ساعة كان يدخل إلى الڤيلا بصحبة السمسار الكهل... قدم له خالد ذلك الإيصال الذي سلمه هو لعزيز من قبل، حاول أن يدفع له أجر الليلة الزائدة، فلقد وصل قبل الموعد بيوم ولكن الرجل رفض بإصرار... وكانت الڤيلا جاهزة تمامًا لاستقبال الضيوف!

* * *

كان فندق بيمبو متوسطًا في كل شيء شأنه شأن أغلب فنادق قبرص في تلك الأيام... فهو عبارة عن بيت صغير مكون من طابقين، يحتوي الطابق العلوي على ست غرف يتوسطها بهو صغير وضعت فيه بضعة مقاعد متواضعة ومائدة صغيرة، أما الطابق السفلي فلم يكن فيه سوى أربع غرف فقط، بينما احتل المطبخ والإدارة بقية المساحة... خلف الفندق كان ثمة قطعة أرض فضاء، أقام فوقها بيمبو عددًا لا بأس به من الشاليهات الخشبية المتواضعة... واستطاع هذا الشاب القبرصي مع زوجته كريستينا أن يجعلا من فندقهما مستعمرة مستقلة داخل العاصمة القبرصية، يتعامل فيها النزلاء معهما تعامل أصحاب البيت، فيطلبون ما يعن لهم من أصناف الطعام أو الخدمات فتلبى طلباتهم بترحاب، أو ينشب بينهم حوار مرح يتبادلون فيه الاتهامات حول الخدمة في الفنادق الأخرى، ورخص الأسعار، وقيمة الجنيه القبرصي بالنسبة للإسترليني أو الدولار!!

كان بيمبو شابًا مرحًا التقى بزوجته كريستينا منذ سنوات فتلاقت أحلامهما، بدآ معًا ـ وحتى قبل الزواج ـ مشروعهما هذا الذي يفضله

السائحون من ذوي الدخول المتوسطة على أي مكان آخر في قبرص لما يجدون فيه من دفء المعاملة وحسن الضيافة... عندما وصل نديم إلى الفندق وطلب غرفة اعتذرت السيدة كريستينا بالرغم من التوصية التي حملها الرجل من صديقه، سألها نديم بشكل عابر إن كان الفندق كامل العدد، فقالت إن الشاليهات الخلفية فقط هي المحجوزة، منذ الغد، ولمدة أسبوعين.

«فما هي المشكلة إذن؟!».

«استمع إليَّ يا صديقي، أنا لا أستطيع أن أعطيك غرفة ولكني لست راغبة في أن أسبب لك أي نوع من الحرج!!».

«حرج؟!».

«نعم... ففي الغد سيصل فوج إسرائيلي كي يحتل الشاليهات كلها زيادة على غرفة في الطابق العلوي!!».

«هل سيشاركني أحد غرفتي؟».

هكذا سألها نديم باسمًا فهتفت:

«بالطبع لا!».

«إذن فلتعطيني غرفة ولكن بشرط».

«شرط؟!».

«ألاَّ تذكري لأصدقائك الإسرائيليين شيئًا عني حتى لا تسببي لهم حرجًا».

«أو. كي!!».

هكذا قالت كريستينا باسمة وهي ترمق ذلك الشاب المصري بنظرة إعجاب، لم تجد أمام لا مبالاته بوجود إسرائيليين في الفندق ـ على عكس الآخرين من المصريين أو العرب الذين تعودوا النزول في فندقها

الصغير ـ بدًّا من إعطائه الغرفة... سألته وهي تدون اسمه وبيانات جواز سفره:

«كم يومًا ستبقى معنا سيد بسيم؟».

«ليلتين لا أكثر».

«هي إجازة قصيرة إذن؟».

ولم يرد السيد بسيم، لكنه تناول منها المفتاح وترك حقيبته للخادم كي يحملها إلى الطابق العلوي.

هكذا سارت الأمور في يسر.

وهكذا انقضى اليوم الرابع عشر من أغسطس عام ١٩٦٢.

وفي صباح يوم ١٥ أغسطس هبط السيد محمود بسيم من غرفته إلى قاعة الطعام التي كانت خالية تمامًا من النزلاء، تناول إفطاره مبكرًا، ثم غادر الفندق بعدها مباشرة... لكنه عاد عند الظهر فتناول غداءه وطلب إلى الإدارة ألا يزعجه أحد لأنه في حاجة ماسة إلى النوم ثم اختفى في غرفته.

كان هذا اليوم هو موعد وصول الفوج السياحي الإسرائيلي الذي تتولى شركة «ماجي تورز» أمره، ولذلك... فلقد انهمك بيمبو وكريستينا ومن معهم من الموظفين والخدم في الاستعدادات لاستقبال هذا الفوج، وكانوا ـ في نفس الوقت ـ سعداء لأنهم سيلتقون بواحد من أهم عملائهم، وهو السيد ديڤيد شارل سمحون صاحب ومدير شركة ماجي تورز... كان ديڤيد بمرحه وخفة ظله قد استطاع أن يوطد علاقته بصاحبي الفندق، لذا فلقد كانا دائمًا ما يحجزان له أفخر غرفة لديهما، ويستضيفانه ـ مهما بلغ عدد الأيام ـ بلا مقابل.

قبل الغروب بقليل وصل الفوج السياحي الإسرائيلي.

وسرعان ما نشط بيمبو وزوجته وهما يرحبان بالضيوف ترحيبًا حارًّا، وما إن مضت ساعة حتى كانت الشاليهات قد تحولت إلى مستعمرة يهودية مستقلة تمامًا!!

«قال الفتى فيما بعد إن أكثر ما لفت نظره في عمله بالسياحة في إسرائيل هو رغبة اليهود الكامنة في الانعزال عن المجتمع المحيط بهم، وإنهم كانوا يسعدون سعادة بالغة في شاليهات فندق بيمبو بالذات عن بقية الفندق، ولذلك فلقد اتفق مع بيمبو أن يقيم لهم غرفة طعام تتوسط الشاليهات كلما كان هناك عدد كاف من السائحين... وفي تلك المرة بالذات حدث هذا، فلم يلتق أي من أفراد الفوج بأي من نزلاء الفندق طوال إقامتهم في قبرص»!

عندما وصل الفوج الإسرائيلي في الأوتوبيس السياحي الذي أقلهم من المطار، كان نديم هاشم يقف خلف زجاج نافذة غرفته المظلمة، ولقد لمح الفتى وهو يغادر السيارة، وشاهد الحرارة التي استقبله بها بيمبو وكريستينا بل وموظفو الفندق وخدمه.

كان الفوج يضم مجموعة من الأصدقاء الذين يكونون إحدى حلقات الفتى المدنية... ولقد عرفوا منه ـ منذ البداية ـ أنه لن يمكث معهم سوى ليلة واحدة ثم يختفي حيث يجب ألا يعرف أحد، فهو الآخر في حاجة إلى إجازة مثلهم... ولقد تغامز الرفاق مدركين أن الفتى يريد الهرب منهم إلى موعد غرامي فتمنوا له وقتًا طيبًا!

عندما صعد أحد الخدم حاملًا حقيبة السيد سمحون إلى تلك الغرفة المختارة، كان ديڤيد في بهو الفندق يشرف على إنهاء الإجراءات الخاصة بفوجه، ويشرف بنفسه على توزيع الشاليهات وتلبية رغبات العملاء... لم ينتبه أحد إلى غياب الخادم في الطابق العلوي لدقائق زادت قليلًا عما كان مقدرًا له، ولم يعرف أحد ـ بالطبع ـ أن الخادم عندما عاد كان يحتفظ في جيبه بمبلغ محترم من المال، وسر لم يكن من السهل أن يبوح به.

صعد الفتى إلى غرفته وكانت الساعة تشير إلى النصف بعد التاسعة، كان يبدو متعبًا بعد يوم شاق بدأ مع التباشير الأولى للصباح، أسرّ إلى بيمبو أنه سيغادرهم في اليوم التالي ولن يعود قبل عشرة أيام كما أوصاه بنزلائه واتفق معه على ترتيبات الرحلات والزيارات... ما إن دخل غرفته حتى خلع ملابسه وألقى بنفسه فوق الفراش شبه عار تاركًا للراحة سبيلًا إلى جسده المنهك بعد يوم حافل سبقته ليلة لم يذق فيها طعم النوم!

كان رأفت الهجان في حاجة إلى أن يختلي بنفسه، هكذا تعود كلما كان مقبلًا على خطوة مهمة في حياته السرية تلك، وإذا كان حسن القطان قد ضرب له موعدًا في الخامس عشر من أغسطس في فندق «بيمبو» هذا فلقد كان عليه الآن ألا يفعل شيئًا سوى الانتظار، تذكر أنه سوف يلتقي بنديم هاشم فاستعاد ذكرى لقائه الأول معه في ميناء جنوا، فابتسم... جاء نديم في تلك الليلة من حيث لم يتوقع... أعطاه ما لم يخطر له ببال، اقترب منه حتى أصبح وثيق الصلة به... كان ما دربه نديم عليه في المرة الماضية دروعًا شدت من أزره وحمته... تُرى ما الذي سوف يدربه عليه هذه المرة؟!

لا شك أن هناك حبرًا سريًا جديدًا، ولكن هل يحتاج الحبر السري إلى التدريب لعشرة أيـام؟!... سؤال كان يلح عليه منذ فارق حسن القطان دون أن يعثر له على جواب... للمرة المائة راح يلوح في ذهنه ذلك الحوار الذي انتوى أن يديره مع نديم حول حبه هذا الذي داهمه فلم يستطع منه فكاكا... هل يحذره ويرفض ويضع في طريقه العراقيل وينبهه إلى الأخطار، أم سيكون للأمر وجه آخر بعد أن أثبت لهم أنه قادر على إدارة الأمور؟!

تسللت ذكريات الليلة الماضية وسط غابة أفكاره فإذا عطرها يملأ أنفه حاملًا إياه على أجنحة سعادة بلا حدود... هل قدر له أن يعيش حياته بلا بيت أو زوجة أو ولد؟!... تخطى الثلاثين منذ سنوات وأيام

العمر تحمله مسرعة نحو الكهولة التي قد لا يصيبها بضربة حظ عاثر فمتى يصبح أبًا؟!... ترقرق وجهها المغسول بالحب في خياله فأغمض عينيه مستسلمًا لحنانها الدافق وهي تحمل رأسه بين يديها هامسة بأعذب ما سمع من كلمات الحب... هل يحبها حقًّا أم إنه الشوق إلى أسرة يريدها بعد أن حرمه قدره من الأسرة... ترك الشكوك وارتمى في أحضان الذكريات فإذا قلبه يخفق بعنف، وإذا الخدر يسري إلى جسده، وإذا النوم يثقل جفونه لكنه يغالبه متشبثًا بأحلامه... وإذا هو يتأرجح بين يقظة ونوم، وإذا صوت مفتاح يعالج باب الغرفة... الباب هائل عملاق، المكان فسيح فسيح، والجدران عالية كالأسوار، وهو وحيد يبحث عن مخرج وما زال صوت المفتاح في ثقب الباب يطارده، حاول أن يسأل، أن ينهض، أن يصرخ... لكن صوته ضاع، ضاع في جنبات المكان بلا صدى، الظلام كثيف، قلبه يركض في عنف، الباب يفتح كي ينفذ منه عملاق تطاول قامته السماء.

«ديفيد!».

هب جالسًا في الفراش، جسده ثقيل، جسده عار تغرقه قطرات عرق كالسيل.

«من أنت؟!».

قالها بالعبرية بعد أن كاد لسانه ينطقها بالعربية... أغلق الباب فساد الظلام مرة أخرى... أنفاس العملاق تقترب في فحيح مفزع، خطواته بلا صوت فكأنه يسبح في الهواء.

«من أنت؟!».

«ديفيد!».

«ماذا تريد؟!».

تفصد العرق من جسده أمطارًا، حط العملاق إلى جواره على حافة

الفراش... لا... لن يستسلم... امتدت يده إلى زر النور في لهفة لكن يد العملاق كانت أسبق إلى يده فقبضت عليها بأصابع من فولاذ.

«ديڤيد... ديڤيد!».

في ظلال الغرفة، وعلى أضواء الطريق الشاحبة المتسللة عبر النافذة رأى وجه نديم هاشم الذي كان يهزه في رفق.

«رأفت... إنت بتحلم؟!».

وهوى قلبه ـ فور سماعه لاسمه ـ بين ضلوعه، وارتخت عضلاته، وألقى بنفسه من جديد فوق الفراش وكانت أنفاسه تتردد بصوت مسموع.

«رأفت!».

«أهلًا سيد نديم».

دس نديم في يده ورقة وهو يهمس:

«بكره تنتظرني الساعة تمانية في العنوان ده».

قبضت يد الفتى على الورقة في حرص.

«وإذا ما عديتش عليك لحد تمانية وخمسة حاتلاقي أوضه في لوكاندة «بلاك هورس» محجوزة باسمك... انزل فيها لحد ما اتصل بيك تاني».

هز الفتى رأسه إيجابًا فنهض نديم متسائلًا:

«سمعتني كويس يا رأفت؟!».

«سمعتك كويس».

وسبح الشبح العملاق في هواء الغرفة حتى غادرها، وظل الفتى جامدًا في مكانه، يقاوم رغبة عنيفة في البكاء!

❋ ❋ ❋

مالت الشمس نحو الغروب فخرج خالد عز العرب إلى شرفة الڤيلا وراح يراقب الطبيعة من حوله، كان كل شيء ساكنًا سكونًا مدهشًا. أجال بصره في الجبال المتماوجة بلا نهاية، راقب فلاحًا يصعد الجبل فوق حماره إلى حيث تربض القرية غير بعيدة، شقشق طائر مر بجواره ثم اختفى وسط الفضاء الرحب... كان خالد متوترًا في انتظار الضيف القادم، وفي الصباح زاره نديم مكث لساعة احتسيا فيها كوبين من الشاي المعد على الطريقة المصرية، بدا خالد عز العرب وكأنه طفل في انتظار اللقاء ببطل أسطوري، أمطر نديم بالأسئلة حتى صاح هذا:

«جرى إيه يا دكتور، كلها كام ساعة وحا تزهق منه!».

صاح أحد الشبان المحيطين بكشك المثلجات فانتبه خالد من استغراقه، مرت فتاة قبرصية عن بعد في استقامة ذكرته بنساء الصعيد في مصر، عندما عرف بالفخ الذي نصبه عزيز الجبالي ـ هكذا قال ـ ثار ثورة عارمة وأعلن الرفض والتمرد معًا.

بداية...

لا بد لنا أن نؤكد هنا أننا نغفل لقب دكتور مضافًا إلى اسم الرجل احترامًا لرغبته... ذلك أن خالدًا الذي حصل على الدكتوراه ـ بامتياز مع مرتبة الشرف ـ من إحدى جامعات أوربا، كان دائمًا ما يغضب إذا ما ذكر اسمه مشفوعًا بلقب «دكتور»... فهذا اللقب لا يطلق في الخارج ـ أو عند المتحضرين كما يحلو له أن يطلق على شعوب الدول المتقدمة ـ إلا على الأطباء فقط... وكان دائمًا ما يقول إن الذين يطلقون لقب دكتور على من يحصل على تلك الدرجة العلمية هم من أبناء الدول المتخلفة ـ كان خالد عز العرب يرفض تسمية تلك الدول بالنامية لأنها تسمية غير دقيقة علميًا ـ من الآسيويين والإفريقيين ومواطني أمريكا الجنوبية الذين تبهرهم الألقاب حتى ولو كانوا لا يستحقونها... ثم إننا نرى أننا حتى ولو أضفنا هذا اللقب إلى اسم الرجل فلن نضيف شيئًا إلى قيمته،

فلقد كان راهبًا بحق في محراب هذا العلم الذي تفوق فيه تفوقًا وضعه في مصاف أفذاذ العلماء في العالم، ضاربًا عرض الحائط بكل ما قد يصيبه من شهرة أو مال إذا ما خرج ببحوثه إلى العلن، مكتفيًا بأنه ها هنا ـ في تلك المعامل وهذا الجهاز ـ يقوم بواجب على أرفع قدر من السمو، فوق أنه يجد ـ وهذا مهم للغاية ـ كل ما يحتاج إليه من معدات ومواد وكان يكفي أن يطلبها حتى يجدها تحت تصرفه، دونما حاجة إلى روتين أو بيروقراطية تقتل الحماس وتضيع الوقت فيما لا طائل وراءه... وأنه ها هنا أيضًا يجد فرصته كاملة في أن يصول ويجول في عالمه اللامحدود، عالم الاتصالات اللاسلكية، والتي كانت تلك السنوات ـ على حد تعبيره ـ هي بداية عصر «ثورة الموجات» التي قد تنتهي بنقل الإنسان من مكان إلى مكان دون حاجة إلى مركبات تحمله.

احتل خالد في جهاز المخابرات المصري مكانة خاصة، وأعطيت له الحرية كاملة في إنشاء هذا القسم وتنظيمه واختيار المعاونين، الذين كانوا بطبيعة الحال من نفس نوعيته وأسلوبه في التفكير، والذين تحولوا إلى أسرة شديدة الترابط، تبدو الأفكار في عقولهم وكأنها تسبح في أوان مستطرقة. فإذا العلم ينساب من العقول إلى العقول وإذا لقاح الأفكار ينتج معجزات قدر لها ألا تخرج إلى العلن... وإذا تلك العقول تزداد مع الأيام خصبًا، وتفرز عطاء، وتصبح مثار إعجاب العدو قبل الصديق!

لذلك، فما إن علم خالد برغبة عزيز في أن يقوم بتدريب الفتى على الاستقبال اللاسلكي حتى ثار ثورة حقيقية، فمثل هذه المهمة من الممكن أن يقوم بها أي فني أو ضابط لاسلكي، واعتبر خالد عز العرب أن هذا التكليف مهين له... إن عمله الحقيقي هنا بين أجهزته المعقدة والتي ترسل أصواتًا، وهي بين يديه ويدي معاونيه وتلاميذه تتطور يومًا

بعد يوم، تسابق الزمن أمام عدو لا يألو جهدًا في التقدم واكتشاف كل جديد من الممكن اكتشافه!

كادت أزمة حقيقية تتحكم في الموقف لولا أن استدعى شريف والي عزيز الجبالي إلى مكتبه:

«عزيز، إنت دلوقت خلقت لنا أزمة مع الأستاذ ده، وانت اللي لازم تحلها!!».

أدرك عزيز منذ الوهلة الأولى أن مهمته ليست سهلة، وهو عندما اقترح اسم خالد عز العرب كي يدرب الفتى كان يحقق له إحدى أمانيه التي طالما سمعه يتحدث عنها، كما كان هدفه الأسمى هو سرعة تدريب الفتى في أقصر وقت ممكن، والوصول به إلى أرقى مستوى من الممكن أن يصل إليه في أيام قليلة... ذلك أن غياب رأفت الهجان عن إسرائيل في الشهور الأخيرة كان قد تكرر وتعددت سفراته... حقًّا، كان لكل سفرية غطاؤها المقنع، وحقًّا إن المواطن الإسرائيلي كان من حقه أن يسافر وقتما يشاء ويعود عندما يريد، إلا أن حاجز الأمن كانت له حدود يجب التوقف عندها... كان هذا سلاحًا في يده قرر أن يشرعه في وجه هذا العالِم العصبي المزاج، بالإضافة إلى تلك الرغبة الدفينة عند خالد في رؤية واحد من هؤلاء الذين يتحدث إليهم من خلف أستار كثيفة من السرية والكتمان.

قال عزيز الجبالي مبتسمًا:

«إنت تعرف الشخص اللي انت حاتدربه ده يبقى إيه؟!».

«أولًا أنا مش حادربه، ثانيًا أنا مش عاوز اعرف عنه حاجة»!

«لاحظ إنه شخص غير عادي!».

أفلح عزيز في استفزازه، فلقد سأله في استخفاف:

«غير عادي بالنسبة لمين؟!».

«مش فاهم؟!».

«بالنسبة لكم، والا هو اللي مش عادي فعلًا؟!».

«الاتنين»!!

«ما تتعبش نفسك، أنا معنديش وقت أضيعه في حاجات صغيرة بالشكل ده».

«مش يمكن تستفيد منه؟!».

أدرك خالد أن عزيزًا يمعن في استفزازه

«هو عايش فين؟!».

«في إسرائيل».

«جنسيته إيه؟!».

«مصري».

برقت عينا الرجل ببريق لم يخف على عيني عزيز الذي أردف:

«واسمه رأفت علي سليمان الهجان».

وهكذا أصاب عزيز الهدف، فلقد كان خالد دائمًا ما يقول إنه في تعامله مع رجالنا في تل أبيب يشعر أنه يتعامل مع أشباح أو شخصيات أسطورية، وأنه يتمنى لو أتيحت له رؤية البطل وجهًا لوجه، فإن مثل هذا اللقاء سوف يضيف الكثير إلى أفكاره.

«أنا محتاج أشوف الراجل ده».

هكذا قال خالد، فتنفس عزيز الصعداء، وراح يرقبه وهو يتشاغل ببعض المعدات مغمغمًا:

«أنا عندي شوية أسئلة عاوز أسألها له».

ولم يرد عزيز، تركه يعبر عن نفسه حتى النهاية، فلقد أضاف:

«وأكيد إجاباته حاتساعدنا في شغلنا هنا قوي».

وهكذا وافق خالد عز العرب، وراح يستعد للسفر وقد انهمك في إعداد ذلك الجهاز الصغير الذي أعده خصيصًا لتدريب الفتى... وانقضت الأيام، وجاء إلى قبرص، وها هو في انتظار البطل قادمًا مع نديم هاشم، وقد بلغت أفكاره أعلى درجات التوتر.

* * *

كان العنوان الذي أعطاه نديم للفتى هو لناصية يتقاطع عندها شارعان في حي هادئ من أحياء العاصمة نيقوسيا... وصل رأفت قبل الموعد بدقائق، غادر السيارة الأجرة على بعد بضع مئات من الأمتار، لف ودار في المكان واختبر الطريق حتى اطمأن، عندما وصل إلى الناصية كانت الساعة الثامنة تمامًا، ظهرت سيارة إنجليزية الصنع يقودها شاب لا تنبئ ملامحه عن جنسية أو وطن، في المقعد الخلفي كان يجلس نديم هاشم، ما إن اقتربت السيارة من الفتى حتى فتح الباب الخلفي، ووصل صوت نديم إلى رأفت هاتفًا:

«اركب».

ألقى بنفسه داخل السيارة التي عادت إلى الانطلاق وكان الظلام يهبط على المدينة... دارت السيارة دورات عديدة ومعقدة داخل العاصمة حتى قال نديم للسائق:

«فلننطلق».

وكانت هذه الكلمة بالإنجليزية هي كل ما قاله نديم طوال الطريق إلى خارج نيقوسيا، حتى إذا وقفت السيارة في تلك المنطقة الجبلية كان الظلام يدثر المكان تمامًا، غادر الفتى السيارة مع نديم فانطلقت

كي تذوب في الظلام من جديد، وقال نديم متقدمًا الفتى نحو المدق الموصل إلى قمة الجبل:

«تعال يا رأفت».

وما هي إلا دقيقتان حتى كانا يدلفان إلى الڤيلا... وكان خالد عز العرب، بكل الانبهار، يقف في انتظارهما مرحبًا.

وكانت خطوة الفتى إلى داخل الڤيلا... هي في واقع أمرها خطوة أولى نحو عالم رحيب ورهيب ومليء بما لا يخطر على البال.

الفصل السادس

اللاّسلكي

قال عزيز الجبالي لهيلين سمحون إن الحديث عن مثل هذه الأمور التكنيكية يبدو للبعض ـ دون شك ـ باعثًا على الملل... لكن الحقيقة تقول: إنه لا يمكن فهم «القصة» فهمًا كاملًا، والإلمام بكل جوانبها، بدون هذا الحديث الذي يرى أنه لا بد منه!

ضحكت فراو سمحون وهي تسأله:

«لعلك تخشى أن يتسرب الملل إلى نفسي أثناء حديثك عن هذه الأمور!».

ابتسم عزيز في خجل غير مصطنع، فأردفت هذه السيدة:

«في بعض الأحيان كنت ـ وأنا مستغرقة في الاستماع إلى قصة الرجل الذي ملك عليّ حياتي منذ أن التقيت به ـ أتوقف أمام بعض الأسئلة التي تخطر بالبال حول الأسلوب أو الوسيلة أو ما إلى ذلك من تفاصيل، ولولا يقيني من أنك في لحظة ما سوف تحكي لي هذا وتوضحه، لقاطعتك طالبة المزيد من التفسير!».

صمتت هيلين فلزم عزيز الصمت هو الآخر، حتى عادت إلى الحديث مرة أخرى قائلة:

«لعلك لا تدري أن انفعالي شديد بقصة هذا المواطن الذي مرَّ بكل تلك المحن، وفعل كل هذا الذي فعله من أجل وطنه، بصرف النظر ـ تمامًا ـ عن أن هذا المواطن كان زوجي!».

أثلج حديثها صدر الرجل الجالس أمامها حقًّا، ولم يجد ما يعلق به أكثر من ابتسامة، وما لبثت هي أن بادلته الابتسام مستطردة:

«لقد طالبت بقصة زوجي كاملة وبكل ما فيها من تفاصيل، وأنا عندما طرحت عليكم هذا الطلب كنت أدرك أن عشرين عامًا في حياة إنسان «فوق العادي» ـ بكل المقاييس ـ ليست شيئًا هينًا ولا سهلًا... ومن يسع إلى المعرفة فعليه أن يتحمل مشاقها!».

صمتت هيلين، وراح عزيز ينظر إلى تلك السيدة في إعجاب شديد لوضوح الصورة في ذهنها، لكنها ما لبث أن ضحكت مقتضبة وهي تردف:

«ولعلك أيضًا لا تدري «هر» جبالي أن لديَّ ما أضيفه إلى حديثك بعد أن تفرغ أنت منه».

رفع حاجبيه دهشة فأكملت:

«هناك رأفت الهجان الذي كان ديفيد شارل سمحون».

أمال رأسه في تساؤل فأوضحت:

«هناك رأفت الهجان الحبيب والصديق والزوج والأب... هل تعرف عنه شيئًا؟!».

«بالقطع لا أعرف ما تعرفينه!!».

«إذن فعليك أن تستمر في حديثك دون حرج من ملل أو ضيق، فلسوف أهديك ما حدث تمامًا خلال السنوات التي عرفت رأفت فيها، وحتى لحظة وفاته!».

وهكذا... عاد عزيز إلى الحديث أكثر نشاطًا وإقبالًا عليه!

* * *

بدأت تلك الليلة الأولى بين نديم هاشم والفتى في قبرص بداية غير متوقعة... فوجئ رأفت بوجود خالد عز العرب، وقد كان يظن أنه لن يلتقي بأحد سوى نديم مثلما حدث في تلك المرة التي دربه فيها في جنوا... وهو كان قد تعلم أنه مع وجود شخص جديد، أو يبدو غريبًا، أن يترك قيادة الحديث إلى نديم، ولذلك فعندما ركب إلى جواره في السيارة التي أقلتهما من «نيقوسيا» إلى تلك الڤيلا المنعزلة وسط الجبال لم يفتح فمه بكلمة، ركن إلى الصمت كما فعل نديم تمامًا، حتى إذا ما وصلا إلى الڤيلا وقدمه هذا إلى خالد عز العرب، قال في اقتضاب:

«الأخ رأفت!».

صافحه خالد وهو يحملق فيه متفرسًا، فشعر الفتى بالحرج، لكن نديم ابتسم قائلًا:

«الدكتور خالد يا رأفت».

«أهلًا وسهلًا».

«إن شاء الله حاتتعاون معاه طول ماحنا هنا، وعاوزينك تطول رقبتنا قدام العلماء بتوعنا!».

وهكذا عرف رأفت أن خالدًا عالِم من علماء المخابرات المصرية، وأن أمر التدريب هذه المرة يحتاج إلى وجوده، فقال ضاحكًا في محاولة للاستنتاج:

«لازم فيه حبر سري مش عادي المرة دي!».

قال خالد في استقامة وهو يأخذ مكانه أمام الفتى:

«ده صحيح... بس عاوز شوية معاملات معقدة».

«مش ده المهم يا دكتور، المهم إنك تضمن لي إنه ما ينكشفش!».

كان نديم ـ بمعرفته بشخصية الفتى ـ قد اتفق مع خالد ألاّ يذكر أمامه شيئًا عن التدريب على ذلك الاستقبال اللاسلكي إلا بعد الانتهاء من التدريب على ذلك النوع الجديد من الحبر السري، الذي قدر له أن يستغرق فيما بين يوم أو يومين، والذي كان يعتمد بالفعل على بعض العمليات المركبة لتحضيره أو إظهاره، مثل التعرض لدرجة حرارة معينة، ووضع الورقة تحت ضغط محدد، وما إلى ذلك.

ولقد بدا في تلك الليلة الأولى أن الفتى يتطلع إلى الانفراد بنديم هاشم لذلك فما إن تناول خالد معهما طعام العشاء واتفقوا على أن يبدأ العمل في الثامنة صباحًا حتى استأذن تاركًا إياهما معًا في شرفة الڤيلا، وقد أوغل الليل وساد السكون.

كان الجو رائعًا والسماء صافية ونباح الكلاب في القرية القريبة تؤنس وحشة الجبال، ولقد أحس الفتى برغبة شديدة في الحديث، فوجئ رأفت بنديم يسأله وكأنه يعريه من أفكاره:

«ما لك يا رأفت؟!».

«باحب!!».

هكذا اقتحم الموضوع بلا مقدمات، كان يدرك تمام الإدراك أنه لو لف ودار، أو تردد مثلما فعل مع حسن القطان فلربما أحجم عن مناقشة هذا الأمر الذي أصبح يؤرقه ليل نهار.

قال الفتى إنه يعاني منذ بضعة أشهر، وهو منذ أن التقى بتلك الفتاة السمراء في بيت واحد من أفراد شبكته المدنية، وهو البروفسور «شاءول...» وهو موقن أن ثمة شيئًا بينهما سوف يحدث... قدمها له البروفسور الذي يشغل مركزًا مهمًّا في «مفاعل ديمونة» والذي كان

يقضي إجازته الأسبوعية دائمًا في تل أبيب حيث يدعو مع الفتى مجموعة صغيرة من الأصدقاء لقضاء سهرة السبت... قدم له «حنة بلومبرج» على أنها شقيقة زوجته... وكان واضحًا منذ البداية أن «حنة» تعرف كل شيء عن الفتى من شقيقتها وزوجها، ولقد عرف رأفت في تلك الليلة أنها تعيش وحدها في الولايات المتحدة الأمريكية، وأنها تدرس في معهد الـ «إم. آي. تي» (M. I. T) ذلك المعهد العالمي في بوسطن، والذي يضم مجموعة مختارة من أفذاذ العلماء في العالم أجمع... كانت «حنة» سمراء البشرة، توحي لمن يراها أنها مكسيكية أو يونانية، أبرز ما في جمالها هاتان العينان الواسعتان اللتان تشعان ـ على الدوام ـ ذلك البريق الذي ينبئ عن ذكاء بلا حدود... ولقد استطاع الفتى دون جهد يذكر أن ينفرد بحنة في تلك الليلة، أغرب ما شعر به ـ ودون مقدمات! ـ أنه معها كان يولد من جديد... لكنه عندما سألها عن سر إقامتها في الولايات المتحدة دون إسرائيل، قالت في استقامة حيرته:

«لأني غير مقتنعة بالعنصرية»!

حملق فيها دهشًا فأردفت باسمة:

«أنا يهودية تمامًا، هذا لا شك فيه، ولكن عقلي يرفض هذا الذي يحدث هنا!».

«وما هذا الذي يحدث هنا؟!».

«إننا نتهم أعداءنا بالعنصرية في حين أننا نقيم دولة عنصرية!».

كان منطق الفتاة بسيطًا بساطة مذهلة، قال الفتى لنديم هاشم في تلك الليلة وهما جالسان في شرفة تلك الڤيلا خارج نيقوسيا إنه ذهل لأن المنطق كان بسيطًا ومخيفًا في نفس الوقت!

قالت له حنة إنها ناقشت نفسها طويلًا في الأمر، وفكرت بالفعل في النزوح إلى إسرائيل كي تكون قريبة من شقيقتها وزوجها فهما كل

عائلتها... لكنها كانت دائمًا ما تواجه نفسها بقضية لم تستطع الفرار منها... فإذا كانت هي من الذين يؤمنون بحرية البشر في اعتناق ما يشاءون من مذاهب سياسية، فالأجدى أن تكون مقتنعة بحريتهم في اعتناق ما يشاءون من أديان... سألته فجأة:

«علمت أنك مصري الأصل».

«هذا حقيقي!».

«هل كنت تشعر وأنت في مصر قبل عام ١٩٤٨ بأي فرق بينك وبين أي مسلم أو قبطي فيها؟!».

لم يشأ الفتى أن يرد على الفور، كان هذا المنطق بالذات هو ما يثير غيظه وحفيظته على يهود إسرائيل، فهو كمصري مسلم لم يشعر بذلك الفارق في بلاده... بعد فترة تردد بدا فيها أن الفتى كان يقلب الأمر في ذهنه قال:

«بصراحة... ليس كما يصورون الأمر هنا!».

«وهذا هو بيت القصيد!».

«ولكنك تغفلين ما حدث لنا في أوربا خلال الـ...».

قاطعته:

«هذه مرحلة من مراحل البشرية علينا أن ندركها جيدًا... إن الكنيسة التي اضطهدت اليهود في فترة من الفترات، قد اضطهدت ـ في نفس الفترة ـ المسيحيين، تحت زعم أنها ظل الله في الأرض!».

«لم تكن الكنيسة وحدها هي التي... ...».

«لولا الكنيسة ما حمل الناس على اليهود!».

«وماذا عما فعله هتلر في العصر الحديث؟!».

«لقد اضطهد هتلر يهود ألمانيا حقًا، ولكن... لِمَ ننسى أن القياصرة اضطهدوا يهود روسيا أيضًا؟!».

هم الفتى بالنطق فأردفت:

«لقد اضطُهد اليهود في أوربا كلها، أليست هذه حقيقة؟!».

فضل رأفت الهجان أن يلزم الصمت بعد ذلك، فلقد امتد الحوار بينهما يومًا بعد يوم، خاصة وأن البروفسور شاءول كان عليه أن يعود إلى عمله في ديمونة، تاركًا نسيبته الحسناء في رعاية ديفيد العزيز!

قال رأفت لنديم هاشم إنه لم يعرف متى - بالضبط - وقع في حب هذه الفتاة حنة بلومبرج، لكنها بدت له مختلفة عن الأخريات، أكثر ما كانت تتمتع به تلك الفتاة هو وضوح رؤيتها للأشياء... قالت له ذات ليلة إنها أدركت مبكرًا أن إنسان العصر الحديث في حاجة إلى حل خلافاته الشكلية ووضعها في حجمها الطبيعي، فلقد كانت ترى أن العالم - بالتطور الرهيب في العلم والذي تتزايد سرعته يومًا بعد يوم - سيواجه في المستقبل القريب من المشاكل ما سوف يجعل مثل هذه المشكلات التي تتناحر حولها الشعوب صغيرة وتافهة وبلا قيمة... كانت ترى أن «الجنس البشري» عليه أن يستعد لمواجهة المستقبل الذي لم تكن تراه زاهيًا، لأن نزعة الشر في الإنسان إلى استخدام كل ما يتوصل إليه من اكتشافات في التدمير بدلًا من البناء... قالت له ذات مساء وكانا يجلسان على الشاطئ متلاصقين وهي تومئ نحو تل أبيب من خلفهما:

«أليست هذه هي إسرائيل؟!».

«نعم!».

«ألستُ يهودية؟!».

«بالتأكيد!».

«فلم لا أشعر بالأمان هنا إذن؟!».

لم يرد الفتى، فقد راح يحملق في عينيها وهما تشعان ذلك البريق الأخاذ لكنها استطردت:

«لقد تحدثت مع شقيقتي وزوجها في الأمر طويلًا... حقًّا إنهما لم يصرحا لي بشيء خاص، لكني أشعر بحنينهما إلى الحياة الطبيعية... لقد اندفعا في البداية وراء فكرة بدت لهما سامية، لكنهما على ما أعتقد اكتشفا أنهما اندفعا وراء سراب!!».

حبس الفتى أنفاسه فلقد كانت صادقة تمامًا فيما تقول، اعتدلت في جلستها أمامه موضحة:

«المشكلة يا حبيبي أننا لا نستطيع أن نفرق بين الوطن وبين الأرض!».

«ماذا تقصدين؟!».

«الوطن ليس هو الأرض وحدها، بل الأرض والناس معًا، أليس الأمر كذلك؟!».

مط الفتى شفتيه متمتمًا:

«ربما كان الأمر كذلك!».

«لقد كنا نبحث منذ أيام إبراهيم عن أرض تأوينا وليس وطن يضمنا... ولأننا كنا أول من عرف الله فلقد ظننا أننا مختارون عنده دون سوانا من البشر، ولكن الحقيقة المؤكدة، ومنذ ألفي عام، أن الآخرين أيضًا عرفوا الله، ربما بصورة أفضل من تلك التي عرفناه بها!!».

كان الفتى مبهورًا بمنطق الفتاة، صمتت لثوان ثم عادت إلى الحديث بنبرة أسى واضحة:

«علينا أن نعترف يا ديفيد أن الرب لم يعد حكرًا علينا، بل أصبح مشاعًا للجميع»!!

قالت هذا ثم عادت إلى الصمت الحزين، كانت مطرقة فاحترم الفتى صمتها حتى رفعت إليه رأسها:

«أنتم... عندما جئتم إلى هنا كنتم تبحثون عن أرض تعيشون فيها بعيدًا عن أوطانكم... لماذا؟!».

أراد الفتى أن يجادلها هتف:

«وماذا عن السابرا؟!».

«هؤلاء الذين ولدوا هنا أمرهم يختلف، إن هذا وطنهم، لكنك لا تستطيع أن تدعي أن هذه الأرض هي وطنك أنت».

أطبق الفتى شفتيه فلقد كانت الفتاة ـ هذا تعبيره بالضبط ـ تتسلل إلى دمائه.

عادت تسأله:

«أتستطيع أن تنكر أنك في بعض الأحيان تشعر بالحنين إلى مصر؟!».

تذكر سيرينا أهاروني فابتسم قائلًا:

«لا أنكر هذا بالطبع».

«فكيف إذا ذهبت إلى حرب مع المصريين تستطيع فيها أن تقتل من كان جارًا أو صديقًا لك ذات يوم؟!».

في تلك الليلة قالت له «حنة بلومبرج» إنها تريد أن تعترف بأنها تحبه، قالت هذا بنفس الأسلوب والنبرة التي كانت تتحدث بها عن المبادئ المجردة، قالت: إن حبها هذا يجب ألا يؤثر على قراره أو عواطفه، وإنه غير ملزم بأحاسيسها... قالت إنها قررت العودة إلى الولايات المتحدة لفترة قبل أن تتخذ قرارها النهائي فيما يختص بعواطفها... فثمة شاب أمريكي، هو زميل لها في ذلك المعهد العالمي، يعتبر خاطبها بالرغم من

أنها لم تعطه كلمة أو وعدًا، لكنها لم تكن تمانع في تصرفاته ولم تعترض على أسلوبه الذي لم يكن يعني سوى أنهما مخطوبان!

قال الفتى لنديم هاشم الذي لزم الصمت تمامًا، وراح بكل جوارحه يستمع إلى قصة الفتى الذي استطرد بعد أن أشعل سيجارة بأن الفتاة غادرت إسرائيل إلى الولايات المتحدة بالفعل بعد حديثهما هذا بيومين، وأنها طلبت إليه أن يوصلها إلى المطار... ولقد قالت له وهما في السيارة إنها مضطرة إلى أن تفصح لصديقها هذا عن حقيقة مشاعرها حتى تضع كل شيء تحت ضوء لا يخفي الحقيقة مهما كانت، هم الفتى بالحديث فصاحت:

«ديفيد... بحق السماء لا تقل شيئًا فليست المشكلة مشكلتك!».

«حنة!».

عادت إلى الصياح بعصبية وقد اكتست عيناها بالدمع:

«ديفيد... أرجوك!».

عندما حان وقت إقلاع الطائرة مد الفتى يده كي يصافحها، ولكنها تعلقت بعنقه ودفنت رأسها في صدره، ثم قبلته في وجنته، ومضت وهي تمسح دمعها المنهمر!

صمت رأفت وكان الانفعال قد وصل به إلى ذروة جعلته غير قادر على الاستمرار في الحديث... ألقى نديم هاشم ببصره إلى حيث الجبال تسبح في ضوء النجوم كأشباح هاجعة... ظل الصمت بينهما قائمًا حتى قال رأفت الهجان:

«من كام أسبوع لقيتها قدامي في تل أبيب!».

اعتدل نديم في جلسته وقد استشعر الخطر.

«قالت لك إيه؟!».

«ماقالتش حاجة أكتر من إنها استفادت من بعدها عني لأنها قدرت تعرف الحقيقة بالنسبة لعواطفها من غير تأثيرات خارجية!!».

«بيتهيأ لي إن الكلام كده يبقى واضح».

«وقالت إن العلاقة بينها وبين زميلها الأمريكاني مكانتش كويسة في الفترة اللي قعدتها هناك!».

«وانت قلت لها إيه؟!».

زفر رأفت زفرة حارة قبل أن يقول:

«ماقدرتش أقول لها حاجة، وبيتهيأ لي إن ده محيرها جدًّا!».

فوجئ الفتى بنديم يسأله:

«أخذت قرار يا ديڤيد؟».

أدرك الفتى خطورة رده فلزم الصمت لثوان، لكنه أخيرًا غمغم:

«قلت أستنى لما أشوفك».

لم يشأ نديم أن يناقش الفتى في تلك الليلة، طلب إليه تأجيل الحديث في الموضوع حتى ينتهيا مما جاءا من أجله، ثم أنهى الحوار بقوله:

«بيتهيألي يا رأفت إنك محتاج تشغل نفسك بحاجة لفترة معينة، علشان تقدر تعرف حقيقة عواطفك من غير تأثيرات خارجية».

هكذا حسم نديم الأمر، بأن طلب إلى الفتى أن يصنع نفس ما صنعته «حنة بلومبرج».

* * *

في الثامنة من صباح اليوم التالي بدأ العمل.

كان كل من نديم وخالد قد دُربا على كيفية تركيب ذلك النوع الجديد والغريب من الحبر السري، أعطاهما الفتى كل اهتمامه فأظهر

براعة في اكتساب المعلومات أدهشت ذلك العالم الذي كان يراقبه بعين فاحصة... بعد أربع وعشرين ساعة همس لنديم وكانا منفردين بعيدًا عن الفتى الذي انهمك في إجراء تلك العمليات الكيميائية المعقدة لتركيب الحبر السري وإظهاره:

«لما عزيز الجبالي قال لي إن رأفت الهجان شخصية غير عادية، ماصدقتوش!».

«وإيه رأيك دلوقت؟!».

«مش عارف... محتار!».

وفي حقيقة الأمر فلقد كان خالد هو الآخر يخوض نوعًا من الأزمات الفكرية التي شغلته حقًا... ولقد لخص تلك الأزمة في قوله لنديم ذات لحظة:

«صحيح الشبح بقى بني آدم، لكن يظهر إن الواحد بيحب الشبح أكتر!!».

ابتسم نديم دون أن يعلق، فاستطرد خالد:

«فكرة الإنسان البطل، أفضل بكتير من البطل نفسه!!».

لكن أزمة حقيقية لاحت في الأفق لحظة أن انتهى رأفت الهجان من التدريب على الحبر السري الجديد... أبدى إعجابه الشديد بمبتكر هذا النوع من الأحبار وطلب إلى نديم أن يبلغه تحياته... كانت ثمان وأربعين ساعة قد انقضت منذ دخل الفتى لأول مرة إلى تلك الڤيلا، فطلب إلى نديم أن يخرج إلى نيقوسيا يروح فيها عن نفسه، كان نديم يعلم أن هذه اللحظة آتية لا ريب فيها، فاستعد لترويض الفتى قائلًا:

«وإذا حد شافك من الفوج اللي انت جايبه؟!».

«ما يشوفني... هو أنا مش خلصت؟!».

هتف خالد:

«واللاسلكي!!».

جاءت الكلمة مثل قنبلة انفجرت بين الثلاثة، دمر خالد كل ما وضعه نديم من تخطيط وكان عليه الآن أن يواجه الأمر، جمد الفتى في مكانه يردد البصر فيما بين نديم وخالد غير مصدق، ما لبث أن سأل:

«لاسلكي إيه ده يا نديم بيه؟!».

«إنت مش طلبت من حسن حاجة تأمنك أكتر؟!».

«على رقبتي!».

«مش لما تعرف انت حاتتدرب على إيه الأول!».

«إلا اللاسلكي!».

رمى نديم رأفت الهجان بنظرة عتاب صارمة تملص منها الفتى متبرمًا:

«كفاية عليَّ اللي أنا عايش فيه هناك!».

«بس ده في مصلحتك يا أخ رأفت!».

هكذا قال خالد فالتفت الفتى نحوه:

«سيادتك خبير في اللاسلكي؟!».

قال خالد باسمًا:

«شوية!!».

ضحك نديم رغمًا عنه فعاد رأفت إلى سؤال خالد:

«اللاسلكي مش ممكن ينكشف؟!».

«ممكن جدًّا!».

هتف الفتى ملتفتًا نحو نديم:

«شفت بقى؟!».

لاحقه خالد:

«إذا كنت انت اللي حاتبعت».

«مش فاهم!».

أراد خالد عز العرب أن يوضح الأمر للفتى، قال له إن أجهزة التسمع وضبط موجات اللاسلكي المرسلة وتحديد مكانها تقدمت في العصر الحديث تقدمًا مذهلًا، ولسوف تتقدم مع الأيام بحيث يصبح تحديد المكان الذي ترسل منه إشارات لاسلكية من أبسط الأمور، ولكن...

...

«افرض إن واحد هنا في قبرص، وفيه إرسال جاي من مصر زي ما حايحصل قدامك، الإرسال ده مش حايبقى لقبرص وحدها، ولكن للعالم كله، للفضاء بكل اتساعه!».

«يعني إيه؟!».

«يعني لو حد في مصر بعت لنا إشارة، أي واحد في الجزيرة هنا، أو في أي مكان أو بلد ممكن توصل له الموجة دي، ممكن يلتقط الرسالة المبعوتة!».

سرعان ما اندمج الفتى في الحديث مع خالد الذي انهمك في شرح الأمر بتفصيل وصبر لم يتعوده أحد منه، انتحى نديم جانبًا وترك الأمر لهذا العالِم المتحمس كي يقوم به... وشيئًا فشيئًا بدأت الصورة تتضح في ذهن رأفت فجلس أمام الرجل معطيًا إياه كل اهتمامه... نهض خالد عز العرب إلى غرفته مستأذنًا ثم عاد بعد ثوان يحمل في يده جهاز راديو متوسط الحجم وضعه فيما بينهما، ثم فتح الجهاز، وأخذ يحرك المؤشر في حرص المتمكن، كان رأفت يراقبه وقد استغرق الرجل في عمله استغراقًا كاملًا، عندما طالت الدقائق، سأله رأفت:

«ممكن أعرف سيادتك بتعمل إيه؟!».

«بادور على رسالة بتتبعت!».

ضحك رأفت رغمًا عنه:

«إيش عرفك إن فيه رسالة بتتبعت دلوقت؟!».

رفع خالد رأسه إلى رأفت موضحًا:

«في كل ثانية، ليل ونهار، فيه إشارت بترسل من كل الدنيا لكل الدنيا!».

ثم عاد إلى الجهاز ليعطيه كل سمعه حتى هتف:

«أهو... سامع؟!».

لم يكن الفتى يسمع سوى خليط من شوشرة متداخلة وصفير وأصوات ظلت تصفر وتصفر ويد الرجل تضبط المفتاح لم يعد هناك سوى ذلك الصفير المتقطع لإشارات اللاسلكي المعروفة...

بدا خالد عز العرب وقد استغرق في سماع تلك الإشارات: «تيت تت تيت»... حتى إذا مرت دقائق سأله الفتى:

«فهمت اللي بيقولوه؟!».

«أيوه... دي مركب ماشية في عرض البحر، قبطانها بيطلب من مركز الشركة شوية حاجات قبل ما يدخل الميناء اللي جاي!».

«بالسهولة دي تقدر تعرف اللي بيقولوه؟!».

«لأن المركب مابتبعتش رسالة سرية، ولا بالشفرة!».

«طب أنا حافرض إن سيادتك بعت لي رسالة في تل أبيب... ...».

قاطعه خالد:

«كل بني آدم في فلسطين كلها، يكون معاه راديو حساس شوية ممكن يلتقطها!».

مرت لحظة قال بعدها خالد:

«لكن هي مبعوتة لمين بالتحديد... ده اللي مستحيل يتعرف!».

«يعني مفيش خطورة؟!».

«فيه خطورة لو انت اللي بعت، إنت اللي أرسلت، في الحالة دي ممكن يضبطوا الموجة، ويحددوا مكان الإرسال، ويعرفوا المرسل!».

«معنى كده إني مش حابعت... حاستقبل بس!».

«ويشفرة مستحيل حد يضبطها!».

«ليه؟!».

«لأن مفتاحها حايكون معاك انت بس!».

«مفتاحها؟!».

«نهض خالد مهرولًا إلى غرفته ثم عاد وفي يده ذلك الكتاب الذي اشتراه عزيز الجبالي من إحدى مكتبات وسط القاهرة، لوح بالكتاب في وجه الفتى:

«أهو ده المفتاح!».

امتدت يد الفتى كي يأخذ الكتاب وكان خالد يقول:

«الكتاب ده فيه نسخة تانية في مصر، نسخة طبق الأصل مستحيل الشفرة تتحل إلا بالرجوع للكتاب ده وللطبعة دي بالذات!».

«ده كتاب أمريكاني!».

«وموجود منه نسخ في أمريكا وإنجلترا وأوربا ومصر وأكيد حاتلاقي منه نسخ في إسرائيل، بس مين اللي يعرف بقى إن الكتاب ده بالذات هو مفتاح الشفرة اللي بينك وبيننا؟!».

صمت الفتى مفكرًا، لكنه ما لبث أن سأل:

«طب والشفرة دي... ...».

«استنى لما تعرفها وبعدين ناقش».

وهكذا، وعلى مضض، وافق رأفت الهجان أن يبدأ درسه الأول في الاستقبال اللاسلكي في صباح اليوم التالي في تمام الساعة الثامنة.

* * *

تلك كانت أيامًا عصيبة بحق في حياة رأفت الهجان... حدد خالد عز العرب عدد ساعات العمل حتى ينتهي تدريب الفتى، وفي المدة المحددة بثماني ساعات في اليوم... وكان على نديم ـ في أوقات الفراغ ـ أن يقوم بتدريبه على تلك الجوانب المتقدمة في إدارة شبكات التجسس المتشعبة... وإذا كان التدريب على اللاسلكي يصبح مرهقًا وثقيلًا على الأعصاب، خاصة مع هؤلاء الذين يخوضون بحر هذا الفن لأول مرة، فلقد كان على رأفت الهجان أن يحفظ كل شيء عن ظهر قلب وألا يكتب منه كلمة... وبين الحين والحين كان يثور ويتذمر ويرفض ويصيح:

«أنا مخي حاينفجر!».

لكنه كان ـ بالرغم من كل شيء ـ يستمر، حتى إذا كان يوم فوجئ نديم وخالد بالفتى وقد امتلأ جسده بالبثور. كان عصبيًّا، لكنه راح يبذل جهده كي يسيطر على نفسه. فسأله نديم:

«إيه ده يا رأفت؟!».

صاح الفتى:

«من الحبسة اللي أنا فيها يا سيد نديم!».

وانفجر نديم ضاحكًا، لكن الفتى ابتسم بلا معنى... كانت الأيام تمضي بطيئة ثقيلة، دُرب الفتى في أول الأمر على ضبط الموجة وكيفية

التقاطها في أوقات معينة كانت قد تحددت من قبل. كان ثمة من يبث من القاهرة إشارات بعينها، قد تكون ذات معنى وقد لا تكون. المهم... إنه في تلك الأوقات بالذات كان على رأفت الهجان أن يضبط الموجة حتى يصبح الصفير المرسل أصفى ما يكون... ثم دُرب على التقاط الإشارات، وتحويل ذلك الصفير المتقطع إلى أرقام وذلك بواسطة جهاز صغير كان يرسل أزيزًا مكتومًا، يضغط خالد على مفتاحه، ويحول الفتى الأزيز إلى أرقام... وكانت هناك الشفرة الجديدة والعبقرية التي وضعها سعيد مظهر عالِم الرياضيات البحتة.

كانت هناك أرقام عربية وأرقام لاتينية... يبدأ الإرسال بالأرقام العربية التي يدونها الفتى في مجموعات، ثم تتحول هذه الأرقام ـ حسب جدول معين ـ إلى أرقام لاتينية... بعدها يجمع ناتج الأرقام العربية مع اللاتينية، كي يحصل على مجموعة من الأرقام التي تتقابل بأسلوب مركب، مع صفحات الكتاب مرة، ومع السطور في الصفحة الواحدة مرة أخرى... بعد ذلك يتم اختيار الصفحات حسب جدول خاص، فإذا ما تجمعت الحروف، كونت ـ بواسطة جدول آخر ـ مجموعات من الأرقام تتحول إلى جمل تصبح في النهاية هي الرسالة المرسلة:

«مش ممكن!».

هكذا صاح رأفت فجأة، وعلى غير انتظار!

«ليه يا أخ رأفت؟!».

«مش عارف!».

«إيه اللي انت مش عارفه؟!».

«كل حاجة... كل حاجة!».

«لازم تحاول!».

«مش عاوز!».

هم خالد بالحديث فأوقفه الفتى صائحًا:

«ماتتعبش نفسك! انسوا حكاية اللاسلكي دي خالص».

بدا أن رأفت الهجان قد وصل إلى درجة من الإرهاق والعصبية لم يعد قادرًا معها على احتمال الاستمرار، ولقد كانت هذه هي البداية لأزمة راحت تتطور بسرعة. ومع توتر الأعصاب وضغط الزمن على الرجال والرغبة في إنهاء المهمة في الوقت المحدد انفجر الموقف عنيفًا عنفًا غير متوقع...

كان نديم هاشم يجلس في الشرفة وحيدًا عندما وجد خالدًا أمامه بادي الارتباك، وما إن عرف منه ما حدث حتى نهض إلى الفتى مدركًا الضغط الواقع عليه، محاولًا إقناعه بأن غيابه الطويل عن رفاقه قد يثير الكثير من الشكوك هو في غنى عنها.

«ماتتعبوش نفسكم خلاص، خلاص!».

«يا رأفت».

«مفيش رأفت!».

«أنا عارف إنك... ...».

«حتى إذا ما عرفتش!».

«رأفت!».

هكذا زأر نديم هاشم، ولقد كانت كلمة زئير هي التي استعملها خالد عز العرب وهو يحكي لعزيز الجبالي ما حدث في تلك الليلة الليلاء في قبرص... قال خالد إنه قد سمع عن نديم، عن شجاعته وقوته وعنفه إذا غضب، لكنه أبدًا لم يتخيل هذا الذي رآه في مواجهة فتى راح يتنفض بعصبية صارخًا:

«مش عاوز!».

«إنت فاكر نفسك فين؟!».

«مش حادرب على اللاسلكي».

«إنت متخيل إن مفيش ورانا غيرك؟!».

«ما يهمنيش!».

أشار نديم إلى خالد الذي قبع في ركن المكان وقد حبس أنفاسه وهو يرقب ما يحدث أمامه في توتر، ثم فوجئ بما ليس في الحسبان!

«الراجل جاي من آخر الدنيا، سايب شغله، وسايب بيته، وسايب جهاز بحاله علشان يدرب سبع البرمبه اللي مفيش على الحجر غيره علشان نأمنه ونحافظ عليه، تكون دي النتيجة؟!».

«أيوه...».

في عناد طفل قالها رأفت فعاد الزئير منذرًا:

«رأفت!».

«مش حادرب!».

عاد نديم إلى الزئير:

«إنت اتعلمت ترفض حاجة من غير مناقشة؟!».

«يا سيد نديم ماتودونيش في داهية كفاية اللي أنا عايش فيه!».

«من غير مناقشة... حاتدرب على اللاسلكي يعني حاتدرب على اللاسلكي!».

قال نديم هذا في وجه الفتى الذي كان يرتجف الآن غضبًا وخوفًا، كان يبدو مثل فرخ ابتل بالمياه فوقف ينفض نفسه وكل العناد في عينيه.

«حاتدرب وإلا حادفنك في الجبل هنا... فاهم، حادفنك!».

مضت لحظات وكل منهما يواجه الآخر لاهثًا، عندما قال نديم في صرامة:

«إذا كنت مستغني عن نفسك، إحنا معندناش استعداد نستغنى عنك!».

قال هذا... ثم استدار، وغادر الڤيلا لا يلوي على شيء!

* * *

قال نديم هاشم فيما بعد وهو يضحك للذكرى موضحًا الأمر: إن ضابط المخابرات يضطر في بعض الأحيان إلى أن يلعب دور الأب. قد يكون خشنًا أحيانًا، وقد يكون قاسيًا في أحيان، لكنه في خشونته وقسوته لا يستهدف إلا مصلحة ولده... قال نديم إن الفتى بعد أن تدرب وفهم وتعلم اعتذر له عما بدر منه قائلًا إنه لم يستطع أن يدرك الفائدة الكامنة وراء تلك المشقة. ولقد كانت أولى تلك الفوائد أنه أصبح قادرًا، حتى ولو في مواعيد معينة، أن يستمع في غربته إلى صوت وطنه عبر جهاز الراديو وهو يتحدث إليه هو شخصيًا. وأن الرسائل التي كان يتلقاها من القاهرة كانت في بعض الأحيان دافئة إلى حد مثير للحنين والعواطف.

غادر نديم هاشم الڤيلا وظل الفتى في مكانه بلا حراك لدقائق طالت. عندما تحرك التفت إلى خالد عز العرب الذي نهض إليه على الفور وقدم له سيجارة هامسًا في ود:

«تعبت يا رأفت؟!».

سأله الفتى في صدق جارح:

«أنا كنت عصبي قوي؟!».

«وهو خايف عليك!».

«عارف... المصيبة إني عارف... ومتأكد!».

ثم زفر ومضى إلى الشرفة، ظل هناك وحيدًا وهو يدخن بلا انقطاع لفترة طالت إلى ما يقرب من ثلاثين دقيقة، عندما عاد إلى الداخل طلب إلى خالد أن يبدأ التدريب من جديد، حاول خالد أن يرجئ الأمر إلى الغد، لكن رأفت تمتم:

«لا... دلوقت... يانا يالجهاز الملعون ده».

وهكذا بدأ العمل من جديد، وانهمكا فيه إلى الحد الذي لم يشعرا في أثنائه بدخول نديم الذي اتجه إلى الشرفة دون كلمة... عندما وصلا إلى نهاية عمل اليوم هتف خالد سعيدًا:

«شفت بقى يا عم؟!».

ابتسم رأفت وهو يفرك كفيه انتصارًا:

«حكاية الشفرة دي عاوزة لها مخ لوحده!!».

في بساطة قال خالد:

«بالعكس يا رأفت، دي شفرة بسيطة قوي».

كان هذا صحيحًا، فعندما طلب عزيز إلى سعيد مظهر شفرة لفتى سيستعمل هذا النوع لأول مرة حرص على إعطائه تلك الشفرة التي تبدو ـ لهؤلاء الرجال الذين ركبت عقولهم تركيبًا من نوع خاص ـ بسيطة للغاية!

سمع الفتى خطوات نديم تقترب فرفع إليه رأسه، توقف هذا فيما بينهما وكان ينظر للفتى نظرة من يريد أن يوضح أمرًا لكنه لا يستطيع، أشار رأفت إلى الأوراق المتناثرة فوق المائدة في فوضى كاملة. نهض في محاولة لأن يبدأ مع الرجل حوارًا لكنه لم يجد الكلمات، في لحظة أحس بالعجز فرفع كتفيه وترك ذراعيه إلى جواره... كان يبتسم، كما كان نديم هو الآخر يبتسم، وما لبث كل منهما أن ارتمى بين ذراعي صاحبه!

قال خالد إنه يعترف أن دمعة حاولت الفرار من عينيه، لكنه مسحها قبل أن تسقط!!

وانقضت سبعة أيام.

أصعب ما فيها أن رأفت بذل جهدًا خارقًا في حفظ تلك الأرقام والجداول والمقابلات عن ظهر قلب دون كتابة حرف منها... في فترات الراحة تعمد نديم أن «يدردش» معه في حديث شائق حول المراقبة والمتابعة والتأمين والأساليب الجديدة للأعداء وأساليبنا المبتكرة. ورغم التعب الشديد فلقد امتلأت تلك الأيام السبعة بحديث علمي كان في بعض الأحيان يتشعب إلى تفاصيل كان الفتى يسأل عنها ونديم يجيب عن البعض ويتجاهل الإجابة عن البعض الآخر. ذات مرة صاح في الفتى ضاحكًا:

«إنت عاوز تعرف ليه؟!... إنت ناقص مسئوليات؟!».

وتعلم الفتى أن في تلك الجملة معنى لا بد له أن يحفظه، فمال نحو نديم قائلًا:

«قولها تاني يا سيد نديم!».

«طبعًا يا رأفت. المعرفة مسئولية... وفي حياة زي حياتنا دي تبقى المسئولية أكبر!».

وأردف خالد:

«وأخطر!!».

وصل الفتى إلى مستوى شديد القرب من مستوى تدريب «ضابط الحالة». كان آخر التدريبات التي قام بها خالد عز العرب، هو إرسال رسالة إلى الفتى بواسطة ذلك الجهاز الصغير الذي أدخل عليه تعديلات جعلت من مستوى أدائه تحفة... كان الجهاز يرسل أزيزًا مكتومًا بدل

الصفير حتى لا يتسرب أي صوت إلى خارج الفيلا... تلاعبت أصابع خالد بمفتاح الجهاز، وانطلق الأزيز. وراح الفتى يلتقط الإشارات ويكتب... مضت ساعات طويلة في ذلك الصباح دون أن ينطق واحد من الرجال الثلاثة كلمة... ما إن انتهت الرسالة التي بثها خالد إلى الفتى، حتى جمع هذا أوراقه وكتابه وقلمه وانتحى ركنًا بعيدًا عكف فيه على حل الشفرة وحده تمامًا!

تلك كانت لحظات باهرة في حياة رأفت الهجان!

عندما انتهى رفع رأسه مبتسمًا وهو يتنهد، قدم الورقة إلى خالد الذي كان توتره الآن قد بلغ ذروته، جرت عيناه فوق الكلمات فوجد حل الرسالة دقيقًا أكثر ما تكون الدقة. رفع رأسه وعيناه تبرقان بفرح غامر، وقال كلمة واحدة:

«برافو!».

وجاء صوت نديم من خلف الفتى:

«مبروك يا ديفيد!».

التفت إليه رأفت هاتفًا في مرح:

«أنا اسمي رأفت علي سليمان الهجان».

وأطلق الثلاثة ضحكات سعيدة تردد صداها في جدران البهو... وما لبث نديم أن قال:

«خش انت استريح لك شوية!».

«اشمعنى؟!».

«علشان مخك يبقى صاحي وانت بتستلم الرسالة اللي حاتنبعت لك من مصر الليلة!».

«الليلة؟!».

«الساعة سبعة فيه رسالة جاية لنا من مصر، وانت اللي حاتستلمها!».

* * *

في السابعة إلا ربعًا كان عزيز الجبالي يمسك في يده ورقة مليئة بالأرقام: مجموعات وراء مجموعات في سطور متتالية. كان قد أمضى الليلة الماضية في اختيار كلمات الرسالة. كان يريد أن يقول شيئًا حقيقيًّا، شيئًا نابعًا من القلب... لكنه كلما كتب شيئًا، وأعاد قراءته، وجد فيه خطبة عصماء لا تعبر عما يجيش في صدره... عندما توصل إلى نص الرسالة واستقر عليه رأيه بدأ في «تشفيرها» بنفسه. كان هذا بعد منتصف الليل. باب مكتبه مغلق بالمفتاح، والستائر فوق النوافذ... حتى إذا انتهى حمل الكتاب والرسالة ووضعهما في الخزانة، وعاد إلى بيته.

طالما عاش عزيز لتلك اللحظة، وطالما تمناها، سيخاطب الفتى الآن مباشرة، لكنه سيتلقى رده بعد أيام فلا بأس. في صباح اليوم التالي عاد إلى مكتبه مبكرًا، أغلق الباب وأخرج الرسالة والكتاب وراح يراجع ما فعل في الليلة الماضية، عندما اطمأن أعاد كل شيء إلى الخزانة وأغلقها. استغرق بعض الوقت في العمل لكنه لم يستطع ـ وقد اقتربت الساعة من الخامسة ـ إلا أن يعيد الكرة من جديد ويراجع الرسالة... حتى إذا انتهى كانت الساعة تشير إلى الدقيقة الخامسة عشرة قبل السابعة بتوقيت قبرص، فغادر مكتبه إلى حيث كان أحد الأصدقاء في انتظاره.

استقبله ضابط اللاسلكي بابتسامة واسعة وسأله بصوت خافت:

«الرسالة جاهزة؟!».

فلوح عزيز بالورقة في يده... واستدار هذا إلى الجهاز، وراح يضبط الموجة!

* * *

جلس نديم وخالد والفتى حول جهاز الراديو المتوسط الحجم الذي حمله معه خالد، والذي كان على الفتى أن يشتري مثله. وكانت الساعة تشير إلى خمس دقائق قبل السابعة!

«ياللا يا رأفت».

بدأ رأفت في ضبط المؤشر في محاولة لالتقاط الموجة، حبس خالد عز العرب أنفاسه وهو يرقب الفتى فإذا أصابعه واثقة الخطى، بجوار الراديو كان هناك قلم وورق والكتاب.

دقت الساعة السابعة فدقت معها قلوب الجميع!

بدأ الصفير فورًا في الإرسال وكانت يد الفتى ممسكة بالقلم على استعداد، ثم غاب عن الوجود!

ومضى نصف ساعة.

نصف ساعة فيه ثلاثون دقيقة.

في كل دقيقة ستون ثانية.

وكانت الثانية تبدو للرجال وكأنها دهر، كان الإرسال بطيئًا حتى يستوعبه الفتى، وهو معط كل سمعه للصفير تاركًا يده تكتب الأرقام والفواصل... و... وامتلأت الورقة بالأرقام وانتهى الإرسال.

دون كلمة حمل رأفت الهجان ورقه وقلمه وكتابه وانتحى ـ كعادته ـ في ذلك الركن الذي اختاره من البهو واستغرق في حل الشفرة.

على مقعدين متجاورين جلس خالد ونديم وعيونهما لا تغادر الفتى لحظة، والسيجارة لا تغادر أصابع أحدهما ثانية، وسحب الدخان تتصاعد من حولهما بلا انقطاع... تتابعت الدقائق ثقيلة رتيبة، ونبتت قطرات العرق على جبين الفتى فلم يبال، كان يبدو وهو يتعامل مع الأرقام لأول مرة أنه يتعامل مع صديق يعرفه جيدًا، حتى إذا انتهى راح ينظر للكلمات طويلًا، كان الآن يستطيع قراءتها، لكنه فضل أن يكتبها

مرة أخرى في جملة واحدة متصلة مفهومة. بعد أن انتهى نهض حاملًا الورقة، سار حتى وقف أمامهما، وراح يقرأ:

«من قلب وطنكم أبعث إليكم بأطيب تحياتي، وأرجو لكم كل التوفيق، مكافحين مناضلين مضحين من أجل قضية أمتنا العادلة، ومن أجل مصر خالدة قائدة رائدة».

خيم السكون على المكان، حتى الرياح في الخارج بدت وكأنها توقفت إجلالًا للكلمات، وتساءل خالد عز العرب عن تلك الظاهرة الجديدة في حياته، فلقد أصبح كلما تأثر من شيء يدمع بالرغم منه، وإذ ظل نديم على صمته تحدث إليه الفتى:

«مين اللي بعت الرسالة دي يا سيد نديم؟!».

كانت هذه هي المرة الثانية التي يطرح فيها الفتى هذا السؤال، قال فيما بعد إنه كان موقنًا من أنه لن يحظى برد على سؤاله ولن يعرف هذا الذي يتحدث إليه من القاهرة، لكنه سيظل ـ هكذا أكد ـ حتى آخر يوم في حياته يسأل عمن يكون هذا الرجل الذي يربطه به «حبل سرّي» يوصل كلا منهما بالآخر، ويبث في كل منهما نوعًا من الألفة والمحبة والصداقة الخالصة!!

* * *

في تلك الليلة نام خالد عز العرب ملء جفنيه!

أما نديم فلقد صحب الفتى إلى الشرفة وراح يلقنه آخر التعليمات، كان أهمها هذه المرة هي إحكام السيطرة على الشبكة بالوسائل التي أمده بها ولقنه إياها، واتباع التعليمات في المرحلة القادمة، وبدقة شديدة، مهما بدت له غريبة أو غير منطقية، ثم شراء ذلك الراديو من قبرص قبل عودته، وأضاف نديم ذاكرًا للفتى عنوان أحد المحلات في نيقوسيا، يبيع هذا النوع من الراديوهات!

«فكرت في حنة بلومبرج يا ديفيد؟!».

فوجئ الفتى بالسؤال فلم يكن يتوقعه، أحس بالامتنان لأن الرجل ـ وسط كلِ هذه المشاغل ـ تذكر أزمته الشخصية... كان الفتى قد فكر، وفكر طويلًا، ووصل إلى جواب.

«إيه هو؟!».

«يظهر إني تعبت من الوحدة!».

«أمر طبيعي!».

«بصراحة أنا كنت مندهش إني حبيت البنت دي بالسرعة دي... بس...».

توقف رأفت مفكرًا فاستحثه نديم:

«بس إيه يا رأفت؟!».

«بس يظهر إني كنت باحب أفكارها... مش باحبها هي!!».

هتف نديم:

«برافو عليك!».

وهكذا كان يمكن أن تنتهي قصة حنة بلومبرج، لولا ما حدث بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة!

* * *

في مساء اليوم التالي عاد السيد ديفيد شارل سمحون إلى فندق بيمبو فقوبل بصيحات فرح صدرت عن الجميع، أدرك الفتى أن بيمبو قام بالواجب خير قيام فلقد كان الجميع سعداء، راحوا يمطرونه بالأسئلة: أين كان؟ ومع من؟ وكيف قضى وقته؟ واندمج هو في الحديث معهم وتعالت في سماء الشاليهات ضحكات وقرر بيمبو أن يدعو الجميع إلى

العشاء والشراب بمناسبة هذا الاجتماع الرائع... أريقت زجاجات النبيذ القبرصي وعزفت الموسيقى وحفلت مائدة الطعام بكل ما يلذ ويطيب لهؤلاء السائحين... غير أن رأفت الهجان لاحظ أنه بالرغم من كل هذا المرح كان هناك شيء يخفيه هؤلاء الناس عنه، هو يعرفهم جيدًا، يعرف متى ينطلقون ومتى يضحكون وفي نفوسهم ما يبعث على الضحك، اقترب من الأستاذ «صاروفيم» مدرس الرياضيات في مدرسة يافا، تبادل معه الضحكات لكنه سأله فجأة وهو يسدد إليه عينين نفاذتين:

«ما الذي حدث أثناء غيابي بحق الشيطان؟!».

حاول المدرس المسكين الذي كان الفتى قد أهداه خصمًا محترمًا من مصروفات هذه الرحلة أن يتملص من نظرات ديفيد، لكن هذا عاد يقول:

«كيف يخفي الصديق عن صديقه سرًّا يعلمه عنه الجميع؟!».

كان تردد صاروفيم قد أكد للفتى أن شيئًا بالفعل حدث أثناء غيابه، ولقد وجد المدرس المسكين نفسه في مأزق لا مخرج منه إلا بأن ينسحب مع الفتى من المكان... اخترق به ذلك الممر الذي يصل ساحة الشاليهات بالطريق العام... تمتم بكلمات متداخلة مؤداها أن ما حدث حدث بالتأكيد دون قصد، وأن الخطأ لم يكن متعمدًا... لعب الفأر في عب الفتى الذي ألح:

«أي خطأ هذا بالله عليك؟!».

«حنة بلومبرج!».

دق قلب الفتى في عنف.

«هل جاءت إلى هنا؟!».

«بعد رحيلك بيومين».

سرحت نظرات رأفت إلى بعيد فلقد كان ينتظر أي شيء إلا أن تفقد هذه الفتاة المتزنة اتزانها وأن تسعى وراءه، راح صاروفيم يحكي ما حدث، قال: إن حنة وصلت فجأة وكانت بادية المرح ولقد استقبلت من الذين يعرفونها بترحاب ومرح، بدا للجميع أن الأمر طبيعي للغاية، قالت حنة إنها سألت «يهوديت موردخاي» عن اسم الفندق وهكذا جاءت، تبادلت مع الجميع تلك الأحاديث المرحة لكن عينيها كانتا تبحثان في كل مكان... أخيرًا سألت:

«ولكن... أين ديڤيد؟!».

صاحت «راشيل عساف» ـ وهي باحثة في إحدى الوزارات تتمتع بخفة ظلٍّ تجذب إليها الناس ـ وكانت قد احتست عددًا لا بأس به من الكئوس:

«إنه في إجازة!».

ضحكت حنة كما ضحك الجميع فلقد غاب عنها هذا الذي قصدت إليه «راشيل»، التي اندفعت غير منتبهة إلى الغمزات والإشارات التي راح البعض يطلقها نحوها من خلف الفتاة حنة، والتي كانت ـ في كل لحظة ـ تشحب شحوبًا شديدًا، قالت راشيل أول ما قالت:

«استمعي إليَّ يا فتاتي بعد أن تتخلصي من ملابس جدتك هذه، لقد قال إننا في إجازة، وإنه هو الآخر في حاجة إلى إجازة!».

ظلت حنة مطبقة شفتيها مما شجع راشيل على الاستمرار في الحديث قائلة إن من حق شاب مثل ديڤيد أن يستمتع بحياته التي كرسها لإمتاع الآخرين، وليس من العار أن يستمتع بها على شاطئ هادئ مع فتاة جميلة بعيدًا عن العيون!

قال الأستاذ صاروفيم إنه حاول أن يجعل من الأمر كله مزاحًا لولا أن «حنة بلومبرج» كانت قد لحظت بوضوح تلك الغمزات والإشارات

التي أرسلها البعض إلى راشيل محذرين... قال للفتى إنها أطرقت قليلًا، واستأجرت غرفة في الطابق العلوي فأعطاها بيمبو الغرفة التي ينزل فيها الفتى عادة، وإنها لم تمكث سوى ليلة واحدة... ففي صباح اليوم التالي كانت تبدو شاحبة شحوبًا عظيمًا وقد أخفت عينيها خلف نظارة شمسية وكانت أيضًا تحمل حقيبة ملابسها!

عندما اقترب منها صاروفيم في محاولة لإبقائها حتى يعود الفتى قالت في أسى ومرارة:

«ولم الانتظار؟!».

قال صاروفيم في حرارة:

«لأنه سوف يعود قريبًا».

أدركت حنة ما يرمي إليه الرجل فربتت على ذراعه مرددة:

«لا عليك يا عزيزي... فلم يكن الخطأ خطأه».

طلبت إلى بيمبو أن يحجز لها تذكرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية على أية شركة وأية طائرة وأي مسار، على ألا تتأخر عن ساعات قليلة. ظلت طوال ساعات الانتظار صامتة لكن صاروفيم لم يتركها، راح يحاول إقناعها، لكنها كانت تردد بين الحين والحين دون أن تحاول أن تخفي عذابها:

«إنه لم ينطق حرفًا ولم يقل شيئًا!».

وذات مرة قالت:

«رغم كل ما قلته له لم يقل شيئًا!».

ذات لحظة انزلق الدمع من عينيها وكانت تحدث نفسها:

«الغريب أني لم أنتبه... لماذا لم أنتبه؟!».

وكان هذا آخر ما قالته قبل أن تقلها السيارة إلى المطار.

«ألم تترك رسالة؟!».

هكذا سأله الفتى، فقال الرجل:

«عندما طلبت إليها هذا قالت: إنه ليس في حاجة إلى رسائل»!!

* * *

حاول الفتى في تلك الليلة أن يلعب دورًا غير دوره، وأن يشارك الجميع في المرح لكنه لم يستطع، بعد دقائق اعتذر للجميع بأنه في حاجة إلى الراحة، وصعد إلى غرفته ولم يغادرها إلا في صباح اليوم التالي، وكان في طريق عودته إلى إسرائيل!

الفصل السابع

١٩٦٧

قالت هيلين سمحون لعزيز الجبالي وقد اكتست ملامحها بغلالة من الحزن لم تحاول أن تخفيها:

«إنك تسلط الضوء الآن هر جبالي على الكثير من الجوانب التي غمضت عليَّ في شخصية زوجي الراحل!».

قال عزيز وهو يضغط على مخارج ألفاظه حتى يكون حديثه واضحًا أشد ما يكون الوضوح:

«إنني أعرف هذا جيدًا فراو سمحون، بل إنني في بعض الأحيان أجنح إلى الخوض في تفاصيل من الممكن المرور عليها بسرعة، لولا أني أريد أن أعيد تركيب الصورة بأكبر قدر من الدقة!!».

ران الصمت بينهما للحظة غمغم بعدها:

«ربما كنت أفعل ذلك لنفسي أولًا!».

كان عزيز بادي التأثر، فهمست هيلين:

«لقد كانت حياته شاقة بكل المعاني!».

هتف عزيز:

«ليت المشقة انتهت عند هذا الحد، فلقد حملت له السنوات التالية مفاجأة هزته حتى الأعماق!».

«أتقصد بذلك حرب ١٩٦٧؟!».

«نعم... هي بعينها!».

اعتدلت هيلين سمحون في جلستها قائلة في دهشة:

«لقد تحدث إليّ كثيرًا عن تلك الحرب، وكان حديثه يبدو لي غامضًا فلم أفهم ما كان يقصده!».

همَّ عزيز بالحديث فعادت تستطرد:

«أذكر مرة أنه كان يتحدث عن تلك الحرب فقال في ضيق: «إنهم لم ينتصروا، وإن ذلك لم يكن نصرًا»... ولقد دهشت دهشة حقيقية، فسألته عما يعنيه بقوله هذا، لكنه ـ كعادته ـ راوغ وتحدث في أشياء أخرى!!».

ابتسم عزيز الجبالي قائلًا إنه يتصور الآن وبعد كل هذا الذي قصه عليها عن زوجها الراحل أنها من الممكن أن تجد سببًا وراء كل تصرف بدا لها غريبًا في حينه... وأنها لو علمت ـ أيضًا ـ كيف أمضى رأفت الهجان تلك السنوات التي تلت زيارته لقبرص لعرفت أي جحيم عاش فيه وهو يخوض المعركة هناك، في تل أبيب، ضاربًا في كل اتجاه، شاغلًا نفسه عن كل شيء في سبيل هدف أسمى كاد يتقوض بضربة غاشمة... لولا إيمان راسخ بالنصر لم يفارقه أبدًا، وفي أحلك الظروف، حتى تحقق النصر بالفعل!

* * *

عندما عاد رأفت الهجان من تلك الزيارة التي تدرب فيها على اللاسلكي في قبرص، كان قد وطد نفسه على التفرغ تمامًا لمهمته، بل والاستغراق فيها... ذلك أنه اكتشف بعد أن فعلت «حنة بلومبرج» ما فعلت أن فكر الإنسان من الصعب أن يختلف عن شخصيته لو أنه كان

مخلصًا لهذا الفكر حقًّا... ولقد كان تصرف حنة في قبرص ملائمًا تمامًا لفكرها ومتجانسًا معه... اكتشف ـ بالتأكيد ـ أنه أحب الفتاة حقًّا، وأنه ـ فيما قاله لنديم هاشم في شرفة تلك الڤيلا خارج نيقوسيا ـ إنما كان يهرب من حبه هذا... وكما قال فيما بعد ـ وسمع عزيز ما قاله مسجلًا على شريط ـ إن حنة بلومبرج أحبته حبًّا صادقًا وحقيقيًّا، وإنها على الوجه الآخر كانت تبدو بالنسبة إليه زوجة مثالية... ففوق الحب، كانا متفاهمين على كل شيء حتى في التفاصيل اليومية للحياة... ولكن هل كانت ـ وبالرغم من كل هذا ـ تغفر له أنه يعمل ضد أبناء جلدتها؟!

كان هذا هو السؤال الذي حسم الأمر برمته طوال تلك الأيام العشرة في قبرص... وعلى ذلك، فلقد كان ارتباطه بها يعني أمرًا من اثنين: إما أن يعيش حياته ويتزوجها وينسى مهمته التي من أجلها جاء إلى إسرائيل ـ كان نص حديث الفتى المسجل يقول: «مهمتي التي من أجلها خلقت»، ولسنا ندري إن كان الفتى قد قصد بالضبط إلى هذا المعنى أم أن الحماس جرفه فجاء التعبير مطابقًا للانفعال في تلك اللحظة!! ـ وعلى الوجه الآخر كان أمامه الطريق الآخر، وهو الابتعاد عنها والتفرغ لمهمته المقدسة!

ولقد اختار الفتى، ومضى في طريقه دون أن ينظر إلى الخلف مرة، بالرغم من إلحاح الذكريات عليه إلى الحد الذي دفع السيدة سيرينا أهاروني إلى سؤاله ذات ليلة عما به... وعندما غمغم بكلمات لا معنى لها، سألته مباشرة عن «حنة بلومبرج» ـ وكانت قد تعرفت إليها بالطبع وأحست بتلك العلاقة الخاصة بينها وبين الفتى ـ فأجاب رأفت بأنها سافرت إلى الولايات المتحدة.

«ومتى تعود؟!».

كانت سيرينا تختار الحديث معه بالفرنسية إذا ما كان هذا الحديث يتناول أمورًا خاصة جدًّا!

«أعتقد أنها لن تعود!».

«ولم لا ترسل في طلبها؟!».

«لست راغبًا في ذلك!».

هكذا كان رده مقتضبًا وغامضًا في نفس الوقت، مما دفع تلك الصديقة الحميمة إلى أن تسأله:

«لماذا لم تفكر في الزواج حتى الآن يا ديفيد؟!».

ضحك رأفت ـ وكانت ضحكته مغموسة في مرارة بلا حدود ـ وهو يسألها:

«هل لديك من تصلح زوجة لي؟!».

صاحت سيرينا أهاروني في استنكار:

«فليرحمنا الــرب... إن نصف فتيات إسرائيل يلاحقنك أيها الشاب!».

«ولكني لم أجد فيهن من تستحق أن ألاحقها!».

وكان في هذا الرد الكفاية، رمقته سيرينا بنظرة حنان فاضت بها عيناها وهي تتمتم:

«إن في حياتك سرًّا أدفع عشر سنوات من عمري كي أعرفه!».

لكن الأمــر وصــل إلــى نهايته يــوم وصله خطاب من ولاية «ماساشوستس» الأمريكية حيث تقيم الفتاة في عاصمتها بوسطن، قالت حنة في خطابها:

«... ... ...لم أشأ أن أزعجك بالانتظار في قبرص، فلقد تنبهت في وقت متأخر، كم كنت كريمًا معي، وكم تحملت الضغط الذي مارسته عليك دون قصد منّي... ولكن، لعلك تفهم الأمور كعادتك، ولعلك تظل صديقًا حتى الأبد، أقبلك بكل الإخلاص... حنة!».

وطوى رأفت الخطاب، وطوى معه صفحة من حياته كانت تدفع الأسى إلى قلبه كلما تذكرها!

* * *

بعد مرور عام، أو يزيد قليلًا، عُقد اجتماع على مستوى عال في جهاز المخابرات المصري... كان المبنى الجديد للجهاز الذي أُقيم بجوار قصر القبة قد اكتمل، وانتقلت إليه أغلب الإدارات العاملة في هذا الجهاز الذي أخذ تنظيمه النهائي شكلا واضحا... كان الرجال - بالرغم من كل شيء - يبدون في تلك الأيام كالأطفال لفرط فرحتهم بالمبنى الجديد الذي أقيم لهم... فطوال تلك السنوات التي تقترب من العشر كانوا متناثرين في جميع أنحاء القاهرة وضواحيها، يمارسون أعمالهم من مكاتب لا تصلح تمامًا لمثل هذا النوع من العمل الشاق... الآن، أحسوا حقًّا بالاستقرار، وكانت الأجيال الجديدة تتوافد عليهم عامًا بعد عام، والمعرفة تسعى إليهم كما يسعون إليها... باختصار، مع الحماس الشديد الذي لم يفتر أبدًا كانت هناك فرحة أضفت على الحماس والمخاطر الكثير من البهجة التي كانوا في حاجة إليها!

ضم هذا الاجتماع خمسة أشخاص، أولهم هو «المدير» - هذا هو اللقب الذي يطلقه الرجال حتى اليوم على رئيس جهاز المخابرات المصري - ثم رئيس هيئة الخدمة السرية - لم يعد هو «شريف والي» الذي كان قد نقل إلى وظيفة مدنية، وقدر له أن يلعب دورًا مؤثرًا في التاريخ السياسي المصري الحديث - ثم عالِم - فشلنا في الحصول على اسمه أو حتى تخصصه، لكن المؤكد أنه كان ملمًّا بتفاصيل حياة الفتى وسلوكياته وتصرفاته وإمكاناته - ثم نديم هاشم، وبالطبع عزيز الجبالي!

كان سبب الاجتماع هو ذلك الاقتراح الذي تقدم به عزيز، طالبًا تدريب الفتى على مستوى «ضابط حالة!»... اللافت للنظر في هذا الأمر

أن رأفت الهجان، منذ تلقيه لذلك التدريب الأخير في قبرص على أيدي خالد عز العرب ونديم هاشم، ومع تطور أعماله واكتسابه للخبرة يومًا بعد يوم؛ كان يتصرف بالفعل، مع من قدر لهم أن يلتقوا به بعد انتقال «حسن القطان» إلى منصب آخر، على أنه ضابط في المخابرات العامة المصرية، وليس مندوبًا... حقيقة كانت قدراته قد نمت وتنمو أكثر، كما كانت ثقته بنفسه وعمله تتزايد وتزداد رسوخًا... لكن المدهش في الأمر أن هؤلاء الذين التقوا به وأحسوا منه هذا، ارتضوا تلك التصرفات ولم يعترضوا عليها لفرط إحساسهم بقيمة الفتى والمستوى الذي وصل إليه... وإن كان هذا لم يمنع واحدًا منهم من أن يضمن ملحوظته تلك في تقريره للإدارة!!

على مائدة البحث في هذا الاجتماع وضعت الحقائق كاملة!

أولى هذه الحقائق ـ وربما أهمها على الإطلاق ـ أن الحرب السرية بين مصر وإسرائيل كانت قد وصلت إلى ذروة لم يسبق لها مثيل... وعلى كلا الجانبين تساقط الجواسيس كأوراق الخريف... كان تعاون إسرائيل مع المخابرات المركزية الأمريكية يتخذ أشكالًا متطورة يومًا بعد يوم، وبالتأكيد، فلقد كان هذا يساعدهم كثيرًا... وعلى الجانب الآخر كان تحدي الرجال وإيمانهم بقضية بلادهم يساعدانهم أكثر... وهكذا، ولم يكن يمضي عام دون أن تضبط المخابرات المصرية جاسوسًا، أو شبكة تجسس تعمل لحساب إسرائيل... ودون أن تضع إسرائيل يدها على مجموعة أو واحد يعمل في قلب دولتهم لصالح مصر!

في بعض الأحيان كان هـؤلاء أو أولئك يعلنون عن سقوط الجواسيس... وفي أحيان أخرى يتكتمون الأمر مواصلين الحرب بأسلوب أو بآخر... ولقد كانت الأساليب تتطور، كما كانت المعدات أيضًا تتطور وبصورة أذهلت حتى العلماء الذين ابتكروها... ولم يعد رأفت الهجان ـ بعد أن تم القبض على «إسرائيل بيير» بالذات ـ يجزع

كثيرًا إذا ما سمع عن سقوط جاسوس أو شبكة، فلقد علمته الأيام كيف يقبض بأصابع من فولاذ على سير العمل في شبكته، ولم يعد دان رابينوفيتش ـ على سبيل المثال ـ يتعامل معه من منطلق متعال... بل سرعان ما أدرك أنه يتعامل مع داهية يجب احترام أوامره والالتزام بها التزامًا مطلقًا... وفي الوقت الذي انهمرت فيه المعلومات على الفتى من كل أفراد شبكته ـ التي وصفها أحد المتخصصين بأنها أصبحت كالأخطبوط داخل إسرائيل، يمد أذرعه حتى أبعد المستعمرات اليهودية وأقلها شأنًا ـ كانت هناك أعمال شركته التي اتسعت وتطورت بسرعة جعلت من «ماجي تورز» واحدة من أهم شركات السياحة في إسرائيل... وكما انتقل الفتى إلى مسكن جديد يتلاءم مع مكانته الاجتماعية انتقلت شركته إلى مبنى أكبر وأكثر فخامة بحيث يتلاءم مع المكانة الاقتصادية التي احتلتها الشركة!

انغمس رأفت الهجان إذن ـ بعد فشله في حبه لحنة بلومبرج ـ إلى أذنيه في العمل، فراح يواصله ليل نهار، حتى لقد طلب إليه في أحد الأعوام أن يأخذ إجازة، وحتى اضطر الرجال إلى إعطائه تلك الإجازة بالرغم منه!!

كان ذلك بعد استقلال الجزائر!

انتصرت الثورة الجزائرية أخيرًا بعد أن ضحى هذا الشعب العربي المجيد بمليون شهيد، وكان أكثر الشعوب سعادة بهذا الاستقلال هو الشعب المصري الذي اعتبر هذا الاستقلال استقلالًا للإرادة العربية... وكان لا بد لشريفة الهجان من أن تسأل عن مصير شقيقها الذي عرفت أنه يعمل لصالح تلك الثورة... ووسط كل المشاغل والأعباء الملقاة على عاتق عزيز الجبالي، الذي لم يعد الآن ضابطًا شابًّا، بل أصبح واحدًا من أخطر محترفي هذه المهنة في المنطقة على الإطلاق، لم يستطع أن ينسى شريفة أو ما يمكن أن تفعله أو حتى تسأل عنه... فها هي الجزائر ـ التي

كان رأفت يعمل لصالح ثورتها ـ قد استقلت، فأين هو؟! وماذا يكون مصيره؟!... ولِمَ لا يعود إلى وطنه وقد كللت مهمته بالنجاح؟!

وهكذا جاء رأفت الهجان مرة أخرى إلى مصر في زيارة اتُّبعت فيها أساليب أكثر سرية وصرامة، وإن كان قد نزل في نفس الڤيلا والتقى بنفس الأشخاص الذين جلب لهم معه مجموعة هائلة من الهدايا لهم ولزوجاتهم وأولادهم أيضًا لكنه اختص الست أم حسني بهدية ذهبية قيمة حقًا، لم تدفع فيها الدولة مليمًا واحدًا... ولقد استطاع رأفت في زيارة قام بها لشقيقته شريفة أن يقنعها بأن ثورة الجزائر قد انتصرت حقًا، ولكن هناك مهامّ أخرى في انتظاره!!

في هذا الاجتماع الذي عقد في مكتب «المدير» تمت الموافقة بالإجماع على تدريب الفتى ذلك التدريب الأخير الذي يصل به إلى مستوى «ضابط حالة»، بحيث تصبح لديه الحرية في التصرف، وهو بعيد عن قاعدته، إزاء الأمور التي تحتاج منه إلى تصرف سريع، أو قرارات فورية!

بعد إتمام هذا التدريب ـ في الشهور الأولى من عام ١٩٦٤ ـ نشط عزيز الجبالي في تحقيق الهدف الأسمى لدى جهاز المخابرات المصري في تلك الأيام... كان هدف مصر ـ في تلك السنوات التي سبقت عام ١٩٦٧ ـ هو الحصول على هيكل تنظيم الجيش الإسرائيلي بكل فروعه، خاصة سلاح الطيران. وقد استطاع «إيزاك بن عميتاي» ـ مع مجموعته من صغار الضباط الذين جندهم ـ أن يقدم لرأفت صورة شديدة الدقة عن المطارات الإسرائيلية، وكل ما ألحق بها من مبان أو تجهيزات حديثة ومتطورة... استطاع المصريون في تلك السنوات أن يحصلوا على خرائط ـ أو كروكيات ـ واضحة تمامًا لكل مطار من مطارات العدو، بما يحويه من رادارات أو أجهزة دفاع... كانت لديهم معلومات دقيقة لا يرقى الشك إليها عن عدد الطائرات، وأنواعها، وعدد

كل نوع، وتسليحها، والإضافات التي أضيفت إليها، والتطوير الذي دخل على الأنواع القديمة، وذلك الذي ابتكره علماؤهم للأنواع الحديثة... كانت لديهم معلومات كاملة عن عدد الطيارين العاملين، والاحتياطيين، وفترات تدريب الاحتياطيين، ومستوى التدريب... و...

... وفي المقابل، تكفل بيخور شطريت الذي أصبحت علاقته بالفتى شبه مرضية، لوفرة ما كان يقدمه له هذا من خمور لم يكن هذا المدمن يستطيع الحصول عليها ولو أنفق مرتبه بالكامل، ودان رابينوفيتش ـ كل من مستواه وموقعه ومركزه ـ بتقديم معلومات على قدر كبير من الأهمية عن القوات العاملة في جيش الدفاع الإسرائيلي، وتشكيلاته، وتدريباته، وأسلحته، وفروعه، وقياداته، بل والصراعات الدائرة على القمة فيه... كانت هناك قوات الاحتياط، ومستوى تدريبها، وفترات ذلك التدريب، وكيفية استدعائها، وكلمات السر التي كانت تتغير بين الحين والحين من أجل استدعاء هذه القوات عن طريق الإذاعة، وكيفية تجميعها، ونقلها... بل استطاع رأفت الهجان، بتوجيه عبقري منه، أن يحصل من مصادر متعددة على خريطة دقيقة لما يطلق عليه «نظام الدفاع الإقليمي» في إسرائيل، وهو النظام الذي يستند إلى قيام كل مستعمرة من المستعمرات الإسرائيلية المنتشرة حول إسرائيل كالبثور، بواجب الدفاع عن نفسها أولًا في حالة هجوم مفاجئ، مع واجبات الاتصالات والتنسيق بينها وبين ما يجاورها من مستعمرات أخرى، بحيث يشكل هذا النظام حزامًا واقيًا حول الدولة!

كان التدريب الذي تلقاه الفتى في قبرص على الاستقبال اللاسلكي عونًا على تدفق المعلومات منه، ولقد وصل الأمر إلى أن البعض قد ساورته الشكوك في صحة المعلومات لوفرتها وكثرتها، وظن البعض أن رأفت الهجان لا يقوم بكل هذا المجهود حقيقة، وقيل ـ في معرض تلك الشكوك التي كانت مشروعة ـ إنه يجمع تلك المعلومات بسرعة

وكيفما اتفق ويرسل بها إلى مصر... كان هؤلاء ـ بشكل ما ـ على حق في شكوكهم، غير أن اختبارات الصحة أو الدقة التي بثت حول الفتى أو رجاله، دائمًا ما كانت تعود إلى مصر مؤكدة صدق رأفت الهجان، بل وعبقريته تلك الفريدة!!

لم يكن الأمر سهلًا وسط تلك الحرب الضروس التي نشبت بين مصر وإسرائيل... وإذا كانت شبكة الفتى قد اتسعت وتفرعت، فلقد كانت إدارته لتلك الشبكة ـ مع إخفاء شخصيته تمامًا إلا عن عملائه الرئيسيين ـ أمرًا يستلزم وحده جهدًا خرافيًا... ولكي نضع النقاط فوق الحروف علينا أن نقرر حقيقة مهمة، وهي أن «دان رابينوفيتش» أو «إيزاك بن عميتاي»، لم يعد أي منهما يسأل عن تلك المنظمة المزعومة للسلام العالمي، وأصبح واضحًا للفتى بما لا يقبل الشك أنهما يعرفان ـ بالقطع ـ مع من يتعامل كل منهما، وإن كان أحدهما ـ للحقيقة ـ لم يثر الأمر مع رأفت ولم يسأل عنه ولم يفاتحه فيه!

لم تكن شبكة رأفت الهجان، أو ديفيد شارل سمحون، أو المندوب رقم ٣١٣ الذي أصبح يتصرف كضابط من ضباط المخابرات العامة المصرية، له حق المبادرة والتصرف والتعامل وقت اللزوم مع الأشخاص والأحداث والأشياء دون الرجوع إلى قاعدته... لم تكن هذه الشبكة ـ مرة أخرى!! ـ هي مصدر المعلومات الوحيد، كانت هناك مصادر أخرى بطبيعة الحال تمدنا بما كنا نحتاج إليه. وكانت المعلومات من هنا وهناك تكمل الصورة، وتضعها في أقرب الأشكال إلى الكمال كي توضع أمام القيادة السياسية المصرية... لكننا نستطيع القول ـ دون تجاوز ـ إن شبكة رأفت الهجان لعبت واحدًا من الأدوار الرئيسية، والخطيرة، في إمداد الوطن ـ في ظروف شديدة الحرج ـ بكل ما كان يحتاج إليه من معلومات، كانت دائمًا سلاحًا في يدنا!

غير أن رأفت علي سليمان الهجان، الذي عرف في إسرائيل باسم ديفيد شارل سمحون، كان يخفي في جعبته مزيدًا من المفاجآت!

* * *

في أواخر عام ١٩٦٤ حدث اللقاء الأخير بين رأفت الهجان وحسن القطان!

تم اللقاء في فرانكفورت.

كان الاختيار قد وقع على حسن القطان كي يشغل منصبًا مهمًّا، ومن ثم كان عليه بالتالي، وقبل أن يغادر مقر عمله في أوربا، أن يقدم رأفت إلى من سوف يحل محله... لكنه فضل - بداية - أن يلتقي بصديقه هذا لقاء خاصًّا حتى يمهد للأمر بعد سنوات طالت وهما يعملان معًا!

في اللقاء، تصادف أن كان هذا هو الموعد السنوي لتقديم كشوف الحساب لشركة «ماجي تورز»... قدم الفتى لحسن صورة من كشوف الشركة التي قدمت لمصلحة الضرائب الإسرائيلية، وإذا كانت تلك الكشوف مكتوبة باللغة العبرية فلقد أرفق بها الفتى كشوفًا - طبق الأصل - مترجمة إلى اللغة الإنجليزية!

دار الحوار بين الرجلين سهلًا لينا... حققت الشركة في ذلك العام أرباحًا لا بأس بها، العمل يتم فيها بدقة، وقد أضيف إلى عدد الموظفين فتى وفتاة، كان هناك عدد الرحلات من وإلى إسرائيل، وعدد الأفواج، وحجم كل فوج، وتكاليف المكتب، وأجور الموظفين و... و... وراح حسن يتحين الفرصة كي يخبر الفتى بالنبأ الذي كان موقنًا من أنه سيسبب له إزعاجًا كان هو نفسه يشعر به، فلقد كان انتقال حسن إلى ذلك المنصب الجديد معناه أنهما لن يلتقيا أبدًا، ولن يتبادلا الحديث، بل... كان معناه أنه إذا تصادف والتقيا وجهًا لوجه ألا يعير أحدهما الآخر أي اهتمام، بل كان عليهما أن يتظاهرا بالعداء... وهكذا، سأل حسن القطان بشكل عارض:

«إنت عاوزنا نحول لك كام دولار السنة دي علشان الشركة يا رأفت؟!».

«ولا مليم!».

همّ حسن بالحديث لكنه توقف لبرهة وكأنه لم يفهم مراد الفتى الذي كان الآن يواجهه مبتسمًا فخورًا فعاد يقول:

«أنا قصدي ... ...».

«أنا عارف قصدك كويس يا حسن بيه، خلِّي عنكم أنتم أي مصاريف خاصة بالشركة!».

ساد الصمت وكان حسن يشعر بالسعادة والفخر فملأت وجهه ابتسامة واسعة، وأردف الفتى:

«الشركة دلوقت بتكسب اللي يغطي مصاريفها ويكفيني!».

مضت لحظة صمت غمغم بعدها الفتى:

«كفاية عليكم الفلوس اللي بندفعها للعملاء وبس!».

قال حسن القطان ـ الذي اشتهر بهدوئه، بل بروده الطبيعي ـ فيما بعد إن الفرحة بلغت به حدًّا دفعه إلى الوقوف كي يصافح رأفت في حرارة، بل ويضمه إلى صدره أيضًا.

ولكن...

ولكي نوضح الأمـر... فلم تكن فرحة حسن القطان ـ ضابط المخابرات المحترف ـ سببها أن رأفت الهجان رفع عن كاهل وطنه بضعة ألوف من الدولارات فقط، ولكن... لأن المنظمة التي أقامها في إسرائيل كساتر يعمل من خلاله، وصلت إلى مستوى مثالي في الأداء يندر أن يحدث في مثيلاتها من المنظمات المشابهة، كانت شركته الآن ـ أو منظمته، أو ساتره ـ تعتمد في إدارة شئونها على ربحها من مجتمع العدو نفسه، دون أن تكلف الوطن مليمًا!

دون أدنى قدر من الشك، كان الجميع سعداء بهذا... لكن أكثرهم سعادة وغبطة وفخرًا كان عزيز الجبالي!

* * *

كان عزيز الجبالي يعيش في تلك الأيام أحلى سنوات عمره... كان قد تزوج بعد قصة حب صامتة التزمت بتقاليد عائلته المحافظة التي تفخر بانتمائها إلى الأزهر الشريف، ثم أصبح أبًا فزغردت في حياته صيحات ولده التي كانت تمسح عنه مشقة يوم أو أيام يقضيها في عمل متواصل!

هو الآخر كان يتطور ويترقى ويتحمل مسئوليات جسامًا، اشتهر بين زملائه وأصدقائه بأنه «ابن ناس» لفرط محافظته على مظهره وأسلوب حديثه، عرفوا عنه حرصه الزائد على سرية من يتعامل معهم من أشخاص أو قضايا أو معلومات... وإذا كان الحرص على السرية هو أولى سمات ضابط المخابرات فلقد كان حرص عزيز مثار تندر من بعض زملائه... ذات مرة ـ وكان هذا قبل الانتقال إلى المبنى الجديد ـ كان يكتب رسالة للفتى بالشفرة، أنفق وقتًا طويلا في تحويل الكلمات إلى أرقام، وكانت الساعة قد تخطت الثانية صباحًا عندما أعاد الرسالة ـ وقد انتهى منها ـ مع الكتاب إلى خزينته وأغلقها جيدًا بإدارة قرص الأرقام كيفما اتفق... في الثانية والربع ركب سيارته من ذلك المبنى وسط الحقول في أطراف القاهرة عائدًا إلى بيته في أحد الأحياء الحديثة في العاصمة... لكنه، لسبب ما، أحس بالقلق وكان يقترب من البيت، فلقد ظن أنه لم يغلق الخزانة كما ينبغي... ظل قلقه يضغط عليه بالرغم من وجود حراسة وحراس، وبالرغم من وجود ضابط مناوب في هذا المبنى الذي كان في الأصل مستشفى للأمراض العصبية، وكان من مهام هذا الضابط المناوب أن يمر بنفسه على كل الخزائن كي يدير قرص كل خزينة من

باب الاحتياط... كان عزيز يعلم هذا يقينًا، لكنه ما إن وصل إلى ميدان قصر النيل ـ الذي أصبح اسمه منذ سنوات ميدان التحرير ـ حتى أدار مقود السيارة عائدًا بها إلى أطراف القاهرة!

كانت المفاجأة غير متوقعة بالنسبة للضابط المناوب فسأل عزيزًا عما عاد به، وغمغم صاحبنا مهرولًا نحو غرفته بأنه نسي شيئًا، لكن زميله ضحك ضحكة عالية، كان واثقًا أن عزيزًا عاد إلى مكتبه كي يتأكد من إغلاق الخزينة جيدًا.

وقد حدث هذا بالفعل.

و... وبهذا المنطق والتفاني، كان لا بد لعزيز الجبالي أن يتطور هو الآخر، دفعه تطوره وقدراته التي كانت تنمو مع الأيام إلى مغادرة مصر في مأموريات محفوفة بالمخاطر... كانت هناك شبكات وجواسيس وصراع وفشل ونجاح وعمل... عمل يصل الليل بالنهار في مصر وخارج مصر التي كانت تبدو في تلك الأيام وكأنها درة العالم الثالث كله، كانت مسئوليات عزيز الجبالي تتسع وتتشعب وتشمل جزءًا مهمًّا من الكرة الأرضية، لكن رأفت الهجان ظل دائمًا في بؤرة تفكيره: يخاف عليه ويحرص حرصًا دفعه إلى اللجوء بين الحين والحين إلى سعيد مظهر كي يغير الشفرة المستعملة بينهما، باستعمال نفس الكتاب ولكن بأساليب أكثر تطورًا، أو استعمال كتب أخرى كان يرسلها إليه مع الشفرة الجديدة... بلغ به انغماسه في عمله ـ شأنه شأن الآخرين ـ أنه كاد ينسى اسمه الحقيقي، فلقد فوجئ ذات يوم بزوجته تناديه باسم «عثمان» ـ وهو الاسم الكودي الذي اتخذه منذ اليوم الأول لدخوله تلك الفرقة التي بدأ فيها حياته تلك منذ ما يقرب من عشر سنوات ـ كانت المكالمات التليفونية تطلب «السيد عثمان»، وكان الأصدقاء والزملاء ينادونه «عثمان» حتى جاء يوم سأله فيه ولده.

«انت اسمك إيه يا بابا؟!».

«عزيز!».

«لأ... اسمك مش عزيز!».

هكذا قال الطفل معاندًا محتجًّا، وابتسم عزيز مداعبًا ولده:

«طب انت عاوز اسمي يبقى إيه؟!».

«عثمان... انت اسمك عثمان!».

تلك حياة لها طعم آخر ولون آخر ووسائل أخرى وأسلوب آخر... ورغم المركز الذي احتله عزيز، ورغم مكانته وقد امتلأ الجهاز بتلك الأفواج الجديدة من الشباب؛ كان عزيز الجبالي حريصًا كل الحرص على أن يقوم «بتشفير» رسائله إلى الفتى بنفسه... رغم الثقة الشديدة، واللامحدودة، في زملاء كانوا يستطيعون القيام بالمهمة، إلا أنه كان دائمًا ما يبدأ كتابة الرسالة الشفرية بعد انتصاف الليل، حيث يغلق الباب ويسدل الستائر ـ وهو في قلب جهازه المنيع ـ ثم لا ينسى أن يرفع سماعة التليفون ويدير القرص، حتى إذا جاءه صوت زوجته الساهرة في انتظاره، قال:

«معلش يا ماما... أنا حاتأخر الليلة شوية».

ولقد تعودت زوجته ـ إذا ما سمعت تلك الجملة التي أصبحت مع السنوات تعبيرًا دارجًا على لسانه ـ أن يعود إليها مع أول خيوط النهار منهكًا متعبًا في حاجة إلى كل حنانها وحبها... لم تكن تعرف عنه شيئًا، ولا عما يقوم به من عمل، وكانت، إذا ما سألته سؤالًا عما يجري في البلاد، ووجدت منه تجاهلًا لسؤالها كفت ولم تلح، فلقد تعلمت أنه لن يقول شيئًا، ولن يبوح بشيء!

«في حقيقة الأمر، فإنه بعد سنوات طويلة، وعندما كتب عزيز الجبالي تلك الأوراق التي كتبها عن حياة رأفت الهجان، دفع إلى زوجته بما كتبه

كي تقرأه بصفتها ناقدة متخصصة - !! - فهالها الأمر حقًا، ذهلت وهي تقلب الصفحات، ثم سألته: «إنت كنت عايش كل ده وأنا ما اعرفش؟!». ثم انخرطت في البكاء!».

كان عزيز الجبالي يكتب الرسالة - بالشفرة - ويحملها إلى ضابط اللاسلكي الذي تخصص في الإرسال إلى الفتى ثم يجلس بجواره... وما إن يبدأ الإرسال حتى ينتابه هذا الإحساس المثير والغامض بأن تلك الدقات التي تصدرها أصابع الضابط على مفتاح الجهاز إنما هي حديث مباشر بينه وبين رأفت الهجان... ووصل به الأمر في بعض الأحيان أنه كان يرسل إليه آخر النكات التي أطلقت في مصر، خاصة السياسية منها... وكان رأفت يشعر بهذا، ويسأل دائمًا عمن يكون هذا الذي يمده بأسباب الحياة من داخل وطنه وهو عنه بعيد... لكنه أبدًا لم يحصل على إجابة.

الآن تحقق جزء من أمنية عزيز الجبالي، فلقد كان يستطيع أن يتصل بالفتى كل يوم، وأن يتحدث إليه، ثم ينتظر الرد كي يأتيه بالحبر السري... لكنه ظل دائمًا يتطلع إلى ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن يتبادل معه الحديث باللاسلكي، فيتلقى منه الرد في نفس الساعة.

* * *

عندما حلت نهاية عام ١٩٦٦، كان الهدف المصري قد تحقق بشكل يدعو إلى الإعجاب حقًا... كان هيكل بناء القوات المسلحة الإسرائيلية - بكل فروعها - تحت يد المصريين بالكامل... وأصبحت الأسئلة - أو الاحتياجات كما يطلقون عليها - التي توجه إلى رأفت الهجان، ليست سوى أسئلة عن بعض التفاصيل التي تسد ثغرة هنا أو هناك في هذا البناء الذي أنفق المصريون سنوات طويلة كي يحصلوا عليه!

كانت تجربة رأفت الهجان - بل كان رأفت نفسه بوجوده وتواجده

في قلب المجتمع الإسرائيلي ـ قد ساعدت كثيرًا على إنشاء شبكات أخرى... وإذا كان الشعار الذي أطلق في مصر مع إعادة بنائها الاقتصادي والسياسي في تلك المرحلة هو: «التجربة والخطأ»؛ فلقد كانت التجربة والخطأ هما الطريق الوحيد لبناء دولة عصرية قوية... حقًّا، كانت هناك تلك المساعدات القيمة، والتي لا يمكن إنكارها، من بعض الأصدقاء هنا وهناك، إلا أن لكل مساعدة حدودًا لا يتعداها الصديق حرصًا على أمنه وسلامته، وحرصًا على توازنات من الصعب الإخلال بها... كان الطريق شاقًّا ووعرًا، والحرب تشن من كل ناحية وكل اتجاه... ولقد استشعر رأفت الهجان هذا بوضوح، خاصة بعد أن لمع نجمه في الهستدروت ـ اتحاد النقابات الإسرائيلية ـ وانضم إلى أحد الأحزاب هناك ـ على عكس صديقته سيرينا أهاروني التي ظلت على موقفها من عدم الانضمام إلى حزب بعينه ـ حتى وصل به الأمر ذات يوم أن أرسل يطلب لقاء عاجلًا!

بدا طلب الفتى غريبًا، فلم تكن هناك أزمة حادة تستلزم هذا اللقاء الذي أصر عليه، بل ركب الطائرة إلى إحدى العواصم الأوربية ـ لم تكن هي روما التي كانت قد أصبحت مركزًا مروعًا لذلك النشاط السري العنيف وبعد أن أصبح وجوده أو لقاؤه مع أحد رجالنا فيها محفوفًا بمخاطر لا حدود لها ـ ولم يجد الرجال بدًّا من لقائه، وكان رأفت الهجان يحمل نبأ على أكبر قدر من الخطورة!

قال إنه بعد أن شن تلك الحملة الضارية مع سيرينا حول ذلك التمايز الشديد بين الإشكيناز والسفارديم ـ يهود الغرب ويهود الشرق ـ استطاع أن يكتسب شعبية هائلة في الحزب الذي انتمى إليه... غير أن المفاجأة جاءت يوم أن عرض عليه هذا الحزب ترشيح نفسه لانتخابات الكنيست، كي يصبح عضوًا في مجلس النواب الإسرائيلي!

قال رأفت الهجان إن الضغوط عليه بلغت أقصاها في الأيام الأخيرة، وإنه حاول الاعتذار ـ كنوع من المناورة لا أكثر ولا أقل حتى يجس النبض ويختبر مدى جدية العرض ـ لكنه، في لحظة ما، وجد نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما: أن يقبل أو يرفض، وكان لا بد من إعطاء رد.

كان الأمر مغريًا إلى أقصى الحدود، كما كان في حاجة إلى دراسة علمية دقيقة... ولم يكن ممكنًا ـ بطبيعة الحال ـ أن يحصل الفتى على رد في نفس الوقت، لذلك، فلقد عاد إلى إسرائيل، في انتظار رد عبر اللاسلكي!

وطرح الأمر في القاهرة على مائدة البحث.

وانقسمت الآراء من حوله.

كان هناك رأي يقول: إن دخول الفتى إلى الكنيست سوف يتيح لنا ـ ليس وفرة المعلومات فقط ـ ولكن سرعة وصول تلك المعلومات... كان هذا الرأي يقول إن تدرج الفتى في هرم ذلك الحزب حتى وصوله إلى القمة، من الممكن أن يحمله إلى قمة أخرى قد نكون في أشد الحاجة إليها!

لكن رأيًا آخر وقف بالمرصاد لوجهة النظر هذه!

كان الرأي الآخر يرى أن ابتعاد الفتى عن مراكز المسئولية السياسية هو في نفس الوقت حماية له، وأن دخوله إلى الكنيست من الممكن أن يعرضه لمخاطر السقوط هو وشبكته جميعًا... إنه الآن، عندما يحصل على خبر هام من وزير أو مسئول، وتعلن القاهرة هذا الخبر، أو تستخدمه سياسيًا أو دبلوماسيًا إذا ما اضطرتها الظروف إلى ذلك، فلسوف يشير هذا إلى الفتى إن آجلا أو عاجلًا، أما إذا ظل الفتى في مركزه هذا، يطور أعماله ويقيم مشروعات أخرى، أو يساهم في شركات لها نشاطات في مجالات مختلفة، فلسوف يفيدنا أكثر، ويصبح دائمًا في مأمن!

وعلى كل فلم يكن الأمر سهلًا، ولذلك فلقد استغرقت المناقشات بضعة أيام اشترك فيها عدد لا بأس به من الخبراء في فروع متعددة ونشاطات شتى... وجاءت النتيجة بالرفض!

وكانت البرقية التي أرسلت إلى رأفت الهجان تطلب إليه ـ بما لا يدع مجالًا للشك ـ أن ارفض!

ورفض!!

* * *

مع حلول عام ١٩٦٧ كان كل شيء يبدو رائعًا تمامًا.

غير أنه مع بداية هذا العام بدأت تباشير الأزمة تبدو في الأفق.

فعلى الجانب الآخر، كانت هناك اجتماعات ومؤامرات... كانت شخصية جمال عبد الناصر وسياسته قد ساعدتا على استقلال عدد هائل من دول إفريقيا... فبعد استقلال الجزائر، واندحار الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا، أصبح الاستقلال أقرب ما يكون إلى تلك الدول التي رزحت تحت نير الاستعمار لمئات السنين... وفي العالم كله، أصبحت كتلة عدم الانحياز ـ بزعامة تيتو، نهرو، عبد الناصر ـ كتلة لها وزنها وتأثيرها في السياسة الدولية، وهكذا أصبح التخلص من جمال عبد الناصر هدفًا لكل أجهزة مخابرات الغرب!

كعادة إسرائيل ـ عندما تشعر بالعجز أمام المصريين ـ لا يصبح أمامها سوى الانضواء تحت جناح قوة عظمى، كي تساعدها على هزيمتها... وعلى سبيل المثال، كان هناك ذلك الاجتماع السري الذي عقد في تل أبيب في عام ١٩٦٥ بين «إيسار هاريل» رئيس جهاز الموساد، والسيد «جيمس أنجلتون» رئيس شعبة مقاومة التجسس في المخابرات المركزية الأمريكية... في البداية، كانت مهمة السيد «أنجلتون» ـ التي عرفت فيما بعد ـ واضحة ومحددة، وهي بحث تطوير شعبة مقاومة التجسس في

إسرائيل، بعد أن ثبت لها، كما كان ثابتًا للأمريكيين، أن القاهرة قد استطاعت اختراق المجتمع الإسرائيلي اختراقًا كاملًا... ولسنا ندري على وجه الدقة ما هي الخطوات التي اقترحت ـ أو اتخذت ـ لتطوير هذه الشعبة أو تنشيطها... لكن الذي ندريه على وجه اليقين أن أحدًا لم يقترب من رأفت الهجان، رغم النشاط المكثف وأحدث الأجهزة العلمية التي استخدمت، أو حتى يشك فيه!

ونستطيع أن نؤكد أن القاهرة نما إلى علمها هذا الاجتماع ونتائجه، فأرسلت إلى رأفت تحذره وتطلب إليه أن يخفف من نشاطه دون أن يوقفه تمامًا، وأن يأخذ جانب الحذر الشديد... طلبت القاهرة هذا إلى الفتى، لكنها ـ بالطبع ـ لم تذكر له الأسباب!

وفي إحدى المقابلات ـ وكانت شهور قد مضت ـ سأل الفتى عن سبب ذلك التحذير، ولم يكن هناك ما يمنع ـ وقد مضت شهور ـ من ذكر السبب الرئيسي له، فضحك قائلًا:

«يجيبوا رؤساء كل شعب مقاومة التجسس في العالم كله، محدش ممكن يشك فيَّ!!».

إلى هذا الحد بلغت ثقة الفتى في نفسه وفي منظمته!

ولكن رأفت الهجان لم يعلم كيف تطور هذا الاجتماع الذي تم في عام ١٩٦٥، فبعد أن كان مقصورًا على رئيس جهاز الموساد والسيد أنجلتون الأمريكي، انضم إليهما السيد «إفرايم إيفرون» الذي كان قد تقرر تعيينه سفيرًا لإسرائيل في واشنطن، حتى يكون الاتصال بين الموساد والـ«سي. آي. إيه» مباشرًا!

كان للسيد أنجلتون وجهة نظر تقول: إن البحث في الأمور التكتيكية يأتي في المقام الثاني، فهي أمور من الممكن التغلب عليها بالتعاون بين الجهازين... أما الهدف الأسمى، والذي يجب أن تعمل له الدولتان، فهو إسقاط جمال عبد الناصر!

هكذا طرحت على مائدة البحث قضية وجد المجتمعون أنها تتقدم على كل ما عداها من قضايا!

ولكي نوضح الأمر نقول: إن محاولات اغتيال جمال عبد الناصر وصلت إلى عدد يفوق العشرين محاولة ـ لسنا في حل، ولم يسمح لنا بذكر العدد الحقيقي وأسماء الدول التي كانت وراء كل محاولة!!ـ وإن كل هذه المحاولات قد باءت بالفشل الذريع... وإذا جاز لنا أن نتصور ضخامة هذا العدد من المحاولات وتنوعها وتنوع الوسائل التي استخدمت فيها، فلسوف يبدو لنا واضحًا ـ أشد ما يكون الوضوح ـ أن «الهدف» أصبح مستعصيًا... ولذلك ـ كان هذا رأى المستر أنجلتون، وهو رأي استقيناه من مصادر شبه إسرائيلية ـ لم يعد أمام المجتمعين إلا طريق واحد، أن يتعاون «الموساد» مع جهاز المخابرات الأمريكي ـ كجهاز واحد ـ في العمل على التحضير لحرب تُشن على مصر، وتمنى فيها هذه بهزيمة ساحقة تقضي على جمال عبد الناصر!

كانت شعبية الرجل تزداد يومًا بعد يوم، ليس بين أفراد شعبه فقط، بل وفي أمته العربية التي أيقظتها مبادئه، ووجدت في زعامته طريقًا للخلاص من تخلف فرض عليها... كما كان الرجل قد أصبح رمزًا يقتدى به في كل دول العالم الثالث حتى لقبه أحد زعماء إفريقيا ـ الرئيس أحمد سيكوتوري بالتحديد ـ وفي اجتماع رسمي ضمَّ عددًا من رؤساء دول تلك القارة، بزعيم إفريقيا!

كانت حرب خاطفة يمني فيها جيشه ـ الذي كان جزء كبير منه في اليمن!! ـ بهزيمة ساحقة، كفيلة بإسقاطه، ويكون فيها القضاء المبرم عليه!

وهكذا وصلت الحرب السرية في المنطقة إلى ذروة خطيرة ومشتعلة!

وما إن مضت شهور قليلة من عام ١٩٦٧ حتى انفجرت الأزمة وحبس العالم أنفاسه!

في تلك الأيام نشط رأفت الهجان نشاطًا محمومًا، وتدفق سيل التقارير والبرقيات، يحمل إلى الوطن أدق أسرار المرحلة وما كان يتم هناك على الجانب الآخر، حتى لقد خشي البعض عليه لكثرة ما أبرق إلى العديد من عواصم أوربا، فلقد كان هذا يشكل خطرًا حقيقيًا... كان رأفت الهجان واثقًا من النصر ثقة لا حدود لها... أرسل ذات مرة يقول:

«... ... ... إنهم هنا في حالة رعب حقيقي، بل إن بعضهم يجلس في انتظار وصول المصريين بين يوم وآخر!».

عندما أعلنت مصر طلبها بسحب قوات الطوارئ الدولية، أرسل رأفت الهجان يقول:

«إن قرار الحرب أصبح مؤكدًا، ليس هناك أي احتمال للتأويل أو التراجع!».

كانت الدنيا كلها تلهث وراء الأحداث، كذلك رأفت الهجان كان يلهث خلفها، إلى أن كان اليوم الأخير من مايو عام ١٩٦٧.

* * *

في هذا اليوم، دق جرس التليفون في مكتب بإحدى الشركات المصرية في عاصمة أوربية... رفع الموظف المسئول سماعة التليفون، فجاءه صوت يسأل، بلغة تلك الدولة، عن آنسة تدعى «ماري لويز»... ولم يصدق الموظف أذنه، كان معنى السؤال عن «ماري لويز» أن المتحدث هو رأفت الهجان الذي وصل دون موعد سابق، وكان معناه أيضًا أنه يطلب لقاء عاجلًا وبأسرع ما يمكن.

كان اللقاء في مثل هذا الوقت الذي تتصاعد فيه الأحداث بصورة

خطيرة، وبالتالي، تصاعد فيه النشاط السري إلى ذروة لا تدع مجالًا للقاء آمن تمامًا... وعلى هذا لم يكن هناك مفر من إجراء حديث طويل حول الآنسة «ماري لويز»، حديث وضعت فيه خطة مركبة تمامًا، في لقاء يتم بعد منتصف الليل بساعة، في مكان يندر أن يلتقي فيه إنسان بإنسان!

تم اللقاء في الساعة الأولى من اليوم الأول من شهر يونيه عام ١٩٦٧.

وكان رأفت الهجان يحمل تقريرًا على أكبر قدر من الخطورة والأهمية... كان التقرير يحدد ـ بدقة بالغة ـ أن الهجوم الإسرائيلي قد تحدد موعده في صباح يوم الاثنين الخامس من يونيه بالطيران المنخفض، وأنه سيستهدف ـ أول ما يستهدف وفي أول ضربة له ـ جميع المطارات الحربية المصرية بلا استثناء، بما فيها مطار القاهرة الدولي!

شفع الفتى تقريره المكتوب بتقرير شفهي وصف فيه الحالة داخل إسرائيل بأنها وصلت إلى حد الهستيريا، وأن طبول الحرب تدق هناك بعنف شديد... سلم الفتى تقريره واثقًا مطمئنًا وعاد إلى إسرائيل، بينما طار التقرير، بعد ساعات جد قليلة، إلى مصر!

كان التقرير المكتوب مشفوعًا بمصدره الذي استقى منه الفتى معلوماته.

«لسنا ندري ما هي الحكمة في اعتراض جهاز المخابرات المصري على ذكر هذا المصدر الإسرائيلي الذي لا يرقى الشك إلى معلوماته... خاصة وأنه انتقل ـ مع رأفت الهجان ـ إلى العالم الآخر منذ سنوات!».

وعلى كل، لم يكن التقرير غامضًا، لم يكن في حاجة إلى تحليل أو تأويل، كما أنه لم يكن التقرير الوحيد الذي وصل إلى مصر يحمل نفس المعلومات، بنفس التوقيت... وهكذا، وضعت تحت يد القيادة

السياسية المصرية كل المعلومات الواردة، والتي كانت كل منها تؤيد الأخرى وتؤكدها... ولقد قامت القيادة السياسية المصرية بواجبها، وأبلغت المسئولين عن موعد الهجوم، بكل تفاصيله.

وفي إسرائيل، كان الفتى يفرك كفيه سعادة!

ظن الذين رأوه هناك أنه سعيد بالحرب لأنهم سيتغلبون على المصريين، دون أن يعلموا أن مصدر سعادته، هو يقينه، الذي لا يقبل الشك، من انتصار وطنه.

لِمَ لا؟!...

ألم يعط هذا الوطن كل ما احتاج إليه من معلومات عن العدو وجيش العدو؟!

وجاء صباح اليوم الخامس من يونيه.

وذهب الفتى إلى مكتبه وأنباء الحرب تملأ الأسماع، لكنه كان موقنًا من النصر!

قال رأفت الهجان بعد أسابيع ثلاثة من هذا اليوم، قال وهو يصرخ والدمع يملأ عينيه إنه جلس في مكتبه بالشركة في انتظار ذلك الضابط المصري الذي سيغزو تل أبيب، كي يرحب به!

لكن الأنباء جاءته بعد ساعات قليلة العدد كي تطعنه في مكان القلب تمامًا!!

* * *

ركن عزيز الجبالي إلى الصمت لدقائق طالت بعض الشيء، واحترمت هيلين سمحون ـ أو هيلين الهجان كما أصبحت تحب أن يناديها ـ هذا الصمت وهي ترقب الرجل الجالس أمامها، فإذا به يبدو كمن يعاني من آلام بلا حدود، بدا لها وكأنه ينتزع نفسه من براثن ذكريات

شديدة المرارة، لكنه - على كل - أطلق زفرة خالت تلك السيدة الأوربية أنها نيران مشتعلة - لا تزال - في الصدر، رفع رأسه بعدها قائلًا.

«رغم مرور السنوات، وإزاحة الستار عن بعض الحقائق حول هذه الحرب فإن أسرارها لا تزال مطوية في أعماق الغموض، حقًا... يستطيع كل من له عقل يفكر أن يحلل ويستنتج ويصل إلى نتائج، ولكن المعلومة عندما تأتي من مصدرها الصحيح خالصة، تصبح لها قوة وفاعلية أشد فتكًا من القنابل... وعلى كل فلسوف يأتي الوقت الذي تخرج فيه الحقيقة إلى الضوء، وعندها، سوف يعرف الناس كم ظُلمت مصر!».

عاد عزيز إلى الصمت مرة أخرى متشاغلًا بإشعال سيجارة، ولاحظت هيلين أنه يدخن بكثافة لا تتفق مع طبيعته التي عرفتها طوال أيام كانت تلتقي فيها به صباحًا ومساءً، وتجلس إليه الساعات الطوال تستمع في شغف من يقرأ قصة مليئة بالإثارة، أو «تدردش» معه حول أحوال الدنيا، أو حول ألمانيا وكيف خرجت من الحرب بالنيران إلى الحرب بالعلوم والاقتصاد... أدركت بوضوح أن الرجل يعاني من الذكريات، لكنه كان لا بد أن يعود إلى الحديث، فعاد وكانت نبرته عالية بعض الشيء مما كان ينبئ بانفعال دفين:

«ليس معنى هذا أن مصر لم ترتكب أخطاء... العكس صحيح، فلقد ارتكبنا أخطاء فادحة... ولكن معناه أن قوى عاتية كانت وراء ما حدث وهي - وإن كانت قد حققت الهزيمة - لم تحقق الغرض من الهزيمة... لم يسقط جمال عبد الناصر!».

هنا... كف عزيز الجبالي عن الخوض في الموضوع، وراح يتمتم بكلمات اعتذار للسيدة الجالسة أمامه لأنه ترك لانفعالاته العنان... وسرعان ما عاد إلى الحديث من جديد، ملتزمًا أشد ما يكون الالتزام بمسار القصة التي كان يحكيها!

* * *

كان وقع الصدمة على الفتى عنيفًا إلى أقصى حد، ولأيام بدا للمحيطين به وكأنه أصيب لصدمة الانتصار فلم يستطع تحملها، حملت إليه الأنباء ـ بما أحاطها من مبالغات فاقت كل حد ـ حقائق كانت أبعد الأشياء عن ذهنه... في تلك الأيام فقد رأفت الهجان رغبته في الحياة، وإذا كان قد عاش ثلاثة عشر عامًا وظل المشنقة فوق رأسه كي يحقق انتصارات لا شك فيها، فكيف تأتيه الهزيمة وبهذه الصورة؟!... أكثر ما أضناه وأرقه وأغاظه ومزق قلبه هو استماعه لإذاعة بلاده... قال إنه عندما تنحى جمال عبد الناصر في يوم ٩ يونيه ظل يبكي لساعات غير قادر على وقف دمعه... وإنه عندما أعاده الشعب أدرك أن تلك كانت جولة فالحرب لم تنته... ومنذ العاشر من يونيه عام ١٩٦٧ ولعشرة أيام تالية كان يشعر وكأن شيئًا ينقصه، شيئًا يلح عليه إلحاحًا، حتى اكتشف ذات ليلة أنه إنما يريد العودة إلى مصر، لم يكن هذا قرارًا ـ هكذا قال ـ ولكنها رغبة حارقة... في الوطن كارثة ولا بد له من أن يكون هناك... فقط، يريد أن يكون هناك!

وهكذا ركب رأفت الهجان الطائرة إلى روما ذات صباح يحمل رغبته في صدره، مودعًا، بقلب محطم، كل ما عاش فيه لسنوات... ولقد حرص ـ فقط ـ على أن يرى سيرينا أهاروني قبل رحيله، جلس إليها فدار الحديث ـ ومن حولهما طبول النصر ـ عن طبيعة هذا النصر... كانت الأصوات الواعية في إسرائيل خافتة، غمغمت سيرينا:

«إن العصابة تحتفل بضخامة الأسلاب».

دمدم في ضيق من لا يريد أن يطرق الموضوع:

«لأنهم على الضفة الأخرى أغبياء!».

قالت سيرينا:

«أو مغلوبون على أمرهم!!».

وهكذا انتهى الحوار في الموضوع، ولم يكن هناك ما يقال، فلقد غادرها الفتى قبل أن تمضي ساعة واحدة، وكان موقنًا، وهو يودعها، أنه لن يراها مرة أخرى!!

* * *

في روما، قال رأفت الهجان في اقتضاب:

«أنا عاوز أسافر مصر»!

«وهو كذلك، بس نعمل الترتيبات!».

«ترتيبات ليه؟!».

«إلا ليه؟!».

«مش ضروري ترتيبات، لأني مش راجع إسرائيل تاني!».

قال رأفت الهجان هذا في تصميم لا رجعة فيه، قال إنه لن يعود إلى إسرائيل مرة أخرى، ولن يغادر روما إلا إلى القاهرة... وهكذا، وفي نفس الليلة، وصلت رغبة الفتى إلى القاهرة مع وصف دقيق لحالته وسلوكه وحتى أسلوبه في الحديث، فكان أن وضعت خطة سريعة لإحضاره إلى مصر، وشرع فورًا في تنفيذ هذه الخطة!

* * *

في اليوم التاسع والعشرين من يونيه ١٩٦٧ وصل رأفت الهجان إلى القاهرة!

حملته السيارة وسط الظلام المفروض على المدينة الحزينة، إلى حيث تلك الڤيلا القابعة في حي المعادي، وهناك، استقبلته الست «أم حسني» مع زملائها من الرجال استقبالًا مغموسًا في مرارة بلا حدود، في تلك الليلة قال رأفت الهجان في اقتضاب:

«أنا عاوز أقابل حد أي حد!».

ولقد فهم طلبه، وأومأ المرافق برأسه، ثم غادره على موعد في صباح اليوم التالي.

* * *

في تلك الأيام كان الرجال يعرفون أنه لا مفر من لقاء الفتى ومواجهته، كانوا يعرفون أنه يسمع ما يقال مثلما يسمع الناس في الداخل والخارج، وأنه يقرأ ما يكتب شماتة وإيذاء، كانوا يعلمون أنه لا مفر من مواجهة الفتى لأن هذا حقه بعد سنوات طويلة عاشها وحده في قلب الخطر، حاملًا رأسه على كفه في كل لحظة من لحظات عمره الذي كان يتسرب من بين أصابعه يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام دون أن يعيش ولو جزءًا يسيرًا من أحلامه!

في تلك الأيام عاش الرجال ظروفًا حالكة السواد، عاشوا ـ مثلهم مثل الشعب المصري ـ في كآبة سيطرت على كل شيء، لكنهم ـ دون جميع الناس ـ كانوا يبذلون جهودًا مضنية كي يحتفظوا بصفاء أذهانهم حتى لا تغفل عيونهم لحظة عما يجري من حولهم، فلقد انطلقت الأكاذيب وصيحات الشماتة تنهش لحومهم، وصدرت الكتب الملفقة وطرحت في الأسواق كي تهدم ما تبقى من ثقة في نفوس الشعب... لم يكن أحدهم يملك الرد، بل لم يجدوا من يرد عنهم بكلمة، لم يجدوا سوى كلمات السوء تنهال عليهم من كل صوب، من الصديق قبل العدو... فلقد شاء القدر ـ وكان هذا أمرًا طبيعيًا للغاية ـ أن يلتهب في مصر صراع سياسي شملهم وعصف بالبقية الباقية من سمعتهم... ورغم هذا كله لم يكن أمامهم من طريق سوى مواصلة الليل بالنهار في عمل محموم لا يعرف الكلل، تلقوا الضربات والطعنات، دون أن يلتفتوا إلى الضاربين أو الطاعنين، ليس فقط كي يحافظوا ـ بقدر المستطاع ـ على البناء القائم، وإنما أيضًا لأنهم كانوا يعلمون ـ دون غيرهم من الناس ـ أن بناء جديدًا لا بد من أن يقوم، بناء يتلافى أخطاء الماضي، ويتطلع

إلى المستقبل عبر سحب متراكمة من يأس نشَط غلاظ الأكباد لبثه في نفوس الناس!

* * *

في الصباح الباكر من اليوم الأخير من شهر يونيه عام ١٩٦٧، وقبل أن يذهب الناس إلى أعمالهم، توقفت سيارة حكومية أمام باب تلك الفيلا المنعزلة في المعادي، كان الشارع المظلل بالأشجار خاليًا تمامًا من المارة، وعندما توقفت السيارة لم يغادرها أحد، بل انتظرت لعشر ثوان بالضبط، برز بعدها الفتى من باب الفيلا وهو يضع على عينيه نظارة شمسية سوداء، ويحمل في يده حقيبة أوراق، وهو يرتدي بذلته كاملة... كان منظره يوحي لمن يراه بأنه واحد من كبار موظفي الدولة، ما إن هبط الدرجات القليلة الموصلة إلى الحديقة، حتى غادر السائق، الذي بدا سمينًا متهدل اللحم لاهث الأنفاس يرتدي بنطلونًا وقميصًا، وراح يتدحرج حول السيارة كي يصل إلى بابها الخلفي في نفس اللحظة التي وصل فيها رأفت إلى السيارة، فتح الباب وهو يرفع يده بالتحية، دلف الفتى إلى الداخل فأغلق السائق الباب وهرول إلى مقعده، وما لبثت السيارة أن انطلقت في سرعة متكاسلة!

لم ينتبه أحد إلى بعض العيون التي بثت هنا وهناك، كما أن أحدًا لم يلحظ أن السيارة عندما غادرت الشارع إلى الميدان الرئيسي لحي المعادي، تلاقت مع سيارة صغيرة قديمة كانت تصدر أصواتًا مزعجة وفرقعات متتالية، وتصادف أن هذه السيارة كانت تسلك نفس الطريق الذي سلكته السيارة الحكومية، حتى إذا ما وصلت السيارتان إلى طريق الكورنيش، انحرفت الأولى إلى اليسار بينما انحرفت الثانية إلى اليمين... وتركت السيارة القديمة مكانها لسيارة أخرى راحت تتبع سيارة الفتى من بعيد... وهكذا، حتى وصلت ـ عبر طريق صلاح سالم ـ إلى قصر القبة، فاخترقت الميدان، ثم انحرفت إلى اليمين... ولم يكن

الفتى يعلم أنه سيدخل، لأول مرة في حياته، مبنى المخابرات العامة المصرية!

* * *

في الغرفة التي دلف إليها رأفت، كان هناك أربعة أشخاص!

كانت الغرفة واسعة، في صدرها مكتب يكاد يخلو من الأوراق، خلفه مقعد تعلوه لوحة كتب عليها اسم «الله»، وأمامه مقعدان، وفي الركن الأيمن خزانة وفي الركن الأيسر دولاب من الصاج صنع في مصر... فيما قبل المكتب كان هناك صالون جلدي وثير المقاعد، ووسط الصالون، كان الأربعة في انتظاره.

أدرك رأفت الهجان منذ لحظة عبور السيارة لبوابة المبنى أنه يدخل إلى عرينه هو شخصيًّا، دارت السيارة في الفناء الصغير، ثم صعدت ذلك الممر القصير، وتوقفت أمام الباب الرئيسي... هرول أحد الأفراد ـ وكان يرتدي زيًّا رسميًّا ـ كي يفتح باب السيارة في احترام، ما إن هبط الفتى منها حتى اندفع «سهيل» من الداخل مرحبًا، تصافحا في حرارة، ورماه الفتى بنظرة حيرى، فأشار سهيل نحو باب المصعد المفتوح:

«اتفضل سيادتك!».

كان الجو العام مثيرًا للاكتئاب، بدا له المبنى لحظة دخوله خاليًا تمامًا من الحياة، لم يكن هناك بشر سوى هؤلاء الذين استقبلوه... غادر المصعد فإذا به يسير في ممر ضيق عاري الجدران ذي لون بلا معنى، وكان الممر أيضًا خاليًا والأبواب فيه موصدة على صمت يخترق العظام... عندما اقتربا من باب في نهاية الممر سبقه سهيل في رشاقة كي يفتح له الباب ويفسح له الطريق... وهكذا وجد نفسه وجهًا لوجه أمام أربعة رجال لم يلتق بأي واحد منهم سوى واحد فقط... وكان هذا هو «نديم هاشم»!

«أهلًا ديفيد!».

«أنا اسمي رأفت!».

قال الفتى هذا بصوت حاد وقد تسمر في مكانه، كان الآن يرتجف، كان شاحبًا شحوبًا عظيمًا... سمع صوت الباب يغلق من خلفه وابتسم نديم ابتسامة فاترة وهو يمد يده نحو الفتى بالتحية مسلمًا:

«أهلًا يا رأفت!».

وانفجر رأفت الهجان في البكاء!

* * *

كان الموقف عصيبًا، كان قاسيًا يسحق العظام سحقًا، تسمر الرجال في أماكنهم جامدين وكأنهم تحولوا إلى شخص من حجر، حتى عيونهم تسمرت فوق جسد الفتى الذي انحنى هابطًا إلى أقرب مقعد وهو يهتز في عنف يصدر عنه نشيج مكتوم كأنه شهقات احتضار، سقطت الحقيبة من يده وأسلم وجهه إلى كفيه واستسلم لبكائه، بعد ثوان كأنها دهور جلس الرجال صامتين من حوله، أقربهم إليه نديم هاشم الذي كانت شفتاه تنفثان دخان سيجارته بلا توقف، وخلف جفنيه التمعت قطرات دمع منعت من الفرار من سجنها... راح نشيج الفتى يخفت ويخفت حتى ران السكون ثقيلًا كالكابوس، أخرج رأفت منديله وراح يمسح دمعه ولكنه توقف فجأة وهو يدير البصر في الوجوه التي أحاطت به، حتى إذا ما توقفت عيناه عند نديم تقلصت ملامحه وكأنه يعاني آلامًا مبرحة، صاح:

«إيه اللي حصل؟!».

ولم يستطع أن يمنع الدمع الذي عاد مدرارًا!

«وليه؟!».

صوته ممزق وأنفاسه لاهثة وأسئلته كالرصاص:

«وازاي؟!».

كان الآن يواجه نديمًا كمن فقد عقله.

«فهمني يا سيد نديم أنا حاتجنن!».

ربت نديم على كتفه:

«طب اهدى شوية!».

«أهدى ازاي؟!».

سحق نديم سيجارته وهمَّ بالاستدارة نحو الفتى الذي هتف:

«إنت هادي؟! عارف تهدى؟!... قادر تهدى؟!».

سقطت ذراع نديم إلى جواره فانتفض الفتى واقفًا:

«أنا ما عنديش كلام أقوله، أنا جيت مصر ومش راجع تاني!».

ولما لم يجد إجابة عاد إلى الصياح:

«كفاية عليّ تلتاشر سنة وأنا كل ليلة فيها باحلم بحبل المشنقة!».

غالب الدموع فغلبته وإذا به يبكي قائلًا:

«ده أنا اديتكم إسرائيل في إيديكم!».

مال نحو نديم كالمتوسل:

«أنا مش باعت لكم إنهم حايضربوا يوم ٥ يونيه؟!».

ولم ينتظر ردًّا، بل استقام في وقفته وأجال عينيه في المكان:

«أنتو باعتيني هناك ليه؟!».

خطا نحو مقعده في محاولة للسيطرة على انفعالاته.

«ما دامت الحكاية مامنهاش فايدة إيه لزمته وجودي هناك؟!».

سأله نديم في حنان:

«مش عاوز تشوف شريفة يا رأفت؟!».

«مش عاوز أشوف حد خالص!».

فجأة، جاءه صوت نديم كصليل من صلب:

«إنت مش شايف إننا تعبانين زيك؟!».

رفع إليه رأفت رأسه فعاجله هذا:

«ويمكن أكتر منك!».

توسل الفتى بصوت مختنق:

«طب إيه اللي حصل ؟!».

«زي ما انت عملت اللي عليك إحنا عملنا اللي علينا!».

همَّ الفتى بالحديث لكنه عدل، ابتلعت عيناه الدموع وتصلبت ملامحه وهو يجول في الوجوه المحيطة به، ما لبث أن عاد إلى نديم قائلًا:

«على كلٍ... أنا مش راجع إسرائيل تاني!».

«خلاص... بلاش ترجع!».

«والشبكة اللي هناك شوفوا لكم صرفه فيها!».

«ما تنعاش هم الشبكة!».

همَّ رأفت بالنطق لكن نديمًا اعتدل ملتفتًا إليه:

«اسمع يا رأفت، إحنا عارفين قد إيه انت تعبان، وشايفين إن معاك حق في كل اللي بتقوله، وأي حاجة أنت عاوزها حاتاخدها... والنهارده ممكن تستلم بطاقتك الشخصية باسمك الحقيقي، وكل طلباتك حاتجاب، بيتك موجود، ومعاشك موجود، وحقك على البلد محفوظ... ويمكن كمان نكون محتاجين لخبرتك معانا هنا!».

ساد السكون لثوان قال بعدها نديم بصوت هادئ:

«أي طلبات تانية؟!».

«أنا ماليش طلبات غير إني أرجع مصر!».

«ما انت في مصر فعلًا يا رأفت!».

جمد الفتى لثوان وكأنه تنبه إلى حقيقة غابت عنه، ثم ما لبث أن نهض حاملًا حقيبته فنهض الجميع لوداعه، تقدم منهم رأفت مصافحًا معتذرًا:

«أنا آسف ما سلمتش عليكم لما دخلت!».

لكن كلًّا منهم شد على يده في حرارة دون كلمة، وسار معه نديم حتى الباب وهو يقول:

«فكر في الكام يوم اللي جايين في المستقبل، شوف انت عاوز تعمل إيه في مصر بالضبط، وثق إن كل اللي انت عاوزه حايتنفذ، لأن ده حقك على بلدك!».

وهكذا انصرف رأفت الهجان، وقد تم الاتفاق على إنهاء مهمته!!

الفصل الثامن

الملحمة

ما إن انصرف رأفت الهجان حتى انضم عزيز الجبالي إلى ذلك الاجتماع الذي كان يضم مع نديم هاشم ثلاثة من رؤساء الهيئات ـ أو الشُّعَبْ ـ في جهاز المخابرات المصرية... على الفور، بدأت دراسة الموقف من كل جوانبه، ولسنا ندري ـ على وجه اليقين ـ ما هي طبيعة تلك المناقشات التي دارت، وما هي الآراء التي طرحت... ذلك أن عزيز الجبالي ـ في تلك الأوراق التي كتبها عن رأفت الهجان ـ قفز كعادته إذا ما تعرض لأسلوب العمل أو بعض جوانبه التكنيكية، إلى النتائج مباشرة دون الخوض في التفاصيل. وإذا كنا نملك أن نؤكد أن تلك المناقشة التي استمرت قرابة ثلاث ساعات لم يغادر فيها أحد من الرجال الخمسة تلك الغرفة التي اجتمعوا فيها برأفت الهجان؛ كانت على درجة عالية من السرية والخطورة... إلا أن كل ما أتيح من معلومات حول هذا الأمر هو أن عددًا من النقاط الرئيسية قد طرح للبحث!

كانت أولى النقاط، وربما أهمها على الإطلاق، هي أن الفتى بصرف النظر عن ظروف الهزيمة والحالة النفسية له قد عاش في إسرائيل ثلاثة

عشر عامًا كاملة، وهي فترة طويلة على إنسان يعيش في عزلة مقلقة وسط شعب من الأعداء!

استغرقت مناقشة هذه الحقيقة وحدها ـ وكانت هي النقطة الوحيدة التي سمح لنا بطرحها للمناقشة ـ وقتًا أكبر من أية نقطة أخرى... وحتى في أحوال السلم ـ وبعيدًا عن الحروب وتوتراتها ونشاط أجهزة الأمن أثناءها ـ فإن ذلك العدد من السنين يبدو هائلًا ومخيفًا وليس مسبوقًا أيضًا... حقًّا كانت هناك آراء ونظريات تختلف في تناولها للأمر، ولكل رأي أو نظرية اتجاهات وتبريرات لا بد من وضعها في الاعتبار، لكن الاعتبار الأول الذي طرح في حالة رأفت الهجان كان: إن استمرار الفتى لسنوات فوق تلك التي أمضاها في إسرائيل، من الممكن أن يمثل ضغطًا عصبيًّا مدمرًا على شخصيته، ومن ثم ـ بالتالي ـ يمثل خطرًا داهمًا على شبكته.

وهكذا، وبشكل تلقائي، كان لا بد من مناقشة مسألة تسليم الشبكة لشخص آخر يحل محل رأفت الهجان ويقوم بإدارتها حتى تظل نبعًا للمعلومات التي كنا في تلك السنين في أشد الحاجة إليها!

ولكم كان عزيز الجبالي يتمنى من أعماق قلبه أن يلتقي في هذا اليوم برأفت الهجان وجهًا لوجه... كان موقنًا أشد ما يكون اليقين أنه لو كان قد حضر ذلك الاجتماع لتعرّف الفتى عليه فورًا، وهو لم يسمح لنفسه ـ هذه المرة ـ أن يشاهده ولو من بعيد، رفض الذهاب إلى المطار، كما رفض ـ وكان يستطيع ذلك بسهولة ـ أن يراه حتى وهو يعبر البوابة أو يدلف إلى المصعد... ولقد كان من أصعب الأمور عليه، وهو جالس في هذا الاجتماع، أن يدلي برأيه في الأمر برمته إلا بعد معرفة تفاصيل ما دار من حوار بين الفتى وبين الرجال الأربعة، ماذا قال وكيف تصرف و... و... ولقد تكفل نديم هاشم ـ الذي لا حظ مدى الانفعالات التي

كانت تضطرم في صدر عزيز ـ بذلك... ففي كلمات بسيطة ومركزة، نقل إليه ما حدث وكأنه يعيده إلى الحياة مرة أخرى!

وعلى كلٍّ... فلقد كانت تلك النقطة الرئيسية التي طرحت كافية تمامًا ـ بعد ذلك الجدل الذي طال لساعات ـ لتغليب ذلك الرأي الذي يقول بضرورة عودة رأفت إلى القاهرة، تغلب هذا الرأي لأسباب موضوعية دون شك... فعلى الجانب الآخر كان لا بد أن يضع الرجال في اعتبارهم أن رأفت الهجان أصبح خبيرًا في المجتمع الإسرائيلي، ليس فقط، بل أصبح خبيرًا في بناء وتكوين بعض الشخصيات المؤثرة في السياسة الإسرائيلية، والعلاقات بين الأحزاب، وتكوين النقابات، وتمثيلها في الهستدروت، والصراعات الحزبية، والشخصية، والنقابية، ومراكز التأثير هنا وهناك... و... وكل هذا كان الرجال في حاجة إليه، كانت دراسات علمية وتحليلات ووجهات نظر مطروحة، ولكن... ألا يضيف وجود رأفت إلى كل هذا الكثير؟!

ثم...

إن تجربة ثلاثة عشر عامًا من العمل السري وإدارته وبناء ساتره والتقاط الرجال وطبيعة المواطن الإسرائيلي، رصيد من الممكن أن يضيف الكثير إلى هؤلاء المندوبين الذين زرعوا، أو في طريقهم إلى ذلك، في المجتمع الإسرائيلي... كانت خبرة الفتى بالتأكيد كنزًا لا يجوز التفريط فيه حتى ولو كان احتمال سقوطه لا يزيد على واحد في المليون!

في هذا الاجتماع، وبعد أن سمع عزيز الجبالي من نديم كل ما دار في لقاء الرجال برأفت. قال:

«أنا رأيي إن رأفت حايرجع إسرائيل»!

سأله أحدهم متشككًا:

«تفتكر يا عزيز؟!».

زفر هذا مغمغمًا:

«حايرجع إسرائيل»!

كانوا جميعًا يعرفون مدى المعاناة التي يعانيها عزيز من أجلِ رجله الذهبي في تل أبيب، ولقد ظلوا صامتين لدقائق بدا فيها أن كلّاً منهم يقلب رأي عزيز في رأسه... وعلى كل، فلقد كان لا بدّ من العودة إلى المناقشة فعادوا إليها، وكان القرار الذي اتخذ في النهاية هو ضرورة الاستجابة لرغبة رأفت الهجان في البقاء في مصر، وعدم عودته إلى تل أبيب!

* * *

عاد رأفت إلى الڤيلا في ذلك اليوم الأخير من شهر يونيو عام ١٩٦٧، ولم يكن قد غاب عنها سوى ساعتين أو يزيد قليلًا... عاد منهكًا متعبًا متجهمًا، واستقبلته الست أم حسني بنظرة غريبة استوقفته، فالتفت نحوها محاولًا الابتسام وهو يسألها:

«بتبصي لي كده ليه يا ست أم حسني؟!».

«أعمل لك فنجان قهوة يا بيه؟!».

لم ترد على سؤاله بل سألته سؤالًا آخر هربًا من الإجابة، ولم يزعجه هذا، لكن الذي أزعجه حقًا هو كلمة «بيه» التي نادته بها، فلقد تعود رأفت منذ أن التقى بهذه السيدة البسيطة لأول مرة في زيارته الأولى للقاهرة أن تناديه: «يا بني»، وكان هذا النداء يقربها منه ويقربه منها ويمنحه دفئًا من نوع خاص... تمنى لو أنه طلب منها العودة إلى ندائها القديم لكنه أحس بالخجل، أحس أنه في حاجة إلى الانفراد بنفسه، فهز لها رأسه إيجابًا، وخلع جاكتته وألقى بها فوق أحد المقاعد وسار إلى الركن الشرقي في بهو الڤيلا الصغير كي يجلس فيه... ألقى ببصره نحو الحديقة واستغرق

في التفكير حتى إنه لم يشعر بها عندما جاءت ووضعت صينية القهوة إلى جواره... مضى وقت لا يدري إن كان قد طال أم قصر، لكنه انتبه على صوت مصطفى السفرجي وهو يقول:

«الغدا جاهز يا سعادة البيه».

«ماليش نفس!».

قالها في اقتضاب وهو ينهض إلى غرفة النوم آخذًا جاكتته في يده، قبل أن يغيب عن ناظري الرجل قال:

«أنا داخل أتمدد شوية ومش عاوز حد يزعجني!!».

لم يكن راغبًا في النوم، لكن الغريب أنه ما إن ألقى بجسده فوق الفراش، بملابسه، حتى راح في النوم!

* * *

قال رأفت الهجان فيما بعد إنه لا يذكر فيم كان يفكر بالضبط منذ وصوله إلى القاهرة، لكن الذي يذكره جيدًا أنه كان يدور في دائرة مفرغة من الأفكار... كان يفكر في شيء ثم يقفز منه إلى شيء آخر ثم ينتقل إلى شيء ثالث حتى إذا ما تذكر الشيء الأول عاد إليه... وهكذا!

قال إنه بالرغم من أنه ناقش كل شيء بينه وبين نفسه فإنه لم يصل بالفعل إلى نتيجة حاسمة أو قرار نهائي بالرغم من كل هذا الذي قاله في الاجتماع!... كانت الهزيمة حقيقة بشعة أحس بعدها أنه اغتيل غدرًا، وكان كلما فكر في إسرائيل وحياته فيها، عافت نفسه العودة... فلأول مرة منذ وطئت قدماه أرض فلسطين في أحد أشهر صيف عام ١٩٥٤، كان يشعر أنه مهزوم أمامهم... اكتشف رأفت الهجان وهو في القاهرة يعيش وحده في الڤيلا لا يزور أحدًا ولا يزوره أحد أن مجرد وجوده في قلب المجتمع الإسرائيلي كان يعطيه إحساسًا بالانتصار على تلك الشرذمة من الأوغاد، هو الآن يعرفهم جيدًا، يعرف كيف يفكرون وكيف

يكنون عداء تقليديًا لبني وطنه... عرف عنهم الكثير مما لا يبوحون به أمام الغرباء مهما كانت ثقتهم فيهم أو قوة علاقته بهم، عرف أن اليهودي يحمل سره معه أينما ذهب أو كان، وأن الصهيوني مريض بالكراهية... فكيف يعود وقد تبدل إحساسه؟! كيف يقودهم بعد أن هزموه؟!!

تلك كانت مشكلة عانى منها كثيرًا... وطويلًا!

عند الغروب استيقظ على أصوات خافتة خارج باب غرفته المغلق، وصلته الأصوات في لحظة كان فيها بين اليقظة والنوم، ميّز في الأصوات صوت الأسطى علي الطباخ ومصطفى السفرجي، ثم صوت أم حسني الغاضب وهي تقول:

«أنتو ناويين تسيبوه من غير أكل لإمتى؟!».

يا لحنان هذه السيدة الذي افتقده منذ وعى على الدنيا! كان السؤال غاضبًا، وكان غضبها مثل بلسم يشفي الجراح، رد عليها الأسطى علي كمن ينفي عن نفسه ذنبًا لم يرتكبه:

«ما هو الأكل قدامه يا أم حسني، هو اللي مش عاوز!».

«ده من ساعة ماجه ماداقش النعمة!».

أوضح مصطفى:

«ما هو أنا لما قلت له إن الغدا جاهز قال لي ماليش نفس!».

اقترب صوت أم حسني من الباب وكأنها وصلت إلى قرار حاسم:

«أنا مش عاوزاك تقول له، أنا عاوزاك تأكله!».

سمع الفتى دقًا على الباب فلم يرد، وقبل أن تأتيه الدقة الثانية سمعها تأمر:

«روحوا انتو حضروا السفرة قوام!».

وسمع الفتى الدقة الثانية فسعل، فُتح الباب في رفق وأطلت منه أم حسني.

«المغرب قالت الله أكبر يا بيه!».

«أنا صاحي يا أم حسني».

«الحمام جاهز، قوم خد لك دش على ما السفرة تجهز!!».

قالت هذا في لهجة من لا يتصور أن أوامره لن تنفذ، قالته وانسحبت وأغلق الباب ووجد رأفت نفسه جالسًا في الفراش يملؤه العجب، انتبه إلى أنه في حاجة إلى حمام يزيل عنه عرق الطريق واليوم والنوم، ثم اكتشف أيضًا أنه جائع... كان نومه كابوسًا متصلًا، لم يكن نومًا بل كان هذيانًا يضرب في كل اتجاه، عندما تذكر ما حدث غص حلقه وصعد الدمع إلى عينيه، وجد أنه سوف يغرق من جديد في تلك الدوامة الجهنمية من الأفكار العاصفة التي احتوته منذ وقعت الهزيمة فنهض مسرعًا إلى الحمام، وقف تحت الدش وترك للمياه الباردة أن تغسله فاستشعر قليلًا من الراحة، غادر الحمام وقد دب في جسده نشاط لم ينكره، لاحت لذهنه فكرة بدت له عظيمة، فلم لا يخرج ـ بعد تناوله الطعام ـ للتريض قليلًا في ضاحية المعادي؟... عندما ينتهي من طعامه سيكون الظلام قد حل، وإذا كان قد قرر البقاء في مصر، وإذا كانوا قد وافقوا فما الضرر من خروجه إذن... بدل ملابسه ودلف إلى غرفة الطعام وقد انتوى أن يأكل قدر طاقته، عندما جلس إلى المائدة كان مصطفى هناك على استعداد، لكنه قبل أن يطلب قليلًا من الشوربة دخلت الست أم حسني كي تجلس قبالته تمامًا... أسندت ذراعها إلى المائدة وألقت برأسها إلى يدها وتعلقت عيناها به، كان تصرفها غريبًا لكنه لم يستطع إلا أن يسألها:

«ما لك يا ست أم حسني؟!».

«عاوزاك تاكل!!».

«حاضر».

قال رأفت الهجان إنه وسط كل أحاسيس المرارة سطع في وجدانه إحساس خاص بأنه يجلس قبالة أمه، وأن عليه أن يطيع دون مناقشة، قال «حاضر» دون تفكير أو تدبير للموقف، خرجت الكلمة من بين شفتيه في استجابة فورية... أقبل على الطعام فأكل، وظلت هي في جلستها أمامه صامتة حتى انتهى من طعامه، نظر إليها باسمًا وكأنه ينتظر منها كلمة تشجيع فعاجلته:

«أكلت؟!»».

«الحمد لله».

«أعمل لك قهوة والا تخرج تتمشى لك شوية؟!!».

نهض رأفت واقفًا وقد هاله الأمر، فهل تستطيع هذه السيدة البسيطة أن تقرأ أفكاره أو حتى تخمن ما كان في حاجة إليه بهذه الدقة؟!... وجد سعادة حقيقية في إطاعة أوامرها، قال:

«لأ... أنا حاخرج أتمشى شوية وبعدين أبقى أشرب القهوة».

خطا مغادرًا حديقة الڤيلا... كان طه الجنايني يجلس إلى جوار البواب على دكة خشبية خارج الباب الحديدي للڤيلا، كانا صامتين تمامًا، عندما سمعا وقع خطواته على أرض الحديقة التفتا ونهضا، عبر الباب إلى الشارع ملقيًا عليهما بتحية رداها بأحسن منها.

كان الشارع خاليًا ومظلمًا، ترك الفتى لقدميه العنان فقادتاه إلى طريق الكورنيش... لم يكن صعبًا عليه أن يكتشف أن هناك من كان يتبعه عن بعد فابتسم، راح يحفظ الطريق حتى يستطيع العودة خلال شوارع ذلك الحي المتشابكة، وجد نفسه بعد بضع مئات من الأمتار في الميدان الرئيسي للمعادي... كانت المحلات مضاءة والناس يتحركون ساهمين، هبت

نسمة من هواء لطفت من حرارة الجو... عبر مزلقان مترو حلوان وانزلق ساعيًا إلى حيث شاطئ النيل، قطع الشارع المؤدي إلى الكورنيش ووقف هناك مبهورًا بالطريق الجديد الذي شقته الثورة بعد رحيله عن مصر... تذكر طريق المعادي القديم الضيق المظلل بالأشجار، وكان الفرق شاسعًا بين طريق الأمس وطريق اليوم... كان قد شاهد طريق الكورنيش في زياراته السابقة لمصر لكنه لم يسر فيه على قدميه... من حوله تناثر بعض الذين تركوا بيوتهم هربًا من حر ذلك العام... على جانب الطريق وقف عدد لا بأس به من السيارات التي انتبه الفتى إلى أنها مصرية الصنع، التفت نحو عائلة تجلس فوق الحشائش التي تزين منتصف الطوار، وكان بجوارها راديو مصري الصنع أيضًا، وكان يذيع أغنيات وطنية، تذكر أن الثلاجة القائمة في بهو الڤيلا التي يقيم فيها مصرية الصنع، وأن الموقد في المطبخ مصري الصنع، وأن السخان في الحمام مصري الصنع، وأن جهاز التكييف في غرفة النوم مصري الصنع... ملأ صدره بالهواء وثمة إحساس غامر ومضيء يملأ جوانحه، ملأ عينيه بجلال النيل وهو ينحدر نحو الشمال فتذكر السد العالي وعدوان ١٩٥٦ فتذكر مقالًا قرأه في إحدى الصحف الإسرائيلية وكان صاحب المقال يصرخ هلعًا من هذا الهرم الأسمنتي الذي يبنيه المصريون عند أسوان... ألقى ببصره نحو الجنوب فإذا مداخن المصانع عند حلوان ترتفع شاهقة كالمردة نحو السماء... ليست مصر المهملة التي تركها، بدا له ـ رغم الأحزان ـ كل شيء جديدًا تمامًا، راح يتلفت حوله وقد استفاق على حقيقة غابت عنه، كانت مصر هذه التي يزورها ويقف الآن على أرضها غير مصر التي ولد فيها وغادرها منذ ثلاثة عشر عامًا فقط... وهو دون كل الناس ـ الذين يحيطون به ـ يعلم علم اليقين أنهم هناك يرفضون هذا البناء ويرون فيه خطرًا يتهددهم... وإذا الأفكار المجردة بين يديه حقائق ساطعة، وإذا به يتمنى لو أنه استطاع أن يصرخ في الناس الذين راحوا يزحفون إلى شاطئ النيل أن انتبهوا، أن ارفعوا رءوسكم، فهو يعرف الحقيقة، بل يعيشها...

وإذا به كمن يخرج من شرنقة مظلمة إلى حيث الضوء يبهر العين، وهو... في وقفته تلك لم يناقش إحساسه هذا، وإنما استكان إليه، وراح يستشعر دفئه كطفل يتمرغ في حضن أمه!

* * *

عاد أدراجه من حيث أتى وقد استغرقه هذا الإحساس فراح يتنفس ملء صدره... عندما اقترب من باب الڤيلا جاءه صوت أم حسني وكانت لا تزال متذمرة:

«إنتو مش حاتبطلوا كلام في العبارة دي بقى؟!».

رآها تطل على الرجال الذين اجتمعوا تحت الشرفة، وقال مصطفى:

«نبطلها ازاي يا أم حسني؟!».

«زي الناس... هو إحنا أول بلد اتغلبت؟!».

ساد الصمت لثوان قالت بعدها:

«لا إحنا أول بلد اتغلبت، ولا إحنا آخر بلد حاتتغلب!».

«ما هو يا أم حسني... ... ...».

قاطعت مختنقة الصوت:

«هو أنا كل ما أحط وشي في وش حد ألاقيه متدهول كده؟!... الناس جرى لهم إيه؟!».

«جرى لهم اللي انتي عارفاه!».

«وناويين تفضلوا متدهولين على طول والا ناويين تاخدوا بتاركم؟!».

هم الأسطى علي بالحديث لكن صوتها الباكي أسكته:

«هي الدنيا خلصت يا خواتي... الدنيا ما خلصتش لسه... والا... والا أنتو مش رجالة؟!».

قالت هذا وهي تستدير إلى الداخل تاركة الرجال في وجوم لم يطل، فلقد قال مصطفى:

«الولية عقلها طق خلاص!».

قبل أن يجد من يحاوره، جاء صوت الفتى من قلب الظلام:

«السلام عليكم».

* * *

ظل رأفت الهجان ساهرًا حتى وقت متأخر من الليل، لا لأنه نام لساعات طالت حتى غربت الشمس، ولكن الأفكار راحت تتقاذفه بعنف بالغ... راح يتمثل حجم العمل الذي أوجد كل هذا في مصر خلال سنوات قليلة، تذكر حياته قبل أن يترك مصر، تذكر سطوة الأجانب الذين كانوا ينهبون خيرات بلاده، تذكر الفقر والعوز والبحث عن عمل دون جدوى... وإذا كان في عام ١٩٥٦ قد طرح على نفسه أسئلة بلا إجابات شافية، فها هو في ١٩٦٧ يجد الجواب صارخًا، وإذا كان في ١٩٥٦ قد سأل نفسه: ما الذي يضير إسرائيل إذا ما أقامت مصر سدًّا عاليًا عند أسوان، فها هو ـ وقد أوشك بناء السد على الانتهاء ـ يجد الجواب!

عندما سرى إليه صوت المؤذن ـ وكان يجلس في الشرفة ـ يؤذن لصلاة الفجر، كانت كثرة التفكير قد أرهقته، فنهض إلى الفراش وراح يتقلب فوقه كمن يتقلب فوق جمر حتى طواه النوم.

ما كادت تمضي ساعتان حتى استيقظ على ضجيج لم يعهده في تلك البقعة الهادئة من القاهرة، كان الضجيج آتيًا من حديقة الڤيلا، من تلك البقعة تحت نافذة النوم مباشرة... في البداية، تسللت إلى وعيه الأصوات وكأنه في حلم، أصوات تناقش وتتلاقى وتتصايح وسط موسيقى عسكرية... ورغم أنه ميز ـ وسط الأصوات ـ أصوات رجال

الفيلا، فإن صوت أم حسني الثاقب هو الذي أيقظه تمامًا، كانت تصيح في المجتمعين:

«إيه العبارة... ما لكم؟!».

«سمعتي اللي حصل في رأس العش؟!».

«وتطلع إيه رأس العش دي؟!».

«الصهاينة حبوا يعدوا لبور فؤاد لكن... ... ...».

قاطعت المتحدث في حدة:

«وعدوا؟!».

«عدوا مين؟!... دول أكلوا علقة!».

وصاح آخر موضحًا في حماس:

«كتيبة دبابات وعربيات مدرعة بمدافعها وسلاحها، جريت قدام ثلاثين راجل في رأس العش... ثلاثين راجل ادوهم علقة وخلوهم يجروا من مطرح ما جم!».

«طب وإيه يعني؟!».

«يا أم حسني افهمي... بيقول لك... ... ...».

«ما هو الثلاثين راجل دول، لو عملوا زيكم وفضلوا قاعدين ينوحوا على اللي فات، ما كانوش وقفوهم، ولا كانوا رجعوهم!».

«هو إنتي لسانك زي الكرباج كده على طول؟!».

«خش انت وهو حضروا الفطار زمان البيه حايصحى».

توقفت الموسيقى العسكرية، وجاء صوت المذيع:

«أيها المواطنون، إليكم البيان التالي!».

قفز رأفت من مكانه مغادرًا إلى البهو الصغير في لهفة كاد معها أن

يتعثر... تردد بصره هنا وهناك بحثًا عن الراديو حتى جاءه صوتها من الخلف:

«الراديو هناك آهو!».

التفت وكانت تقف بالباب المؤدي إلى المطبخ، في عينيها نظرة تقريع ألهبت ظهره، هرول إلى حيث أشارت وقبل أن تمتد يده إلى مفتاح الراديو سمعها تسأل:

«أجيب لك الفطار هنا؟!».

قال: «أيوه»، وهو يعطي لصوت المذيع كل حواسه، وكان ينتفض بالحماس!

* * *

كان صوت المذيع مثل مقارع تهوي فوق أم رأسه، راح يذيع بيانًا مقتضبًا عن معركة رأس العش... تلك كانت معركة صغيرة نعم، لكن مغزاها كان كبيرًا، وتأثيرها أكبر.

ففي الساعات الأولى من صباح اليوم الأول من يوليو عام ١٩٦٧، تقدمت قوة مدرعة إسرائيلية من الجنوب، وبحذاء الشاطئ الشرقي للقناة، في محاولة للاستيلاء على مدينة بور فؤاد المقابلة لمدينة بور سعيد عند مدخل قناة السويس الشمالي فتصدت لها فصيلة من مقاتلينا لا يزيد عددها على الثلاثين فردًا مزودين بأسلحة خفيفة لا قبل لها بأسلحة العربات المصفحة والدبابات التي كانت تتقدم على لسان محاط بالمياه في محاولة للاستيلاء على تلك المدينة... وعند قرية تدعى رأس العش، فوجئ الإسرائيليون بوابل من النيران ينهال عليهم من كل صوب... في البداية، وبغرور النصر المزيف، ظنوا أنهم قادرون على سحق تلك القوة الصغيرة، لكن ملحمة الصمود أذهلتهم، وأصابت طلائع القوة الإسرائيلية من السيارات والدبابات بأعطاب أوقفتها عن الحركة وسجنت ما خلفها

في ذلك اللسان الضيق من الأرض فأصبحت هدفًا لنيران المصريين الذين استماتوا في الدفاع عن أرضهم حتى اضطرت بقية القوة المدرعة إلى الفرار من وجه الجحيم الذي حوصروا به.

أفاق الفتى على شيء غريب... كانت الموسيقى العسكرية التي تلت البيان تأتي من الخارج في كثافة غير عادية، اندفع إلى الشرفة وكان هناك شابان يعبران الطريق وأحدهما يحمل راديو ترانزستور عالي الصوت وكأنهما يريدان إسماع الدنيا بالخبر الجديد، مرت سيارة وكان قائدها يفتح الراديو ـ عالي الصوت ـ على نفس البيان كي يسمعه من أبناء الشعب من فاته سماعه في البداية... خيل لرأفت الهجان أن الدنيا تدب فيها الحياة من جديد... الأشجار والأوراق والطير والناس وحتى الهواء بدا نشيطًا في ذلك الصباح رغم حرارة الجو... كان صوت الراديو يأتيه من الداخل مختلطًا بصوت الراديو الموضوع على دكة البواب منسجمًا مع أصوات أجهزة راديو فتحت هنا وهناك من البيوت المحيطة ومن حيث لا يدري فإذا بها تملأ الدنيا حماسًا دق له قلب الفتى طربًا... عندما عاد صوت المذيع مرة أخرى اندفع مصطفى والأسطى علي من الداخل كي يستمعا إليه من جديد، من مكان ما شق صوت أم حسني الهواء مؤنبًا:

«إنتو مش سمعتوا اللي حصل قبل كده؟!».

لوح لها الأسطى علي في ضيق وقد أعطى كل أذنه لصوت المذيع فعاد صوتها يقرع:

«إنتو فاكرين إنكم بالسمع حاتحاربوا؟!».

تلاقت نظرات مصطفى مع الأسطى علي وسرعان ما انسحبا إلى الداخل.

أشرقت كلمات تلك السيدة في وجدان رأفت فعاد هو الآخر وتذكر

«سيرينا أهاروني» ذات ليلة وكانا يدردشان حول مصر، قال لها في تلك الليلة إن المصريين يتميزون بعبقرية من نوع خاص، وإنهم ـ رغم كل محن التاريخ ـ لم يتركوا الهزيمة تتسلل إلى قلوبهم أبدًا... قالت له سيرينا ليلتها إن ما يقوله هو الصواب بعينه، وإنها ترى عبقرية المصري أول ما تراها فيه هو، رفع حاجبيه دهشة فإذا بها تقول:

«انظر كيف خدعت الجميع وكيف جئت إلى هنا!».

أطلق ليلتها ضحكة صاخبة، ذلك أن صديقته العزيزة لم تكن تدري من المخدوع حقًّا؟!!

«الفطار يا بيه».

رفع رأسه وإذا أم حسني تحمل صينية الإفطار إلى حيث الراديو الذي كان يرسل الآن أغنية حماسية طالما ألهبت عواطفه وهو في إسرائيل، وضعت الصينية وهمت بالانصراف فناداها:

«أم حسني».

توقفت، التفتت نحوه، كان يبتسم:

«إنتي زعلانة مني؟!».

«مش منك انت، من اللي انت فيه!».

جاءته كلماتها كبلسم شفاه من مرض استعصى على محاولاته، استدار نحو التليفون وهو يشعر نحوها بالامتنان وطلب رقمًا، ما إن جاءه الصوت من الطرف الآخر، حتى طلب موعدًا... الآن!

* * *

أنهى المكالمة التليفونية ثم أسرع بتناول إفطاره بشهية افتقدها منذ أن حدث ما حدث... التهم طبق الفول وازدرد بيضة مسلوقة واحتسى كوبًا من الشاي ودخن سيجارة ودخل الحمام وحلق ذقنه... ما إن انتهى

من ارتداء ملابسه حتى جاءته الست أم حسني... الغريب أنها كانت باسمة:

«العربية وصلت يا بني».

اجتاحته سعادة غامرة فها هي أخيرًا تصالحه.

«القهوة في الفراندة اشربها على مهلك يا ضنايا الدنيا ما طارتش!».

جاءته كلمة «يا ضنايا» مثل وسام علقته هذه السيدة فوق صدره، فصعد الدمع إلى عينيه!

❁ ❁ ❁

في هذه المرة قدم له نديم هاشم الرجال الثلاثة وهو يصافحهم:

«السيد زكريا... السيد سليم... السيد محمود».

بدا لهم - بوضوح شديد - أن ثمة شيئًا غريبًا قد أضيف إلى رأفت الهجان أو تغير فيه... كان مشرق الوجه تلتمع عيناه بذلك البريق الذي حدثهم عنه نديم... عندما علموا بطلبه ذلك الموعد استجابوا جميعًا بلا تردد فلقد كان الأمر بالنسبة إليهم قد وصل إلى قرار نهائي... كانت الأنباء قد جاءتهم من الڤيلا بانعزال الفتى وسهومه وعزوفه عن الطعام وخروجه إلى الكورنيش لنصف ساعة عاد بعدها كي يجلس صامتًا طوال الوقت، وعندما احتاج إلى فنجان من القهوة - وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل - نهض إلى المطبخ كي يصنعه بنفسه... وها هو يجلس أمامهم بادي النشاط منفرج الأسارير عصبي المزاج بعض الشيء... ران السكون على الجميع لثوان وكان الفتى مطرقًا، رفع رأسه بعدها قائلًا:

«أولًا... أنا جاي أعتذر عن كل اللي قلته امبارح!».

ابتسم الرجال مغمغمين بكلمات مجاملة لكن صوت نديم جاءه واضحًا:

«على كل، إحنا مقدرين حالتك والظروف اللي انت فيها يا أخ رأفت!».

تمتم الفتى موضحًا:

«يبدو أني كنت تعبان وعصبي ومحتاج لحد أفرغ معاه الشحنة اللي كانت جوايا!».

ضحك نديم:

«يعني انت دلوقت عندك استعداد تتناقش؟!».

«جدًّا!».

كان الرجال قد وكلوا نديمًا كي يقوم بمهمة إبلاغ الفتى أن طلبه قد قُبل، وأن جميع ما يحتاج إليه من أوراق كالبطاقة الشخصية وجواز السفر وما إلى ذلك، ستكون جاهزة في مدى ساعات قليلة... وأن الاختيار قد وقع على تلك الفيلا التي يقيم فيها بالمعادي كي تكون محلًّا لإقامته. ثم إن هناك سيارة جديدة ـ صناعة مصرية ـ ستدخل إلى جراج الفيلا في مساء اليوم، ولسوف يجد رخصة القيادة ورخصة السيارة في المظلة التي تعلو مقعد السائق، وهناك وظيفة يتقاضى صاحبها راتبًا يعادل راتب وزير قد أسندت إليه في إحدى الشركات... لكن عمله سيكون ـ في المقام الأول ـ مع الجهاز... رصيده في البنك، من راتبه الذي كان يحول له في كل شهر منذ يوم سفره إلى إسرائيل تخطى الخمسة عشر ألف جنيه... أما رصيده من العملات الأجنبية، والذي يضعه في بضعة بنوك أوربية فهو حق خالص له... وهو مبلغ محترم سوف يساعده إن أراد ذات يوم إنشاء مؤسسة أو مشروع... من المستحسن أن يحصل على إجازة لشهر أو شهرين حتى يستطيع ترتيب أفكاره، هم يرشحون له شاطئًا خاصًّا يستطيع فيه أن يستمتع بإجازة حقيقية... فإذا ما عاد عليه أن يبدأ حياته الجديدة في وطنه بعد أن يكون قد فكر بما فيه الكفاية فيما يريد أن يصنعه في المستقبل.

«بس أنا فكرت فعلًا يا نديم بيه!».

«ونويت على إيه إن شاء الله؟!».

«نويت أرجع إسرائيل تاني!».

هوت جملته في الغرفة فهوى معها صمت عميق، تبادل الرجال نظرات سريعة وعادوا بعيونهم إلى رأفت الذي كان الآن مطرقًا كمن استغرق في حديث ذاتي... ما لبث أن قال:

«أنا مكاني مش هنا، أنا مكاني هناك!».

«هناك فين يا أخينا؟!».

هكذا هتف نديم فرد الفتى في إصرار:

«في إسرائيل»!

تلقى نديم نظرة تحذير لم يلحظها الفتى فلزم الصمت... كان رأفت الآن في حالة خاصة، كان يبدو مثل رجل عرك الأيام وانتصر عليها، فإذا ما عركته يومًا وانتصرت عليه، عاد ـ في عناد الرجال ـ إلى جولة جديدة.

«أبقى كداب لو قلت لكم إن اللي انتوا عرضتموه عليَّ دلوقت مش مغري، ويمكن الحكاية جوايا أكبر من كده، يمكن يكون كل اللي قاله السيد نديم ده حلم باحلم بيه».

هكذا قال ثم صمت ريثما يشعل سيجارة، كان تائه العينين كمن يبحث في الفضاء عن شيء.

«أنا باحلم إني أرجع ويبقى ليَّ بيت وزوجة وأولاد ووظيفة وأرتاح بقى... أنا حياتي كانت صعبة، علشان كده كل ده عظيم... عظيم جدًا لكن... ...».

صمت لثوان ثم استطرد:

«لكن الشبكة اللي هناك، مين اللي حايشغلها؟!».

قبل أن ينطق أحد أردف:

«هي ممكن تشتغل إنما مش زي أنا ماباشغلها لأني عارفهم واحد واحد وفاهمهم وأعرف إزاي أشغلهم».

صمت فعاد السكون يلف الغرفة...

«خسارة... خسارة الشبكة تروح، خصوصًا في الأيام اللي جايه».

قال نديم:

«ما هو ده اللي إحنا عاوزين نتكلم معاك فيه!».

«أكيد البلد حاتبقى محتاجة لمعلومات عن كل اللي حايعملوه في سيناء!».

«ده صحيح بس... ... ...».

«أوعوا تنسوا إن سيناء دي بلدي، وطني... ومحدش حايقدر يجيب لكم كل حاجة عنها زيي!».

«من غير حماس يا رأفت، المسألة عاوزه تفكير!».

«ده مش حماس يا نديم بيه صدقني!».

ثم فجأة هتف في ضيق:

«لأ... أنا مش حاسيبهم يتهنوا بيها!».

فجر منطق الفتى كل القضايا التي من أجلها اجتمع هؤلاء الرجال مع عزيز الجبالي لساعات طالت... وعلى كل، فإن الرجال لم يستسلموا لمنطقه هذا، وجدوا أن أصوب الأمور أن توضع أمامه الصورة كاملة... وإذا كان موقف رأفت فيه من التضحية ما قد يكون الدافع إليه ناتجًا عن

انفعال أو عاطفة، فإنه لا بد أن يواجه الحقيقة صلبة بلا انفعال ولا زواق من عواطف.

قال له السيد زكريا أن ليس معنى بقائه في مصر أنهم لن يستفيدوا من خبرته.

«أنا رقبتي سداده، بس البلد حاتستفيد مني هناك أكتر».

حاول السيد سليم أن يوضح الأمر أكثر، قال إن على الفتى أن ينتبه إلى أن ثلاثة عشر عامًا عاشها وحيدًا في إسرائيل، ليست بالعدد القليل من الأعوام، ولا بد أن التعب والإرهاق سوف يؤثران بالقطع على أدائه.

«اسمح لي سيادتك إني أقول لك، إنكم بتدوا إسرائيل أكتر من حقها... وعلى العموم، مش المهم إني أتعب، المهم إن الشبكة تفضل ولا تتبهدلش... أنا عارف الناس دي كويس!».

جاء الآن دور السيد محمود الذي خيل للفتى أنه يشبه أحد نجوم السينما المصريين، قال الرجل في صوت بالغ الهدوء والحسم إن على رأفت الهجان أن يعلم يقينًا أن عودته إلى إسرائيل الآن تمثل بالنسبة إليه مخاطر بلا حدود!

«ماتخافش عليّ!».

خاصة وأن المرحلة القادمة ستحتاج إلى جهد مضاعف وعمل خطر بالفعل، إن لم يكن عملًا يكاد يكون فدائيًا!

«اعتبرني فدائي»!

لكنه ينسى المكاسب التي ستحصل عليها مصر من بقائه، فثمة أجيال جديدة في حاجة إلى خبرته العميقة بالمجتمع الإسرائيلي، إن معرفته بهذا المجتمع كنز لا يجوز التفريط فيه.

«خلاص، أوعدكم إني في ظرف شهرين حاكون خلصت لكم كتاب أو بحث حوالين الموضوع ده!».

ضحك مردفًا:

«أنا من زمان نفسي أكتب كتاب عن المواطن الإسرائيلي... أصله في الواقع حدوته معقدة قوي!».

بدا منطق الفتي ساحقًا بكل المعاني، ولقد راح هو يطمئنهم بين الحين والحين قائلًا:

«دلوقت مستحيل حد فيهم يشك فيّ... إنتو لو جبتوا كل نسخ التوراة اللي في الدنيا وكل الأناجيل ومعاهم القرآن وحلفتوا عليهم إني مش يهودي محدش حايصدق!».

«على العموم فكر يا رأفت».

«فكرت!».

«خد وقتك في التفكير!».

«أخدت وقت كفاية!».

«يعني ده قرارك النهائي؟!».

«لأن مفيش سكة تانية، ماتبقاش البلد فيها اللي فيها وأنا أقعد هنا في ڤيلا وعربية وأقول كلمتين وأبقى عملت حاجة...، مفيش غير السكة دي، لازم أرجع، ويا أنا يا همّ!!».

الآن أصبح جو الاجتماع أكثر دفئًا وأقل توترًا، ولا بد أن الرجال فكروا فيما قاله عزيز الجبالي بالأمس، وجدت الابتسامات طريقها إلى شفاههم، وأخذهم الحديث حتى طلب إليهم رأفت أن يحكوا له آخر النكت التي أطلقت عن الحرب، غير أنه ـ وهو يغادرهم وكانت الساعة تشرف على الثانية ظهرًا ـ سأله نديم فجأة:

«إنما قول لي يا رأفت... إيه اللي خلاك تغير وجهة نظرك؟!».

«أنا ماغيرتهاش يا نديم بيه... أنا بس صحيت».

«ومين اللي صحاك؟!».

ابتسم الفتى مترددًا، لكنه قرر أن يعترف:

«بصراحة... الست أم حسني!».

وهكذا جاء الاجتماع إلى نهايته... كان على نديم الآن أن يجلس إليه كي يتفقا على الخطوات القادمة، وحددا موعدًا في المساء، وراح هو يصافح الرجال مودعًا، لكنه قبل أن يخطو نحو الباب توقف كمن تذكر شيئًا:

«بالمناسبة... بطلوا تحولوا لي فلوس العملاء كمان، الشركة دلوقت بتكسب كويس، وأنا اقدر أقوم بالمهمة دي من غير متاعب واللي حاتبعتوه، البلد في الظروف دي أولى بيه!».

حذره نديم:

«رأفت... ... ...».

قاطعه الفتى ضاحكًا:

«ما تخافش، كشوفات الحساب حاتوصل في ميعادها زي كل سنة».

وكان في جملته إشارة إلى نفس تطهرت بالنيل إلى حد يفوق الخيال!

* * *

انصرف رأفت الهجان فدخل عزيز الجبالي متوترًا:

«القعدة طولت كده ليه؟!».

ضحك نديم:

«استنى على روحك، آديك حاتعرف كل حاجة».

وعرف عزيز كل شيء... ويبدو أن نديمًا عندما وصل إلى نهاية ما

حدث، كان ـ دون وعي منه ـ متأثرًا... ما إن انتهى حتى ران السكون على الجميع، نظر الرجال إلى عزيز الجبالي فإذا وجهه محتقن والسعادة تتراقص فوق ملامحه بلا مواراة... كان فخورًا، فها هو جهد السنين يقفز إلى ما فوق التمني، وها هي المنظمة المتقدمة، وسط ظلام الهزيمة الدامس، تقف على قدميها مستقلة تمامًا في قلب صفوف العدو، تتكفل، لا بنفسها فقط، ولكن بمن جندتهم من الضباط والجنود لحساب الوطن... الآن، كان رأفت الهجان يقف فوق ذروة لا يطاوله فيها أعظم الجواسيس الذين عرفهم التاريخ... وإذا كانت رأس العش قد أثبتت أن المقاتل المصري رافض للهزيمة التي لم يكن له يد فيها، فإن رأفت الهجان يثبت أن الرجال على استعداد للتضحية بأرواحهم إذا ما طلبت إليهم مصر ذلك... فجأة، مزق صوت عزيز الجبالي الصمت في الغرفة قائلًا:

«البلد اللي فيها رجاله زي رأفت الهجان مش ممكن تتغلب!».

* * *

عاد رأفت الهجان إلى إسرائيل أشد حماسًا مما كان، كانت له جلسة طويلة مع نديم هاشم ناقشا فيها كل شيء كما ناقشا الأسباب التي أدت إلى تلك الهزيمة التي لم تكن متوقعة... أهم ما شغل رأفت في تلك الأيام الأولى في إسرائيل هو تطوير أعمال شركته حتى تحقق أرباحًا تكفي لدفع ما يحتاج إليه أفراد الشبكة التي كانت هي الأخرى في حاجة إلى تطوير كي تصل أذرعها الخفية إلى الشاطئ الشرقي للقناة... اندفع الإسرائيليون نحو سيناء وشواطئها ومعالمها اندفاع المحموم، فاندفع الفتى يخطط لمراحل قادمة يقيم فيها مشروعات سياحية على أرض وطنه، زار شرم الشيخ كما زار نويبع ودهب والعريش وسانت كاترين...

وإذا كانت معركة رأس العش قد فعلت كل هذا الذي فعلته بالناس في

مصر، فلقد كان رد فعلها على الناس في إسرائيل أعمق... فبعد أسبوعين من رأس العش، بالتحديد في اليوم الرابع عشر من يوليو عام ١٩٦٧، قامت قواتنا الجوية بقصف قوات العدو المدرعة في سيناء، كما دخلت في معركة شرسة مع الطيران الإسرائيلي الذي آثر الفرار... وصحا الناس ذات يوم في إسرائيل وهم يتساءلون عن الطيران المصري الذي قيل إنه دمر حتى آخر طائرة... نعم، كان هناك إحساس بالنصر، لكنه إحساس شابه الكثير من الشكوك، فلقد راحت الضربات تتوالى في عنف في عمق سيناء، وعبر الفدائيون المصريون القناة إلى داخل شبه الجزيرة المحتلة، راحوا يضربون ويقتلون ويدمرون ويعودون، عبر القناة، بالأسرى... وما كادت ثلاثة أشهر تمضي على معركة الطيران تلك، حتى دوت في أنحاء العالم أنباء أغرب معركة بحرية والأولى من نوعها في التاريخ، فلقد أغرقت زوارق الطوربيد المصرية المدمرة الإسرائيلية «إيلات» وكانت تلك سابقة في التاريخ البحري غيرت الكثير من النظريات والخطط... ولما كانت إيلات هي نصف مدمرات إسرائيل البحرية، فلقد كان رد الفعل هناك مروعًا... أرسل رأفت الهجان يقول بعدها: «أفاق الناس هنا على حقيقة أفزعتهم وهزتهم حتى الأعماق، وهي أن جيشهم لم يدخل حربًا، ولم ينتصر حقًا!!».

* * *

قال عزيز الجبالي لهيلين سمحون إن تلك مرحلة شهدت بطولات فذة لشباب كانوا يقتحمون أشد الحصون تحصنًا بجسارة ألقت الرعب في نفوس الجنود الإسرائيليين، الذين كانوا ـ في الغالب ـ ما يلقون أسلحتهم رافعين أذرعهم بمجرد رؤية فدائي مصري.

قال عزيز: تلك مرحلة أطلق عليها اسم مرحلة الصمود، كانت يد رأفت الهجان، مع غيره من الأبطال، يمدون الوطن بكل ما يحتاج إليه من معلومات عن قوات العدو في سيناء... ولقد انتهت هذه المرحلة في

أغسطس عام ١٩٦٨، لتبدأ مرحلة أخرى سميت بمرحلة الدفاع النشط... تلك مرحلة كانت فيها مشروعات الفتى في سيناء ـ رغم ما كان فيها من حرب لا تتوقف ـ تأخذ شكلًا شبه ثابت، ورحلات شركته إلى شبه الجزيرة تحمل سائحين، كما تحمل مندوبين يعملون لحسابه، وعيونًا ترصد له كل شيء، وتمده بكل ما يحتاج إليه من أخبار... تلك مرحلة تميزت بالتراشق الكثيف بالنيران، وحرمان جنود العدو من الاقتراب من شاطئ قناة السويس، وإجبارهم على الاختفاء طوال اليوم... فلقد كان يكفي أن يطل رأس من وراء كثبة رملية أو تبة، حتى تنهال عليه الطلقات من كل جانب كي تفجره شظايا تتناثر، وما إن يجن الليل حتى يعيش الجنود في رعب من اقتحام الفدائيين لمواقعهم، والدخول معهم في معارك بالسلاح الأبيض... تلك مرحلة لم تدم طويلًا... ذلك أن إسرائيل، في محاولة لوقف هذا النزيف، حاولت أن تنقل بطاريات من صواريخها على الضفة الشرقية لقناة السويس، في مواجهة مدينتي الإسماعيلية والسويس لتدميرهما كنوع من الانتقام، لكن المدفعية المصرية كانت شرسة في مواجهة هذا التحدي، فسرعان ما انطلقت في وابل من النيران كي تدمر مواقع هذه البطاريات تدميرًا كاملا... وكانت هذه المعارك الأولى بالمدفعية، هي البداية لما أطلق عليه فيما بعد اسم «حرب الاستنزاف»... تلك الحرب التي كانت تجبر العدو إجبارًا على البقاء تحت الأرض... وهكذا، وعلى الجانب الآخر، برزت فكرة إقامة تحصينات بطول الشاطئ الشرقي للقناة، تلك التحصينات التي تطورت بعد ذلك، كي تصبح ما عرف فيما بعد بـ«خط بارليف»!

ووصلت أنباء خط بارليف إلى مصر في وقت مبكر للغاية.

في تلك الأثناء اكتشفت إسرائيل تسربًا مخيفًا في معلوماتها العسكرية، ونشطت أجهزة الأمن فيها نشاطًا مجنونًا، ذلك أن الأمر وصل إلى حد أشعر القواد الإسرائيليين بالخطر داخل مكاتبهم. وأرسلت القاهرة إلى

رأفت ـ الذي أصبح الآن رجلًا خف شعره الكثيف وراح يتساقط موسعًا الطريق إلى صلعة لازمته ـ أرسلت إليه تحذره، وتطلب إليه أن يوقف نشاطه... لكنه لم يفعل، بدا في تلك السنوات وكأنه تحول إلى فدائي بالفعل، كانت أعماله التي اتسعت تدفع به إلى السفر إلى أوربا كثيرًا... حتى كان يوم طلب فيه موعدًا عاجلًا!

عندما ذهب رأفت إلى ذلك الموعد، كان يحمل في يده مجموعة من الأوراق قد طويت كالأنبوبة... كان منظر الأوراق يصرخ بأنها رسوم هندسية، وعندما قدمها للضابط الذي التقى به، سأله هذا عن كنه تلك الأوراق، فإذا به يقول:

«دي نسخة طبق الأصل من تصميمات خط بارليف!».

صاح الضابط مستنكرًا:

«وماشي بيها كده يا رأفت؟!».

«ودي فيها إيه؟!».

«فيها إن أي عسكري ممكن يقول لك افتحها!».

ضحك الفتى ساخرًا:

«يقول لي أنا؟!... سيادتك ماتعرفش أنا بقيت مين في إسرائيل النهار ده!».

ولقد كان الفتى على حق، فخلال عام وبعض عام، امتدت نشاطات الفتى الاقتصادية إلى مجالات أخرى داخل سيناء وفي أوربا... كان السيد ديفيد شارل سمحون قد أصبح في إسرائيل علمًا من أعلام الاقتصاد فيها، كما أصبح عضوًا بارزًا يعمل لرأيه ألف حساب في حزب الماباي الذي انضم إليه. كما أنه احتل مركزًا هامًّا في اتحاد النقابات الإسرائيلية ـ الهستدروت ـ ذلك الاتحاد المؤثر تأثيرًا مباشرًا في سياسة

إسرائيل... كما أصبح دان رابينوفيتش الذي ترقى واحتل مركزًا شديد الحساسية مطيعًا إلى أقصى حد، متعاونًا إلى آخر مدى، باذلًا أقصى ما يمكن من جهد كي يرضي أصدقاءه الذين لم ينس لهم أنهم كانوا عونًا له في الاحتفاظ بزوجته كلارا التي كانت تزداد مع السنين حسنًا... أما إيزاك بن عميتاي فلقد استحق على نشاطه الذي تضاعف بعد حرب ١٩٦٧ مكافآت سخية بحق، بل ـ وهذه ظاهرة نراها جديرة حقًا بالدراسة ـ لقد شغلته مهمته الجديدة مع تجنيد عدد لا بأس به من صغار الضباط عن ممارسة الميسر!!

وكما انتقل الفتى من بيته الفاخر إلى ما يشبه القصر المنيف الذي يطل على البحر الأبيض المتوسط، ويقوم فيه بالعمل ستة من الخدم، انتقاهم الفتى بعناية فائقة، واستطاع أن يقيم معهم علاقات وطيدة تعدت بفراسخ تلك العلاقة بين الخادم والمخدوم، حتى لقد تحول بيت رأفت إلى حصن من الصعب اقتحامه... كما انتقل رأفت الهجان إلى ذلك القصر، انتقل إيزاك بن عميتاي إلى شقة فاخرة، واستطاع الفتى أن يساعد دان رابينوفيتش في شراء ڤيلا طالما حلمت كلارا باقتنائها!!

* * *

بدأ إنشاء خط بارليف في سبتمبر عام ١٩٦٨، وهكذا أصبحت مهمة رأفت أخطر... ذلك أن وسائل الاتصال كانت لا تزال مقصورة على تلقي الفتى أوامره باللاسلكي، وإرسال الإجابات بالحبر السري أو اللقاء الشخصي مما كان يأخذ وقتًا كنا في أشد الحاجة إلى كل ثانية منه!

وهكذا، لجأ عزيز الجبالي إلى خالد عز العرب!

* * *

هنا، كانت ثمة معركة أخرى لا تقل ضراوة وشراسة!

كان الترانزستور يتطور يومًا بعد يوم... وكما طورت إسرائيل وسائل

اتصالها وابتكرت ـ مستعينة بخبرات أجنبية ـ أنواعًا متطورة من أجهزة الإرسال... كان خالد عز العرب ـ مع مجموعته المنتقاة من العلماء ـ يقتحمون آفاقًا جديدة بحق، آفاقًا جابوها باقتدار جعل رأفت الهجان يقول ذات يوم وهو يمسك بيده آلة حاسبة من تلك التي تباع في الأسواق: «عمار يا مصر!».

ما إن رأى خالد عز العرب عزيز الجبالي أمامه حتى هتف:

«طبعًا عاوز جهاز جديد لصاحبك؟!».

كان خالد ـ مع معاونيه ـ قد انتقلوا من تلك الشقة في وسط المدينة إلى قسم هائل في مكان فشلنا في الحصول عليه... ولقد كان عزيز دائم الاتصال به، دائم الإلحاح... حتى إذا كان ذلك اليوم من أيام الشهور الأخيرة في عام ١٩٦٨، صاح عزيز في مرح:

«ما هو أنا مش خارج من هنا إلا بجهاز إرسال، إحنا محتاجين للوقت يا خالد!».

وعلى غير عادته، كان خالد يبتسم!

ما إن قال عزيز ما قاله حتى مد يده إلى آلة حاسبة إليكترونية كانت موضوعة فوق مكتبه، آلة من تلك الآلات التي أغرقت أسواق أوربا واليابان وأمريكا في تلك الأيام والتي لا يزيد حجم الواحدة منها على كف اليد... قدم خالد تلك الآلة لعزيز الذي قلّبها في يده متمتمًا:

«إيه ده؟!».

«إنت مش بتقول إنك عاوز جهاز إرسال؟!».

«جهاز إرسال أيوه، مش آلة حاسبة!».

أومأ خالد إلى الآلة في يد عزيز:

«إيه رأيك؟!».

وصلت الرسالة إلى عزيز الجبالي الذي هتف دهشًا:

«معقولة؟!».

ثم راح يضرب على الأزرار صانعًا عملية حسابية، فإذا الجهاز يستجيب وتأتيه الإجابة صحيحة!

«مش فاهم!».

«هو رأفت مش حافظ الشفرة الرقمية؟!».

«ما انت اللي معلمها له!».

«عظيم!».

مد خالد يده إلى الجهاز الصغير وراح يشرح:

«أي رسالة عنده، مهما كانت طويلة، يقدر يحولها بالشفرة إلى أرقام... تمام؟!».

«تمام!».

«الأرقام دي، مهما كان عددها، ممكن تتحفظ في ذاكرة جوه الجهاز، لو أنه بعد ما يحط الرسالة كلها ضغط على الزر ده!».

«وبعدين؟!».

«بعد كده، وهو في أي مكان في الدنيا، في عربيته، في الشارع، في كازينو، في البيت، في المكتب... لو ضغط على الزر ده الرسالة كلها حاتكون في مصر خلال خمس ثواني!».

«خمس ثواني؟!».

«لأنها بتستقبل هنا على جهاز خاص!».

نظر إليه عزيز طالبًا مزيدًا من التفسير، فأردف الرجل:

«الرسالة كلها بتبقى عبارة عن صفارة واحدة صغيرة!».

«معنى كده إنها مش ممكن تتمسك!».

«بآخد أنا الصفارة دي، وأعمل لها تكبير إلكتروني تديني الرسالة كاملة وبشكل طبيعي!».

هتف عزيز: «عفارم عليك يا عبقري!».

«ما تفرحش قوى كده، لأن إسرائيل ممكن تكون وصلت لنفس الجهاز بس بأسلوب تاني!».

«كان هذا صحيحًا تمامًا، ولقد دارت معركة أخرى استهدفت الحصول على هذا الجهاز الذي ابتكرته إسرائيل، كي نقارنه بجهازنا هنا، ولقد طالت المعركة لسنوات، وعرفت في مصر باسم قصة جمعة الشوان، أو «دموع في عيون وقحة!»».

سأل عزيز:

«إمتى نقدر ندي الجهاز ده لرأفت؟!».

«إديني أسبوعين من النهار ده!».

لا بد لنا من التنويه بأن فريق العلماء الذي يرأسه خالد عز العرب، كان همه الأول، ولسنوات، هو ابتكار أجهزة اتصال من السهل إخفاؤها وتشغيلها على أصغر مصادر الطاقة كالبطاريات الصغيرة، أو حتى دينامو الدراجة العادية... ولقد كان طريقهم إلى هذا الجهاز الجديد، الذي لم يكن سوى آلة حاسبة، بالفعل، مضافًا إليها ذاكرة وجهاز إرسال قوي، محفوفًا بالمخاطر... لكنهم في النهاية توصلوا إليه... ومن الطريف، أن عزيز الجبالي عندما التقى بخالد عز العرب ذات يوم منذ شهور قليلة، وذكره بهذا الجهاز العبقري، مط الرجل شفتيه استهانة وهو يقول: «ده بقى من الحفريات يا عزيز!!».

* * *

وهكذا، تحققت أخيرًا أغلى أمنيات عزيز الجبالي، وأصبح الاتصال بينه وبين الفتى مباشرًا، ويوميًّا!

* * *

الآن... كانت أشياء كثيرة قد تغيرت!

كان رأفت الهجان يقول:

«أكتر حاجة بتسعدني، لما ألاقي المعلومات اللي بابعتها، البلد بتستفيد منها!».

ذلك أن مصر كبدت إسرائيل، في بناء خط بارليف، ملايين من الدولارات، ومئات من أرواح شبابها... ومع رجالنا العظام في سيناء، كان رأفت الهجان دائمًا هناك، وقد أصبحت رسائله إلى وطنه تكاد تصبح يومية... كان يكفي أن يخزن رسالته التي تحوي معلومات على أكبر قدر من الخطورة في جهازه الصغير، ثم يخرج بسيارته إلى الطريق العام، أو يقف في شرفة فندق، أو على الشاطئ، ثم... إذا ما حل الموعد، أخرج جهازه الثمين، وضغط عليه ضغطة واحدة، كي تصل الرسالة إلى مصر في خمس ثوان لا تزيد!

* * *

نظر رأفت الهجان في المرآة ذات مرة، وتوقف طويلًا!

كان الشيب يزحف إلى ما تبقى من شعره، وخطوط الزمن قد حفرت مجاريها فوق وجهه...

كان الآن سيدًا مرموقًا في تل أبيب، يسكن قصرًا خاويًا، وها هو العمر يمضي، فإلى أين؟!...

أصبح حنينه إلى الزوجة والولد ـ في مثل ذلك العمر ـ نارًا تتقد في صدره... لم يعد للهزيمة ذلك الطعم المر القاسي بعد أن أدرك هذا الكهل

أن الحرب لا تزال سجالًا، وأن شعبه لم يمت، ووطنه لم يركع... كان الآن رجلًا حنكته التجربة، كان يعرف كثيرًا من الأسرار التي جعلت من حبه لوطنه مرضًا لا يرجى منه شفاء، واستطاعت منظمته المتقدمة أن تحقق ما لم يخطر ببال... بدا وكأن كل فرد في هذه المنظمة كان يسعى من أجل هدف أسمى، والمعلومات تترى على القاهرة غزيرة دقيقة، وفي حينها لا تتأخر... جاءت مبادرة «روجرز» وقبلتها مصر، ولاح في الأفق أمل لتسوية فما المانع؟!...

هكذا راح يفكر وكان لا يزال يقف أمام المرآة... كان على موعد في تلك الليلة لكنه اعتذر عنه، ثمة إحساس غامض بالاكتئاب سيطر عليه، ربما كان السبب في ذلك الشعر الرمادي الذي طالعه، وفي تلك الصلعة اللامعة، وخطوط الزمن فوق وجهه، والعمر يولي... فأراد الانفراد بنفسه!

أعد لنفسه كأسًا واتخذ مكانه في الشرفة المطلة على البحر. غربت الشمس وران على الدنيا سكون كئيب، استرخى في جلسته وراح يستشعر بعضًا من الرضا عما يكون قد قدمه لوطنه من خدمات... وهو، وقد أصبح الآن ثريًّا تعدت ثروته المليون دولار الأول، كان لا يزال يقدم لوطنه، في بداية كل عام كشف حساب عن أرباحه وأعماله... ذات يوم قال، وكان جادًّا:

«أنا بافكر أحول لكم حصتكم من الأرباح كل سنة!».

كان هذا يرضيه، يشعره بسعادة غامرة، كان دائمًا يقول إن هذا المال مال الوطن أولًا... ولكن، ولكن طلبه رفض في تصميم، وقيل له إن الوطن مدين له بالكثير... وهو، هو لا يعنيه هذا، لا يريد أحد أن يعرف ما الذي فعله أو قدمه... عندما قيل له ذات مرة من ضابط شاب إنه «بطل»، رفض الكلمة بإخلاص... أقصى ما كان يتمناه أن ينجب ولدًا

يحمل اسمه، فقط، ولد واحد يحمل ذكراه في هذا العالم، ولد يقول: «لم يكن أبي رجلا عاديًّا!».

دق جرس التليفون في الداخل وكانت الساعة تشرف على العاشرة، انتفض رأفت من أفكاره... تنفس ملء صدره ولم يكن ينوي أن يرد، لكن الجرس ظل يدق في إلحاح انقبض له قلبه، عاد يستشعر ذلك القلق الغامض ولم يكن هناك بد من الرد، رفع سماعة التليفون ، فإذا صوت سيرينا أهاروني يأتيه مرتجفًا:

«ديڤيد... إنت فين؟!».

«ما لك يا سيرينا؟!».

«إنت لسه ماسمعتش؟!».

«سمعت إيه؟!».

«عبد الناصر!».

«ما له؟!».

«تعيش انت!!».

الفصل التاسع

الـــوداع

مات جمال عبد الناصر!

هزت وفاته رأفت الهجان حتى الأعماق!

أحس وكأن يدًا تعتصر قلبه في قسوة مروعة... في البداية رفض أن يصدق سيرينا أهاروني وظن أنها تمازحه مزاحًا سياسيًّا، يرمي إلى معنى لم يصل إليه، لكن الحقيقة جاءته عبر صوت تلك السيدة الذي اكتسى بحزن لم تحاول إخفاءه. رفض كل محاولاتها للقائه في تلك الليلة، قالت إن الأمر في حاجة إلى مناقشة هادئة بعيدًا عن هوس الذين كانوا يرون في الرجل شبحًا يؤرق جشعهم... ظل طوال الليل يحرك مؤشر الراديو ملتقطًا كل إذاعات العالم، يستمع ـ وقلبه ينفطر حزنًا ـ للعدو قبل الصديق وهم يذيعون النبأ بحزن أو شماتة... حاول في تلك الليلة أن يبكي لكنه لم يستطع، أراد أن يبكي لعله يزيح ذلك الصخر الذي حط فوق صدره، فكاد يكتم أنفاسه... قال: إنه لم يشعر بوفاة أبيه إلا في ذلك اليوم الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٠... قال: إن مشكلة عبد الناصر معه أنه احتل في نفسه مكان الأب... قال: إنه بعد زيارته لمصر عقب هزيمة ١٩٦٧، وعثوره على الأسباب الحقيقية لتلك الحرب الضارية التي وُوجهت بها مصر، اكتشف أنه اهتم ـ مع انغماسه

في مهمته الكبرى ـ بإسرائيل ومشكلات إسرائيل وما كان يدور فيها، دون أن يهتم بوطنه وما كان يحدث فيه... قال: إنه اكتشف أن عليه ـ إن أراد أن يقوم بواجبه على الوجه الأكمل ـ الإلمام بالصورة من كل جوانبها، في مصر، كما في إسرائيل، كما في العالم العربي المحيط بهما... لذلك، فإنه بعد عودته إلى إسرائيل وضع نصب عينيه أن يعرف كل ما كان يدور في مصر وما يحدث فيها من تطورات... ولقد كان، كلما أمعن في القراءة والدراسة يهوله الأمر... أدرك أنهم كانوا لا بد أن يضربوه، ويهزموه، كما أدرك بوضوح أن واجبه أصبح أكثر ثقلًا، ومسئولياته أكثر جسامة!

كانت نيران الأحداث تنضج رأفت الهجان على مهل فراح يمارس واجبه بوعي من يدرك حقائق الأمور... في تلك الأيام راح يرقب ما حوله من فرح وحشي من البعض، وحزن حقيقي من الذين كانوا يرون في عبد الناصر عقبة أمام جنون البعض وبغيهم... وهناك من كانوا يرون أن العداء السياسي شيء، والتقدير الشخصي لزعيم مثل جمال عبد الناصر شيء آخر.

ولكن، كان هناك إجماع براحة عميقة، فلقد تخلصت إسرائيل، بضربة حظ لا تتكرر في الدهر مرتين، من ألد أعدائها وأكثرهم ضراوة وفهمًا لحقائق الأمور!

أما هو، فلقد لزم الصمت، وألزم نفسه به، وامتنع عن مناقشته وتجنب الإدلاء برأيه فيه!

* * *

كان لا بد للحزن أن ينحسر، وللحياة أن تأخذ مجراها!

ووجد رأفت الهجان نفسه أمام واجبات كانت تمتص كل وقته.

كان القتال قد توقف على جانبي القناة بعد قبول مصر لمبادرة

«روجـرز»... وكما قبل جمال عبد الناصر تلك المبادرة كي يعطى الفرصة لدفاعه الجوي أن يتحرك إلى أماكن متقدمة من الجبهة، استغلتها إسرائيل كي تدعم تحصيناتها العسكرية في سيناء... وهكذا، كان لا بد لذراع الفتى أن تمتد إلى كل شبر في شبه الجزيرة المصرية، وكان هذا يحتاج إلى تجنيد المزيد من الجنود، أو القيام برحلات كان بعضها يمثل خطرًا حقيقيًا!

على الضفة الأخرى من القناة، بدأ رأفت يلمح بوادر ذلك الصراع السياسي الذي نشب عند قمة السلطة في وطنه... والذي بلغ ذروته في اليوم الرابع عشر من مايو عام ١٩٧١، وبدا له الأمر في لحظة ضيق ـ وكانت نفسه تقطر مرارة ـ أن الناس في مصر نسوا واجبهم المقدس وتفرغوا لصراعهم السياسي... وعندما احتدم ذلك الصراع ووصل إلى ذروته، أحس وكأنه يقف في الميدان وحده!

شيء واحد كان يطمئنه ويثلج صدره ويدهشه في نفس الوقت... فبينما امتلأت صفحات الصحف الإسرائيلية والعالمية بل والمصرية ـ وكان بعضها يصل إلى الفتى بشكل أو بآخر ـ بأنباء ذلك الصراع، في الوقت الذي كان العالم كله يظن أن مصر قد نسيت حربها المقدسة مع إسرائيل، كانت «الاحتياجات» التي تطلب منه تزداد كثافة يومًا بعد يوم... والآن، وقد أصبح في استطاعته أن يتلقى رسائل وطنه باللاسلكي، وأن يرسل إليه ما يريد وقتما يحب، تعددت مرات الاتصال حتى كادت تصبح يومية... كان الجميع يظنون أن مصر قد نامت، وكانت مصر في الحقيقة لا تغفل لها عين... لم يكن لها أن تغفل لحظة!

تلك سنوات عاشها رأفت الهجان نهبًا لأحاسيس مختلطة، ينهش صدره إحباط يدفعه إليه ذلك الركود على الجبهة، وذلك الاسترخاء الذي رآه أول ما رآه باديًا على جنود الجيش الإسرائيلي وضباطه... ثم يثير حميته وحماسه كثرة ما كان يُطلب إليه من معلومات... وكان أكثر

ما يُطلب إليه في تلك الأيام هو معلومات عما كان يقام في سيناء من تحصينات جديدة وطرق تشق وخطوط اتصال... و... ولم يكن هذا صعبًا، بل كان الصعب حقًا، الذي يمزقه ويؤلمه ويعذبه، أنه كان يرسل معلومات عن قطعة من أرض وطنه!

راحت الشهور تمضي ومصر تبدو وكأنها لن تحارب أبدًا!

ومضى عام وبعض عام وهو يصل الليل بالنهار، يسافر إلى هنا وهناك، يلتقي بالرجال تلك اللقاءات السرية ـ وقد اختفى نديم هاشم وحسن القطان! ـ ثم يفرغ بين أيديهم ما كان يعاني منه، ولا يجد منهم سوى الصمت، وكلمات تحضه على الصبر!!... ذات مرة حمل معه مجلة فرنسية نشرت رسما كاريكاتيريا للرئيس السادات وهو يخطب مهددًا إسرائيل بالحرب، بينما جنوده قد أعطوا ظهورهم للقناة استعدادًا للفرار!

كان يبدو متألمًا، مغيظًا، ضيق الصدر، دائم السؤال:

«إحنا حانحارب إمتى؟!».

ويأتيه الجواب، في كل مرة:

«كل شيء في وقته!».

وحتى يأتي هذا الوقت، قرر رأفت الهجان أن يحارب إسرائيل بأسلوبه هو! وإذا كانت المشروعات السياحية الإسرائيلية في سيناء قد بدأت حقًا في أعقاب هزيمة ١٩٦٧، إلا أن الإقدام عليها كان مشوبًا بحذر بالغ وخوف مقيم... كانت الحرب المستعرة على جانبي القناة وفي قلب سيناء وعمقها، ترعب السائحين وتؤرق الجنود الذين كانوا ـ كما أرسل الفتى في أكثر من تقرير ـ في أسوأ حالاتهم المعنوية... ولكن، ما إن توفي جمال عبد الناصر وران هذا السكون الآسن على الموقف، حتى بدأ الزحف الحقيقي على سيناء لاستثمارها!

كان رأفت يعرف طريقه جيدًا، ليس كوطني يريد تعمير أرض بلاده فقط، ولكن كرجل أعمال يعرف كيف يستثمر تلك الأرض لمصلحة الوطن... فاندفع إلى سواحل سيناء ومدنها وقراها وشواطئها يقيم المشروعات التي كانت تجذب السائحين من كل أنحاء الأرض... في شرم الشيخ، والعريش، ونويبع، ودهب، وسانت كاترين... اكتشف رأفت الهجان أن في بلاده مناطق سياحية من الممكن أن تدر الملايين، فقرر أن يحصل هو ـ دون غيره أو أكثر من غيره ـ على هذه الملايين!

ضحك عزيز الجبالي وهو يقول لهيلين سمحون: إن بعض المواطنين المصريين الذين قدر لهم أن يعبروا إلى سيناء بعد المراحل الأولى للانسحاب الإسرائيلي منها، كانوا يعودون وقد امتلئوا بالضيق من تلك المشروعات التي أقيمت في مناطق عديدة من شبه الجزيرة المصرية، ويتحدثون عن تلك القرى السياحية التي أنشأها الإسرائيليون هناك وتمتعوا بها... دون أن يعلم أحدهم أن مواطنًا منهم كان يقيمها من أجلهم، ذلك أن رأفت كان إذا سئل عن اندفاعه هذا إلى الاستثمار في سيناء يقول في ثقة: «أصلها راجعة راجعة، وأهي بلدي وأنا بابني فيها!».

وإذا كانت منظمة رأفت الهجان قد وصلت في تلك الأيام إلى ذروة المثالية في ذلك العالم السري المخيف، فلقد كانت تنفق على نفسها بنفسها، ومن حاجاتها المتزايدة من مجتمع العدو، كانت تغدق على هؤلاء الأصدقاء الذين تفانوا في إمدادنا بكل ما كنا نحتاج إليه... وإذا كان رأفت الهجان قد استطاع أن يحصل في وقت مبكر على صورة من الخرائط الهندسية لخط بارليف... فإنه الآن، وقد انقضى عامان على وفاة جمال عبد الناصر، استطاع مع منظماتنا الأخرى في سيناء، وعيوننا فيها أن ينقلوا للوطن معلومات كاملة ووافية عن كل مركز، أو نقطة، أو موقع لإسرائيل في سيناء، بدقة فاقت كل تصور... خاصة

تلك المعلومات التفصيلية عن المواقع الحصينة في ذلك الخط الذي ملأت إسرائيل الدنيا جعجعة عنه. والذي جعلت منه الدعاية الإسرائيلية والأوربية والأمريكية ذروة يستحيل على أعتى الجيوش اجتيازها!

لم يكن رأفت الهجان وحده، بل كان هناك أبطال بذلوا أرواحهم رخيصة كي يحصلوا على ما كنا في حاجة إليه، خاصة تلك الوحدة الفدائية التي كان يقودها ذلك البطل الشهيد الذي تحول - منذ يونيه ١٩٦٧ وحتى استشهد في أكتوبر ١٩٧٣ - إلى أسطورة تبعث الرعب في قلوب جنود إسرائيل، وكان اسم ذلك الشهيد: «إبراهيم الرفاعي»!

«عندما جاء ذكر إبراهيم الرفاعي، بدا التأثر واضحًا على وجه عزيز الجبالي مما دفع هيلين سمحون إلى أن تسأله إن كان قد عرفه في يوم من الأيام، فقال عزيز إنه التقى به في الأيام الأخيرة من يونيه ١٩٦٧ في السويس... وكانت الهزيمة قد أخذت من الناس كل مأخذ... لكنه وجد هذا الفدائي الذي جعل من فناء مدرسة متهدمة الجدران معسكرًا له، ومن فصولها محلًا لإقامة رجاله... كما جعل من حياته، منذ الهزيمة وحتى النصر... عبورًا إلى الشاطئ الشرقي وعودة منه بالأسرى، أو تدميرًا وقتلًا وتخريبًا في كل بقعة يقيم فوقها العدو، ولو كانت كوخًا من الخشب!!».

ونحن اليوم، نستطيع أن نؤكد - استنادًا إلى مصادر معلومات لا يرقى إليها الشك - أن الأمر قد وصل إلى حد أنه في مكان ما من المخابرات الحربية المصرية، كما في المخابرات العامة سواء بسواء... كانت هناك خريطة مجسمة كاملة المعلومات لشبه جزيرة سيناء بكاملها... بكل ما فيها من مطارات، وطائرات، ومنشآت، وطرق، ودبابات، وسيارات مصفحة، ورادارات، وقوات دفاع، ومدافع، وصواريخ، وخطوط مواصلات... و... ولقد كانت هذه الخريطة المجسمة تحتل

غرفة هائلة الاتساع... وفي غرفة مجاورة لها كانت هنا خريطة أخرى، ذات حجم أكبر ـ !! ـ لخط بارليف بكل ما فيه وما حوله من تحصينات ومنشآت وأسلحة وأجهزة لاسلكي ومواسير المواد الحارقة التي كان المفروض أن تحول مياه القناة إلى جحيم عند العبور، وتوصيلات هذه المواد ومساراتها ومخارجها ومضخاتها و... حتى أدق التفاصيل الصغيرة والتي تبدو بلا قيمة... كان رأفت يعمل ويعمل ويوجه وينفق ويقود ويبحث ويسأل ويثير ويضرب في كل اتجاه... ثم، ثم ما يلبث أن يسأل:

«إمتى حانحارب؟!».

ويأتيه الجواب، نفس الجواب:

«كل شيء في وقته!!».

* * *

في تلك السنوات الثلاث التي أعقبت وفاة جمال عبد الناصر، بلغ نشاط رأفت الهجان الاقتصادي درجة جعلت من إقامته الدائمة في إسرائيل أمرًا شبه مستحيل... ولم تعد شركة «ماجي تورز» تمثل سوى جانب من جوانب نشاطه الذي تعدد وتنوع وتشعب في أوربا ـ خاصة ألمانيا الغربية ـ وإسرائيل، مما جعل سفراته المتعددة إلى الخارج تبدو طبيعية للغاية، ولا مجال للشك فيها بأي معنى من المعاني... وهكذا، أصبحت علاقة رأفت بجهاز المخابرات المصري، علاقة شبه يومية... كان يستطيع، بذلك الجهاز الصغير الذي تسلمه فرحًا، أن يكتب بالشفرة تقريرًا كاملًا من عدة صفحات، ثم لا يكلفه الأمر، بعد تخزين التقرير في ذاكرة جهازه السحري، سوى الضغط على زر صغير في الموعد المحدد لتصبح الرسالة في القاهرة خلال خمس ثوان... كما كان يستطيع أن يحمل معه تلك الخرائط والصور الفوتوغرافية ـ سواء أكانت صورًا

عادية أو «ميكروفيلم» ـ في أية رحلة من رحلاته إلى أوربا كي يسلمها يدًا بيد.

وإذا كان قد أصبح نجمًا بـارزًا في الهستدروت، ورجلًا نقابيًّا تسمع كلمته ويعمل لها ألف حساب... وإذا كانت عضويته في حزب «الماباي» ـ حزب الأغلبية الحاكم حتى حرب أكتوبر ـ قد ازداد تأثيرها المعنوي بعد رفضه ترشيح نفسه في الانتخابات لعضوية الكنيست، وأصبحت صورته أمام الآخرين صورة من يحرص على الصالح العام دون مصالحه الخاصة... فإن مكانته الاجتماعية أصبحت، ومهما كانت طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، تحتم عليه الزواج!!

كان زواجه قد أصبح ضرورة، خاصة وأنه كان يقترب من الخمسين، وكانت علاقاته الاجتماعية قد اتسعت وشملت دائرة أصدقائه العديد من الوزراء وذوي النفوذ وأعضاء الكنيست وقواد الجيش... وأصبح استمراره بلا زواج ـ مع المعروف عنه كزير للنساء ـ صورة متناقضة تثير التساؤل... و... ولطالما فاتح الرجال في الأمر، ولطالما تحدث فيه، ولطالما وضعت هذه المشكلة على بساط البحث في القاهرة لأيام وليال... ثم يأتي الأمر في النهاية حاسمًا:

«لا زواج!!».

«لا بد لنا أن نوضح الأمر أكثر، ودون استطراد، ففي الستينيات عرفت إحدى قضايا التجسس في إسرائيل باسم قضية «كيڤورك»، ولم يكن كيڤورك هذا سوى فتى أرمني يعيش في مصر، واستطاع نديم هاشم أن يلتقطه ويدربه ويزرعه في إسرائيل كما فعل محسن ممتاز مع رأفت الهجان، مستفيدًا من التجربة السابقة، ومضيفًا إليها ما أضيف إلى الرجال من تجربة وعلم وممارسة... وسافر كيڤورك إلى عدد من بلدان أوربا، ثم إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية... وكما زُرع رأفت الهجان في

المجتمع اليهودي في القاهرة، زرع كيڤورك في المجتمع اليهودي في تلك الدولة... ثم طار إلى إسرائيل، وبدأ نشاطه، وكان ذلك النشاط في البداية مثاليًّا، كان كيڤورك يتقدم باضطراد... لكنه يوم وقع في الحب، وقع في خطأ قاتل، وكان أن قبض عليه بعد أن شكت زوجته فيه، وصدر الحكم ضده بالحبس لسنوات لم يكملها، ذلك أنه عاد إلى مصر بعد حرب ١٩٧٣، ورغم خطئه القاتل كوفئ على ما بذله، والتحق بإحدى الوظائف المحترمة في الحكومة المصرية، ولا يزال يشغل هذه الوظيفة حتى اليوم!!».

كان الرد يأتي إلى رأفت دائمًا «لا زواج!»... فإذا ما احتج وثار وطالب بحقه في الحياة، ذكره الرجال بكيڤورك وما حدث له، فكان يصيح: «إذا كان هو غلط، أنا أغلط ليه؟!».

وتمضي به الشهور، بل تمضي السنوات في رتابة قاتلة، دون أن ينسى أن يقدم، في بداية كل سنة مالية كشفًا مفصلًا عن أعماله وملايينه في إسرائيل وأوربا... و... وذات مرة، وكان هذا قبل حرب ١٩٧٣ بشهور قليلة، سئل:

«الكشوف دي لزمتها إيه يا رأفت؟!».

لاحت على وجهه ابتسامة قال بعدها في تؤدة:

«يمكن ما يكونش لها لزوم في الوقت الحاضر، إنما بصراحة أنا حاسس إني لازم أعمل كده!».

صمت لثوان قال بعدها مردفًا:

«إزاي أنسى إن الفلوس دي في الأصل فلوس البلد!».

كانت الاحتياجات التي تطلب إليه في تلك الفترة كثيرة، وقد لاح له أنها غريبة فتساءل:

«إحنا حانحارب إمتى؟!».

«تاني يا رأفت؟!».

«وتالت ورابع وعاشر!».

«على العموم الاحتياجات مطلوبة فورًا!».

«بس دي كلها من سينا!».

«بالضبط كده!».

«تفتكر الإسرائيليين ناويين على حاجة؟!».

«إنت اللي تقول لنا».

«أقول لكم إيه؟!... دول نايمين في العسل!».

قبل أن يرد عليه الرجل هتف ضاحكًا:

«أنا لو منكم أضربهم فورًا!».

و... وكان رأفت الهجان يؤكد، ويستفيض في شرح حالة المجتمع الإسرائيلي وما وصل إليه، وكان ـ قبل ما يقرب من عام ـ قد أوفى بوعده الذي بذله في القاهرة أثناء زيارته لمصر بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة، وانتهى من كتاب عكف عليه شهورًا وراء شهور، واضعًا رأيه في المجتمع الإسرائيلي وفصائله وتركيبته وصراعاته الحزبية والدينية والمذهبية... ثم كان يدعم هذا الرأي بأحداث وقعت وسمعها، وأخرى وقعت أمام عينيه، وثالثة تعرف على أبطالها، ثم يقول: «هذا رأيي، والكلمة الأخيرة لعلماء الاجتماع»... ولا يزال هذا الكتاب محفوظًا حتى اليوم ـ كمخطوط ـ في إحدى خزائن المخابرات العامة المصرية...

لكن الغريب في الأمر أن تلك السنوات التي كادت تكتمل عشرين عامًا، والتي عاشها رأفت الهجان في إسرائيل، قد زادته إيمانًا بعروبته ومصريته وأصبحت أكثر القضايا التي تستولي على أعظم اهتماماته هي القضية الفلسطينية!!

ظل ينتظر الحرب بفارغ الصبر موقنًا من النصر هذه المرة، لكنه عندما كان ينظر حوله لا يجد سوى هدوء يشوبه استرخاء يبعث على السأم واليأس... وها هي الأخبار تأتيه من القاهرة عن معارضات جديدة، وخلافات تتجدد ومشاحنات تتأجج، وكأن القوم نسوا واجبهم الأقدس، وتفرغوا لخلافاتهم في الداخل!

وفجأة... ودون توقع.

اندلعت الحرب!!

* * *

لا بد لنا من الاعتراف بداية أن الرئيس الراحل أنور السادات استطاع بما جبل عليه من ذكاء حاد وصبر طويل أن يبعد عن الأذهان أنه يفكر في الحرب أو حتى يستطيعها... وكان هذا، دون أدنى شك، مع ما بذله الرجال ـ سواء في المخابرات العامة المصرية أو المخابرات الحربية ـ من جهد يفوق طاقة البشر، خداعًا إعلاميًّا من نوع فريد!

ولقد حاولنا أن نعرف، وبإلحاح، ومن خلال مصادر عديدة، وعلى مدى سنوات طالت، إن كان الرجال قد أعلنوا رسميًّا بموعد معركة ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣، لكننا فشلنا في الحصول على إجابة واضحة أو حاسمة... وقوبلنا في كل مرة بتلك الابتسامة الغريبة التي ترتسم دائمًا فوق شفاه مغلقة!

ولكننا نستطيع أن نؤكد ـ دون خوف من الوقوع في الخطأ ـ أن الرجال بالتأكيد قد أحسوا ـ على الأقل ـ باقتراب موعد المعركة!

وعلى سبيل المثال: فإن أي منظمة للمخابرات في أي بلد من بلاد هذا العالم، من واجبها أن تمد يدها إلى الأقطار الأخرى كي تمد الوطن بما يحتاج إليه من معلومات، فهل تعجز مثل هذه المنظمة عن معرفة ما يتم داخل بلادها؟!!

سؤال ليس في حاجة إلى إجابة!!

ثم... وعلى سبيل المثال مرة أخرى فإن الدولة ـ أية دولة ـ عندما تستعد لدخول حرب، أية حرب، فلا بد أن ترسل قيادتها في طلب ما تحتاج إليه من معلومات، وهي في هذه الحالة تصبح معلومات ذات طابع خاص ونكهة خاصة... ولا بد أن تلك المعلومات قد طلبت من جهاز المخابرات المصري فلباها... وبالتالي، فهو لا يمكن أن يلبيها مغمض العينين، كان لا بد له من التحليل والخروج بنتائج أشارت بالقطع إلى موعد المعركة بالتقريب، إن لم يكن بالدقة كلها!

ثم...

كان على هذا الجهاز نفسه، وقد وصل إلى تلك النتائج الخطيرة أن ينشط بدوره إلى رجاله وفي كل مكان، طالبا استكمال الصورة، أو التيقن منها!

وإذا كان الاتصال بين عزيز الجبالي ورأفت الهجان قد أصبح شبه يومي ففي ذلك الصباح السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣، كانت آخر البرقيات التي أرسلها الفتى قبل اندلاع الحرب تقول:

«أعلنت التعبئة العامة في إسرائيل!».

وكان هذا الإعلان من جانب إسرائيل متأخرًا جدًّا... فبعد ساعات، في تمام الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم العظيم بتوقيت القاهرة، اندلعت الحرب على الجبهتين، المصرية والسورية!

* * *

قال رأفت الهجان فيما بعد إنه لم يعش أيامًا أكثر إثارة وأعظم فخرًا وشرفًا من تلك الأيام التي رأى فيها إسرائيل، بعيني رأسه، وهي تصرخ طالبة النجدة... كان المجتمع ينهار من حوله بسرعة مذهلة، كما كان

الجميع يتحدثون عما يفعله المصريون على الضفة الشرقية للقناة بعد أن عبروا إليها...

قال: إنه ما إن أعلنت الإذاعات في العالم كله أن الجيش المصري قد عبر إلى الضفة الشرقية واستولى على خط بارليف، وأخذ يتقدم نحو الممرات، حتى تعالت صيحات الفزع في كل مكان، وأدرك المواطن الإسرائيلي العادي أنه كان يعيش في وهم يوم وضع ثقته في قيادته العسكرية المغرورة، وجهاز مخابراته وأجهزة دولته...

قال: إنه في تلك الأيام المجيدة كان يسير في شوارع تل أبيب منتفخ الأوداج بعد أن أثمرت عشرون عامًا من عمره ثمرة راح يتلذذ باقتطافها وهو يرى الرعب في العيون، في الغطرسة المزيفة التي ابتلعها خوف معربد في كل صدر... غير أنه هذه المرة لم يجلس في مكتبه بالشركة في انتظار القائد الذي سيغزو تل أبيب، وإنما فعل شيئًا آخر كان هو الجنون بعينه... فتح اتصاله بالقاهرة ليل نهار!!

كانت سيطرته على عملائه الآن فوق كل شك أو تـردد... راح يمطرهم، أينما كانوا، بالأسئلة في جهامة من يريد لعمله أن ينجز في التو والحال... وراحوا بدورهم، يهرولون مجيبين عن كل سؤال!!

هنا... علينا أن نتوقف لاهثين أمام ذلك المشهد النادر حدوثه في التاريخ!

ففي خضم تلك الحرب الفريدة التي وقعت على رمال سيناء... كان الأمر يبدو للمراقب وكأنها معزوفة عبقرية يؤدي العازفون فيها ألحانهم في إيقاع شديد الانضباط... وإذا كانت التفاصيل الصغيرة، في قلب هذا الأتون الذي التهب دون توقع، تبدو وكأنها قطع من الدر النادر، فلقد كان المقاتل المصري يخوض هذه المرة حربًا يعرف فيها مواقع قدميه!

كانت أولى الضربات القاصمة هي تلك الضربة التي قام بها سلاح الطيران المصري.

انطلقت الطائرات كالنسور الكاسرة كي تنقض على الأهداف ـ دون خطأ ولو بسيطًا ـ وبدقة بدت للذين راحوا ينوحون داخل إسرائيل طالبين النجدة، وكأنها من صنع أشباح لا ترى... كانت كل المواقع والتجمعات، والمكاتب الإدارية، ومخازن الذخيرة، والقيادات، والمطارات... معروفًا مكانها بدقة جعلت من ضربة الطيران الأولى لحنًا متميزًا، وكأنه «افتتاحية» رفيعة لسيمفونية هزت العالم بالإعجاب الشديد!!

ثم كانت ملحمة العبور الفريدة في التاريخ، شهد الرجال وهم يعبرون أعظم عائق مائي عرفته حروب العالم منذ أن كانت في الدنيا حروب، مشهد جعل الدنيا تقف احترامًا، ويخلع ـ حتى الأعداء ـ قبعاتهم!

كان الرجال ينزلقون إلى المياه ويسبحون عابرين إلى الضفة الشرقية للقناة، في قواربهم أو بأذرعهم القوية تضرب سطح المياه في جبروت صاحب الحق، ثم يتسلقون جبال الأتربة والرمال... من حولهم خراطيم تنفث مياهًا هادرة غاضبة تزيل بعنف ذلك الساتر الترابي الذي لم يحتمل اندفاعها فذاب... من فوق رءوسهم راحت دانات المدافع، ألوف المدافع، ومئات الألوف من الدانات تخطف المسافات في أزيز ملتهب. حتى تحولت السماء من فوقهم إلى وهج كان يمهد لهم السبيل فوق الأرض المقدسة...

كان الجندي يعبر من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية عارفًا وجهته بالضبط، مطمئنًا إلى مواقع قدميه، وبالعين المجردة، كان يعرف أنه ها هنا سوف يعبر، وها هنا سوف يجد حصنًا من حصون الخط التعس الذي أخذ ينهار حصنًا بعد آخر، ويستسلم جنوده بملابسهم الداخلية، ويصرخ آخرون من فرط الرعب لمجرد رؤية جنود مصر... كما كان العابر يعرف مداخل الحصن ومخارجه، بل كان يعرف أين ينام الجنود وأين يقف من عليهم حراسته، أين يطبخون وأين يأكلون وكيف يعيشون!

ثم كانت معركة الدبابات التي دوت أنباؤها في العالم أجمع كأكبر معركة من نوعها في العدد والقوة والشراسة والإقدام.

ثم المشاة...

وحاملي الصواريخ...

و... و... و...

وفي إسرائيل، لم يكن رأفت الهجان ـ بالطبع ـ وحده.

كان هناك غيره ومن فعل مثله، يضيف إلى معلوماته كما يضيف هو إلى معلومات الآخرين... وكانوا ـ هؤلاء الرجال العظام ـ في قلب النار يفتحون أجهزة اتصالهم ليل نهار دون خوف أو تردد أو خشية من سقوط... ووسط كل هذا كانت المعلومات تتدفق على القاهرة في سرعة مذهلة، فمع ذلك الارتباك المزري الذي ساد إسرائيل وقياداتها وزعماءها وممثليها وحاكميها؛ كانت المعلومات تصبح متاحة إلى أقصى حد متصور!

وأخذ رأفت الهجان، في مهمة أخرى، يندس بين المسئولين والنقابيين يبث روح الهزيمة ويسخر ويثير ويحصل على المعلومات ويستعمل كل ما دُرِّب عليه من فنون كان وقت ممارستها قد حان... في المكاتب، في الهستدروت، في الشوارع والمطاعم والنوادي... كانت الحرب هذه المرة حربًا، وكان النصر هو الهدف، وهو القصد وهو الطريق الوحيد.

ويعود الكهل الذي يقترب من الخمسين شابًا في عنفوان نشاطه، يستمع ويتسمع ويلتقط الأخبار ويجمع المعلومات، كي يبثها يوميًا محذرًا، ومنبهًا، ومرشدًا.

في كل مكان هؤلاء الأبطال المجهولون، والذين في نفس الوقت يجهلون بعضهم بعضًا، يتحركون داخل صفوف العدو وكأن كل فرد منهم، هو المسئول وحده عن النصر!

وإذا كانت «المخابرات الحربية» قد التزمت حتى اليوم بصمت الحكماء والفلاسفة، فإن العالِمين ببواطن الأمور قد شهدوا لها بكفاءة جعلت حركة المقاتل المصريِ على أرض سيناء، وكأنها حركات إيقاعية، ولسنا نرى ـ فيما أتيح لنا من معلومات ـ أية مبالغة في هذا التعبير، ذلك أن هؤلاء الرجال الذين اخترقوا خطوط العدو حتى أشد أماكن قيادتهم حساسية وسرية. استطاعوا أن يمدوا رجالنا من المقاتلين بما جعلهم ـ حتى ولو تحركوا في شحوب ضوء البدر الذي يضيء السماء ـ يتقدمون وكأنهم يسيرون في نزهة في ضوء النهار عارفين ماذا يحوي كل شبر من تلك الأرض التي دنستها أقدام الأعداء!!

كان للمخابرات الحربية رجال في إسرائيل، كما كان لهم رجال في سيناء...

وكان للمخابرات العامة رجال في إسرائيل، كما كان لهم رجال في سيناء...

وهنا، كان العزف يصل إلى ذروة من ذرى التنسيق تبعث على الفخر حقًّا!

في سيناء، كان رجالنا ـ المصريون ـ في العريش والشيخ زويد وغزة ورفح وخان يونس ودير البلح والطور وشرم الشيخ والحسنة وعيون موسى والقصيمة ووادي فيران وأبو زنيمة وأبو رديس وجبل موسى وسانت كاترين وتمادة، ومن حول الممرات وفي قلبها، وعلى سفوح الجبال والمغارات ووحشة الصحاري وسط الثعابين والثعالب والعقارب والحيات والذئاب المفترسة... كان هناك من عاشوا شهورًا، وصنعوا قصصًا تفوق الخيال، تآلفوا مع الوحوش وتغذوا بالثعابين، وصادقوا الحيوانات البرية بل واستعملوها في تبتل العابدين، يرصدون ويرقبون ويجمعون كل معلومة مهما بدت صغيرة وتافهة، كي يبثوها للوطن!

وفي القاهرة...

في القاهرة كانت هناك أجهزة الاستماع اللاسلكي تلتقط عشرات، بل مئات الإشارات في كل يوم، من كل مكان، من كل جحر أو مغارة أو سرداب في جبل، من مواقع لا يخطر ببال أن يقطنها بشر، من قمم جبال شاهقة كانت مكمنًا آمنًا لرجال تحملوا الحر الحارق والبرد القارس وعيونهم لا تنام!

وكم من أبطال سقطوا!

وكم من أبطال صمدوا!

وكم من أبطال واصلوا رحلة الحرب بكل ما كان فيها!

هنا... يتوقف الإنسان أمام المشهد لاهثًا! ووسط كل هؤلاء، ومع كل هؤلاء... كان رأفت الهجان!!

«لا بد لنا من تجاوز المسموح في بعض الأحيان ذلك أن الفنان، قليلًا ـ بل نادرًا ـ ما يقتنع بمنطق هؤلاء الرجال الذين يتسلحون بحكمة تفرضها معرفتهم للأشياء كي نقول: إننا نملك وقائع مذهلة عما فعله رأفت الهجان بالتحديد، عن أهم ما بث إلى الوطن من أخبار ساهمت بقدر كبير في النصر العظيم... ولكنك عندما تستمع إلى رجل يقول: إن حرب ١٩٧٣ لم تكن فردًا، ولم تكن جهازًا، ولا بطلًا، بل هي ملحمة شعب أعطى ثقته لرجاله فقاموا ـ كل من موقعه ـ بواجبهم، فإذا الملحمة كتلة واحدة من ضياء باهر... لا مكان للفرد فيه، بل الكل في المعركة... عندما تستمع إلى هذا المنطق، فإنك لا تملك إلا أن تحني رأسك احترامًا، أو... أو تخبطها في الحائط!!».

* * *

وها هي الأيام تمضي برأفت الهجان.

وها هو النصر يتحقق بين يديه.

وها هو يتحرر من ذلك القيد الداخلي الذي كان دائمًا ما يربطه إلى ما حطم أحلامه وكبرياءه... ها هو يرفع رأسه في قلب إسرائيل شامخًا وقد عاد إليه مرحه المعتاد، وفطنته وسرعة بديهته... ها هو يعيش أزهى أيامه وهو يراهم من حوله وقد سقطت أقنعة الغطرسة والتعالي وبدوا على حقيقتهم.

بعد انتهاء الحرب، كان كل شيء كما هو منظمًا تمامًا، منضبطًا، يؤدي واجبه على الوجه الأكمل، فانطلق إلى الحياة من جديد، انطلق سابحًا في سماوات لا يدريها إلا من عاش مثله عشرين عامًا داخل جدران عفنة من العداء المتخلف، والكراهية الممقوتة!

وها هو عام ١٩٧٣ يمضي حاملًا أعطر الذكريات وأكثرها بعثًا للزهو والسعادة معًا!

ويقبل عليه عام ١٩٧٤ فاتحًا ذراعيه على اتساع ما تبقى له من عمر، إنه الآن يقف فوق ذروة لا تدانيها ذروة، حقق نجاحًا فاق كل خيال أو تصور في مهمته المقدسة، ثم... هو الآن مليونير ورجل أعمال يشار إليه بالبنان!

في تلك الأيام، انتبه رأفت الهجان إلى حقيقة غريبة، حقيقة لازمته شهورًا طويلة دون أن ينتبه إليها، وهي أن نفسه كانت قد عافت النساء!

أصابته الدهشة أولًا، ثم أصابه الرعب عندما اكتشف أنه يهرب من الصديقات ويستمتع بالاختلاء بنفسه. اكتشف أنه يبحث عن الذي يبحث عن شيء، شيء ما، شيء غامض لا يدريه... كان موقنًا من أن هذا الذي يبحث عنه، ويعذبه، ولا يعرف كنهه، هناك موجود، في مكان ما في زمن ما... ولكن، ما هو؟!

وأين هو؟!

وكيف يعثر عليه إذا ما بحث وهو لا يعرف شيئًا عما يبحث عنه؟!

هو... هو نوع من العطش الذي لا ترويه مياه الأرض جميعًا!

هو... نوع من الجوع الذي لا يشبعه طعام الدنيا بأسرها!

هو... هو شيء محير ومعذب ومثير للخوف في نفس الوقت!

أيكون العمر قد تقدم به دون أن يدري؟!

أيكون الشباب قد ولى، وجاءت الكهولة ببرودتها تبحث عن الانزواء بعد حياة لاهثة صاخبة؟!

عشرات الأسئلة التي أرقته حقًّا دون أن يعثر على إجابة!

حتى كانت تلك الليلة!

* * *

كانت الشهور من عام ١٩٧٤ تنقضي... انقضى الشتاء ومر الربيع وانصرم الصيف وجاءت بشائر الخريف، وكانت هناك ذات ليلة دعوة للعشاء!

كان عشاء عمل ستحضره سيدة ألمانية اسمها «هيلين ريشتر»، حاول الاعتذار فلم تعد مثل هذه الدعوات تروق له ولكن صاحب الدعوة ألح عليه فقبل وذهب.

عندما صافح رأفت هيلين لأول مرة انحنى على يدها في رشاقته الآسرة كي يقبلها... وجد قلبه يدق بعنف ذكره بتلك الأيام الخوالي، وإذا الدماء ـ بعد نظرة عابرة إلى عينيها الزرقاوين وأنفها الجرماني الشامخ وعنقها الأرستقراطي النبيل ـ تزغرد في عروقه راكضة من فرط السعادة، وإذا الارتواء يحل محل العطش، وإذا الشبع يطرد الجوع، وإذا كل سؤال له جواب يتلألأ في وجدانه كشعاعات من ماس نادر!

ترى... هل وقع في الحب من أول نظرة؟!

سؤال لم يفكر رأفت الهجان في البحث عن إجابة له... فقط، ترك نفسه لذلك السحر كي يجرفه إلى حيث يريد من شواطئ!

* * *

بعد بضعة أشهر ـ وكان عام ١٩٧٤ قد انسحب تاركًا الدنيا لعام ١٩٧٥ ـ وصلت إلى القاهرة برقية من رأفت الهجان، أو السيد ديڤيد شارل سمحون، يطلب فيها موعدًا عاجلًا!

وتحدد الموعد.

وكان أول ما قاله رأفت لمن التقى به، وكان ضابطًا شابًّا وسيمًا:

«مش كفاية كده؟!».

رغم الغموض البادي في السؤال، مما كان يدفع المستمع إلى الاستفسار، فإن ذلك الضابط الذي بدا لرأفت شابًّا أكثر من اللازم، لم يستفسر، ولم يسأله عن قصده، بل سأله بدوره سؤالًا اهتز له ذلك الكهل المحنك حتى الأعماق، سأله الضابط:

«إنت مش ناوي تتجوز بقى يا أخ رأفت؟!».

... ... حتى اللغة المستعملة بين رأفت وبين جهازه، كانت قد ارتفعت إلى مستوى من الأداء يصعب الوصول إليه إلا بمشقة بالغة، راح ينظر إلى الضابط الشاب وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة راضية، فها هو الجواب عن سؤاله يأتيه كاملًا شاملًا لكل المعاني، حاملًا كل الحب والمودة والفهم والإدراك معًا... كان أكثر ما يثلج صدره هو إحساسه بأن «هذا الرجل» الذي لم يره ولم يلتق به، ولم يسمع صوته... «هذا الرجل» هناك، خلف أسوار الصمت في حدائق القبة، والذي كان يتبادل معه في السنوات الأخيرة أحاديث يومية، الذي كان يمده في الكثير من الأحيان، وطوال عشرين عامًا مضت هي زهرة العمر كله، بأسباب الحياة والاستمرار... هذا الرجل الغامض كان يشعر به وكأنه يحيا في قلبه، في

عقله، في وجدانه، يكاد يكون قطعة منه، يتألم لألمه، ويفرح لفرحه، ويجيب عن سؤاله قبل أن يُطرح!!

كان الصمت قد طال فسأله الضابط الشاب:

«فيه حاجة يا أخ رأفت؟!».

«أنا بافكر أرجع مصر»!

«مصر فاتحة لك ذراعاتها في أي وقت تقوله وتحدده!».

همس رأفت متأثرًا:

«أنا عارف، عارف!».

«وكل اللي انت عاوزه حايجاب من غير مناقشة».

قال الشاب هذا وهو يطرق مغمغمًا:

«بس ... ...».

«بس إيه؟!».

هكذا سأل رأفت في توتر فابتسم الشاب قائلًا:

«هو ده كل اللي انت عاوز تقوله؟!».

هذا الثعلب القابع خلف أسوار الصمت في القاهرة يعريه حتى من أفكاره وأسراره... أطلق رأفت الهجان ضحكة جلجلت في المكان وكان يبدو سعيدًا حتى النخاع... إذن فهو يعرف، إنهم يعرفون وهم - أيضًا - يفتحون الطريق في يسر ورقة تبعث على البكاء!

«أنا في الحقيقة كنت عاوز أدي معلومات عن سيدة ألمانية عاوز أعرف رأيكم فيها!».

«قوي قوي!».

فليقتحم المنطقة الحرام إذن:

«أنا باحبها!».

«ثق إننا حانعمل لك كل اللي انت عاوزه».

«كل المعلومات الخاصة بيها موجودة معايا هنا».

«بس بيتهيأ لي إننا محتاجين لمناقشة شوية نقط قبل ما ترتبط بيها».

يا لهول ما سمع!

إنهم يعرفون حتى أنه قرر الارتباط بها، قرر الزواج منها!

«أو. كي، أنا مستعد لمناقشة أي شيء!».

* * *

هنا، تبدو بحار السرية شديدة العمق شديدة الخطر في نفس الوقت.

وبعيدًا عن الشبكة، وما يمكن أن يحدث لها من تصفية أو تطوير أو تسليم لقيادة أخرى... فهذه أمور لم نعرف عنها شيئًا، بل في واقع الأمر أننا لم نسأل، لا لشيء، إلا لأننا موقنون من أن سؤالنا سوف يطرح على آذان صماء - !!! - ولقد كانت هناك أمور يجب أن تبحث وهي تدور حول العودة إلى الوطن، وكيفية ترتيبها وما إلى ذلك... حتى إذا ما وصل الحوار إلى الحديث عن الأمور الاقتصادية حسم الضابط الشاب الأمر كله منذ البداية:

«لازم تعرف يا أخ رأفت إن شركة السياحة - ماجي تورز - بحساباتها وفروعها، حاتفضل ملكية خاصة ليك»!

«ده كتير قوي!».

هكذا قال رأفت فرد الضابط الشاب:

«لأ مش كتير لسببين».

«إيه السبب الأول؟!».

«السبب الأول هو إن ماجي تورز ـ زي ما انت عارف ـ مرتبطة اقتصاديًّا بمشروعاتك التانية، سواء في أوربا أو في إسرائيل».

«ده صحيح».

«ومش ممكن تتعمل عملية فصل تلفت الأنظار».

تنفس رأفت ملء صدره، ابتسم، صمت لثوان ثم سأل:

«والسبب الثاني؟!».

«إن دي هدية مصر ليك»!

لاذ رأفت بالصمت متأملًا، حاول أن يقول شيئًا لكنه لم يستطع، جرفته الأفكار كما جرفه الحنين، حتى إذا جاءه صوت الضابط الشاب انتبه:

«بالمناسبة... إيه أخبار الشركة الجديدة اللي في ألمانيا؟!».

لا...

لا لا...

إنهم يجهزون عليه حبًّا ورفقًا وامتنانًا... أحس بعواطفه تتمزق رضا وسعادة وفخرًا... ذلك أن هذا السؤال البسيط لم يكن يعني سوى شيء واحد، هو أنهم يعرفون «هيلين». أحس وكأن السؤال مدخل للحديث عن حبيبته التي تجلس منذ شهور في انتظار كلمة منه... فماذا... ماذا يمكن أن يقول؟!

وكان لا بد للحديث من العودة، وللحوار الهادئ من أن يأخذ مجراه... وما إن مضت ساعة وبعض ساعة حتى كان كل شيء قد تم الاتفاق عليه، بين الثعلب العجوز والثعلب الشاب!

* * *

يا للسنوات الحافلة التي مضت! يا لتلك الليالي الطويلة المليئة

بالترقب والقلق والتوتر والحب جميعًا!!... وإذا كان لا بد لنهاية، فلقد جاءت النهاية يوم أن وصلت لعزيز الجبالي تلك البرقية التي طلب فيها رأفت الهجان لقاء عاجلًا!

في بعض الأحيان، كان عزيز ـ إذا ما اختلى بنفسه وترك أفكاره تمرح في محيط الذكريات ـ يطوف بسفن الذكرى إلى آلاف القارات والشواطئ والجزر، إلى عوالم مخيفة وخطيرة ومليئة بالأحداث، إلى وجوه ورجال لم تعرف الرحمة طريقها إلى قلوبهم يومًا، إلى تلك الحرب المشتعلة دائمًا تحت سطح المياه فوق كوكب الأرض... غير أن سفينة الذكريات كانت دائمًا، ترسو به عند شاطئ رأفت الهجان!

كانت الحرب قد وضعت أوزارها، ورياح السياسة تنبئ بالكثير مما سيتمخض عنه المستقبل... وبرقية الرجل الذهبي في تل أبيب لا تعني سوى شيء واحد...

كان عزيز الجبالي يعرف كيف كان رأفت يبدو في تلك الأيام وكأن الشباب عاد إليه، وفي بداية الأمر فلقد ظن أن هذا هو رد فعل النصر العظيم الذي شارك في صنعه... ولكنه، يوم أن طلب رأفت على استحياء ـ وكان هذا في خريف عام ١٩٧٤ ـ أن يقوم ببعض العمليات الاقتصادية لحسابه الخاص، أدرك أن الأوان قد آن لاعتزال الرجل، وأن طلبه هذا ليس سوى مقدمة لما كان هو نفسه يفكر فيه بعد رحلة مضنية دامت عشرين عامًا عاش فيها رأفت تحت ضغوط تهزم أعتى الرجال قوة وصلابة... ولقد أذن للرجل أن يفعل ما يشاء، بل قيل له إنه يستطيع الاعتماد عليهم إذا ما احتاج إلى مشورة أو معلومة عن نشاط اقتصادي لشركة هنا أو مؤسسة هناك... لكنه اعتذر شاكرًا، قال: إنه يزمع مشاركة «بعض رجال الأعمال الألمان» في مشروعات لا تزال في طور التفكير!!

وهكذا... لاحظ عزيز الجبالي أن رحلات رأفت إلى ألمانيا الغربية قد تعددت وتكررت بمعدل راح يتزايد، وأنبأته حاسة الشم عنده، فوق

معرفته بالرجل، أن ثمة شيئًا جديدًا قد دخل حياته... وكان لا بد ـ بطبيعة الأمور ـ من معرفة الـ«بعض رجال الأعمال الألمان»... وما هي إلا أيام، حتى جاءته الأنباء عن سيدة أعمال ألمانية باهرة الحسن، اسمها «هيلين ريشتر»، وعرف أنها أرملة توفي زوجها، وكان اسمها قبل زواجها منه «هيلين شيبربور»!

وللحقيقة، فلقد وجد عزيز الجبالي ـ كما أنه كان يعرف بالقطع ـ أن لرأفت الهجان في ألمانيا الغربية علاقات وتعاملات وصداقات مع رجال أعمال بالفعل، كانوا في برلين الغربية، في بريمن، في فرانكفورت، في عدد من مدن ألمانيا الكبرى... لكنه ـ في هذه الشهور الأخيرة ـ بدا وكأنه استكان وارتاح لمدينة واحدة، هي «هامبورج». حيث السيدة ريشتر، وحيث كانت تستقبله دائمًا، وحيث بدوا وكأنهما أصبحا صديقين بصورة غير مسبوقة!!

وبصرف النظر عن لقاءاتهما وأسلوب تلك اللقاءات ودعوات العشاء والاستماع إلى الموسيقى والرقص حتى الصباح، كانت هناك تلك المكالمات التليفونية بين تل أبيب وهامبورج... ولم يكن الحديث طوال تلك الساعات التي تستغرقها مكالمة ـ بطبيعة الحال ـ بين رجل أعمال وسيدة أعمال حول مشروعات اقتصادية يشتركان فيها، لقد كان بالضرورة حديثًا عاطفيًا متأججًا!

ورغم هذا... فإن رأفت الهجان لم يكن قد ذكر شيئًا، رغم تعدد اللقاءات، عن السيدة هيلين ريشتر!

وهكذا، بدا لعزيز الجبالي أن الأمر جدير بالدراسة حقًا!

ولكن... أكثر ما أثلج صدره في تلك المرحلة هو موقف الفتى من الزواج!... والتزامه المطلق بذلك العقد غير المكتوب فهو عندما طلب موعدًا عاجلًا ولم يكن هناك ما يستدعي العجلة في تلك الأيام، جلس

عزيز إلى ذلك الشاب الوسيم الذي كان عليه أن يلتقي به، كان هذا الشاب جيلًا جديدًا من رجال المخابرات، وقد أصبح عزيز الآن واحدًا من المخضرمين العظام الذين عرفهم هذا الجهاز وهم يبنون جدرانه وتراثه ونظامه وأسلوب العمل فيه عامًا بعد عام وسط أعاصير لم تهدأ أبدًا... قال عزيز للضابط الشاب:

«اسمعني كويس... ديفيد المرة دي حايطلب إنه يتجوز!».

وبالنسبة لمثل هذا الضابط الشاب، لم يكن ديفيد شارل سمحون، أو رأفت الهجان، أو المندوب رقم ٣١٣ مندوبًا عاديًا... كان يعلم أنه أصبح مع السنوات نموذجًا فريدًا، بل ربما أصبح مدرسة، بل، وكما أطلق البعض على رأفت الهجان، أكاديمية متنقلة... سأل الضابط الشاب:

«وإذا ما طلبش؟!».

«تدخل انت في الموضوع وبشكل مباشر».

ها هنا أستاذ من نوع آخر يعرف كيف يحرك الأمور، ولقد كان معنى هذا، ببساطة مذهلة، هو إنهاء العملية تمامًا، إعطاء رأفت كل الحرية في أن يعود إلى بلاده معززًا مكرمًا، أو يعيش في أي مكان في العالم!

* * *

قبل أن يجلس عزيز إلى هذا الضابط الشاب الوسيم، كي يلقنه ويتفق معه على كل ما يخص رأفت الهجان، كان قد طلب عقد اجتماع ذي طبيعة خاصة، لم يحضره مع عزيز سوى اثنين من الكبار... وكان موضوع هذا الاجتماع هو إنهاء عملية رأفت الهجان!

ما أعظم الفرق بين اليوم والبارحة!!... بالتأكيد قد تذكر عزيز الجبالي في ذلك اليوم أول لقاء له مع الفتى، منذ عشرين عامًا بالتمام والكمال،

مجرد صورة في ملف كانت كل الملاحظات المكتوبة فيه تطالب بإنهاء عمليته، لأنه أفّاق وجبان ولا يسعى وراء المعلومات!

وعلى كل، فلقد كان طلبه هذا غريبًا... ذلك أن رأفت الهجان لم يكن قد طلب بعد إنهاء مهمته!

«أصله حايطلب ده في أقرب فرصة، واحنا لازم نكون مستعدين من دلوقت لأي مفاجأة!».

كان حديث الرجل منطقيًّا، كما كان مبنيًّا على معرفة ودراية... ثم، كانت حججه أيضًا قوية!

تخطى رأفت الهجان الأربعين من عمره منذ سنوات دون زواج، وإذا كانت أمنية هذا الرجل، منذ شبابه المبكر، هي الزواج وإنجاب طفل يحمل اسمه، فلقد آن الأوان كي تتحقق له هذه الأمنية... خاصة وأنه كان قد أمضى عشرين عامًا كاملة داخل إسرائيل، عاصر فيها ثلاث حروب بيننا وبينهم... وإذا وضعنا في الاعتبار تلك المكانة الاقتصادية والاجتماعية المرموقة التي وصل إليها هذا الرجل سواء في إسرائيل أو خارجها، فإن بقاءه، مع ثرائه ذاك ومكانته الاجتماعية تلك، بلا زواج... أمر قد يثير الكثير، لا من التساؤل فقط، بل من المتاعب... الآن، يجب على رأفت الهجان أن يتزوج، وأن ينجب، وأن يتمتع بما تبقى في عمره من سنوات قد لا تطول كثيرًا بعد كل هذا الذي عاناه في حياته...

ثم...

صمت عزيز لثوان طالت بعض الشيء، قال بعدها:

«ثم إني متأكد أن الموعد العاجل اللي طلبه، سببه أنه ناوي يطلب الطلب ده!».

سأله أحدهم:

«وحايطلب الاعتزال؟!».

«سيّان».

كان السؤال ذا مغزى واضح، وكان الجواب حاسمًا... وهكذا، تمت الموافقة في هذا الاجتماع التاريخي على إعفاء رأفت الهجان من مهمته!

* * *

وصلت المناقشة فيما بين رأفت الهجان وذلك الضابط الوسيم إلى بضع نقاط واضحة ومحددة... كانت أولى تلك النقاط ـ وكان هذا منطق رأفت بالتحديد ـ إنه يريد العودة إلى الوطن باليقين كله... وهو على يقين مماثل من أنه سوف يلقى في مصر كل ما يرجوه... ولكن المشكلة التي ظلت تلح عليه منذ أن اتخذ القرار بطلب هذا الإعفاء أنه أصبح على مستوى السوق الاقتصادية في العالم ـ وهي سوق متشابكة المصالح ـ معروفًا باسم «ديڤيد شارل سمحون»، رجل الأعمال الإسرائيلي الجنسية اليهودي الديانة... وفي أنحاء متفرقة من هذا العالم ـ وليس في إسرائيل وحدها ـ هناك صفقات وتعاقدات وعلاقات وشركات من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن يقلب لها الدنيا رأسًا على عقب بمفاجأتها بأنه مسلم مصري واسمه رأفت الهجان، إن الخسائر التي ستلحق به ستكون هائلة، لكن المشاكل قد تصبح ذات خطر لا يجوز أن نغفله... ثم...

ثم... هناك تلك السيدة التي وجد فيها ـ في النهاية ـ ضالته المنشودة، وهي قد أصبحت الآن أقرب إلى قلبه من أي إنسان آخر، وفوق الحب، وحتى بعيدًا عن الحب، فلقد دخل معها في مشروع اقتصادي يشكل حجر الزاوية بالنسبة إلى مستقبله كله، فهل يفاجئها بما لا يخطر لها على بال، أم يرجئ الأمر إلى أن يحين الوقت المناسب الذي يستطيع فيه أن يبوح لها بسره الرهيب؟!

ابتسم رأفت الهجان في مرارة لم تخف على عيني ذلك الضابط الشاب، وقد انتهى من تحليله قائلًا:

«تصور... تصور إن بقى لي عشرين سنة وأنا في انتظار اللحظة دي، اللحظة دي بالذات، علشان أرجع بعدها مصر... ولما تيجي اللحظة، ألاقي نفسي مش قادر أرجع مصر!!».

لزم الضابط الصمت، فلقد كانت المناقشة التي دارت بينه وبين رأفت، وتحليل الموقف وتقليبه على كل وجوهه، تقود إلى نفس الطريق الذي وضعه عزيز الجبالي بين يديه قبل مغادرته مصر... لزم الصمت لأنه وجد ـ رغم السعادة البادية على وجه ذلك الكهل العظيم وهو يتحدث عن حبه لتلك السيدة ـ سحابة من حزن غامر تنتشر فوق ملامح الوجه الذي ملأته خطوط العمر الكثيف الأحداث... لزم الضابط الوسيم حتى عاد صوت رأفت الهجان يقول:

«على كل حال، إذا فرض وما قدرتش أرجع مصر تاني، ما تسيبونيش مدفون بره، ابقوا ادفنوني في تراب بلدي!».

* * *

همت هيلين سمحون في جلستها وقد ندت عنها صرخة كتمتها بكفها وهي تهتف متسائلة:

«هل طلب هذا؟!».

ولم يرد عليها عزيز الجبالي، كان الحزن يعتصره اعتصارًا، فهز رأسه إيجابًا، وعاد إلى حديثه!

* * *

ولقد اتفق رأفت مع الضابط الشاب على أن أفضل الأوضاع بالنسبة إلى أعماله أن ينقلها كلها إلى ألمانيا الغربية إذا ما كان قد قرر الحياة هناك، حتى يجد مخرجًا لعودته إلى مصر... أما ما سوف يتبقى منها في

إسرائيل، فلن يضيره أن يحتفظ بها لفترة حتى يجد من يشتريها منه!... أو يجد وسيلة لتصفيتها!!

✿ ✿ ✿

وكأن الخيوط تتجمع في ذهن هيلين سمحون، قالت:

«لقد كان هذا بالضبط ما قاله لي!».

ولم يعلق عزيز حتى بنظرة!

✿ ✿ ✿

وبقيت بعد ذلك نقطة أخيرة حول مجالات استثمارات رأفت في الخارج... وهنا، أنهى الموضوع برمته حين قال:

«على العموم انتو عارفين أنا باحب أشتغل في إيه».

«يمكن تحتاج لمساعدة!».

«سيبوني أختار لوحدي، إنما ما تسيبونيش لوحدي!».

ارتج الضابط الشاب أمام رأفت ارتجاجًا دفعه إلى إطلاق صيحة ندت عنه فكأنها صيحة ألم... كان يعرف عن يقين أنه في تلك اللحظة يجلس أمام أستاذ من الأساتذة الذين ساهموا ـ بأعمارهم كاملة ـ من أجل بناء وطنهم... وهكذا اندفع إلى القول في حماس وإخلاص:

«يا أخ رأفت، إنت لازم تحط في اعتبارك حاجة واحدة مهمة وأكيدة في نفس الوقت، إن بلدك فاتحة لك ذراعاتها، وولاد بلدك إنت في القلب منهم، وأي حاجة حاتطلبها حاتلقانا جنبك قبل ما تطلب!».

بدت الكلمات وكأنها لم تعبر ـ بما فيه الكفاية ـ عما أراد هذا الضابط الشاب أن يقول، فأردف:

«أنا مش محتاج أقول لك، ولا أنت محتاج مني إني أقول لك!».

وكان رأفت الآن يبتسم ابتسامة حانية وهو يواجه ذلك الجيل الجديد

من الرجال، ولا أحد يدري فيم كان يفكر هذا الثعلب الكهل في تلك اللحظات، فلقد كانت نظراته حانية إلى الحد الذي أربك الشاب... فسأله:

«فيه حاجة عاوز تقولها؟!».

«أيوه».

قالها رأفت في اقتضاب من يقطع الطريق على نوع معين من التفكير، مال نحو الشاب قائلًا:

«أنا متأكد إن فيه واحد كان معايا طول السنين دي، واحد كنت بابعت له وبيبعت لي، باكلمه ويكلمني... واحد أنا ما اعرفوش، ولا اعرف اسمه، ولا شكله إيه، ولا عمري شفته... وطول السنين دي كان نفسي فعلًا أشوفه واقعد معاه ولو خمس دقايق، وأنا متأكد وواثق إن عنده نفس الشعور!».

وجد الشاب نفسه في مأزق لم يكن ليخرج منه إلا بالصمت، وعاد رأفت إلى الحديث في تأثر واضح:

«بلغه تحياتي، وشكري... وقول له إذا ما كنش انكتب لنا نتقابل هنا... أكيد حانتقابل في حتة تانية!!».

* * *

كان صوتها مبللًا بالدموع وهي تقول لعزيز الجبالي:

«هذا منطقه، هكذا كان يتحدث، كان متدينًا، مؤمنًا بوجود الله والعالم الآخر إيمانا راسخًا!».

وكان عزيز متأثرًا مثلما كانت هيلين سمحون، مسحت دمعها وهي تردف:

«في أيامه الأخيرة، وعندما اشتد عليه المرض وأصبحت آلامه

لا تطاق، كان يبتسم إذا ما وجد الحزن مرتسمًا فوق وجهي، وكان دائمًا ما يردد: لا تحزني، إن لكل منا موعدًا، كما أن لكل منا رقمًا... فإذا ما نودي على رقمي فلسوف ألبي، لأنه لن يكون هناك سوى أن ألبي»!

اشتدت وطأة الحزن عليهما، فعاد عزيز الجبالي إلى الحديث سالكًا طريقًا ابتعد عن طريق الذكريات المؤلمة!!

* * *

حان وقت الانصراف فقال الضابط الشاب لرأفت:

«إنت عارف... في أي وقت، في أي ساعة، بالليل بالنهار، في أي مكان في الدنيا، أول ما تنادي حاتلقانا جنبك».

نهض رأفت هاتفًا:

«ممكن تبلغ تحياتي للسيد نديم هاشم والسيد حسن القطان؟!».

«ثق إن تحيتك حاتوصل!».

«أما السيد محسن ممتاز فقول له إن أنا كان نفسي أعرف منه إن كنت فلحت والا لأ؟».

اختنق صوت رأفت لبرهة قال بعدها:

«كان نفسي أعرف حايديني كام على عشرة!!».

ران الصمت، وكل منهما يقف أمام الآخر، كل منهما يعلم علم اليقين أنهما لا بد أن يفترقا، ولكن كلًّا منهما كان يتشبث بآخر اللحظات:

فجأة، امتلأت عينا رأفت الهجان بالدموع، وتقدم نحو الضابط الشاب كي يضمه إلى صدره في تأثر بالغ، راح يربت على ظهره في حنان متمتمًا:

«البركة فيكم انتم بقى... مصر أمانة في إيديكم».

ما لبث أن دفع الشاب إلى بعيد دون أن يترك كتفيه. كان الدمع الآن صريحًا في عينيه، قال:

«بلدنا حلوة... صدقوني بلدنا حلوة وتستحق!!».

* * *

ابتسم عزيز الجبالي وهو يقول لهيلين سمحون:

«في نفس ذلك اليوم، بل بعد خمس عشرة دقيقة من مغادرة رأفت الهجان لذلك الضابط الشاب، كان يصيح بك من روما قائلًا:

«سنتزوج!»... هل تذكرين؟!

وكان جسدها يهتز بالبكاء وهي تردد:

«وكيف لا أذكر كيف لا أذكر؟!».

«كنتما قد اتفقتما على الزواج من قبل».

«ولهذا أدهشتني كلمته!».

«والآن؟!».

«تبدو طبيعية للغاية».

اعتدل عزيز الجبالي في جلسته على هيئة من قد انتهى من حديثه تمامًا وهو يقول:

«وعاد رأفت إلى إسرائيل كي يرتب أموره بسرعة بدت للبعض غير طبيعية ومثيرة للريبة، كان سعيدًا سعادة بلا حدود... فها هي حياته أخيرًا، وهو يقترب من الخمسين، تصبح له، له وحده... ولقد بلغت لهفته حدًا دفعني إلى إرسال رسالة وصلته بشكل ما، أطلب إليه فيها التريث والتأني حتى لا يلفت الأنظار!».

«وهكذا جاءني خالصًا!».

«وهكذا تزوجتما!!».

الفصل الأخير

آخر الرحَلات السريّة

في اليوم التالي تحدد موعد سفر السيدة هيلين سمحون بجواز سفرها المصري، وفي رحلة أكثر تعقيدًا من تلك الرحلة التي حملتها إلى مصر، كي تصل في النهاية إلى مستشفى الدكتور «كارل جاروسلاف» في تشيكوسلوفاكيا... كانت قد طلبته تليفونيا من القاهرة قائلة إن بعض الأمور الاقتصادية اضطرتها إلى السفر، وأنها تطلب تأجيل الموعد... ولقد وافق الطبيب طالبًا إليها ألا تكثر من الطعام إن كانت في أحد بلدان الشرق... وتبادلا الضحكات والتمنيات، وانتهى الأمر!

في اليوم التالي تحدد موعد سفر السيدة هيلين سمحون على أن تطير في المساء، وهكذا، فلقد كانت مدعوة إلى فنجان من الشاي في مكتب مدير المخابرات العامة المصرية، للوداع!

* * *

دهشت هيلين لذلك الإحساس الذي انتابها عندما ركبت السيارة في الصباح إلى جوار السيد «حسين شكري» ـ هذا الضابط الذي استقبلها في المطار ولازمها طوال إقامتها في مصر ـ في طريقها إلى جهاز المخابرات العامة المصرية، لآخر مرة!

ومنذ قدمت إلى مصر وهي تقوم كل يوم بتلك الرحلة الصباحية، وتسير في نفس الشوارع وترى نفس المباني، حتى أصبح الأمر وكأنه عادة، فلا شيء فيما حولها في ذلك الصباح كان يثير فضولها، وإن كان كل شيء يثير حنانها وحنينها الغامض للعودة إلى تلك الحياة التي عاشتها، متتبعة حياة زوجها الراحل وكأنها تقوم برحلة إلى كوكب آخر.

انتابها إحساس غامر، وهي تحتضن كل المرئيات بعينيها، بالدفء، وكأنها أصبحت تنتمي إلى عشيرة تأصلت جذورها في أعماقها البعيدة... ولقد شغلها هذا الإحساس حتى وجدت نفسها تجلس في مكتب المدير، يحيط بها الرجال، نفس الرجال الذين التقت بهم في أول مرة في نفس المكتب... كانت هناك نفس الوجوه بما فيها وجه عزيز الجبالي، وربما ـ هكذا لاحظت بدهشة بالغة ـ كان كل منهم يجلس في نفس المكان!

بادرت رئيس الجهاز قائلة:

«أشكر لك دعوتك سيدي المدير».

ابتسم المدير مجاملًا:

«ألم أعدك بأن نلتقي مرة ثانية؟!».

«وها أنت قد وفيت بكل وعودك».

قالت تلك الكلمات وهي تضغط على مخارج ألفاظها في لهجة من يريد تأكيد معنى خاص، فابتسم المدير ابتسامة من وصلته الرسالة، ثم قال:

«لعل السيد عزيز قد أمدك بكل ما تريدين معرفته».

«لقد سببت له إزعاجًا كبيرًا، لكنه كان صديقًا رائعًا».

فتح الباب ودخلت عربة الشاي إلى مكتب المدير فلم يعد يسمع في

الغرفة سوى صوت عجلاتها، مضت دقائق حتى حمل كل منهم فنجانه، ثم سحبت عربة الشاي إلى الخارج، وأغلق الباب!

«فراو سمحون ... ...».

هتفت بتلقائية بدت غريبة عليها:

«ألا يناديني أحد بفراو هجان؟!».

«لكم يسعدنا أن نفعل ذلك!».

«أرجوكم!».

جاء التعبير الإنجليزي دقيقًا تمامًا فابتسم الجميع ترحيبًا به، وبدت على المدير سعادة لم يحاول أن يخفيها، ثم قال بلهجة من يعطي الضوء الأخضر:

«لعلك تعرفين الآن أن الوطن مدين بالكثير لزوجك الراحل».

«لست أدري لم تصرون على أن الوطن مدين بالكثير لواحد من أبنائه، في الوقت الذي أرى فيه أن أي إنسان مدين لوطنه بوجوده ذاته!».

في لهجة مهذبة، وقد أدرك المدير مدى الحماس الذي يعتمل في صدر تلك السيدة، قال موضحًا:

«إن لكل عمل جزاء».

أدركت هيلين أنها تجاوزت في حماسها، فتمتمت:

«سيدي، إنكم كرماء حقًا، أنتم طيبون إلى حد يثير البكاء!».

ضحك المدير ضحكة خفيفة:

«ليس إلى هذا الحد، ولا تنسي أن زوجك الراحل، كما سبق أن قلت لك، كان بطلًا من نوع فريد وفذ!!».

في صوت خافت، لكنه واضح النبرات، أوضحت موقفها:

«لقد ترك لي رأفت كل ما أحتاج إليه، وكل ما يحتاج إليه الصغيران».

«هذا قول يرتفع إلى مستوى شخصية الراحل العزيز».

كان وقع الجملة عليها مباشرًا فحبست أنفاسها رهبة، خالت في لحظة أن هواء الغرفة مشحونًا بما لا قبل لها به... كانت موقنة الآن من أن المدير سوف يدخل في الموضوع مباشرة، فانتظرت حتى رشف الرجل من فنجانه رشفة، رفع بعدها رأسه إليها قائلًا:

«فراو هجان... لعلك لست في حاجة إلى القول بأننا على استعداد لمناقشة أية أفكار قد تخطر ببالك أو تعن لك».

اعتدلت باسمة فلقد صدق ظنها، قالت على الفور:

«أنا لا أستطيع أن أنكر يا سيدي أن ثمة أفكارًا قد راودتني بالفعل حول مستقبل الصغيرين... ولكن، يبدو أن صديقي هر جبالي استطاع بدقته المذهلة أن ينقل لي أحلام زوجي الراحل وربما أفكاره أيضًا!».

تبادل المدير نظرة مع عزيز قال بعدها:

«هل لي أن أطلب ـ حتى تكون الأمور محددة تمامًا ـ مزيدًا من الإيضاح؟!».

«هذا من حقك... ولكي أختصر الأمر أقول إن رأفت قد اختار منذ سنوات، هو الذي اختار... وبالتأكيد فلقد كان في اختياره، الذي أثق به كل الثقة، مصلحة الصغيرين ومصلحتي في المقام الأول من تفكيره!».

قالت هذا واحتبست الكلمات في حلقها، لكنها عـادت إلى الحديث:

«هكذا كان دائمًا... هكذا كان دائمًا!».

وعاد الصمت يلف الغرفة من جديد... كانت هيلين قد وضعت النقاط فوق الحروف فيما يختص بحيثيات قرارها الذي لم تكن قد أعلنته بعد، لذلك، فإن المدير أو أحد معاونيه لم يفه بكلمة، كان أيسر السبل لمعرفة القرار هو الانتظار حتى تعلن قرارها... ولقد حدث، قالت:

«إن قراري هو نفسه اختيار زوجي الراحل!».

* * *

نحن هنا لا نستطيع إلا التوقف متأملين هذا المستوى الرفيع من الحوار الذي بدا شفريًّا، إن صحت الكلمة... ولذلك، فلم يكن مستغربًا أن يبدو على وجه هيلين الهجان، ذلك الانفعال الحاد الذي بعث بالحمرة إلى وجهها، وبالدمع إلى عينيها فبدتا وكأنهما زمردتان من نوع نادر... ورغم أن القول بأن مدير جهاز المخابرات المصري قد تأثر أو انفعل أو ما إلى ذلك من الأمور قد يؤخذ علينا؛ فإن اليقين أن الرجل كان بالفعل متأثرًا، فهو في النهاية إنسان... على أنه قال في صوت خفيض:

«أليست لك أي مطالب؟!».

«نعم... إن لي طلبًا واحدًا!».

هنا اعتدل الجميع ملتفتين نحوها بالاهتمام كله... أما هي، فلقد التفتت إلى عزيز الجبالي متساءلة:

«ألم يطلب رأفت في آخر لقاء له أن يدفن في مصر إن لم يستطع أن يعود إليها حيًّا؟».

وهبت على المكان عاصفة من الصمت الكثيف لفته تمامًا!

* * *

ليس هنا شك في أن قصة إحضار جثمان «رأفت الهجان» إلى القاهرة

قصة مثيرة بكل المعاني... وكأن هذا الرجل يأبى إلا أن يكون مثيرًا للأحداث حيًّا وميتًا!

لم يكن الأمر سهلًا، بل كان معقدًا تحيطه المخاطر وتهدده الأزمات، ولقد استلزم الأمر مناقشات وترتيبات واستخراج أوراق وموافقات كان لا بد أن تتم جميعها في سرية مطلقة!

وعلى كل... فلقد سافرت «هيلين الهجان» إلى تشيكوسلوفاكيا في مساء نفس اليوم وكانت راضية، كما أنها كانت سعيدة... ودّعت عزيز الجبالي في حرارة وكررت شكرها له ودعته إلى زيارتها في ألمانيا لو أنه استطاع، فسألها عزيز باسمًا في خبث:

«لعلك فخورة بزوجك الراحل؟!».

قالت:

«لقد كنت فخورة به حتى قبل أن أسمع ما سمعت وأعرف ما عرفت»!

صمتت لثوان ثم أردفت وكأنها تحدث نفسها:

«ليس من حقنا أن نحزن لأننا فقدناه... ولكن من حقه أن نفرح لأننا عرفناه!».

وكان هذا آخر ما قالته هيلين الهجان قبل أن تصعد إلى الطائرة في طريقها إلى تشيكوسلوفاكيا!

* * *

في مصحة الدكتور كارل جاروسلاف أمضت هيلين أيام علاجها الطبيعي ثم عادت إلى ألمانيا... وكان الرجال عاكفين ـ بطبيعة الحال ـ على وضع تلك الخطة التي تجعل من استخراج جثمان رأفت ـ بعد موافقة السيدة زوجته الرسمية ـ شيئًا كأنه لم يكن ولم يحدث ... وفي الحقيقة، لا بد لنا أن نشهد للسيدة هيلين بالتفهم الكامل لكل ما طلب

إليها... وكم من مآزق وقع فيها الرجال! وكم من مرات كاد الأمر يثير أزمات!...

ولكن...

ولكننا إن كنا نستطيع أن نلخص قصة رأفت الهجان بكاملها في أن شابًّا مصريًّا زُرع في إسرائيل، وعاش فيها عشرين عامًا ورأسه فوق كفه في كل لحظة، كي يمد وطنه بما يحتاج إليه من معلومات، فنجح، وأدى مهمته، واعتزل، وتزوج، ثم مات دون أن يُكشف أمره... فإننا نستطيع تلخيص عملية إحضار جثمان هذا الفقيد في أن الرجال استطاعوا بعد عدد من المغامرات المثيرة أن ينفذوا للفقيد وصيته وأن يحملوه إلى القاهرة!

ولقد وصل الجثمان بالفعل، لكن مشهدًا أخيرًا كان في انتظاره!

فلقد اتخذ الرجال قرارًا بوضع ترتيبات خاصة، لجنازة تحمل الجثمان عبر أكبر ميادين القاهرة، إلى حيث مثواه الأخير في مدافن العائلة!

* * *

كان هذا يومًا عاديًّا من أيام الربيع...

وكان ميدان التحرير ـ الميدان الرئيسي في العاصمة المصرية ـ يشهد تلك الحركة المزدحمة التي عادة ما يشهدها في ذلك الوقت من اليوم وقد قارب النهار على الانتصاف... في طرف من أطراف الميدان، يقوم جامع شهير اسمه جامع عمر مكرم، تخرج منه الجنازات في العادة كي تقطع بضع مئات من الأمتار عابرة ميدان سيمون بوليفار الصغير إلى شارع جانبي، يسير فيه المشيعون خلف جثمان الفقيد، حيث يوضع في سيارة تسرع به إلى المقابر البعيدة، ويعود المشيعون من حيث أتوا!

في أغلب الأيام هناك سرادق أو سرادقان وأحيانًا ثلاثة... وقد

وضعت أمام كل سرادق لافتة كتب عليها اسم الفقيد حتى يجد المعزون والمشيعون طريقهم الصحيح إلى من يريدون السير في جنازته.

ولقد تعود رجال المرور أن يحولوا مرور السيارات من ذلك الشارع الجانبي الذي تنتهي فيه الجنازة، حتى لا يرتبك مرور السيارات مع مرور الجنازة التي تسير عادة ببطء شديد...

لكن الظاهرة التي لفتت أنظار الناسِ في ذلك اليوم هي أن رجال المرور انتشروا في الناحية المقابلة، وبدلاً من تنظيم المرور في ميدان سيمون بوليفار، كان اتجاههم في ذلك النهار نحو ميدان التحرير، ثم تنبه البعض إلى أنهم انتشروا في الميدان نفسه، كما تنبهوا إلى وجود سيارات شرطة وسيارات نجدة وضباط كانوا يلقون أوامرهم ويتلقونها عبر أجهزة لاسلكي يدوية كانت حديثة العهد بالقاهرة في تلك الأيام... وأدرك الناس على الفور أن هناك جنازة لفقيد هام سوف تسير عبر الميدان الكبير إلى شارع طلعت حرب القريب.

ولقد كان السرادق الوحيد الذي أقيم في ذلك اليوم كبيرًا وهائلًا... رصت فيه المقاعد لمئات الأشخاص... لكن اللافت للنظر أن السرادق ـ وحتى أذان الظهر عندما أقيمت صلاة الجنازة على جثمان الفقيد داخل الجامع ـ كان خاليًا إلا من بضعة أشخاص... لم يكن هناك مشيعون، كان عدد الذين شغلوا هذا السرادق الهائل الاتساع لا يتعدى أصابع اليدين... وكان من بينهم عزيز الجبالي!

عند مدخل السرادق علقت لافتة تقول: فقيد الأمة، الشهيد: رأفت الهجان!

في مدخل السرادق، عند تلك المقاعد التي يجلس فيها أهل الفقيد، لم يكن هناك سوى خمسة أشخاص... أربعة رجال تجاوزوا سن الشباب، ومعهم شاب بدا وكأن الحزن يعتصره اعتصارًا، فلقد كانت عيناه حمراوين مبللتين بالدموع!

كان هذا الشاب هو «طارق محمد رفيق»، ابن شريفة شقيقة رأفت!

أما الأربعة الآخرون، فلقد كانوا: اللواء ـ على المعاش! ـ محمد رفيق زوج شريفة، وكان رفيق الآن يناهز الستين من عمره وقد اشتعل رأسه بالشيب، وكان، وهو في وقفته خارج السرادق، يلقي ببصره بين الحين والحين، وفي عينيه نظرة حزن مشوبة بإشفاق شديد، نحو سيارة متوسطة الحجم مصرية الصنع، تقف في مكان خاص... في داخل تلك السيارة، جلست سيدة قد اتشحت بالسواد، تمسك في يدها بمنديل لا تكف عن تجفيف دمعها المنهمر به... وكانت هذه هي: شريفة الهجان!

أما الرجال الثلاثة الآخرون، فلقد جلسوا في المدخل متجاورين مطرقين، قد يتبادل أحدهم مع أخيه نظرة، لكنهم ـ أبدًا ـ لم يتبادلوا الحوار... وكان هؤلاء هم إخوة رأفت الثلاثة!

كان أمر هذا الفقيد غريبًا!

فمع كل هذه الأهمية وهذا الاهتمام الذي ملأ أكبر ميادين القاهرة، فإن نعيًا في صحف الصباح لم يكنٍ قد نشر عن وفاة هذا الشهيد رأفت الهجان... لقد كان نعي كهذا كفيلًا بأن يجعل المشيعين من معارف العائلة وأقاربها وأنسبائها يتقاطرون على السرادق بالمئات...

ولقد كان هناك ما لفت أنظار بعض المارة... فبالرغم من قلة عدد المعزين في السرادق أو انعدامهم بمعنى أصح، كان هناك عدد غير مألوف من «كرونات» الورود تحتل مكانها أمام السرادق وبجواره... وعندما استبد الفضول بشابين كانا يمران، مال أحدهما على تلك الأشرطة الحريرية التي تعلق على باقات الورود، ثم همس في أذن صاحبه أن إحدى هذه الباقات تحمل اسم «رئيس الجمهورية»!

عندما انتهت صلاة الظهر في جامع عمر مكرم وسُمع صوت الإمام

يدعو المصلين من خلفه إلى أن يؤدوا صلاة الجنازة، في نفس تلك اللحظة، توقفت أمام السرادق سيارة سوداء تحمل أرقامًا خضراء بما ينبئ أنها تتبع رئاسة الجمهورية، وهبط منها مندوب عن الرئيس، خف جميع من في السرادق لاستقباله!

بعد لحظات، ظهر في باب جامع عمر مكرم نعش ملفوف بالعلم المصري، يحمله أربعة رجال أشداء، وسرعان ما اتخذت الجنازة طريقها دون إبطاء!

أسرع عدد من الشبان ـ لا أحد يعرف من أين ظهروا ـ كي يحمل كل اثنين منهم باقة من باقات الورد، وكان الشريط الحريري الملون على كل باقة ينعي «الشهيد رأفت الهجان»!... وسرعان ما اصطف هؤلاء الشبان في صفين سبقا الجثمان وفي نظام بدا للناس غريبًا!

ولقد... ولقد كان المشهد لافتًا للنظر بحق!

طابوران من حاملي الورود، يتقدمان الجثمان الذي يحمله أربعة من الرجال الذين بدوا كالأعمدة الخرسانية في ثبات خطواتهم... ثم عدد لا يزيد على العشرة من المشيعين!!!

توقف المرور في ميدان التحرير فور ظهور طابوري الورود!

وكان لا بد للناس من أن يتوقفوا على الجانبين لمشاهدة تلك الجنازة الغريبة، وكان لا بد لهم من أن يتساءلوا!... ولقد تساءلوا، لكن أحدًا منهم لم يحظ بإجابة عن سؤاله!

ولأنه لم تكن هناك موسيقى تسبق الجثمان، فلقد ران على ميدان التحرير صمت غريب ومثير، فتوقف الذين لم ينتبهوا إلى الجنازة في البداية... توقف الناس، كل الناس... كي يشاهدوا هذا الموكب الذي ـ لسبب غامض ـ جذب اهتمامهم ومس شيئًا في وجدانهم!

عندما كان الموكب يعبر تلك الناصية الموصلة مباشرة إلى الميدان...
كان ثمة فلاح يقف على جانب الطريق مفتوح العينين على اتساعهما... وما لبث أن سأل من كان يقف إلى جواره:

«هو مين يا بني اللي مات؟!».

كان الواقف إلى جواره شابًا بدا وكأن الحيرة أمسكت بتلابيبه، فالتفت نحوه قائلًا في صوت خافت:

«والله يا عم مانا عارف... واحد شهيد اسمه رأفت الهجان!».

«شهيد؟!».

«أهم كاتبين كده!».

لبث الفلاح ساكنًا لثوان وكأنه يقلب الأمر في رأسه... ثم فجأة، رفع طرف جلبابه حتى لا يعيق حركة ساقيه المهرولتين وهو يقول:

«يا ولداه... شهيد ومش لاقي حد يمشي وراك؟!».

وسرعان ما انضم إلى موكب المشيعين الصغير!

وكأن الشاب الذي كان يقف إلى جواره قد أحس بالخجل، فلقد التفت نحو جاره الذي هرب من نظراته مهرولًا لاحقًا بالفلاح، فإذا بالشباب يتبعه في حركة سريعة جعلت من يقف على الطوار ينجذب إليه، وشاب بعد آخر، ورجل بعد رجل، و... و...

ولا أحد يدري ما الذي حدث تمامًا.

فكلما خطا الموكب خطوة في الطريق، كان عدد المشيعين يتزايد، والصمت والسكون يزدادان عمقًا في الميدان الذي توقفت فيه الحركة تمامًا، وزحف الأقدام من خلف الجثمان يصنع نوعًا من الموسيقى الحزينة، والذاهبون يتوقفون، والعابرون يتسمرون، والذين انتهت أعمالهم، ومن هم في طريقهم إلى إنهاء أعمالهم، والباعة، والمتسكعون

و... و... و... ثمة شيء غامض يشد الناس إلى السير في الموكب، وكأن كلًا منهم قد تلقى دعوة خفية للسير، وراح الموكب يكبر ويكبر، وإذا الميدان قد امتلأ بمن كانوا على جانبيه، والكل يشيع رأفت الهجان!

مع الخطوات الأولى لحاملي الورود في شارع طلعت حرب، بدا وكأن مصر كلها تسير خلف جثمان رأفت المدثر بالعلم المصري... ألوف... ألوف من البشر كانوا يتزاحمون ويلتصقون وتتصادم أكتافهم، منهم من يقرأ قرآنًا، ومنهم من يتلو دعاء، ومنهم من حملته الأفكار إلى بعيد، ومنهم من لم يكن يدري لمَ هو هنا... كان الزحام شديدًا في شارع طلعت حرب، والناس ملتصقو الأكتاف، عندما مال أحد المشيعين على جاره متسائلًا على استحياء:

«مين رأفت الهجان؟!!».

صدر للمؤلف

١ ـ «الحفّار» رواية من ملفات المخابرات المصرية.
٢ ـ «زقاق السيد البلطي» رواية.
٣ ـ «رأفت الهجان ـ كنت جاسوسًا في إسرائيل» رواية من ملفات المخابرات المصرية.
٤ ـ «البحار مندي ـ وقصص من البحر» مجموعة قصص.
٥ ـ «الكذّاب» رواية.
٦ ـ «دموع في عيون وقحة» رواية من ملفات المخابرات المصرية.
٧ ـ «صور من مصر» مجموعة صور أدبية.
٨ ـ «قصة زواج عصري» رواية.
٩ ـ «المهاجرون» رواية.
١٠ ـ «سامية فهمي» رواية من ملفات المخابرات المصرية.
١١ ـ «حب للبيع» مجموعة قصص.
١٢ ـ «الصعود إلى الهاوية» رواية من ملفات المخابرات المصرية.
١٣ ـ كتاب ليلى مراد؟؟